

عالم الفكر

المجلد التاسع - العدد الاول - ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٨

• جغرافية
المدن عن
العرب

• الطب
والاطباء

• أبحاث المستشرقين
في تاريخ العلوم عند العرب

• تصنيف العلوم
بين الفارابي وابن خلدون



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

Bibliotheca Alexandrina

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * أبريل - مايو - يونيو ١٩٧٨
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص ١٩٣

المحتويات

العلوم عند العرب

٣ بقلم التحرير	التمهيد
١٣ الدكتور عبد الرحمن بدوي	ابحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب
٤٣ الدكتور جلال محمد موسى	الطب والأطباء
٩٧ الدكتور محمد علي أبو ريان	تصنيف العلوم بين اللاتينيين وابن خلدون
١٢٣ الدكتور عبد المال عبد التعم الشامي	جغرافية المدن عند العرب

آفاق المعرفة

١٦٩ اللواء مهندس سمح أحمد شعبان	ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء
-----	-----------------------------------	-------------------------------

أدباء وفنانون

٢٤٧ بقلم : دوبرت 1 ، كودي جان	الادب والسياسة
 ترجمة : صدقي خطاب	مناقشة جديدة للقضية نورا باوند

عرض الكتب

٢٦٧ عرض وتحليل الدكتور : جلال الدين الفزاوي	اخفاق الثورة الجنسية
٢٧٥ عرض وتحليل الاستاذ : هاشم النحاس	جان دينود

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

العلوم عند العرب

تمهيد

في مقال من « العلم والمجتمع في الشرق والغرب » يذكر لنا الاستاذ جوزيف نيدهام الذي يعتبر من كبار النقاد عن الحضارة الصينية انه حين بدأ يفكر لأول مرة في عام ١٩٣٨ في تأليف مرجع علمي موضوعي ومنهجي عن تاريخ العلم والتفكير العلمي والتكنولوجيا في منطقة الثقافة الصينية شعر بأنه كان يتعين عليه ان يواجه ما كان يعتبره حينذاك إحدى المشكلات الجوهرية ، وهي البحث عن السبب في ان « العلم الحديث » بكل مقوماته واصوله ومناهجه وطرائقه لم يظهر في الحضارة الصينية او الحضارة الهندية ، وانما ارتبط العلم الحديث بالحضارة الغربية أو الأوروبية وحدها ، بحيث يعتبر الآن أحد مقوماتها الأساسية . ولقد شغلت هذه المشكلة ذهن نيدهام لعدة سنوات ، وخلال تلك الفترة بدأت مشكلة أخرى تسيطر على تفكيره وهي ماذا كانت حضارة الصين فيما بين القرنين الأول والآخر القرن الخامس عشر أكثر قدرة من الحضارة الغربية في تطبيق المعرفة الإنسانية على الحاجات العملية ؟ وتوصل من ذلك الى أن الإجابة

الصحيحة عن مثل هذه التساؤلات تكمن في الإنبية العقلية والاقتصادية والاجتماعية للحضارات المختلفة ، وأنه ليس ثمة ما يدل على صحة ما يذهب اليه بعض الكتاب من محاولة رد هذه الامور الى اختلاف الظروف المناخية مثلا ، والزعم بأن المناخ تأثيرا حاسما في اتجاه التفكير الى العلم الدقيق او الى نواح اخرى غيبية او غير ذلك .

ولا يعني هذا ان جوزيف نيدهام كان ينكر اهمية الدور الذي تلعبه الظروف الطبيعية والجغرافية والمناخية في تشكيل الحضارات المختلفة وإبراز بعض السمات والملامح التي تميزها بعضها عن بعض ، ولكنه لم يكن يذهب في ذلك الى الحد الذي كان يذهب اليه انصار مدرسة الحتمية الجغرافية في القرن التاسع عشر الذين كانوا يرون ان تلك الظروف والاضاع الجغرافية هي العامل الرئيسي او حتى العامل الوحيد في تحديد مسار تلك الحضارات ، بل ان نيدهام يعترف بأنه يشك كل الشك في مدى فعالية واهمية ما يعرف باسم العوامل السل الانثربولوجية الفيزيقية وخصائص السلالية في تطور الحضارات ، او حتى في تمييز حضارة عن اخرى بميزات خاصة ، وأنه لا يمكن على هذا الاساس الزعم بأن العلم الحديث ظهر في اوروبا دون غيرها نتيجة لانفراد الشعوب القريبة بميزات سلالية او عرقية لا تتوفر في الشعوب الصينية او الهندية مثلا .

وعلى حد قوله في هذا الصدد : « فان خبرتي وجاربي الخاصة خلال السنوات الثلاثين الماضية ، واتصالني المباشرة والشخصية والقوية بعدد كبير من الزعماء الصينيين كانت كلها تؤكد ذلك الشك والارتباط . فخصائص التفكير واحدة لدى الشرقيين والغربيين ، ولذا فاني اميل الى الاعتقاد بأن الاختلافات التاريخية والثقافية الواسعة بين الثقافات لا يمكن تفسيرها الا عن طريق الدراسات والبحوث الاجتماعية . . . وانني كلما تعمقت في دراساتي لتاريخ انجازات العلم الصيني والتكنولوجيا الصينية قبل ان تصب في بحر العلم الحديث ، وتوغلت في بحث تفاصيل هذا الموضوع ازدادت اقتناعا بأن الكشف العميقة التي تمت في اوروبا انما كانت ترتبط في المحل الاول بالظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تسود هناك ابان عصر النهضة ، وأنه لا يمكن ان نفسرها بالاشارة الى اى عجز او قصور سواء في العقل الصيني او في التقاليد الفكرية الفلسفية الصينية » .

هذه النظرة العميقة الى الامور تصدق الى حد كبير على ما احرزه العرب والمسلمون من تقدم علمي وفكري خلال العصور الوسطى ، في حين كانت اوروبا تمر بفترة ركود وخمول وتخلف مثلما تصدق على تخلف العالم العربي والإسلامي في الوقت الحالي ومنذ عصر النهضة عن الاسهام في التقدم العلمي والتكنولوجي اسهاما يتلأم مع ذلك الحاضر : ووقوف ارب المسلمين بعمامة من هذا التقدم موقفا سلبيا يدعو الى التساؤل والبحث عن الاسباب ، وعما اذا كان ذلك التخلف

راجعا الى الظروف الجغرافية او القوميات السلافية العرقية او الانثروبولوجية الفيزيكية كما يزعم بعض الكتاب الغربيين او انها اسباب تتصل بالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كما يقول جوزيف نيدهام .



ولقد كتب الشيء الكثير عن تقدم العلوم عند العرب والمسلمين في العصور الوسطى وعن اسهام العرب والمسلمين في كل مجالات العلم والفلسفة والفكر ، وعن استفادة اوروبا فيما بعد من ازدهار الحركة العلمية والفكرية في العالم الاسلامي ، ولذا فليس ثمة ما يدعو الى العيدة هنا الى هذا الموضوع (وان كانت بعض المقالات التي يتضمنها هذا العدد لا تخلو من بعض الاشارة الصريحة الى ذلك ولقد اسهم عدد كبير من المستشرقين بالذات في ابراز فضل العرب والمسلمين على الحضارة الاوروبية وعلى التقدم العلمي الحديث هناك ، ومقال الدكتور عبدالرحمن بدوي يلقي كثيرا من الضوء على هذه الناحية) ، ولكن لا تزال هناك مع ذلك جوانب كثيرة تتعلق بذلك التراث العلمي العربي والاسلامي ، وتحتاج الى مزيد من الدراسة والتأمل والتفكير والتحليل خاصة وان ثمة في الوقت الحالي اهتماما بالغاب بدراسة هذا التراث ، كما انه يبدل كثير من الجهود في مختلف انحاء العالم العربي والاسلامي لاجزاء ذلك التراث العلمي ، وكثيرا ما تتكرر هذه الجهود بغير تنسيق فيما بينها مما يؤدي الى ضياع كثير من الوقت والمال في آخر الامر .

وليس من شك في ان الاهتمام بالتراث العلمي العربي والاسلامي يجب ان يقابل بالترحيب والتشجيع بعد ان طال افغاله والانصراف منه وبعد ان جرى العرب والمسلمون وراء الغرب وعلومه وفلسفاته وآدابه وفتونه ، وتقبلوا كل ما يأتي من الغرب بغير مناقشة ، فضلا عن ان يعملوا على الاسهام في مجالات العلوم والثقافة الحديثة . وقد ادى ذلك الى قيام هوة هائلة وواسعة وعميقة بين حاضر المسلمين والعرب وماضيهم من ناحية ، ثم - وهذا هو الاهم والاكثر خطرا - اثارة الشك في نفوس المسلمين والعرب في قدرتهم على الخلق والابداع والابتكار ، وبالتالي التسود بالمعجز عن الاسهام في مجالات العلم الحديث ، ورسوخ الفكرة من ان كل ما امكن العرب والمسلمين حتى في الماضي ان يحققوه ، انما كان من قبيل النقل والمحاكاة والتقليد . وهذه فكرة روج لها عدد من المستشرقين والمستغفلين بدراسة التراث الاسلامي ، ووجدت لها صدى عند كثيرين من العرب والمسلمين الذين تقبلوا التبعية العلمية مثلما يتقبلون التبعية السياسية والاقتصادية للغرب .

وعلى الرغم من كل ما يقال من ان العلم لا وطن له ، فالشاهد ان كل دولة من الدول الحديثة تسهم بنصيبها في العلم وفي التقدم العلمي وتفخر بما اسهمت به . وليس هناك على هذا الاساس ما يمنع من ان يحاول المسلمون والعرب ان يكون لهم نصيبهم واسهامهم هم ايضا في هذا التقدم العلمي .

وكما ان الحضارة الغربية الحديثة ترد اصولها الى حضارة اليونان الاقدمين وانلحت بذلك في ان تصل الحاضر بالماضي فان هناك ما يستوجب الان ان يعمل المسلمون والعرب على العودة الى الماضي الاسلامي والعربي العريق ليس فقط بقصد احياؤه في حد ذاته - رغم اهمية هذا - او التنفسي بما حققه المسلمون من انجازات في مختلف ميادين المعرفة والفخر بهذه الانجازات بل وايضا - وهذا هو الاهم - من اجل التعرف على الاسباب التي ادت بمؤلاة الاسلاف الى ان يحققوا ذلك النجاح في تلك الميادين ، وماذا يمكن ان نفيده من هذا التراث في وضع اسس سليمة لنهضة علمية جديدة يكون لها طابعها الخاص المميز . وهذا لا يتعارض بطبيعة الحال مع التسليم بوحدة المنهج العلمي الذي لا يخضع لاختلاف الجنس او السلالة او اللغة او الدين .

وعلى الرغم ايضا مما يقوله بعض المستشرقين ويردده من ورائهم بعض الكتاب المسلمين والعرب من ان هؤلاء الاسلاف لم يفعلوا شيئا سوى نقل التراث الى اللغة العربية . مع اضافة بعض الشروح والتعليقات الى ان جاءت الفرصة لنهضة اوروبا واسترادادها لتراثها القديم من ايدي الشراح العرب ، وان دور العرب على هذا الاساس لم يتعد المحافظة على التراث اليوناني ثم رد الامانة الى اهلها بعد ان زالت الظروف والاضاع التي كانت تمنع اوروبا من مواصلة السير في الطريق الذي ارتاده الاغريق ، على الرغم من هذه الزاعم والاقوال فالذي لا شك فيه هو انه كان للعرب والمسلمين اسهاماتهم الاصيلية في مختلف فروع العلم ، وان كانوا استمدوا الكثير ليس فقط من الفكر اليوناني بل وايضا من الفكر الشرقي القديم وبخاصة من الهند .

وهذا معناه انه كانت هناك روافد كثيرة تصب في الثقافة العربية والاسلامية . وليس في هذا ما يضير العرب والمسلمين او يقلل من شأنهم . ذلك ان الخاصية الاساسية التي تميز العلم هي خاصية (التراكم) التي من شأنها ان يفيده العلماء في اي عصر مما حققه السابقون عليهم بصرف النظر عن عوامل الزمان والمكان ثم يضيفون الى ما حققه السابقون ، وهكذا ، بحيث يصبح كل انجاز في مجال العلم بمثابة اضافة جديدة الى التراث العلمي الانساني المشترك .



والمعروف ان تأثير ما يسمى بعض المستشرقين بالعلم الاسلامي Islamic Science على الغرب بدأ بفتوحات العرب للجزء الغربي من حوض البحر الابيض المتوسط على ما يقول مارتن بلسنر Martin Plessner في مقال له في كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam (ص ٤٢٥) وقد ترك وجود العرب في اسبانيا لخلل ثمانية قرون علامات قوية ثابتة وراسخة وعميقة على كثير من نواحي التفكير والفن التي تعدت الاندلس ذاتها . بل ان خروج العرب من

أوروبا وانحسار دولة الاسلام عن تلك الربوع وزوال الحكم الاسلامي تماما لم تقطع العلاقات الثقافية مع أوروبا ، وأن كان الأوروبيون بدأوا يتخلصون بالتدريج من ذلك التأثير ويقيمون حضارتهم وتفكيرهم وعلومهم الخاصة المستقلة التي تنبع - كما ذكرنا - من التفكير اليوناني القديم ، الى أن أفلحوا في التحرر تماما من تلك التأثيرات الاسلامية .

واضح من ذلك أن تأثير العلوم الاسلامية في أوروبا لم يكن وليد الحروب الصليبية بل كان أقوم من ذلك بكثير ، وأن ذلك التأثير المبكر حدث في غرب البحر المتوسط وليس في شرقه ، ما دامت الاندلس قد خضعت للفتح الاسلامي قبل الحروب الصليبية بمدة قرون ، ولكن هذا الموضوع بعيد عما نحن بصدده هنا ولا داعي للخوض فيه .

ومن الواضح أيضا أن النهضة العلمية الاسلامية استمدت عناصرها من عدة مصادر قد يكون من أهمها التأثير الهندي الى جانب التأثير اليوناني الذي يحب الكثيرون من المستشرقين وعلماء تاريخ العلوم عند العرب أن يؤكدوه ، وقد جاء هذا التأثير اليوناني من طريق المسيحيين المتأثرين بالثقافة الهلينية ومن طريق الفرس أيضا .

والواقع أن بعض من المشتغلين بالتاريخ للعلوم عند العرب يذهبون الى إبراز أهمية الفكر الهندي بالذات أكثر من الفكر اليوناني ، على الأقل في بعض مجالات العلم مثل الفلك ، فنجد E. B. Havel مثلا يقول أن المسلمين يدينون للهنود أولا وليس للأغريق بكثير جدا من الوان الثقافة التي وصلتهم في بداية عهدهم . وهذا رأي يجد ما يعزوه الى حد كبير في أن أولى الكتابات في مجالات الفلك والرياضيات والطب التي حملت الى بغداد في أيام المنصور كانت من أصول هندية ، ثم غلب هذا الميل البرامكة الذين اهتموا اهتماما كبيرا بالاستعانة بأطباء الهنود وحكامهم كما شجعوا نقل التراث الهندي الضخم الى اللغة العربية .

والهم هنا هو أن العرب كانوا على دراية بما حققته الثقافات الاخرى وأن نهضتهم العلمية كانت نتاجا لاسهام مفكرين وعلماء من مختلف القوميات والاديان كالبرانيين والفرس والمسيحيين والصابئة والنساطرة والبرانيين والأتراك وغيرهم ، وقد أدرك ابن خلدون هذه الحقيقة وعبر عنها حين أشار في مقدمته الى أن العرب الحقيقيين لم يلعبوا إلا دورا صغيرا نسبيا في تطور وتقدم العلم الاسلامي ، وأن معظم الفضل في ذلك يجب أن يرد الى الفرس والمسيحيين واليهود ، وأن كانت اللغة العربية هي اللغة الرئيسية للكتابة والتأليف العلمي .

لكذلك انتبه المستشرقون الى هذه الحقيقة بحيث نجد أن بليسنر يلاحظ أن « العلم الاسلامي » لم يكن بالضرورة في أيدي المسلمين وحدهم حتى بعد أن تم تعريبه ، بل ظلت هناك اسهامات كثيرة وهامة تمثلت في كتابات العلماء المسيحيين واليهود ، ولم تكن هذه الكتابات

تختلف في شيء وبخاصة في مجالات الطب - عن كتابات المسلمين ، وخير مثل ذلك هو كتابات ابن ميمون وقد يمكن ان يعتبر ذلك دليلا على مدى اتساع افق العرب والمسلمين الذين تقبلوا كل الثقافات بصرف النظر عن مصدرها او عن يحملها ، فقد كانت لتربة خصبة وممهدة لمناقشة الآراء الكثيرة المتضاربة ، على الرغم من بعض ما يمتور بعض تلك الآراء من غلو وتطرف وبعد عن الحياة والفكر التقليديين ، بل ان بعض الآراء الفلسفية بالذات كانت لا تتفق تماما مع تعاليم الاسلام ومع ذلك وجدت من يتقبلها ويدافع عنها ، كما وجدت من يتصدى لها بالحق والبرهان .

وهذا موقف يختلف اختلافا كبيرا مما حدث في عصر النهضة مثلا في أوروبا حين وقفت الكنيسة موقف المتزمت من العلوم الإسلامية التي نقلت إلى اللاتينية ، وكانت تحرم كتابات ابن رشد بالذات وتعتبر مذهبه مثالا ونموذجا للإلحاد ، لدرجة ان مجتمع لوتران الكنسي استنزل اللعنات على ابن رشد واتباعه ، وليس ادل على هذا انزلت الفكري والعنت وضيق الافق من ان الكنيسة احرقت القس جوردانو يرونو في احد الميادين العامة في روما لاعتناقه مذهب الجواهر الفرد الذي كان يعتنقه بعض علماء الكلام من المعتزلة والاشاعرة ، وليس معنى هذا ان العلماء المسلمين لم يكونوا يجدون عنتا من المسلمين أنفسهم . فنحن نعرف مثلا كيف ان الكثيرين من اهل السنة كانوا يرفضون العلوم (الحديثة) ، كما نعرف ما صادفه الكندي بالذات من عنت أيام المتوكل ، وذلك نظرا لخوف بعض اهل السنة من ان تؤدي تلك العلوم إلى الكفر والإلحاد .

ولكن لا بد ان نلاحظ من الناحية الأخرى ان ترجمة كتب المسلمين إلى العبرية واللاتينية دليل على قوة العلاقات بين العلماء من مختلف الأديان ، وعلى الصبغة العالمية أو الطابع الدولي الذي كان يتميز به العلم الإسلامي .

ومما له دلالة في هذا المجال ان كثيرا من أسماء هؤلاء العلماء تعدى النطاق المحلي واكتسب شهرة عالمية ، كما ان البعض الآخر حقق تثيرا من النجاح والشهرة والتميز والتفوق في أكثر من فرع واحد من فروع العلم كما يظهر ذلك من مؤلفاتهم ، بل ان بعضهم كان يكتب في العلوم الطبيعية والإنسانية على السواء ، ولعل من أهم هؤلاء العلماء عالم الطبيعات أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥) الذي ظلت شهرته ذائعة في أوروبا ذاتها حتى القرن السابع عشر ، وربما كان ذلك نتيجة لجراته الفكرية وتمرده على التقاليد والأوضاع والنظريات القديمة ، وتحديه لكثير من العلماء ، وانتقاداته العنيفة لكثير من الآراء الراسخة التي كان يسلم بها رجال الدين والفكر الإسلامي ، بحيث وجهت إليه تهمة الإلحاد والزندقة ، وقد نالت مؤلفاته في الطب والكيمياء كثيرا من الشهرة نظرا للأسلوب العلمي الدقيق الذي كان يحرص على تطبيقه واتباعه وبكسبي

لتبيين مدى اتساع شهرته وقوة تأثيره ورسوخ مكانته العلمية أن تأثر به أبو ريعان البيروني الذي يعتبر في نظر الكثيرين أعظم علماء الإسلام في العصور الوسطى ، ومع ذلك فقد كان البيروني يعتبر نفسه من أتباع الرازي وأحد تلاميذه الروحيين على الرغم من أنه تفوق عليه في كثير من مجالات العلم واكتسب شهرة عالمية أكبر من تلك التي حظي بها ، فضلاً عن اتساع أفاقه وتنوع مجالات اهتماماته سواء في العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية أو اللغويات ، وقيامه بكثير من الترجمات من اللغات الهندية إلى العربية .

ويذكر لنا البيروني نفسه في كتابه « لألألباقية عن القرون الخالية » أنه ظل يبحث عن كتاب « سفر الأسرار » المأني لمدة أربعين عام حتى عثر عليه في خوارزم وذلك لكي يدفع من الرازي تهمة الألحاد .

والأغلب أن اهتمام العرب والمسلمين بالعلم بدأ قبل عصر الترجمة بوقت طويل ، وذلك نتيجة للاتصال الوثيق بالمسيحيين وبالشعوب التي كانت متأثرة بالثقافة الهلينية والتي تحولت إلى الإسلام وما ترتب على ذلك من الشعور بضرورة الاهتمام بثقافات هذه الشعوب والأقوام والتعرف على مقومات تفكيرها . فأتساع رقعة الإمبراطورية الإسلامية ، واتصال العرب بكثير من الحضارات والديانات وبمختلف الاتجاهات الفكرية كان من شأنه بغير شك أن يوسع أفق المسلمين بحيث تظهر لديهم نزعة عقلية تربية واضحة امتدت إلى الأمور الشرعية ذاتها ، وتمثلت في العمل على تطوير الشرع حتى يتلاءم بقدر الإمكان مع الأوضاع الجديدة السائدة في مختلف بقاع الإمبراطورية حتى يكون أقدر على معالجة المشكلات الطارئة النابعة من تلك الثقافات والحضارات الغربية ، وكان هذا في حقيقة الأمر من أهم الأسباب التي دعت إلى الاعتماد على القياس والراي والاجتهاد .

ويذهب الكثيرون من المشتغلين بتاريخ العلوم عند العرب إلى القول بأن ذلك المسجل الشديد إلى الأخذ بأساليب التفكير العقلي لم يكن وليد الجدل الفكري والخلافات المذهبية بين المسلمين وأتباع الأديان والمعتقدات الأخرى فحسب بل وإيضاً نتيجة للصراع الفكري العنيف بين المذاهب والفرق المختلفة المتضاربة ، بل المتنافسة داخل الدين الإسلامي نفسه ، إنما الذي لا شك فيه هو أن قيام حركة النقل والترجمة هو الذي لعب الدور الحاسم في تحقيق كل ذلك التقدم الرائع في مختلف مجالات الفكر والعلم وفي نهوض النهضة العلمية المزدهرة التي تمتعت بها الحضارة العربية الإسلامية خلال فترة طويلة من تاريخها في العصور الوسطى . فقد ترتب على هذه الحركة ازدياد النشاط الفكري والاهتمام بإنشاء المكتبات العامة والخاصة وظهور المراكز الثقافية الهامة في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية المترامية ، وقد استمرت هذه الحركة في التقدم حتى وصلت أوجها في القرن الحادي عشر الميلادي . وليس أدل على المكانة العالية التي

احتلتها العلوم وعلى اهتمام المسلمين البالغ بالعلم والفكر من ان الكتب كانت تهدى للخلفاء لاسترضائهم على ما يقول الدكتور احمد سعيد المرداش في كتابه القصر القيم عن « تاريخ العلوم عند العرب » بحيث نرى ان هارون الرشيد مثلاً يحمل الكتب والخطوط معه حين فسخ عمورية واتقرا الى بغداد ، وهو موقف نجد مثيلاًه عند المأمون الذي طالب حاكم صقلية مثلاً بان يرسل اليه محتويات المكتبة ، وكما يقول بلسنر مرة اخرى فان خالد بن يزيد حفيد معاوية ابدى اهتماماً كبيراً بالكيمياء ، وان لم تكن لدينا معلومات كافية او مؤكدة عن كتاباته ومؤلفاته ، او عما حققه بالفعل في هذا المضمار ، ولكن المؤكد هو ان الكيمياء كانت من اول العلوم التي اهتم بها العرب والمسلمون نتيجة للتأثيرات الخارجية ، ولو ان اهتمامهم بالطب - كما هو واضح من مقال الدكتور جلال موسى - كان بطبيعة الحال اسبق على ذلك بكثير ، وهذا امر تشترك فيه جميع الشعوب التي تحاول ان يكون لها طبها الخاص بها ، كما يصدق هذا على الجغرافيا ، على اعتبار ان الرغبة في اكتشاف المجهول وحب الرحلة والمخاطرة كانت دائماً احدى الخصائص الانسانية الاساسية . وقد حقق العرب الكثير ايضاً في هذا الميدان على ما نجد في مقال الدكتور

ومع التسليم بأهمية الدور الذي لعبته حركة النقل والترجمة في تلك النهضة العلمية ، وبخاصة نظراً لما صاحبها من تعديلات وتعليقات وشروح كان فيها كثير من العمق والاصالة ، ومهدت لقيام الاعمال الاصيلية التي تبرز القدرة على الخلق والابداع ، فان من الصعب ان نزعّم ان هذه التراجم كانت كفيلاً وحدها بان تجعل العقل العربي يتقبل بسهولة وفي سر كل نتائج الفكر الاجنبي الغريب ودون ان يبدي اذاه كثير من المقاومة والرفض ، ان لم يكن قد سبق للعرب ان يتصلوا قبل عصر الترجمة ببعض نتائج ذلك الفكر وان يتعرفوا عليه ويتقبلوه بالتدريج ، حتى جاءت حركة النقل والترجمة بكل انجازاتها فوجدت الاوضاع مهيأة الى حد كبير لقبول كل تلك الانكار والمداهب والاتجاهات والانجازات العلمية التي حققتها تلك الثقافات الاجنبية . وهذا يصدق بالذات على الفكر الهندي الذي كان معروفاً بشكل او باخر ، على ما يقول ثورنر Verner لدى العرب ، منذ زمن طويل ان تمت ترجمة العلوم الهندية فوجدت البيئة صالحة ومهيأة لقبولها .

وهذا لا يقلل بحال من شان الدور الذي لعبته تلك التراجم في نشأة وظهور وازدهار العلوم « الاسلامية » وان كان يعنى في الوقت ذاته ان هذه الحركة كانت هي الفرصة التي اتاحت لكل تلك القوى ان تظهر في الخارج حين توفرت لها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفكرية العامة .



كل هذا خليق بأن يثير أمامنا عددا من الأمور التي يجب أن نأخذها في الاعتبار إذا أردنا أن نسهم في التقدم العلمي والفكري الحديث بنصيب يتفق مع ذلك التراث من ناحية ، ومع ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتق العلماء والمفكرين في الوقت الحالي إزاء الأجيال التالية .

أول هذه الأمور هو إدراكنا لدى قدرة العقل العربي والإسلامي في العصور الوسطى على استيعاب العلوم السائدة حينذاك والاتصال الوثيق بتراث الإغريق وعلوم الهند ونقل كل ما أمكن نقله منها إلى اللغة العربية ليكون ذلك أساسا قويا لنهضة علمية وفكرية متميزة . وبصرف النظر عن تضارب الأقوال حول مدى ما حققه العرب بالفعل في ذلك المضمار ، فإننا لا شك فيه هو أن عملية النقل والترجمة وما يرتبط بها من محاولات للشرح والتفسير والتعليق تعتبر من أهم القواعد التي يجب أن تتوفر لدى أي مجتمع متخلف يريد أن يلحق بركب العلم وبالتقدم العلمي والفكري ، قبل أن تتاح له الفرصة للإسهام في ذلك التقدم بدور مؤثر فعال . وهذا هو الوضع الذي يواجهه العالم العربي والإسلامي في الوقت الحالي مثلما يواجهه العرب والمسلمون في العصور الوسطى ، وهو وضع يفرض على العرب والمسلمين الآن أن يسلكوا نفس السبيل التي سلكها أسلافهم من قبل ، وأعني به ضرورة العمل على نقل التراث العلمي والفكري الحديث إلى اللغة العربية على أوسع نطاق ممكن . ومن ذلك المزيج الذي سوف يتألف حينئذ من أصالة التراث العربي والإسلامي الذي تلبس بالجهود الآن لإعادة نشره وأحيائه ثم العلوم والأفكار الحديثة التي سوف تنتقل إلى اللغة العربية ، تبدأ الخطوة الأولى القوية الثابتة على طريق الإسهام والأبداع والابتكار في ميادين العلم المختلفة .

والامر الثاني هو أن النهضة العلمية لدى العرب والمسلمين في العصور الوسطى كانت تستهدف الاشتغال بالعلوم العقلية والعملية على السواء . وإذا كان هناك من يذهب إلى أن العرب اهتموا بالعلوم العملية أكثر من اهتمامهم بالعلوم النظرية ومن هنا كان إسهامهم أكبر وأعمق في مجالات الطب مثلا والجغرافيا وعلوم النبات والحيوان والصيدلة وما إليها ، ويأخذون ذلك دليلا على عجز العقل العربي عن التفكير النظري الخالص ، فإن هذا القول يجب أن يؤخذ بكثير من الحذر والتشكك خاصة وإن إسهام العرب والمسلمين في الفلسفة بالذات كان إسهاما خصبيا إلى حد كبير ، ولم يتوقف الفلاسفة العرب والإسلاميون عند الشرح والتعليق ، كما أن عددا منهم جذبه المشكلات المنهجية فأعطى جانباً كبيراً من اهتمامه لتصنيف العلوم (ومثال الدكتور محمد علي إبراهيم يعطينا صورة طيبة عن بعض هذه المشكلات) . ومهما يكن من شيء فإننا في أشد الحاجة في الوقت الحالي إلى الاهتمام بالجانب التطبيقي للعلم الحديث مع الاستفادة بما حققه الأسلاف العرب في هذا الميدان من قبل ليكون هذا كله أساسا للتنمية في جميع المجالات ، وقاعدة للارتفاع بالجمع العربي والإسلامي إلى نفس المستويات التي بلغتها المجتمعات الغربية عن طريق تطبيق هذه العلوم الحديثة في حياتها اليومية .

والامر الثالث والاخير هو قدرة اللغسة العربية على التعبير عن كل تلك الثروة العارمة والفكرية التي كانت سائدة في ذلك الحين - وهو امر يدعو الى اعادة النظر في بعض الاحكام التي يطلقها عدد من المشتغلين الآن بالعلوم البحتة حول قصور اللغة العربية عن التعبير بدقة عن المصطلحات والافكار التي تزخر بها العلوم الحديثة ، وان اللغة العربية بذلك ليست لغة علم بقدر ما هي لغة ادب وفن . وهذه قضية قديمة ومعروفة ، ولكن يكفي هنا أن ننظر في ذلك التراث العلمي العربي القديم لنندرك انه شيء من الجهد يمكن للعلماء المعاصرين ان يفعلوا باللغة العربية وعن طريقها ما فعله العلماء القدامى في عصر الترجمة ، والواقع ان الثروة اللفظية العربية الضخمة التي تركها لنا هؤلاء العلماء والعرب والاسلاميون القدامى تصلح لان تكون ركيزة لمثل هذا الاتجاه الذي لن يمكن للعرب بحال أن يسهموا اسهاما فعالا في التقدم العلمي او اللحاق بالعلوم الحديثة ان لم يسبروا فيه ، بحيث تصبح هذه اللغة هي لغة الكتابة والتعليم في مختلف مجالات العلوم البحتة . وكل مجهود يبذل في هذا الشأن خليق بالترحيب والتشجيع .

عبد الرحمن بدوي

أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب

تهديد

للمستشرقين في الكشف من تاريخ العلوم عند العرب فضل عظيم يعرفه لهم كل من له اطلاع — ولو قليل — في هذا المجال فلقد تناولوه بالدرس وتحقيق النصوص ، والمقارنة بينه وبين أصوله اليونانية والهندية ، وتأثيره في أوروبا في العصر الوسيط وأوائل العصر الحديث .

ونريد في هذا البحث ان نعرض لأطراف مما قاموا به ، عرضا سريعا غير مستقصى لان مثل هذا العرض المستقصى يحتاج الى كتب ذات اجزاء عديدة وبكفي ان يعلم المرء ان مجرد السرد البيولوجرافي يمكن ان يستغرق وحده أكثر من ألفي صفحة !

وقد رأينا ان اوضح وسيلة للعرض هي ان نتناول هذه العلوم علما علما ، ونذكر بعض ما أسهم به هؤلاء المستشرقون في دراسة تاريخه وتحقيق نصوصه . ولنبدأ بعلم الكيمياء .

* نذكر من المحاولات البيولوجرافية في هذا الباب مايلي :

- a) M. Ullmann: Die Medizin im Islam, Leiden, 1970; — Die Natur- und Geheimwissenschaften im Islam, Leiden, 1972; Fuat Sezgin : Geschichte des arabischen Schrifttums, B. IV, V, 1970, 71, 74; S.H. Nasr and M.C. Chittick: annotated bibliography of Islamic Science. Vol. I, 1976.

أولاً : - في الكيمياء

وتنص بالكيمياء هنا الكيمياء العلمية كما عرفها في العصر الحديث ، وعلم الصناعة او الكيمياء غير العلمية وهي التي تسمى الى تحقيق غرضين : الاول هو تحويل المعادن الخسيسة (النحاس ، الحديد ، الرصاص الخ) الى المعادن الشريفة (الذهب والفضة) ، والثاني هو تحضير « اكسير الحياة » ، وهو الدواء الذي يراد منه علاج كل ما يصيب الانسان من آفات وأمراض .

ونشأة الكيمياء عند العرب ترتبط بأمر أموي هو خالد بن يزيد ، لكن تكوينها ونموها المفليم كان على يد شخصية اسطورية حيناً ، تاريخية حيناً آخر هي جابر بن حيان .

وقد تناول خالد بن يزيد ، والكيميائيون العرب الاوائل بالبحث **يوليوس روسكا** في كتاب ظهر في كراستين بعنوان «الكيميائيون العرب » (١) هيلدلبرج سنة ١٩٢٤) كذلك بحث روسكا في القسم الاخير من كتاب « سر الخليقة » المنسوب الى بلياس الطواني (ظهر في هيلدلبرج سنة ١٩٢٦) وتتلبد على روسكا في برلين سيد الباحثين في جابر بن حيان وهو **باول كراوس** (توفي سنة ١٩٤٤) .

لكن العناية بجابر بن حيان ترجع الى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، فقد منى به **مارسلان برتيو** (توفي سنة ١٩٠٧) في كتابه بعنوان « **الكيمياء في العصر الوسيط** » (٢) (باريس سنة ١٨٩٣) استنادا الى ما ترجمه من كتب جابر الى اللغة اللاتينية ، وأثبت في الوقت نفسه أن جابر كما عرف في الكتب اللاتينية اوسع بكثير من جابر المعروف في المصادر العربية .

ثم جاء **هوليرد** فقام باول دراسة جديدة لمؤلفات جابر العربية ونشر بعض رسائله . (٣) وجاء كراوس فتوفر على دراسة جابر دراسة شاملة مستقصاة ، حتى أن جهوده العلمية تركت الى جانب هاتيه بمحمد بن زكريا الرازي - على جابر بن حيان ، حتى صار اعظم حجة في كل ما يتعلق به وبالكيمياء عند العرب بعامه .

مكان بداية انتاجه في هذا المجال بحث بعنوان « تهافت اسطورة جابر » (ظهر في الجزء الثالث من « **النشرة السنوية لمعهد الابحاث الخاصة بتاريخ العلوم** » في برلين سنة ١٩٣٠) ، وفيه حاول ان يبين ان مجموعة الكتب التي تحمل اسم جابر كانت اسماعيلية ، وانها النموذج السابق لرسائل اخوان الصفا .

(١) Julius Ruska : Arabische Alchemisten, 2 Hefte Heidelberg, 1924

(٢) M. Berthelot : La Chimie au Moyen Age. Paris, 1893.

(٣) E.J. Holmyard : The Arabic Works of Jabir-Ibn-Haiyan, 1, Paris 1928; The Works of Geber, R. Russell, 1978, edited by E.J. Holmyard, London, 1928; Isis n. 19, p. 478 599.

ومن الطبيعي - والقليل من رسائل جابر هو الذي نشر - أن يقوم بنشر بعض هذه الرسائل .
نشر مختارات منها تحت عنوان «مختار رسائل جابر بن حيان» (مطبعة الخانجي سنة ١٣٥٤ هـ /
سنة ١٩٣٥ م) ، وفي هذا الكتاب نشر فصولاً رئيسية من كتب جابر ، كما نشر رسائل كاملة ،
واهتم بأن تكون هذه النصوص ممثلة لمختلف نواحي مذهب جابر : ففيها نماذج لأبحاثه في
الكيمياء ، وأخرى لأبحاثه في الفيزياء ، كما أنها تشتمل على نصوص تتعلق بالأمور الدينية
لبیان علاقتها الوثيقة بأراء مذهب الاسماعيلية وغلاة الشيعة ، مما يؤكد نسبة رسائل جابر
الى «الاساط الشيعية الاسماعيلية» .

لكن بحثه العظيم - الذي يعد من أجل أعمال المستشرقين بعامة - هو كتابه «جابر
بن حيان» الذي ظهر في جرتين ضمن مطبوعات المعهد المصري (المجلد ٤٥ ، ٤٦) ضمن منشورات
هذا المعهد الذي كان عظيماً حتى سنة ١٩٤٥ ، واليوم اثره بعد عين ، واسم على غير مسمى !!) ،
وقد ظهر الجزء الثاني قبل الاول ، وذلك في سنة ١٩٤٣ ، والاول ظهر في السنة التالية :
سنة ١٩٤٣ ، وفي هذا الجزء الاول مقدمة طويلة ، تمثيت كامل بكل ما وصل الينا وما عرف من كتب
جابر بن حيان وما بقي منها من مخطوطات .

اما الجزء الثاني فقد عرض فيه المسائل العلمية الرئيسية الواردة في الكتب والرسائل
المنسوبة الى جابر بن حيان ، ونقول «المنسوبة» لان كراوس اثبت في الجزء الاول ان هذه الكتب
منحولة كلها ، وقد وضعتها طائفة من علماء الشيعة المشتغلين بالكيمياء حوالي سنة ٣٠٠ هـ
(٩١٢ م) .

واتبع عرضه بحث في الاصول اليونانية والشرقية التي اعتمد عليها مؤلف او مؤلفو
هذه الكتب . وبهذه المناسبة يعرض - في ايجاز- تطور الكيمياء اليونانية وخصائص كل دور من
أدوار تطورها عند اليونان والسرمان ، ويعني خصوصاً بصلة جابر بكيمياء دوسيجيوس وبلينياس
الطوائف «ويشرح من هذا البحث بيان ما هنالك من اختلاف كبير جدا بين الكيمياء الجابرية
والكيمياء اليونانية القديمة : فعلى الرسم مآهنا لك من تشابه في التعبير الاصطلاحي وفي
جزيئات كبيرة ، فان كيمياء جابر تختلف اختلافاً بيناً عن غيرها ، ان في الروح او في التفصيلات .
فكيمياء جابر تمتثل بالليل الى الناحية التجريبية ، واستبعاد الخوارق ، والاتجاه العلمي العقلي ،
بينما الكيمياء القديمة كثيراً ما تلجأ الى الرؤيا الوجدانية واستخدام فكرة الخوارق في التفسير .
ومن ناحية التفصيل ، نجد جابراً يعني بالكيمياء العضوية خصوصاً ، ويستعمل «ملحاً» لم
يعرفه اليونانيون والشرقيون ، وانما استعملته الكيمياء الاسلامية ، ونعني به ملح التوشادر ،
ويرجع العناصر الى الكيفيات الطبيعية : من حرارة ، وبرودة ، وبوسة ورطوبة .» (٢)

(٢) راجع كتابنا : « من تاريخ الاتحاد في الاسلام » ص ١٩٣ راجع هذا الفصل كله من ص ١٨٩ - ١٩٧ .

ومقد فصلا للبحث في مشكلة كتاب « سر الخليفة » المنسوب الى بلنياس الطوني ، ولو انه لم يصل الى نتائج حاسمة ، لكنه استطاع على كل حال ان يعقد مقارنة بين هذا الكتاب وكتاب « الكنوز » لايوب الرهاوى (وقد نشره منجانا وترجمه الى الانجليزية عن أصله السرياني ، سنة ١٩٣٥) ، وانتهى الى ان مصدر الكتابين لابد ان يكون واحدا .



ويتصل بالكيمياء البحث في السحر وما يسمى بالعلوم الصنوعية . واهم الباحثين في هذا الميدان هو لين لوردنيك بكتابه « تاريخ السحر والعلم التجريبي في الثلاثة عشر قرنا الاولى من ميلاد المسيح » (٥) ، وهو يعتمد على الترجمات اللاتينية للمؤلفات العربية بشكل خاص ، فضلا من بيانه لتأثير التراث العربي في السحر والعلم التجريبي في تقدم العلوم في أوروبا اللاتينية في العصور الوسطى . وهو كثر لا ينضب من المعلومات في هذا الموضوع .

كذلك نشر هلموت رتر H. Ritter كتابا في السحر كان له اثر كبير في المشتغلين بالسحر في العصور الوسطى المسيحية ، هو كتاب « غاية الحكيم وأحق التتبعين بالتقديم » لبيتسك سنة ١٩٣٣ في ٤١٦ ص) تأليف مسلمة بن احمد المجريطي ، الرياضي الأندلسي المشهور ، توفي سنة ٣٩٨ هـ ، وقد عرف الكتاب في الترجمة اللاتينية تحت اسم Picatrix



وثاني شخصية عظيمة في الكيمياء عند العرب هو محمد بن زكريا الرازي (ولد سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م وتوفي سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) الطبيب العظيم .

واهم من عنى بكيمياء الرازي من المستشرقين يوليوس روسكا . فقد ترجم كتاب « (سر الاسرار) لابي بكر محمد بن زكريا الرازي (٦) مع مقدمة وشرح . كما كتب عدة مقالات عن كيمياء الرازي ، نذكر منها :

١ - « الرازي رائدا لكيمياء جديدة » ، في مجلة DLZ سنة ١٩٢٣ ، عمود ١١٧ - ١٢٤ .

٢ - « حول الوضع الراهن للبحث في الرازي » ، في مجلة

Archivio di Storia della scienza, 5/1924/P. 335-347.

Lynn Thorndike : A History of Magic and Experimental Science, 4 Volumes, (٥)
New York. 1923-34,

J. Ruska : Al-Razi's Buch Geheimnis der Geheimnisse. Mit Einleitung (٦)
und Erläuterungen in deutscher Übersetzung. Quellen v. Studien z. Gesch. d.
Naturwissen. u. Medizin, 6/1937/1-2 46.

أبحاث المشرقين في تاريخ العلوم عند العرب

- ٣ - « الكيمياء في العراق وفارس في القرن العاشر الميلادي » ، في مجلة *Der Islam* سنة ١٩٢٨ ص ٢٨٠ - ٢٩٣
- ٤ - « كيمياء الرازي » في مجلة *Der Islam* سنة ١٩٣٥ ص ٢٨١ - ٣١٩ .
- ٥ - « الكتاب الرئيسي للرازي في الكيمياء » ، نشر في *Die Umschau in Wissen Schaff Und Technik* سنة ١٩٣٧ ص ٨٥٢ - ٨٥٣
- ٦ - « المؤلفات المنحولة المنسوبة الى الرازي » في مجلة *Osiris* سنة ١٩٣٩ ص ٣١ - ٩٤ .
- كما نشر المستشرق الروسي *U. I. Karimov* كتاب « سر الاسرار » للرازي وترجمه الى اللغة الروسية في طشقند سنة ١٩٥٧ .

• • •

وأخيراً نذكر إبا عبد الله محمد بن أميل التميمي الذي عاش في القرن الرابع الهجري وله عدة كتب في الكيمياء نذكر منها « رسالة الشمس الى الهلال » ومنها مخطوطات عديدة (القاهرة دار الكتب ج ٥ القهرست القديم كيمياء ٢٠ م ٢٣ م ، راقب في استانبول برقم ٩/٩٦٣) ، « والعميدية في استانبول برقم ٩/٩٧٤) وقد خصه بولبوس روسكا ببحثين هما :

- ١ - « كتاب محمد بن أميل التميمي المعنون الماء الورقي والأرض النجمية » في مجلة *OLZ* سنة ١٩٤ ص ٥٩ - ٥٩٦ .
- ٢ - « دراسات عن محمد بن أميل التميمي وكتابه الماء الورقي والأرض النجمية » في مجلة *Isis* سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ ص ٣١٠ - ٣٤٢ .

• • •

ثانياً في الطب

أما في تاريخ الطب عند العرب والمسلمين فدراسات المستشرقين لا تدخل تحت حصر ، وفي هذا الميدان من العلوم كانت أبحاثهم أشمل وأقدم وأكثر تعمقاً واستقصاء .

ولنبداً بذكر الكتب العامة في تاريخ الطب عند العرب ، وتتلوه بالدراسات المفردة من بعض مشاهير الأطباء .

١ - التواريخ العامة للطب العرب

● وأقدم ما في هذا الباب كتاب فيستنغلد بعنوان : « تاريخ الأطباء والعلماء العرب » ، جتنجن ١٨٤٠ :

Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher, nach den Quellen bearbeitet, von Ferdinand Wüstenfeld, Göttingen, 1840.

- وتلوه لوكير : « تاريخ الطب العربى » باريس سنة ١٨٧٦ فى جزئين :
Lucien Leclerc : Histoire de la médecine arabe I, II, Paris 1876.
- ادوارد براون : « الطب العربى » كامبريدج سنة ١٩٢١ :
Edward G. Browne : Arabian Medicine. Cambridge, 1921
- هرشبيرج ولبرت ومتفوخ : « اطباء اليون العرب » ، ليتسك سنة ١٩٠٥ فى جزئين
Die Arabischen Augenärzte, nach den Quellen bearbeitet von J. Hirschberg, J. Lippert, und
E. Mittwoch I. teil, Leipzig, 1904; II Teil, Leipzig, 1905.
- جورج سايون : « المدخل الى تاريخ العلم » :
ج ١ : « من هوميروس الى عمر الخيام » ، بليمور سنة ١٩٢٧
ج ٢ : « من دى بن عزار الى روجريكون » فى جزئين ، بليمور سنة ١٩٣١
ج : « العلم والتعام فى القرن الرابع عشر » فى جزئين ، بليمور سنة ١٩٤٦ — ١٩٤٨
George Sarton; Introduction to the History of Science. Baltimore, I. 1927, II. 1931, II,
1964-48.
- وقد اميد طبعه بالافست سنة ١٩٥٠ .

ب - الدراسات المفردة عن الاطباء -

١ - على بن دىن الطبرى

- ب . رشت : « من تاريخ الجدى عند العرب »
Arch. für Gesch. d. Medizin
فى سنة ١٩١٢ — ٣٢٣ وما يتلوها .
- ماكس مايرهوف : « على بن دىن الطبرى : طبيب فارسى فى القرن التاسع
البلادى » ، فى ISIS سنة ١٩٣١ ص ٣٨ — ٦٨ .
- ماكس ماير هوف : « كتاب فردوس الحكمة لعلى بن دىن الطبرى ، واحد من اقدم
الكتب العربية ، فى الطب ، مجلة Tais سنة ١٩٣١ ص ٦ — ٥٤ .
- يوسف شاخت : « طبيب فارسى فى القرن التاسع ، من اصلى مسيحى : على بن دىن
الطبرى » ، مقال فى Bull. Soc. Franc. hist. medecine سنة ١٩٣٢ ص ١٦٥ — ١٧٥ .
- ا . سيجل : « أمراض النساء وعلم الاجنة وصحة النساء فى كتاب
فردوس الحكمة لابي الحسن بن على بن دىن الطبرى » نشر فى
Quellen u. stud. z. Gesch. d. Naturwis. سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢ ص ٢١٦ — ٢٧٢
u. d. Medizin
- دورتيه تيس : « آراء الطبيبين العربيين الطبرى وابن هبل : فى
القلب ، والرئة ، والمثانة ، والطحال » ، رسالة دكتوراه ، يون ، سنة ١٩٦٧ .

● — محمد بن زكريا الرازي

ومحمد بن زكريا الرازي هو أكبر اطباء الاسلام غير منازع ، ومن أكبر الاطباء في تاريخ الطب في العالم . ولد في مدينة الري (القسم الجنوبي من مدينة طهران الحالية) في حوالي سنة ٢٥١ هـ (٨٦٥ م) ، ومات في الري في سنة ٣١٣ هـ (٩٢٥ م) .

وقد نشر باول كراوس « فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي » (عن مخطوط في لندن برقم ١٣٣ ورقة ١٧ - ٢٤) في باريس سنة ١٩٣٦ ، وترجم روسكا هذا الفهرست الى الالمانية في مجلة Isis سنة ١٩٢٣ ص ٢٦ - ٥٠ .

وكتب عن حياة الرازي ومؤلفاته G.S.A. Ranking في بحث القاه في « المؤتمر الدولي للطب ، القسم الخاص بتاريخ الطب » ، لندن ، سنة ١٩١٣ ، ص ٣٣٧ - ٣٦٨ .

ونذكرها هنا بعض ما كتب عن الرازي الطبيب ، الى جانب ما ورد في كتب تاريخ الطب التي ذكرناها في اول هذا الفصل :

● ف . برنر : « طب العيون عند الرازي » رسالة دكتوراه ، برلين ١٩٠٠ :
W. Browner : Die Augenheilkunde des Rhases, Berlin, 1900

● هرشبيرج : متن في مجموع طب العيون « ج ٢ ص ١٠١ - ١٠٧ » ، ليبتيك ، سنة ١٩٠٨
Hirschberg : Handbuch der gesamten Augenheilkunde, Leipzig, 1908.

● جودلت : « تاريخ علم الجراحة » ج ١ ص ٦٠١ - ٦١١ ، برلين سنة ١٨٩٨
Gurlt : Gesch. d. Chirurgie, I, 601-611, Berlin, 1898.

● تمكين O. Temkin : « نصوص ووثائق : ترجمة من العصر الوسيط
للاحظات الرازي الاكلينيكية » مقال في
Bull. of the History of Medicine, 1942, pp. 102-117.

● ● ●

● — علي بن العباس الجوسي

ماش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وحظي برعاية مفيد الدولة أحد الامراء البويهيين (٣٣٨ - ٣٨٢ هـ) ، واليه اهدى كتابه المشهور : « كامل الصناعة الطبية » ، وترجع شهرته الى هذا الكتاب خصوصا .

ومن الابحاث التي كتبت عنه :

— جرتشيف « طب العيون عند علي بن العباس » مع ترجمة الى الالمانية ، رسالة دكتوراه برلين سنة ١٩٠٠

Gretschischeff : Die Augenheilkunde des Ali Abbas

— ب . رشت : « من تاريخ الجدوى عند العرب » في « محفوظات في تاريخ الطب » سنة ١٩١٢ ص ٣١١ — ٣٣١

P. Richter, in Arch. f. Gesch. d. Medizin

— ب . رشت : « علم الأمراض الجلدية الخاص عند علي بن العباس » ، في محفوظات الأمراض الجلدية والزهرى »

P. Richter, in Archiv f. Dermatologie und Syphilis, 1912, pp. 849-864.

— كامبل : « الطب العربي وتأثيره في العصور الوسطى » ج ١ ص ٧٤ — ٧٥

Donald Campbell : Arabian Medicine and its Influence on the Middle Ages. 2 Volumes, London, 1926.

— شبرجس : « تمثيل الطب العربي في العصور الوسطى اللاتينية » ص ٣٤ — ٤٠

Heinrich Schipperges : Die Assimilation der arabischen Medizin das lateinische Mittelalter. Wiesbaden, 1964.



● — ابن سينا

من بين الترجمات العديدة الى اللاتينية لكتاب « القانون » لابن سينا نذكر ترجمة Plempius مع شروح واسعة وتعليقات ممتعة عن انواع الادوية التي يذكرها ابن سينا :

Plampius: abuali ibn Tsina... dictu Avicenna : canon medicinae

Lovanii (Louvain) 1558, liber secundus, P. 1-311.



● — ابو القاسم الزهراوى

هو خلف بن عباس الزهراوى ، نسبة الى الزهراء صاحبة قرطبة بالاندلس ، وله تصانيف مشهورة في الطب ، وافضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوى ، واسمه الحقيقي : « التعريف لمن عجز عن التأليف » — ولا يعرف تاريخ ميلاده ولا وفاته ، ويبدو انه توفى في نهاية القرن الرابع الهجرى .

ومن الابحاث الجيدة عنه :

لوكلير : « جراحة ابي القاسم » ، باريس ، سنة ١٩٦١

Leclerc : La chirurgie d'albucasis, Paris, 1861.

جورلت : « تاريخ الجراحة » ج ١ ص ٦٢٠ — ٦٤٩

— ه . فريش : « ابو القاسم كجراح حربي » في « محفوظات الجراحة الاكلينيكية »

H. Fröhlich: Abul-Kasim als Kriegschirurg, in Archiv f. klinische chirurgie, 1884 pp. 364-376.

ايحاب المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب

— ر . فالنس : « جراح عربي : ابو القاسم »

R. Valensi : Un Chirurgien arabe : abulcasis. Montpellier, 1908.

— شارل نييل : « جراحة الاسنان عند ابي القاسم ومقارنتها بجراحة الاسنان عند مغاربة طرازنا » في « مجلة طب الفم والاسنان »
Ch. Niel, in Revue de stomatologie سنة ١٩١١ ص ١٦٩ — ١٨١ ثم ٢٢٢ — ٢٢٩

— ك . سودهوف : « في تاريخ الجراحة في العصر الوسيط » ج ٢ ص ١٦ — ٨٤

K. Sudhoff : Beiträge zur Gesch. d. Chirurgie in Mittelalter, II
Leipzig 1918, PP. 16-84.

— هـ . ب . ج . رينو H.P. J. Renaud : « ابو القاسم وابن سينا وكبار الاطباء العرب : هل عرفوا مرض الزهري ؟ » مقال في « مضبوطة الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب » سنة ١٩٣٤ ص ١٢٢

Bull. soc. frane. de hist. de la medecine, 1934, P. 122.

• • •

● — علي بن عيسى الكحال

والكحال هو طبيب العيون . وقد عاش علي بن عيسى في النصف الاول من القرن الخامس الهجري . وكتابه « تذكرة الكحالين » ، يصادشهر كتاب في طب العيون عند العرب .

ومن الامور الجديدة التي احدثها علي بن عيسى الكحال استخدامه للتخدير اثناء اجراء العمليات الجراحية في العين . ولعله اول طبيب في تاريخ الطب العالمي استخدم التخدير اثناء اجراء العمليات الجراحية .

وقد منى بدراسته ي . هرشبرج ، فترجم التذكرة الى اللغة الالمانية مستندا الى المخطوطات العربية ، وشرحها في كتابه :

J. Hirschberg : Ali ibn Issa Erinnerungsbuch für Augenärzte, aus arabischen
Handschriften übersetzt und erläutert. Leipzig, 1904.

كذلك عقد له نصلا في كتابه : « متن في طب العيون العام »

Handbuch der gesamten Augenheilkunde, II, 41-47, 121-146.

وترجمها الى الانجليزية وود

C.A. Wood : Memorandum of a tenth-century oculist, for the use of modern ophthalmologists. Chicago, 1936.

• • •

● - ابن النفيس

هو علي بن أبي حزم القرشي ، المعروف بابن النفيس ، مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وعاش في القرن السابع الهجري ومن الدراسات عنه :

— ماكس مايرهوف : « ابن النفيس (القرن الثالث عشر الميلادي) ونظريته في الدورة الدموية الصغرى » مقال في مجلة Isis سنة ١٩٣٥ ص ١٠٠ - ١٢٠ . Max Mayerhof, in Isis.

— يوسف شاخت Joseph Schacht : ابن النفيس وسرفيتوس وكولومبو ، « مقال في مجلة Al-Andalus المجلد » سنة ١٩٥٧ ص ٣١٧ - ٣٣١ . وفيه بيان بالمؤلفات في موضوع الدورة الدموية ومختارات من سرفيتوس ، وفالفردى ، وكولمبوس لبيان إمكان انتقال آراء ابن النفيس الى أوروبا .

— تشارلز د . اوملى : « ترجمة لاتينية لابن النفيس (١٥٤٧) تتعلق بمشكلة الدورة الدموية » ص ٦١٧ - ٧٢٠ من المجلد الثاني من أعمال المؤتمر الثامن الدولي لتاريخ العلوم . فيرنسبه - ميلانو ، ٣ - ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، عند الناشر Hermann في باريس سنة ١٩٥٨ .
Charles D. O'Malley : A Latin Translation of Ibn Nafis (1547) related to the Problem of circulation of the blood.

Actes du VIIIe Congres International d'Histoire des Sciences
Vol. 2, pp. 716-20, Paris, Hermann, 1958.



ثالثا - علم الحيوان والطب البيطرى

ولنتقل الآن الى علم الحيوان والطب البيطرى . ولندكر الابحاث بحسب المؤلفين فيهما

١ - الجاحظ

وهنا نلتقى أولا بالجاحظ . وقد خصه ببحث بوصفه عالم حيوان ج . فان فلوطن ، ناشر بعض رسائله . اذ له بحث ترجمه الى الالمانية بعنوان : « عالم طبيعي عربى في القرن التاسع » :
اشتوتجت سنة ١٩١٨

G. Vloten : Ein arabischer Naturphilosoph in 9. Jahr hundert. Aus dem Höliländischen
vebertragen von O. Rescher.

كما بحث في « الجن والارواح والسمح عند العرب بحسب ما ورد في كتاب « الحيوان » للجاحظ » ، في مجلة WZKM سنة ١٨٩٣ ص ١٦٩ - ١٨٧ ، ٢٣٣ - ٢٤٧ ، سنة ١٨٩٤ ص ٥٩ - ٧٣ ، ٢٩٠ - ٢٩٢ .

أبحاث المشرق في تاريخ العلوم عند العرب

وممن بحثوا في كتاب الحيوان للجاحظ أيضا :

— فيديمان : « دارونيات منذ الجاحظ »

E. Wiedemann : Darwinistischer
bei Gahiz, in SBPMS Erlangen 47/1915, pp. 130-131.

— اسين بلايوس « كتاب الحيوان للجاحظ » ، في مجلة Isis · سنة ١٣٠ ص ٢٠
— ٥٤

ب — ابن قتيبة

وقد مقد ابن قتيبة في « ميون الاخبار » فصولا عن الحيوان ، ترجمها الى الالمانية ودرسها
فيدمن في بحث بعنوان : « بعث في العلوم الطبيعية عند ابن قتيبة » :

E. Wiedemann : Naturwissenschaftliches aus Ibn Qutaiba. Beitrage z.
Gesch. d. Naturwiss. XLIII, in SBPMS Erlangen 1915, pp. 101-120.

وترجم هذا القسم الى الانجليزية كوفي بمنوان : « قسم التاريخ الطبيعي من عيون الاخبار
لابن قتيبة » :

The Natural History section from a 9th Century Book of useful knowledge The Uyun
al-Akhbar of Ibn Qutayba translated by L. Kopf, ed. by F.S. Bodenheim and L.
Kopf. Paris-Leiden, 1949.

ج — ابو حيان التوحيدى

وفي كتاب « الامتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدى معلومات وفيرة عن الحيوان ،
ترجمها الى الانجليزية وعلق عليها ل . كوف :

L. Kopf : The Zoological chapter of the Kitab al-Imta wal Muanasa of Abu Hayyan
al-Ta'uhidi (10th Century). Translated from the Arabic and annotated, in Oiris,
1956, pp. 390-466.

د — الدميرى

ويبحث في كتاب « حياة الحيوان » للدميرى :

دى سومجى الذى كرس له عدة أبحاث تذكر منها :

— « دليل مصادر حياة الحيوان للدميرى » في « المجلة الآسيوية » JA سنة ١٩٢٨ ص ٥ —
١٢٨

De Somogyi : Index des sources de la Hayat al-Hayawan de ad-Damiri

— « مكانة الدميرى في الادب العربى » في « مجلة فينا لمعرفة الشرق » WZKM سنة ١٩٦٠
ص ١٩٢ — ٢٠٦

Annual of the Leeds University Oriental Society

— « الجاحظ والدمري » ، في حوليات الجمعية الشرقية في جامعة ليدز ج ١ سنة

١٩٥٨/١٩٥٩ ص ٥٥ - ٦٠

R. Froehner : Arabische Kamelheilkunde des Mittelalters, in Archiv f. wissenschaftliche und praktische Tierheilkunde, 1934 pp. 358-361.

هـ - أبحاث في الطب البيطري

أما في الطب البيطري ، فنذكر الأبحاث التالية :

١ - هـم بورجشثال : « الجمل » Das Kamel فينا سنة ١٨٥٤

٢ - ر . فريئر : « بيطرة الجمال عند العرب في المصور الوسطى » :

R. Froehner : Arabische Kamelheilkunde des Mittelalters, in Archiv. f. wissenschaftliche und praktische Tierheilkunde 1934, pp. 358-361.

٣ - د. مولر : « دراسات في البزرة تربية (تربية الصقور) العربية في المصور الوسطى » ،

برلين سنة ١٩٦٥ :

D. Moller : Studien zur mittelalterlichen arabischen Falkener literatur. Berlin, 1965.



رأبما - الصيدلة والمقايير

كانت عمدة الصيدلانيين العرب في امور المقايير كتاب « ديسقوريدوس العين زردى اكبر العلماء بالحشائش الطبية في العصر اليوناني » . وكتابه في خمس مقالات بيانها كالآتي :

« المقالة الاولى : تشتمل على ذكر ادوية مطهرة الرائحة وأفاوية وأدهان وسموغ وأشجار

كبار .

والمقالة الثانية : تشتمل على ذكر الحيوانات ورطوبات الحيوان ، والحبوب ، والقطاني ، والبقول المأكولة والبقول الحريفة ، وادوية حريفة .

والمقالة الثالثة : تشتمل على ذكر اصول النباتات ، وعلى نبات شوكي ، وعلى برور وسموغ ، وعلى حشائش بلزهرية .

والمقالة الرابعة : تشتمل على ذكر ادوية اكثرها حشائش باردة وعلى حشائش حارة مسهلة ومقيئة ، وعلى حشائش نافعة من السموم .

والمقالة الخامسة : تشتمل على ذكر الكرم ، وعلى انواع الاشربة ، وعلى الادوية المعدنية وقد كرس سيزار دوبلر Cesar Düleler حياته لهذا الكتاب كما ترجم الى العربية . ومنها الى اللاتينية وما دار حوله من أبحاث . فنشر الكتاب في الترجمتين العربية واللاتينية ، ودرس مصيره

في العالمين العربي والأوروبي في العصر الوسيط : وفحص عن ذلك في كتاب في ستة مجلدات على النحو التالي :

La Materia Medica de Dioscorides. Transmision medieval y renacentista :

Vol. I. La transmision medieval y renacentista y la supervivencia de la medicina popular moderna de la, Material medica de Dioscorides, estudiada particularmente en Espana y Africa del Norte. Tipografia Emporium, S.A. Barcelona 1953.

Vol II (con Elías Teres) : La version arabe de la, Materia Medica texto, variantes e índices). Estudio de la transcripcion de ls nombres grieg al arabe y comparacion de las versiones griega, arabe y castellana. Tetuan y Barcelona, 1952-1957 CL XXX y 626 p.

Vol. III : La Materia Medica de Dioscorides, traducida y comentada por D. andres de Laguna (texto critico). Barcelona, 1955. XXVII y 621 p.

Vol. IV : D. Andres de Laguna y su epoca. Barcelona, 1955. XI y 368 p.

Vol. V : Glosario medico castellano del siglo XVI. Prologo de Gregorio Maranon. Barcelona, 1954. XVIII y 940 p.

Vol. VI : Indices generales y lexico especial de Andres de Laguna. Barceñoa, 1959. XI y 353 p.

ومن الأبحاث التي ظهرت قبل نشرة دبلن ودراسته المظيعة هذه ، نذكر :

— ماكس مايرهوف : « كتاب دياسقوريدس عند العرب » في
Quell. u. Stud. Gesch. u. Naturwiss. u. Medizin, 1933, p. 280-292.

— أ. جروبه : « مواد لدراسة دياسقوريدس عند العرب » :
E. Grube : " Materialien zun Dioskurides Arabieus", in Festschrift Kühnel, Berlin 1957, pp. 163-194.



ومن الدراسات العامة عن الصيدلانية والمقايير عند العرب نذكر :

— ماكس مايرهوف : « مخطط تاريخ الصيدلة والنباتات الطبية عند المسلمين في اسبانيا » مقال في مجلة Al-Andalus ، مدريد سنة ١٩٣٥ ، ص ١ — { }

— هوليرد : « الصيدلة العربية في المصور الوسطى » .

H.J. Holmyard : „Mediaeval arabic pharmacology“, in Proceedings of the Royal Society of Medicine. Section of the History of Medicine. Vol. XXIX (London, 1935), pp. 99-108.

— رينو : « اسهام العرب في معرفة الاتواع النباتية »

H.P.J. Renaud : La contribution des arabes à la connaissance des espèces végétales, in Bull. de la soc. des sciences Naturelles du Maroc, to. XV (Rabat - Paris - Londres), n. du 31 mars 1935.

— مقدمة مايرهوف لنشره لـ « شرح أسماء المقار » لوسى بن ميمون. « القاهرة : مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، سنة ١٩٤٠ ص LXX VI — V

ونذكر الآن دراسات مفردة عن مؤلفين :

١ - البيروني

ولنبداً بأبي الريحان محمد البيروني (المتوفي في غزنة سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠ م) الذي ألف كتاباً في « الصيدلة » طبع في باكستان سنة ١٩٧٤ طبعة رديئة . وكان ماكس مايرهوف قد اعد له نشرة محققة جيدة بدأ في طبعتها في المعهد الفرنسي بالقاهرة ، ثم توقف الطبع ولا يدرى أحد ما مصير النص المحقق !

وقد سبق لمايرهوف ان بحث في هذا الكتاب في بحث بعنوان : « مقدمة كتاب الصيدنة للبيروني » :

Max Meyerhof : „Das Vorwort zur Drogenkunde des Beruni“, in Quellen u. studien zur Geschichte der Naturwissenschaften und der Medizin, Bd. III (Berlin, 1932), pp. 159-208.

٢ - الادريسي

وللشريف الادريسي : الرحالة والجغرافي العظيم (المتوفي في بلرمو بصقلية سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) نظرات في الصيدلة والحشائش ، وقد درسها ماكس مايرهوف في البحث التالي :

Max Meyerhof : „Ueber die Pharmakologie und Botanik des arabischen Geographen Edrisi“, in Archiv fuer Geschichte der Mathematik, der Naturwissenschaften und der Technik. Bd. XII (Leipzig, 1930), pp. 45-53, 225-236.

٣ - هبة الله بن التلميذ

وكان طبيباً في القاهرة عاش في بلاط الخليفة المكتفي وتوفي سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م ، وله كتاب في « الاقر باذين » توجد منه مخطوطات الآن (راجع بروكلمن ج ١ ص ٨٧ وما يتلوهها ، والملحق ج ١ ص ٨٩٦) . وقد كتب عنه ماكس مايرهوف مقالاً في ملحق « دائرة المعارف الاسلامية » الطبعة الاولى (ليدن - لندن ، سنة ١٩٣٦) .

د - نجم الدين محمد بن اياس الشيرازي

يبدو أنه عاش قبل القرن السابع الهجري، وله كتاب « الحاوي في علم التداوي » الموجود منه عدة نسخ في ليدن وجوتا (ألمانيا) .

أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب

وقد كتب عنه جيغيس في الكتاب الذي بعنوان :

P. Guiges: Le livre de l'art du traitement, de Najm ad-Dyn Mahmoud. Beyrouth, 1903.

هـ - ابن بكلاش

يونس بن اسحق بن بكلاش : كان طبيباً لـاحمد الثاني المستعين ، أمير سرقسطة ، وله كتاب « المستعيني » في الادوية المفردة .

وقدر درسه رينو :

H.P.J. Renaud: Trois études de la médecine en occident : 1. Le Mustaini d'Ibn Beklares, in Hesperis (Paris, 1931), pp. 135-150.

و - أبو الأعلى زهر الاشبيلي

هو والد الطبيب المشهور أبي مروان بن زهر ، وقد ألف كتاباً عديدة في الادوية المفردة والعلاجات والاغذية . ومن أهمها كتاب « التذكرة » .

وقد درسه جورج كولان :

G. Colin: „La Tedkira d'abu'l-Ala", Publications de la Faculté des Lettres d'Alger, t. XIV (Paris, 1911).

ز - أحمد الفافقي

هو أبو جعفر أحمد بن محمد الفافقي : ولد بقرية قرب قرطبة ، وهو في نظر مايروهوف أكبر عالم بالصيدلة والنبات في العالم الاسلامي . وقد عاش في النصف الاول من اقرن السادس الهجري .

وقد فاع كتابه الاصل في الادوية ، لكن بقي مختصره الذي قام به أبو الفرج جريجوريوس ابن العبري (المتوفى في سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) .

وقد بدأ في نشر هذا المختصر ماكس مايروهوف وجورج صبيح ضمن مطبوعات كلية الطب في جامعة القاهرة (الكراسة الاولى سنة ١٩٣٢ ، والثانية سنة ١٩٣٣ ، والثالثة سنة ١٩٣٨) .

وكتب عنه ماكس مايروهوف البحث التالي:

M. Meyerhof : u Ueber die Pharmacologie und Botanik des Ahmad al-Ghafiqi, in Archiv f. Gesch. d. Mathematik u. Naturwissenschaften, XIII (1930), pp. 65-74.

ح - ابن البيطار

ولعل أشهر كتب الصيدلة كتاب : « الجامع في مفردات الادوية والاغذية » الذي نشر في القاهرة ، يوافق سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م في ٤ مجلدات . وترجمه الى الفرنسية مع تعليقات : لوسيان كولير L. Leclere تحت عنوان :

Traité de simples par Ibn al-Bajthar. 3 Volumes. Paris 1877-83.

وله ترجمة المانية « رديشة سجدا » (مايروهوف) قام بها

ط - موسى بن ميمون

والدراسات الأوروبية منه لا تكاد تحصى ، وقد ذكر بعضها ماير هوف في مقدمة نشرته لكتاب « شرح أسماء العقار » الذي نشره ماكس ماير هوف في القاهرة سنة ١٩٤٠ عن المخطوط الوحيد الموجود في جامع ايا صوفيا باستانبول (رقم ٣٧١١) . وهو معجم ايجدى بأسماء العقاقير الطبية ، يقول موسى بن ميمون في مقدمته : « قصدى في هذه المقالة شرح أسماء العقاقير الموجودة في ازماننا المعروفة عندنا ، المستعملة في صناعة الطب في هذه الكتب الموجودة لدينا . ولا اذكر من الادوية المفردة المعروفة ، ما ترادفت عليه أسماء أكثر من واحد : اما بحسب اختلاف اللغات ، او بحسب أهل اللغة الواحدة ، لان الدواء الواحد قد تكون له أسماء كثيرة عند أهل اللغة الواحدة » (ص ٣) .

وقد أُرِدَف ماكس ماير هوف هذه النشرة للنص العربى بترجمة فرنسية مزودة بتعليقات وفيرة .

**خامسا - النبات والفلاحة**

واهم الأبحاث من الفلاحة عند العرب تدور حول كتاب « الفلاحة النبطية » ، وعنوانه الكامل هو : « **كتاب إصلاح الأرض وإصلاح الزرع والشجر والثمار ، ودفع الآفات عنها** » . وهذا الكتاب مترجم عن « السريانية القديمة » أو لغة « النبط » ومترجمه هو أبو بكر بن وحشية ، الذى عاش في بداية القرن الرابع الهجرى ، الذى يزعم أن مؤلفه شخص اسمه قطامى الذى عاش - بحسب تقدير اشفولسون - في القرن السادس عشر قبل الميلاد !

وقد توالى على دراسته :

- كاترمير Quatremère في مقال بعنوان : « مذكرة عن الانباط » ، المجلة الاسيوية J.A. سنة ١٨٢٥ ص ٢٣١ - ٢٣٥ .

- ماير E. H. F. Meyer مؤرخ علم النبات في كتابه عن « تاريخ علم النبات » ج ٣ ص ٤٢ ومايتلوا ، سنة ١٨٥٦

- اشفولسون : « بقايا الادب البابلى في الترجمات العربية » ، بطرسبرج سنة ١٨٥٩

D. Chwolson : Ueber die Ueberreste der altababylonischen Literatur in arabischen Uebersetzungen. St. Petersburg, 1859.

- ارنست رينان : « عن بقايا الادب البابلى القديم المحفوظة في النقول العربية » ، مقال في المجلة الجرمانية Revue Germanique سنة ١٨٦٠ ص ١٣٦ - ١٦٦

- ألفون جوتشميد A. Von Gutschmid : « الفلاحة النبطية واخوانها » . مقال في Zdmg سنة ١٨٦٠ ص ١ - ١١٠ .

وقد بين في مقاله هذا أن كتاب « الفلاحة النبطية » كتاب متحول مزيف كتب في العصر الاسلامي ، وايد هذا الرأي .

نيلدكه Th. Noeldeke : المستشرق العظيم في مقاله بعنوان : « مزيف من القول في الفلاحة النبطية » ، في مجلة ZDMG سنة ١٨٧٦ ص ٤٤٥ - ٤٥٥ .

— وبمضى نلنو الى ابعد من هذا فيقول انه ليس من المحتمل ان يكون ابن وحشية هو مؤلف الكتاب ، بل هو مما انتجته (أبو طالب احمد بن الحسين بن علي بن احمد بن محمد بن عبد الله) الزيات ، الذي يقول انه كان تليدا لابن وحشية وذلك في كتابه « علم الفلك » ، روما سنة ٢٠٧ .

— ويندفع باول كراوس في هذا الابتكار الى حد ان يقول ان ابن الزيات هو ليس فقط مؤلف كتاب « الفلاحة النبطية » بل هو ايضا الذي اخترع شخصية ابن وحشية — وذلك في كتابة « جار بن حيان » ج ١ ، المقدمة ص LIX .

— وفي اتجاه مضاد سمى بعض الباحثين مثل ليدمن « عن الفلاحة النبطية لابن وحشية » مقال في مجلة ZS سنة ١٩٢٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ومارتن بلسنر « الفلاحة النبطية » لابن وحشية محاولة لرد اعتبار ابن وحشية » ، وفي مجلة ZS سنة ١٩٢٨/١٩٢٩ ص ٢٧ - ٥٦) وبرجدولت E. Bergdult « من تاريخ علم النبات في الشرق ١ : ابن وحشية » ، تقارير جمعية علم النبات الألمانية سنة ١٩٣٢ ص ٣٢١ - ٣٣٦) — نقول : سمى هؤلاء الى رد اعتبار ابن وحشية وتوكيد وجوده وكونه مؤلف « الفلاحة النبطية » .

وحسبنا هذا القدر لبيان ما لقي هذا الكتاب الفريد من عناية بالغة .

١ - أبو حنيفة الدينوري

وثاني كتاب لقي العناية من الباحثين هو « النبات » لابن حنيفة الدينوري (المتوفى حوالي سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) .

واكبر الباحثين في هذا الكتاب ب. زليبرج B. Silberberg ، فقد خصص هذا الكتاب برسالة للدكتوراه من جامعة برسلاو سنة ١٩٠٨ ، وعنوانها : كتاب النبات لابن حنيفة احمد بن داود الدينوري . اسهام في تاريخ النبات عند العرب . وقد نشر قسم منها في مجلة الاشوريات ZA سنة ١٩١٠ ص ٥٢٥ - ٢٦٥ ثم سنة ١٩١١ ص ٣٩ - ٨٨ .

ولا يزال لكتابه هذا قيمة كبيرة ، على الرغم من انه لم يعرف ما اكتشف بعد من اصول مخطوطة لبعض اجزاء كتاب « النبات » ، ومجموعها سبعة اجزاء (راجع « الفهرست » لابن نديم ص ٠٢٨) .

وقد نشر ب. ليفين Lewin الجزء الخامس من هذا الكتاب في إسمالا (السويد) سنة ١٩٥٣ ، كما اعد للنشر الجزء الثالث لينشر ضمن مجموعة Biblioteca Islamica

ب - ابن العوام

اما في الاندلس فيبدو ان الباحثين العرب في علم الفلاحة قد استنوا ايضا الى مصادر لاتينية ، بينما زملائهم في الشرق الاسلامي اعتمدوا على مصادر يونانية (مثل كتاب « الفلاحة » المنسوب الى بليناس ، وكتاب كسيانوس بلسوس) وفارسية .

- واولهم احمد بن محمد الحجاج (وقد الف كتابه سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م) في كتابه « المتقن » ، الذي بقي لنا قسم منه في المخطوط رقم ٥٠١٣ بالكتبة الوطنية في باريس . وقد عني بدراسته مياس فيكروسا ، فكتب عنه مقالين : (١) « تقاليد علم الفلاحة في اسبانيا العربية في » محفوظات معهد تاريخ العلوم « سنة ١٩٥٥

Millas — Vallicrosa : „La Tradicion de la Ciencia geoonica" in : Arch. Int. d'Hist. des sciences, 1955.

٢٩ ، « اسهام في دراسة كتابي ابن حجاج وابي الخير في الفلاحة » مجلة Al-Andalus سنة ١٩٥٥ ص ٨٧ - ١٠٥ .

- وثانيهم هو ابو زكريا يحيى بن محمد بن العوام (عاش في النصف الاول من القرن السادس الهجري ، راجع بروكلمن ج ١ ص ٩٤) صاحب كتاب « الفلاحة » (ومنه نسخ في ليدن برقم ١٢٨٥ ، وباريس برقم ٢٨٠٤ ، والمتحف البريطاني برقم ٩٩٨ ، والاسكوريال فهرست الفورييري برقم ٩٠١) وقد ترجمه الى الاسبانية وعلق عليه J.A. Banquer في مدريد سنة ١٨٠٢ في مجلدين مع نشر النص العربي .

ومما كتب عنه من ابحاث : (١) C. Moncada, أعمال المؤتمر الثامن للمستشرقين ، القسم الأول ص ٢١٧ - ٢٥٧ .

(٢) C.E. Dubler في مجلة « الاندلس » Al-Andalus ج ٦ ص ١٤٢ وما يتلوها .

ج (والثالث هو ابن بصال ، وقد بقي من كتابه في الفلاحة الفصول الخمسة الاخيرة ، وقد نشرها مياس في Tamuda 1 (1953) P. 47-58. وراجع نفس المجلة ج ٢ ص ٣٣٩ - ٣٤٤

• • •

سادسا - في الرياضيات

وللعرب في الرياضيات اليد الطولى ، ومن هنا كثرت دراسات المستشرقين والباحثين الاوروبيين (اعتمادا على الترجمات اللاتينية) في هذا الميدان ،

١ - دراسات عامة

ولنبداً بذكر الدراسات العامة :

- سيدوي : « مواد لتاريخ المقادير للعلوم الرياضية عند اليونان والشرقيين ، في جزئين ، باريس ١٨٤٥ ، ١٨٤٩

L.P.E. A. Sedillot : Matériaux Pour servir à l'histoire comparée des sciences mathématiques chez les Grecs et les Orientaux.

ابحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب

- ١ - كاتسور : « محاضرات في تاريخ الرياضيات » ج ١ ص ٥٩٢ - ٧٠٠ ، ليتسك ١٨٨٠
- M. Cantor Vorlesungen ueber Geschichte der Mathematik
- هـ - سوتر : « علماء الرياضة والفلك العرب وأعمالهم ليتسك سنة ١٩٠٠ »
- H. Suter: Die Mathematiker und Astronomer der Araber und ihre werke (Abh. Zur Gesch. der math. wissenshaften mit Einschluss ihrer Anwendungen, X, Suppl. zum 45 Jahrg. der Zeitschrift für Math. u. Physik. Nachträge u. Berichtigungen dazu ebenda, XIV (1903), S. 147-185.
- ٢ - موريس اشتينشيل : « الرياضيون العرب » في مجلة OLZ ج ٧ العدد ٦ ، يونيو ١٩٠٤ ، ج ٩ عدد ١ (يناير سنة ١٩٠٦) .
- ٣ - سنشيل بيرث : « تراجم الرياضيين العرب ازدهروا في اسبانيا » مدريد سنة ١٩٢١
- J.A. Sanchez Perez : Biografías de matematicos arabes qui florecieron en Espana.
- ٤ - اللومبيلي : « العلم العربي ودوره في التطور العلمي العالمي » مع بعض إضافات كتبها رينو ومايرهوف وروسكا ، لندن ، سنة ١٩٣٨ .
- Aldo Miel : A science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale, avec quelques additions de H.P.J. Renaud M. Meyerhof, J. Ruska. Leiden, 1938.
- ٥ - ماسنيون وارتالز : الفصل الخاص بتاريخ الرياضيات والعلوم عند العرب في كتاب : Histoire générale des sciences, sous la direction de René Taton, Vol. I: Science antique et médiévale (des origines à 1450). Paris, PUF, 1957.

ب - دراسات خاصة

- ١ - عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي
- وأقدم الرياضيين العرب الجديرين بالذكر عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي ، الذي عاش في أيام الخليفة المأمون واشتغل في «بيت الحكمة» وقد توفي بعد سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م .
- وقد ترجم جيردو الكريمون في القرن الثاني عشر كتابه : « مختصر من حساب الجبر والمقابلة » ، ونشر هذه الترجمة جليلمو لبري G. Libri في باريس سنة ١٨٢٨ .
- وقد نشر نصه العربي وترجمته الى الانجليزية Fr. Rosen تحت عنوان : The Algebra of Muhammad bin Musa, ed. and transl. London, 1831.

ومن دروسه :

- ١ (١) فيلنتر : « تمرينات في تقسيم الميراث عند محمد بن موسى » ، مقال في Mitteil. z. Math. u. Nat., 53 (1922) P. 57-67 .
- ٢ (٢) س - جابلز : « مصادر جبر الخوارزمي » ، مقال في مجلة Isis سنة ١٩٣٦
- S. Gandz: Sources of al-Khwarizmi's algebra ٢٧٢ - ٢٧٤

ج (ف . مائر : « القسم الهندسي من جبر الخوارزمي » مقال في
Nouvelles annales des Mathematiques V (1846) P. 557-70, et dans : Annali di
matematica pura ed applicata VII, Roma 1866.

د (كرولو الفرنسيو تلينو : « الخوارزمي واصلاحه لجغرافيا بطليموس »
RAL, ser. V. Vol 2, la, Roma 1894.

٢ - ثابت بن قرة الحرائي

ولد في حران سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م وكان من الصابئة . وتوفي في ٦ صفر سنة ٢٨٨ هـ
(= ١٨ فبراير سنة ٩٠١) ومن أهم كتبه في الرياضيات : « كتاب المفردات » وكتاب « الاكر
والمخروطات » ، « في القرسطون » . وممن كتبوا عنه :

أ (د . اشغولرون D. Chawolohn في كتابه عن « الصابئة » ج ١ ص ٥٤٦ - ٥٦٧ .

ب (فوبسكه Woepcke « تعليق على نظرية اضافها ثابت بن قرة للحساب النظري
اليوناني » ، في « المجلة الآسيوية » JA سنة ١٨٥٢ ج ٢ - ٤٢٠ - ٤٢٦ .

ج (وعن ترجماته وملخصاته للكتب اليونانية كتب اشتينشيدر في مجلة ZDMG المجلد
الخمسون ص ١٧٣ .

د (A. Bjornbo : « كتاب ثابت من الشكل القطاع ، مع ملاحظات لسوتر ، وتكملة
مؤلفة من ابحاث عن تاريخ حساب الثلثات وقياس الاكر عند المسلمين » ، ايرلنجن سنة ١٩٢٤
(« ابحاث في تاريخ العلوم الطبيعية والطب » (الكراسة ٧) .

٣ - الحسن بن الهيثم

أبو علي الحسن محمد بن الحسن بن الهيثم البصري ثم المصري ، المعروف عند اللاتين
باسم Alhazen المتوفى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م . وقد اشتهر في ميدان الرياضيات والبصريات
مما .

وممن عتوا بدراسته :

أ (م . كانتود : « محاضرات في تاريخ الرياضيات » ج ١ ص ٦٧٧ وما يتلوها .

ب (نردوتشي M. Marducci في
Boncompagni : Boll. di bibl.
e. di storia delle scienze mat. e fis. TV, Roma, 1871.

ج (م - سديو : « تعليق على مقالة في المعلومات للحسن بن الهيثم » ، مقال في « المجلة
الآسيوية » ، السلسلة الثانية ج ٤ ، ص ٤٣٥ وما يتلوها .

د (فيلمن : « ابن الهيثم » عالم عربي ، الكتاب التذكاري المهدى الى ي . روزنتال ،
ليبتسك سنة ١٩٠٦ ص ١٤٩ - ١٧٨

أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب

هـ) موتر : « كتاب تربيع الدائرة لابن الهيثم ، نشرة للنص العربي وترجمة ألمانية » في مجلة الرياضيات والفيزياء .

Zeitschr. f. Math. u. Physik. Hist. Lit. Abt. 44 (1899), Heft 23, S. 33-47.

و) فيدمن : نشر فصولا من « القول في المكان » و « شكل نبى موسى » في SBPh MS, Erlangen 1909

٤ - عمر الخيام (توفي سنة ١١٧ هـ / ١١٢٣ م)

الشاعر المشهور صاحب «الرباعيات» وهو من كبار الرياضيين ، ومن مقالاته العربية في الرياضيات :

أ) « مقالة في الجبر والمقابلة » منه نسخة في لندن برقم ١٢٠ ، وباريس برقم ٢٤٥٨ .

ب) « رسالة في شرح ما اشكل من مصادرات اقليدس » ، ومنه نسخة في لندن برقم ١٦٧

ج) « في الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة في جسم مركب منهما » ، ومنه نسخة في جوتا برقم ١١٥٨ .

ومن كتبوا عنه بوصفه رياضيا :

١ - و ١٠ . استوري : « عمر رياضيا » ، بوسطن سنة ١٩١٨
W.E. Story : Omar as Mathematician, Boston, 1918.

٢ - فويسكه : « جبر عمر الخيام » ، باريس سنة ١٨٥١
Woepcke: L'algèbre d'Omar al-Khayyami, Paris 1851.

٣ - فيدمن : « في تحديد الأوزان النوعية »
Wiedemann : Ueber Bestimmung der spezifischen Gewichte,
SBPMS, Erlangen XXXVIII, 1906, p. 170-173.



سابعا - في علم الفلك

خير كتاب في تاريخ الفلك عند العرب عر كتاب كرو الفونسو نلينو وهو بالعربية ومنوانه :

« علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى : ملخص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية : ١ ، ٢ ، ٣ » وقد طبع في روماسنة ١٩١١ ضمن « منشورات الجامعة المصرية » .

يضاف اليه (١) جورج سارتون : « مقدمة الى تاريخ العلم » ج ١ : من هوميروس الى عمر الخيام » ، بليتيمور سنة ١٩٢٩ (منشورات معهد كرينجى ، رقم ٣٧٦)

(٢) وأقدم من تناول الموضوع : ديلامبر : « تاريخ الفلك في العصر الوسيط » ، باريس سنة ١٨١٩

J.B.J. Delambre : Histoire de l'astronomie au moyen âge.

(٣) نويجباور : « تاريخ الفلك الرياضى القديم » .

O. Neugebauer of ancient Mathematical astronomy. Springer-Verlag, Berlin, New York, 3 Volumes, 1975.

(٤) وآخر الأبحاث الممتازة كتاب بول كونتشي : « المجسطى » ، فيزيادان سنة ١٩٧٤

Paul Kunitzsch : Der almagest. Die syntaxis Mathematica des Claudius Ptolemaeus in arabisch-lateinischer Ueberslieferung.
Harrassowitz, Wiesbaden, 1974, XVI — 384 pp. — 10 Taf.

ب - دراسات مفردة

١ - أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البخى

من اكبر الفلكيين في العصور الوسطى الاسلامية والاوربية ، وتوفى في = ٢٨ ومضان سنة ٢٧٢ هـ/ ٨ مارس سنة ٨٨٦ م . ومن أشهر كتبه : « كتاب الألوف في بيوت العبادات » وهو كتاب يقع في ثمانى مقالات . راجع عنه لبرت Lippert في WZKM المجلد التاسع ص ٢٥١ - ٢٥٨ . وكتاب « المدخل الكبير الى علم احكام النجوم » . وكتاب « مواليد الرجال والنساء » ، وكتاب « قرانات الكواكب » .

وتجد ذكرا له في كتاب نيلنو ، وسوتر (٢٨)

٢ - أبو على محمد بن جابر بن سنان البتاني

كان صابئاً من حران ، ولد قبل سنة ٢٤٤ هـ/ ٨٥٨ في حران ، ثم اهتمق الاسلام . وعاش معظم حياته في الرقة حيث بدأ هناك ارساده الفلكية . وتوفى في سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م . ويعدده المسمودى من اعظم الفلكيين في الاسلام .

١- اشفولسون : « الصابئة » ج ٢ ص ٦١١ وما يتلوها .

ب - م . كانتور : « تاريخ الرياضيات » ص ٦٣٢

ولكن خير دراسة هي ما قام بها كارلو الفنسوم نشر زيج البتاني وترجمته والتعليق عليه ، استناداً الى المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب الموجودة بالاسكودريال (اسبانيا) . وبين هناك المصادر اليونانية واللاتينية والفهلوية والهندية التي اخذ عنها الفلكيون العرب نظرياتهم . ويقع هذا العمل في ثلاثة مجلدات ضخمة من ١١٣١ صفحة من قطع الربع . وبهذا العمل الفذ صار نيلنو أكبر حجة في تاريخ الفلك عند العرب .

٣ - أبو الوفاء البوزجاني

ولد في أول رمضان سنة ٣٢٨ هـ / ١٠ يونيو سنة ٩٤٠م في بوزجان بالقرب من نيسابور.
وتوفي في سنة ٣٨٧ ، أو في رجب سنة ٣٨٨ هـ (يوليو سنة ٩٨٨) . ومن أهم مؤلفاته :
« المجسطي » وهو تقليد لكتاب بطليموس بهذا العنوان ، ومنه نسخة في باريس برقم ٢٤٩٤ .

ومن درسه :

١ - سديو : « مواد ... » ص ٤٢ وما يتلوهما

ب - كراى فو في مقال في « المجلة الآسيوية » JA المجلد ١٩ ص ٤٠٨ - ٤٧١ .

ج - ر . فولف R. Wolf : « تاريخ الفلك » ص ٥٣ ، ٣٠٤

د - سوتر Suter في « دراسات في الرياضيات والعلوم الطبيعية » أولنجن سنة ١٩٢٢ .

٤ - أبو الحسن علي بن سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصوفي

عاش في خدمة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي ، وتوفي في ٣ شوال سنة ٣٩٩ هـ (٣ مايو سنة ١٠٠٩) ويعد إلى جانب البتاني أكبر فلكي عربي . أشهر كتبه : « الزيج الحاكمي » نسبة إلى الحاكم بأمر الله .

ومن درسه :

١ - دلامبر : « تاريخ الفلك في العصر الوسيط » ص ٧٦ وما يتلوهما .

ب - ف . ميرن F. Mehren في F. frymd'z Nord. Old Annaler for Nord. سنة ١٨٥٧ ص ٢٥

ج - كوسان دي برسيغال

Notes et Ex : Caussin de Parceval traits VII, I6, p. 240.

د - C. Schoy في مجلة Isis ج ٥ سنة ١٩٢٣ ص ٣٦٤ - ٣٦٦ وقد ترجم شوي

إلى الألمانية بعض فصول من « الزيج الحاكمي » في :

Annal. d. hydrograph. u. marit. Meteorologie, Hamburg, 1921

Gnomonik der Araber, Berlin, 1923.

٥ - أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر بن الصغار الفالقي الاندلسي

هو تلميذ مسلمة الجريطي ، عاش في قرطبة ، ثم لجأ إلى جزيرة دانية وتوفي فيها سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م وله « رسالة في الاسطرلاب » معظمها مأخوذ من كتاب استاذة مسلمة .

وقد درسه مياس مايكروسا J. Millas Vallicrosa في بحث باللغة القطلونية

عنوانه : « بحث في تاريخ الاراء الفيزيائية والرياضة في قطلونيا في العصور الوسطى ج ١ ، برشلونة سنة ١٩٣٦ وترجم كتاب « الاسطرلاب »

٦ - أبو الريحاني البيروني

صاحب كتاب « الهند » والآثار الباقية من القرون الخالية)، لكن يهملنا هنا ما كتبه في الفلك،
وأهم مؤلفاته في الفلك :

١ - « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم »

وقد نشره رمزي رايت Ramsay Wright في لندن سنة ١٩٢٤ مع ترجمة انجليزية بعنوان :
The Book of Introduction to the art of astrology by al-Biruni written in Ghazna 1039 A.D.,
reproduced from the Ms. in the British Museum, with translation facing text, by
Ramsay Wright.

ودرس بعض فصوله فيدمن E. Wiedemann في Beitr. 27 خصوصا ما يتعلق بالمساحات
والمسافات على الارض .

٢ - « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » وقد اهداه الى السلطان النزوي مسعود بن محمود
في سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م .

ومن بحث فيه :

- فيدمن في Eders Jahrb سنة ١٩١٤

- فيدمن في « محفوظات تاريخ الطب » سنة ١٩٢٣ ص ٤٣ - ٥٢

- شوي C. Shoy في مقال بعنوان : « من الجغرافيا التنجيمية عند العرب » في مجلة
Isis ج ٥ ص ٥١ - ٧٤ ، ج ٦ ص ١٤٧١

- شوي : « تحديد عرض مدينة غزنة » مقال في Ann. d. Hydrographie سنة ١٩٢٥
ص ٤١ - ٤٧ ، مجلة ج ٧ ص ٥٣٦ ، ج ٨ ص ٧٣٩

٣ - « استيعاب الوجوه الممكنة في صناعة الاسطرلاب » - ترجم مقدمته فيدمن في
Das Weltall ج ٢ ص ٢١ وما يتلوه .

ودرسه J. Frank : « الاسطرلاب » في SBPMS, Erlang سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ ص ٥٥٢
وما يتلوه .

و هـ - زيم H. Seomann و Th. Mittelberger بعنوان : « تأملات عامة للبيروني في
كتابه من الاسطرلابات » ، في SBPMS, Erlangen 52 (1922) (1922)

وفيد من : « تحديد حجم الارض عند البيروني في « محفوظات تاريخ العلوم الطبيعية
والتكنيك ج ١ سنة ١٩٠٨ ص ٦٦ - ٦٩ .

٤ - « استخراج الاوزان في الدائرة بخواص الخط المنحنى الواقع فيها » وقد ترجمه وشرحه
هـ - سوتر H. Suter في ليتسك سنة ١٩١٠ - سنة ١٩١١ في Bibl. Math. F. 11, 5

٥ - « تحديد نهايات الأماكن وتسطيح مسافات المسكن »

راجع كركوف في Islamic Culture VI, p. 528-34

ونذكر من الأبحاث عن البيروني أيضا :

١ - خ . برنت خينس Vernet Gines : البيروني وحركات الأرض « في أعمال مؤتمر البيروني في طهران ، القسم الإنجليزي والفرنسي ، ص ٢١٩ - ٢٨٤ ، طهران سنة ١٩٧٦ .

٢ - لورنس بول الول - ستون : « البيروني وأقواله في الأسطرلاب » ، في أعمال مؤتمر البيروني في طهران المنعقد في سبتمبر سنة ١٩٧٣ ، القسم الإنجليزي والفرنسي ص ١١٣ - ١٢٧ طهران سنة ١٩٧٦ .

٣ - ل . ا . سيديو L. Am. Sedillot : « مذكرة عن الآلات الفلكية عند العرب » ، باريس سنة ١٨٤١ .

٤ - كارل شوي Carl Schoy : « نظريات حساب المثلثات عند الفلكي الفارسي أبي الريحاني محمد بن أحمد البيروني ، بحسب ما عرضه في كتاب القانون المسعودي » . هانوفر ، سنة ١٩٢٧

٥ - فيوريني Fiorini : « استقاطات الخرائط الجغرافية للبيروني » ، في Boll. soc. geografica ital (3 ser.)

٦ - لوي ماسينسون : « البيروني والقيمة العالمية للعلم العربي » في

Al-Beruni commemorations volume. Iran Society, Calcutta, 1951, texte reproduit ap.

Louis Massignon : Opera Minora, t. II, Beyrouth, 1963

٧ - س . بينس S. Pines : « نظرية دوران الأرض في عصر البيروني » مقال في « المجلة الآسيوية » ٢٤٤ (١٩٥٦) ص ٣٠١ - ٣٠٥

٧ - ابن رشد

إلى جانب الدراسات العامة عن ابن رشد بوصفه فلكيا ، نشير إلى الأبحاث التالية :

١ - ليون جوتيه Leon Gauthier : « إصلاح نظام بطليموس الفلكي كما حاوله الفلاسفة العرب في القرن الثاني عشر » ، في « المجلة الآسيوية » A السلسلة العاشرة المجلد ١٤ (سنة ١٩٠٩) ص ٤٨٣ - ٥١٠

٢ - ف . ج . كرمودي F.J. Carmody : « نظرية ابن رشد في الكواكب » مقال في مجلة Osiris المجلد العاشر (١٩٥٢) ص ٥٥٦ - ٥٨٦

٣ - برنارد جولدشتين Bernard R. Goldstein : « الرواية العربية لفروض بطليموس الفلكية » في

Transactions of the American Philosophical society, new series, Vol. 57: (1967) Par 4.

٤ - بيتر دوهم : « نظام العالم من افلاطون الى كوبر نيكوس »
Pierre Duhem : Le Système du monde: de Platon à Copernic, t. IV, PP. 532-575, Paris, 1916.



ثامنا - في الفيزياء

اكثر عالم عربى في الفيزياء هو الحسن بن الهيثم ، وقد اشرنا الى ما كتب عن أعماله الرياضية . ولنتناول هنا ما كتب عنه بوصفه فيزيائيا ، خصوصا ما يتعلق بالبصريات .
والابحاث عديدة في هذا الباب ونكتفي بذكر الآتي :

- ١ - ونتر : ابحاث ابن الهيثم في البصريات
H. J. Winter : The optical researches of Ibn al-Haitham, in
Contaurus, 3 (1954), pp. 19-210.
- ٢ - ونتر ووليد عرفات : « ابن الهيثم والمرايا ذات البؤرة التى على شكل قطع زائد »
مقال في JRAS ج ١٥ (سنة ١٩٤٩) ص ٢٥ - ٤
- ٣ - ونشر مياس بايكروزا ترجمة لاتينية مجهولة لرسالة في الفلك لابن الهيثم بحسب مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد رقم ١٠.٥٩ (ورقة ٣٧ - ١٥٠) في
Las traducciones orientales, n. 9, pp. 285-312
- ٤ - ١ . س . مارشال : « ابن الهيثم والتلسكوب »
O.S. Marshall : „Alhazen and the telescope:“, Astronomical society of
the pacific. San Francisco, 1950.
- ٥ - ه . ه . باور H. Bauer : علم النفس عند الحسن بن الهيثم ، بحسب نظرياته في
البصريات « مونستر ١٩١١ » ضمن مجموعة
Beitr. z. Gesch. d. Philosophie in Mittelater
- ٦ - فيدمن : مقالات عديدة في مجموعة
Beitr. zur. Gesch. d. Nat. SBPMS, Erlangen
- ٧ - وترجم ي . ل . هينبرج J.L. Heiberg وفيدمان كتاب : « في الرايا المحرقة
بالتطوع » ، وترجم فيدمان كتاب « مقالة في الرايا المحرقة بالدوائر » - وذلك في
Bibl. M ath. 3. Folge, B. 10 (1910),
pp. 201-37, 293-307

« اعادت طبعها دار نشر Olms في هلدسهيم بالمانيا
Eilhard Wiedemann : Aufsätze zur arabischen wissenschaftsgeschichte, mit einer
Vorwort und Indices, herausgegeben von Woldfriedrich Fischer.
Hildisheim - New York, I, II, 1970.

٨ - وترجم C. Schoy إلى الألمانية ايضا رسالة « ماهية الاثر الذى في وجه القمر » ، وظهرت هذه الترجمة في هانوفر سنة ١٩٢٥ .

وقد كشفت هذه الأبحاث وغيرها عن العبقرية العلمية العظيمة التي لابن الهيثم في مجال الفيزياء، والبصريات على وجه التخصيص ، وما يمثلها إنتاجه العلمى من « تقدم كبير في المنهج التجريبي . لقد استعمل المرايا الكروية والقطع مكافئة ، ودرس الانحراف الكروي ، وقوة العدسات على التكبير والانكسار الجوي ، وصحح معرفتنا بالعين وبعملية الإبصار ، وحل مشاكل في البصريات الهندسية بواسطة رياضيات قادرة . والترجمة اللاتينية لأعماله في البصريات أحدثت تأثيرا ضخما على نمو العلم في الغرب ، خصوصا من خلال دروجريكون وكبلر « ولیم سيسيل دامير : « تاريخ العلم » ط ٤ سنة ١٩٦٦ ، كمبردج ص ٧٥) .



تاسعا - في الميكانيكا والآلات

عرف العرب من الكتب اليونانية في الميكانيكية ما يلي (راجع « الفهرست » لابن النديم ص ٢٨٥) :

١ - كتاب عمل الآلة التي طرح البنادق لارشميدس الذى من سرقوسة في صقلية (٢٨٧ - ٢١٢ ق م) . وهو أكبر عالم يوناني بالميكانيكا ، اذ استطاع الجمع بين الرياضيات والبحث التجريبي في الآلات والحركات . ومن بين اختراعاته : المدافع من أجل الدفاع عن سرقوسة . وقد بقى لنا عشر مؤلفات من مؤلفات اليونانية ، نشرها تاماس هيث Thomas Heath سنة ١٨٩٧ - ١٩١٢ ، كما نشرها قبل ذلك Torelli في سنة ١٧٩٢ ثم Heiberg سنة ١٨٨٠ - ١٨٨١ .

٢ - كتاب الدوائر والدواليب لهرقل النجار

٣ - كتاب في الأشياء المتحركة من ذاتها لايرن - وهو هيرون الميكانيكي الرياضي والفيزيائي والمخترع الذى عاش ما بين القرن الاول قبل الميلاد والثالث الميلادى . وقد اكتشف حلولاً جبرية لمعادلات الدرجة الاولى والدرجة الثانية ، ووضع صيفا عديدة لقياس المساحات والحجوم . وبين ان الخط الذى يسلكه شعاع ضوء منعكس هو اقصر طريق ممكن ، لكنه اشتهر خصوصا بالحيل الميكانيكية التى اكتشفها مثل : السيرون والكشاف الحرارى ، والمضخات الهوائية ، والآلات البخارية الاولى . وقد بقى لنا من كتبه في الميكانيكا باللغة اليونانية اربعة كتب هي :

١ - pneumatica ويرد عنوانه في « الفهرست » وابن النديم (ص ٣٦٩) : هكذا : « كتاب الحيل الروحانية » .

ب - automatopoeitice

ج - Belopoeica

د - Cheiropallistra

أما كتابه *Mechanica* وهو الذي نتحدث عنه الآن والمترجم الى العربية بعنوان : « في الاشياء المتحركة من ذاتها » فلا يوجد نصه اليوناني ، بل يوجد فقط في ترجمة عربية ملخصة نشرت مع ترجمة فرنسية .

وقد نشر النص اليوناني لهذه الكتب بعنوان :

Heroni alexandrini opera quae supersunt omnia, ed. W. Schmidt,

L. Nix, H. Schone und J.L. Heiberg, 5 Vols. (1899-1914).

٤ - كتاب الدواليب لمورطس

٥ - كتاب الارغن

٦ - كتاب آلة ساعات الماء التى ترمى بالبنادق لارشميدس (« الفهرست » لابن النديم ص ٢٦٦)

وأول من اشتغل بالميكانيكا فى الاسلام بنوموسى بن شاكر (محمد وأحمد والحسن) .
ولهم فى ذلك من الكتب :

١ - كتاب « الحيل » لاحمد بن موسى .

٢ - كتاب بنى موسى فى « القرسطون » - وهذه كلمة يونانية $\chi\epsilon\lambda\mu\sigma\iota\sigma\tau\eta\rho\omicron\nu$ بمعنى

القناب. راجع دورن : « ثلاث آلات فلكية عربية » Dorn: Drei arabische astronomische Instrumentae
ولتسطينس لوقا كتاب فى « القرسطوسون » (« الفهرست » لابن النديم ص ٢٩٥) .

ومن أحدث الأبحاث والنشرات فى هذا العلم تحقيق د.ر. هل D.R. Hill لكتاب ابن الرزاز الجوزى : « كتاب فى معرفة الحيل الهندسية » مع ترجمة الى الانجليزية وتعليقات ، وكذلك مقدمة كتبها L. White سنة ١٩٧٤ من حجم الربع فى ٢٥+٢٨٦ صفحة و ١٧٤ شكل ، و ٣٤ رسم ٢ و ٣٢ صورة من مصفحات أصلية :

Ibn al-Razzaz al-Jazari : The Book of knowledge of ingenious mechanical devices.
Transl. and not. by D.R. Hill. Foreword by L. White, Jr. 1974, in 4 to (XXV, 286 P., 174 Fig., 34 draw, 32 reprod. of the orig. miniature paintings.

• • •

كتاب « الحيل » لاحمد بن موسى

درس هذا الكتاب :

- E. Wiedemann, SB Erlangen 38 (1906) pp. 341-348, XII (1907), pp. 200-205; Mitteilungen der Wetteranischen Gesellschaft, 1908, 29-36.
- E. Wiedemann, : „Ueber Musikautomaten bei den Arabern“, in Centenario della Nascita di Michele Amari, II, 1909, pp. 164-185.

- c) Wiedemann und Hauser, in *Isis*, VII, spp. 55-93, 286-91.
- d) F. Hauser : a Das Ktabal-Hiyal der Bani Musa uber die sinnreicher Anardnungen, in abhandlungen z. Geschichte d. Naturw, u. Medizin, 1, Erlangen, 1922.



عاشرا - في الاحجار والمعادن

- عنى المسلمون بعلم الاحجار (الجواهر الكريمة) والمعادن ، ونذكر منهم ما يلى :
- ١ - الفيلسوف الكندي له كتاب في « الجواهر والاشياء » ، « رسالة في انواع الجواهر الثمينة وغيرها » ، « رسالة في انواع الحجارة »
- ويقول البيروني في مقدمة كتابه « الجواهر » انه كان احد مصدرين اعتمد عليهما .
- ٢ - ابو سعيد مضر بن يعقوب الدينوري المتوفى بعد سنة ٣٩٧ هـ (راجع بروكلمن ج ١ ص ٢٤٤) ، والملحق ج ١ ص ٤٣٣ . وراجع « الجواهر » للبيروني ص ٣٢٠ .
- ٣ - محمد بن زكريا الرازي : « الجواهر والخواص »
- ٤ - محمد بن زكريا الرازي : « علل المادن » .
- ٥ - جابر بن حيان في رسائل مختلفة - راجع باول كراوس : جابر بن حيان « القاهرة ج ٢ سنة ١٩٤٢ »
- ٦ - ابو الريحان البيروني : « الجماهر في معرفة الجواهر » وسنفرده له فقرة خاصة بعد قيسل .
- ٧ - عطارد بن محمد : « منافع الاحجار »
- ٨ - ابو القاسم عبد الله بن على بن محمد بن ابي طاهر الكاشاني : « هرايس الجواهر واطايب النفائس »
- ٩ - احمد بن عبد العزيز الجوهري : « رسالة في الجواهر »
- ١٠ - ابن زهر الاندلسي : « خواص الاشياء »
- ١ - النيفاشي : « ازهار الافكار في جواهر الاحجار » - انظر فيما بعد . وكان لكتاب « الاحجار » المنسوب الى ارسطو تأثير واضح في بداية هذه الابحاث في الاحجار . وقد نشره وعلق عليه يوليوس روسكا :
- J. Ruska : Das Steinbuch des Aristoteles, mit literargeschichtlichen Untersuchungen nach der arabischen Handschrift der Bibliothèque Nationale, Herausgegeben und uebersetzt. Heidelberg, 1912.

وراجع ايضا :

H. Ritter F. Sane — R. Winderlich : Orientalische Steinbücher : 1935.

لكن ربما كان أهم ما وصلنا من هذه الكتب الإسلامية (العربية والفارسية) كتاب الجماهر في معرفة الجواهر وقد اهداه البرونى الى السلطان الغزنوى مودود . وينقسم الكتاب الى قسمين متميزين : الاول في الجواهر والاحجار الكريمة ، والثاني في المعادن والفلزات بوجه عام . والكتاب قد صححه F. Krenkow في سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦) ونشره في مجموعة دائسرة المعارف العشمانية في حيدر اباد الركن (الهند)

وقد ترجم القسم المتعلق بالآلء في مجلة Islamic Culture المجلد الخامس عشر ، سنة ١٩٤٢ .

وقد درسه : فيدمن : « في قيمة الاحجار الكريمة عند المسلمين »

Wiedemann : Ueber den

Wert von Edelsteinen bei den Mustimen, Isl. II, 345-358.

التيفاشي : « ازهار الافكار في جواهر الاحجار »

Fiori de Pensieri sulle

نشره وترجمه الى اللغة الإيطالية بيشيا بعنوان :

pietre preziose di Ahmed Teiffascite, opera stampata nel suo originale arabo, traduzioni italiana suppressa e diverse note di A.R. Biscia. Firenze, 1818.



تلك هي نخبة من الابحاث المهمة التي قام بها المستشرقون الاوروبيون والامريكيون في ميدان العلوم عند العرب والمسلمين بامة . وقد توالى منذ قرن ونصف بمختلف اللغات الاوروبية الحديثة، فكل لها فضل الكشف عن الدور العظيم الذي قام به العلماء المسلمون سواء في تقدم العلوم الرياضية والطبيعية والحيوية والطب والبيطرة والزراعة والفلك ، وفي نقلها وشرحها من التراث العلمى اليونانى والشرقى القديم (الهندسى والفارسى والسريانى) الى اوروبا في العصر الوسيط . واذا كانت الغالبية العظمى من مؤلفات العلماء المسلمين لا تزال على المخطوطات ، ولم تتناولها ايدى الدارسين بالبحث والتحقيق والتحليل والارجاع الى الاصول، فان ما بذله هؤلاء الذين اتينا على ذكر ابحالهم بعد مجهودا ضخما خفيقا بكل اعجاب وتقدير وعرفانا بالجهد . وان اسماء امثال فيدمن وسوتر ونلينو وروسكا وكراوس ينبنى ان تقرأ دائما بالاجلال . وانما الشيء المؤلم حقا هو اننا لا نمثر في الربع قرن الاخير على نظراء هؤلاء الاعلام الافنداء ، رغم ازدياد عسدد « المشتغلين » بتاريخ العلوم عند العرب ، ممن لا عمل لهم غير الترفلة في المؤتمرات والتباهى بالفضيل النافه من الورقات !

الطب والأطباء

حظي التراث الطبي اليوناني والتراث الطبي العربي باهتمام المؤرخين . فالكتابات في تاريخ الطب اليوناني والعربي كثيرة ، ولذلك رأى الباحث ضرورة ان يختط لنفسه منهجا يعالج به موضوعا متشعبا كموضوع «الطب والأطباء» . أقام الباحث حوارا بين الطب اليوناني والطب العربي ، ومن خلال هذا الحوار عالج الباحث الموضوعات التي تطرق إليها في بحثه .

اقتصر الباحث في عمله على بعض النماذج المثلة من الشخصيات الطبية ، تلك التي لا يختلف الأمر بشأنها كما يختلف بخصوص غيرها .

فمن المشرق العربي اختار « الرازي » و« ابن سينا » ومن المغرب العربي اختار « الزهراوى » . إبان البحث عن جهودهؤلاء الأطباء العظام مقارنا إياهم بما فعله الأطباء اليونانيون قبلهم . أوجز الباحث القول في نشأة الطب وأفاض في بيان فرق الطب عند اليونان وهى :-

١ - القياسيون (أصحاب القياس)

٢ - الامبريقيون (أصحاب التجربة عند اليونان)

٣ - الحليون (اصحاب الحيلة)

٤ - الروحانيون (النفثيون)

ثم عرض الباحث لمبادئ التجربة عنداليونان وهى :

١ - المبدأ الطبيعي .

٢ - المبدأ العرضى .

٣ - المبدأ الارادى .

٤ - المبدأ الثقيل .

وتناول الباحث الاصول الطبية اليونانيةالتي تجد صداها في الطب العربى وهى :

١ - نظرية الاخلاط

٢ - نظرية القوى الطبيعية الشافية

٣ - نظرية البحران (الايام البحرانية)

انتقل الباحث بعد ذلك الى حركة نقل التراث الطبي اليوناني الى العرب . وبذلك يتأسس الطب العربى على جهود المترجمين والمؤلفين .

ذكر الباحث جهود حنين بن اسحق في الترجمة والتأليف ، وجهود الرازى وابن سينا في الاستقلال بالرأى من الطب اليوناني . حنين بن اسحق يمثل المرحلة الاولى ، وهى مرحلة نقل التراث اليوناني الى اللغة العربية ، والرازى وابن سينا والزهرراوى يمثلون المرحلة الثانية ، وهى مرحلة التأليف والاستقلال بالرأى . اعتمد الباحث في دراسته هذه على المخطوطات الطبية العربية لإبراز النواحي الاصلية في الطب العربى ، ولذلك جاء حوار بين الطب اليوناني والعربى شاهدا على فضل السابق واستقلال اللاحق ، بحيث اصبح الطب العربى يوافقه في الكليات ويخالفه في الجزئيات . هذا النوع من الدراسات المنهجية المركزية اصدق في الدلالة من كثير من الدراسات التاريخيةالفرقة في التفصيلات .

اشار ابن ابي اصيبعة في كتابه « عيسون الانباء في طبقات الاطباء والحكماء » الى صناعة الطب وكيفية حدودها فقال « بعضهم يقول ان الطب خلق مع الانسان ، اذ كان احد الاشياء التي بها صلاح الانسان ، وبعضهم يقول ، وهم الجمهور ، انه استخرج بعد ، وهؤلاء ينقسمون قسمين : فمنهم من يقول ان الله الهمها الناس ، واصحاب هذا الرأى على ما يقوله ابتسراط وجالينوس وجميع اصحاب القياس . ومنهم من يقول ان الناس استخرجوها ، وهؤلاء قوم من

أصحاب التجربة وأصحاب الحيل ، وهم مختلفون في الوضع الذي به استخرجت (١) تكنى الإشارة فيما ذكره ابن أبى أصيبعة الى وجود فرق ثلاث تولت أمر هذه الصناعة . وهم : أصحاب القياس والتجربة والحيل .

١ - أصحاب القياس (القياسيون) :

كان أصحاب القياس في الاسكندرية على عهد البطالسة قبل المسيح بثلاثة قرون وهم شيعة هيرافيلوس (٢) ورازستراتوس (٣) ذهبوا الى القول بأن علاج الامراض متوقف على معرفة العلة . وبذلك يسهل الوقوف على ما يناسبها من الدواء لما يوجد بين الطبيعة والمزاج الانسانى من المشاكلة والمجانسة وذلك يتم الوصول اليه بأمريين :-

١ - الاعتقاد بأنه لا شئ في الطبيعة ولا في بدن الانسان الا وله غاية ومنفعة يجب الفحص عنها ليستدل بها على طلة الامراض وكيفية علاجها (٤)

٢ - ان لعلم التشريع نصيبا وافرا في اعادة الطبيب على معرفة الداء والدواء . (٥) ولذلك عنى أصحاب القياس بالتشريع ومعرفة منافع الاعضاء ووظائفها ، اى علم الفسيولوجيا بالمعنى الحديث .

ذهب أصحاب القياس ، وهم الجمهور الاعظم من اطباء اليونان ، الى ان (الطريق والقانون الى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية) .

وهذه المقدمات التى اوجبها هؤلاء الاطباء هي معرفة طبائع الابدان والاعضاء وافعالها . جعل القياسيون من اطباء هذه المقدمات أولية بمعنى التسليم بها دون البرهنة عليها أو الشك فيها ، علما بأن التسليم بصحة المقدمات يؤدي ضرورة الى التسليم بصحة النتائج المترتبة عليها .

اول المقدمات التى صرح بها اطباء القياس هي المقدمة الثالثة (معرفة علل ظواهر الحياة في حالتها السوية تعلمنا كيف نحول دون اختلالها ، وبالتالي كيف نحفظ الصحة) . (٦) يعمل كل

(١) ابن أبى أصيبعة : ميون الاتحاد في طبقات الاطباء ص ٣٤ - طبعة بيروت ١٩٦٥ .

(٢) SARTON (George) : Introduction to the history of science Vo. I. P. 159.

(٣) Ibid.

(٤) سانتلانا المذاهب الفلسفية - ج ٢ - ص ٤٦٠ .

(٥) نفس المصدر - نفس الصحيفة + اسماعيل مظهر في تاريخ الفكر العربى ص ٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ (قال وهو يتحدث عن معهد الاسكندرية وكان بها معهد مشهور للطب نبغ رجاله في علوم الطب وخاصة في علم التشريح) -

(٦) Bernard (Claude) : Introduction à l'étude de la medecine experimentale. P. 7 Paris, 1928.

عضو من أعضاء البدن الانساني حسب نظام واحد لا يتغير ، ولذلك كى نفهم كيفية حدوث الامراض وتفسيرها ، وكذلك فعل الادوية ، رأى القياشيون ضرورة معرفة وظائف الاعضاء في البدن وطبائعها ، أى صفاتها ، فضلا عن معرفة الطبائع الاربع (الحارة والباردة واليابسة والرطبة) وصولا للطبائع المضادة او المخالفة .

والقدمة التالية هى القائلة (ومعرفة الاهوية واختلافها والاعمال والصناعات والعادات والاشربة والاسفار ومعرفة قوى الامراض) (٧) .

لقد كان المناخ من اسباب نشوء الامراض فى نظر الاطباء اليونان ، فكان الاعتقاد بان « كل حالة طبيعية او مرضية تتفق ومناخ خاص » (٨) . وهذا ماحدا بأبقراط ان يجعل أحد مؤلفاته بعنوان « كتاب الاهوية والمياه والبلدان » (٩) ، فى ثلاث مقالات الاولى خاصة بتعرف امزجة البلدان واما تولد من الامراض . والثانية خاصة بتعرف امزجة المياه المشربة وفصول السنة . والثالثة خاصة بالازمنة ان كانت سقيمة أو سليمة .

سيطر على هذا المؤلف الطابع الفيشاغوري فى تقسيمه الرباعي اذ جعل البلدان اربعة والمياه

اربعة وكذلك الازمنة .

بحث الاهوية والمياه والبلدان بحث عن ثائر التكوين الانساني بالبيئة لا الطبيعية فحسب بل السياسية كذلك ، فالطب ابقراطي ياخلى الاعتبار الطعام الذى يتناوله الانسان ، ونوع المياه التى يشربها ، والمناخ الذى يعيش فيه . وليس من شك ان اشد المؤثرات التصاقا بالانسان بصفة مستمرة هو عمله اليومى . ويمكن تسمية هذا العامل بعامل البيئة أو طبيعة العمل ، اذ هو نتيجة افعال الانسان وعاداته الحميدة أو السيئة .

كان ابقراط واعيا بأهمية عمل الانسان ونوع عمله وان التزم الصمت ازاء الامراض الناجمة عن العمل ، اذ لم تبدأ دراسة هذا النوع من الامراض الا على يد الطبيب السويسرى باراكليس (١٠) فى القرن السادس عشر الميلادى .

Browne (Edward) Arabian medicine P. 116.

(٧)

(٨) غليونجى (بول) : ابن الكيس ص ٢٦ سلسلة اعلام العرب العدد ٥٧ طبعه القاهرة سنة ١٩٦٦ .

(٩) القيقوس : تاريخ اليعاقبة جزء (١) ص ٨٩ يذكر ان هذا الكتاب فسر جالينوس .

Farrington : Greek Science P. 70.

(١٠)

كانت مقدمات الطب القياسي دليلا يسترشد به الطبيب المعالج ، فالتشخيص للمرض هو نتيجة الاستدلال من المقدمات ، وقد اختلف هؤلاء في كيفية الاستدلال من الاغذية والادوية هل يكون بالطعم أو الرائحة أو اللون أو قوام الغذاء أو بفعله وتأثيره في الجسد .



ب - اصحاب التجربة (الامبريقيون) :

وبالاسكتندية ايضا وجدت مدرسة الامبريقيين (١١) وهم يدعون اصحاب التجربة على اساس ان التجربة باليونانية (امبريكي) وهم شيعة فيلنوس المتوفى سنة ٢٨٠ ق.م القائلون « ليس سبب المرض وباعثه ما يهم الطبيب انما العقار الشافي هو الذي يعنيه ، ليس كيف بهضم الطعام انما ما الشيء الذي يسهل هضمه وتحققه » . (١٢)

المثال على ذلك ما يقوله ابقراط من ان العسل ليس مناسباً لمن عنده سوداوية او افرازات مرارية مع انه حسن لتقدمى السن . بعض الاطباء وجد ذلك صحيحا على اساس التجربة ، والبعض وجده صحيحا من خلال علامات خاصة بطبيعة العسل وهم الامبريقيون فالتجربة عند هؤلاء عبارة عما يظهر من علامات المرض .

اعتبر الامبريقيون القياس قسما من اقسام التجربة الثلاثة وهى : الملاحظات الشخصية وملاحظات الغير والقياس ، وسميت هذه الاقسام ركيزة ثلاثية القوائم (١٣) .

ان التجربة عند هؤلاء علم يتكرر بالحس على المحسوس الواحد في احوال متغيرة ، فيوجد بالحس في آخر الاحوال كما يوجد في اولها ، والحافظ لذلك هو الجرب (١٤) .

ان الامبريقيين كانوا يقتضرون على ما يشاهد من الظواهر المحسوسة المرئية بالحواس الخمس فيعا لجونها من غير تعرض الى غير ذلك من المباحث كالبحث عن الملل وهو مراد اصحاب القياس . ان التجربة ما يظهر من علامات الداء وما ظهر منها من قبل حتى يستدل من ذلك على طريق العلاج للتجربة مبادئ اربعة هي في نظرهم بمثابة الاوائل والمقدمات اليها انقسمت التجربة فصارت بذلك اجزاء لها .

(١١) للغة Empiricism تعنى في الاصطلاح المستوى المطلوب للاختبار أو التجربة وحيانا التججيل وتعطى المنة بدون علم - انظر مؤلف حاسمة في تاريخ العلم - ترجمة أحمد زكي .

(١٢) سائلانا : المذاهب الفلسفية ج ٢ ص ٦٠ .

(١٣) فيلوبنچي (بول) : ابن النفيس ص ٢٧ .

(١٤) السمودي : مروج الذهب ص ١٧٣ .

اقسام التجربة عند اليونان :

القسم الاول : اول هذه الاقسام هو القسم الطبيعى وهو « ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض من الرعاف والبروق والاسهال والقيء التى تمقّب في المشاهدة منفعة او ضررا » (١٥) ، يركز الاطباء القدماء على فعل الطبيعة في الممرء ففى تفعل في السليم كما تفعل في العليل ، اى ان من افعالها ما يولد منفعة ومنها ما يولد ضررا ، وكلا الامرين : المنفعة والضرر يمكن مشاهدتهما كثر من آثار الطبيعة ، فالرعاف وهو خروج الدم من الانف يكون من الشرايين التى في حجب الدماغ ، وهو قد يحدث من غلبة الدم الذى هو امتلاء بحسب التجايف وهو ما يقصده الاطباء بالامتلاء ، وهم يرون ان هذا الدم الذى يخرج من الانف يريد على ما تفى الطبيعة بحفظه ، !ما العرق فهو وسيلة من وسائل اخراج فضول الهضم من البدن ، وكذلك القيء والاسهال للتخلص من المواد الزائدة عن حاجة الجسم والتى قد تسبب المرض ، وفي فصول ايقراط «الجسد يعالج على خمسة اضراب: ما في الرأس بالفرقة، وما في المعدة بالقيء ، وما في البدن باسهال البطن ، وما في الجسد بالعرق ، وداخل العروق بارسال الدم » (١٦) .

وذلك لان المبدأ الهام في الطب الاقراطى هو القوة الطبيعية الشافية ، ولذا وجب على الطبيب ان يكون حذرا وان لا يتسرع في التدخل في سير المرض خوفا من ان يحول دون عمل الطبيعة ، ولكن اذا حدث تاخر في ظهور الجرحان (١٧) وهو الذى يتالي في اثنائه التخلص من الخلط الزائد فعليه ان يساعد على ازالة المواد السقيمة بواسطة الفصد او الادوية المقيئة او المسهلات .

القسم الثانى : - اما القسم الثانى من اقسام التجربة فهو القسم العرضى وهو « ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل ، وذلك كما يعرض للانسان ان يجرح او يسقط فيخرج منه دم قليل او كثير ، او يشرب في مرضه او صحته ما باردا فيعقب في المشاهدة منفعة او ضررا . (١٨)

المراد اذن هو التجارب العرضية الاتفاقية ، وهى في الواقع تجارب حقيقية يستفيد منها الطبيب دون ان يكون قد تعمد احداث الاصابات ، فاذا حدث للانسان ان جرح او سقط من فوق دابته او من مكان مرتفع فنزف دما قليلا او كثيرا امكن للطبيب في هذه الحالة ان يشاهد على الطبيعة الاثر الذى احدثه الحادث العارض وذلك بفيده كثيرا في دراسة وظيفة عضو من الاعضاء او دراسة تأثير دواء معين ، على ان الاضطراب الذى يحدثه العارض في وظيفته العضو لا يختلف

(١٥) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٤ .

(١٦) ابن الكف : الاصول في شرح الفصول البقراطية ص ٣١ .

(١٧) فتوانى (جورج) : تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط ص ٧٨ .

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٤ .

عن الاضطراب المعمد الذى يلجأ الطبيب السىاحدائه فى حالة التجربة على الكائن الحى . مثال ذلك قول جالينوس فى المقالة الاولى من الاعضاء الالة :

« فعل العصب يبطل اما ببتره البتقى العرض او رضه او سده او لورم يحدث فيه او لبرد شديد يصيبه » (١٩) وهو القائل « العصب الذى ينبت فى الجلد يحس » (٢٠) . فاذا كان فعل العصب الوجهى يؤدى الى فقدان الحركة فانه لوحدث ان رصاعة طائشة او ضربة سيف قطعت هذا العصب او ابادته لنشأ عن ذلك شلل فى الحركة اى اضطراب .

هذه التجربة وان تكن للقائىة لم يستشها الطبيب الا انها واقعة عرضية تسهم فى ملاحظة سير المرض والوقوف على تأثير الدواء ، لم يكن الطب الايقراطي فى جلتها ملاحظة دقيقة لتحديد خصائص مرض ما بالنسبة الى تطوره ، ومعرفة ما سيؤول اليه من العواقب الموافقة او المخالفة ، وان يتنبأ بها بناء على علامات دقيقة ، وقد سمي ابقراط احد مؤلفاته باسم « تقدمة المعرفة » (٢١) بمعنى معرفة الشيء قبل وقوعه ، وهو يتضمن تعريف العلامات التى يقف بها الطبيب على احوال مرض ما فى الازمان الثلاثة الماضى والحاضر والمستقبل ، هذا من الشطر الاول من التعريف .

اما الشطر الثانى فيختص بطريقة العلاج فى الطب اليوناني ، اذ لما كان الطب قائما على معالجة الشيء بضده اى الحار بالبارد وبالعكس ، لاعتبار الحمى حرارة زائدة والرعدة برودة زائدة كان النظر الى الماء البارد هلى انه مفيد فى حالة الصحة ، ضار لمن به نزلة برد او زكام ، فاذا عرض للانسان زكام اعتقد الطبيب انه شرب ماء باردا ولذلك كان الطبيب يصف له دواء مسخنا كما فى حالة الحميات يوصى بالماء البارد لدفعها .

القسم الثالث من اقسام التجربة هو القسم الارادى : ويراد به « مايقع من قبل النفس الناطقة كممثل منام يراه الانسان ، وهو ان يرى كانه عاليج مريضا به علة مشاهدة معقولة بشيء من الاشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه او يخطر مثل ذلك ببالة فى حال فكرة ، فيتردد ويمطب ذهنه بمعطيه فيجربه بان يفعله كما يرى في منامه فيجده كما يرى او يخالف ذلك وفعله مرارا فيجده كذلك (٢٢) المعروف ان الارواح عند الفلاسفة ثلاث هى ١ - الروح الطبيعية

(١٩) الرازى : الحاوى ج ١ ص ٢ طبعة حيدرآباد الدكن سنة ١٩٥٥ الطبعة الاولى الراد بالسددة او السدد دار باخذ فى الاتف يفتح الشم وتنسم الريح - ابن الحشاء : مفيد العلوم ومبيد الهموم - نشرة كولان - طبعة الرباط سنة ١٩٤١ .

(٢٠) نفس المصدر - نفس الصحيفة .

(٢١) البقلاوى : تاريخ البقلاوى ج ١ ص ٧٦ ، ٧٩ .

(٢٢) السموذى : مروج الذهب ص ١٧٥ .

وهي في الكبد ومشتركة بين الحيوان والنبات وتنبعث في الاوردة الى جميع البدن - ٢ - الروح الحيوانية هي للحيوان الناطق وغير الناطق وهي في القلب وتنبعث منه في الشرايين الى اعضاء البدن - ٣ - الروح النفسانية وهي في الدماغ تنبعث منه الى اعضاء البدن في الانسان .

النفس للانسان دون غيره من انواع الحيوان ، الروح الطبيعية تسمى النفس النباتية والنامية والشهوانية ، والروح الحيوانية تسمى النفس الفضية . ولما كان الحس والحركة الارادية والتخيل والفكر والتذكر من الدماغ كان الدماغ اول آلة واداة تستعملها النفس الناطقة ، اذن التخيل والحركات الارادية وكذلك التذكر من جملة ما يقع من قبل الناطقة ، وليس المنام الذي يراه الانسان الا تخيلا او تذكرا ، كان يرى المرء او يخطر ببالي انه عاليج مريضا بمرض معين فأبراه بدواء معين وذلك كله في حال النوم فاذا كان في حال اليقظة جرب ان يفعل ما رآه في منامه فأحيانا يجده موافقا لآه وأحيانا يجده مخالفا ، وبطل يجرسه حتى يجده في نهاية الامر موافقا لما رآه .

ان دل هذا الامر على شيء فانما يدل على امتزاج الطب بالفلسفة عند اليونان ، وسيطرة المفاهيم الفلسفية على المجالات الطبية ، فقد كانت النظرة الى الفلسفة انها علم العلوم ولذلك كانت في مرتبة فوق الطب وكان الرأي آنذاك ان الفلسفة تقوم على أسس ثابتة لا يرقى اليها الشك ، وعلى ذلك لم يكن للطبيب ان يجادل في هذه الاسس مهما كانت مخالفة لمشاهداته وعلمه .

يذكر ابن ابي اصيبمه مثالا لذلك قول جالينوس في كتابه « في الفصد من انه امر في منامه مرتين بفصد العرق الضارب (الشريان) الذي بين السبابة والاقدام من اليد اليمنى » فلما أصبحت فصدت هذا العرق وترك الدم يجري الى ان انتقطع من تلقاء نفسه لاني كذلك امرت في منامي . (٢٣) « هذا المثال حقا موضع شك » .

ان الجانب الارادي من التجربة لا يعني اكثر من رؤيا يحاول الطبيب تحقيقها في الواقع ، والتجربة بهذا المعنى وسيلة لتغيير اتجاه المرض وشفاء المريض بفعل ادوية هدته اليها الرؤيا ، ولذلك كان الطبيب اذا خاب أمه في دواء جرب غيره ، ولم يكن هناك في ذلك الوقت فهم علمي لشروط فعل الدواء في المرض فلم تكن دراسة خواص الامراض والادوية دراسة علمية ، فلم يكن الطب اكثر من مجموعة وصفات تشفى الكثير من الامراض .

القسم الرابع من اقسام التجربة هو القسم الثقيل : وقد جعلوا له الواناً ثلاثة هي نقل الدواء في الادواء ونقله في الاعضاء ونقل الدواء الى الدواء « اما ان ينقل الدواء الواحد

من مرض الى مرض يشبهه وذلك كالثقله من ورم الحمرة الى الورم المعروف بالتملة ، واما من عضو الى عضو يشبهه وذلك كالثقله من العضد الى الفخذ واما من دواء الى دواء يشبهه كالثقله من السفرجل الى الزعرور في علاج انطلاق البطن « (٢٤) » . هذا النص يوضح ان التمثيل او الانالوجى Analogy أداة لها قيمتها في التجربة ، ففي مجال العلاج الطبى اذا اردنا الوقوف على فعل الدواء الواحد جربناه على امراض متشابهة الامراض كورم الحمرة وهو « ورم صفراوى حار » (٢٥) والورم المعروف بالتملة وهو « البثور الدقاق التى تتقرح وتسمى في الجلد وما يقرب منه » (٢٦) .

ولانه لم تكن تتوافر دراسة لوظائف الاعضاء كان صعبا على الطبيب في ذلك الوقت فهم الكيفية الفسيولوجية التى يحدث بها المرض وكذلك كيفية عمل الدواء في الشفاء ، ولان الطبيب كان لا يثق كثيرا بفعل الدواء الشافى وليس له ان يساعد فصل الطبيعة بفعل بعض الادوية كان هذا دافعا للمختبر فعل الدواء ان ينقل اختباراه من عضو الى آخر في جسم الانسان .

فاذا لم يفلح الدواء في علاج مرض بالعضد جربه على مرض بالفخذ على يفيد ، بل انه في المرض الواحد قد يستخدم الطبيب أكثر من علاج ويقف في النهاية على العلاج الشافى كما هو الحال في انطلاق البطن او الاسهال ، وهو لمللة تعرض للمعدة فلا تهضم الطعام فيفسد ولا تمسكه فيحتاج الامر الى ادوية قابضة او ماسكة كالسفرجل وهو ، قابض مقو للمعدة القابلة للفضول « (٢٧) » واذا استكثر منه اخرج الطعام قبل الانهضام . أو الزعرور وهو النبق أو التفاح الجبلى وهو « مقو للمعدة عاقل للطبيعة » وفي عبارة اخرى « والنبق قابض » (٢٨) ولما كان السفرجل والزعرور من القوابض كان الانتقال في العلاج من أحدهما الى الآخر موافقا لوقف الانطلاق ، واذا كان المراد بهذا الانتقال من دواء الى آخر عقد ملاحظات مقارنة بين الاثنين لامكان تحديد اثر الدواء في شفاء المرض فقد وجب في حالة عدم جدوى الدواء في الشفاء امتناع الطبيب عن استخدامه ، ولذلك كثيرا ما يلجأ الطبيب الى تجربة سواء . لم تكن هناك موجبات لاجراء هذه التجارب وانما كان اجراءها اتفاقا وبقيّة اختبار اكبر عدد من

(٢٤) السمرقاني : مروج الذهب ص ١٧٥ .

(٢٥) ابن الحشاش : مفيد العلوم ومبيد الهموم ص ١٩١ . صفراوى اى متشابه من المرارة .

(٢٦) نفس المصدر - نفس الصفحة + مفتاح العلوم للخوارزمي ص ٩٥ مع ملاحظة ان التملة اسم عربي .

(٢٧) التنبوي : نهاية الارب في فنون الادب ج ١١ ص ١٦٩ .

(٢٨) نفس المصدر ص ١٤٢ . وللفظة الطبيعية يكتى بها عن حال البطن في اللين واليبس - فيقال طبيعته يابسة اى يطنه متقل . وطبيعته لينه اى يطنه لين . مفتاح العلوم للخوارزمي ص ١٠٦ .

الادوية، ولذلك امكن القول ان التجربة عند اليونان لم تكن ناضجة، بل فجأة مشوبة بنقصها الوضوح والتحديد ، وربما كان السبب في ذلك خلط مفهوم التجربة بمفهوم الخبرة الحسية ، وهذا ما جعل التجربة غير محددة المعالم والاصول والسؤال الان هل نطمح ان نجد هذا التحديد عند الاطباء العرب خاصة وان الطب العربي اساسه هذه المفاهيم اليونانية وهذا ما نتبينه في عرض الطب عند العرب ، هذا ما أردنا ان نقولنا من اصحاب التجارب .

• • •

بقى أن نعرض لاصحاب الحيل .

هـ - اصحاب الحيل :

المدرسة الحيلية أو اصحاب الحيل ونعنيهم اصحاب الطريقة أو اصحاب الاصول الواضع لها استغلبياس الطبيب اليوناني الذي انتقل الى روما حوالي ١٢٤ ق.م وهو تلميذ تاميرون (٢٩) ترك اصحاب هذه المدرسة القول بالاخلاط ، وجمعوا بين الطب وأقوال الطبيعيين من امثال ديموقريطس (٣٠) ولوقيوس (٣١) في الجزء الذي لا يتجزأ ، قالوا ان من اجتماع الاجزاء يتركب البدن والنفس ومن حركتها نشأ الحياة لدخولها وخروجها من البدن عن طريق المسام، وعلى ذلك يكون علاج الامراض مقصورا على منافذ البدن لا سيما المسام ففي حالة اتساعها يلزم تضيقها وبالعكس .

المراد بالحيلة في تقريب امر صناعة الطب وتسهيلها ان « ترد اشخاص الملل ومولداتها الى الاصول الحاضرة الجامعة لها » (٣٢) .

فما هي هذه الاصول الطبية اليونانية التي كان الطب العربي حصيلة مفهوماتها في نهاية الامر ؟

الاصول الطبية عند اليونان والعرب :

ربما وجدنا جوابا لسؤالنا في كتاب المسائل في الطب لعنين بن سحاق لانه - في رأى شارحه ابن ابي صادق ٤٦٠هـ - « جمع فيها جملا وجوامع تجرى مجرى البادية والاصول » (٣٣) وكان يعول عليه في امتحان طلبة الطب .

Sarton : Introduction to the history of science Vol. I. P. 215.	(٢٩)
Ibid :	P. 88. (٣٠)
Ibid :	P. 88 (٣١)

(٣٢) المسعودي : مروج الذهب ص ١٧٦ .

(٣٣) ابن ابي اصيبعة : عيون الاطباء في طبقات الاطباء ص ١٩٨ .

ينقسم الطب الى قسمين هما النظر والعمل . وينقسم النظر وحده الى ثلاثة اقسام

هي :

١ - النظر في الامور الطبيعية .

٢ - النظر في الاسباب .

٣ - النظر في الدلائل .

الامور الطبيعية سبعة امور هي :

١ - الاركان

٢ - الامزجة

٣ - الاخلاط

٤ - الاعضاء

٥ - القوى

٦ - الانفعال

٧ - الارواح .

الاركان اربعة هي : النار والهواء والماء والتراب - والطبائع اربعة فالنار حارة يابسة ، والهواء حار رطب ، والماء بارد رطب ، والارض بارديابس .

اصناف المزاج تسعة : احداها المعتدل وهي : الحار والبارد والرطب واليابس ، ومركباتها ثمانية غير معتدلة وواحد معتدل - الاخلاط اربعة هي الدم والبلغم والمرة والصفراء والمرة السوداء وهي الاشجاج - كل خلط يقابله عنصر من العناصر الاربعة وفصل من فصول السنة الاربعة . الصفراء تقابل النار وزمانها الصيف ، والدم يقابل الهواء وزمانه الربيع ، والبلغم يقابل الماء وزمانه الشتاء ، والسوداء تقابل التراب وزمانها الخريف .

كان لتحديد الازمان الملائمة لكل خلط من هذه الاخلاط شأنه في العلاج الطبى للأمراض اذ يمكن فصل هذه الاخلاط واخراجها باستعمال بعض العقاقير ، ولذلك كان على الطبيب المعالج ان يسترشد في علاجه بمعرفة نوع الخلط الزائد ومواجه فقد كان مقدورا « الاستدلال على الدواء من نفس طبيعة المرض الحاضر الموجود في الحال والوقت دون الاسباب المؤثرة الفاعلة التي قد حلت ودون الازمان والاوقات والمادات والاسباب ومعرفة طبائع الاعضاء وحدودها (٣٤) .

أى ان نظر الطبيب اذا اتجه في بداية الامر الى تحديد نوع الخلط والمزاج أمكنه الاهتداء الى الدواء ودليله في ذلك الامراض التى امامه تشخيصها من معرفة دلائل اعراضها وذلك قبل

ان يتجه تفكيره الى تأثير المناخ او البيئة والهواء او المهنة ، وكلها ولا شك عوامل تؤثر في احداث المرض .

ولم يكن في ذلك الوقت اهتمام بمعرفة طبائع الاعراض وحدودها اى وظائفها وهو ما يختص به علم الفسيولوجيا في الطب الحديث، ومع ذلك كان الاهتمام بتسجيل الملاحظات من العلامات والدلائل اى الاعراض البادية سواء في العلل الحاضرة او التي تنذر بالوقوع ، ولذلك كان واجبا على الطبيب الامام بمبادئ التشخيص وتقديم المعرفة ، والاحتفاظ بمثل هذه الملاحظات من الاعراض والاسباب هام في الاستدلال على الدواء بعد الاستدلال على الداء ابتداء .

من مبادئ العلاج عند الحليين ان الضدين لا يجوز اجتماعهما بحال من الاحوال ، ومثالهم في ذلك ان المحموم لا يجوز ان يكون حاراً وبارداً في آن واحد ، ولذلك كان العلاج بالمبردات لتخفيف حدة حرارة الحمى وكانت النظرة الى العلاج باعتبار الخلط، فاذا كان المرض حاراً كان العلاج بالبارد طبيعة ، كانت التفريجات في درجة حرارة الجسم الانساني مثل التفريجات في درجة حرارة الطبيعة تعزى الى زيادة ونقصان .

وعلى الرغم من ان التنبؤ بمواقب المرض توقف اساسا على التشخيص بناء على الاسباب والعلامات الظاهرة الا انهم لم يجعلوا الامر الظاهر حقيقاً في الاستدلال على الامر الخفى لاحتمال استنتاج نتائج مخالفة وترتيب علاجات على هذه النتائج ، اذ لا يكون واضحاً ما يوجه الامر الظاهر من امور كائنة خفية وفي هذه الحال لا تؤدي العلاجات الفرض المقصود منها وهو شفاء المرض ووقف نموه عند حد معين بحيث يتجه الى التحسن بدلا من الاتجاه الى التفاقم .

يقول الحليون ، « وليس هذا كشيء ظاهر يستدل به على شيء خفى، والشيء الظاهر يحتمل الوجود فيختلف في الاستدلال فيكون القطع على ما يوجهه غير بين» (٣٥) نفى كل دواء او غذاء طبيعة كامنة موجودة على درجة واحدة من اربع درجات (٣٦) . ومثال ذلك المادة الحارة من الدرجة الاولى هي الفداء ومن الدرجة الثانية هي الفداء والدواء ومن الدرجة الثالثة هي الدواء ومن الدرجة الرابعة هي السموم .

الروحانيون (النفثيون) : Pneumatists

وتبع اصحاب الحيل شيعة تعرف بالروحانيين او النفثيين Pneumatists استندوا القوى الحيوانية الى النفث اى الى نوع من الروح الحيوى يسرى في الجسم « (٣٧) فهم اتخذوا مذهب الرواقيين اساسا لهم فقالوا ان الهواء ، النفس ، الروح ، او النفث تتصل بجانب القلب لايسر بواسطة النفس وهناك تحول الى نفثة نفسانية Psycho Pneuma قوية ونشطة ، وهذه النفثة تصل للدماغ ومنه تتوزع بواسطة الشرايين الى الجسم . ترجم العرب ذلك بالروح الحيوانية او المبدأ الى الواسى .

(٣٥) نفس المصدر السابق ص ١٧٥ .

(٣٦)

Brown (Edward) : Arabian medicine P. 133

(٣٧) ستانلانا : المذاهب الفلسفية ج ٢ ص ٦١ ،

وبجانب هؤلاء كان يوجد الاصطفائيون او الاختاريون Electics قالوا باختيار الافضل والاولى من الانظمة الاخرى لكل حالة بعينها ، فلم يتقيدوا بمذهب من المذاهب . برع منهم روف الافسيس (٣٨) وديسقوريدس (٣٩).

اتضح اذن ان فريقى القياس والتجربة يمثلان اغلب المشتغلين بالصناعة الطبية ، وان فريق الحيل لم يجبه منهج الاثنين فاراد ان ينتهج لنفسه منهجا مخالفا ولذلك تردد الاطباء بخصوص المؤلفات التى وضعها الحيليون فقبلها بعضهم ورفضها بعضهم ، حتى ظهر جالينوس فناقضهم عليها واحرق ما وجد منها وابطل هذه الصناعة الحيلية، هذا ما يقوله ابن ابي اصيبعة.



قول في الاصول الطبية عند اليونان :

نجد في الطب اليونانى اصولا ثلاثة هي :

- ١ - نظرية الاخلاط .
- ٢ - القوى الطبيعية الشافية .
- ٣ - الايام البحرانية (البهران) .

١ - نظرية الاخلاط : تبنى هذه النظرية على الاعتقاد بان الاشياء تتكون من اربعة عناصر رئيسية هي الماء والهواء والتراب والنار، والجسم الانسانى مزيج متناسب من هذه العناصر ان امتزجت امتزاجا محكما في الكيفية والكمية كانت هذه حالة الكرايس Crasis اى الامتزاج ، ولكن اذا زاد احد العناصر او نقص او امتنع عن الامتزاج بالعناصر الاخرى حدثت الامراض ، اخذ ابقراط فكرة تكون الجسم الانسانى من اربعة عناصر من الفيلسوف اليونانى امبا دوقلديس ٣٥ ق.م بل ان فكرة توقف الصحة على توازن العناصر الاربعة تمسود هي الاخرى الى امبادوقلديس (٤٠). وتحدد العناصر بربع يرجع الى ماكان لهذا الرقم من مكانة عند الفيشاغوريين ، فقد كانت له مكانة خاصة عند الفلاسفة الطبيعيين فكانوا لا يتكلمون عن شيء من العلويات او السلفيات او يكتبون عنه الا بكلام ذى جمل اربع او برسائل ذى اقسام اربع (٤١)

(٣٨) Sarton : Introduction to the history of science. Vol. 1 P. 281 282

(٣٩) ديسقوريدس العين زبرى صاحب كتاب الحشائش ، كان هذا الكتاب المرجع الذى استفاد منه علماء النبات العرب ، توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٢٩ طب وتفسير مقالته الفمى في ميون الانباء ج ١ ص ٨٥ .

(٤٠) Sarton : Introduction to the history of science. Vol. 1 P. 73.

(٤١) ديپور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١١٠ .

كان فيثاغورس يرى الكمال في الاعداد الاربعة الاولى وكان اتباعه يسمون بالرباعية وكان يرى ان الاربعة اصل الاشياء ، فاشياء ما بعد الطبيعة اولها الله ودونته العقل ثم النفس فالهولي ، والمكونات اربعة هي الحيوان والنبات والمعدن والانسان (٤٢) ادت فلسفة الارقام باقراط - في راي غالينوس (٤٣) الى ان يحدد ايما حاسمة بالنسبة للأمراض لمقابلتها بعض الارقام التي لها خواص معينة .

٢ - القوى الطبيعية الشافية : يعنى هذا المبدأ محاكاة الطبيعة في المعالجة وتعنى هذه المحاكاة ان « لكل مرض تطور طبيعى ونشوج محدود السير والمصير » (٤٤) وهناك مبدأ واحد بسيط في ذاته متعدد بمفعوله وهو الطبيعة وهذا المبدأ يشرف على جميع الوظائف الحيوية ويقاوم العوامل الهدامة للجسم وعلى الطبيب ان يساعد الطبيعة كي تقوم بعملها .

كان اقراط يعتبر الجسم الانسانى كلا متماسكا ويعمل كوحدة ، وعلاقته بما يحيط به اى البيئة علاقة تجاوب او انسجام بين القيسيس (٤٥) التي ترجمت بطبيعة الانسان وبيئته في حالة الصحة والا نتج المرض ، او كما يقول الدكتور غليونجي (٤٦) هي علاقة بين قطبين احدهما الجسم والاخر البيئة . الاول يخضع للثانى الذى يستوعبه بان يأخذ منه ما ينفعه ويلفظ ما لا يلائمه فان نجحت عملية الاستيعاب وسمونها الهضم Pepsis تمت الصحة ، والا حدث العكس .

يعود هذا الى ان الجسم يحمل في طياته استعدادا طبيعيا للشفاء الذى يتأتى له حين يستجيب الى كل تغير يحدث في البيئة بفضل عملية الهضم التى هي نوع من نضج الاخلات ينتهى بالتخلص من الفضلات ولذلك قال الرازى « ان الطبيعة تجاهد العلل وتعاكها وتروم احالتها » (٤٧) .

٣ - نظرية الايام البحرانية (البحران) : يعنى هذا الاصل انه لا بد للطبيب من معرفة البحران او الحومة Crisis وهى النقطة الفاصلة في المرض والتي تؤذن بالاتجاه نحو

(٤٢) سائلانا : تاريخ المذاهب الفلسفية ج ١ ص ٤٣ .

(٤٣) غالينوس (بول) ابن النفيس ص ١٧ .

(٤٤) الأيد قنوائى : تاريخ الصيدلة والمقايير ص ٧٨ .

(٤٥) غالينوس (بول) : ابن النفيس ص ٢٥ .

(٤٦) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٤٧) الرازى : الرشيد او الفصول ص ٩٩ .

التحسن أو التفاقم (٤٨) . اخذ ابقراط هذه النظرية من فيثاغورس ٩٧ ق.م. البحران (٤٩) لفظة سريانية والاطباء يقولون هذا اليوم باحورى اذا نسيوه الى البحران ولا يكادون يقولون بحراني. طور البحران هذا يسبقه طوران يمر بهما المرض هما الطور النقيء أو الخام كما سماه ابقراط وطور النضج . يقول الدكتور محمد كامل حسين «ان أعراض البحران ليست شيئا أكثر من مجاهدة الطبيعة للعة» (٥٠) فهي حالة تحدث للمريض دفعة استغراغا وتفرأ عظيما ويكون هذا في الامراض الحادة كالحميات المحرقة والمطبة. اذا حدث تأخر في ظهور البحران وهو الذى يتأخر في اثائه التخلص من الخطأ الزائد فعلى الطبيب ان يساعد على ازالة المواد السقيمة بواسطة الفصد أو القيء أو الاسهال .



حركة نقل الطب اليوناني : -

ان الكثيرين (٥١) من المؤرخين يتفقون في القول بأنه قد الف في الاسكندرية في العصر الهليني المتأخر مجموعة كتب طبية وجوامع لستة عشر كتابا من كتب جالينوس لا تعرف من المصادر اليونانية شيئا عن هذه الجوامع الا اسمها ، وهى خمس كتب في التشريح وستة كتب في التشخيص واربعة كتب في النبض لكل واحد منها جامع واسم هذه الجوامع كلها للمتلهمين (٥٢) ، ترجمت مبكرا الى السريانية والعربية ترجمها حنين بن اسحاق ٢٦٠ هـ وتلامذته .

أورد حنين عناوين هذه الستة عشر كتابا في رسالته عما ترجم من كتب جالينوس الى السريانية وذكر ابن النديم (٥٤) بعض أسماء النقلة لهذه الجوامع في كتابه «الفهرست» فقال :

(٤٨) الآب فتاوى : تاريخ الصيدلة والحقايق ص ٧٨ .

(٤٩) الخوازمي : مفاتيح العلوم ص ١٠٦ .

(٥٠) محمد كامل حسين : طب الرازي ص ١٦٥ .

(٥١) مايهوف : من الاسكندرية الى بغداد ص ٥٠ .

(٥٢) مايهوف : ص ٢٨ ، ص ٥٠ في مقالة بعنوان من الاسكندرية الى بغداد (يقول عن بعض مؤرخي وفلاسفة واطباء العصر الاسلامي في اواخر القرن التاسع واول القرن العاشر الميلادى ان القوالهم ينبغي ان تؤخذ بحذر لانها منقطة بالأخطاء التاريخية والنظ بين المسائل الى جانب التحريفات العديدة للاسماء اليونانية وهى تحريفات التسماء مسئولون عنها) .

(٥٣) حنين بن اسحق : رسالة الى علي بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس - النسخة المخطوطة .

(٥٤) ابن النديم . الفهرست ص ٢٩٢ .

اصطفى (٥٥) ، جاسيوس (٥٦) انقيلوس (٥٧)، مارينوس (٥٨) ، هؤلاء الاسكندرانيون وهم ممن
فسر كتب جالينوس وجمعها واختصرها ووجز القول فيها لاسيما كتب جالينوس الستة عشر .

وكذلك فعل القفطى (٥٩) في كتابه « تاريخ الحكماء » ص ٧٠ اذ يقول « انقيلوس الاسكندراني
حكيم فاضل طبائى مصرى الاقليم اسكندراني المنزل وهو احد الاسكندرانيين الذين عنوا بجمع
كلام جالينوس واختصار كتبه وتاليفها على المسألة والجواب ، ودل حسن اختصارهم على
معرفتهم بجوامع الكلام . واقفانهم لصناعة الطب ، وكان انقلاوس هذا رئيسهم هو المرتب للكتب
والمستخرج لاكثرها ، حتى ان اكثر الناس ينسبون الجوامع اليه وقد ذكر هذا حنين بن اسحاق في
تقله لها من اليوناني الى السرياني » .

وعن الاسكندرانيين يذكر القفطى (٦٠) الاسكندرانيون هم الذين رتبوا بالاسكندرية دار
العلم ومجال الدرس الطبى وكانوا يقرأون كتب جالينوس ويرتبونها على هذا الشكل الذى
تقرأ عليه اليوم وعملوا لها تفاسير وجوامع تختصر معانيها وتسهل على القارئ حفظها
وحملها في الاسفار ، فاولهم على مرتبه اسحاق بن حنين اصطفى الاسكندراني ثم جاسيوس
وانقلاوس ومارينوس فهؤلاء الاربعة عمدة اطباء الاسكندرانيين ، وهم الذين عملوا الجوامع
والتفاسير ، وانقلاوس هو المرتب للكتب والمستخرج لها على ما تقدم شرحه .

يقول حنين عن جوامع جالينوس هذه « في هذه الكتب كان يقتصر على قراءتها في موضع
تعليم الطب بالاسكندرية وكانوا يقرأونها على هذا الترتيب الذى اجريت ذكرها عليه ، وكانوا
يجتمعون في كل يوم على قراءة امام منها وتفهمه ، كما يجتمع اصحابنا من النصارى في مواضع
التعليم التى تعرف بالاسكول في كل يوم على كتاب امام من كتب المتقدمين واما من سائر
الكتب وانما كانوا يقرأونها الافراد كل واحد على حده بعد الارتياض بتلك الكتب التى ذكرت
كما يقرأ اصحابنا اليوم كتب المتقدمين » (٦١) .

(٥٥) اصطفى الاسكندراني الفيلسوف اشهر العلماء في الاسكندرية أيام الإمبراطور هرقل .

(٥٦) جاسيوس : له العالم الطبيب جاسيوس الذى عاش حوالي سنة ٢٥٠ م .

(٥٧) انقيلوس : أحد الاسكندرانيين الذين عنوا بجمع كلام جالينوس .

(٥٨) اريونوس : الفيلسوف من سيثيم (صف) خلف ايرقليس على رئاسة الاكاديمية من ٢٩٥ .

(٥٩) القفطى : تاريخ الحكماء ص ٩٧١ .

(٦٠) نفس المصدر نفس الصفحة .

(٦١) حنين بن اسحاق : رسالة الى علي بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس - النسخة المخطوطة .

كانت الاماكن (٦٢) التي ازدهرت فيها العلوم اليونانية في المنطقة هي الرها ونصيبين . وجنديسابور اقتصر فيها التعليم الطبي على مؤلفات أبقراط وجالينوس ، وفي مدرسة جنديسابور لم يكن الطب بدرس نظريا فحسب بل عمليا كذلك في بيمارستان كبير وكان نموذجا لما كانت عليه دراسة الطب بعد ذلك في العالم الاسلامي، وفي هذه البيمارستان اتصل العلماء اليونان والريان والفرس بعلماء الهند وتأثر بعضهم ببعض، وفي الطب العربي بقايا لهذا التأثير. اتجهت العناية لمدرسة جنديسابور في اول عهد الدولة العباسية اذ استشار الخليفة المنصور ١٢٨ هـ رئيس اطباء جنديسابور وهو جورجيس بن بختيشوع حين دعاه الى بغداد ومنذ ذلك الحين حظيت اسرة بختيشوع بمكانة لدى الخلفاء العباسيين طوال قرون ثلاثة ، وقد حظى الاطباء الريان النصارى بهذه المكانة كذلك .

نصور الجاحظ (٦٣) هذا الوضع خير تصوير في كتابه « البخلاء » اذ يقول عن الطبيب البغدادي اسد بن جاني « وكان اسد بن جاني طبيا فاكسد مرة فقال له قال السنة وربة والأمراض فاشية وانت عالم ، ولك صبر وخدمة ولك بيان ومعرفة ، فمن اين تؤتى في هذا الكساد » قال « اما واحدة » فاني عندهم مسلم وقد اعتقد القوم قبل ان انطبب لا بل قبل ان اخلق ان المسلمين لا يفلحون في الطب . واسمى (ثانية) اسد وكان ينبغي ان يكون اسمى صليبا ومرايل ، ويوحنا ، وبيرا ، وكثيبي أبو الحارث وكان ينبغي ان تكون أبو عيسى ، وأبو زكريا ، وأبو ابراهيم ، وعليه رداء قطنس أبيض وكان ينبغي ان يكون رداء حرير أسود ، وأخيرا لغلقي لفظ عربي ، وكان ينبغي ان تكون لفتى لفة اهل جنديسابور » .

وهكذا يقول الطبيب العربي انه كان ينبغي ان يكون مسيحيا ذا اسم سرياني ولهجة سريانية ويلبس رداء من الحرير محصرا على المسلم ويعرس في المدرسة السريانية الفارسية المشهورة .

كان القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) (٦٤) عصر المترجمين حقا ، وكان هؤلاء جميعا من النصارى السريانيين ومنهم من اتقن اليونانية والفارسية فضلا عن السريانية . أصبح حينئذ فيما بعد شيخ المترجمين ، وقد عاونه تلامذته وابنه اسحق . كانت الترجمة في النصف الاول من القرن التاسع من اليونانية الى السريانية ، وفي النصف الثاني ازدادت حركة الترجمة الى العربية . عاون الخلفاء وابناء موسى بن شاذان على نشاط حركة الترجمة ، كان اول

(٦٢) ما برهوف (ماكس) : من الاسكندرية الى بغداد ص ٥٢ .

(٦٣) الجاحظ : البخلاء ص ١٠٩ طبع قوتن القاهرة سنة ١٢٢٢ هـ .

(٦٤) ما برهوف : من الاسكندرية الى بغداد ص ٥٨ .

المصنفات الطبية التي نقلت من اليونانية الى العربية هي ما يسمى بالمجموعة الإبراطية ،
ترجم حنين من هذه المجموعة :

١ - كتاب عهد أبقرط . قال عنه حنين (ترجمته الى السريانية واضفت اليه شرحا
عملته للمواضع المستعصية منه) . (٦٥)

٢ - تدبير الأمراض الحادة قال عنه حنين (واختصرت معانيه على جهة السؤال والجواب) .
(٦٦)

٣ - جراحات الرأس . قال عنه حنين (وعملت من بعد مختصر الجوامع) . (٦٧)

٤ - إبيديما (الأمراض الواغدة) قال عنه حنين « افست الى ترجمته ما ترجمته من تفسير
جالينوس للمقالة الثانية من كتاب إبيديما ، ترجمت نص كلام أبقرط في تلك المقالة التي
السريانية والى العربية مجردا على حدته ثم ترجمت من بعد الثمانى مقالات التي نسر فيها
جالينوس المقالة السادسة من كتاب إبيديما الى العربية ، فلما حصل من تفسير الأربع مقالات
من كتاب أبقرط المعروف بإبيديما وهى المقالة الأولى والثانية والثالثة والسادسة لجالينوس
تسع عشرة مقالة اختصرت معانيها على جهة السؤال والجواب بالسريانية . (٦٨)

٥ - قطيطريون (حانوت الطبيب) قال عنه حنين (نسخته باليونانية في كتبى ثم ترجمته
من بعد الى السريانية وعملت له جوامع) . (٦٩)

٦ - الهواء والماء والمساكن قال عنه حنين ترجمت نص كلام أبقرط واضفت اليه شرحا
وجيزا الا اننى لم اسمعه وترجمت ايضا النص الى العربية . (٧٠)

٧ - الغذاء قال عنه حنين ترجمت نص كلام أبقرط واضفت اليه شرحا وجيزا . (٧١)
وفيما عدا ذلك ترجم حنين من كتب أبقرط بتفسير جالينوس (الفصول ، تقدمه المعرفة ،
القروح ، الاخلاط ، طبيعة الحنين وطبيعة الانسان) .

اصلح حنين كذلك ترجمه اصطفان بن يسسيل لكتاب الحشاشي لد يسقوريدس
وقد ظل هذا الكتاب المرجع الاساسى للمفردات الطبية فقد درسه وعلق عليه الاطباء منذ
جالينوس وحتى عصر النهضة ، يشتمل الكتاب على ذكر ستمائة نبات وعدد من الادوية المعدنية
والزيوت والادهان ، يصف ديسقوريدس المواد طبيا وصفا دقيقا يدل على دقة ملاحظة . يذكر
القطنى (٧٢) ان ديسقوريدس كان اعلم من تكلم في اصل الصلاج وفوائد العقاقير المفردة متبعا

(٦٥) نفس المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٦٦) الى (٧١) حنين بن اسحق رسالة الى علي بن يحيى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس النسخة المخطوطة .
انظر ايضا للاحى (التتيتاى) : مقدمة في تاريخ الطب العربى ص ٢١ طبعة الخطوم ١٩٥٩ .

(٧٢) القطنى : تاريخ الحكماء ص ١٨٤ .

طريقة التجنيس والتنوع حتى حدا حذوه الذين اتبعوه ولذلك قال جالينوس « تصفحت اربعة عشر مصحفا في الادوية المفردة لاقوام شتى فماريت فيها اثم من كتاب ديسقوريدس الذي من اهل عين زربة وبه احتلئ كل من اتى بعده وخذفيه علما نافعا واصلا جامعا . » (٧٣)

اشتمل كتاب جالينوس على خمس مقالات : (٧٤)

- تشتمل المقالة الاولى على ذكر ادوية عطرة الرائحة وادهان وصموغ .
- وتشتمل المقالة الثانية على ذكر الحيوان ورطوبات الحيوان : المسسل واللبن والشحم والحبوب والبقول .
- وتشتمل المقالة الثالثة على ذكر اصول النبات وعصارات ويلور .
- وتشتمل المقالة الرابعة : على ذكر ادوية اكثرها حشائش باردة وحارة ونافعة من السوم .
- وتشتمل المقالة الخامسة على ذكر الكروم والخمور والادوية المعدنية .
- وترجم حنين كذلك كتاب بولس الاجانيطى (٧٥) : ٦٩ م في سبع مقالات اذ لعب بعد ترجمته الى العربية دورا في تطور الجراحة عند العرب .
- في المقالة الاولى يشرح المؤلف ضرورة وجود مؤلف شامل ومختصر يتوفر للطبيب حمله في حله وترحاله ويقيده في ممارسة مهنته .
- وفي المقالة الثانية يبحث في الحميات بوجه عام والنفض واهميته في تشخيص الامراض والامراض الوافدة واسباب الاوثى ومع ذلك لا يذكر من الجدري والحصبة شيئا .
- وفي المقالة الثالثة ذكر الامراض من الراس الى القدم واسبابها وعلاجاتها .
- وفي المقالة الرابعة ذكر الامراض الخارجية التي تؤثر في اعضاء البدن كالدندان المعوية وداء الفيل وامراض الجلد وسقوط الشعر والعناية به والاورام الجاسسيه (السرطانية وغير السرطانية) .
- وفي المقالة الخامسة ذكر الجروح ونهش الهوام والحيوانات السامة والكلب الكلبى والادوية المخدرة والسامة وطرق الوقاية منها .
- وفي المقالة السادسة في العمل باليد (الجراحة) واستخراج السهام والكسر والخلع والجبر وجراحات الراس ومعالجة الحروق والاستسقاء ومعالجته جراحيا وكذلك امراض العين والغم والعضد والكى واستخراج الحصاة من الكلى والمثانة والبولاسير .

(٧٣) نفس المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٧٤) قنواى : تاريخ الصيدلة والطب في العصر الوسيط ص ٩٠ .

(٧٥) حمارة (سامى) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص ٥٦ ، ٥٧ .

وفي المقالة السابعة ذكر صفات الادوية المفردة والمركبة وكيفية العلاج وابدال الادوية وثوابها وخصائصها وكيفية استعمالها .

يعمل بولس الاجانطي (٧٦) هذا خاتمة الاطباء المشهورين في العصر اليوناني والروماني من القرن الخامس قبل الميلاد وحتى صدر الاسلام وقد ترك هؤلاء الاطباء اثرًا لا ينكر في تطور الصناعة الطبية عند العرب .

• • •

تأسيس الطب العربي

- أ - حنين بن اسحاق وجهوده في الترجمة والتأليف .
- ب - الرازي وابن سينا (التأليف في المشرق) .
- ج - الزهراوى (التأليف في المغرب) .

أ - حنين بن اسحاق وجهوده في الترجمة والتأليف :-

بعد حنين (٧٧) من أعظم مترجمي التراث اليوناني الى اللغة العربية ومن أكثر الاطباء العرب الاوائل تصنيفًا ، لقد وصلت اليينا عدة كتب لحنين بن اسحاق ، لم يتناول البحث الحديث منها الا كتابه في طب العيون وأشاد الباحثون أيضا بغضل كتابه « المسائل في الطب » (٧٨) وأثره في حضارة الغرب . لقد انضج قيمة جهود حنين في طب العيون بغضل دراسات هيرشبرج ومايرهوف . ذكر هيرشبرج لحنين جهوده في تأليف أول كتاب مستقل باللغة العربية في التخصص الدقيق « طب العيون » . كان الاطباء العرب قد أشادوا بذكر هذا الكتاب ، فقد ذكر علي بن عيسى أحد اطباء العيون ذوى المكانة أن حنين بن اسحاق جمع احسن المؤلفات التي صنفها الاطباء الكبار قبل جالينوس وبعده ، وكذلك فعل ابن ابي اصيبعة حيث أكد أن هذا الكتاب يتألف من عدة مقالات متفاوتة متباعدة ، قال ابن ابي اصيبعة (٧٩) هذا الكتاب يوجد في نسخته اختلاف كثير وليست مقالاته على واحد ، فان بعضها توجد مختصرة موجزة في المعنى الذى هي فيه ، والبعض الآخر قد طول فيه وزاد عما يوجبه تأليف الكتاب ، والسبب في ذلك ان كل مقالة منه بمفردها من غير التثام لها مع غيرها ، وذلك لان حنينًا (٨٠) يقول في المقالة الأخيرة من

(٧٦) سامى حمولة : فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية ٥٦ - ٥٧ دمشق ١٩٦٩ م .

(٧٧) سزجين (فؤاد) : تاريخ التراث العربى ج ٣ عن الطب العربى مادة حنين .

(٧٨) المسائل في الطب : كان مخطوطا حتى وقت اصدار المجلد . ولما المؤلف بتحقيق ونشره بتعاون مع المكتبة القومية للطب في واشنطن - الولايات المتحدة الامريكية .

(٧٩) ابن ابي اصيبعة : هيون الانبياء في طبقات الاطباء ص ١٩٨ .

(٨٠) نفس المصدر .

هذا الكتاب : « انى كنت قد ألغت منذ نيف وثلاثين سنة في العين مقالات مفردة نحوت فيها الى اغراض شتى سألنى تأليفها قوم بعد قوم قال : ثم ان صبيا سألنى ان اجمع له ذلك وهو تسع مقالات واجمله كتابا واحدا ، وان اضيف له لتسع مقالات الماضية مقالة اخرى اذكر فيها كتبهم لعل العين .

لاحظ ابن ابي اصيبعة ان القسم النظرى من كتاب العشر مقالات في العين في تفصيل واسهاب عكس القسم العملى فهو في ايجاز واختصار .

كان اشتغال حنين (٨١) بالترجمة الحافظ الاول لاشتغاله بالطب ، كان الهدف الاساسى لجهود حنين فيما يبدو نقل مؤلفات الاطباء اليونان الى اللغة العربية على ان تكون الترجمة مرئية واضحة ومفهومة بقدر الامكان ، اعتمد حنين في هذا العمل على ترجمة نصوص الكتب كما اعتمد ايضا على الشروح المصنفة عليها والمخصصات التى امدت لها ، اطلق حنين على نتائج هذه الجهود عدة عناوين مثل ثمار اوتفسر او جوامع او شرح ، ويبدو انه افاد مصطلح « جوامع » من ترجمته لجوامع الاسكندرانيين .

كان حنين يسعى الى تحقيق هدفه العلمى متوسلا الى ذلك بالكتب التى اصدت تيسرا لكتب اخرى اراد حنين ان يترجمها او يهدبها ، وكانت هذه الكتب المبسطة بطريقة السؤال والجواب .

ترجم حنين (٨٢) الى السريانية وحدها المانية وخمسين مصنفا من مصنفات جالينوس ، والى العربية وحدها اثني عشر مصنفا ، والى السريانية ثم الى العربية اثنين وعشرين مصنفا وبذلك يصير مجموع ما ترجمه من مصنفات جالينوس وتفسيراته باللغتين اثنين وتسعين مصنفا هذا اضافاته وتلخيصاته لترجمات تلامذته والمتقدمين عليه امثال ايوب الرهاوى (٨٣) وسرجيس الرسى .

وكان حنين ينقل كتب اليونانيين الى السريانية ثم يقوم بترجمتها الى العربية او يهدب بذلك الى تلامذته . وسبب تفصيله النقل الى السريانية قبل العربية فزارة المصطلحات العلمية والحكمة السريانية اذا قورنت بالعربية آنذاك ، كان حنين في ترجمته يتوخى اداء المعنى بتعبير سلس ودقة علمية متحاشيا التموض ومتجنباً التحوير .

(٨١) سزجين (فؤاد) تاريخ التراث العربى ج ٢ عن الطب العربى مادة حنين .

(٨٢) انظر للمؤلف مقدمة كتاب المسائل في الطب لحنين ابن اسحاق طبعة القاهرة سنة ١٩٧٦ .

(٨٣) ايوب الرهاوى : عالم سريانى عاش في مطلع القرن الثامن الميلادى ، عمل تراجم كثيرة من اليونانية الى السريانية ، ولما لحنين بن اسحاق ترجم خمسة وثلاثين كتابا لجالينوس الى السريانية وتوجد طبعة حديثة لكتابه دائرة المعارف للعلوم الاسلامية المعروف باسم الكنوز .

لم يكن حينئذ يكتب بمخطوطة واحدة يترجمها بل كان يعتمد الى جمع اكبر عدد من المخطوطات للكتاب الواحد قبل اتمامه على ترجمته ويرجع الى الترجمات السابقة للكتاب مينة ان توفرت ، ويستشير بأراء القدماء للوصول الى درجة الجودة والاتقان ، وفي سبيل ذلك . راجع حين ترجمت سالفه امثال سرجيس وإيوب الزهاوي وكذلك ترجمت تلامذته .

كان حينئذ يتوخى الكمال في اعماله ولذلك نراه لا يحتاج الى الترجمات التي قام بها في حداثة سنة فراجعها ويترجم بعضها من جديد يقول حينئذ (٨٥) عن كتاب الفرق لجالينوس « ترجمته وأنا شاب من نسخة خطية يونانية مشوهة ، ثم لما بلغت الاربعين من عمري طلب الى تلميذي جيشان ان اصلحها بعد ان كنت جمعت قدرا من المخطوطات اليونانية وعند ذلك ربت هذه بحيث نسقت منها نسخة صحيحة قارنتها بالنص السرياني ثم صححتها وتلك عادتني التي انبعتها في كل » ترجمته » .

قال القفطي : (٨٦) من حينئذ « كان جليلا في ترجمته ، وهو الذي اوضح معاني كتب ابقراط وجالينوس ولخصها احسن تلخيص » . ان السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هل تجاوز حينئذ النتائج المعروفة حتى عصره والمتاح له ، والى اى حد كان جهده في هذا العمل ؟ .

وايا كانت الاجابة عن السؤال فان احدا لا يستطيع ان ينكر اسهام حينئذ بن اسحق في تكوين المصطلح العربي وهذا الاسهام يعد على اية حال جهدا قيما وممتازا .

ب - الرازي وابن سينا في المشرق :-

نجد في الطب العربي نوعين من الاطباء : الاطباء الفلاسفة ويمثلهم الرازي ، والفلاسفة الاطباء ويمثلهم ابن سينا ، هذا الراي ذهب اليه سارتون في قوله :

« ان من الموافق تقسيم الاطباء العرب الى مجموعتين : ممارسون ومدرسون ، يمثل الممارسين الرازي ويمثل المدرسين ابن سينا ، وهما يمثلان مذهبين مختلفين ، ففريق المدرسين درسوا الطب على انه جزء من المعرفة لا غنى عنه ، وسعيهم الى استكمال المعرفة هو الذي دفعهم الى دراسة الطب ، اما فريق الممارسين فهم يعتمدون في المقام الاول بالمرض والتشخيص والعلاج ، الفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ هذه الغاية ، اسلوب الفريقين يختلف : المدرسون يعتمدون بالنظم والتقسيم المنطقي ، والممارسون يعتمدون بالشاهدات والدلالات » . (٨٧)

(٨٤) سرجيس الرسفي المتوفى سنة ٥٣٦ م من القدم السريانيين الذين اشتغلوا بترجمة الكتب اليونانية الى السريانية ، نقل بعض مؤلفات ابقراط وجالينوس الى السريانية وكان الكل يصيرونهم مرجعا من مراجع العليا في الطب والفلسفة يقال انه اسس مدرسة سريانية في الطب ، درس سرجيس الطب والكيمياء بالاسكندرية اما نشأته فكانت يراس الصين بالعراق . انظر للمؤلف مقدمة كتاب المسائل في الطب لعنين بن اسحاق .

(٨٥) حينئذ بن اسحاق : رسالة الى علي بن يحيى النسخة المخطوطة .

(٨٦) القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٧١ .

Sarton : Introduction to the history of science. Vol. I. P 587

(٨٧)

بمعنا الآن تبين هذا الامتزاج الذي كان بين الفلسفة والطب ولماذا بدأ عند اليونان واستمر كذلك عند العرب . ان اليونانيين حاولوا تفسير الكون والاستدلال على قوانينه لا بالتفسير المجرد والمنطق القتن ، بل بالتوصل الى اساليب المنطق لتكون أداة لهذا التفسير ، وهم انما « نهجوا هذا المنهج لايمانهم بقابلية الكون للتفسير العقلي وبسببية الاحداث الطبيعية » (٨٨) نظروا الى تأملات الفلاسفة والسؤال ملاحظة الظواهر الطبيعية على أنها موضوع لدراسة واحدة ولذلك نجد الاثر الفلسفي واضحا في الطب لا في جزئه النظري فحسب بل في جميع نواحيه . استمرار هذا الامر عند الاطباء العرب يعنى انهم اقاموا طبهم على النظام العام اليوناني ، فمن اليونان اخذوا كلياتهم . (٨٩) لقد جمع الرازي بين الاطباء والفلاسفة في عبارته القائلة « متى اجتمع ارسطو وجالينوس على معنى فذلك هو الصواب ومتى اختلفا صعب ادراك صوابه جدا » (٩٠) .

ارسطو هو القائل بتكون الموجودات من اربعة عناصر ولها اربعة طبائع ، وجالينوس هو القائل بان في بدن الانسان اخلطا اربعة تقابل العناصر الاربعة .

سيطرت نظرية الاخلط على الطب اليوناني ومن بعده على الطب العربي وفي ضسوء هذه النظرية بات الاطباء العرب يطلون وظائف الجسم ونشوء المرض فيه ، ولكن ذلك لم يكن ليمنع الاطباء العرب من الاعتراض على بعض آراء الاطباء اليونانيين وتفنيدها تفنيدا قد يكون احيانا قاسيا متيفا ، فكتيرا ما كان الاطباء العرب يرفضون الاخذ بنظريات ابقراط وجالينوس لخطأ يجدونه فيها اما بناء على اختيار الهم الشخصية أو بناء على تفكير منطقي .

واذا أردنا ان نفهم لماذا لم يخرج الطب العربي عما التزم به الطب اليوناني لوجدنا الجواب فيما قاله روزنتال من « ان هم العلماء الاول في عصر المخطوطات كان الحفاظ على العلم الوضعي المقرر الذي جمعته الاجيال السابقة » (٩١) ، وكذلك فيما يقوله الدكتور محمد كامل حسين (٩٢) من ان اساتذة الطب لا يرون من واجباتهم ان يثوروا على النظريات الطبية القائمة ولا ان يقدموا للناس نظريات جديدة حتى يصقلها الزمن ويتبين خطؤها أو صوابها ، ولذلك كثيرا ما نجد في المؤلفات الطبية العربية روايات عن الفاضلين ابقراط وجالينوس ويكون ذلك دعما للرأي أو النظرية ، وكثيرا ما ترتب على ذلك نسبة ما هو يوناني الى ما هو عربي وما هو

(٨٨) هاليونجي : ابن النليس ص ٩ .

(٨٩) نماذج هذه التكتبات ان التكتبات مكونة من اربعة عناصر هي الماء والهواء والتراب والنار وان القوى الكامنة في هذه العناصر هي الجيوسية والرطوبة والحرارة والبرودة وان الاخلط الاربعة هي الدم والبلغم والزه الصفراء والسوداء وان كل الطل والامراض يرجع تفسيرها الى هذه التكتبات

(٩٠) ابن ابي اصيبعة : هيون النباه في طبقات الاطباء ج ١ ص ٢١٤ .

(٩١) Rosental (Franz): The technique and approach of Muslem scholarship. p. 54

(٩٢) معهد كامل حسين : طب الرازي ص ١٢٢ ولص ١٢٤ من كتابه « متنوعات » طبعة القاهرة بدون تاريخ ، يرى ان الذي يجري على ان يجاهر برأي جديد لا يعد عالما مبتكرا وانما يعد في عالم بما قال الاولون ولقد كان من الميث البحث عن شيء لم يعرفه ارسطو وجالينوس .

مربى الى ما هو يوناني ، ويصعب التحقق لتشتت المصادر اليونانية واختلاف المنهج والترتيب .

ومع ذلك نجد في كتب الرازي بالذات تلخيصا آمنا للطب اليوناني المترجم والطب العربي المعاصر لزمانه فانه « كان ينسب كل ما يتقله من معلومات الى اصحابها ، ويذكر الباب او الفصل الذي استمد منه المادة ثم يميز آراءه وخبراته الشخصية بلفظة لي » (٩٣)

ففي كتابه « الحاوي » يقول « قال جالينوس سقط رجل عن دابة فصك صلبه الارض، فلما كان اليوم الثالث ضعف صوته وفي اليوم الرابع انقطع البتة واسترخت رجلاه ولم تنل يديه آفة لان عصبها يجيئها من نخاع العنق » (٩٤) .

ولذلك نراه في موضع آخر يقول « ان من عرف منابت العصب الجائي الى عضو من الاعضاء سهل علاجه » (٩٥) لا يخرج هذا القول عن قول جالينوس « افسد » ابدا عند بطلان حس عضو او حركة الى اصل العصب الجائي اليها ، » (٩٦)

لأدهشنا ان يوافق الرازي جالينوس في طرائق المألجة لبعض الامراض او تشخيصها فلاشك ان مؤلفات جالينوس أسهمت في تكوين الرازي .

فلسفة العلاج الطبي عند الرازي :-

الف الرازي كتابا عنوانه (في مهنة الطبيب وتعيينه) (٩٧) افاد مادته من كتاب لجالينوس بعنوان « في المهنة التي يعرف بها افاضل الاطباء » (٩٨) في كتاب الرازي تتضح طريقته في درس الامراض ، اذ كان يرشد طلاب الطب الى طلب التعريف ثم العلة والسبب ثم هل ينقسم بسببه او نوعه او لا ، فيقول « اطلب في كل مرض هذه الرؤوس : المسمى التعريف اولا ومثاله ان تقول : ان ذات الجنب هو اجتماع حمى حار مع وخز في الاضلاع ، وضيق في النفس وصلابة في النبض ، وسعلة يابسة منذ اول الامر ، ثم اطلب العلة والسبب ومثال ذلك ان تعلم ان سبب ذاتة الجنب ورم حاد في ناحيته انشاء المستبطن للاضلاع ، ثم اطلب هل ينقسم بسببه او نوعه او لا ، مثال ذلك تنقسم ذات الجنب الى الخالصة وغير الخالصة ، ثم اطلب تفضل كل قسم من الآخر ثم العلاج ثم الاستعداد ثم الاحتراس ثم الئذار » (٩٩) .

(٩٣) Meyerhof (Max) : Thirty three Clinical observations by Rhazes. Isis, Vol. 23 N 66

(٩٤) الرازي : الحاوي ج ١ ص ٥ .

(٩٥) نفس المصدر ص ٨ وفي هذه الملاحظة يبدو واضحا دقة الرازي في التشخيص .

(٩٦) نفس المصدر السابق ص ٣ .

(٩٧) يوجد مطبوعا بمكتبة بلدية اسكندرية تحت رقم ١٢٠٥ ب وهو اقدم المخطوطات .

(٩٨) يوجد مطبوعا بمكتبة بلدية اسكندرية تحت رقم ٢٨١٢ ج .

(٩٩) الرازي : الرشيد فصل ٤٥٠ ص ١١٢ ومهنة الطبيب ص ٤٧١ .

ذكرنا هذا النص الطويل لأن فيمينا نلخصه العلاج الطبي عند الأطباء العرب إذ كان البحث في علم من العلوم يبدأ بوضع حدود دقيقة هي ما تسمى الآن بالتعريف لا يتمدها الإنسان . وليس عفا أن أول المباحث كان البحث في الحدود ، ولذلك تلحظ في ميارة الرازي السابقة تقيده بالمنطق اليوناني الذي يجعل مبحث التعريف مستندا على مبحث العلل ، فقد كانت الغاية في العلم اليوناني البحث عن العلل واكتشافها ولذلك نجد الرازي يقول « انا انما نريد ان نعرف اسباب الامراض لنقابلهما بأضدادها فيكون بذلك نوالها » (١٠٠)

جعل الرازي اجناس سبب المرض الاول جنسين هما تغير الشكل وتغير المزاج ، والرازي يطلب بعد التعريف بالعلمة الانقسام لاجل السبب أو النوع وأحيانا كان ثمة خلط بين الجنس والنوع . اما الاستعداد والاحتباس والانذار والعلاج فكلها مأخوذ من جالينوس .

وإذا كان الرازي - فيما اسلفنا - متقيدا بالمنطق اليوناني فهو - مع ذلك يبرز اليونان في منطقتهم واستنتاجهم (١٠١) .

ويسجل ميله الى التجريب في مقدمة كتابه الخواص « (١٠٢) حيث يبرر رأيه في تأليف هذا الكتاب الذي قرر ان يجمع فيه اقوال الناس في خواص الاشياء ويحذر من قبول هذه الخواص دون التثبت بالتجربة ، ولكنه يدعو كذلك الى تدوينها جميعا لانه قد يكون في ترك واحدة اغفال لخاصة نافعة .

ولقد كان الرازي يرى تدوين كل ما يقرأ أو يسمع ويرى وربما كان ذلك سر كثرة تأليفه وعدم تنظيمها ، « (١٠٣) يقول الرازي في مقدمة الكتاب لا ينبغي لنا ان ندع شيئا نؤمل فيه نفعا من اجل ان قوما جهلوا وتعدوا ، وقد كان الواجب عليهم لو كانوا اهل راي وثبت وتوقف ان لا يبادروا الى انكار ما ليس عندهم على بطلانه برهان (١٠٤) .

وقد كان هذا ردا من الرازي على الطاعنين والرافضين قبول الخواص التي يجهلون بها فيبادرون الى انكار وجودها ، ولذلك يقول الرازي « ليس البرهان على اخبارنا انه كان كذا وكذا بأوجب منه على اخبارنا انه لم يكن كذا وكذا وإذا لم يكن في هذا الامر الا هذه الواحدة لوجب التوقف والتثبت من دفع ما لا يوجب على دفعه برهان وتركه موقوفا الى ان يصح برهان » (١٠٥) هذه العبارة تصور حدود المنهج التجريبي أدق تصوير ، فمن المشاهد لا يجوز الحكم على ما لم

(١٠٠) الرازي : المروشد ١٨٧ ص ٦٥ .

(١٠١) انهم الفكر اليوناني في صيغ قياسية تعتمد على مقدمات مسلحة لا لتبيل البرهنة .

(١٠٢) الرازي : الفواص منظوف تحت رقم ٣٦٤ طب تيغور ، ١٤٩ طب عام دار الكتب المصرية .

(١٠٣) محمد كامل حسين : طب الرازي ص ١٣٩ .

(١٠٤) الرازي خواص الاشياء ورق ٢ وجه .

(١٠٥) نفس المصدر ونفس الصفحة .

يشاهد الا على سبيل الاحتمال لا اليقين ، فليس لاحد ان يدفع ويمنع وجود مالم يشاهد مثله بل انما ينبغي له ان يتوقف عن ذلك حتى يشهد البرهان بوجوده او عدمه .

يمضي الرازى فى حديث طويل عن خواص الامور التى لا نعرف لها علة كجذب المغناطيس للحديد وامساكه عن جذبته متى ذلك بالثوم وعودة هذه القوى متى فسل بالخل يقول « انا لما راينا لهذه الجواهر الماعيل كثيرة عجيبة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الفاعل ولا يحيط به لم نر ان نطرح كل شيء لا تدركه ولا تبلغه عقولنا لان فى ذلك سقوط جل النافع عنا بل نضيف الى ذلك ما ادركانه بالتجارب وشهد لنا الناس به ولا نحل شيئا من ذلك محل الثقة الا بعد الامتحان والتجربة له » (١٠٦) اى ان الرازى يعنى تماما ان التقصير عن ادراك جميع الموجودات لازم للانسان المحدود ، ولكن ذلك لا يعنى طرحا قصر حسنا او عقلنا عن ادراكه والا اسقطنا الكثير مما ينفعنا ، وانما ثبتت ما شهدنا به التجربة والاختبار وايدته شهادة الغير .

يعود الرازى محتكما الى التجربة الى الفصل بين الحق والباطل فى امر هذه الخواص التى قد تكون موضع تكذيب الارباء من القوم ، يقول « ولما كان كثير من ارباء الناس قد يكذبون مثل هذه الاشياء ولم يكن عندنا شيء نختبر به حق الحق وباطل البطل فى هذه الدماوى الا التجربة راينا ان تكون هذه الدماوى غير مطرحة بل مجموعة مدونة . » (١٠٧)

نموقف الرازى مما سمع به من خواص الاشياء ان لا ينكرها ، فقد يكون فيها شيء من الصواب ، بل يعلق ذلك الى ان ثبت التجريد صدقه او كلبه .

يرى الرازى ان التجربة علم له اصول وفروع ولذلك يوجب على الطبيب ان يكون قد « احكم الاصول وقرا الفروع فانه من غير هذين لا يصح له شيء ولا يمتدى لامر من الامور فى الصناعة » (١٠٨) ولذلك يحذر من فهم جهال الاطباء للتجربة اذ ينظرون فى الكتب فيستعملون منها العلاجات وليسوا بعلوم ان الاشياء الموجودة فيها ليست هى اشياء تستعمل باعيانها بل هى مثالات جعلت لتحذير عليها وتعلم الصناعة منها (١٠٩) واذا لم يكن من التجربة الا هذا الفهم لها فقد نهى عنها جالينوس وسبقه الى ذلك ابقراط الفالسى فصوله « والتجربة خطر » (١١٠) ولذلك يؤيده الرازى فى نهيه عن التجربة بهذا المعنى عند المشرقيين الذين يتكلفون استخراج اشياء فى صناعة الطب مما يعتادها الكدنة ، ويقول الرازى « فقد صدق لعمري فى قوله وانى انهى

(١٠٦) الرازى : خواص الاشياء ورق ٤ وجه .

(١٠٧) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٠٨) الرازى : رسالة الى احد تلامذته ضمن مجموعة خطية تحت رقم ١١٩ طب تيمور من ص ١٦٦ : ١٨٤ النص ورق ١٧٧ وجه .

(١٠٩) نفس المصدر نفس الصفحة .

(١١٠) ابن الكلب : الاصول فى شرح الفصول البقراطية ص ٣ طبعة الاسكندرية ١٩٠٢ م .

من التجربة في صناعة الطب « (١١١) إذ الماهر من الأطباء قد يستدل على الطلة في المريض من النظر إلى بوله وهو ما يسمى بالتفسرة وكذلك إذا ما جُس نبضه ، ولكنه لا يمكنه بحال من الأحوال أن يخبر عما فعله البارحة وما أكله على حقيقته فهذه أمور يدعيها المشعوذون .

وما دمنا بصدد الكلام عن التجربة عند الرازي فقد تحسن الإشارة إلى ما يراه الدكتور محمد كامل حسين (١١٢) من أن التجربة عند الرازي لم تكن محددة القواعد والأصول ومع ذلك يقدم لنا مثالين من تجارب الرازي يعترف انهما « يدلان على فهمه الحق لما يجب أن تكون عليه التجارب من ضرورة وجود موجّهات أو ضوابط بمعنى Controls » .

المثال الأول : هو « سافر رجل نبيل في الصيف إلى ما ورجع به حمى مطبقة قوية الحرارة فالزمن به بعض الملوك فلما لم يكن ذلك ورايت الحرارة والكرب والقلق يتزايد أسقيته مقدار عشرة ارطال من الماء الصادق البرد فحصر مكانه وانطفأ ما به ودر بوله . (١١٢)

هذه من غير شك حالة ضربة شمس Sun Stroke عولجت بما يخفف من ارتفاع درجه الحرارة .

المثال الثاني : من الحادى يثبت أن التجربة عند الرازي كانت تجربة موجهة ولم تكن اتفاقية كذلك التي وجدناها عند اليونان ، فلكي يتحقق الرازي من اثر الفصد كعلاج لمرضى الرسام قسم مرضاه إلى مجموعتين يعالج احداها بالفصد ويمتنع عن فصد الاخرى ، ثم يراقب الاثر والنتيجة في افراد المجموعتين حتى ينتهى إلى حكم في قيمة العلاج ، يقول في حديثه عن حالة تنلدر بمرض الرسام « فمتى رأيت هذه العلامات فتقدم في الفصد فاني قد خلصت جماعة به وتركت متعمدا جماعة استوى بذلك فرسوموا كلهم » (١١٤)

ولأن الرازي أدرك أهمية التجربة فقد قام بنفسه بإجراء بعض التجارب على الحيوان وبالذات على القردة باعتبار أنها شبيهة بالإنسان ولا يزال الطب الحديث يدرك أهميته إجراء التجربة على الحيوان قبل إجرائها على الإنسان وإن اختلفت طبيعتان في بعض الأحيان .

المثال على ذلك ما ذكره الرازي مطولاً في خواص الزئبق إذ يقول « أما الزئبق العبيط فلا أحسب أن له كثير مضره إذا شرب ، أكثر من وجع شديد في البطن والأمعاء ، وقد سقيمت

(١١١) الرازي : رسالة إلى أحد تلامذته ورق ٦٦ ظهر ١٨٤٠ وجه .

(١١٢) محمد كامل حسين : طب الرازي ص ١٤٤ وفي ص ١٩٠ يعقب على النص بقوله « والذي يعنى في ذلك هو فهمه لاساس من اساس التجربة العلمية » .

(١١٣) الرازي : المرشد فصل ٣٣١ ص ١٠٦ .

(١١٤) الرسام : كلمة فارسية تتكون من مقطعين : سر . بمعنى رأس ، سام بمعنى مرض أو ورم وهو ورم في جيب الدماغ حاراً كان أو بارداً - ملبد العلوم ومبيد الهموم لابن الحشام ص ٧٢ .

انا منه قردا كان عندى فلم اره عرض له الا ما ذكرت وخمنت ذلك من تلويه وقبضه بغمه ويديه على بطنه اما اذا صب في الاذن منه فكان له تكاية شديدة « (١١٥) هذا المثال اصدق دلالة على التجربة الموجهة التي تربها فكرة ومن ثم يصدق القول بان التجربة ملاحظة مستشارة « فالمجرب يباشر التجربة عادة ليثبت قيمة فكرة تجريبية أو يتحقق من صحتها « (١١٦) هذا ما فعله الرازي ادرك وظيفة التجربة في التحقق من صحة الفروض .



طبيب القياس وطبيب التجربة : -

لما كان الاختلاف بين طبيب القياس وطبيب التجربة في المنهج الذي يسلكه كلاهما وجدنا الرازي يؤازر طبيب التجربة ويقف بجانبه اذا اختلف في الرأي مع طبيب القياس ، اذ يرى ان الشكوك الملوطة تقع في الاثر في الفن النظرى اكثر منه في الفن العلمى ، يقول الرازي عن طبيب القياس انه يجب ان يكون ذا خبرة فان لم يجتمع ذلك لرجل واحد اى ان يجمع بين التجربة والقياس فينبغى للمعنى بامر الطب ان يجمع بين رجلين احدهما فاضل في الفن العلمى من الطب والآخر كسير الدربة والتجربة ويصدر عن اجتماعهما في اكثر الامر ، فان اختلفا في شيء فيعرض ما اختلفا فيه على كثير من اصحاب التجارب فان اجمعوا جميعا على مخالفة صاحب النظر قبل منهم « (١١٧)

ذكرنا النص مطولا لان الرازي جمع بين الصفتين فلم يكن بد من ان يقرر لنفسه مذهباً فيما يكون عليه رايه حين يتعارض النظر والعمل وهو القائل « فان لم ينهها له الا احد الرجلين فليختر المجرب فانه اكثر نفعاً في صناعة الطب من العاري من الخدمة والتجربة البتة « (١١٨) اذ ليس للطبيب الممارس ان يغفل الفن العلمى وهو المراد بالفن التجريبى الذى يمارسه طبيب التجربة لذلك لم يكن الرازي مقلداً في عمله كطبيب لهؤلاء الذين ظنوا ان واجب الطبيب ومدى عبقريته يقاس بمقدار تفهمه واقتباسه لما كتبه القدماء بغض النظر عما يراه هو من الوقائع والاحوال الطبيعية بالبرهان والاختبار والملاحظة حوله .

بل تفرد الرازي (١١٩) برأيه وصدق في تسجيل مشاهداته واختباراته الشخصية وكتابه الحاوى حافل بانتقادات كثيرة لآراء السابقين لمن الاطباء ، فهو لا يعرف الحق بالرجال بمعنى ان يقبل رأياً لان قائله ابقراط أو جالينوس ، انما لان التجربة والملاحظة تؤيده ، وهو يتمتع

(١١٥) محمد كامل حسين : طب الرازي ص ١٤٥ .

(١١٦) برنارد (كلود) التدخل لدراسة الطب التجريبى ص ١٩ من الترجمة العربية .

(١١٧) الرازي : معنة الطبيب ص ٥٠٠ وطب الرازي لمحمد كامل حسين ص ١٢٢ .

(١١٨) الرازي : الرشده فصل ٣٦٤ ص ١١٩ .

(١١٩) محمد كامل حسين : طب الرازي ص ١٢٦ .

عن قبول الآراء المبنية على مشاهدة واحدة ، ويؤدي به البحث الى فحص حالات اخرى ومثال ذلك قول الرازي «جربت فوجدت في فرط الاسهال أو القيء أو خروج دم من فم أو غيره حمى تتبع ذلك فينبغي أن يعتدل في ذلك كله » (١٢٠) فهو يلجأ الى التجربة قبل اللجوء الى رأى ابقراط القائل (كل استفراغ كثير مقاوم للطبيعة) (١٢١) كذلك يؤكد الرازي ان ممارسة الصنعة خير معين لاكتساب الخبرة والمهارة ، ويثق في الطبيب الذي يعالج المرضى في المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان والموبوءة بالامراض ، يقول « ينبغي أن ينظر هل شاهد المرضى وقلوبهم وهل كان ذلك منه في المواضع المشهورة بكثرة الاطباء والمرضى ام لا » (١٢٢) ويضيف الرازي الى ذلك قوله ان من قرأ الكتب لم زاول المرضى يستفيد من التجربة كثيرا « (١٢٣) .

من امثلة اتجاه الرازي الى التجربة الحالات الاربع والثلاثين التي ذكرها مايرهوف (١٢٤) في مقاله في مجلة ايزيس يمنعنا كثرة الحالات وطول بعضها من العرض لها تفصيلا ، ولكنها في جملتها تقوم دليلا على استخدام الرازي للتجربة في بحوثه الطبية كما انها في الآن عينه تشهد للرازي بالدقة والبراعة في ملاحظاته الاكلينيكية مما يظهر بالتالي اهمية الطب السريري ، وكان الرازي يؤمن باهمية دراسة الحالات المرضية دراسة تحليلية لفهم ما تتضمنه من العلامات وما تدل عليه الاعراض وايام البهران وغيرها ، مثال الاستدلال من البهران قوله « لا يمكن ان تعالج علاج صواب حتى تعرف تركيب الابدان وذلك يصرف من التشريح ومن البهران وايامه » (١٢٥) الذي يريده الرازي من البهران يدل عليه قوله « الذي يريده الاطباء بالبهران هو تفير سريع يحدث للمريض عن حاله اما الى ما هو أجود او الى ما هو ادا » (١٢٦) .

اتخذ الرازي من ذكر هذه الحالات وسيلة لتعليم تلاميذه في الري وان كان من الملاحظ اختصار حالاته دون ترتيب او نظام معين ، نلاحظ انها تعالج امراضا مختلفة الطبائع بعضها باطنى والبعض الآخر خاص بطب العيون .

من الملاحظ كذلك في هذه الحالات اهتمام الرازي بتاريخ المرض فيذكر علامات التهيؤ وعلامات ابتداء المرض والتزايد والنتهى والانحطاط ، وهي مراتب العلل عنده « ابتداء وتزايد ومنتهى

(١٢٠) الرازي : الحاوى ج ٦ ص ٤٢ - فربة اى مرقو واحدة يقال ارتفعت الحمى فربة - طب الرازي لعبد كامل حسين ص ١٦٧ .

(١٢١) نفس المصدر - نفس الصحيفة .

(١٢٢) الرازي محنة الطبيب ص ٤٩٥ .

(١٢٣) الرازي المرشد فصل ١٦٤ ص ١١٩ .

(١٢٤) Meyerhof (Max) Thirty three clinical observations

والواقع ان عدد الحالات هو ٣٤ وليس ٣٣ كما ذكر مايرهوف .

(١٢٥) الرازي محنة الطبيب ص ٥٠٥ .

(١٢٦) الرازي المرشد فصل ٢٢٥ ص ٧٢ وكذلك فصل ٢٣٣ عن ايام البهران .

وانحطاط» (١٢٧) ، لا يخرج ذلك عما نراه مطبقاً في الوقت الراهن من تتبع حالات سير المرض وتاريخ الإصابة به وتسجيل ذلك كله في لوحات خاصة بالوقوف على ما يطرأ على حالة المريض من تحسن أو تدهور .

كان الرازي يذكر كذلك ما اذا كانت العلة حادة او مزمنة مسجلاً اوقات حدوث النكسات والتوالب كان يصف النفث وحالة التنفس والبراز والقيء وغير ذلك من الامور التي احتفظت بأهميتها حتى في الطب الحديث .

لم يكن الرازي ليففل قوة المريض لأجل دفع مقاومة الجسم للمرض وذلك بجانب اهتمامه بعلاج المرض الاصيل . فقد كان العلاج دون الحفاظ على قوة المريض عديم الفائدة ، ومن أمثله اهتمام الرازي بقوة الطليل قوله ، « القوة للطليل كالزاد للمسافر والمرض كالطريق ولذلك ينبغي ان يعنى الطبيب كل العناية الا تسقط القوة قبل المنتهى » (١٢٨)

ويقول الرازي في حكاية الوضاحي الذي نالته شوصة وهي مذكورة في كتابه (الحاوي) « لم التفث انا الى الحمى لاني علمت كما هي فصرفت عنايتي كلها الى تقوية القوة لاني علمت بانه يحتاج الى قوة قوية » (١٢٨) ، نلاحظ كذلك ان الرازي كان يصف مزاج المريض ومهنته وعمره وجنسه وكثيراً ما نرى اسم المريض قرين المرض الذي أصابه .

فمن مزاج المريض يقول الرازي في الحالة الثالثة وهي حالة ابن عمراوية (كان هذا رجلاً مستعداً للرسام جداً وكان قد أصابه قبل قدومي رسماً » (١٣٠) .

وعن المهنة يقول الرازي في الحالة السابعة ان مريضه كان يعمل بحياكة الملابس وفي الحالة الرابعة عشرة صائفاً ، وفي الحالة السادسة عشرة بواباً ، وفي الحالة الثامنة عشرة برازاً ، وفي الحالة التاسعة عشرة وراقاً . ومن أمثلة ذكر عمر المريض قول الرازي « رأيت خراجاً في الرئة جمع ونفث دماً صار مدة وبىء وذلك في صبي ابن خمس سنين » (١٣١) .

لم يلف الامر بالرازي عند هذا الحد ، كان يكتب عن الامراض التي تصيبه هو شخصياً كما جاء في قوله :

اولهما « جربت في نفسي ورأيت أن أجود ما يكون ان سامة ما يحس الانسان بنزول اللهاة والخواتيق ان يتفرغ بخل حامض قابض مسرات كثيرة » (١٣٢) .

(١٢٧) الرازي : رسالة الى احد تلاميذه ورق ١٧٠ وجه .

(١٢٨) الرازي : المرض فصل ٢٦٩ ص ٩١ .

(١٢٩) الرازي : الحاوي ج ٤ ص ١٧٨ .

(١٣٠) الحالة الثالثة Meyerhof (Max) Thirty three clinical observations, P. 339.

(١٣١) الرازي : الحاوي ج ٤ ص ١١٥ .

(١٣٢) الرازي : الحاوي ج ٧ ص ٢٧٩ .

الظاهر أنه يشير بذلك الى حالة التهاب الزور واللوزتين واعتبار الفراغ بالخل علاجاً وذلك لكون الخل من الحوامض التي تقبض .

ثانيهما : « كان يى وجع في الطحال فدمت على أخذ الاطريفل لشيء آخر فذهب الوجع البتة » (١٣٣) .

إذا كنا في الطب الحديث ندرك أهمية التجارب الذاتية أو الشخصية ولدينا الأمثلة على ذلك فإن الرازي قد سبق الى هذا الفهم منذ زمن بعيد ولدينا من أقوال الرازي ما يلفت النظر الى اهتمامه بالاستدلال من أحوال المريض عامة على ما يشكوه من مرض .

يقول الرازي « استخرج سبب الوجع من التدبير والسن والزمان والمزاج » (١٣٤) ، أو بعبارة أخرى « انظر الى التدبير وحال البدن والنوم واليقظة » (١٣٥) .

هل يفعل الطب الحديث أكثر من ذلك أى من الاحاطة بأحوال المريض في معيشته ونومه ويقلته ؟ ، يضيف الرازي الى ذلك ضرورة الانصات الى المريض وهو يعرف شكواه والاستفسار منه عن بيئته وحياته وأحوال معيشته ثم ملازمته ملاحظة ما يطرأ على أحواله من تغير اذا تيسر ذلك قام الطبيب بفحص بوله وجس نبضه .

يقول الرازي « من أبلغ الأشياء فيما يحتاج اليه في علاج الامراض بعد المعرفة الكاملة للصناعة حسن مسألة العليل وأبلغ من ذلك لزوم الطبيب العليل وملاحظة احواله ... » (١٣٦) لم تكن ملازمة المرضى في الحقيقة الاجزاء من أحكام صناعة الطب ولزوم الطبيب للعليل كان أمراً واجباً لأن من المرضي من لا يحسن ان يعبرهما به .

يعطى الرازي مثالا لذلك بصديق له كان يسهل أسهالا مزمنا طويلا وأشار عليه بدواء الخردل فانقطع عنه دأؤه يقول الرازي ، لولا طول الالتقاء والمجالسة لم يمكن ان يلحق من أمره هذا شيء البتة » (١٣٧) وهذا مبدأ طبي صحيح في حد ذاته .

إن الرازي فاق في تدوين ملاحظاته السريرية جميع من تقدمه من الأطباء . هذه المعلومات السريرية هامة لكونها تتعلق بدراسة سير المرض ووصف العلاج الذي استعمل لكل حالة من الحالات وكذلك تطور حال المريض وما أسفر عنه العلاج .

(١٣٣) الرازي : الحاوي ج ٦ ص ٢٨٤ - الاطريفل : دواء مركب فيه لا محالة بعض الاعلاليات أولئك ويزاد فيه بحسب الحاجة من الاغذية وهو بالهندية ثلاثة اخلاط : اهلبيج اصفر ، وبليج ، وأملج - لفظ اطريفل تدل على المعجون .

(١٣٤) الرازي : الحاوي ج ٣ ص ٢٧٩ .

(١٣٥) الرازي : الحاوي ج ٣ ص ١٩ .

(١٣٦) الرازي : الإرشد فصل ٣١٨ ص ١٢١ .

(١٣٧) نفس المصدر - نفس الصفحة .

الرازي والتشخيص المقارن : (١٣٨)

تعتبر كتابات الرازي في التفريق بين الأمراض المتشابهة الأعراض اسهاما أصيلا في تقسيم وترتيب خلاصة تجاربه الشخصية على أعداد غير قليلة من المرضى الذين كان الرازي يعالجهم دون نظر إلى وضعهم الاجتماعي فمنهم النبلاء والفقراء وأصحاب الهن .

كان الرازي يتناول أمراضا متشابهة يقارن بين علامات كل منها أو علامة من العلامات المرضية ثم يبحث في أسبابها المختلفة وكيفية التفريق بينها جميعا .

مثال النوع الأول : هو التفريق بين القولنج ووجع الكلى ، أو بين ذات الجنب وذات الرئة : أو بين بول الدم والمدة ... ففي الحاوي للرازي إذا كان الوجع في الجانب الأيسر نظرانه في الكلى وإذا كان يتأدى إلى سطح الجسم حتى يحس العليل بالحم عند غمز المراق فقولنج « . . . ويفصل القولنج من وجع الكلى أمور كثيرة جاء الرازي على ذكرها في الجزء الثامن من كتابه الحاوي (١٣٩) أما تفرقه بين ذات الجنب وذات الرئة فقد وردت في الجزء الرابع من الأخيرة يقول الرازي « وذلك بشدة سيق النفس جدا حتى كأنه يخنق ولا يقدر أن يتنفس ، أما ذات الجنب فانه يقدر أن يتنفس نفسا عظيما ولو أن نفسه مختلف بحسب المادة والوجع في صدره » (١٤٠)

مثال النوع الثاني : ما يكتبه الرازي في أسباب احتباس البول فقد يكون من حصاة في الكلى أو ورم في الكبد وذلك في قوله « أما الذي يكون من الكلى فيكون محتسبا البتة وفيها المرض وذلك إما لورم أو حجر أو علقة دم أو مدة (١٤١) .

ومن الورم في الكبد يقول الرازي « لى - تفقد في علل الكبد حال البول فمتى رأيته قد احتسبا أصلا فاعلم أن الورم بالكبد عظيم جدا » (١٤٢)

هذا الموضوع في تحديد العلامات والالتهابات في التشخيص المقارن لا نجد في التفريق بين أنواع الحميات وهي كثيرة لن نعرض لها ، إن المهم هو حسن إدراك الرازي للدلالات فهو يرجع في تقدير ما يؤوله إليه حال المريض إلى الدلائل . يقول الرازي « أما جودة الدلائل فلا نثق بها إلا في النظر في المنتهى ، وأما الرديئة فلا نحكم فيها حكم ثقة إلا مع إسقاط القوة واجعل هذا أصلا وعمادا » (١٤٣) .

(١٣٨) يوصي الرازي في كتابه « صفة الطبيب » بضرورة الامتحان في علامات الأمراض المتشابهة التي كثيرا ما يختلط على الطبيب تشخيصها ، وهذا يتم في الطب الحديث النص ص ٥٠ من صفة الطبيب .

(١٣٩) الرازي : الحاوي ج ٨ ص ١٥٢ وفي ص ١٧٩ - تعريف القولنج بأنه احتباس من الطبيعة مع وجع شديد وعرق ولقيح أو غثي .

(١٤٠) الرازي : الحاوي ج ٤ ص ٩٢ ويذكر الخوازمي في مفاتيح العلوم ص ٩٧ أن ذات الرئة قرحة في الرئة يسبق منها النفس .

(١٤١) الحاوي ج ٦ ص ٨٢ .

(١٤٢) نفس المصدر ص ٨٣ .

(١٤٣) محمد كامل حسين : طب الرازي ص ١٤٦ .

اذ عنده اسقاط القوة من اعظم الدلائل الردية فالرازي لا يتخذ بما يبدو من الدلائل الحسنة وينظر في النتيجة لانه قد تكون الدلالات الجيدة غير صحيحة التعبير عن حياة المريض ، والمرض منه ظاهر وكامن ،وبذلك يرى أن الحادث المحمود دلالتة « خفه علتبه وسكون الوجع والاعراض وضعفها وحسن النفس » (١٤٤) ويرى كذلك أنه بقدر تقدم علامات النضج يكون قصر مدة المرض وبقدر قوتها سلامة المريض . ينصح الرازي بجمع العلامات وترتيبها بمراتب قواها سواء أكانت جيدة أم ردية اذ العلامات تختلف في دلالاتها على قدر وقت حدوثها من تاريخ المرض فان ظهرت دلائل الهلاك منذ اول الامر . كانت تدلر سوء ، اما ظهور العلامات الجيدة في اول أيام المرض فليس دليلا على البرء .

يرى الرازي أن للعلل من جهة البئر شروط ثلاث هي : ١ - حلة واجب البرء . ٢ - حلة جائز البرء . ٣ - حلة مستحيل البرء (١٤٥) .

يعنى ذلك أن بعضا من الامراض لا علاج لها . ويعطى مثالا لذلك السرطان والجزام والبرص فقد يكون الالم في احتمال مؤونة علاجها يزيد أو يربو على المها نفسه . ويمكن أن نستشف من هذا القول الاخر ان الرازي لا يقطع باستحالة علاجها مستقبلا اذ المرض ذاته قد يكون له علاج ، ولكنه اقتصر في ابداء الراى - من حيث جعلها من العلل المستحيلة البرء - على احتمال المرض لشقة العلاج . اما العلل الجائزة البرء فهي التى تعالج كما يجب وكيفما يجب وبما يجب ، اما واجب البرء فهي العلل البسيطة .

منهج الرازي في التشخيص والعلاج :

يقول الرازي « يحتاج في استدلال علل الاعضاء الباطنية الى العلم بجواهرها اولا بان تكون شوهدت بالتشريح ، والى العلم بمواضعها من البدن والى العلم بفاعالتها ، والى العلم بأعظامها والى العلم بما تحتوى عليه ، والى العلم بفضولها التى تدفع عنها لأن من لم يعرف ذلك لم يكن علاجه على صواب » (١٤٦) .

يقول الرازي مثالا لكل واحدة :

ففى الجواهر الظاهرة قوله « انه متى خرج بالنفث شيء من جوهر الرئة لم يعرف ذلك الا من قد شاهد ذلك الجوهـر فى الرئة موات » .

وفى المواضع قوله « ان من علم موضع الكبد لم يظن اذا رى وجعا فى الجانب الايسر من البطن انه فى الكبد » وفى الانعـال قوله « ان من علم ان الحس والحركة تكون بالعصب والنخاع لم يقصد عند بطلانها علاج أعضاء أخرى » .

(١٤٤) الرازي : الحاوى ج ٤ ص ١٢٢ .

(١٤٥) الرازي : رسالة الى احد تلامذته ريق ١٦٨ وجه .

(١٤٦) الرازي : المرشد فصل ١٩١ ص ٦٦ .

وفي الاشكال قوله «ان الورم الهلالي الذي في الجانب الايمن ما دون الشراسيف يدل على الورم في الكبد اذ شكل الكبد كذلك . وفي العظام قوله «ان الحصة التي معظم عن مقدار بطون الكلى لا يمكن ان يكون تولدها في الكلى » وفي المحتوى قوله « ان الدم الرقيق الاحمر خاص بالشریان والرئدي خاص بجرم الرئة » وفي الفضول ودفعها قوله « ان الرقان الاصفر ينذر بالعلّة في الكبد والمرارة ، والاسود يدل على ان العلّة في الطحال » (١٤٧) ففي هذه الامور واشباهها ينبغي ان يتدرب من يريد استخراج علل الاعضاء الباطنة لكي يمكنه اكتساب الدلائل ويصيب القدمات الدالة على العضو الوجع وماهية وجمعه لان من لم يعرف ذلك لم يكن علاجه على صواب ومن ارتكب علاجاً على غير هذا الطريق كان مخطئاً .

بدأ الرازي بالتشريح وثنى بالفسيولوجيا وأشار الى المورفولوجيا وهي دراسة الاعضاء والانفراد من حيث شكلها الخارجى ولم يهتم الرازي علم الباثولوجيا أى علم طبائع الامراض في قوله « بفضولها التي تدفع عنها » .

جمل الرازي العلاج نتيجة لهذه المقدمات . بل كثيرا ما اشار الرازي الى أهمية الفحص الدقيق للقلب والنبض والتنفس والبراز عند مراقبة تطور مرض بعينه . وهذه الامور لم تول تحتفظ بأهميتها في الطب الحديث .

ايضا تنبه الرازي الى اثر العامل النفساني في صحة المريض وفي احداث المرض يرى الرازي ان سوء الهضم قد يكون لاسباب نفسانية ، يقول « قد يكون لسوء الهضم اسباب بخلاف رداءة الكبد والطحال منها حال الهواء والاستحمام ونقصان الشرب وكثرة اخراج الدم والجماع والهجوم النفسانية » (١٤٨) .

فما يجرى في نفس الانسان من خواطر وما تعانیه من آلام يمكن ان يستشف من خلال الملامح الظاهرة كما في حالة سوء الهضم التي ذكرناها ، ان النفس الشان الاول فيما بينهما وبين البدن من صلة ولذلك وجب على طبيب الجسم ان يكون اولاً طبيباً للنفس « مزاج الجسم تابع لاخلاق النفس » (١٤٩) يمكن ان نجمل ما أسلفناه عن الرازي في عبارات قليلة تضمن اهتمام الرازي بالشاهدات والدلالات والفروق بين الامراض وتفوقه يقوم على الملاحظة والتجربة . ففي ملاحظاته الاكلينيكية دقة ملاحظة وقوة مقارنة وصدق حكم وقدرة على تمييز الدلائل وتقويمها . وان خير ما في تأليف الرازي ملاحظاته الاكلينيكية وحسن ادراكه للدلالات .

لقد اتبع الرازي في بحوثه الطبية منهجاً اسلمه الى نتائج صحيحة غالباً ومع ذلك كان المنهج مضمرًا في ثانياً بحثه وقد شغلته نتائج عمله عن الاهتمام بتقنيته .

• • •

(١٤٧) الاولوال التالية من المرشد .

(١٤٨) الرازي : الحاوي ج ٣ ص ٦١ .

(١٤٩) ابن ابي اسيميه : طبقات الاطباء ج ١ ص ٢١٤ .

ثانيا : ابن سينا :

أول ما يسترعى النظر عند ابن سينا في كتابه « القانون » انه متأثر في تبويب كتابه وعرض ما اشتمل عليه من حقائق الطب - بمراسسته الفلسفية والمنطقية (١٥٠) - رأى في تقسيمه انه يحقق الدقة في حصر مسائل الطب ، واهتم ابن سينا في مقدمة كتابه برسم دستور الطبى في تأليف كتابه .

يتلخص هذا الدستور في الكلام عن الامور الكلية (١٥١) ثم الامور الجزئية وليس من شك ان المقارنة بين كلياته وطابعها الفلسفى وجزئياته وطابعها العلمى تثير في الواقع صراعا خفيا بين الفلسفة والعلم عامة وبينها وبين الطب خاصة .

لعل ابن سينا شعر بهذا الصراع فوضع للطبيب حدودا يجب الا يتعداها الى ما هو من عمل الفلاسفة ، واضح من دستور الطبى انه كان يضع الفلسفة قبل العلم ، دليلنا في ذلك نصان من القانون يقول في موضع منه « امل ان الخالق جل جلاله اعطى كل حيوان وكل عضو من المزاج ما هو كليل به واصح لاماله واحواله بحسب احتمال الامكان له وتحقق ذلك الى الفيلسوف دون الطبيب » (١٥٢) .

وفي موضع آخر « والطبيب ليس عليه ان يتتبع المخرج الى الحق من هذين الاختلافين بالبرهان فليس اليه سبيل من جهة ما هو طبيب ولا يضره في شيء من مباحثه واعماله » (١٥٣)

كل ذلك يدل على ان ابن سينا كان يشعر ان الطبيب يجب ان لا يجعل نفسه عبء البرهان الفلسفى على ما يقوم به من مشاهدات وعلاج ، ذلك ان الفلسفة تقوم على اساس ثابتة لا يرقى اليها الشك وان البرهان في امورها لا يتعلق بالجزئيات ولا بالواقع ، وعلى ذلك لا يكون للطبيب ان يجادل في هذه الاسس مهما تكن مخالفة لمشاهداته وعلمه ، وتفسر ذلك ان المشاهدات العلمية في ذلك الوقت كانت اقل خطرا من ان تتفادى الحقائق الفلسفية واضعف شأننا من ان نقوم بدونها ، ولا ينفي ذلك ان ابن سينا الطبيب افاد من ابن سينا الفيلسوف فما افاده الطب من تعمق ابن سينا في الفلسفة واضح في كتاب القانون في التبويب والتقسيم والتنظيم فقد يحدث ان يذكر ابن سينا بابا او فصلا لا اهميته الطبية ولكن لحاجته اليه في التقسيم المنطقي ، فقد كانت الحاجة المنطقية تغلب الحاجة الطبية » (١٥٤) .

(١٥٠) يرى الدكتور محمد كامل حسين في مقالة عن الفلسفة والطب في كتاب القانون ص ١٢٠ من كتابه « متنوعات » ان دراسة القانون من الناحية الفلسفية امتع عند الباحث الحديث من دراسته من الناحية الطبية .

(١٥١) الكليات في الطب هي الاركان والزواجات والاضلاط والقوى والارواح والاسباب - القانون لابن سينا ج ١ ص ٥٥

(١٥٢) يرى ابن سينا ان الطبيب لا يعنى موتا ولا يطيل اجلا ، انما غايته ان يبلغ كل شخص بحسب مزاجه وقوته منتهى الاجل ، وان يحفظ صحة كل سن على ما يليق به - القانون لابن سينا ج ١ ص ١٥٠ .

(١٥٣) ابن سينا : القانون ج ١ ص ٢١ .

(١٥٤) المثال على ذلك قول ابن سينا عن اصول الصحة والمرض ج ١ ص : « لا مناقشة مع الاطباء في هذا وما هم ممن يناقشون في مثله ولا تؤدي المناقشة بهم او بمن يناقشهم الى فائدة في الطب اما معرفة الحق في ذلك فاما يليق بمناظرة اخرى اعلى صناعة اصول المنطق » .

يحدد ابن سينا منهجه في كتابه القانون قائلا « رأيت ان اكلم أولا في الامور العامة الكلية في كلا تسمى الطب اعنى القسم النظرى والعملى، ثم بعد ذلك اكلم في كليات احكام قوى الادوية المفردة ، ثم في جزئياتها ، ثم بعد ذلك في الامراض الواقعة بعضو عضو » (١٥٥) يبدأ ابن سينا بدراسة الكليات ثم الجزئيات ويتناول الامراض الواقعة في اعضاء الجسم من الراس الى القدم ، بعضى ابن سينا في عرض منهجه ، يبدأ اولاً بالحديث عن تشريح العضو ثم يعقب ذلك ببيان كيفية المحافظة على صحته ، ثم ينتقل الى الكلام عن كليات امراض العضو واسبابها وطرق الاستدلال عليها واسباب معالجاتها، يقول ابن سينا « ابتدئ أولاً بتشريح ذلك العضو ومنفعته ثم اذا فرغت من ذلك ابتدأت في اكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته ، ثم دلت بالقول المطلق على كليات امراضه واسبابها وطرق الاستدلال عليها وطرق معالجاتها بالقول الكلى » (١٥٦) .

تاتى الجزئيات العلمية في المرحلة التالية للفراغ من الكليات ، نجد ذلك في قول ابن سينا « فاذا فرغت من هذه الامور اقبلت على الامراض الجزئية ودلت اولاً في اكثرها ايضا على الحكم الكلى في حده واسبابه ودلاله ، ثم خلصت الى الاحكام الجزئية ثم اعطيت القانون الكلى للمعالجة لم تولت الى المعالجات الجزئية » (١٥٧) .

الكتاب كله على هذا النحو من المد والجزر بين الكليات والجزئيات مما يعكس فلسفة العلم انذاك . لقد كانت غاية العلم النفاذ الى ماهيات الاشياء كي يفهرها وماهية الشيء ايا كان كلية دائماً ومن هنا جاءت اولوية الكليات على الجزئيات .

لنناقش الآن بين تبويب القانون وتبويب الكتب الطبية الحديثة ، نجد القانون يبدأ بالتشريح anatomy وهذا ما تفعله الكتب الطبية الحديثة ، ويشئ بعلم وظائف الاعضاء physiology ويعقب ذلك بما نسميه بالپالولوجيا Pathology اعنى علم طبائع الامراض واخيراً علم العلاج therapy

لنبحث الآن في مسائل منهجية من واقع ما حواه القانون .

اول ما نلاحظه هو استخدام ابن سينا لمصطلح الاعراض Symptoms وهذا دليل على أن ابن سينا كان يجرى في تشخيصه للامراض على جمع الاعراض التى يشكوها المريض وهى اما « مؤقنة بتبدىء وتنقطع مع المرض كالحمى الحادة والوجع الناجس في ذات الجنب . واما ان تاتى آخر الامر ومن ذلك علامات البحران وعلامات النضج ، ومن الاعراض ما ليس له وقت معلوم فينتبع المرض تارة وتارة لا يتبع كالصداع للحمى » (١٥٨) .

(١٥٥) ابن سينا : القانون ص ٣ من المقدمة طبعة روم سنة ١٥٩٣ م .

(١٥٦) ابن سينا : مقدمة القانون ص ٤٣ .

(١٥٧) ابن سينا : مقدمة القانون ص ٤ .

(١٥٨) ابن سينا : القانون ج ١ ص ١١٢ .

إذا كانت الاعراض ما يلاحظه المريض والعلامات ما يراه الطبيب بنفسه فإن لكليهما دلالات ثلاثا يفيد منها المريض والطبيب ، فالدلالة أما على أمر حاضر وينتفع به المريض وحده فيما ينبغي أن يفعل من واجب تدبير نفسه ، وأما على أمر ماضٍ يفيد منه الطبيب وحده إذ قد يستدل بذلك على تقدمه في صناعة فنزاد الثقة بمشورته ، وأما على أمر مستقبل ينتفعان به جميعا ، الطبيب يستدل منه على تقدمه في المعرفة والمريض يقف منه على واجب تدبيره .

لأن سينا في العلامات اقوال ، إذ منها ما يدل على ظاهر الاحوال ومنها ما يدل على الاحوال الباطنة « فالدال على الظاهر مثل اللون واللمس والطعم والارايح والدال على الاحوال الباطنة كالبول والبراز » (١٥٩) يشترط ابن سينا في المستدل على الامراض الباطنة من الاحوال السابقة أن يكون قد سبق له العلم بالتشريح الذي تقدم علم وظائف الاعضاء ومنافعها ، ومن واجب الطبيب أن يسأل المريض عن علامات الامراض التي يمكن أن تكون في الامراض المشاركة في العضو العليل أو تكون غير محسوسة ولا مؤلمة لها ظاهرا « (١٦٠) فقد يهتدي الطبيب من ذلك الى معرفة العلة . ذلك ان اسباب الصحة والمرض قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية لا تنال بالجلس بل بالاستدلال من العوارض فيجب أن تعرف في الطب العوارض التي تعرض في الصحة والمرض » (١٦١)

السؤال الآن ما المراد بالعرض والطالب ؟

ان الكلام من العرض عند ابن سينا يرتبط بالكلام عن السبب والمرض كذلك « السبب ما يكون أولا فيجب عنه وجود حالة من حالات بدن الانسان أو ثباتها » (١٦٢) فاسباب واحوال بدن الانسان عند ابن سينا هي الصحة والمرض والحال المتوسطة بينهما ثلاثة السابقة والبادية والواصلة . « المرض هيئة غير طبيعية في بدن الانسان يجب عنها بالذات آفة في الفعل وجوبا اوليا » (١٦٣) العرض يتبع المرض وهو « الشيء الذي يتبع هذه الهيئة وهو غير طبيعي » (١٦٤)

يسمى العرض عرضا باعتبار ذاته أو بقياسه الى المعرض له ويسمى دليلا باعتبار مطالعة الطبيب اياه وسلوكه منه الى معرفة ماهية المرض، ولذلك كانت الوظيفة التي يؤديها العرض في الطب هي عين وظيفته في المنطق .

فاذا ادركنا ان العرض في الطب دليل الطبيب الى ماهية المرض لم يكن ثمة خلاف في الدور الذي يؤديه العرض في الطب أو المنطق .

(١٥٩) ابن سينا : القانون ج ١ ص ١١٢ ومن أمثله الدلالة على الامراض الباطنة دلالة حمرة الوجنة على ذات الرلة .

(١٦٠) ابن سينا : القانون ج ١ ص ١١٥ .

(١٦١) ابن سينا : القانون ج ١ ص ٤

(١٦٢) ابن سينا : القانون ج ١ ص ٧٣

(١٦٣) ابن سينا : القانون ج ١ ص ٧٣

(١٦٤) نفس المصدر نفس الصفحة .

يقدم ابن سينا أمثلة للسبب والمعرض والعرض « مثال السبب العفونة ومثال المرض الحمى ومثال المعرض العطش والصداع » (١٦٥) ومع ذلك قد يتحول واحد من هذه الثلاثة الى الآخر ، وقد يصير المرض سببا لمعرض آخر كالتولنج أو الصرع وقد يصير المعرض سببا للمرض كالوجع الشديد يصير سببا للورم لانصباب المواد الى موضع الوجع ، وقد يصير المعرض بنفسه مرضا كالصداع العارض من الحمى فانه ربما استقر واستحكم حتى صار مرضا وقد يختلف الترتيب فيصير الشيء « بالقياس الى نفسه والى شىء قبله أو بعده مرضا ومرضيا وسببا » (١٦٦)

المثال على ذلك الحمى السلية عرض لقرحة الرئة ومرض في نفسها وسبب لضعف المعدة والصداع الحادث عن الحمى اذا استحكم كان مرضا للحمى ومرضيا في نفسه وربما جلب السرسام فصار بذلك سببا ، ففي الحالة الثانية هو عرض باعتباره ذات ، وفي الحالة الاولى عرض بالقياس الى الحمى .



ابن سينا والتشخيص المقارن : -

يبدأ ابن سينا بتعريف المرض والتفرقة بينه وبين غيره عند وجود تشابه بينهما فمثلا يتكلم عن الفرق بين الصدر والدوار يقول «الصدر ظلمة تعترى البصر عند القيام والنوار ان يتخيل صاحبه كان الاشياء تدور ، والصدر مقدمته ويندران اذا دام بسكتة او صرع » (١٦٧) وكذلك في الفرق بين ذات الجنب وذات الرئة يصف المرض واصراضه ذاكرا ان ذات الرئة قد ينتقل الى قرحة في الرئة وهي السل، وكذلك في امراض الكلى والمثانة يذكر علامات الحرارة والبرودة لكل منهما وفي الفرق بين حصاة الكلى والتولنج يقول ابن سينا « الفرق بين حصاة الكلى والتولنج ان وجع حصاة الكلى صغير يبتدىء من اعلى وينزل الى حيث يستقر من اى جانب كان، والتولنج يبتدىء من الاسفل ومن اليمين ثم ينسبط ، والتولنج يخف على الخوى والحصى يشتد عليه . . (١٦٨) وبعد ان يفرق ابن سينا بين حصاة الكلى والمثانة قال « والحصاة مما يورث » (١٦٩) قاصدا ان حصاة الكلى او المثانة مما يورث .

مادعنا بصدد الكلام من التشخيص المقارن عند ابن سينا كان حسنا ان نخرج على رايه في مجال الحميات ، نجد ان التحديد بين انواع الحميات المختلفة كان على اساس النظر في الزمان

(١٦٥) ابن سينا : القانون ج ١ ص ٧١

(١٦٦) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٦٧) ابن سينا : القانون ج ٢ ص ٧٣ و ٧٦ .

(١٦٨) ابن سينا : القانون ج ٢ ص ٤٨٨ .

(١٦٩) ابن سينا : القانون ج ٢ ص ٥٠٧ .

والسن والمزاج والنفض والبول والعطش والقيء والبراز ولا غرابة في ذلك ، لم يكن لهؤلاء القدماء أن يفرقوا بين الحميات المتشابهة على أساس ما تمعله اليوم من تحاليل . لم يكن متوفرا لهم ما نوفر لنا .

ما يهمنا في هذه الامور التي اقاموا عليها استدلالاتهم هو كيفية الاستدلال بالبول والبراز والنفض وهي امور تحتفظ بأهميتها في الطب الحديث .

❶ أقول في البول :-

يعرض ابن سينا في الكتاب الاول من قانونه الشروط التي يتعين توافرها في فحص البول ، ومن امثلة ذلك انه يوصي بأن يكون «اول بول أصبح عليه ولم يدافع به الى زمان طويل ، ولم يكن صاحبه قد شرب ماء او اكل طعاما او تناول صابغا من مأكول أو مشروب فان ذلك يحيل لون البول الى الصفرة أو الحمرة » (١٧٠)

ولما كان لون البول يتغير كذلك بالصوم والسهو والتعب فقد اوصى ابن سينا ان يؤخذ البول في قارورة واسعة الفم ويركد بعيدا عن تأثير الشمس أو الريح ثم تميز الرسوب . (١٧١)
وللاستدلال بالبول اجناس سبعة هي اللون ، القوام ، الصفاء الكدورة ، والرائحة ، الريد ، والرسوب ، ومقدار البول .

لاين سينا كلام يطول في كل واحدة من اجناس الاستدلالات السبعة ولان هذه الاجناس السبعة ما زالت تحتفظ بأهميتها الى وقتنا الحاضر عرفنا لها وان يكن ذلك باختصار شديد .

❷ أقول في البراز :-

يقول ابن سينا في الاستدلال بالبراز اقوالا مشابهة لاقواله في البول ، فهو يرى أن البراز يدل بولونه ومقداره وقوامه وكذلك رفته ورائحته والمراد باللون والقوام في الحاليين هو الغلظ والرفقة .

❸ أقول في النفض :-

اما الاستدلال من النفض (١٧٢) فاجناس اثلثة عشرة (١٧٣) وهي المقدار واقسامه تسعة ، ثم كيفية قرع الحركة من حيث القوة والضعف والتوسط بينهما وزمان الحركة وهو اما سريع او بطيء او متوسط ، وقوام الآلة وهو اما صلب او لين او متوسط ، وزمان السكون وهو متواتر

(١٧٠) ابن سينا : القانون ج ١ ص ١٣٥ .

(١٧١) نفس المصدر نفس الصفحة .

(١٧٢) ابن سينا : القانون ج ١ ص ١٢٣ يذكر أن النفض حركة من اوعية الروح مؤلفة من انقباض وانقباض .

(١٧٣) ابن النفيس : موجز القانون .

أو متفاوت أو متوسط ، وملبس الآلة إما حار أو بارد أو متوسط ، ومقدار ما فيه من الرطوبة من حيث الاستلاء أو الظل أو التوسط بينهما والاستواء في أحواله واختلافه فيها ، والانتظام وعدمه وأخيراً الوزن وهو إما جيد أو بخلاف ذلك ، إذ لكل سن وزن معين إني النبض ، لم يكن جس النبض امراً يسيراً لأنه يقتضى التدرب على مجسدة العروق حتى يعرف عن طريقها التغير اليسر الحادث في النبض ، لقد كان النظر إلى النبض على أنه رسول لا يكذب إذ يكشف عن أشياء خفية . ولذلك أمكن التعرف على حركة القلب من حركة الشريان .

ذكرنا الاستدلالات الثلاثة من اليول والبراز والنبض لأن تشخيص المرض كان يجري على نظام قريب من نظامنا الراهن باستخدام أدق الوسائل المتاحة في تلك العصور ، فكان الطبيب ينصت إلى مريضه وهو يعرف شكواه فيستفسر منه عن بيئته وحياته وأحوال معيشته ومدى سلامته ويتعرف إلى أسرته واحتمال إصابته بالمرض . فإذا تيسر ذلك قام بفحص بوله وبرازه وجس نبضه للوقوف على علته .



ابن سينا والعلاج :

لأن سينا كلام دقيق في المعالجات إذا اجتمع المرض والعرض أو المرض والسبب، مثال ذلك قوله « إذا اجتمعت السدة والحمى عالجنا السدة أولاً ولا نبأ بالحمى » لأن الحمى يستحيل أن تزول وسببها باق « (١٧٤) ولكن إذا اجتمع مرض وعرض فابداً بالمرض لأن العرض يتبع المرض ولا يتقدمه فإذا ما غلب العرض قصدناه بالعلاج ابتداءً ولا تلتفت إلى المرض وذلك بقصد تسكين الوجع . المثال على ذلك أن « نسقى المخدرات في القولنج الشديد الوجع وإن كان يضر نفس القولنج » (١٧٥) أو موجب وقع كالضربة والسقطة فابداً بتسكين الوجع . (١٧٦)

ما قاله ابن سينا كلام حسن يحسن أن يتدبره الأطباء حتى في عصرنا الحاضر ، يمضي ابن سينا في حديثه عن المعالجات فيقول « إذا اشكلت الملة فضل بينها وبين الطبيعة ولا تستعمل (١٧٧) .

لأن ثمة احتمالاً إما أن تقهر الطبيعة الملة أو تظهر الملة ، ومن الأمور التي تحتاج في علاجها إلى نظر دقيق أن « يجتمع في مرض استحقاقاً متضاداً » (١٧٨) كان يستحق المرض تبريداً وسببه تسخيناً ، التبريد في حالة الحمى والتسخين في حالة السدد الذي يكون سببها

(١٧٤) ابن سينا : القانون ج ١ ص ١٦٠ .

(١٧٥) ابن سينا : القانون ج ١ ص ١٩٠ .

(١٧٦) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٧٧) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٧٨) ابن سينا : القانون ج ١ ص ١٩٠ .

الحصى ، أو قد يستحق المرض تسخيناً وعرضه تبريداً كما في حالة مرض القولنج الذى يستحق شدة وجهه تبريداً وتخديراً وهو عينه يستحق تسخيناً ، من ذلك نرى ان المرض كان يعالج الضد ، والصحة تحفظ بالمشاكل ، وابن سينا يجعل قوانين المعالجة في عبارته القائلة « اذا امكن التدبير بأسهل الوجوه فلا يعدل على أصعبها ويتدرج من الاضعف الى الاقوى ولا يتم في المعالجة على دواء واحد فتألفه الطبيعة ويقلل انفعالها عنه ولا يدم على الغلط ولا يهرب عن الصواب وحيث امكن التدبير بالأغذية فلا يعدل الى الادوية » . (١٧٩)

يطالب ابن سينا بعدم الوقوف على دواء واحد كعلاج واحد وذلك راجع الى أن لكل بدن ولكل عضو خاصيته في الانفعال عن دواء دون دواء - ووقت دون وقت ، واذا كان الدواء المفرد كافياً في حصول الفرض فلا يعدل منه الى الدواء المركب لأن المفرد أخف على الطبيعة من المركب ، ومفرداته اقل عدداً .

عبارات ناطقة بدقته وسلامة منهجه ومنطقه في العلاج .



ج - جهود الزهراوى « المغرب العربى » :-

يعد أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنة ١٠١٣م أكبر من نبغ من العرب في الجراحة ، ألف كتابه (**التصريف لمن عجز عن التأليف**) وهو موسوعة طبية كاملة تشتمل على جميع فروع الطب المعروفة في زمانه ، الا أن مازع قدره وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابه « **المقالة الثلاثون** » التى افردتها للجراحة وهى تعتبر أول ماكتب في علم الجراحة مقرئنا برسموا إيضاحية كثيرة للأدوات والآلات الجراحية .

كان أبو القاسم مشهوراً بطبه ونبوغه في الجراحة . وكانت الجراحة عند العرب تسمى صناعة اليد . ولذلك لم تكن علماً مستقلاً . كان النظر الى الطب على انه نتاج العقل ، والعقل في نظرهم أعلى منزلة من اليد ، وذلك للعلاقة الوثيقة بين الطب والفلسفة في ذلك الوقت ، وهذا ما حدا بالزهراوى الى القول في مقاله الثلاثين من كتابه التصريف « لما اكملت لكم يابنى هذا الكتاب الذى هو جزء العلم في الطب بكماله وبلغت فيه الغاية من وضوحه وبيانته رايت أن اكمله لكم بهذه المقالة التى هى جزء العمل باليد لأن العمل باليد مخسة في بلادنا وفي زماننا معصوم البتة حتى كاد أن ينلرس علمه وينقطع اثره » (١٨٠)

والسبب الذى لا يوجد من أجله صانع محسن في زماننا هذا أن صناعة الطب طويلة وينبغى لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح الذى وصفه جالينوس حتى يقف على

(١٧٩) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٨٠) الزهراوى : التصريف لمن عجز عن التأليف ج ١ ص ٢ .

مناخ الاعضاء وهيئتها ومزاجها واتصالها وانفصالها ، ومعرفة العظام والمضلات والاعصاب وعددها ومخارجها ، والعروق والنوايض والسواكن ومواضع مخارجها . ولذلك قال ابقراط ان الاطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل . لا سيما في صناعة اليد وقد ذكرنا نحن من ذلك طرفا في المدخل من هذا الكتاب لانه من لم يكن عالما بما ذكرنا من التشريح لم يخل ان يقع في خطأ يقتل الناس به ، كما قد شاهدت كثيرا ممن تصدر في هذا العلم وادعاه بغير علم ولا دراية وذلك اني رايت طبيباً جاهلاً قد شق على ورم خنزيري في عنق امرأة فاصاب بعض شريانات العنق فنزف دم المرأة حتى سقطت ميتة بين يديه ، وراي طبيباً آخر قد تقدم في اخراج حصاة لرجل قد طمن في السن وكانت الحصاة كبيرة فتهور فاخرجها بقطعة من جرم المائدة فمات الرجل الى نحو ثلاثة ايام ، وكنت قد دعيت الى اخراجها فرأيت من عظم الحصاة وحال العليل ما قدرت عليه ذلك (١٨١) .

ولهذا يابى ينبغي لكم ان تعلموا ان العمل باليد ينقسم قسمين :

أ - عمل تصحبه السلامة .

ب - وعمل يكون معه العطب في أكثر الحالات .

وقد نبهت في كل مكان يأتي من هذا الكتاب الى ان العمل الذي فيه الفرور والخوف ينبغي لكم ان ترفضوه وتحذروه لئلا يجد الجاهل السبيل الى القول والطمع . فخذوا لانفسكم بالحزم والحيطة والارضاكم بالرفق والتثبت ، واستعملوا الطريق الافضل المؤدى الى السلامة والعافية المحمودة ، وتنبكوا الامراض الخطرة العسرة البرء ، ونزهوا انفسكم عما تخافون ان يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم فهو ابقى لجاهكم وارفع في الدنيا والاخرة لا تداركم . فقد قال جالينوس في بعض وصاياه لا تداووا مرضى السوء فتسبوا اطباء سوء . (١٨٢)

محتويات كتاب التصريف :

وضع الزهراوى كتابه التصريف في ثلاثين مقالة وجعله على قسمين احدهما نظري والاخر عملي قدم للمقالة الاولى بمقدمة شرح فيها غرضه من الكتاب (١٨٣) ليسهل على الطبيب تداوله بحيث يجد فيه زادا يفتيه من قراءة غيره من الكتابات الطبية .

يرى الزهراوى ان الطب ينقسم الى علم وعمل اى الى نظر وعمل . النظر ثلاثة اقسام هي الامور الطبيعية والاسباب والدلائل ، والامور الطبيعية عنده هي الاركان والامزجة والاخلات والامضاء والقوى والاقفال والارواح .

(١٨١) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٨٢) نفس المصدر السابق ص ٣ .

(١٨٣) سامى حنارة : فهرست المخطوطات بالكتبة الظاهرية ص ١٤٨ .

يخصص الزهراوى فصولا لتشريح العظام ومنفعتها اذ بها يتماسك البدن ، فالعظام كالاساس للبيت ، وقد جعلت العظام متمفصلة لسهولة ذلك على الانسان جميع الحركات الموافقة لما يريد ، وجعل في اطراف العظام رباطات بيض صلبة عديمة الحس وزوائد في بعضها مواضع مقعرة حيث تدخل تلك الزوائد فصارت بهذا الفعل متمفصلة ليتحرك بعضها دون بعض ، ثم شدة العظام بأعصاب تأتيها من الدماغ ينبوع الحس والحركة لتحركها الى كل جهة .

يصف الزهراوى اعصاب العين حيث تكون حاسة الإبصار، وأعصاب الأنف حيث حاسة الشم، ويصف العضلات والعروق والأفعال الدهن الثلاثة التخيل والفكر والذكر ، وكذلك طبقات العين وصفات الأذن والأنف والمعدة والصدر وهيئة الكبد حيث تنقسم العروق ، ويصف أعضاء البدن الأخرى ويبحث في الادوية المسهلة وتركيبها وبذكر الاسباب لتركيب الادوية ، ويتحدث عن اعراض المرض ودلائله وعلاماته وتقدمة المعرفة والبحران والاستدلال من البول والنبض .

يختم الزهراوى مقالته بقوله (ان الزمن ابلغ الاشياء مما يحتاج اليه في علاج الامراض بد المعرفة الكاملة وحسن مسالة العليل وابلغ من ذلك لزوم الطبيب العليل وملاحظة احواله وذلك لانه ليس كل عليل يحسن التعبير عن نفسه وربما كان بالعلة من الغموض ما لا يتسنى للعليل وان كان عاقلا التعبير عنه (١٨٤) .

تكلم الزهراوى في **المقالة الثانية** (١٨٥) عن تقاسيم الامراض من الرأس الى القدم وعلاجاتها من الرأس الى القدم ، ذكر الزهراوى الحمى فوصفها بأنها حرارة غريبة خارجة عن الطبع تتصل بالقلب والشرابين وتنتشر من القلب مع الحرارة الفريزية دفعة الى جميع البدن وتضر بالافعال الطبيعية .

وفي **المقالة الثالثة** (١٨٦) ذكر الزهراوى صفات المعاجين القديمة التي اعتاد الحكماء تركيبها وتكرار تجربتها على طول الزمان ، اذ اقتبس الزهراوى وصفا من مؤلف قبله ذكره باسمه وعنوان كتابه اقرارا منه بغضله، ومن الجدير بالذكر ان قسما كبيرا من هذه المعاجين مركب من ادوية كثيرة وتتطلب وقتا في التحضير والتركيب .

مرض الزهراوى في **المقالة الرابعة** (١٨٧) من كتابه لعمل الترياقات ولا سيما الترياق الفاروقى، وذكر الادوية المفردة النافعة من السموم والمضادة لفعالها في البدن ، يشير الزهراوى الى كيفية عمل الترياق الفاروقى في البيمارستان ، وفي نهاية المقالة يقتبس الزهراوى بعض الادوية التي ذكر بولس الاجانيطى انها نافعة ضد السموم .

(١٨٤) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٨٥) سامى حمارة : فهرست للمخطوطات بالكتبة الظاهرية - المقالة الثانية ص ١٤٩ .

(١٨٦) نفس المصدر المقالة الثالثة ص ١٥٠ .

(١٨٧) نفس المصدر السابق المقالة الرابعة ص ١٥١ .

وفي **المقالة الخامسة** (١٨٨) يذكر الزهراوى كيف عنى القذناء بتركيب الایارجات القديمة والحديثة وادخارها وتخديرها ، يذكر الزهراوى مقدار شربة الدواء ومنافعه ويشير في هذا الصدد الى جالينوس وابن ما سوية وابن الجزار المتوفى سنة ١٠٠٩ م . الایارجات هى التى يخترنوها الملوك في خزائنهم حتى تمتق وتستعمل في الامراض العسيرة وقد اشتهرت بفضلها ونفعها (لفظلة الایارج مشتقة من اليونانية وتفسرها الدواء المرومها ما يدخله الصبر) .

عرض الزهراوى في **المقالة السادسة** (١٨٩) للادوية المسهلة ويحذر من الاستفراغ بالادوية المسهلة كشمع الحنظل ، والصبر السقوني لانه ينفى ان يستعمله الا اصحاب الابدان القوية ويجتنبه شعاف البنية ، ويذكر ان معاصره المستطيب السوسى كان يمنع من سقى هذه الادوية لى سبب كان .

وفي **المقالة السابعة** (١٩٠) عرض الزهراوى للادوية المقيئة ويقسمها الى ثلاثة اقسام : قسم ينقى السوداء وقسم ينقى الدم وقسم ينقى البلغم . والحقن والشيافات والفرزجات ويبدأ بالتحذير من ان العلاج بالقئىء خطر بالجملة ولا سيما لمن يصبر عليه ، ولا يستعمله المستعدون للسلس ومن في حلقهم امراض متمكنة وهم اصحاب الامناق الطوال والاكتاف المتجنحة والحناجر النائثة والصدور الضيقة العارية من اللحم .

عرض الزهراوى في **المقالة الثامنة** (١٩١) للادوية المسهلة اللذيذة الطعم العطرية الرائحة تلك التي يستعملها الملوك والاشراف لضعف المعدة او البنية او خوفا من حدوث القيء . يقتبس الزهراوى في هذه المقالة وصفات كثيرة من كتاب الجذام واسبابه وعلاجه ، وكتاب نصائح الابرار لابن الجوار وكتاب الطب الملوکى للرازى وغيرهم .

خصص الزهراوى **المقالة التاسعة** للادوية القلبية (١٩٢) وفيها يذكر ان اكثر امراض القلب المتحركة من داخل البدن على الجملة انما تكون من المرة السوداء والبلغم ، والادوية المستعملة مفردة او مركبة اما ان تفعل بمزاجها حارة كانت او باردة واما ان تفعل بخواصها .

جمع الزهراوى في **المقالة العاشرة** (١٩٣) من كتابه اطريفات ونسب كل اطريف الى صاحبه واشار الى انها تستعمل اذا كان في المفسدة طوبىات حارة لا يمكن استفراغها بالقئىء والادوية الحارة ، يشير الزهراوى في هذه المقالة الى فعل الحكماء في الكيمياء وخاصة الكيمياء الطبية او الطب الكيميائى Chemo therapy في العلاجات الداخلية والخارجية .

(١٨٨) نفس المصدر السابق المقالة الخامسة ص ١٥١ .

(١٨٩) نفس المصدر السابق المقالة السادسة ص ١٥٢ .

(١٩٠) نفس المصدر السابق المقالة السابعة ص ١٥٢ .

(١٩١) نفس المصدر السابق المقالة الثامنة ص ١٥٣ .

(١٩٢) و (١٩٣) نفس المصدر المقالة التاسعة والعاشرة ص ١٥٤ .

تحتوى المقالة الحادية عشرة (١٩٤) شروبا من الجوارشنت وصنوبا من المعجونات التى جمعها الزهراوى من كتب الاوائل وهى نافعة فى حفظ الصحة وفى ردها للمرض مهما كانت حالة مزاجها حارة او باردة او متوسطة . يذكر الزهراوى صفة جوارشن من تأليفه يقول عنه « نافع من جميع علل المعدة الباردة مطيب للنفس مقو لجميع الاعضاء الرئيسية نافع من علل الكليتين والمثانة يزيد فى الحفظ ويعين على الهضم وينقي الرياح وهو ملوكى ويصلح للاشراف .

يترك الزهراوى فى المقالة الثانية عشرة (١٩٥) موضوعا مألوا لدى اطباء العصور الوسطى فى ادوية الباه وتسمين المهزول وتهزيل السمين واكتنار اللبن فى لدى المرضعات او اقلاله والضمادات والحقن والادهان المستعملة فى امراض النساء .

يذكر الزهراوى فى المقالة الثالثة عشرة (١٩٦) الاشرية والسكنجيات والربويات وهى ادوية لطيفة سليمة مأمونة فى كل زمان ملائمة لكل سن وذلك فى اربعة ابواب، الاشرية الباردة والحارة والمتوسطة . تحوى المقالة الوصفات الكثيرة المستمدة من مصادر مختلفة .

يركز الزهراوى بحثه فى المقالة الرابعة عشرة (١٩٧) حول المنقوعات والمطبوخات ذاكرا انها تصلح لمن كان محرورا واخلاط بدنه رقيقة لطيفة وهى سهلة على الطباع تغسل ما تصادف فى المعدة والامعاء الا قليلا وتخرج ولا تحدث فى البدن ما تحدثه سائر المسهلات من الانفاس والتفتيح تشتمل هذه الادوية على ما يسهل الصفراء ويسكن وهج الدم ويسهل السوداء والبلغم .

يشرح الزهراوى فى المقالة الخامسة عشرة (١٩٨) عمل المربيات من الفواكه والازهار والعقاقير الرطبة واليابسة ويذكر منافعها وطرق ادخالها مشيرا الى اهمية الخبرة الطويلة فى عملها فيقول « وما اقل ما يتعلم من الكتب » ويقول « يحتاج فيها الى المشاهدة والوقوف على حقيقة عملها عند اربابها » .

يبحث الزهراوى فى السفوفات فى المقالة السادسة عشرة (١٩٩) موضعا انها لا تتحمل البقاء لاسراع الهواء فى افساد مركباتها لخلوها من حافط ينقى عنها الفساد كما هو الحال فى الاقراص التى يخصص لها المقالة السابعة عشرة .

المقالة السابعة عشرة (٢٠٠) وهى فى الاقراص اذ قواها ابقى من السفوفات فى السفر والحضر

(١٩٤) نفس المصدر السابق المقالة الحادية عشرة ص ١٥٤ .

(١٩٥) و (١٩٦) نفس المصدر السابق المقالة الثانية عشرة والثالثة عشرة ص ١٥٥ .

(١٩٧) نفس المصدر السابق المقالة الرابعة عشرة ص ١٥٦ .

(١٩٨) نفس المصدر السابق ص ١٥٧ المقالة الخامسة عشرة

(١٩٩) و (٢٠٠) نفس المصدر السابق المقالة السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة .

وذلك بسبب الاصماغ التى تدخلها والرطوبات والعصارات التى تجمع بها أدويتها لانها تبقى عليها قوامها زمنا طويلا سواء اكانت مسهلة أو ممسكة .

خصص الزهراوى **المقالة الثامنة عشرة (٢٠١)** للسعوطات والبخورات والفراش والدوروات والقطرات والأدوية القاطمة للرعاف ، يقسم الزهراوى المقالة الى خمسة أقسام : -

أ - فى السعوطات المنقية للدماغ من الفضول الغليظة من الصرع والقوة والفالج والنزلات والشقيقة والصداع .

ب - فى القطرات النافعة لعلل الاذن واجامها وما تكون فيها من الاورام والطنين والدود .

ج - فى الفراغ المنقية للدماغ والحلق من الفضول الغليظة والرطوبات .

د - فى البخورات التى تسقط العلق وتنفع من وجع الاضراس والنزلات والزكام واورام اللهاة والبواسير .

هـ - فى الدوروات القاطمة للدم فى الجراحات وانتفاخ الشرايين وتنفع فى علل الانف والبواسير والرعاف والاورام .

تشتمل **المقالة التاسعة عشرة (٢٠٢)** على البحث فى الزينة وصناعة الفوالى وهى قسمان:

١ - الطيب من صناعة الفوالى والادهان والبخورات مما يستعمله الاصحاء والمرضى

٢ - فى ادوية الزينة التى يستعملها الرجال والنساء .

خصص الزهراوى **المقالة العشرين (٢٠٣)** للحديث عن الاكحال والشيافات الحارة والباردة المستخدمة فى علاج العين وفى جملة الوصفات يذكر صفة كل كحل استخراج عيسى الكحال للمامون وكان يسميه مخزون الملك وهونافع لكل وجع والم يعرض فى العين .

ذكر الزهراوى فى **المقالة الحادية والعشرين (٢٠٤)** ادوية الغم والحلق والاسنان وهى السنوات والغراغر والمضمضة ، وقسم الزهراوى الادوية الى ثلاثة أقسام : ١ - ادوية وجع الاسنان وتبييضها .

٢ - السنوات النافعة للثة والغم والاسنان .

٣ - ادوية ما يعرض فى الحلق كالذبحة وورم اللهاة واللوزتين .

(٢٠١) و (٢٠٢) ص ١٥٨ .

(٢٠٣) نفس المصدر السابق **المقالة العشرين** ص ١٥٩ .

(٢٠٤) نفس المصدر السابق **المقالة الحادية والعشرين** ص ١٥٩ .

خصص الزهراوى **المقالة الثانية والعشرين (٢٠٥)** لادوية علل الصدر من السعال والقرحة في الرئة وخشونة الصوت وضيق النفس ونفث الدم والقيح .

اما **المقالة الثالثة والعشرون (٢٠٦)** فتبحث في العلاج بالاضمدة من الراس الى القدم وفيها يوصى الزهراوى باستفراغ البدن قبل وضع الاضمدة في مكانها . تحوى المقالة ثلث الوصفات لكل عضو في البدن .

يلذكر الزهراوى المواد المعدنية الداخلة في تركيب المراهم التي يخصص لها الزهراوى **المقالة الرابعة والعشرين (٢٠٧)** في هذه المقالة ينظر الزهراوى الى المراهم على انها قريبة من الاضمدة في المعنى والفرق بينهما ان الاضمدة في العلاج اعم والمراهم بالخراجات والجراحات اخص . يضيف الزهراوى الى ذلك قوله ان من المراهم ما يقوى اكثر مما يبلل ومنها ما يبلل اكثر مما يقوى ، يستعمل الزهراوى في المراهم مواد كثيرة كما فعل في الاضمدة .

يفرد الزهراوى **المقالة الخامسة والعشرين (٢٠٨)** للادهان البسيطة والمركبة ويظهر الزهراوى في بحثه اصالته في تركيب المواد التي يستخلصها من المفردات الطبية والحبوب والثمار ويضع فيها الكثير من اختباره الشخصية وملاحظاته المفيدة .

في **المقالة السادسة والعشرين (٢٠٩)** يتحدث الزهراوى عن اطعمة المرضى موضحا ان جميع ما يتفدى به الانسان انما القصد منه منفعة في تغذية جسمه فان اتفق ان يكون غذاء محمودا ولذيذا معا بالطبع او الصنعة فذلك تمام سعادة المتفدى به . وهذا جار في الاصحاء والمرضى على السواء الا ان المرضى ، ولا سيما النافهين ، فانك اذا جعلت اقلديهم مع جودتها لذيدة فذلك اسرع لنفعهم . ودم جهدك ان تجعل علاجك للمرضى بالاغذية دون الادوية فهو اقرب الى السلامة واحمد في العاقبة .

جمع الزهراوى في هذه المقالة اغذية لكثر الامراض وذكر مفرداتها ومركباتها وجعلها فصولا لتكون حاضرة بين يدي المتطبب ، لهذه المقالة قيمتها التاريخية لما تقدمه من وصف الاطعمة والاغذية وطريقة تحضيرها وطبخها وحفظها واستعمالها .

جعل الزهراوى **المقالة السابعة والعشرين (٢١٠)** في معرفة قوى الاغذية وخواص الادوية واصلاحها ومنافعها ودرجاتها في الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

(٢٠٥) و (٢٠٦) و (٢٠٧) و (٢٠٨) نفس المصدر السابق المقالة الثانية والعشرين والمقالة الثالثة والعشرين والمقالة

الرابعة والعشرين والمقالة الخامسة والعشرين ص ١٦٠ .

(٢٠٩) نفس المصدر السابق المقالة السادسة والعشرين ص ١٦١ .

(٢١٠) نفس المصدر السابق المقالة السابعة والعشرين ص ١٦١ .

ذكر الزهراوى المشهور المجلوب من الادوية والحشائش الطبية الموجودة في الاندلس جيدها ورديتها. رتبها الزهراوى حسب اسمائها وعلى حروف المعجم وحسب الدرجة التى يقع فيها العقار ، تحوى المقالة فصولا عن الخمر ، ذكر الزهراوى تحريمه في الشريعة اذ مساوئه أكثر من منافعه لانك لا تجد احدا يأخذه على ما ينبغى وكيف ينبغى والقدر الذى به ينبغى .

يقول ومن مضار الشراب جملة لمن ادمن عليه واخذه على غير ترتيب ، وطلب به السكر انه يولد امراضا مزمنة كالصرع والمالبخوليا وفساد العقل والفالج والرعدة والخدر .

قسم الزهراوى مقالاته هذه في اصلاح الادوية الى ثلاثة اقسام وهى **المقالة الثامنة والعشرون (٢١١) .**

١ - في تدبير الاحجار المعدنية وغسلها واحراقها وفي هذا القسم يذكر الزهراوى طرق تحضير بعض المعادن او املاحها واكاسيدها بصورة عملية غاية في الاهمية في تاريخ الكيمياء الطبية .

٢ - في تدبير العقاقير النباتية واستخراج اللعابات وقشور الحبوب واستخراج اللبوب وغسل الزيت وتبييض الخل ، تحوى المقالة صورة للقوالب لاعداد الاقراص والمراوق المستعملة لترويق المصارات .

٣ - في تدبير الادوية الحيوانية كاحراق الاصداغ والقرون والظلاف والحوافر والعظام وقشور البيض واخذ المرارات وتجفيفها لاستعمالها في الاكحال والاشياف .

قسم الزهراوى **المقالة التاسعة والعشرين** الى خمس مقالات (٢١٢) .

١ - في تسمية العقاقير في عدة لسانات اليونانية والسريانية والفارسية والعربية والبربرية وترتيبها على حروف المعجم .

٢ - في تسمية الاسماء الحادثة في كتبهم من غير العقاقير كالانبيق والقناطير .

٣ - في بدل العقاقير بعضها من بعض اذا دعت الحاجة او تعدد وجودها .

٤ - في اعمار الادوية المفردة والمركبة والمعدنية والحيوانية والنباتية في النشأة والمصدر .

٥ - في تفسير الاكيال والاوزان الموجود في كتب الحكماء باختلاف لغاتهم مرتبة على حروف المعجم .

(٢١١) نفس المصدر السابق المقالة الثامنة والعشرين ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢١٢) نفس المصدر السابق المقالة التاسعة والعشرين ص ١٦٦ .

تحليل المقالة الثلاثين : يقسم الزهراوى (٢١٣) المقالة الثلاثين الى ثلاثة ابواب رئيسية :-

الباب الاول يختص بالكلى وينقسم الى ٥ فصولا

الباب الثانى يختص بالثقب والبطن والفتور وسائر العمليات الجراحية وفيه جزء من امراض النساء والولادة والعيون والانف والحلق وينقسم الى ١٠٠ فصل

الباب الثالث يختص بالكسور والخلع وهو مقسم الى ٣٥ فصلا .

لم يكن الزهراوى (٢١٤) أول من استعمل الكلى ، غير انه وصل به الى حد يقرب من الكمال وابتدع له كثيرا من الادوات وطرق الصناعة . يصف الزهراوى طريقة الكلى فى الامراض المختلفة من الراس والقدم . فعلاج الامراض بالكلى بالنار طريقة قديمة ، لقد كان الاندمون يظنون ان بعض الاوجاع والامراض سببها رطوبات فاسدة لذلك كان علاجها الشافى هو النار وهى الحار اليابس .

صمم الزهراوى اشكالا مختلفة للمكاوى التى يستعملها مبينا مكان استعمال كل واحدة ومن هذه المكاوى : ١ - المكاوة الزيتونية . ٢ - المكاوة السكينية . ٣ - المكاوة الهلالية . ٤ - المكاوة المسماوية . ٥ - المكاوة ذات السفودين . ٦ - المكاوة ذات السفافيد الثلاثة . ٧ - المكاوة الدائرية . ٨ - المكاوة التى تشبه الميل (المسبر) .

يقدم الزهراوى فى الفصل الاخير من الباب الاول طرقا مختلفة للعلاج النزيف فيقول :

« أولا اسرع بيئلك الى فم الشريان فضع عليه اصبعك السبابة وتشده حتى ينحصر الدم تحت اصبعك ولا يخرج منه شيء ثم تضع فى النار مكاوى زيتونية صفارا وكبارا ، ثم تأخذ واحدة على حسب الجرح وتنزل المكاوة على نفس العرق بعد أن تنزع اصبعك بالعجلة وتمسك المكاوة حتى ينقطع الدم فان اندفع عند رفعك الاصبع من فم الشريان فخذ مكاوة اخرى من النار ولا تزال تفعل حتى ينقطع الدم وتحفظ الانحرق عصبيا يكون هناك ، واعلم ان الشريان اذا نفل منه الدم فانه لا يستطيع وقفه ولا سميما اذا كان الشريان عظيما الا فى أحد اربعة اوجه :

١ - اما بالكلى ٢ - واما ببتره اذا لم يكن قد انبثر ، فانه اذا انفصل طرفاه انقطع الدم .

٣ - واما يربطه بالخيطوط ربطا وثيقا .

٤ - واما بان توضع عليه الادوية التى من شأنها قطع الدم والشد بالرفايد شدا محكما .

(٢١٣) نفس المصدر السابق المقالة الثلاثين ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢١٤) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب اشرفه د. محمد كامل حسين الباب الاول ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

وان عرض لاحد ذلك ولم يحضره طبيب ولا دواء فيبادر ويضع الاصبع السبابة على فم الجرح نفسه ويشده جيداً حتى يتعصر .

وفي الباب الثاني يحذر الزهراوى (٢١٥) المشتغلين بالجراحة فيقول « لان العمل في هذا الباب كثيرا ما يقع فيه الاستفراغ من الدم الذى به تقوم الحياة عند فتح عرق أو شق على ورم أو بطن خراج، أو علاج جراحة أو اخراج سهم أو شق من حصة ونحو ذلك ويقع في اكثرها الموت وأنا أوصيكم يابنى من الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فانه قد يقع اليكم في هذه الصناعة ضرب من الناس بضروب من الاسقام فمنهم من قد ضجر بعرضه وهان عليه الموت لشدة ما يجده من سقمه، ومنهم من يبذل ماله ويعينك به وجاء للصحة ومعرضه قتال ، فلا ينبغي ان تباعدوا البتة بينكم وبين من هذه صفته وليكن تحذركم أشد من رغبتكم وحرصكم ، ولا تقعدوا على شيء من ذلك الا بعد علم يقين يصح عندكم بما تصير اليه العاقبة المحمودة ، واستعملوا في علاج مرضائكم مقدمة المعرفة والانذار الى ما تؤول اليه السلامة ، فان لكم في ذلك هونا على اكتساب النماء والمجد والذكر الكريم .

وفي الباب الثالث يبدأ الزهراوى (٢١٦) بمقدمة لهذا الباب يقول فيها اعلموا يابنى انه قد يدعى هذا الباب الجهال من الاطباء والاعوام ومن لم يتصفح قط فيه للقدماء كتابا ولا قرأ منه ، فلهذه العلة صار هذا الفن من العلوم في بلدنا معدوما واتى لم القى فيه محسنا قط البتة ، وأنا استفدت منه ما استفدت بطول قرائتي لكتب الاوائل وحرصى على فهمها حتى استخرجت علم ذلك منها ، ثم لزمته التجربة والدربة طول عمرى ، وقد رسمت لكم من ذلك في هذا الباب جميع ما احاط به علمى ومضت عليه تجربتي بعد ان قربته لكم وتخلصته من شعب التطويل واختصرته غاية الاختصار وبينته غاية البيان وصورت لكم فيه صورا كثيرة من صور الآلات التى تستعمل .

كانت هذه المقالة الثلاثون خاتمة كتاب التصريف وهو المؤلف الوحيد المعروف للزهراوى ولأهمية الكتاب وكبر حجم بعض مقالاته بحيث تصلح الواحدة منها لأن تكون كتابا مستقلا عرضنا هذا التحليل، لاشك ان المقالة الأخيرة في الجراحة نالت من الشهرة والامتنان في الاوساط العلمية والطبية نصيبا كبيرا ، فقد استفاد منها جراحو الغرب في العصور الوسطى وكان لها اثرها البالغ في البلدان الاسلامية، كذلك اقتبس منها ابو الفرج ابن القف ١٢٨٦ م في كتابه العمدة في صناعة الجراحة .



(٢١٥) الرجوع السابق ص ١١١ .

(٢١٦) نفس الرجوع السابق ١٤٤ .

قول مختصر في الطب العربي :

إن التصور العام للطب العربي كان مشابهاً للطب اليوناني ، ولكنهما مع ذلك مختلفان في التفاصيل وإن تشابه البناءان. لم يكن هذا الاختلاف في مادة البحث بقدر ما كان في منهج البحث ، لقد كان الطب اليوناني قياسياً استنتاجياً يعتمد على المنطق أكثر من اعتماده على الملاحظة والتجربة ، أما الطب العربي فكان يستخدم الملاحظة والتجربة ويطبق قواعد المنهج التجريبي التي كانت مضمرة في أبحاث الأطباء العرب .

رأينا عند الرازي وابن سينا كيف كانا يصفان الأمراض ويشخصان العلل ثم يأتیان على بيان الروابط والعلاقات بين العلل المتشابهة ، وفي ذلك يقومان بعملية تفسير لا تقتصر على مجرد الوصف أو التعريف ، هذا التفسير يقتضي أن تشاهد الأعراض والدلالات ، وأن يتلو الملاحظة وضع فرض يتحقق منه الطبيب عن طريقة التجربة ، فلما النماذج المثلة لذلك في حالة الفرد الذي سقاه الرازي زئبقاً وفي علاج مرضى الرسام اذ اصنع منهج الملاحظة والتجربة في دراسته .

السؤال الآن إذا اعتبرها الطب العربي مستخدماً المنهج التجريبي فهل يعني ذلك أنه لم يكن لدى اليونان منهج تجريبي في أبحاثهم الطبية ؟

جواباً على السؤال كان هناك علم أت إلى العرب من اليونان والهنود وغيرهم وهذا أمر لا يتكرر « لأن الأمم جميعها دائنة ومدينة في تراث الفكر الإنساني تعطى وتأخذ وليست تنشأ الحضارات فجأة إنما هي سلسلة في درجات التقدم ترقاها الإنسانية درجة درجة » (٢١٧) جاء العرب بعد اليونانيين والفرس والهنود وحملوا المشعل كما حملته سائر الأمم وهذا العلم الآتي من خارج ما كان ليصل إلى الأبحاث الناضجة التي وجدنا مثالاتها عند الأطباء العرب لولا أنه كان « هناك منهج موجود في الداخل التحم مع دائرة العلوم الآتية من الخارج » (٢١٨) .

وبذلك يتضح لنا لماذا تشابهت الكليات واختلفت التفاصيل. لم يكن هذا المنهج سوى المنهج التجريبي الذي وجدنا تطبيقاته في علم الطب . ومما لا شك فيه كان لدى اليونان نوع من هذا المنهج أوضحناه في كلامنا عن التجربة في الطب اليوناني ، أنها لم تكن تجربة ذات أصول وطرق تحقيق كتلك التي وجدناها عند الأطباء العرب ولكن ذلك لا يعني أن العرب صاغوا قواعد المنهج التجريبي حين نجد استخدام تلك القواعد في مجال الطب . إن الأطباء العرب اكتفوا بالملاحظة الحسية واكدوا دورها وأوصروا بأجراء التجارب للتحقيق من صحة الفروض ،

(٢١٧) يعز الدين القاسم ، محاضرات الموسم الثقال ج ٢ ص ٥٧ - طبعة دمشق سنة ١٩٦٠ .

(٢١٨) انتشار : مشاهير البحث عند مفكرى الإسلام ص ٢٥٧

وعملوا على الصمود من دراسة الجزئيات الى وضع القوانين العامة كما هو الحال في قوانين تدبير الغذاء للمحرورين والممرورين وغيرهم من المرضى، وهذا ما جعل الطب ينمو في أيدي الأطباء العرب نموا طبيعيا مستقلا بفضل المنهج الذي استخدموه .

ولذلك أخطأ (دونالد كامبل (٢١٩) عندما نظر الى الطبيب العربي باعتباره الطب اليوناني معدلا . وليس صحيحا كذلك ما قيل من ان حظ العرب في الطب لم يكن الا النقل والحفظ والتعليق على الطب اليوناني ، يدحض هذا الرأي مقارنة ماكتبه حنين بن اسحاق وثابت بن قرة بما كتبه الرازي وابن سينا ، المؤلفات الاولى تمثل مرحلة النقل والترجمة والمؤلفات الثانية تمثل مرحلة التأليف الخالص ولو كانت حجة النقل صحيحة لجاءت المؤلفات الاولى اكبر من الاخيرة .

السؤال الآن : - لماذا كان اختيارنا للرازي وابن سينا في المشرق والزهرأوى في المغرب
موضوعا لبحثنا مع التسليم بوجود أطباء كثيرين غيرهم بحاجة هم الآخرون للدراسة والبحث ؟
ان السر في ذلك يرجع الى ان مؤلفات الرازي وابن سينا والزهرأوى ظلت المراجع الاساسية لدراسة الطب في الجامعات الأوروبية حتى اوائل القرن السابع عشر . لقد كان الرازي خير ممثل للأطباء الفلاسفة وكان ابن سينا خير ممثل للفلاسفة الأطباء وكان الزهرأوى خير ممثل للجراحين حيث أخذ الغربيون خبرتهم في الجراحة من كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» ولذلك كانت دراسة الطب عند هؤلاء الأطباء بمثابة الإلمام بالطب الغربي في مرحلة من ازهى مراحلها وفي فترة من انضج فترات الفكر الإنساني .



المصادر

- ١ - ابن ابي اصيبعة : عيون الانبياء في طبقات الاطباء - طبعة اوجست مولر في مجلدين - مطبعة مصطفى وهبي ، القاهرة سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م . وكذلك طبعة بيروت سنة ١٩٦٠ وقد اخذت من طبعة القاهرة .
- ٢ - ابن جليل : طبقات الاطباء والحكاما الفه سنة ٣٣٧هـ تطبيق فؤاد السيد - طبعة المعهد العلمي الفرنسي للدراس الشرقية - القاهرة ١٩٦٢ .
- ٣ - ابن الحشاء : مفيد العلوم ومبهد الهموم في شرح المصطلحات الواردة في الكتاب المتصوري للرازي . نشره وصححه عن بعض نسخ المخطوط كولان وريتو طبعة الرباط سنة ١٩٤١ .
- ٤ - ابن سينا : القانون في الطب - ٣ مجلدات - طبعة روما سنة ١٥٩٢ وبهامشة النجاة مختصر الشفاء وطبعة بولاق سنة ١٨٧٧م .
- ٥ - ابن القف : الاصول في شرح الفصول البترابية - طبعة الاسكندرية سنة ١٩٠٢م .
- ٦ - ابن النديم : الفهرست - الطبعة الرحمانية - القاهرة سنة ١٩٤٨م .
- ٧ - اسماعيل مطهر : الفكر العربي والتراث اليوناني - مطبوعات مجلة المصور القاهرة سنة ١٩٢٨ .
- ٨ - الخوازمي : مفاتيح العلوم - الطبعة النيرة - القاهرة سنة ١٣٤٢هـ .
- ٩ - ديسقوريدوس : الحشائش في خمس مقالات - مخطوط تحت رقم ١٠٢٩ طب / دار الكتب العربية .
- ١٠ - الرازي : الحاوي في الطب - طبعة حيدر اباد الدكن سنة ١٩٢٥ الطبعة الاولى .
- ١١ - الرازي : المرشد او الفصول تطبيق الدكتور الير زكي اسكندر/ مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية/ المجلد السابع - الجزء الاول عدد مايو سنة ١٩٦١ .
- ١٢ - الرازي : معنة الطبيب تطبيق الدكتور الير زكي اسكندر - مجلة المشرق عدد ٥٤ بيروت سنة ١٩٦٠ .
- ١٣ - الرازي : خواص الاشياء مخطوط تحت رقم ٣٦٤ طب تيمور .
- ١٤ - الرازي : رسالة الى احد تلامذته ضمن مجموعة خطية تحت رقم ١١٩ طب تيمور .
- ١٥ - سامي حمارنة : فهرست مخطوطات المكتبة القاهرية بدمشق - دمشق سنة ١٩٦٧ .
- ١٦ - سانتالانا : المذاهب الفلسفية - مجموعة محاضرات في الجامعة المصرية سنة ١٩١١/١٩١٠ - نسخة خطية .
- ١٧ - سيديو : تاريخ العرب العام - ترجمة شاندرغيت - طبعة القاهرة سنة ١٣٦٧هـ .
- ١٨ - الخطمي : تاريخ الحكماء - طبعة ليزج سنة ١٣٢١هـ .
- ١٩ - فتواي : تاريخ الصيدلة والمخالف في المهد القديم والعمر الوسيط - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٢٠ - مايهوف : من الإسكندرية الى بغداد ومقال ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوي - طبعة القاهرة سنة ١٩٤٠ م .

٢١ - محمد كامل حسين : طب الرازي - مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية - المجلد السابع عدد مايو سنة ١٩٦١ .

٢٢ - محمد كامل حسين : متنوعات - الجزء الثاني طبعة القاهرة بدون تاريخ - الطبعة الثانية .

٢٣ - محمد كامل حسين : الفلسفة والعالم في كتاب القلقاوي - مقال بمجلة رسالة العلم - العدد الثالث سبتمبر ١٩٥٢ .

٢٤ - السمودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر - طبعة باريس - ٩ أجزاء بدون تاريخ .

٢٥ - اليعاقبي : تاريخ اليعاقبي - ثلاثة أجزاء في ٢ مجلدات - طبعة النجف سنة ١٢٥٨ هـ .

٢٦ - فليونجي : ابن النفيس - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ العدد ٥٧ سلسلة اعلام العرب .

٢٧ - النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام طبعة الاسكندرية سنة ١٩٦٥ الطبعة الثانية .

٢٨ - حنين بن اسحق : رسالة الى علي بن يحيى فيما ترجم وعالم يترجم من كتب جالينوس النسخة الخطية .

٢٩ - جلال موسى : المسائل في الطب لحنين بن اسحق تطبيق ودراسة منهج البحث العلمى عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والفنية .

30. Bernard (Claude) : Introduction a L'étude de la medecine experimental, Paris 1938.

31. Brown (Edward) : Arabian Medicine, Cambridge. 1921.

32. Campbel (Donald) : Arabian Medicine and its Influence on Middle Ages, 2 Vols., London 1926.

33. Meyerhof (Max) : „Thirty Three Clinical Observations by Rhazes”, Isis. Vol. 23, 1935.

34. Sarton (George) : Introduction to the History of Science, 3 Vols., Baltimore 1927.



محمد علي أبو ريان *

تصنيف العلوم بين الغارابي وابن خلدون

١ - مقدمة عامة : في أهمية تصنيف العلوم وصلته بالنهج العلمي (١)

لقد شغل موضوع تصنيف العلوم الفلاسفة والباحثين في مجال العلم طوال عصور ازدهار العلم منذ عصر افلاطون الى يومنا هذا . والامر الذي لاشك فيه ان أي تصور لتصنيفات العلوم انما يكشف عن فلسفة معينة لصاحب التصنيف، بحيث يصدر هذا التصنيف عن فكرة منهجية تظهر بوضوح من خلال تحديد الاصول والفروع في هذا التصنيف .

ولمة فكرة جديدة بالنظر وراء اهتمام العلماء بتصنيفات العلوم وهي التعرف على صلة العلوم وارتباطاتها فيما بينها ، الامر الذي يسمح لفريق من العلماء المتخصصين في علوم ضيقة متقاربة المجال بأن يتناولوا بالدراسة وقائع أو ظواهر واحدة ، وكل منهم يعالجها من زاوية تخصصه مع وجود نظرة تكاملية من ناحية أن مجال البحث انما يدور حول مشكلة واحدة ، أو

* استاذ الفلسفة الاسلامية وعميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية .

(١) راجع للمؤلف ، الفلسفة ومباحثها (مبحث تصنيف العلوم) .

ظاهرة أو واقعة بعينها . ولقد اظهر **أوجيست كونت** في تصنيفه للعلوم ، تدرج العلوم المعروفة في عصره من حيث البساطة والتعقيد ، حتى انتهى تصنيفه الى علم الطبيعة الانسانية أو علم الاجتماع ، فوجد أنه أكثر العلوم تعقيدا ، ومن ثم فهو يحتاج الى تضافر العلوم الأخرى السابقة عليه في سلم التفاضل العلمى المتجه نحو التعقيد شيئا فشيئا .

لهذا كله اتضح لنا أهمية دراسة تصنيف العلوم كحلقة من حلقات المنهج العلمى طلبا لمزيد من الوضوح في مجال البحث ، وغايتنا في هذا الاستقصاء ان تلقى الضوء على موضوع تصنيف العلوم في فترة من فترات الحضارة الاسلامية الزاهرة حتى مغيبها .

ولاشك ان بحثنا هذا لن يكون مجرد احصاء للعلوم مسجلا لأسمائها فحسب ، بل ينبغي ان يكون هذا التصنيف مؤشرا على سائر الأنشطة العلمية في العصر الذى نبحث فيه . وبذلك يستطيع الباحث في تاريخ العلوم عند العرب أن يجد مدخلا منطقيا ومنهجيا في تناوله لهذه المادة في سائر فروعها ، وذلك بمساعدة هذا العرض لتصنيف العلوم عند العرب في تلك الفترة .



٢ - تصنيف العلوم بين القدماء والمسلمين

وإذا كان هذا البحث يدور حول فترة معينة في العصر الاسلامى ، الا اننا يجب أن نذكر أن موضوع تصنيف العلوم ، كما اشرنا ، قد عولج لأول مرة في نطاق الفلسفة عند افلاطون . وقد ظلت الفلسفة حامية للعلوم جميعا في العصرين القديم والوسيط حتى مطلع العصر الحديث ، حينما بدأت العلوم تنفض عنها غبار الفلسفة وأداتها ، امنى المنطق الصورى ، لكى تبدأ مسيرتها مستعينة بمنطق الاستقراء التجريبي ، الذى يعد مفتاح العلم وتقدمه في العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن المسلمين قد استشفوا المنهج العلمى القائم على الاستقراء - وقد ظهر ذلك ضمنا في أبحاثهم كما أثبتت الأبحاث مؤخرا - (١) الا أن جميع فروع العلم المعروفة في العصر الاسلامى ، غير العلوم الشرعية والعربية ، وهى ما يسمى **بالعلوم الدخيلة** كانت تنضوى كلها تحت لواء الفلسفة . فابحاث ابن سينا في الطب ، والبيروني في الرياضيات ، وابن حيان في الكيمياء ، وابن الهيثم في الطبيعة والفلك ، والبستاني والقرطبي ... الخ .

كل هؤلاء العلماء كانوا ينطلقون من الفلسفة ومطالبها في اتجاه علومهم الجزئية . ومن ثم فان أى تصنيف للعلوم عند العرب سيكون خاضعا لهذا التوجيه القديم الذى رسخ منذ عهد أرسطو

(٢) جلال موسى ، المنهج العلمى عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية . بحث للدكتور جلال موسى باشرافنا .

الى الآن في العالمين القديم والوسيط . ولو اننا سجد اختلافاً من حيث التفصيل ، واختلافاً آخر جوهرياً . اما الاختلاف الاول فهو في جعل المنطق فرماً من فروع الفلسفة ، عليه الفلسفة النظرية ، وهي ذات ثلاثة فروع : العلم الطبيعي ، والعلم الرياضي أو الاوسط ، ثم العلم الالهي . وتتفرع من هذه العلوم الثلاثة سائر العلوم المعروفة في ذلك العصر . . وتأتي العلوم العملية بعد الفلسفة النظرية ، وهي تتفرع الى سياسة وأخلاق وتدير المنزل . وسنجد ان فريقاً من مؤرخي العلم العربي من المسلمين سيذهبون مع ارسطو في هذا التقسيم مع تغيير المسميات ، والبعض الآخر سيلبى القسم الثاني ، ويضع بدلاً منه قسماً آخر لاسميه بالعلوم ، بل يدكره باسم الصنائع . وسنرى كيف يصوغ ابن خلدون موقفه بهذا الصدد في التفرقة بين العلم النظري والصنائع ، أي العلم التطبيقي ، او الممارسات الحرفية القائمة على الخبرة البحتة ، وليس على النظر العقلي الخالص .

يقي ان نشير الى الاختلاف الثاني الجوهرى بين تصنيفات قدماء اليونان وتصنيفات المسلمين وهو يرجع الى افراد قسم خاص بالعلوم الثقيلة اى الشرعية ، المتعلقة بالدين وباللغة العربية وآدابها وهي لغة القرآن . فان هذه العلوم الاسلامية والعربية التى كان لها مقام الصدارة عند الاسلاميين بحيث شغلت اذهانهم طوال عصور الازدهار ، وكذلك في عصور الانحطاط الفكرى ، هذه العلوم الشرعية لم يكن لها اثر كبير في تعطيل اتجاه المسلمين لتحصيل العلوم العقلية وممارسة تطبيقاتها ، بل والتجويد فيها في شتى الميادين ، وذلك رغم تحذيرات بعض الفقهاء من الحنابلة والمالكية المتزمتين ، الذين وقفوا موقفاً معارضاً لانتشار ما أسموه بالعلوم الدخيلة بين المسلمين .

وسنقتصر في بحثنا هذا على تناول فترة طويلة بالدراسة تستغرق خمسة قرون . (من القرن الثالث الى القرن الثامن) من الفارابي حتى عصر ابن خلدون . على أن يكون تركيزنا على هذين القطبين الكبيرين ، أي الفارابي وابن خلدون .

ونلاحظ من ناحية أخرى ان هذا البحث سوف ينصب على فترة زمنية بعد جابر بن حيان والكندى ، وكان لهما مجهود فيما يختص بتصنيف العلوم .

اما الفترة موضوع البحث فهي تشتمل على مواقف ابن سينا ، واخوان الصفا ، وابن النديم ، والخوارزمي كحطة اتصال بين كل من الفارابي وابن خلدون .

وهدفنا النهائي هو ان نرصد تطور حركة تصنيف العلوم عند العرب من الفارابي كنقطة انطلاق واعية في هذا المجال ، حتى نرى هذا التيار وهو يصب في ابن خلدون ، وما تصوره من هيكل لتصنيف العلوم والتمييز بينها وبين الصنائع .

أولاً : تصنيف العلوم عند الفارابى

١ - لاشك ان الكندي الفيلسوف يعد المقدمة التي لاغنى عنها للفكر الفلسفى في الاسلام، فهو أول فيلسوف اسلامى ينقل الفلسفة اليونانية ويضمنها الفكر العربى ، ومن ثم فان موقفه من تصنيف العلوم الذى تلقاه من القدماء يعد مدخلاً الى تصنيف العلوم عند الفارابى .

ويذكر ابن نباتة من كلام الكندي في الفلسفة ان علومها ثلاثة : العلم الطبيعى والعلم الرياضى ، اى التعاليم ، وهو اوسطها في الطبع ، وعلم الربوبية وهو اعلاها في الطبع . ويشتمل علم الرياضيات عند الكندي على دراسة العدد والهندسة والتنجيم . ويلاحظ من ناحية اخرى ان الكندي لم يعرض في تقسيمه للعلوم لاقسام الفلسفة العملية تفصيلاً ، بل اشار اليها اشارة مجملة ، كما انه افضل ذكر المنطق في هذا التصنيف ، (٢) على اعتبار انه اداة العلم وليس جزءاً منه على رأى ارسطو .

٢ - اما الفارابى فانه يعد الفكر الاسلامى الاول الذى عنى بدراسة تصنيفات العلوم ، اذ افرد لها كتاب « احصاء العلوم » وهو يعد من أهم كتبه على الاطلاق . (٣)

يحدد الفارابى مقصده من تحرير هذا الكتاب ، فيذكر في مقدمته انه قصد من هذا الكتاب احصاء العلوم المشهورة في عصره علماعلماً ، وتعيين غرضها بالدقة اللازمة ، وبيان مجمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، واجزاء كل ماله اجزاء ، ومجمل ما في كل واحد من اجزاء ، وهو في خمسة فصول ، **الفصل الاول** في علم اللسان واجزائه ، **والثاني** في علم المنطق واجزائه ، **والثالث** في علوم التعاليم ، اى العلوم الرياضية والطبيعية وهى العدد والهندسة وعلم المناظر وعلم النجوم التعليمى وعلم الموسيقى وعلم الانتقال وعلم الحيل . **والرابع** في العلم الطبيعى واجزائه وفي العلم الالهى واجزائه ، **والخامس** في العلم المدنى واجزائه وفي علم الفقه وعلم الكلام . (٤)

(٣) راجع للمؤلف كتاب الفلسفة الاسلامية : شخصياتها ومذاهبها ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٤) راجع النشرة النقدية المتأخرة لكتاب احصاء العلوم لعنبر د. عثمان امين ، وقد قدم لها بمقدمة مستفيضة ، استدلنا منها في هذا الومع . وراجع أيضاً كتابنا : الفلسفة ومباحثها من ص ١٠٨ - ١١٤ حيث توجد دراسة موزعة عن هذا الكتاب . راجع أيضاً ، حول أهمية كتاب احصاء العلوم ، مقال د. صالح العمارة من (كتاب احصاء العلوم للفارابى والنهج العلمى) في اعمال مؤتمر بغداد عن الفارابى سنة ١٩٧٥ من ص ٥٤ - ٦٣ . وينقل ان سبب اشتداد الفارابى باسم فيلسوف الاسلام هو كتابه احصاء العلوم الذى صنف فيه علوم عصره ، يلخص الى هذا دى بور ، وثمان امين ، دى بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٣١ - ١٣٢ ، عثمان امين : مقدمة كتاب احصاء العلوم ص ٣٦ . وكذلك قول ابن ساعد الاندلسى في كتاب (طبقات الامم) ، حيث يذكر الفارابى كتاب شريف في احصاء العلوم والتعريف بالمراسمها لم يسبق اليه ولا يلبس اليه احد من قبله فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقدم النظر فيه . ابن ساعد الاندلسى ، كتاب طبقات الامم ، ص ٥٤ .

(٥) احصاء العلوم للفارابى ، المقدمة ، ص ٤٣ ، في نشرة عثمان امين .

ويوضح الفارابي هدفه من تحريره لهذا الكتاب فيقول « وبهذا الكتاب يقدر الانسان على ان يقايس بين العلوم فيعلم ايها افضل وايها انفع وايها اتقن واوثق واقرى ، وايها اوهن واوهى واضعف » . (٦)

وسنرى في عرضنا لهذه العلوم الثمانية ، التي أشار اليها ، أنه يعتبر أن الفقه وعلم الكلام صناعتان زائدتان على الفلسفة ومتاخرتان بالزمان عنها ، على الرغم من أنهما تابعتان لها ، من حيث أنهما يدخلان في دائرة العلوم العملية ، كالأخلاق والسياسة وتدير المنزل ، وهذا القول فيه نظر ، فإذا كانت هناك وشيجة ظاهرة بين علم الكلام والفلسفة من حيث استخدام النظر العقلي في كل منهما مع اختلاف المنهج فيهما ، إلا أن علم الفقه يعد علما اسلاميا خالصا ، لاصلة له بالفلسفة وعلومها ، إلا من حيث كونه علما عمليا قد يندرج تجوزا تحت القسم العلمي من العلوم التي أشار اليها القدماء اجمالا . وهذا الربط غير الطبيعي بين الفقه وعلم الكلام من ناحية ، وبين العلوم الأخرى قد أثار نقد بعض مؤرخي الفلسفة ، حيث يشير **لويس جاردييه** إلى أن محاولة الفارابي إدخال علم الكلام وعلم الفقه في دائرة العلوم العملية جعلت من تصنيفه عملا مصطنعا . (٧) لكننا لا نلبيث أن نجد موقفا آخر للويس جاردييه في بحث مؤخر له عن الفارابي ، حيث يذكر أن وضع هذين العلمين في دائرة العلوم العملية إلى جوار الأخلاق والسياسة وتدير المنزل ، إنما يعتبر ثمرة حقيقية لعملية التوفيق بين الفلسفة والدين ، التي اتسمت بها فلسفة الفارابي التوفيقية . (٨)



٣ - محتويات كتاب احصاء العلوم :

١ - يتضمن الفصل الأول من هذا الكتاب دراسة عن اللغة ، ويذكر الفارابي أن علم اللسان (٩) يشتمل على قسمين : -

(١) حفظ الالفاظ التي عند الأمة ، وهذا في العادة تقوم به القواميس والمعاجم اللغوية المختلفة .

(٦) كتاب احصاء العلوم ، نشرة عثمان امين ، ص ٥٢ - ٥٤ .

(٧) لويس جاردييه ، وفتاوى : فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٩٢ .

(٨) لويس جاردييه : التوفيق بين الدين والفلسفة عند الفارابي ، في مجلد الفارابي والحضارة الانسانية ، مهرجان الفارابي - بغداد ١٩٧٥ ، ص ١٢٩ .

(٩) يرى الفارابي أن لهذا العلم سبعة أجزاء عظيمة عند الأمم جميعها هي : علم الالفاظ المفردة - علم الالفاظ المركبة - علم قوانين الالفاظ عندما تكون مفردة ، وقوانين الالفاظ عندما تكون مركبة - وقوانين تصحيح الكتابة ، وقوانين تصحيح القراءة ، وقوانين الاشعار . (راجع احصاء العلوم ، الفصل الأول ص ٢٦ - ٢٧) .

(٢) أما العلم الثانى من قسمى علم اللسان فهو العلم الذى يستنبط قوانين هذه الالفاظ وهو المعروف بعلم اللغة ، ثم التواعد التى تتم بمقتضاها هذه الالفاظ وهو علم النحو . وكانت للغرابى مساجلات عديدة هو واستاذة « أبو بشر متى » ارادا أن يثبنا اعتماد النحو من المنطق . (١٠)

ب - أما الفصل الثانى فهو يتضمن دراسة موسعة عن علم المنطق تشتمل على العبارة والقياس والبرهان والمقولات والمواضع الجدلية والخطابة والشعر . وبلاحظ ان الغرابى قد توسع في هذا الفصل عن قصد وغاية ، ذلك انه كان يريد الرد على المهاجمين للمنطق في عصره بعد ان تغلب رأى النحويين في مناظرة وقمت عام ٣٢٠ هـ في بغداد (١١) في مجلس الفضل بن جعفر بن الفرات وزير الخليفة المقتدر آنذاك . وكانت المناظرة ما بين أبى سعيد السراقى اللغوى الفقيه المتكلم الذى اخذ عن أبى السراج ، وما بين أبى بشر متى بن يونس المتوفى عام ٣٢٨ هـ - استاذ الغرابى سوكان له مجلس للتعليم يضحى فيه دور المنطق ويقرر دور النحو على اللفظ لا المعنى ، وقد انتهت هذه المناظرة بانتظار أبى سعيد على مجادلة ومنافسة أبى بشر ، واعتبر هذا الانتصار للنحو على المنطق ، وللنحويين والمتكلمين على أصحاب المنطق والفلسفة . وكان سبب اندحار أبى بشر انه كان يجهل النحو وأحكام اللغة والحروف ومعانيها ومواضع استعمالها ، ومن هنا نجح السيرانى في اظهار جملة اللغة العربية ونحوها وفقها ، ولم يفن المنطق في اقتناع النظارة في صحة ما يقول به من صلة المنطق بالنحو واستمداد النحو من المنطق . وقد أثار هذا الانتصار شكوكا في فوائد المنطق والفلسفة ودعوى أصحابها . وكانت علاقة الغرابى بأبى بشر معروفة ، إذ اخذ عنه المنطق ، وكان الغرابى في زمن المناظرة يقرأ المنطق والفلسفة مع تلامذته ، ويملئ عليهم شروحه لكتب المنطق وعلاقته بالنحو . وقد كان على الغرابى أن يجيب على التساؤلات التى اثارها هذه المناظرة ، وجاء كتاب الحروف ، ثم كتاب احصاء العلوم ليشاركا في الجدل الدائر حول صلة المنطق بالنحو . وقد استاء الغرابى من هجمة بعض النحويين على المنطق وادعائهم بأنه فضل لا يحتاج اليه من كان كامل القريبة ، فرد عليهم بأن النحو أيضا لا يحتاج اليه من لا يلحن أصلا من غير أن يكون قد علم شيئا من قواعد النحو . ويختم الغرابى مناقشته حول هذا الموضوع بإشارته الى أن علم النحو انما يعطى قوانين تخص الفاظ أمة ما ، وأما علم المنطق فهو يعطى قوانين مشتركة تعم الإسم كلها . (١٢)

(١٠) راجع للمؤلف بحثا عن « دراسة تطبيقية مقارنة بين المنطق ورأى الغرابى فيها » ، ص ١٨٧ - ٢١٠ ، في أعمال مؤتمر الغرابى والحضارة الانسانية ، بغداد ١٩٧٥ .

(١١) راجع في هذا الموضوع وما يليه خاصة بالمنطق والنحو ، مقال الدكتور صالح الحضارنة ، من كتاب « احصاء العلوم للغرابى » بمجموعة أعمال مؤتمر الغرابى والحضارة الانسانية ببغداد ١٩٧٥ ص ٥٤ - ٥٥ . وكذلك مقدمة كتاب الحروف للغرابى ، نشره الدكتور محسن مهدى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٧ ، ص ٢٨ . وكذلك (الانتاع والمؤاسة) لأبى حيان التوحيدي ، نشره القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٤ ج ١ ص ١١٤ .

(١٢) الغرابى : احصاء العلوم : ، ص ٧٤ ، ص ٧٦ .

هذه هي اذن البررات التي دفعت بالفارابي الى تخصيص الفصل الثاني بأكمله من احصاء العلوم لعلم المنطق بعد ان فصله عن الفلسفة كما فعل أرسطو ، وقدمه على سائر العلوم اذ هو آلة للفكر ، وليس جزءا من الفكر ، يقول الفارابي « ان صناعة المنطق تعطى بالجملة القوانين التي شأنها ان تقوم العقل وتبذل الانسان نحو طريق الصواب ونحو الحق ، في كل ما يمكن ان يفلط فيه من المعقولات والقوانين التي تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل » (١٣) فالمنطق اذن عند الفارابي ينطوي على قوانين عامة كلية لا بد من مراعاتها في أي علم ، اذ انها تعمم الذهن من الزلل في الاحكام ، ولذلك يجب تقديم الكلام فيه قبل الخوض في سائر العلوم الاخرى . (١٤) ويلاحظ من ناحية اخرى ان الفارابي قد ادخل في اقسام الصناعة المنطقية موضوعات لم يدرجها أرسطو في دائرتها ، وذلك بما اسماء بالاقاويل الخطابية والاقاويل الشعرية . (١٥) وكان أرسطو قد ميز بين ثلاث مجموعات من العلوم هي : العلوم النظرية - العلوم العملية - العلوم الشعرية (١٦) . وقد قصر العلوم الشعرية على كتابي الخطابة والشعر ، ولكن الشراح لم يهتموا كثيرا بوضع قسم ثالث للعلوم عند أرسطو ، بل انصب اهتمامهم على تقسيم العلوم الى نظرية وعملية ، ومن ثم فان الفارابي قد وجد طريقة الى اتمام الخطابة والشعر على المنطق ، دون معارضة جدية من مؤرخي الفلسفة على عصره او فيما بعد هذا العصر ، ذلك لانه تلقى هذا التقليد من المفسرين المشائين في القرن الخامس الميلادي بعد الاسكندر الافروديسي مثل امونيوس ، وسيمبليقيوس . وداود الارمني ، اذ ان هؤلاء كانوا قد وضعوا الخطابة والشعر في تصنيفهم للأورجانون . هذا بالإضافة الى ايسافوجي فورفوريوس ، ولهذا فقد تبع العرب هؤلاء المشائين المتأخرين في دراستهم للأورجانون ، حيث يتناولونه جزءا بعد آخر من اجزائه التسعة ، مبتدئين بإيسافوجي ومنتهين بالشعر . (١٧)

ج - أما الفصل الثالث من كتاب احصاء العلوم فيشتمل على علوم التعاليم ، وهي تنقسم الى سبعة أجزاء :

١ - علم العدد والحساب .

٢ - علم الهندسة . ويقصد به هندسة اقليدس : لا الهندسة التطبيقية .

٣ - علم المناظر .

(١٣) المرجع السابق ، ص ٥٣ . راجع بحثا عن احصاء العلوم في اعمال مؤتمر بغداد من الفارابي سنة ١٩٧٥ .

(١٤) راجع التبيين على سبيل السعادة للفارابي ، طبعه جند أباد الدكن ١٩٢٦ ، ص ٢٢ .

(١٥) احصاء العلوم للفارابي : ص ٦٦ - ٦٧ .

(١٦) راجع للمؤلف تاريخ الفكر الفلسفي أرسطو ، ص ٣٢ هامش (٢) : - كتاب الجدل - الكتاب الثالث - الفصل الثالث ف ١١٤٥ - الكتاب الثامن - الفصل الاول ف ١٥٧ ، وايضا كتاب الاخلاق النيقوماخية - الكتاب الثالث ، الفصل الثاني ف ١١٣٩ - كتاب اليتافيزيقا - الكتاب الاول - الفصل السابع .

(١٧) Dr. Izzah. Mulkour, L'Organon d'Aristote dans le monde Arabe, Paris 1934, p. 12.

٤ - علم النجوم أو علم الفلك . ويذكر الفارابى « وهو اما علم احكام النجوم أو علم النجوم التعليمى » .

٥ - علم الموسيقى ، وهو « اما علم الموسيقى العملية ، أو علم الموسيقى النظرية . »

٦ - علم الاقوال .

٧ - علم الحيل أو علم الميكانيكا التطبيقية المعاصر أو علم قوانين الحركة .

وبلاحظ ان اشارة الفارابى الى علم النجوم وقوله بأنه ينظر على علمين هما علم احكام النجوم ، وعلم النجوم التعليمى ، هذه الاشارة تنطوي على دلالات كثيرة .

١ - فعلم احكام النجوم هو علم دلالات الكواكب على ما سيحدث فى المستقبل ، اى هو العلم الذى يربط حياة الانسان برصد الكواكب والافلاك . وهو اشبه بالرؤيا والزرر والعرافة .

٢ - اما علم النجوم التعليمى ، فهو ما يعرف لدينا الآن بعلم الفلك ، ولكن الفارابى يشير الى موضوع جديد لهذا العلم فيقول ان علم النجوم التعليمى يبحث فى الاجسام السماوية وفى الارض من ثلاث جمل : -

اولها : اشكال الاجسام السماوية والارض واوضاعها ومراتبها ومقادير اجرامها ونسبة اوضاع بعضها من بعض .

وثانيها : البحث عن حركات الاجسام السماوية وشكلها الكروى والكواكب وغير الكواكب ، ومعرفة مكان كل كوكب واجزاء البروج ، والقمر والشمس والتشاريق والنفاريب ، وبالجمله كل ما يعرض لاجسام عالم السماء وحركاتها ، خلوا من اضافتها الى الارض . وهذا هو المقصود بدراسة علم الفلك .

ثالثها : ان هذا العلم ، اى علم النجوم التعليمى ، انما يبحث فى المعمور من الارض وغير المعمور واقاليها ، ومسكنها وترتيبها فى العالم ودورة فصولها ، وهذا ما يسمى الآن بعلم الجغرافيا . كان الفارابى يجعل الارض كوكبا من الكواكب التى ستدرس فى علم النجوم . (١٨)

د - العلم الطبيعى : « وينظر فى الاجسام الطبيعية ، وفى الاعراض التى قوامها هذه الاجسام ، ويعرف الاشياء التى منها والتي بها والتى لها توجد هذه الاجسام ، والاعراض التى قوامها فيها » . (١٩) ويشتمل العلم الطبيعى على ثمانية اجزاء ، ينقلها الفارابى عن ارسطو ، وهى : -

(١) السماع الطبيعى .

(١٨) احصاء العلوم ، ص ٨٤ - ٨٥ ، مرجع سابق .

(١٩) كتاب احصاء العلوم ، ص ٩١ .

(٢) كتاب السماء والعالم ، وهو كتاب عرف في العصور الوسطى باسم De Caelo

(٣) الكون والفساد .

(٤ ، ٥) الآثار العلوية (٢٠)

(٦) المعادن .

(٧) النبات .

(٨) الحيوان والنفس ، وهنا نجد الفارابي يتابع أرسطو تماما في هذا الموضوع ، لان أرسطو يرى ان العلم الطبيعي يبحث في الموجودات المركبة من صورة وهيولي ، ولما كانت النفس صورة الجسم الحي ومبدأ أفعاله الحيوية ، ولهذا فان دراسة النفس ومراتبها النباتية والحيوانية والناطقة ، انما تدخل في نطاق العلم الطبيعي .

والتزام الفارابي بهذا الموقف الارسطوي انما يتعارض مع ما يذكره في مواضيع اخرى من كتبه من شرف النفس وعلوها وأرتباطها بالعالم الاعلى على نحو ما ذكره أفلاطون ، ولهذا فان مبحث النفس عنده وعند ابن سينا لم يكن من المناسب أن يوضع في دائرة أبحاث العلم الطبيعي، لصدم احتذاء الفارابي للموقف الارسطوي الخالص في فلسفته . وهذه هي إحدى عيوب النزعة التلغيفية عند الفارابي . (٢١)

هـ - العلم الالهي ، وهو موضوع كتاب مابعد الطبيعة وينقسم الى ثلاثة اقسام :

(١) قسم يخصص فيه من الموجودات بما هي موجودات ، أي من المبادئ الاولى للفلسفة .

(٢) اما القسم الثاني فهو يبحث في مبادئ البراهين في العلوم النظرية والجزئية .

(٣) يبقى القسم الثالث وهو يبحث في الموجودات المجردة ، أي في الانيات الروحانية التي ليست بأجسام ولا في أجسام . (٢٢)

و - العلم المعنى : وهو يخصص في أصناف الأفعال والسنن الإرادية ، وكيف ينبغي أن تكون موجودة في الإنسان دون غيره من الكائنات الحية، وهذا العلم يوضح ويفصل غايات الأفعال ، أي انه علم غائي ، وهو كذلك من العلوم العملية ، ويتفرع الى فرعين : -

(١) الواحد منها يشتمل تعريف السعادة وعلى وجوه طلبها من حيث ان السعادة الدنيوية والاخرية هي مطلب اساسي للانسان .

(٢٠) راجع احصاء العلوم لشرح هذا الوضع .

(٢١) راجع مؤلفتنا في تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، في موضوع الفارابي وفلسفته .

(٢٢) راجع احصاء العلوم ، ص ٩٩ .

(٢) أما الفرع الثانى من هذا العلم فهو يشمل على ترتيب الشيم والسير والافعال ، اى ان هذا الفرع يتضمن الاشارة الى أنماط السلوك الانسانى .

ويلاحظ على ما يشتمل عليه العلم المدنى من مطالب انها تشير في مجملها الى العلوم العملية التى اشار اليها ارسطو دون أن يذكر الفارابى صراحة أقسام هذه العلوم في كتاب الإحصاء ، ولكنه يشير الى هذه الاقسام اى فروع العلوم العملية في كتاب « التنبيه على سبيل السعادة » ، وهو يجعل هذه العلوم في كتاب الإحصاء تحت اسم العلم المدنى ، ويضيف اليه علم الفقه وعلم الكلام .

وهذه اضافة يقصد منها أن يكون هذان العلمان فرعين من العلوم العملية ، وليسا علمين مستقلين عن اقسام العلوم عند الفارابى ، وسنعرض لهذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد .

والحقيقة أن مبحث السعادة الذى تصدر عنه سائر مباحث العلوم العملية انما بعد موضوعا للعلوم العملية عند ارسطو ، وهى الاخلاق والسياسة وتدبير المنزل ، فالسعادة يطلبها الفرد لذاته في مجال علم الاخلاق وهى سعادة دنيوية فقط ، اضاف اليها الفارابى السعادة الاخروية . والسعادة بشقيها مطلب اساسى للانسان عند الفارابى ، وهذا ما يبحثه علم الاخلاق ، بالإضافة الى تعريف الفضيلة والوسط العدل ، وهذه يشير اليها الفارابى في كتب اخرى .

وكذلك فان السعادة ايضا هي مطلب اساسى لاجتمع المدينة الانسانى ، وهذا ما يحققه نظام المدينة السياسى ، ويبحثه ارسطو في علم السياسة .

أما تحقيق الكفاية المادية للفرد ولجتمتع المدينة ، والتى تعتبر مدخلا لسعادة الأفراد والجماعة من الناحية المادية ، والتى ترجع من ناحية اخرى الى اكتفائهم ذاتيا من النواحي المادية وعدم احتياجهم الى الآخرين ، لاسيما في حال الازمات والحروب ، فان ذلك يبحثه علم تدبير المنزل او علم الاقتصاد .

ويشير الفارابى الى هذه الانحاء في كتبه الاخرى ووسائله السياسية والاخلاقية . ولكنه بعد أن جعل الفقه علما قائما بذاته في تقسيمه كما سئرى ، يتخرج من الاشارة الى الاخلاق او السياسة كعلم ، اذ أن مباحث الفقه العملية تنطوي على أمور كثيرة مما يدخل في باب السلوك السوى الذى يبحثه الاخلاق ، والتنظيم السياسى الذى يبحثه علم السياسة ، والتنظيم الاقتصادى ، أى المعاملات ، الذى يبحثه علم تدبير المنزل او الاقتصاد ، فكان الفارابى اراد أن يترك المجال لتدخل الفكر الاسلامى في تكوين العلم المدنى واعطاه صبغة اسلامية ، أو تقريبا من الشريعة ، كما فعل في « آراء أهل المدينة الفاضلة » (٣٣) .

ز - علم الفقه ، وهو صناعة بها يستطيع الانسان أن يستنبط تقدير الشيء مما لم يصرح

وأضع الشريعة بتجديده على الأشياء التي صرح فيها بالتحديد والتقدير (القياس) وأن يتحرى تصحيح ذلك على حسب فرض واضح الشريعة بالملة التي شرعها في الأمة التي لها شرع (٢٤) .

وإذا كانت عبارة الفارابي تعطي انطباعاً بأنه إنما يتكلم عن صناعة الفقه بالنسبة لجميع الأمم وشرائعها ، إلا أنه كما رأينا في رسائله وفي كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، إنما يجعل الإسلام نصب عينيه حينما يتكلم عن هذه المواضيع الخاصة بالفروع الشرعية للإسلام التي يدرسها علم الفقه . وهو يذكر أن هذا العلم جزءان : -

أحدهما في الآراء ، والثاني في الأفعال . أما الجزء الأول فهو يدور حول أصول المذاهب الفقهية أو أصول الأحكام الشرعية والقواعد الأصولية التي تدرس في علم أصول الفقه ، وهي مستمدة من العقائد التي هي أصل الشريعة ومنبعها .

أما الجزء الثاني من علم الفقه فهو تطبيقي يدور حول مسائل الفروع ، أي حول سلوك المسلم وممارسته العملية في حياته اليومية بالعقائد الإسلامية . وهنا نجد مباحث وموضوعات الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون بصفة عامة .

ج - علم الكلام ، وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرته الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزيف كل ما خالفها بالأقاويل (٢٥) .

ولهذا العلم جزءان :

الأول : يدور حول الآراء **والثاني :** حول الأفعال .

أما ما يدور حول الآراء فهو ما يتعلق بمسائل التوحيد وذات الله وصفاته وأفعاله ، أي ما يمس العقيدة من كتب . أما القسم الثاني فهو يتعلق بأفعال الإنسان ، مثل الجبر والاختيار ، ومشكلة الإمامة ، وغيرها من مباحث تتعلق بسلوك الفرد والجماعة ، والنظر إليهما من زاوية العقل الإنساني .



٤ - دراسة نقدية حول بناء التصنيف عند الفارابي وأساسه

لقد جاءت محاولات السابقين على الفارابي في مجال تصنيفات العلوم بمثابة نظرات تقليدية تسبق الكلام عن أقسام الفلسفة ومباحثها ، وكأداة منهجية لدراسة موضوعات الفلسفة واستيعاب أقسامها .

(٢٤) إحصاء العلوم ، ص ١٠٦ - ص ١٠٧ .

(٢٥) إحصاء العلوم ، ص ١٠٨ .

ولهذا فقد تميزت محاولة الفارابي في تصنيفه عن السابقين عليه بالجدة والاصالة ، وتعتمد المؤلف القصد اليها والرغبة الواضحة في الإحاطة بفروع العلم في عصره واكتمال تصوراته من محتوى هذه الفروع ومبشرين بحثها ، فلم يكن مجهوده بهذا الصدد من قبيل التجميع التراكمي لهذه العلوم ، بل لقد جاء كتاب « احصاء العلوم » على سبيل التطبيق العلمى لنظريته العامة في ترتيب العلوم .

وإذا كان أى تصنيف للعلوم إنما ينبع من الموقف الفلسفى العام للفيلسوف ، لهذا فقد حرص الفارابي على إضاح الأساس الفلسفى لهذا التصنيف في كتبه الأخرى مثل : التنبؤة على سبيل السعادة (٢٦) ، والسياسات المدنية ، وآراء أهل المدينة الفاضلة ، ثم بيان الغاية القصوى والنهائية من تحصيل العلوم وترتيبها على النحو الذى أشار إليه .

فمن **الناحية الأولى** ، نجده يقيم التصنيف على أساس موقف إستيمولوجى تجاه موضوعات المعرفة ، فمنها موجودات يعرفها الإنسان ولا دخل له في فعلها ، والمعرفة تطلب فيها لذاتها .

أما الصنف الثانى من الموضوعات فإن الإنسان يعرفها ويستطيع فعلها ، والمعرفة تطلب هنا من أجل العمل أو المنفعة .

والصنف الأول من الموجودات تدرسه العلوم النظرية .

أما الصنف الثانى فتبحث فيه العلوم العملية . وقد قدم الفارابي العلوم النظرية على العلوم العملية لتوقف الثانية على الأولى .

ومن **الناحية الثانية** ، أى من حيث النسبة النهائية القصوى من تحصيل العلوم وترتيبها فإن الفارابي يتجه اتجاه أخلاقيا عاما من حيث أنه يتبنى نظرية أرسطو في السعادة ، وكيف أن غاية الحياة هي السعادة التى تتحقق بالدرجة الأولى من التأمل ، أى من الفلسفة أو الحكمة ، وتأمل موضوعاتها الإلهية ، هذا فضلا عن أن الإنسان يطلب السعادة أيضا من وراء ممارساته العملية في حياته ، وهذه هي المنفعة القصوى التى يبغيها من معرفة العلوم العملية .

ومن ثم فإن السعادة ، كما يرى الفارابي ، غاية كل إنسان وهى تحصل بالاكتمال وتتوقف على جودة التمييز الذى يحصل بقوة الله التى نستفيد منها صناعة المنطق .

وعلى هذا النحو يحصل الإنسان على معارف يكون قسم منها مقصوده تحصيل الجميل ، وقسم آخر تحصيل النافع .

أما القسم الأول فيسمى بالفلسفة أو بالحكمة وعلومها ، وبها ينال الإنسان السعادة القصوى وهذه العلوم وهى القسم النظرى من تصنيف العلوم عند الفارابي ، إنما تطلب لذاتها .

وتدخل العلوم العملية ، كالعلم المدني والفقه وعلم الكلام في قسم العلوم النافعة ، وهى لا تطلب لذاتها ، ويكون تحقيقها للسعادة عن طريق فعلها .

وإذن فالغاية من تحصيل القسمين واحدة ، وهي السعادة .

وبينما تتحقق السعادة في المعرفة النظرية عن طريق المعرفة الخالصة وبلوغ تمام اليقين نجد أن السعادة تتحقق في نطاق المعرفة العملية عن طريق المنفعة العملية التي يكتسبها من يحصل هذه العلوم (٢٧) .

• • •

ثانيا : تصنيف العلوم بين ابن سينا واخوان الصفا

قبل أن نتناول تصنيف العلوم عند ابن سينا تصحى الإشارة الى كتاب في احصاء العلوم ظهر تاريخيا قبل ابن سينا وهو كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمي (٢٨) وكانت لكتابه هذا مكانة خاصة في عصره ، فقد استوعب سائر علوم المصير بطريقة تراكمية اقتصرت فيها على الوصف والاحصاء نحسب ، ولم يهتم بمراتب العلوم او يذكر المراجع التي استند اليها . ويرى « لويس جاردييه » أن هذا النقد لا يوجه للخوارزمي فحسب ، بل ينبغي أن يوجه أيضا الى ابن النديم صاحب الفهرست (٢٩) . ومع هذا فإن الدوميلي يمتدح كتاب « مفاتيح العلوم » ويذكر أنه مما يزيد من نفاسته تفسيره للمصطلحات الفنية للعلوم (٣٠) .

ويشتمل كتاب مفاتيح العلوم على مقالتين : اولاهما في ستة أبواب وتعالج علوم الشريعة وما يتصل بها من العلوم العربية مثل الفقه والكلام والنحو والكتابة والشعر والعروض والأخبار . وثانيتهما في تسعة أبواب نجد فيها علوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم ، وهي الفلسفة ، والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل والكيمياء .

بلا حظ على هذا التصنيف أن صاحبه أضاف على الطب والكيمياء الى مجموعة العلوم الفلسفية ، وكان الفسارابي قد أهمل ذكرهما ، كذلك يمكن القول بأنه لا يوجد أساس واضح لتصنيف الخوارزمي ، كما هو الحال عند الفارابي .

(١) ابن سينا (٣١) وتصنيفه للعلوم :

ويعرف ابن سينا الحكمة في رسالة اقسام العلوم العقلية بأنها صناعة يستفيد منها الانسان

(٢٦) الفارابي : التنبيه على سبيل السعادة ، طبع الهند ١٢٢٦ هـ ، ص ٢١ .

(٢٧) راجع الفارابي : التنبيه على سبيل السعادة . وكذلك كتاب « العلم الثاني » لشيخ مصطفى عبد الرزاق ، ص ٧٦ .

(٢٨) هو ابو عبد الله محمد الخوارزمي التوفي عام ٢٨٧ هـ / ٨٩٧ م .

(٢٩) لويس جاردييه ، وفتاوى : فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية ، ص ٢٠٢ الترجمة العربية .

(٣٠) الدوميلي : العلوم عند العرب ، الترجمة العربية ، ١٩٦٢ ، ص ١٨٠ .

(٣١) يعتبر كتاب الشفاء لابن سينا موسوعة علمية تشتمل على العلوم التي أوردها الفارابي في « كتاب الاحصاء » .

تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه ، وما عليه الواجب مما ينبغي أن يكسبه فعله لشرف بذلك نفسه وتستكمل وتصر عالما معقولا مضاهيا للعالم الوجود ، وتستمد للسعادة القصوى بالآخرة وذلك بحسب الطاقة الانسانية .

فكان ابن سينا بهذا التعريف للحكمة يجمع فيها العلوم النظرية المجردة الى جانب العلوم العملية ، كما فعل أرسطو ، مع اضافة العلوم الشرعية الى قسم العلوم العملية ، وهذا يفهم من اشارته في تعريف للحكمة وقوله « لأن كمال النفس لا يتم بطلب ما هو معقول فحسب ، بل أن الاستعداد للآخرة - أي لصالح الماد - هو امر متمم لسعادة الانسان ، بل لحصوله على السعادة القصوى في الآخرة . وهذا لا يتضمنه قسم العلوم العملية عند أرسطو والتي تشتمل على الاخلاق والسياسة وتدبير المنزل .

اما القسم النظري فالنفاية فيه حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الانسان ، ويكون المقصود فيها حصول رأى نصب ، مثل علم التوحيد وعلم الهيئة ، أي أن العلوم النظرية تطلب لذاتها بدون نظر الى منفعة عملية .

ويلاحظ من ناحية أخرى أن ابن سينا يدخل علم التوحيد في دائرة العلوم النظرية ، وهو يحدد مباحثه في الكلام على وحدانية الله وذاته وصفاته وأفعاله . وهذه أمور من الممكن أن تكون موضوعات للفلسفة البهتة ، ولكنه يريد التأكيد على أن علم التوحيد الفلسفي إنما يشتمل على مبحث العقائد الاسلامية ، إذ أن جوهرها التوحيد ، وهو مبحث نظري من وجهة النظر الفلسفية .

ويبدو أن ابن سينا قد تأثر بمباحث علم الكلام في هذه الناحية ، ولا سيما في كلامه عن واجب الوجود ، بعد أن قسم الوجود الى واجب وممكن . والأمر الذي لا شك فيه أن ثمة عناصر كلامية واضحة متداخلة في فلسفة ابن سينا ويتمين الكشف عنها في بحث آخر مستقل .

اما القسم العملي من الحكمة ، فالغاية منه حصول صحة رأى يحصل بقدرة الانسان ليكتسب ما فيه من خير ، أي حصول رأى لاجل عمل . وينطبق هذا القول - كما سترى - على العلوم العملية عند أرسطو .

(٢) السام الحكمة النظرية عند ابن سينا :

تنقسم الحكمة النظرية الى ثلاثة :

(١) العلم الاسفل وهو العلم الطبيعي ، ويبحث في أمور يتعلق وجودها بالمادة والحركة كالعناصر الأربعة ، وأجرام الافلاك ، والاستحالة ، والتغير والحركة ، والكون والفساد . كما تدخل في دراسته النفس وقواها وأفعالها على نحو ما فعل أرسطو . كذلك تدخل سائر العلوم الطبيعية . ولم يكن ابن سينا واضحا في تقسيمه لهذه العلوم ، مثل الفارابي ، مع أنه متأخر عنه كما تعلم .

ب - العلم الاوسط وهو العلم الرياضي ، ويبحث في أمور وجودها - وليس حدودها - متعلق بالمادة والحركة ، كالتربيع والتدوير والمدد وخواصه . وهنا أيضا نجد هذا العلم وهو الذي

يشير اليه الاسلاميون باسم علم التعاليم، كالحساب والهندسة . . . وكذلك يمكن القول بأن ابن سينا لم يستفد كثيرا في تفصيله للعلوم الرياضية من تجربة الفارابي في احضاء العلوم .

ج العلم الاعلى ويسمى بالعلم الالهى، ويبحث في امور ليس وجودها وكذلك ليست حدودها مفتقرة الى المادة والحركة ، وهما اما ذوات ، كذات الحق رب العالمين ، وهنا تدخل علم التوحيد بمباحثه المختلفة ، سواء الاكثافلسفية ام كلامية . او صفات مثل الكثرة والعلّة والمألوف والكلية والجزئية وغيرها من المعاني التي تظل في دائرة التجريد . ولابن سينا رسائل تتناول فروع هذا العلم ، نذكر منها مباحثه في اقسام الملائكة وفي امور المعاد وغير ذلك من المباحث الالهية العالية .

(٣) اقسام الحكمة العملية عند ابن سينا :

١ - **الاخلاق** وبها يعرف الانسان كيف ينبغي ان تكون اخلاقه وافعاله حتى تكون حياته الاولى والاخرة سعيدة . وهنا نرى ابن سينا يربط الاخلاق بالدين ، على غير ما قصده ارسطو في اخلاقه .

ب - **علم السياسة** وبه يعرف المرء اصناف السياسات والرئاسات والاجتماعات المثبتة الفاضلة والردئية ، كما يدرس اشكال الحكم الصحيحة والفاصلة ، وعلّة زوال وبقاء هذه النظم ، فيدرس حاجة النوع الانساني الى النبوة، ويفرق بين النبوة الالهية والنبوة الكاذبة . وهنا نرى كيف ان ابن سينا قد ربط علم السياسة بالدين مغالفا بذلك ارسطو ، وجعل النبوة مطلبا طبيعيا للنوع الانساني . وفي هذا ربط اساسي للدين بالفلسفة السياسية .

ج - **علم تدبير المنزل** ، او علم الاقتصاد ، وبه يعلم المرء كيف ينبغي ان يكون تدبيره لمنزله المشترك بينه وبين زوجته واولاده ، حتى يتمكن من كسب السعادة . وهنا نرى ارتباط ابن سينا بوجهة النظر اليونانية من حيث قيامها على تصور محدود للاقتصاد وهو ما يعرف باسم الاقتصاد العائلي . واذا كان ارسطو واليونانيون ، بصفة عامة ، قد تكلموا عن تدبير المنزل ، فانهم كانوا يقتصدون بذلك ان الوحدة السياسية المثلى هي المدينة وليست الدولة . وان هذه المدينة كانت محدودة العدد ، وتتألف من بضعة أسر كبيرة يرزق فيها اليونانيون الخطاء ، دون العبيد والمهجنين . ولكن المجتمع الاسلامي قام على اساس التسوية بين المسلمين جميعا ، احرارا كانوا ام عبيدا ، عربا كانوا ام من العجم . ولذا فان وقوف ابن سينا عند التفسير الارسطوي لتدبير المنزل ، بالمعنى الضيق الذي اشرنا اليه ، انما يعده كثيرا من صورة المجتمع الاسلامي من عصره .

ويرى ابن سينا ان مبدأ هذه العلوم العملية السياسية ، اي فروع الحكمة العملية ، مستفاد من جهة الشريعة الالهية ، وان هذه الاقسام الثلاثة تعد كالاصول ، وتتفرع منها اقسام اخرى هي كالفروع والتوابع بالنسبة لهذه الاقسام . اي انه يفتح المجال امام فروع عملية اخرى متصلة بالدين ، ولهذا فهو يعرض في رسالته ، التي اشرنا اليها ، لصلة كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة

بالدين ، وينتهي الى القول بأنه ليس شئ منها يشتمل على ما يخالف الشرع . وهذه محاولة من ابن سينا لربط الحكمة بالدين ، وهذا هو الطابع العام لفلسفته التي تقوم على التوفيق بين الفلسفة والدين . وتظهر هذه المحاولة في كتبه التي يتناول فيها الاقسام المذكورة من نظرية وعملية بالشرح والدراسة .

أما **المنطق** فهو آلة هذه العلوم جميعا تستخدمه لتمييز الصواب من الخطا . . وابن سينا من هذا الموضوع يتابع أرسطو ، اذ أنه يجعل المنطق آلة للعلم ، وليس قسما من اقسام الفلسفة .

ولم يكتف ابن سينا بما أوردته من اقسام للحكمة في رسالة اقسام العلوم العقلية ، بل نجده في كتابه « منطق المشرقيين » يضيف علما رابعا الى العلوم النظرية ويسميه باسم (العلم الكلي) . وهو يبحث - كما يرى ابن سينا - في أمور تخالط المادة وقد لا تخالطها مثل الوحدة والكثرة ، والكلي والجزئي ، والعلة والمعلول . ذلك لأنه رأى أن وضع هذه الامور في دائرة العلم الالهي سيضيق عليها طابعا مجردا ، مع انها قد تظهر في الامور المحسوسة وبذلك تخرج من هذه الناحية من العلم الالهي . ومن ثم فقد أقردها علما خاصا يسمح لنا من خلاله بتناولها على الوجهين ، المجرود والمحسوس معا .

والحقيقة انه كان من الممكن ان تظل هذه الامور في دائرة العلم الالهي في صورتها المجردة الخالصة ، واما تطبيقاتها في مجال المحسوس فانها تدخل حتما في دائرة العلم الطبيعي ، كما فعل أرسطو .

ويذكر ابن سينا أيضا في كتاب « منطق المشرقيين » ، أن العلوم العملية أربعة هي : علم الاخلاق ، علم تدبير المنزل ، علم تدبير المدينة ، ثم الصناعة الشارعة ، أي علم القانون . ثم يبنى حدود المتولى تدبير المنزل أو المدينة ، وكيف ينبغي أن يدير شئون المنزل أو المدينة . وهنا نجد ابن سينا يستدرك ما فاتته في قسمه الاول بالنسبة لتدبير المدينة ، اذ أن هذا العلم يشتمل على الوجوه السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمجتمع المدينة ، أي الدولة في نظره ، مع أنه يحتفظ في التقسيم بعلم تدبير المنزل ، أي الاسرة الضيقة . أما العلم الرابع فيعد اضافة جديدة لتصنيف العلوم عند ابن سينا ، واعنى به علم الصناعة الشارعة ، أي علم القانون . وهذا العلم يدخل في دائرة العلم المدني وكذلك في دائرة علم الفقه ، ولم تكن الصناعة الشارعة عند الفارابي بهذا التقدير الذي اشار اليه ابن سينا .

ويبدو أن أساس التصنيف عند ابن سينا انما يرجع الى الغاية التي نقصدها من طلبنا للحكمة . فاذا كانت الغاية علمية تفسيرية ، أي اذا كانت المعرفة تقصد لذاتها دون أي منفعة عملية ، فإن العلوم التي تتطلبها هي العلوم النظرية . وأما اذا كانت الغاية تقنية عملية فإن العلوم التي تبحث فيها هي العلوم العملية ، وهنا يتابع ابن سينا موقف الفارابي في كتاب احصاء العلوم .

اخوان الصفا :

نجد اخوان الصفا يقسمون الفلسفة الى نظرية وعملية ، وهم يدخلون القسم العملي كله في دائرة الالهيات ، وكذلك يضمنون الى علوم الفلسفة فروعا لم يدخلها فيها من سبقهم من الفلاسفة وذلك مثل السياسة النبوية وعلم الآخرة .

والأمر الذي لا شك فيه ان تصنيف العلوم عند اخوان الصفا موجه الى غايات باطنية ، وهي المقصودة من رسائلهم التي وضعوها في سائر علوم عصرهم .

وهم تارة يخالفون ارسطو وابن سينا فيما يختص بالمنطق ، فهو في نظرهم قسم من اقسام الفلسفة وليس آلة لها . وتارة أخرى يرد في موضع آخر من رسائلهم أن المنطق أداة الفيلسوف ، وأنه ميزان الفلسفة .



لقد اجملنا في هذا الجزء من البحث تصنيفات العلوم في الفترة الواقعة بين الفارابي وابن خلدون ، وهي تستغرق زهاء خمسة قرون تقريبا . وقد لاحظنا ان معظم التصنيفات التي ظهرت في هذه الحقبة تستمد هيكلها العام من تصنيف الفارابي للعلوم ، مع اختلافات جزئية في بعض المواضع تتعلق بمضمون العلوم في فروعها المختلفة ، وكذلك فيما يتعلق بتأجيل العلوم الشرعية حيث يتجه التيار بعد هذه الفترة الى اظهارها في قسم خاص بها ، يواجه العلوم الدخيلة او العلوم العقلية التي تجمعها الفلسفة او الحكمة على ما سنرى عند ابن خلدون وهو يمثل فترة الركود او نهايات الحضارة الاسلامية في القرن الثامن الهجري .



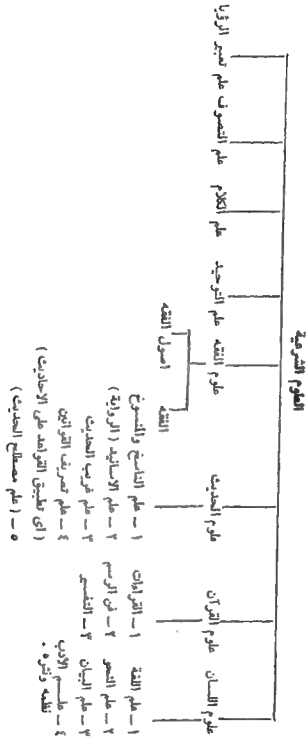
ثالثا - تصنيف العلوم عند ابن خلدون

يرى ابن خلدون ان العلوم التي يخوض فيها البشر تحصيليا وتعلما انما تكون على صنفين :

١ - صنف طبيعي للانسان بهتدى اليه بغيره .

٢ - وصنف ثقلي يأخذه عن وضعه .

وأما الصنف الاول فهي العلوم الحكيمة الفلسفية التي يمكن ان بهتدى اليها الانسان بطبيعة فكره وبمداوكة البشرية . ويخوض في موضوعاتها ، وانحاء براهينها ، من حيث هو انسان ذو فكر ، ليصل الى تمييز الصواب من الخطأ فيها .



أما الصنف الثاني من العلوم فهي العلوم النقلية الوضعية ، ولا مجال فيها للعقل إلا في الحاق الفروع من مسائلها بالاصول ، وهي كما يقول ابن خلدون « مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي » (٢٣) (انظر الرسم الملحق) .

ويحدد ابن خلدون دور العقل في هذه المسألة فيرى ان عملية الحاق الفروع بالاصول ، أو ادراج الجزئيات تحت الكليات لا تتم آليا ، ولكنها تحتاج أولا الى التأكد من ثبوت الاصل أو الحكم الكلي الذي تدرج تحته الجزئيات ، وهذا امر تقلى ، أى نتلقاه عن غيرنا كسبا أو تعلما . اما الجزء الثاني من عملية تكوين العلوم (الوضعية) في نظره فانها تتحدد في استخدام (القياس) لربط الجزئي بالكلي . ويبدو ان ابن خلدون هنا انما يتحدث في الاصل عن الشرعيات ويضعها في صدر أو في مقدمة العلوم النقلية . اذ ان استنباط العلوم بهذا الاسلوب القياسي وحده انما يتجاهل المعطيات التجريبية التي تستند اليها العلوم ، وابن خلدون هنا انما يتابع وجهة النظر القديمة التي كانت تقيم العلم على أسس نظرية بحتة ، وتجعل الصدارة للتركيبات العقلية في تفسيرها للطبيعة وللإنسان ، قبل الخوض في الوقائع التجريبية Empirical Facts ، أى استخدام الاستقراء Induction بطريقة واضحة جلية .

والدليل على صحة ما ستناه من تفسير ، يأتي في الفقرة التالية لهذا البحث الذي خصصه ابن خلدون لدراسة العلوم الواقعة في العمران على عهده ، اذ يذكر لنا (٢٤) ان أصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة ، ولكنه يستطرد فيلحق بهذه العلوم متعلقات أخرى من علوم نستخدمها لكي تتسم الاستفادة من الشرعيات . ثم يضيف صنفا آخر من العلوم المساعدة لتنام فهم العلوم السابقة ، وذلك مثل علوم اللسان العربي من لغة ونحو وبيان وأدب .

وهذه العلوم النقلية جميعها تختص بالمسألة الإسلامية ، وان كانت كل ملة ، كما يرى ابن خلدون لا بد فيها من مثل هذه العلوم ، فهي مشاركة لأي ملة في الجنس البعيد من حيث انها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها . ولكنه يعود فيستدرك قائلا : ان علوم الشريعة الإسلامية على وجه الخصوص مبانسة لجميع الملل لانها ناسخة لها « وكل ما قبلها من علوم الملل فممجورة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة فـسـمى القرآن » . (٢٤) وكلام ابن خلدون هذا يعني انه ولو ان كل دين سابق على الاسلام كانت له شريعة وعلوم تتبعها على النحو الذي اشار اليه ، الا انه لما جاء الاسلام فان شريعته والعلوم المتعلقة بها والمتفرعة عنها تعد ناسخة لعلوم الاديان السابقة لكل الشعوب .

(٢٣) ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد والى ، ج ٣ ص ٩٩٢ .

(٢٤) المرجع السابق ، نفس الوضع .

ولامر الذي لا شك فيه ان ابن خلدون هنا ما يتناول موقفا يصح ان يدرس في مجال الدين المقارن ، او في فلسفة الاديان ، فهو يرى بحسب النص ان كل دين لا بد له من شريعة ومن علوم تكون على مستوى التصنيف الذي يسوقه في مقدمته . او بمعنى آخر ، كان ابن خلدون يريد ان يضع نسقا واحدا للتفكير الديني في علوم الشرائع الدينية على اختلاف ازمانها وشعوبها ، وهذا امر نذكره من خلاله الاساس الموضوعي لتصنيف العلوم الثقيلة .

ولكن استدراكه الاخير الذي ينسخ فيه علوم الشرائع الاخرى السابقة ، انما يرجع الى ما يعرفه المسلمون من التحريف الذي خضعت له التوراة والانجيل وكتب الله المنزل على رسله . ومن ثم فانه يجب الحذر في تناولها والاكتفاء بعلوم الشريعة الاسلامية الخاتمة للمة ابراهيم الحنيفية .

وابن خلدون يعصر العلوم الثقيلة - على ما سنرى - في علوم اللسان وعلوم القرآن (التفسير والقراءات) وعلوم الحديث وعلم اصول الفقه ، ثم علم الفقه ، ثم علم التوحيد (اي دراسة العقائد اليمانية) ثم علم الكلام وهو علم الحجاج من هذه العقائد اليمانية ، والرّد على المنحرفين عن اهل السنة والسلف، اي انه انما يقصر مباحث علم الكلام على مستوى الموقف الاشعري الذي يعتنقه ابن خلدون نفسه . وهذه النقطة بالذات انما تدين تصنيفه العلمي للعلوم الثقيلة . لانه بدلا من ان يتجرد لوضع تصنيف موضوعي للعلوم المعروفة في عصره ، تجده يتخذ موقفا عقائديا ممينا يسم به علم الكلام . بينما نجد ان هذا العلم قد وصل في عصره الى قمة التطور ، واتسمت مباحثه ، وكثرت فيه اقاويل وآراء اصحاب الاعتزال والماتريدية وسائر اهل الفرق التي كان يرخ بها افق الحياة العقلية في الاسلام حينذاك .

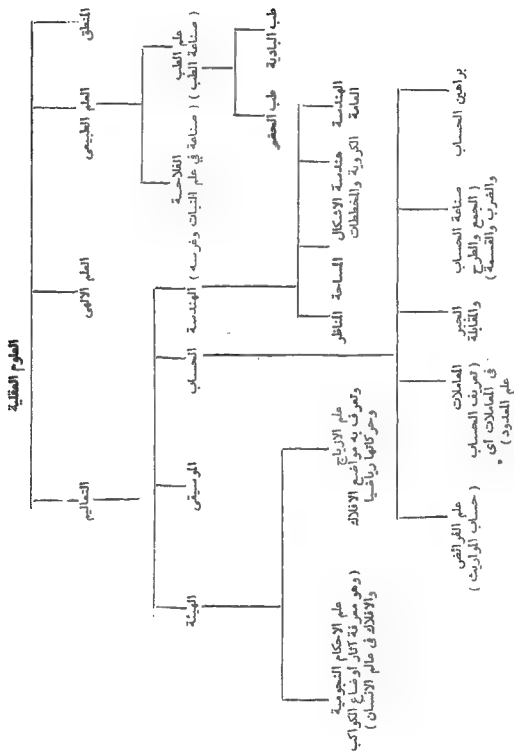
واما القسم الذي يلي علم الكلام من اقسام العلوم الثقيلة فهو علم التصوف . ويذكر ابن خلدون انه من العلوم الحادثة في الملة (٢٥)، وهو ايضا يكتفي في هذا بايراد مشاهدات المتقدمين ومجاهداتهم ورياضتهم على طريقة اهل السنة فحسب . ويكتفي بلم المتأخرين من المتصوفة ومذاهبهم التي تنبى عن موقف اهل السنة من الزهاد والمتصوفين .

اما القسم الاخير من العلوم الشرعية فهو علم تفسير الرؤيا (٣١) . ويرى ابن خلدون ان هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، ومتألف فيه الكثيرون ومنهم محمد بن سيرين والكرمانى ، وهو علم يبحث في تفسير الرؤى والاحلام . ويستند ابن خلدون الى مصوغ ديني لربط هذا العلم

(٢٤) القلمة ، ج ٢ ، ص ٩٩٢ .

(٢٥) القلمة ، ج ٢ ، ص ١٠٦٢ .

(٣٦) القلمة ، ج ٢ ، ص ١٠٨١ .



بالعلوم الشرعية، فيذكر رؤيا يوسف الصديق (٣٧)، ثم أحاديث الرسول من الرؤيا الصالحة، والتميز بينها وبين أضغاث الأحلام الكاذبة .

ويجعل ابن خلدون كلامه عن تصنيفه للعلوم النقلية بإشارته إلى حقيقة تاريخية وهي كساد هذه العلوم في المغرب مع رواجها في المشرق - في عصره - ويربط بين هذا الكساد في المغرب وتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم . أما ازدهار العلوم الشرعية في المشرق ، في عصره فيرجع إلى كثرة العمران والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم من الأوقاف الإسلامية التي اتسعت بها أراقي حملة العلم (٣٨) . وهنا نجد أن ابن خلدون يربط ربطاً أساسياً بين العلم والحضارة ، بين ازدهار العلوم وكثرة العمران ، فلا يتقدم العلم إلا حينما تزدهر الحضارة وتكثر الصنائع .



العلوم العقلية وأقسامها عند ابن خلدون : -

وإذا كانت العلوم الشرعية تختص بشعب أو بدين معين ، فإن العلوم العقلية تعتبر طبيعية للإنسان من حيث أنه ذو فكر « فهي إذن غير مختصة بملة بل يوجه النظر فيها لأهل المال كلها، ويسنون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة » . (٣٩)

وتسمى العلوم العقلية عند ابن خلدون باسم علوم الفلسفة والحكمة ، وهي نفس التسمية التي أشار إليها الفارابي وابن سينا ، وهي أيضاً علم العقل في مقابل علوم النقل ، وتشتمل على أربعة علوم :

أولها علم المنطق ، وهو علم يعصم الدهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة الملوثة . وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يتلسمه الناظر في الموجودات وعوارضها ، ليوقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره .

ولانيها العلم الطبيعي ، وهو يبحث في الحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعادن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك .

(٣٧) سورة يوسف ، آيات رقم ٤٣ - ٤٩ .

(٣٨) المقدمة ، ص ٣ ، ص ٩٩٤ .

(٣٩) المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٨٥ .

وثالثها العلم الالهى ، وهو يبحث في الامور التى وراء الطبيعة من الروحانيات .

ورابعها علم التعاليم ، وهو العلم الناظر فى المقادير ، وهذا العلم يشتمل على أربعة علوم فرعية هى :

١ - علم الهندسة ، وهو ينظر فى المقادير على الاطلاق وما يعرض لها ، اما من حيث ذاتها او من حيث نسبة بعضها الى بعض . وقد تكون هذه المقادير منفصلة من حيث كونها معدودة ، او متصلة ، وهى اما ذو بعد واحد وهو الخط ، او ذو بعدين وهو السطح ، او ذو ابعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي .

٢ - علم الارشما طيقا ، او علم العدد او علم الحساب ، وهو معرفة ما يعرض لكم المنفصل الذى هو العدد ، ويأخذ له من الخواص والمواضع اللازمة .

٣ - علم الموسيقى ، وهو معرفة نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد . وثمرة هذا العلم معرفة تلاحين الغناء .

٤ - علم الهيئة ، وهو تعيين الاشكال للأفلاك وحصر انواعها وتعدادها لكل كوكب من السيارة ، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ، ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وإدبارها .

هذا هو مجمل عرض ابن خلدون للعلوم العقلية ، وهو يستلزم فى عرضها فيذكر ان هذه هى اصول العلوم الفلسفية . وبعد ان اجملها فى أربعة علوم يعود فيذكر انها سبعة (١) ، ذلك لانه ذكر الفروع الاربعة لعلم التعاليم ، وقدم لها بالمنطق ، ثم ذكر بعدها الطبيعيات ثم الالهيات . ثم يذكر ان لكل علم من هذه العلوم فروعاً تنفرع عنه ، فمن فروع الطبيعيات الطب ، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات . ومن فروع الهيئة ، الارياض وهى قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها ، ومن فروع النظر فى النجوم علم الاحكام النجومية .

١ - والملاحظ على تصنيف ابن خلدون انه يميز أولاً بين الصنائع والعلوم . ويفهم من هذا التمييز لاول وهلة ، ان العلوم تنطوى على مباحث عقلية ، واما الصنائع فهي تطبيقات قد تستند الى هذه العلوم أولاً تستند اليها . ولكننا نراه بعد ان تكلم فى باب الصنائع عن الطب والفلاحة وغيرهما من جملة الصنائع التى اشار اليها ، نجده يعود فيدخل الطب والفلاحة أيضاً فى دائرة العلوم الطبيعية ، ويسمى بمبحث الطب باسم علم الطب دون ان يقدم لنا تمييزاً واضحاً بين صناعة الطب

وعلم الطب ، بل ان التعريفات التى يضعها فى كلامالموضعين تكاد تكون متطابقة ، وهكذا الامر فيما يختص بالفلاحة كصناعة او كعلم .

٢ - والامر الثانى انه ليس هناك تمييزاحاسما بين العلوم الشرعية النقلية ، والعلوم العقلية ، بل نجد تداخلا بين بعض اقسام هذه العلوم ، اذ نجد فى علم الفقه فرعاً يسميه باسم علم الفرائض ، اى حساب الوارث . والفقهانما يدخل تحت قسم العلوم النقلية ، ثم لا نلبث ان نراه يجعل علم الفرائض وعلم المعاملات من فروع علم الحساب ، اى من جملة علوم التعاليم .

٣ - كذلك نجد ابن خلدون لا يستوعبمباحث العلم الطبيعى باكملها ، وكذلك علم الهيئة وهو فرع من التعاليم ، اذ اننا نجده من الناحيةالاولى لا يشير الى البحث نفسه فى دائرة العلم الطبيعى كما فعل حكماء المشائين الاسلاميين ، ثم انه يفرّد القول فى مباحث علم الكيمياء ويجعله قسماً من اقسام العلوم السحرية وينكر عمره ، ويؤكد فساد هذا العلم وبطلانه . (٤١) ويشير الى اعظم من زاول هذه الصناعة من المسلمين وهو جابر بن حيان باّنه من السحرة الذين يضيفون الى المعادن الخصائص السحرية للاعداد ، ويتمكنون بذلك من تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب . وهو كذلك يدخل فى باب السحر صناعة النجوم اى اصدار احكام وتنبؤات كنتيجة للزم بان ثمة علاقة تربط النجوم والافلاك بالانسان ومصيره . (٤٢) وابن خلدون يبطل هذه الصناعة ولا يستبقى من علم الهيئة سوى رصد ودراسة حركات الكواكب والافلاك بطريقة علمية لا اثر فيها للسحر او التنجيم . وهو ما يسميه بعلم الهيئة العام ، (٤٣) واستكمالاً لوقف ابن خلدون من السحر والسحرة نجده يهاجم السحر والطلسمات لانهما من الامور التى لا يقبلها الشرع .

٤ - وفى دائرة العلوم المعدنية او علوم التعاليم نجده يفرق تفريقاً غير واضح بين الاريشماطيقا وصناعة الحساب (٤٤) . ويرجع هذا التمييزغير الواضح الى انه خلط علم الحساب المجرد ، اى علم العدد ، بصناعة الحساب ، اى بعلم العدد . وكذلك نجده فى دائرة العلوم الهندسية يخلط بين صناعة المساحة وهى علم تطبيقى ، والهندسة العامة وهى علم نظرى (٤٥) . ويميز بطريقة غير حاسمة بين ما يسميه بالهندسة العامة وهندسة الاشكال الكروية والمخروطات . ثم انه يجعل علم المناظر جزءاً من العلوم الهندسية التىهى فرع للتعاليم ، اى العلوم المدنية . والواقع

(٤١) القلمة ، ج ٤ ، ص ١١٨٦ .

(٤٢) القلمة ، ج ٤ ، ص ١٢٠٧ .

(٤٣) القلمة ، ج ٤ ، ص ١٠٠ - ص ١١٠١ .

(٤٤) القلمة ، ج ٤ ، ص ١٠٩١ - ص ١٠٩٤ .

(٤٥) القلمة ، ج ٤ ، ص ١٠٩٧ - ص ١١٠٠ .

ان علم المناظر ، اى البصريات ، هو اقرب الى العلم الطبيعى منه الى علوم التعاليم ، على الرغم من ان دراسة المناظر تحتاج الى معاونة علوم العدد والهندسة . وهذا يدل على عدم وضوح الفروق الدقيقة بين هذه العلوم عند ابن خلدون .

اساس التصنيف عند ابن خلدون :

يبدو لنا من خلال دراستنا لتصنيف العلوم عند ابن خلدون انه قد اقام هذا التصنيف على اساس موضوعي ، اى نظرة الى موضوعات العلوم . ولكنه خلط بين الفائدة العملية في بعض الصنائع والهدف النظرى لبعض العلوم . وعلى هذا فان اساس التصنيف لم يتمد التمييز بين علوم تبحث في موضوعات الشريعة ، وعلوم تبحث في موضوعات الفلسفة والحكمة بالمعنى العام . ولم يكن ابن خلدون في تقسيماته للعلوم واضحا كل الوضوح ، ولملأ بفروع العلوم كلها وجزئياتها مثل الفارابي ، مع ان ابن خلدون من كبار المتأخرين الذين التفت عندهم نهايات الفنون والعلوم الاسلامية في القرن الثامن الهجرى .



خاتمة

يتبين من هذه الدراسة لتصنيفات العلوم عند المسلمين والتي انصبت على زهاء خمسة قرون من القرن الثالث الى القرن الثامن الهجرى ، ان الفارابي كان رائدا في هذا المجال على الرغم من سبق جابر بن حيان وغيره من المصنفين والفلاسفة . وكان الفارابي مدركا لاهمية تصنيف العلوم وصلة هذا التصنيف بالمنهج العلمى ، لان هذا البحث انما يندرج في منطق العلوم ولا يمكن لباحث ان ينفذ بفكره في علوم العصر دون ان تكون لديه فكرة تكاملية من الترابط الوجود بين هذه العلوم واشتقاقها بعضها من البعض الآخر على النحو الذى اتجه الفارابي .

ويلاحظ ان الفارابي حاول ان يرتفع بالعلوم الشرعية الى مستوى العلوم الفلسفية من حيث انه اراد ان يجعل من علم الفقه وعلم الكلام علمين عامين للملئ جميعا ، ولكنه لم يحالفه التوفيق ، في هذا الاتجاه ، فمالبت ان ربط مباحث العلوم العملية بالاخرويات ، اى بالدين ، وكذلك نجده يربط مباحث الالهيات بعلم التوحيد . . الخ .

وظلت تجربة الفارابي تسير قدما عبر التاريخ فتلقى الخوارزمي واخوان الصفا وابن سينا وغيرهم مما اشرفنا اليهم ، وقد ادلى كل منهم بدلوه في هذا المجال ، ولكنهم جميعا على الطريق الذى رسمه الفارابي ، ولكننا نجد ابن خلدون في نهاية المكان ، اى في القرن الثامن

الهجري ، وهو عصر الركود والانحلال والتأخر بالنسبة للعلم والحضارة الإسلامية بصفة عامة ، ولهذا غلبت على العصر روح الجمع وتدوين المصنفات الضخمة خوفا من ضياع التراث بعد هجمات التتار وغيرهم على بلاد الاسلام ، وهذا هو سبب حرص ابن خلدون على ان يضمّن مقدمته كل ما انتهى اليه وتوفر اليه من علوم العصر فأودعه في هذه المقدمة ضنا بهذا التراث ان يندثر في عصر القللام ، ولهذا جاء تمييزه للعلوم غير واضح تماما كما أشرنا ، كما نجد فيه تداخلا بين العلوم العقلية والعلوم العقلية ، مما يشوب التصنيف بالنقص والضعف . والأمير الثاني أنه اهتم اهتماما كبيرا بتدوين العلوم العقلية أي العلوم الشرعية وتوسع في تصنيفها ، وهو يذكر ان هذه العلوم كانت سوقها نافقة في بلاد المشرق وغير نافقة في بلاد المغرب على عصره ، اما العلوم العقلية فهي مجموعة علوم الفلسفة والحكمة ، فقد كانت رائجة ، على ما يقول ، عند الفرنجة في أوروبا ، وغير نافقة في بلاد المشرق .

والأمر الذي لا شك فيه ان ابن خلدون قد استفاد بدون شك من تجربة الفارابي في تصنيفه للعلوم ، وأضاف تصنيفا كاملا للعلوم الشرعية ، لأنها كانت مدار الاهتمام في عصره .



جغرافية المدن عند العرب

توصف الجغرافية العربية بأنها - في معظمها - دراسات وصفية تسمير وفقا للمنهج الاقليمي ، ولكن هذا لا يعنى ان الاهتمام بالظواهر الجغرافية داخل الاقاليم يأتى على قدم المساواة ، اذ تحظى المدن - كاهم ظواهر الاقليم - بمناطة كبيرة ، بل لقد بلغ من مناية العرب بدراسة المدن ان اصبح من المقرر القول بان الجغرافية العربية جغرافية مدن بقدر ما هي جغرافية اقليمية .

ويمكن ان نشين مدى عناية العرب بجغرافية المدن من خلال استعراض الكتابات الجغرافية وبيان نصيب المدن منها ، وكذلك عرض الكتابات المنفردة والمفصلة الخاصة بالمدين، وهذا ما سنعرض له في هذا المقال حيث سنتناول الدراسة الخارجية للمدن من خلال كتب التريوج ، والجدول الجغرافية ، وكتب المسالك والممالك ، والمعاجم الجغرافية ،

والموسوعات ، وكتب الجغرافية الادارية واخير الخرائط العربية ، والدراسة الداخلية للمدن من خلال كتب الخطط ، والرحلات الجغرافية ، وتواريخ المدن ، وكتب الحضارة والعمران ، مع العناية بما سطره ابن خلدون في هذا المجال .

دراسة المدن من الخارج

تمثل دراسة المدن كظاهرة جغرافية واضحة في اقاليمها من استعراض التصانيف الجغرافية وتحديد نصيب المدن فيها بوجه عام ، مع التمثيل بمدن الدلتا حتى يصبح مثل هذا العرض داخلا ضمن التعريف بمصادر الدراسة وتحليلها .

١ - كتب الزيج والجدول الجغرافية :

اذا كانت هذه الكتابات عبارة عن جداول مقسمة وفقا للتقسيم السباعي للاقاليم فانه في داخل كل اقليم ياتي ذكر اهم الظاهرات الجغرافية فيه ومنها المدن ، حيث تحدد اطوالها وعروضها كما في صورة الارض للخوازمي الذي اقتصر على المدن الساحلية للدلتا لاعتماده على خريطة بطليموس التي نقلها الى العربية وحقق ماورد فيها .

اما البيروني فقد سار بهذا الفن خطوة جديدة فحقق اطوال المدن وعروضها بما يقترب كثيرا من الحقيقة ، ثم اهتم بتبعية المدن للممالك والنواحي وذكر صفات المدن وما تشتهر به . (١)

ويأتي بعد البيروني من يقتفى اثره ، ويعتمد عليه ، فيتوج هذا النمط من التأليف بجدول جغرافية معتمدا على الكتابات السابقة ، وخاصة ما كتبه ابن سعيد ، ومن ثم فقد قسم ((ابو الفدا)) « تقويم البلدان » الى جداول شملت العالم الاسلامي ، وادخل في هذه الجداول معلومات عن جغرافية المدن بذكر الاسم وضبطه وتحديد الاقليم الحقيقي (من الاقاليم السبعة) والاقليم العرفي (الواقعة فيه المدينة سياسيا واداريا) ثم ذكر خطوط الطول والعرض ، واخيرا الاوصاف العامة للمدينة التي تتضمن المعلومات التاريخية والجغرافية . وقد احصى في مصر ٢٨ مدينة ، فضلا عما كتب من مقدمات عن مصر تسبق الجداول .

٢ - كتب المسالك والممالك :

- تمثل هذه الكتابات صلب الجغرافية العربية ، ومنذ بداية الكتابة وفقا لهذا النمط من التأليف الجغرافي نجد الاهتمام بالمدن على نحو ما هو واضح عند اليعقوبي وابن رسته ، ولقد بلغ من اهتمام الجغرافيين العرب بالمدن في دراستهم ان عاب المقدسي على سابقيه التقصير في هذا الجانب ، وعد اهتمامه بالمدن من اهم ما ميز كتاباته الجغرافية فيقول عن الجيهازي انه

(١) كمثل تنيس : في الاقليم الثالث - جزيرة في بحيرة العسب (مصب النيل) . يعمل فيها الثياب البياض ، واما من حيث موقعها الجغرافي فهي من الجزائر ..

لم يصف المدن ولا استوعب ذكرها بل غفل عن ذلك ، وأما **البخى** فإنه ترك الكثير من أمهات المدن فلم يذكرها ، في حين انتقد **ابن الفقيه** باقتصاره على ذكر المدن العظمى .

— أما **الإصطخرى** عند دراسته لكل إقليم ، فإنه يولى اهتماما بالمدن الكبرى وأهميتها ، بل لمل المدن هي أكثر ما يعنى به الإصطخرى ، فهو يذكر المدينة وموقعها وما فيها وآثارها والطرق التي تربطها بما حولها ، ويوقع هذه المدن على خرائطه .

— وأين **حوقل** الذي استقصى كتاب الإصطخرى يضيف عليه زيادات كبيرة هامة بفضل زيارته على نحو ما فصل القول عن مدن الدلتا وقراها وما ضمنته خريطته من تفاصيل لم تذكر عند غيره ، بل استغنى بها عن كتابة المادة العلمية في كتابه .

— و**القندسى** الذي انتقد سابقه بإخباراته قد طول كتابه بوصف المدن بما كتبه من مشاهدة ورؤية خلال رحلاته ، كما كانت له خرائطه التي وقع عليها المدن .

— و**الهلبي** وإن كان كتابه « العزيزى » لم يصل إلينا ، فإن النقول الواردة عند « ياقوت » « إوابو الغدا » عنه تدل على مدى اهتمامه بالمدن المصرية والمسافات بينها مع الوصف التفصيلي للمدن .

— و**البكرى** — الجغرافى الأندلسى — يهتم بالمدن فيذكر أسواقها وحماماتها ومساجدها وصناعاتها ، وبالنسبة للمدن التاريخية يهتم بالبرابى والآثار . وعلى الرغم من عدم زيارته لمصر إلا أنه قد نقل من الرحالة والحجاج أحوال مدن الدلتا بتفصيل لا يتوافر عند غيره أحيانا .

— وأما **الأندلسى** الذى اعتمد على التقسيم السبائى للعالم فقد اهتم في داخل كل إقليم بالمدن والحصون ، وكتب عنها بمقدار ما جمع من مادة علمية وما شاهده وما نقل إليه ممن أرسلهم إلى مختلف النواحي والممالك ، ثم صور ذلك كله على الكرة الجسمة ثم خريطته المشهورة .

— ثم يأتي « أبو سعيد الفري » في « بسط الأرض » بما يمكن وصفه بأنه جداول للعدن وغيرها من الاعلام الجغرافية محددة الأطوال والعروض بدقة . ويهتم في مصر بالمدن الحادثة (المنصورة) والمتدهورة (الفرما) .

٣ — المعاجم الجغرافية :

الكثرة الغالبة من الاعلام الجغرافية الواردة في المعاجم الجغرافية خاصة بالعمران . وخير مثال ما كتبه **ياقوت الحموى** من رؤية ومشاهدة ، وما جمعه من مصادر سابقة لم تصل إلينا . وقد اهتم ب ضبط الاسماء وبيان اشتقاقها ومعناها وتحديد اقليمها ويذكر المدن الحادثة ، وتاريخ فتح المدن في الاسلام وما اشتهرت به . وقد جمع في كتابه « المشترك » بين عمله في المعجم والاهتمام بدلالات الاسماء المشتركة بين المدن .

٤ - الموسوعات (الجمهرات) :

هذا الطراز المصري قد حظى في وضعه علماء وعمال دولة المماليك في القرن الثامن الهجري ، وكان للجغرافية مكانة مرموقة فيها ، وخاصة المدن وأحوالها ، والتقسيمات الادارية وتطورها . وقد بدأت سلسلة الجمهرات بمكتبة **الوطواط الوراق** (٧١٨ هـ) **فالتوري** ، ثم **ابن فضل الله العمري** ، وأخيرا **القنقشني** . وقد أضاف كل منهم عن المدن المصرية معلومات تمثل عصره فضلا عن دراسات تاريخيه متطورة عن المدن .

٥ - كتب الجغرافية الادارية :

وهي وإن كانت تجعل التقسيم الإداري وتطوره عبر التاريخ أساسها - وهذا جانب له أهمية كبيرة في دراسة المدن وخاصة الادارية - إلا أنها تتضمن معلومات هامة عن المدن عامة ومن أمثلة هذه الكتابات المصرية «قوانين الدواوين» «**الابن مغازي**» ، «**ولع القوانين**» «**لنابلس**» ، والتعريف «**لابن فضل الله العمري**» ، وزبدة كشف الممالك «**للغازي**» ، والتحفة السنية «**لابن الجيمان**» .

٦ - الخرائط العربية والمدن :

اهتم العرب بتوقيع المدن على الخرائط ، واستخدموا - أحيانا - رموزا تدل على سمات أو وظائفها . واحتاج كتلتها السكنية ، على نحوها هو مشاهد في خرائط مصر للأسطوخري والمقدسي والادريسي ، وتعتبر خريطة ابن حوقل للدلتا أكثر الخرائط العربية شمولاً للمدن والبلدان في عصره ، حتى لقد استغنى بهذه الخريطة عن ذكر العديد من التفاصيل عن هذه المدن والقرى في كتابه .

والى جانب اهتمام العرب بتوقيع المدن تضمنت كتاباتهم الجغرافية خرائط تفصيلية للمدن - إذا جازت هذه التسمية - وتبرز هذه الصور أحياء المدن وأرياضها وما هو في ظاهرها من ظواهر طبيعية وبشرية كالجبال والقرى ، ويمكن الرجوع الى معجم ياقوت وكتاب القزويني (٢) وتاريخ المستبصر لابن الجاور (٣) حيث تضمنت هذه الكتب خرائط لامهات المدن العربية والإسلامية وغيرها .

هذا وقد عرفت مصر مجسمات المدن على نحو ما أقام المعلم حسن ابن الصياد المهندس حين خط السلطان الفوري سنة ٩١٦ هـ بالجسر في الأرض مدينة الاسكندرية وعدد أبراجها وإيوانها وهيئة صورها والمنازة التي كانت بها وقد عرضها وطولها ، ولعل ذلك كان لأغراض عسكرية حيث يذكر ابن أبياس (٤) أن ذلك تم بعد عبث الفرنج بالسواحل المصرية ، مما دفع

(٢) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٣٤ ، ٦٠٤ خريطة مدينة قزوين ومدينة الاسطوخينية .

(٣) ابن الجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبغداد الحجاز ... تحقيق وغضب أوسكر لوفرين . - فيدس ١٩٥٤ .

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٤ : ص ١٩٦ .

السلطان للتفكير في الذهاب الى ثغر الاسكندرية بنفسه ليتفقدته فحال « أتاك المسكر » دون ذلك وذهب نيابة عنه ، وفي أعقاب ذلك نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو المطربة لمشاهدة هذا الجسم .

دراسة المدن من الداخل

بالإضافة الى الكتابات الجغرافية السابقة هناك كتابات جغرافية كثيرة تركت على تفاصيل المدن من الداخل ، مثل كتب الخطط والرحلات الجغرافية وما افرد المدن من كتابات مستقلة ، وما افرد به ابن خلدون من معالجة للمدن كظواهرات جغرافية .

١ - الخطط : كتب الوصف الطبوغرافي

هذا الفن من فنون التاريخ للمدن قديم ابتدعه وسما به المصريون كفن مستقل بذاته فكان لهم الفضل في ابتكاره اولاً ثم تقدمه وازدهاره ثانياً ، حتى غدت آثاره تكون وحدها بيتنا حافلاً في تراثنا التاريخي (٥)

وقد تتابعت الكتابة من الخطط في مصر منذ النصف الثاني من القرن الثالث بما كتبه ابن عبد الحكم ثم الكندي وابن زولاق والمسيحي ثم القضاعي والنحوي والجواني ثم ابو صالح الاعمى وابن عبد الظاهر وابن المتوج وابن دقماق والاحمدى ، واخير ياقى المقرئ في القرن التاسع الهجري ليمثل قمة هذا الفن من حيث الشمول والاستيعاب والحصر مع الدراسة التطورية على مدى القرون السابقة حتى عصره ، وقد جمع في دراسته المدن بين المدرسة والقائمة والحادثة .

٢ - الرحلات الجغرافية :

كانت في معظمها صوراً لحياة المدن كما رآها الرحالة ، وهي تضيف تفصيلات قيمة عن المدن حيث يستلفت نظر الرحالة ما يخالف ما ألفه في بلاده ، ومن ثم يسجل ما لا يسجله الجغرافي المقيم في هذه البلاد . وبالنسبة للمدن الدلتا نجد عند ناصر خسرو تفصيلات عن مدينة تنيس كما رآها في منتصف القرن الخامس الهجري . وأما ابن جبير الذي اقام في مصر نحو اربعة اشهر في الربع الاخير من القرن السادس فقد استوفى عند ذكر المدن الاشارة الى مرافقها من اسوار وقلاع ومساجد واسواق وشوارع ومنازل وابواب ومقايظ واهرها من ارياض وضواحي . (٦)

وقد تزار عبد الطيف البغدادي مصر - في اواخر القرن السادس - ابان حدوث اشهر الجاعات التي مرت بمصر فحدد آثارها على المدن وسكانها ، ثم افرد لابنية مصر فصلاً بقيمته . وأما رحلة العبدري سنة ٦٨٨ هـ فقد عالجت المظهر الحضاري لبعض المدن بالدلتا . واخيراً

(٥) محمد عبد الله منان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢ / ٥ .

(٦) حسين نصار : رحلة ابن جبير ص ٥٤٢ بمجلة تراث الانسانية المجلد الاول .

نجد ابن بطوطة في « تحفة النظار » حين يصل الى مصر ويتجول في مدن الدلتا يصور لنا دمياط الجديدة ، ويعطى تفاصيل دقيقة عنها .

٢ - تواريخ المدن : (٧)

يرى جويدي ان اساليب الابتداء في علم الجغرافيا عند العرب واليونان متشابهة ، فان اول ما اشتغل به علماء اليونان من هذا العلم اخبار المدن كاثينا فجعلوا لكل مدينة من مدنها التي ملكوها وحلوا فيها تاريخا ، وهم في هذا لامة العربية حيث نجد اهتماما كبيرا بالمدن . (٨)

هذا وقد ألف العرب كتباً خاصة بالكثير من المدن - غير اننا لا نعرف شيئاً عن اكثرها - ويمكن القول « بأنه قلما نجد مدينة من المدن العربية دون ان يؤلف لها تاريخ خاص بها ، وهذا النوع من التاريخ يمكن ان ندخله ضمن الجغرافيا التاريخية » . (٩)

ومن هذه التواريخ ماهو خاص بالمدن الدينية كمكة والمدينة ، ومنها ما افرد لعواصم الخلافة الاسلامية كدمشق وبغداد ، ومنها ما اختص بالامصار العظمى في الاسلام كالبحر الكوفة والفسطاط والقروان وواسط بغداد وسامراء ، وفوق هذا نجد تاريخاً لامهات المدن الاسلامية في المشرق كبخارى واصفهان ، ولولامل هذه الكتابات لما وصل اليها علم عن حياة المدن في وسط آسيا ، ليس فقط في العصر الاسلامي ، بل وفي زمن الساسانيين . (١٠)

أما نصيب مدن مصر من تواريخ المدن فنجد عند ابن دقماق الذي انتصر للفسطاط كواسطة لمعد الامصار ، واما الفريزي فقد خص القاهرة المعزية بمعظم كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وهناك تاريخ الاسكندرية وتاريخ دمياط وتاريخ الفيوم وبلاد للنبلسي ، وانيس الجليسي في اخبار تنيس لابن بسام التنيسي ، والطالع السعيد للادفوي عن مدن الصعيد الاملى .

٤ - كتب الحضارة والعمران :

تبحث هذه الكتب في مدينة العرب وحضارة الاسلام ، ويأتي في مقدمة هذه الكتابات في مجال دراسة المدينة ابن خلدون بما تضمنته من تفاصيل عن خصائص مواقع ومواقع المدن وعوامل نمو المدن او تدهورها ، وما وضعه من أسس لتصنيف المدن .



(٧) مزيد من التفاصيل عن تواريخ المدن انظر مقدمة ذيل تاريخ مدينة السلام بن النديم . بغداد ١٩٧٤ .

(٨) جويدي : معاصرات ادبيات الجغرافيا والتاريخ للغة عند العرب ص ٥ . مجلة الجامعة المصرية ١٩٠٨ / ١٩٠٩ .

(٩) ناجي معروف : هروبة المدن الاسلامية ص / ٩ . الطبعة الاولى . بغداد ١٩٦٤ .

(١٠) احمد زكي الوائلي : الاسلام والعلوم الجغرافية ص ٦٥ مجلة المعرفة . المجلد الثالث .

دراسات ابن خلدون عن المدن :

أولاً - هيئة المكان أو خصائص الموقع والموضع ونشأة المدن :

- إذا كانت الخطوة الأولى في دراسة أى مدينة هى تحديد خصائص المكان (الموقع والموضع) بكل دقة ، فإن ابن خلدون قد اهتم بذلك واطلق على مائمه بخصائص المكان أو هيئة الأرض ، **الموضع الطبيعي للمدن** (١١) سواء في ذلك السمات الطبيعية أو البشرية . وقد خصص ابن خلدون لذلك فصلاً عنوانه « ما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراجعة » ، ولما كانت المدن للقرار والمأوى ، وجب ان يراعى فيها دفع المضارب بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع ، وتسهيل المرافق لها (١٢) ثم حدد تحت هذا العنوان من خصائص المكان ما يلى :

الحماية الطبيعية بأن يكون موضع المدينة في متمنع من الامكنة ، اما على هضبة متورة في الجبل ، واما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة ، فيصعب منالها على العدو ، ويتضاعف امتناعها وحصنها . (١٣)

الحماية البشرية المكلمة للحماية الطبيعية وتمثل في أن يدار على منازل المدينة جميعا سياج الأسوار (١٤) الذى يدفع العدوان الخارجى عند الغفلة أو الاغارة ليلاً أو العجز عن المقاومة نهاراً ، أو يدفعه جنود الحماية من احوال الدولة عند الاستعداد والمقاومة . (١٥)

وبالإضافة الى أهمية الاسوار لتحقيق الحماية للمدن يرى ابن خلدون أن المدن الساحلية تحتاج - اذا لم تكن في موقع جبلى - الى ظهر بشرى موفور العدد يكون صريحاً للمدينة متى طارقها من العدو ، والسبب في ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية ، ولا موضعها متور في الجبل كانت في غرة اللببات وسهل طروقها من الاساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها ، لما يامن من عدم وجود الصرينج لها،

(١١) ابن خلدون : القدمة ص ٩٧٥ ، ٩٧٦ .

(١٢) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٢ .

(١٣) ابن خلدون : نفس المرجع ونفس المكان .

(١٤) ابن خلدون : نفس المرجع ونفس المكان .

(١٥) ابن خلدون : القدمة ص ٥٩٢ ، وقد ظل ابن خلدون قيام الاسوار وأهميتها يقول : والسبب في ذلك ان أهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة واللبعة ، وانفسوا في التعميم والترف ، ووكلوا امرهم في الدافعة من احوالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم واستنابوا الى الاسوار التى تحوطهم والعزى الذى يحول دونهم .. انظر ص ٥٨٨ .

وان الحضرة التوعدين للدمة قد صاروا عيسالا وخرجوا عن حكم المقالة وهذه الاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب . (١٦)

مواد المياه : ادخلها ابن خلدون ضمن جلب المنافع للمدن ، وذلك بان تكون المدينة على نهر او بئرها عيون عذبة لثة ، فان وجود الماء قريبا من المدينة يسهل على السكان وفرة الماء وهى ضرورية ، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة . (١٧)

الظهير : (اقليم المدينة) قد عدد فيه ابن خلدون عدة مظاهر طبيعية :

(١) **النظام الزراعى** فان الزروع هى الاقوات ، فاذا كانت مزارع المدينة بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله .

(ب) **توافر المراضى** : ما يراعى من المرافق في المدن طيب المراضى لسائمهم اذ ان صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للتناج والضرع والركوب ، ولا بد لها من المرمى ، فاذا كان قريبا كان ذلك ارقق بحالهم ، لما يعانون من المشقة في بعده .

(ج) **توافر النباتات الطبيعية** : ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فان الحطب مما تمع البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاح والطبخ . والخشب ايضا ضرورى لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم . (١٨)

الموقع : اشار ابن خلدون الى اهمية الموقع الساحلى واعتبره مما يراعى عند قيام المدن ، ذلك ان قربها من البحر يسهل حاجاتهم القاصية من البلاد النائية ، وان كانت هذه الميزة - كمنفعة للمدينة - ليست بمشابة المميزات السابقة كما يقول . (١٩)

المنافع : وهو مما يراعى حماية المدن ، ذلك ان طيب الهواء شرط للسلامة من الامراض ، والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثرة في الغالب ، وقد اشتهرت بذلك مدينة قابس بالمغرب ، اما الرياح فقد اهتم بها في المدن لانهما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات ، في حين ان الظن بالبادية يجعل الهواء طيبا . (٢٠)

(١٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٥ / ١٩٧٦ ، وتصديقا لقوله عن الاسكندرية تعرضها سنة ٨٢٢ هـ الى هجوم خمسة مراكب للفرنج ، ومبادرة عبد القادر بن ابراهيم الفرنج الاستاداد الى جمع عرب البحيرة وادخالهم الاسكندرية حتى قويت بهم نفوس اهل الثغر ونكس الفرنج على اقبابهم بعد ان جرح منهم جماعة .. انظر ابن حجر العسقلاني : ابناء الفجر ج ٣ : ص ٢٢٠ وكانت الاسكندرية قد استبيحت من قبل على يد القباصة سنة ٧٩٧ هـ بل وترغمت لهجمات العربان عند فرار اهلها امام الفرنج .

(١٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٤ .

(١٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٤ / ٩٦٥ .

(١٩) ابن خلدون : نفس المرجع السابق ص ١٩٧٥ .

(٢٠) ابن خلدون : المرجع السابق . ص ٩٧٥ / ٩٩٢ .

الظروف الصحية : ذلك ان مجاورة المدن للمياه الفاسدة ، او المناقع المتعفنة او المروج الخبيثة مما يؤدي الى سرعة التعفن وسرعة حدوث المرض للحيوان الكائن فيها لا محالة . (٢١)

وبعد ان عالج ابن خلدون هيئة المكان أشار الى تفاوت المدن بمدى توافر هذه الخصائص أو عدمها ، فانه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورفاهته من حيث العمران الطبيعى .

وقد انتقل ابن خلدون بعد ذلك الى الجانب التطبيقي وما يحدث عندما يكون الوضع للمدن غافلا عن حسن الاختيار الطبيعى بما اشترط في المكان من خصائص طبيعية وبشرية .

ويضرب المثل بالعرب عندما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعى ابلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الظن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم ، فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيضمرها الناس . فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سباجا لها اتى عليها الخراب والانحلال كان لم يكن . (٢٢)

وعلى الرغم من وضوح التعليل السابق فان ابن خلدون لم يقطع به كسبب اوحده في تفسير ظاهرة ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل ، بل وضع اسبابا اخرى منها :

— شأن البداوة والبعد عن الصنائع عند العرب ، ومن ثم فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها . (٢٣)

— وايضا فان العرب كانوا أجنبيا عن الممالك التي استولوا عليها قبل الاسلام ، ولما تملكوها لم ينفصح الأمد حتى تستولى رسوم الحضارة ، مع انهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم احيانا .

— وايضا فكان الدين اول الأمر مانعا من المغالاة في البنيان والاسراف فيه . (٢٤)

— وايضا فقد يكون الواضع للمدن غافلا عن حسن الاختيار الطبيعى لانه انما يراعى في المدن التي اختطها الاهم عنده من مراعى ابل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح ، ولم

(٢١) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(٢٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩٢ .

(٢٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩١ .

(٢٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩١ .

يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف وهذا ما حدث في القبروان والكوفة والبصرة ولهذا خربت لعدم مراعاة الامور الطبيعية . (٢٥)

ومن الواضح ان ابن خلدون انما يعالج هنا نمطا واحدا من انماط المدن العربية وهى المدن الحربية التى تقوم لسد متطلبات الوظيفة ، ومثل هذه المدن فى الغالب هامشية وليس لها ظهر طبيعى او بشرى يكفل لها الحياة الطبيعية للمدن حين تزول اسباب النشأة الاولى .

ثانيا - النمو : عوامل نمو المدن وازدهارها وعوامل تندهورها وخرابها :

يقرر ابن خلدون ان اختطاط المنازل من منازل الحضارة (٢٦) " وذلك ان الحضارة انما هى تغنى فى الترف واحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والمباني والابنية وسائر عوائد المنزل واحواله ، (٢٧) ويلاحظ ان المباني القائمة فى المدن لا تكون كلها خاصة بالافراد ، بل ان قسما منها يكون من المرافق العامة التى يشترك فيها ويستفيد منها جميع السكان .

وطبيعى ان هذه المرافق تحتاج الى رعاية الدولة . ولذلك يقول ابن خلدون « لا يسد فى تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك » . (٢٨)

هذا ويربط ابن خلدون - عند عرضه لاطوار الدولة المختلفة - بين رفاهية الدولة حين تصل الى طور الفراغ والدمية وبين تحصيلها بثمرات الملك ، ومن ذلك تشييد المباني الحافلة والمصانع (المباني) العظيمة والامصار المتسعة والهيكل المرتفعة ، وذلك بفضل ما تحصله من اموال عن طريق ضبط الدخل العام . (٢٩)

ومن ثم يقرر ابن خلدون ان مباني الدولة تكون على نسبة قوة الدولة فى اصلها . (٣٠) وهو فى هذا يضيف عاملا هاما فى ازدهار العمران الحضري نجد مصداقا له فيما شهدته مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون .

ولا يقتصر دور الدولة على زيادة معدل نمو وازدهار المدن القائمة ، بل تستحدث مدنا جديدة وخاصة زمن الفتوحات الكبيرة لها ، فانها تكون فى حاجة الى استحداث بعض المدن والتفكير لايواء حمايتها وحماية حدودها الجديدة من غارات الدول المجاورة لها (٣١)

(٢٥) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٥ .

(٢٦) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٥ .

(٢٧) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٥٨ .

(٢٨) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٦ .

(٢٩) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٦٤ .

(٣٠) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٦٦ .

(٣١) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٨ .

ويمكن تطبيق قوله هذا على الفتوحات الإسلامية الأولى وما تلاها من إقامة أمصار جديدة وسلسلة من الثغور البرية والبحرية على طول الحدود .

وكما ربط ابن خلدون بين رقي الدول وما يطرأ على المدن من ازدهار ونمو تبعاً لذلك فقد ربط أيضاً بين اضطراب أحوال الدول في أواخر أيامها وما تتعرض له المدن من تدهور وخراب ، وذلك لما يحدث في مثل هذه الفترات من أحداث ترتبط بطبيعة هذه المرحلة من حياة الدول .

وقد استقى ابن خلدون شواهدة على ذلك من أحداث عصره وعلى نحو ما هو مقرر في تاريخ الدول المتعاقبة ، وتمثل هذه العوامل والمظاهر فيما يلي : عندما يفسد النظام الاقتصادي للدولة يضطرها ذلك إلى اتخاذ إجراءات اقتصادية قد تؤدي إلى تدهور المدن ، ومن هذه الإجراءات مثلاً ، فرض الضرائب أو المكوس وزيادة زيادة بالغة فتكسب الأسواق ويؤذن ذلك باختلال العمران ، فيؤثر على الدولة ، إذ لا يزال ذلك بتزايد إلى أن تضمحل ، (٢٢)

وأما ما يصاحب هذا التدهور الاقتصادي في الدولة فهو بطبيعة الحال ما تكرر حدوثه في مصر من تعرضها للمجاعات والأوبئة ، وانضافرت مع هذا كثرة الفتنة لاختلال نظام الدولة السياسي (٢٣) مثل قيام العربان بنهب المدن مع قلة المدافعين عنها (٢٤) . وهكذا يربط ابن خلدون بين الاقتصاد المستقر والاستقرار السياسي ، ويؤكد ارتباط التدهور الاقتصادي بالتدهور السياسي في أواخر الدولة ، ويسبر بوضوح أثر ذلك كله على تدهور المدن وخرابها .

وعلى نحو ما فصل ابن خلدون عوامل ازدهار العواصم والأمصار بالنسبة للدول الحادثة تعرض عند ذكر تدهور المدن وخرابها لأحوال هذه المدن معلاً ذلك ومبيناً الاحتمالات التي تطرأ عليها بعد زوال الدول . وينطلق ابن خلدون في ذلك من قاعدة أساسية هي أن عصر العاصمة هو عمر الدولة التي شيدتها .

ومن ثم فمع امتداد عمر الدولة تشاد المباني وتعمد وتنسج الأسواق وتزداد رقعة المدينة كما وقع في بغداد حتى لم تصبح مدينة واحدة يجمعها سور ، وكما هو حال مصر والقاهرة في أيامه . (٣٥)

أما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فتتغير الأمور تماماً ، إذ لضرب العاصمة (كرسى الملك) بخراب الدولة وانقراضها على نحو ما حدث للمصر والقطائع في مصر . وقد ينقص العمران تدريجياً حتى تنتهي المدينة إلى خراب . ويطل ذلك بفقدان العاصمة لوظيفتها السياسية وما يتبع ذلك من خروج الكثير من سكانها أصحاب الوظائف العامة التي لا توجد

(٢٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٤٠ / ٨٤١ .

(٢٣) ابن خلدون : المقدمة : ص ٨٨٠ .

(٢٤) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٢٢ .

(٢٥) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٦ .

الا في العاصمة ، وقلة الاهتمام بها ، فضلا عما قد ينظر الى سكانها من أنهم اشباع الدولة السالفة ، بل قد تنقل الدولة الجديدة سكان العاصمة القديمة لتضمن سيطرتها عليها .

ولم يقتصر ابن خلدون على معالجة تدهور العواصم على النحو السابق ، بل يعطى تصورا آخر حيث تنف الظروف البشرية من وراء بقاء العواصم على حالها ، وذلك اذا ما بقيت كرسيا للدولة الجديدة واستغنت الدولة بها عن اختطاط عاصمة جديدة على نحو ما حدث للقاهرة وفاس . (٣٦)

وهناك سبب آخر يحفظ للمدينة بقاءها وعدم تدهورها وهو أن تكون قد أقيمت حيث وضعها الطبيعي (ما اشترطه من قبل عند اختطاط المدن) ومن ثم يكون للمدينة ظهور بشري في ضواحيها وما قاربها في الجبال والسهول من بادية تمتد بالسكان ، فيكون ذلك حافظا لوجودها وبثائها كما هو الحال بفاس وجاية من المغرب . والسبب في ذلك هو ما يقرره ابن خلدون من تحول سكان الريف والبادية الى سكنى المدن (ظاهرة الخروج الريفي) . واما اذا لم يتوفر للمدن (الامصار) مثل هذه الظروف البشرية فان انقراض الدولة يؤدي الى تناقص العمران وتشتت السكان ومن ثم خرابها ، ومثال ذلك القسطنطينية والكوفة والقيروان والمهديّة وقلعة بنى حماد . (٣٧)

والد لخص ابن خلدون عملية الهرم في المدن بالتناقص عمرانها وقلة ساكنيها - أى انه علاج السكن والسكان في المدن ورب على ذلك مظاهر منها :

١ - **التناقص الصناعي :** ذلك أن الصنائع إنما تستجد وتكثر اذا كثر طلبوها ، فإذا ضعفت احوال المدن واخلت في الهرم يتناقص فيها الترف ، ويرجع سكانها الى الإقتصار على الضروري ، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف (السلع الترفيحية او الكمالية) ومن ثم يهاجر اصحاب هذه الحرف الى غيرها من المدن ، وهكذا تظل الصنائع في التناقص ما زالت المدينة في التناقص الى أن تضحل . (٣٨)

٢ - أن تراجع عمران المدن لا يظهر في تقلص مساحتها ، وتناقص سكانها فقط بل يظهر في تغير نمط المباني ومادة بنائها ، ذلك أن المدن العامرة تكثر فيها المباني المشيدة بالحجر والجير والتمقة بشتى اساليب التنميق ، فاذا تراجع عمرانها وخف ساكنها وقلت الصنائع كان من جملة ذلك عدم الاجادة في البناء واستخدام الطوب بدلا من الحجارة ، والقصور من التنميق فيعود بناء المدينة مثل بناء القرية والمدن وتظهر عليها سيما البداوة ، وفوق هذا فان مع قلة

(٣٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦٧ .

(٣٧) ابن خلدون : لتراجع السابق ص ٩٦٦ / ٩٦٧ .

(٣٨) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٦٢ / ١٠٦٣ .

السكان وهجر المساكن وعدم القدرة على جلب مواد البناء الجديدة بدفع سكان المدن المتدهورة إلى استخدام أحجار البناء القديمة ونقلها من الدون القديمة إلى الحادثة . (٣٩)

ومثل هذه الدورة في المباني قد رآها الفسفاط والقاهرة في مراحل من تدهور الأولى وخراب ظواهر الثانية مع المجاعات والأوبئة على نحو ما فصل القريزى (٤٠) ولعله تأثر بأفكار ابن خلدون ، فهو استأذه حين خلص إلى مثل هذه النتائج وطبقها على المدينتين .

ثالثاً : تصنيف المدن عند ابن خلدون :

لم يكن ابن خلدون أول جغرافي رأى تصنيف المدن ، فقد سبقه آخرون منهم المقدسي الذي صنف المدن على أساس الوظيفة الإدارية والسياسية ، ويميل بذلك بين ثلاثة أنواع من المدن هي :

١ - **الإمصار** : وقصد بها العواصم ، وهي المدن التي يطها السلطان ويجتمع فيها الدواوين (الوزارات) وتقلد منها الأعمال (الوظائف العامة) وتضاف إليها مدن الأقاليم ، مثل الفسفاط في مصر في عصره ، وشبهها بالمولك .

٢ - **القصبات** : هو عواصم الأقاليم ... وشبهها بالحجاب .

٣ - **المدن أو المداين** : وهي ما يلي القصبية في الأقليم من مدن أخرى غير عاصمتها وشبهها بالجند . (٤١)

وهكذا نجد أن المقدسي قد حدد بذلك نوعاً واحداً من المدن وهي ذات الوظيفة الإدارية ، وأن اخل في اعتباره - ضمناً - اتساع رقعة المدينة وحجمها .

أما ابن خلدون فقد رأى اتساع كتلة المدينة ، وقصد بذلك مدى اتساع العمران بالمدينة واكتمال مرافق المدن بها ، وتنوع هذه المرافق واحتواء المدينة على الكثير من مظاهر التحضر والترف ممثلة في تعدد الصناعات بها . وعلى هذا الأساس صنف المدن فمناها :

✽ المدن الإمصار المستبحرة في العمارة .

✽ والمدن المتوسطة .

(٣٩) ابن خلدون : الرجوع السابق ص ٩٩٢ / ٩٩٣ .

(٤٠) القريزى : الخطب ج ٢ ص ١٠٨ / ١٣٢ .

(٤١) المقدسي : ص ٤٧ ، معبد محمود الصياد ، الفكر الجغرافي العربي وتطوره ص ١٢٧ مجلة الثقافة العربية ١٩٧٥ .

فاما المدن المستبجرة في العمارة فاتها بحكم اتساعها الكبير تختص بكل الصنائع ، بل تتدأى الصنائع فيها سواء الصنائع الضرورية او الكمالية الترفيحية ، وبقدر ما تزيد عوائل الحضارة تستحدث الصنائع وهذا من خصائص الامصار، وقد حدد من المظاهر المميزة للمدن المستبجرة الحمامات (٤٢) لأنها انما توجد في الامصار دون المدن المتوسطة ، كما حدد أيضا ان الصنائع في الامصار كاملة ومتعددة ، اما في المدن المتوسطة فناقصة ومقتصرة على البسيط الضروري (٤٣).



التركيب الداخلي للمدينة العربية

١ - الخطة : (تخطيط المدينة)

بعد تخطيط المدن العربية من أهم الظواهر الحضارية والفنية عند العرب التي بدأت مع الفتح العربي يتمصر الامصار ، فصارت هذه المدن الحادثة في الاسلام من مظاهر الحضارة العربية . وعلى الرغم من ان هذه المراكز الحضرية كانت لها صفاتها الحربية عند تخطيطها الاول الا انها قد اشتملت على سمات حضارية تمكس تخطيط المدن عند العرب ، من ذلك تمصير البصرة على عهد عمر بن الخطاب ، فقد جعلت خططا (٤٤) للقبائل وجعل عرض شارعها الاعظم وهو مربدها ستين ذراعا (٣٢ مترا تقريبا) وجعلوا عرضها سواء من الشوارع عشرين ذراعا ، وعرض كل زائقي سبعة اذرع ، ثم جعلوا في وسط كل خطة رحبة (٤٥) فسيحة لرباط خيلهم وقبور موتاهم وتلاصقوا في المنازل . (٤٦)

اما الكوفة فقد خططت شوارعها بحيث كان عرضها عشرين ذراعا ، وطولها اربعين ذراعا ، والازقة عرضها تسعة اذرع ، والقناتع ستون ذراعا ، وبنوا المسجد الجامع في الوسط بحيث تتفرع الشوارع ، وهذا يدل على نفاذ سوق التخطيط في البناء حتى في هذا الزمن الاول (٤٧) للحضارة العربية .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠١٨ / ١٠١٩ .

(٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ١٠٥٧ / ١٠٥٨ .

(٤) الخطة : المكان المختط للعمارة والارضى يغطها الرجل ام تكن لاجد من قبله والجميع حُفَظَ وعندما بنى العرب مدينة السخايف جعلوها اخفايا اما القاهرة المعز فكانت حارات والحارة هي كل محلة دنت منازلها والمحلة منزل القوم بالحارة كالخيف جزء من مجموع ما بنى المدينة يغطيها الطرق ويوجد بها الارافق العامة ... انظر تعليقات محمد رمزي على النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٢ .

(٥) الرحبة : الاصلي في الرحبة الفناء ، وقل ان تكون مدينة ليس فيها محطة يقال لها الرحبة .. انظر ياقوت : المشترك ص ٢٠٣ .

(٦) ابن حبيب البغدادي : الاحكام السلطانية ص ١٧١ .

(٧) الكتاني : نظام الحكومة الثبوية المسمى بالترتيب الادارية ج ١ ص ٢٨٢ / ٢٨٣ دار احياء التراث العربي - بيروت - لبنان .

وإذا كان المبدأ القبلي قد روعى في تنظيم الجيش العربي زمن الفتوح الأولى فإن ذلك الأمر قد أخذ به في تخطيط المدن التي بناها العرب وكذلك ولنفس الحكمة وهي مراعاة الانسجام والتكاتف ومنعا للتفاخر أو التنافس ووقوع المصادمات في مثل هذه الظروف الحربية. ولهذا فقد خصصت الأحياء لسكنى القبائل ، ومن ثم كانت الأحياء تحمل أسماء القبائل ، والشوارع تحمل أسماء البيوت التي تسكن فيها . . . وهكذا يعطينا تخطيط مدينة **الكوفة** صورة عن أنساب العرب . ولم يكن الأمر في البصرة مختلفا عن هذا (٤٨) كما قد طبق المبدأ القبلي عند تخطيط مدينة الفسطاط وصارت ضواحي الفسطاط على هذا الأمر ، كما حدث في مدينة القطائع وأخيرا في القاهرة المعز ، كما تدل على ذلك أسماء الحارات التي تعكس طوائف الجند العرقية التي شاركت في الفتح الفاطمي لمصر .

ب - مواضع المدن :

المقصود بذلك الموقع المحلي الذي تحدد الظروف الطبيعية أن تقام فيه المدينة على نحو ما حدد ابن خلدون ، وهو أمر وقع به الاهتمام عند العرب وفقا لأغراض الاستقرار المدنى ، ولكن هناك مواصفات عامة ذكرت في مواضع المدن من ذلك ما قاله ابن قتيبة عند ذكر الأمصار .

قالت الحكماء : المدائن لا يبنى إلا على ثلاثة أشياء ، على الماء والتكلا والمحتطب . (٤٩) وفي موضع آخر ، وقالت الحكماء من الروم ، أصح مواضع البنيان أن يكون على تل أو كبس وثيق ليكون مطلا (٥٠) . ويقول ابن الفقيه في هذا المعنى وأصح البلاد ما كان على الجبال والأماكن التي تواجه مهب الصبا (الشمال) ، وما كان في قمور وأغوار ومواجهة لرياح الجنوب أو الدبور فهي مواضع ردية مولدة للأمراض (٥١) وأولى المواضع ببناء المدن والدور المشرف من الأرض ليشرف على ما حولها . (٥٢)

ولما كانت أرض مصر مستوية منخفضة ، يهددها الفيضان كل عام فلا بد من كومات كبيرة من التراب ، ترتفع فوق مستوى أعلى فيضان ووثبت أمام الماء الجارف وقت اندفاع المياه ، وكثيرا ما تبطن جنبات هذه الكومات بالأحجار الجيرية البيضاء بجلبها القوم من حافة الهضبة إذا كانت قريبة ، أو بأعمدة من جذوع الأشجار وجدائل من الأحراش والأعشاب إن كانت الكومة

(٤٨) عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ص ٢٢٩ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، وقد اعتمد على يوليوس فلوون : الخواص والشيفة هامش ص ١٥٤ ، الترجمة العربية . القاهرة ١٩٥٨ .

(٤٩) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦ هـ) عيون الأخبار المجلد الأول ص ٢١٢ . دار الكتب المصرية . القاهرة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م

(٥٠) ابن قتيبة : المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٥١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٥٢ .

(٥٢) ابن الفقيه : المرجع السابق ص ١٥٥ .

بعيدة عن الهضبة ومعرضة في بعض جنباتها لتيار جاراف ، وذلك حتى لا تنهار الكومة ويجرفها الماء (٥٣) خصوصا وان ماء الفيضان في ذلك الوقت امواج عالية نسبيا تصطدم بالكومات مما يؤثر على تماسكها .

هذا اذا كانت مراكز الاستقرار البشري قائمة في وسط المحيط الزراعي وهو النمط السائد في معظم القرى المصرية ومدنها الداخلية ، اما اذا كانت تلك المراكز قائمة على ضفة النهر او خلجائه مباشرة فان مثل هذه المواضع ، وان كانت تستفيد من جسور النهر العالية او ضفائه المرتفعة ، الا ان ذلك لا يمنع من تعرض هذه المدن لآخطار الفيضانات العالية ، ومن ثم نجد تدابير أخرى تتخذ لحماية المدن ، من ذلك بناء الجسور الترابية المدعمة بالآخشاب وأغصان الأشجار ، وأحيانا تقام الجدران الحجرية حتى لا تتآكل حافة النهر المقام عليها المدينة ، أما اذا كان عامل النحر يؤثر في خط ساحل النهر الذي تقوم عليه المدينة فان استحداث الرؤوس الحجرية على ضفة النهر عند المدينة يؤدي الى دفع التيار بعيدا عن المدينة نحو الضفة الأخرى .

ج - أسوار المدن :

عرفت المدينة الأوربية الأسوار في العصور الوسطى ، وكان ذلك كشفا جديدا تدعو اليه الحاجة وحدها حيال الفارات المفاجئة من أهل الشمال التبريرين . وكانت الأسوار الواقية بقيامها بالحراسة المستديرة أكثر نفعاً من أي قدر من الشجاعة العسكرية . وقد أقيمت تلك الأسوار من الأحجار وحفر حواها خندق .

وخلال القرن العاشر الميلادي نرى ان بناء الحصون والأسوار حول مراكز الاستقرار أخذ وجه النشاط الرئيسية لجيش الملك ، ويعتبر ذلك إعادة لبناء الأسوار الرومانية القديمة .

وهكذا نرى ان الحاجة الى الحماية قد احتلت مكان الصدارة بين مشاغل سكان المدن ، وصار القيام بترميم الأسوار حولها ، من بين المؤهلات اللازمة لحصولها على حقوق البلديات (٥٤) والخاصة ، ان المدينة في العصور الوسطى هي المدينة ذات الأسوار . (٥٥) وكان السور من أبرز سمات تخطيط المدن في العصور الوسطى ، وقد تضافر مع الخندق الخارجي أو القنطرة أو النهر في جعل المدينة كجزيرة . (٥٦)

وإذا كان ما سبق يصدق على المدينة في أوروبا العصور الوسطى ، فان المدن المصرية في مجموعها - في نفس العصر - لم تعرف هذه السمة من سمات المدن بوجه عام ، وان كانت

(٥٣) سليمان حزين : القرية والإصلاح الريفي في مصر ص ٢٥٨ / ٢٥٩ .

(٥٤) مفنورد : المدينة على مصر العصور ص ٤٥٢ / ٤٥٥ .

(٥٥) مفنورد : المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٥٦) مفنورد : المرجع السابق ص ٥٥٥ / ٥٥٦ .

قد عرفت الاسوار في بعض المدن لأسباب وظروف خاصة ولفترات محددة ارتبطت بتلك الظروف من ذلك :

١ - مدن الثغور والرباطات وهذا أمر متشعب وظيفتها الحربية .

٢ - المدن المعرضة لفتارات الأعراب وخاصة إذا كانت هامشية مثل **دمنهور** .

٣ - المدن الواقعة على طرق الفزو الخارجى مثل **بليس** وذلك لدورها الحربى .

وهناك مدن أخرى بصعيد مصر ذكر ابن جبير - في رحلته - أن لها أسوارا مثل **اسيوط** و**دشنا** و**قوص** .

د - توابع المدينة في ظواهرها :

الارياض جمع ريش ، والريش (٥٧) ساحول المدينة ، (أى ما هو خارج عن كتلتها السكنية الرئيسية أو خارج أسوارها إذا كانت مسورة) وقيل هو الفضاء حول المدينة . وقيل هى الابنية (المساكن) التى تكون حول المدن وتحت القلاع ... وهذا المعنى الآخر هو المقصود هنا أى ضواحي المدينة أو ظاهرها أو توابعها المتصلة بها عمرانيا . ومن الواضح أن الارياض من خصائص أو سمات المدن الكبرى خاصة مثل عواصم الدول .

وقد اهتم باقوت الحموى بالارياض وعددها ويمكن أن نعطي أمثلة للارياض ما ذكرها وذلك ليتضح الدلول الجغرافى للضواحي عند الجغرافيين العرب حيث قصدوا بها ما اتصل بكتلة السكن الرئيسية ، وليست الضواحي المنفصلة التى لا تتصل مباشرة بالمدن ، وأنهم قد ميزوا بين صور متعددة من الاستقرار القريب من المدن .

يذكر باقوت ريش قرطبة بالاندلس متصلة بها بظاهرها ، و**ارياض القاهرة** فى عصره ما اتصل بها من عمران خارج أسوارها ، ومن ثم حين يذكر (أم دثين) يقول : هى قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ريش القاهرة . أمام مدينة **قوص** (التى كانت تعيش عمرها الذهبى) فلها ريشها ممثلا فى **هنية قوص** فهى ريش المدينة وهو كبير وأوسع فيه منازل التجار و**ارباب الاموال** :

(٥٧) أزيد من التفاصيل عن اللفظ يهين الرجوع الى قواميس اللغة وخاصة :

ابن منظور : لسان العرب

الأريشى : تاج العروس ج ٥ ص ٢٩

الريشى : كتاب نظام القريب ص ٨٣ . الطبعة الاولى ، القاهرة .

المسكرى : التفتيح ج ١ ص ٢٦٢

فالريش سور المدينة وماوى الفئم ووسط الشيء ، والريش أو الريش لاساس البنيان أو البناء ولقال بعضهم اساس المدينة ، والريش (بالتحريك) توأحى الشره أى احياء المدينة ومن ثم نجد ياقوتاً يذكر أن الارياض كثيرة وقل ما تخلو مدينة من موضع فيها يقال له الريش وعدداً رياض بغداد أو محلاتها . ويذكر المسكرى أن اللفظ يقال له باللارسية برأسته .

ومن المدن الاخرى الكبيرة التي عرفت الارياض في مصر نجد مدينة تينيس . هذا وقصر لفظ الريض على احياء المدينة الخارجية المتصلة بالمدينة الأم واضح عند الجغرافيين العرب ، بل قد ذكره الفقهاء الاحناف عند تحديدهم لتواضع مصر (المدينة) فجعلوا كل قرية متصلة بريض مصر من تواضع مصر فان لم تكن متصلة بالريضة فليست من تواضعه أى كما قالوا « ماكان خارجا عن حوران مصر فليس من تواضعه » ، وإن كانوا قد قدروا أحيانا مسافة عدة أميال أو فراسخ لهذا التحديد . (٥٨)

ويرى حسين مؤنس أن الأرض كضواحي المدن يقصد بها ما اتصل بعمارة المدينة وكانت صغيرة ، فإذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلدة سميت بالحاضر (٥٩) . وسوف نعرض لمداول الحاضر والضاحية ، ثم نقارن ذلك بما كان سائدًا في أوروبا العصور الوسطى .

الحواضر : في قواميس اللغة الحاضر المقيم في المدن والقرى بخلاف البادى المقيم بالبادية ، ويقال للمناهل الحاضر للاجتماع والحضور عليها والحاضرون : كل من نزل على ماء عد ولم يتحول منه شتاء ولا صيفا فهو حاضر سواء نزلوا في القرى والأرياف والدور المدرية أو بنوا الاخبية على المياه فقرأوا بها وروءوا ما حوالها من الكلا .

قال الخطابي وربما جعلوا **الحاضر** أسماء المكان الحضور ، ويقال نزلنا حاضر بنى فلان ، **والحاضرة** بقنشرين وهو موضع الإقامة على المامن قنشرين ، **والحاضر محطة عظيمة بظاهر حلب** وهذا المعنى هو المقصود هنا ، ومن لم نجد ياقوت الحموي في معجمه يذكر **حاضر قنشرين** فيقول قرية جامعة كالمدينة تقابل قنشرين ، **والحاضر السلماي** : **حاضر مدينة حلب بظاهرها** ، ويعرف قديما بحاضر السليمانية وهو روضها محطة عظيمة كالمدينة . ولهذا الحاضر تواضعه ، فالظاهرية محطة بظاهر حلب متصلة بالحاضر السلماي كان أول من عمرها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين قرابة سنة ٦٠٠ هـ .

أما ذويلة الفريضة فهي مدينة كالريضة المهدية بمنزلة الحاضر لمدينة حلب جعلها عبيد الله المتسمى بالمهدى جند ملوك مصر المتعصبين (الفاطمين) مسكنا للرعية بأهلهم وسكن هو وجنده **المهدية** ، فكانت الرعية تبث بزويلة عندها أهلهم ويكرمون إلى ذكاكينهم ومعاشهم بالمهدية . وزعم المهدى انه فعل بهم ليأمن غايلتهم ، قال أحول بينهم وبين أموالهم لئلا وبينهم وبين حرمهم نهارا . (٦٠)

واضح ان **الحاضر والريضة** يشتركان في أنهما من ظواهر المدن وتواضعها ، وليس هناك ما يدل على الفرق بينهما من حيث الاتصال أو الانفصال عن كتلة المدينة الأم أو اختلاف الحجم والمساحة بدليل ان ياقوت وصف الحاضر (حاضر حلب) انه روضها ، وان كان واضحا ان الحاضر

(٥٨) (الزبيدي : تاج العروس ج ٣ ص ١٤٨) .

(٥٩) (حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٥٨٩) .

(٦٠) (ياقوت : المعتمد ص ١١٨ ، ١٣٦) .

كبير كالمدينة وله توابعه (الظاهرية) ولكن نلاحظان مثل هذه الحواضر أو المدن السكنية قد ارتبطت بالمدن الحرة الحادثة التي تقيمها الدول الغالبة عند سيطرتها على البلاد المفتوحة ، إذ يصبح الجيش القادم في حاجة الى مدينته الحربية التي يقتصر سكانها على السلطان وجنوده ، ومن ثم يصبح للسكان المدنيين محلة خاصة بهم خارج أسوار المدينة الحربية ، ولكن هذه المحلة ليست بعيدة عن المدينة ، فهي في ظاهرها أو حول أسوارها على نحو ما ساقه ياقوت عن **المهنية** وزويلة . وكمثال آخر **قاهرة العز** التي ظلت حصنا للفاطميين ومدينة خاصة بالسلطان وجنده وليست مسكنا للعامة ، ولم تفتح كمدينة عامة إلا زمن صلاح الدين الأيوبي حين إباحها لسكنى العامة ، ثم اتخذت **قلعة الجبل** كرسيا للملك ، وقامت الأرباض في ظواهر القاهرة الى ان تكون منها ومن الفسطاط مجمع مدني كبير داخل الأسوار المحيطة بهما .

وكمثال آخر من بلاد المشرق مدينة بخارى فقد كان لها قلعتها ومدينتها المسورة ثم ردمها (وله إبراجه التي تحميها وقد جعلوا له البوابات سنة ٢٣٥ هـ) السور أيضا وقد وصف الدمشقي بخارى كمدينة يحيط بها قصور وبساتين وقرى ومساحتها ١٢ فرسخا ، وبحيط بذلك كله سور واحد ، ولها رضى يشقه نهر الصغد . (٦١)

الضواحي : ضحا الشيء يضحو فهو ضاح أي يزر ، والضاحي من كل شيء البارز والظاهر ، والذي لا يستره منك حائط ولا غيره . وضواحي كل شيء نواحيه البارزة للشمس والضاحية الناحية البارزة ، ويقال للبادية الضاحية ، **وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة وجمع الضاحية ضواحي** . ومنه قرى الضواحي أي النازلون بظواهر مكة (بادية) وقرى البطاح (الإباح) لانه حاضِر قُطان الحرم **فأضاحية ما تنحى عن المساكن وكان بارزاً** . (٦٢)

وقد عرض **القلقشندي** (٦٣) عند ذكر ضواحي القاهرة لدلول اللفظ لغة واصطلاحاً فقال الضاحية في أصل اللغة البارزة للشمس وكأنها سميت بذلك لبروز قراها للشمس بخلاف المدينة فلهب السكن بها ، وقد أطلقت كلمة الضواحي على ما جاور القاهرة من جهة الشمال من القرى . وكانت ولايتها مضافة إلى ولاية القاهرة وداخلة في حكمها .

هذا وقد أحصى **ابن الجيمان** (٦٤) ضواحي القاهرة في عشرين ناحية وذلك بخلاف قرى الحبس الشرقي أو نواحيه (ست نواح) وهي في مجموعها تمثل القرى الواقعة الى الشمال من القاهرة وإلى الشمال الشرقي على نحو ما هو موضح في خريطة الضواحي .

ومعنى هذا أن **الضواحي** تختلف عن **الأرباض** و**الحواضر** السابقة وفقاً لمفهوم **العصر الوسيط** عند **الجغرافيين العرب** ، وأما مفهوم **الضاحية** الحديث فقد بدأ في أوروبا **العصور الوسطى** على

(٦١) الدمشقي : نوبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٢٢٣ .

(٦٢) ابن منظور : لسان العرب ج ١٦ ص ٢٠١ .

(٦٣) القلقشندي : صبح الأمتي ج ٣ ص ٤٠٢ .

(٦٤) ابن الجيمان : التحفة السنية ص ٨١٥ .

نحو ما عرض مففورد . فمئذ القرن الثالث عشر الميلادى كانت هناك حول فلورنسا بايطاليا الضواحي المصورة الى حد كبير على الطبقة العليا، وقد تمثلت الضواحي في العهد الاخير من العصور الوسطى كاكواخ ومنازل صغيرة وفيلات مع حدائق فسيحة خارج اسوار المدينة ، وكانت تستخدم للتريص في الصيف كماكن للهواء الطلق وسط المباني القليلة والحدائق ، ثم نشأت ضواحي لندن بعد ذلك بعدة قرون . (٦٥)

هـ - شوارع المدن :

كان للمدينة شارعها الاظم الذي يتسع اضعاف شوارعها الاخرى، ثم تاتي بعد ذلك السكة (اوسع من الزقاق سميت بذلك لاصطفاها للدور فيها) ثم الزقاق .

ويجب ان نلظر الى اتساع هذه الشوارع في ضوء اتساع الشوارع في العصر الحاضر ، وانما في ضوء ظروف العصور الوسطى ومهمة الشارع في ذلك الوقت .

فقد كانت الشوارع تستخدم للسير على الاقدام ولم تكن تستخدم من قبل الباعة المتجولين، فالتجارة لها احياء خاصة بها ، كما ان وسائل الحمل والنقل لم تكن الا الدواب . وهذه الصفة - ضيق الشوارع في العصور الوسطى عن العصر الحاضر - كانت مشتركة بين المدينة العربية والاوروبية (٦٦) على السواء ، وان اختلفت المراتبي ذلك . ففي حين كان ساكن المدينة الاوروبية ينشد الراحة من ريع الشتاء فقد مكثه ضيق الشوارع وتفرجها من غرضه هذا وقلل من مساحة الاوحال، ومن ثم وفرت له هذه المواصفات المزيد من اسباب الراحة اثناء مواولة نشاطه اليومي . وحتى شوارع جنوب اوروبا - حيث الدفاء - كانت ضيقة والمنازل ذات اجزاء مريضة بارزة تقى السائر على قدميه من المطر ومن وهج الشمس على السواء . (٦٧)

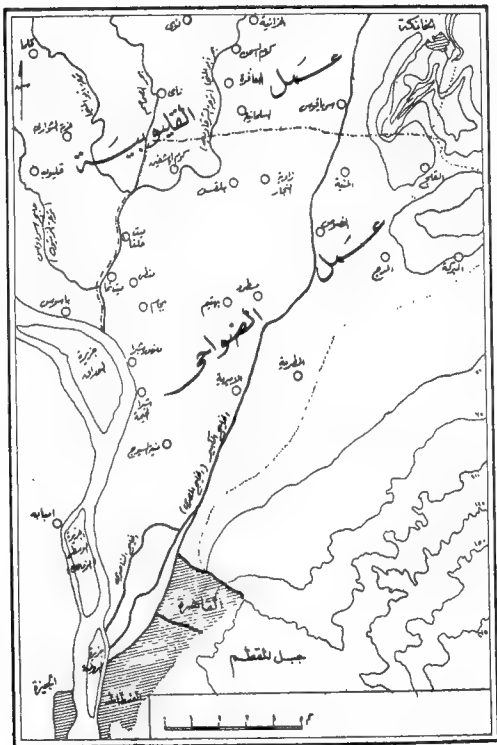
اما المدينة العربية فان ضيق شوارعها انما جاء استجابة للمناخ الحار وشدة وهج الشمس واشعتها في فصل الصيف خاصة . ومن ثم فقد كان ضيق الشوارع سببا في زيادة مساحة الظل في الطرق ، وفوق ذلك فان شوارع الحي التجاري او السوق كانت لها سقائفها لحماية المتريدين على المحلات التجارية من الشمس والمطر معا .

وفوق ما سبق فان الشوارع في المدينة العربية لم تكن مصدر الضوء والهواء بالنسبة للمنازل على نحو ما هو متبع في العصر الحاضر ، وانما الاعتماد الكلى في التهوية والضوء للسكن العربي انما ياتي من داخله حيث الصحن والحديقة وبهذا فان الغرف المظلة على الصحن تستقبل الهواء النقي وتجنب هواء الطريق بما فيه من اترية تجعله غير صحي . وعلى الرغم من اتساع الشوارع في العصر الحاضر الا ان الهواء فيها ملوث بما ينتشر فيها من اترية وابخرة وغازات وفضلات تلوث بيئة الشارع .

(٦٥) عن الضواحي في العصور القديمة والوسطى انظر مففورد : المدينة على مر العصور ص ٥٦٤ .

(٦٦) مففورد : المدينة على مر العصور ص ٥٦٤ .

(٦٧) مففورد : المرجع السابق ص ٥٦٥ .



عمل الضواحي "عصر المساء"

وقد خضعت شوارع المدن لاشراف المحتسب فكان يتطلع الى تصحيح مقسدارها وترتيب كل الطرق بقسطاسها ومعيارها ويؤدب من يعتمد الخيانة فيها (٦٨) وذلك حرصا منه على قيامها بوظائفها ، وضمانا لنظافتها وحراستها ليلا .

اما من حيث المحافظة عليها فقد منع المحتسب البناء في الطريق مهما اتسع الطريق - ولو كان المبنى مسجدا - لان مرافق الطرق للسلوك لا للابنية ، ومن ثم تهدم مثل هذه المباني (٦٩) وكذلك يمنع غرس الاشجار او اخراج اجنحة المباني في الطريق او اقامة المصاطب التي تضر بالمارة وتضيق على العامة . (٧٠) بل لم يكن يسمح بوضع الامتعة ومواد البناء التي تنقل بعد فترة قصيرة الا اذا لم يكن في ذلك ضرر على المارة .

اما عن الباعة فلم يكن يسمح لهم بالبيع والشراء على الطريق ، وكان الورعون لا يشتركون شيئا ممن قعد على الطرق للبيع (٧١) ومثل هؤلاء بمنع من جلوسهم في الطريق ويمنع الشراء منه لانه غاصب لواضع مرور الناس وقضاء حوائجهم ان كان الطريق ضيقا او لم يضيق بذلك عليهم - لوسع الطريق - فيكره لانه يؤدي الى تضيقها بكثرة الجلوس فيها ، ولان في الشراء منه امانة له على ما يتعاطاه معاهو ممنوع في الشرع الشريف . (٧٢)

ولم يكن يسمح بالتجول في الشوارع والسكك والازقة الا للباعة الذين تتعلق تجارتهم بما يلزم سيدات البيوت ، فمثل هؤلاء يسمح لهم بالطواف على البيوت ودخول الازقة وسلوك المواضع البعيدة من السوق على ان يمر في حاجته كما يمر غيره . (٧٣)

اما فيما يختص بالمحافظة على نظافتها : فقد كان المحتسب يمنع من طرح الكناسة فيها او رش الماء اذا خشي من التزلق والسقوط ، كما يمنع كل ما فيه اذية واضرار على السالكين كالميازيب الظاهرة من الحيطان في زمن الشتاء ، ومجارى الاوساخ الخارجة من الدور في زمن الصيف الى وسط الطريق ، فيأمر المحتسب اصحاب الميازيب ان يجعلوا عوضها مسيلامحفورا في الحائط مكسلا يجرى فيه ماء السطوح ، وكل من كان في داره مخرج للوسخ الى الطريق فانه يكلفه سده في الصيف ويحفر له في الدار حفرة يجمع فيها (٧٤) . اما طين المطر فقد كانت ازالته من اختصاص اولي الامر ولا يكلف الناس بذلك لانه ليس من صنعمهم ، وكذلك كان يمنع القصابين من الذبح على ابواب دكاكينهم لانهم بذلك يلوثون الطريق ويضيقون على الناس . (٧٥)

(٦٨) ابو سالم محمد بن طهة القرشي التميمي الوزير (ت ٦٥٢ هـ) : العقد الفريد للملك السعيد ص ١٧٦ ، الطبعة الوهبية - القاهرة ١٢٨٣ هـ .

(٦٩) ابن حبيب البغدادي : الاحكام السلطانية ص ٢٤٤ .

(٧٠) التميمي : مرجع سابق ص ١٧٧ .

(٧١) احمد سعيد الجيلدي : التيسير في احكام التمسع ص ٧٤ / ٧٥ .

(٧٢) ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ١٠١ ، ابن الاخوة : معالم القرية ص ٧٨ .

(٧٣) ابن الحاج : الرجوع السابق ج ٤ ص ١٠١ .

(٧٤) الشيزري : نهاية الرتبة ص ١٧ ابن الاخوة : معالم القرية ص ٧٩ .

(٧٥) ابن الاخوة : معالم القرية ص ٩٩ .

وأخيراً فقد كان للدرب حارس عليه أن ينصح لاهل الدرب ويسهر عليه اذا ناموا ، ونبه النوام اذا اغتلبوا بحريق أو غيره ، ولا يدل على عمارتهم واليا ولا غيره ، ويقابل هذا الحارس في اطراف المدينة الخارجية الطوفية وهم بين البساتين والمساكن الخارجة عن البلد كالخارس بين الدروب في وسط البلد . (٧٦)

و - المنازل

وليس ادل على اهتمام الاسلام بالبناء والتشييد ودفع الناس الى ذلك من تقريره ان من احبى مواتا ملكه ، ويستوى في ذلك احياء الارض للزرع واحياء الموات للسكنى وذلك بالبناء والتسقيف لانه اول كمال العمارة التي يمكن سكنها (٧٧) . ويذكر البغدادي عن اهل مصر انهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا من مصلحة .

ولم تكن المساكن بعيدة عن تفتيش المحتسب واشراؤه فقد كان له الحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة (٧٨) وكان يتدخل لمنع صرف مياه اسطحها في مياريب ، ويلزم اصحابها بحفر المسيلات في الجدران بدلا من ذلك .

هذا وقد كان للعرب مواسفات مرعية عند تشييد المباني خاصة باختيار افضل مواضعها ، من ذلك قولهم جميع خصال الدار التحسنة ان تكون على طريق نافذة وماؤها يخرج فيها وليس عليها مشرف وحدودها لها ، وتكون بين الماء والسوق ويصلح نفاذها لحط الرجال وبل الطين ووقوف الدواب ، وان كان لها بابان فذلك امثل ، وينبغي ان يكون ايضا في طرف البلد لان الاطراف منازل الاشراف (٧٩) القادريين على تحقيق كل هذه المواصفات المطلوبة . « واحق ما جعلت اليه ابواب المنازل وانيتها وكواؤها المشرق واستقبال الصبا فان ذلك اصح للابدان لسرعة طلوع الشمس وضوئها عليهم » (٨٠)

اما من ارتفاع المنازل واحجامها ، فقد عرفت مصر تعدد الطوابق في منازلها ، ويذكر المقدسي انها بلغت خمس طوابق حتى تصير المنازل كالمناير يدخل اليها الضياء من الوسط . ويضيف ان الدار الواحدة يسكنها مائتا نفس (٨١) ، وقد بلغ من عظم مساحة بعض الدور بالقسطنطين ان كان يطلق عليها اسم المدينة ، مثل دار آل مروان فهي الدار المذهبة التي اقامها عبدالعزيز بن مروان سنة ٦٧ هـ ، التي كان يصب لسكانها في كل يوم ٤٠٠ راوية ماء ، وقد اشتملت على خمسة مساجد (مساجد الصلوات الخمس) وحمامين واكثر من قرن . (٨٢)

(٧٦) المسكي : معيد النعم ومبيد النقم ص ١٤٥ / ١٤٦ .

(٧٧) ابن حبيب : الاحكام السلطانية ص ١٦٩ .

(٧٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٤٦ .

(٧٩) الفزولي : مطالع البذور في منازل السور ص ٨٠ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان .

(٨٠) ابن قتيبة : عيون الاخبار المجلد الاول الجزء الثالث ص ٢١٣ .

(٨١) المقدسي : احسن التلخيص ص ١٩٨ .

(٨٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٣٠ .

ولعل من أهم ما يميز المنازل العربية الإسلامية على اختلاف أنواعها وجود صحن أو فناء مكشوف - قد تكون فيه أشجار أحيانا - يتوسط كتلة المبنى وتلتف حوله بقية الوحدات المعمارية الرئيسية منها والثانوية ، كي تستمد منه معظم حاجتها من الضوء والتهوية ، ثم يستمد القليل الباقي من الطرق والشوارع الخارجية . وعلى هذا فإن الصحن كان هو الوحدة الهامة أو بالأحرى ، كان هو نواة تصميم مساقط جميع العمارات على اختلاف أنواعها ، لأنه يؤدي عدة وظائف ، كتلطيف حدة الضوء وكونه بمثابة مرشح للهواء الذي يحمل الغبار - وخاصة في مدن النطاق الصحراوي . وكان الصحن باتساعه هذا مخزنا للدفع في الشتاء إذا أغلقت الأبواب والفتحات الخارجية فيمنع مرور تيارات الهواء . وعلى العكس من ذلك في الصيف يساعد على تلطيف شدة القيلظ إذا تركت تيارات الهواء تدخل من خلال فتحات المنزل والفناء ، ويزيد من نفعه لهذا الغرض إذا ما زرعت فيه أشجار وزهور أو توسطته نافورة أو حوض للماء . (٨٣) ولا تقتصر فائدة النافورة أو الحوض على تلطيف وانعاش الجو وتجميل المنظر ، بل كانت كوعاء لحفظ الماء اللازم للحياة المنزلية .

وتراجع أهمية الصحن كجزء رئيسي في كل منزل إلى أنه المكان الذي تقوم فيه ربة البيت بأعمالها المنزلية بعيدا عن عين الغرباء من الزوار أو الجيران أو المارة ، وفوق ذلك فإن سكان المنزل يقضون جزءا كبيرا من حياتهم العائلية به، وهو أيضا مرتع للأطفال (٨٤) هذا وقد بقي الفناء من سمات بعض الدور الأسبانية حتى الوقت الحاضر ، ويسمونه هناك *Patio* ولا يزال يؤدي بعضا من تلك الوظائف التي أشر إليها . (٨٥)

أما عن **المظهر الخارجي للمنازل** فإنها كانت بخلاف ما هي عليه من الداخل من أبهة ، فلم يكن يزين تلك الجدران العارية سوى أبواب الداخل الصغيرة الخالية تماما من الزخرفة والتوافد القليلة الصغيرة . وقد عرفت الطوايق العلوية - في المنازل ذات الأهمية - «المشربيات» التي انتقلت إلى إسبانيا وعرفت باسم *Ajimez* (٨٦) حيث تستطيع النساء من خلالها مشاهدة من بالخارج دون أن يراهن أحد، وقد ظهرت هناك في القرن الرابع عشر الميلادي (٨٧)

أما الأبواب فكانت صغيرة وجانبية ، ومن المتبع دائما ألا يتواجه بابان على جانبي الطريق لتتخلص من نظرات الفضوليين ، كما أن مدخل المنزل يؤدي إلى داخله في ممر متعرج يقضي إلى داخله بما لا يمكن من الخارج من رؤية من بالداخل على الرغم من فتح الباب الخارجي . (٨٨)

(٨٣) فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية ص ٢٨ / ٢٩ ، ليوبولد ووريس : الابنية الإسلامية ص ١٢٧ .

(٨٤) فريد شافعي : المرجع السابق ص ٢٩ ، ليوبولد ووريس : المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٨٥) فريد شافعي : مرجع سابق ص ٢٩ .

(٨٦) انظر ليوبولد ووريس ص ١٢٤ حيث يشير إلى أن هذه الكلمة القشتالية مشتقة من اللفظ العربي الشمامسة أي الثالثة وكلية الشمامسة بدورها مشتقة من كلمة الشمس وكانت هذه الشمامسات تزد من فنيق الشوارع الصغيرة جدا وتعمل على إكثاله وقد أزيلت أواخر القرنين ١٥ و ١٦ م .

(٨٧) ليوبولد ووريس : نفس المرجع السابق ص ١٢٤ / ١٢٦ .

(٨٨) ليوبولد ووريس : نفس المرجع السابق ص ١٢٧ .

وأخيراً فإن أشكال المباني في المدينة العربية وإن انفتحت في قدر مشترك من المواصفات إلا أنها تعددت وفقاً لاختلاف وظائفها ما بين مرافق عامة دينية وأخرى اجتماعية وترفيهية وصحية وثلاثية اقتصادية تجارية ورابعة حربية .

ز - تلازم المباني المصرية مع ظروف المناخ « تأثير المناخ على طرز العمارة في مصر »

لا يشكل فصل الشتاء في مصر مشكلة كبيرة بالنسبة للسكان حيث لا تقسم فيه ظروف الجو كثيراً ، أما في فصل الصيف ، وخاصة شهري يوليو وأغسطس ، فإن الحرارة الشديدة تصبح من المشاكل التي تجعل من الضروري التكيف معها للتخفيف من آثار ارتفاع درجات الحرارة .

ولما كانت الرياح الشمالية في مصر باردة نسبياً - ومنعشة لأنها قادمة عبر البحر المتوسط فإن الزها في الصيف يكون طيباً ، خصوصاً وأنه تسود في الصيف سيادة تامة على الوادي والدلتا وتصبح الحاجة إليها في الوادي أشد لأن الحرارة تزداد كلما توغلنا جنوباً .

وفي سبيل التغلب على الحرارة الشديدة والاستفادة - في هذا المجال - بالرياح الشمالية (التجارية) ابتكر المصريون نمط « الملاقف » في العمارة وذلك منذ عصر الفراعنة كما دلت على ذلك النقوش (٨٩) . وقد استلقت نظر عبداللطيف البغدادي في مصر أن المصريين « يجعلون منافذ منازلهم لتقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلماتجد منزلاً إلا وفيه بالذاهنج ، وبأذاهنجاتهم كبيرة واسعة للريح عليها تسلك » (٩٠)

وبالذاهنج : كلمة فارسية معناها المنفذ الهوائي (منفذ التهوية) في أعلى المنزل وهو ماعبر منه العوام بالخشبيشة ، وقد أجاد بعضهم في تسميته راووق النسيم . (٩١) وفكرة هذه الملاقف أساسها تلقي الهواء اللطيف (الرياح الشمالية) واسقاطه من فتحاتها في أعلى المنزل إلى القاعات والإيوانات ، وكانها نوع من طرق تكييف الهواء . (٩٢)

وكانت هذه الملاقف مفتوحة الجانبين الشمالي والغربي لتستقبل الهواء الرطب ، فيندفع خلالها إلى أسفل داخل القاعة ليحل محل الهواء الساخن (٩٣) . ولم تكن هذه الملاقف لتحول دون الشمس في فصل الشتاء إلى جانب توفيرها لتسييم الصيف . وكانت تصنع من الخشب بما لها من أبواب أو شبكات نحاسية ، وتدهن بالألوان ، ولها أشكال مختلفة . وقد أشار البغدادي إلى

(٨٩) عباس حلمي كامل : تطور السكن المصري الإسلامي ص ١٠٠ - رسالة دكتوراه - غير منشورة - آداب القاهرة ١٩٦٨ .

(٩٠) عبد اللطيف البغدادي : الأفادة والاعتبار ص ٣٨ .

(٩١) الخلاجي : شفاء الطليل ص ٤٧ حيث يذكر أن كلمة بالذاهنج عرب بادكي وإنها على هيئة أسطوانة لها فتحة في الجهة الغربية يدخل منها التسييم ويسمى راووق التسييم .

(٩٢) فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية - المجلد الأول ص ٢٨٨ .

(٩٣) عباس حلمي : مرجع سابق ص ١٩٨ .

انه « قلما تجد منزلا الا وتجد فيه باذاهنج وهى كبيرة واسعة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى انه يقوم على عمارة الواحد منهما بين مائة الى خمسمائة دينار ، وان كانت باذاهنجات المنازل الصغيرة يقرم على الواحد منها دينار . (٩٤)

هذا ، وقد ظل استعمال متصر الملاقف في العمارة المصرية الى وقت قريب ، حتى لشراء شائعا في مدن الصعيد لشدة الحرارة فيها صيفا وقد صورت لنا الحملة الفرنسية كثيرا من دور مدينة المنيا وقد ملتها الملاقف . (٩٥)

وقد كانت هناك صورة أخرى للملاقف ، اذ لم تكن تنتهى مباشرة الى داخل المنزل بل كانت لها مجار داخل الجدران الخلفية للايوانات في ابنية المدارس والمساجد ، (٩٦) وكانت هذه المجارى في الحوائط تنتهى فوق الاسطح بحاجز مائل يساعد على توجيه الهواء الى داخل تلك المجارى . وقد ثبت ان هذه المجارى الواسعة داخل الجدران لا تؤدي الى اى هدف اسفلها حيث انها بعيدة عن مجاري الصرف « البيارات » بل كانت توصل الى المستويات العليا للدافق ، واتضح انها كانت لتوصيل الهواء الطلق لتلك الايوانات « ملاقف » . (٩٧)

ومن التأثير المناخي على تخطيط المنازل انها كانت غير مصممة ، اى تتخللها فراغات وافنية داخلية ، واحد او اكثر ، وذلك لسهولة التهوية الداخلية بإيجاد متنفس يسمح للهواء البارد بتخلل اجزاء الدار والهواء الساخن بالتصاعد للجو . كما روى في التخطيط تخصيص اجزاء للجلوس اليومي في مواجهة تيار الهواء القادم من الجهة الشمالية (البحرية) على قدر الامكان . وتمددت أشكال هذه الاجزاء المخصصة للجلوس ، من اردقة وايوانات الى مقاعد (٩٨) او حتى مجرد دخلات للجلوس ، كما استخدمت ايضا الاشجار وفساقى المياه في الافنية لنفس الغرض . (٩٩)

ويدخل ضمن سلامة التهوية في المنازل المصرية ما كانت تؤديه الملاقف من فرصة لادخال الهواء الرطب من الطبقات العليا للهواء بعيدا عن اثرية الشارع ، كما كانت تغطى الاضواء من اعلى مستوى النظر بحيث لا يؤذى العين وهيج انكاس الاضواء الشديدة بالخارج . (١٠٠)

(٩٤) ميد اللطيف البغدادي : ص ٢٨ .

(٩٥) عباس حلمي : مرجع سابق ص ١١٥ .

(٩٦) من هذا النوع ما هو مشاهد في جامع الصالحين بين تديق حيث توجد فتحة الجرى المؤدى الى الملقف والتي تفتح خلف التبر ، وكذلك في المدرسة الكناطية وخاتمة بيرس الجاشنكي . . انظر فريد شافى ص ٢٨٨ ، عباس حلمي : ص ١١٦ .

(٩٧) عباس حلمي : ص ١١٥ .

(٩٨) من هذه المقاعد المتوحة في مواجهة الاتجاه الشمالي لتلقى الهواء اللطيف من الافنية المشوكة بيت القايي بقاهرة المي (بجوار مسجد الحسين) انظر فريد شافى : مرجع سابق ص ٢٨٨ .

(٩٩) عباس حلمي كامل : ص ١٠٠ .

(١٠٠) عباس حلمي كامل : ص ١٩٩ .

وهناك أيضا ظاهرة صغر مسطح فتحات الأضواء وتغطيتها بصلف أو حواجز خشبية ضيقة
الساكنات لتقليل الوهج والضوء المنعكس من أشعة الشمس البراقة . (١٠١)

وقد اشترك العاملان الديني والمناخي في الإيحاء بابتكار أسلوب فني يمتاز به العمارة
الإسلامية ، وانتج الفنانون منه تحفا رائعة منه ، وهو أسلوب الخشب المخروط المجمع من قطع
خشبية ذات اشكال هندسية مختلفة ، وهو الأسلوب المعروف بالمشربيات ، وكانت تصنع منه
الشرفات والأحجية التي تغطي الفتحات والنوافذ حتى تحفظ حرمة أهل البيت من انظار الغرباء ،
وتسمح في نفس الوقت بمرور الهواء والضوء (١٠٢)

طريقة بناء المنازل : من العلوم التي خلدتها العرب علم الهندسة ، وبدخل تحت هذا العلم
عندهم ، علم عقود الأبنية ، وهو علم تتعرف فيه أحوال أوضاع الأبنية وكيفية احكامها ، كبناء
الحصون المحكمة وتنفيذ المنازل البهية والقناطر المشيدة وامثالها ، وشق الانهار وتنقية القنى
وانباط المياه ونقلها من الأغوار الى النجود وسد البثوق ، وغير ذلك ، ومنفعة عظيمة في عمارة
المدن والقلاع والمنازل ، وفي الفلاحة . (١٠٣)

وقد خصص البغدادي فصلا لما شاهد بمصر من غرائب الأبنية ، بعد ان اشاد بما في
الأبنية المصرية من هندسة بارعة وترتيب للغاية - فاعطى صورة لمراحل البناء وطريقته في مصر
بالنسبة للأبنية الكبرى فقال : **واذا أرادوا بناء دبرج أو دار ملكية أو قيسارية ، استحضر**
المهندس (١٠٤) وفوض اليه العمل ، فيعمد الى العرصة (١٠٥) وهي تل تراب أو نحوه - فيقسمها
في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد الى جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث
ينتفع به على أنفراده ويسكن ، ثم يعمد الى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال
الاجزاء من غير خلل ولا استدراك . (١٠٦)

وواضح من قول البغدادي ان المباني العربية كانت اجنحة مستقلة غير متصلة ببعضها
ولذلك اذا نظرنا الى مثل هذه المباني نرى انها مقسمة الى عدة مساكن كل مسكن كامل بجميع
لوازمه (١٠٧) فضلا عما في مثل هذه الطريقة من الاستفادة الجزئية للمبنى ، أو لعل ذلك لحماية

(١٠١) عباس حلمي كامل : ص ١٠١ .

(١٠٢) فريد شافعي : مرجع سابق ص ٢٨٨ / ٢٨٩ ويرى أنه كان يوضع في تلك الشرفات اواني شرب الماء حتى
يبرد من تيار الهواء ، ولعل ذلك هو الذي اعطاها اسم المشربيات .

(١٠٣) حاجي خليفة : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٥ ، انتهى : كشف اصطلاحات اللغون ص ٦٥ ... وقد وضعت
في هذا العلم كتب منها كتاب لابن الهيثم وآخر كرجي .

(١٠٤) لقب مهندس يطلق على القاول الذي يخطط البناء ثم يشرف على عمليات البناء أي أنه صانع ماهر أو
مشراف فني .. انظر فريد شافعي : مرجع سابق ص ٢٠٩ ، ص ٢٨٩ .

(١٠٥) العرصة : المكان الواسع الذي لا بناء فيه .

(١٠٦) البغدادي : الادادة والاختيار ص ٥٢ .

(١٠٧) مصطفى منير ادهم : موثق الدين عبد الطيف البغدادي ورحلته الى مصر . محاضرة بالجمعية الجغرافية
المصرية سنة ١٩٢٧ .

المباني من التعرض لهبوط الارض بما يشاهد في عصرنا من وجود فواصل بين المباني الكبيرة وانها مقسمة الى اجنحة .

وقد فصل البغدادي بعد ذلك الخطوات المتبعة في بناء المسناة (١٠٨) ويحسن ان ننقل نصه كاملا «واما المسناة فيسمونها الزريبة» (١٠٩) ولهم في بنائها اثنان حسن ، وصفته ان يحفر الاساس حتى تظهر النداءة ونزير الماء فحينئذ يوضع ملبن (١١٠) من خشب الجعيز او نحوه على تلك الارض الندية بعد ما تمهد ويكون عرضه نحو ثلثي ذراع وقطر حلقته نحو ذراعين مثل الذي يجعل في قعر الآبار ، ثم يبنى عليه بالطوب والجير نحو قامتين فيصير بمنزلة التنور فيأتي الفواصون ويتزلون هذه البير ويحفرونها ، وكلما نبع الماء نزحوه من الطين والرمل ويحفرون ايضا تحت ذلك الملبن ، فكلما تظلم ما تحته وثقل بما عليه من البناء نزل وكلما نزل فاصوا عليه وحفروا تحته والبناء اثناء ذلك يبنى عليه ويرفعه ولا يزال البناء يرفع والفواص تحته يحفر وهو بثقله بفوص حتى يستقر على ارض جلده . (١١١) ويصل الى الحد الذي يعرفونه فحينئذ ينتقلون الى عمل آخر مثله على ستمته على بعد اربعة اذرع منه او نحوها ولا يزالون يفعلون ذلك في جميع طول الاساس المغروض ثم يبنون الاساس كالعادة بعد ردمهم هذه الآبار فترجع اوتارا راسية للبناء وعمدا مدعمة وتوثقه . (١١٢)

فاذا كان المقصود بهذا النص وصف المسناة التي تتخذ كسد يحمي من السيل كما كانت تتخذ كبناء يزيد من حصانة المدن حول اسوارها ، وبينها وبين الخندق ، فقد عرفت مصر مثل هذا التشييد منذ عصر الولاة اذ يذكر الكندي (١١٣) في احداث سنة ٣٨ هـ وما كان من دخول مصر في نطاق معاوية بن ابي سفيان خلال الصراع بينه وبين علي بن ابي طالب - يوم المسناة وانهازام أهل مصر ودخول عمرو بن العاص بأهل الشام الفسطاط في حين عاد أهل مصر الى الحصن وأغلقوه على أنفسهم .

(١٠٨) المسناة : غبرة بنى للسيل لترد الماء ، سميت مسناة لان فيها مفتاح للماء بقدر ما تحتاج اليه مما لا يطلب مأخوذ من فولك سميت الشيء والامر اذا فتحت وجهه ، وسميت الباب وسمونه اذا فتحت (ابن منظور : اللسان ١٩ : ١٢١) اما الصلابة فقد قيل فيها مثل المسناة المستطيلة في الارض فيها خشب وحجارة وصغارها مملها من الفسفر وهو النسيج وقيل اخذت الصلابة من الفسفر وادخال بطريق يعنى مترصا ، والفسفر البناء بججارة بخير كلس ولا طين (ابن منظور : اللسان ٦ : ١٦١ / ١٦٢) .

(١٠٩) الزريبة : بئر يحفرها الصلابة يكمن فيها للصيد .

(١١٠) اللين : قالب اللين واللين الذي يغرب باللين وهو مطول مربع ولين الشيء ريمه واللين واللينه التي يبش بها وهو المقروء من الطين مرصا .

(١١١) الجلد : من الارض اللينك الصلب من غير حجارة (المسكوي : التلخيص) .

(١١٢) البغدادي : ص ٣٩ / ٤٠ .

(١١٣) الكندي : الولاة والقضاء ص ٢٨ / ٣٠ .

أما ما كان يقام حول المدن فقد جاء في وصف بغداد عند نشأتها زمن المنصور أنه كان حول السور فصيل جليل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل بمائة ذراع والفصيل أبرجة عظام وعليه الشرفات المدورة وخارج الفصيل كما يدور مسناة بالأجر والمصاريع متقنة محكمة عالية والخندق بعد المسناة . (١١٤)

وقد يفهم من النص أنه إنما قصد وصف وضع الأساس للمباني الكبيرة التي كانت ترفع عدة أدوار حتى أنه وصف ابنيّة مصر أنها شاهقة فضلا عن أن غالب سكانهم في الأعلى إذ يتكون النور الأرضي لأغراض أخرى . فإن المفهوم من النص أن هذه الآبار المردومة بعد وصولها إلى الأرض تصلبة تزدحم لتصبح بذلك قواعد ثابتة أو أوتادا وأساسه ودعماته قوية يقام عليها الأساس ليرتفع بعد ذلك البناء قويا ممعما لا يختل مع الزمان . (١١٥)

سواد البناء : من الطبيعي أن يعتمد سكان المدن في تشييد منازلهم على إمكانيات البيئة المحلية ، ومن ثم فهناك ارتباط واضح بين مادة البناء والتكوين الجيولوجي ، فقد استخدمت الأحجار الجيرية (الحجر النحيت) في مناطق توأمرها . ففي القاهرة استخدم الحجر الجيري البويسي المتوفر في المنطقة وقد سماه المقدسي « الحجر البحري » . (١١٧)

وفيما عدا هذا نجد أن البيئة الفيضية قد أتاحت اللبن (١١٨) والأجر (الطوب الأحمر) ، وقد عرفت المدن كلا النوعين على نحو ما شاهد المقدسي في بليس من مباني طين وأخرى من الأجر (١١٩) . ويشير البغدادي إلى أن الطوب الأحمر على قدر نصف طوب العراق . (١٢٠) وقد عرفت مصر استخدام القصب والنخيل (أفلاق النخل والجريد) مع الطوب والطين وخاصة في المباني الأولى لمدينة الفسطاط ، وقد نقل ابن سعيد عن مشاهدة أن مباني الفسطاط

(١١٤) أيعقوب : كتاب البلدان ص ٢٢٩ .

(١١٥) مصطفى متر أدهم : موفق الدين عبد اللطيف البغدادي ورحلته إلى مصر وما شاهده فيها - محاضرة ألقى بالجمعية الجغرافية المصرية ١٩٢٧ ، حيث يذكر أن هذه الطريقة هي الجارية العمل بها الآن ويستعملونها في العمائر الكبيرة ثم يبنون عليها الأساس بعد ردها وما زالت تمثل هذه الآبار تستخدم في مصر لأغراض الوصول إلى الماء العذب لعمر ماء الصرف دون حاجة إلى دفعه إلى وتسمى الآبار الإسكندرانية وعند العامة تعرف بالخنزيرة .

(١١٦) حسن عبد الوهاب : طرز العمارة الإسلامية فيريف مصر ص ٩ .

(١١٧) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٧ .

(١١٨) يعتبر الطين الذي يصنع منه اللبن مناسباً جداً لأحوال المناخ في مصر حيث أنه موصل رديء للحرارة فهو لا يسخن في الصيف ولا يبرد في الشتاء ، لذلك وجد المصريون فيه مادة مناسبة جداً لتأخذ مصر الصمغاري . وكان استخدامه على طول المصود القديمة والوسطى والحديثة ، أما الحجر فلم يكن يبنى به غير المعابد والهياكل والمقابر ، وما إليها من بيوت العبادة ودور البقاء ، وكان هذا هو الأسر في أنه لم يبق لنا من آثار السكن القديم في مصر غير القليل سواء في المصور القديمة أو الوسطى . انظر سليمان حزين : القرية والإصلاح الريفي في مصر ص ٢٢٦ مجلة الكتاب المصري مجلد ٤ عدد ٢ لسنة ١٩٢٦ .

(١١٩) المقدسي : ص ١٩٥ / ١٩٦ .

(١٢٠) البغدادي : ص ٥٢ .

بالتصبة والطوب الادكن والنخيل طبقة فوق طبقة (١٢١) واما عن القاهرة فمبانها من تصب وطين . (١٢٢)

ونظرا لافتقار مصر للاخشاب الخاصة بالبناء فقد كانت تستوردها من الشام ، (١٢٣) وينقل السيوطي عن ابن فضل الله العمري ان خشب الصنوبر مجلوب الى مصر من بلاد الروم في البحر (١٢٤) وهذا بالإضافة الى استخدام اخشاب الجميز المحلية حيث تعمر به المساكن ويتخذ منه الابواب لما له من بقاء على الدهر وصبر على الماء والشمس ، وقلما يتاكل هذا الخشب مع انه خفيف قليل اللدونة ، والى جانب ذلك استخدام السنت لما له من صلابة كالحديد واذا قدم أسود كالينوس . (١٢٥)

وقد كان لانتشار الآثار الفرعونية وغيرها اثره في قلع احجارها ونقلها الى الابنية والمساكن (١٢٦) واستخدامها في المشروعات العمرانية الكبيرة .

كما كانت الروبوات والتلال الكفرية هي الاخرى مصدرا لمواد البناء خصوصا بالنسبة للمشروعات الكبيرة التي تتطلب احجارا جيرية مثل استخدام ذلك في بناء الاسوار والمرافق العامة .

كما كانت تتخذ المساكن القديمة أو المهجورة هي الاخرى كمصدر لمواد البناء في المباني الجديدة ، وقد اشار ابن خلدون ومن بعده تلميذه المقرئ الى هذه الناحية ، فربطها الاول بالتهور العام الذي يصيب المدن عندهمها (١٢٧) ، وجعلها الثاني احدى مراحل التطور العمراني في ظواهر غرب القاهرة حيث يتم بيع المساكن كاتقاض عند خراب العمران مع كل هزة اقتصادية وما يعقبها من وباء يؤدى الى الفناء والخراب . (١٢٨)

اما من المواد اللاصقة فالجير والرمل في الاجزاء العلوية من المباني المتخذ فيها الجير ، اما في الاجزاء السفلية المعرضة للمياه فيستخدم الجير والحمره وحيانا الجبس ، ويستخدم ايضا الطين والجير او الطين فقط .

وقد تستخدم الاحجار الجيرية غير المنتظمة في اجزاء قليلة من الاساسات ولكن الاصل كان استخدام الجير . (١٢٩)



-
- (١٢١) ابن سعيد القرني : المغرب ص ٦ .
 - (١٢٢) ابن سعيد القرني : النجوم الزاهرة ص ٢٤ .
 - (١٢٣) فريد شافعي : العمارة العربية ص ٢٩١ .
 - (١٢٤) السيوطي : حسن القاهرة ج ٢ ص ٣٢٢ .
 - (١٢٥) البغدادي : ص ٥٢ .
 - (١٢٦) ابن فضل الله العمري : مسائلك الابصار ج ١ ص ٢٣٧ .
 - (١٢٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩٢ / ٩٩٣ .
 - (١٢٨) للمقرئ : السطوط ج ٢ ص ١٠٨ وما بعدها .
 - (١٢٩) عباس حلمي : مرجع سابق ص ١٢٤ .

مرافق المدينة العربية

أولا - الاسواق « الحي التجاري »

اعتمادا على ما صورته كتب الحسبة لأحوال الاسواق في المدن ، حيث كانت الاسواق تخضع لإشراف المحتسب حتى لقد سميت كتب الحسبة الأولى « أحكام السوق » (١٣٠) وبالإضافة الى ما بقي من آثار المنشآت التجارية في العصر الوسيط ، يمكن إعادة تركيب الاسواق او الاحياء التجارية في المدن العربية .

وقد عرفت المدن العربية الاسواق المنظمة في عصرها الأولي ، وكان للحسبة دورها في تنظيم الاسواق ، وحين اتسعت الحياة في المدن العربية أصبح لاسواقها نظم مرعية سجلتها كتب الحسبة ، من ذلك قول الشيزري : ينبغي ان تكون الاسواق في الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديما (١٣١) ، حيث كانت الاسواق في مدن الدولة الرومانية مقامة حول الميدان Forum والمعابد والكنائس غالبا ، ثم انشئت الدكاكين على جانبي الشوارع المختلفة ، وجعل لكل صنف من اصحاب التجارة موضع خاص ، وبنيت السقوف (السقائف) فوق تلك المواضع لحماية المارة من الشمس والمطر ، ولذلك سميت تلك الاسواق بالسقائف ، وقد سرى هذا النظام في معظم المدن الاسلامية . (١٣٢)

هذا وقد تشابهت الاسواق العربية والبيزنطية في العصر الوسيط واصبحت وظيفة المحتسب العربية تقابل وظيفة والي المدينة Prefect of the City في الدولة البيزنطية ، مما جعل البعض يرى ان مصدر التنظيم واحد ومنقول من المدينة الرومانية ، واعتمادا على نص الشيزري المشار اليه (١٣٣) ، ولكن هناك من يرى ان مظاهر الحسبة الاولى ومرامها احكامها في الاسواق مرعية ومطبقة في صدر الاسلام الاول قبل الفتوحات الاسلامية ، وان كان هذا لا يمنع من انه بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية اقتبس العرب اقتباسا تمثل لا اقتباس تقليد من نظم الاسواق ما أصبح قائما في الاسواق العربية ، وادى هذا الى التشابه بين الاسواق العربية والبيزنطية (١٣٤) بل فوق هذا هناك تبادل بين الحضارتين في مثل هذه المظاهر الحضارية البتة المقارنة بين نظام الحسبة الاسلامي ووالي المدينة البيزنطية .

(١٣٠) يحيى بن عمر (ت ٢٨٩ هـ) أحكام السوق ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٥ .

(١٣١) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١١ .

(١٣٢) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١١ تطبيق السيد الباز العربي محقق الكتاب .

(١٣٣) انظر هذا الرأي السيد الباز العربي فيما نقله عن « والي المدينة » في الدولة البيزنطية من انه كان من هيئة كبار الموظفين ويلي في الرتبة والى الاقليم ، وهو مسئول عن الاشراف على الاسواق وتكوين السكان بالفتح ومراقبة النقابات (ورش الصناعات) ... ص ١٣٤ . وما بعدها من كتاب الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة

(١٣٤) محمد البارك : المولة ونظام الحسبة ص ٧٦ .

اما عن تحديد مواضع الاسواق او انهي التجاري من المدينة العربية نملى الرغم من شدة الحاجة لوجود الاسواق في قلب المدينة الا ان ذلك لم يكن بالضرورة عاما في كل المدن ، ولا عاما بالنسبة لكل التجارات والحرف والصناعات ، فهناك حرف قد خصصت لها اماكن خارج المدن ، وسلع لا تعرض الا خارج المدن اما لطبيعة السلعة او لظروف اصحاب هذه الحرف ، من ذلك تخصيص مكان للذبح (سلخانة) ويمنع المحتسب القصابين من الذبح على ابواب دكاكينهم وعليهم ان يذبحوا في المذبح (١٣٥) ، وكذلك يمنع جلابى الحطب والتبن واحمال الحلقاء والشوك ونحوهم من دخول السوق ووقوفهم في العراص (١٣٦) مع تجار الخضراوات والفاكهة حيث كانت دكاكينهم في هذه العراص ، (١٣٧) فاذا لم تتوافر في المدينة هذه العراص فيجوز دخولهم الى الاسواق لحاجة اهل المدينة اليهم .

وهناك من المدن الكبرى ما كانت أسواقها خارج كتلتها السكنية الرئيسية من ذلك مدينة بغداد ، اذ اخرجت أسواقها خارجها الى حيث اقيمت في كرخ بغداد ، اذ جعلت الاسواق فيها صفوفا ، واخر سوق القصابين في آخر الاسواق لانهم سفهاء وفي ايديهم الحديد القاطع . وكان لهم مسجدهم الذي يجتمعون فيه يوم الجمعة فلا يدخلون المدينة .

اما السبب في اخراج الاسواق خارج بغداد فقد قيل ان دكاكينهم ارتفعت واسودت حيطان المدينة وتآذى بها الخليفة المنصور فامر بنقلهم ، وهناك من يرى ان « المنصور » فعل ذلك خوفا من الجواسيس الذين يترددون على المدينة بحجة التجارة فيكشفون احوال العاصمة (١٣٨) ومعنى هذا ان دواعي الامن كانت من وراء اخراج الاسواق عن المدينة ، او ان الظروف الصحية الخوف من التلوث البيئي ، او ان الخوف على النواحي الجمالية كان من وراء ذلك .

وقد عرفت عوصم اخرى نظاما فريدا للأسواق نوجد مدينة المهديّة قد اتخذ الى جوارها ريف « زويلة » وجعله المهدي مسكنا للرعية بناها لهم ، وسكن هو وجنوده المهديّة ، فكانت الرعية تبني بزويلة عند اهاليهم ويكرّون الى دكاكينهم ومعاشهم بالمهديّة ، وزعم المهدي (جد الفاطميين بمصر) انه فعل بهم هذا ليامن غالتهم اذ يحول بينهم وبين اهليهم بالنهار وبينهم وبين أموالهم بالليل . وليس بعيدا عما سبق ما كان قائما في **قاهرة العز** التي قامت كحصن منع العامة من سكناها ، ومن ثم كانت القسطة عاصمة البلاد التجارية ، وظلت القاهرة كذلك حتى اباحها صلاح الدين الايوبي لسكنى العامة بعد ان ظلت طوال عصر الفاطميين حصنا ملكيا .

(١٣٥) ابن الاثير : معالم القرية في احكام الضريبة ص ٩٩ .

(١٣٦) العراص : كل جوبة منفقة ليس فيها ينال في عرصه ، وتجمع عراصا وعرصات وعرصه الدار وسطها . وقيل هو ما لا بناء فيه سميت بذلك لاعتراض (قلب) الصبيان فيها والعراصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، وقيل هي كل موضع واسع لا بناء فيه .

(١٣٧) الشيزري : ص ١٧ ، ص ١١٦ ، ابن الاثير : ص ٧٩ .

(١٣٨) ياقوت الحموي : معجم البلدان ومادة كوخ .

سمات الاسواق العربية أو خصائصها: فأولى سمات الاسواق العربية تخصيص سوق لكل صناعة أو حرفة ، فيجمل لأهل كل صناعة سوقا يختص بهم ، ويفرد لكل صناعة مكان خاص بها ، فتعرف صناعتهم فيه فان ذلك لقصادهم أرفق ، ولصنائعهم أنقى (١٣٩)

وقد كان من أهداف هذا التجمع أن تصبح الفرصة متاحة لجميع المشترين دون أن يختص بالسلعة البعض ، من ذلك **الفراء** فقد نصت كتب الحسبة على أن لا يباع المجلوب منه في الدور ويخص به قوم دون آخرين ، بل تحمل إلى سوقهم وتباع فيها بالنداء لئلا القوي والضعيف (١٤٠) ولم يقتصر الأمر على السلع المستوردة الترفيفية بل شمل أساسا الضروريات لشدة الحاجة إليها فكان يمنع تجار الطعام من بيعه في الدور بل يخرجون إلى السوق (١٤١)

ومن سمات الاسواق العربية مراعاة التجانس بين الحرف المتجاورة ، كما يتم التفريق بين الحرف التي يخشى منها على بعضها الآخر ، ومعنى هذا أنه كان هناك تناسب بين الاسواق ، فالى جانب سوق الأكسية والنياب توجد دكاكين الرفاكين ، والى جوارهما سوق الكتانين وكذلك لما بين هذه الاسواق من تشابه وارتباط . أمّا الحرف التي ليس بينها تجانس ، ويخشى من حصول الضرر على بعضها ، فانها يبعد عن بعضها ، من ذلك من كانت صناعتها تحتاج إلى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد فللمحتمسب أن يبعد حوانيتهم عن المطارين والبزازين ، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار (١٤٢) ويدخل ضمن هذا التخطيط ما كان يفعله الحنسيب من اتخاذ مكان لباقي الحوت (السمك) يكون فيه سوقهم بمعدل من الطريق (١٤٣)

وهناك من يرى في تخطيط الاسواق انما جاء على نسبة اتصالها بالجوامع ، وإن الاسواق القريبة هي سوق الشمامسين لوجوب الاستضاءة بالشموع في الصلوات ، وهناك سوق المطارين والطبيين لوجوب التعطر والتبخير بالجوامع ، وهناك القباقيب لوجوب الضوء ، وهناك سوق العدول (المأذنين لأن العقود تتم بالجوامع) وهناك سوق الكتبيين لأن الجوامع مدارس ، ثم تنابع الاسواق طبقة طبقة إلى أن تكون آخرها إلى جوار السور الداخلى للمدينة ، وهي تلك التي يجب أن تكون بعيدة عن المنازل خوف الإلحاق بالرائحة الكريهة أو الدخان أو الحريق أو الدوى ، مثل الدباغين والصباغين والسراجين والحدادين والتجارين (١٤٤)

(١٣٩) يحيى بن عمر : أحكام السوق ص ٢٢ ، الشيزى : نهاية الوبى ص ١١ .

(١٤٠) ابن الأخوة : معالم القرية ص ٢٢١ .

(١٤١) أحمد سعيد الجيلدى : التيسير في أحكام التسعير ، ص ٧٢ .

(١٤٢) يحيى بن عمر : أحكام السوق ص ٣٣ ، الشيزى : نهاية الوبى ص ١١ ، ١٢ .

(١٤٣) ابن عبد الرؤوف : ثلاث رسائل اندلسية في الحسبة ص ٩٧ .

(١٤٤) عثمان الكفاك : الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط ص ٦٦ .

ويلكر أن أسواق جزر البحر المتوسط بهذا الشكل وهذا التوزيع تنتشر حول الكنائس وعرض الجوامع . مذهب الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٠ .

شوارع الاسواق : لقد كانت الاسواق العربية مناطق تسويق خاصة للمشاة بها كل ضروب البضائع ، وهي تعتبر ابتكار حضري على ومشوق لدرجة ان مخططي المدن المعاصرين يحاولون ادخالها في المنطقة التجارية للمدينة الفريسة الحديثة . (١٤٥)

وقد حظيت شوارع الاسواق بعناية المحتسب واشرافه على جميع نواحيها سواء في ذلك مواصفات تخطيط الشوارع وتنظيم استخدامها بواسطة التجار أو المشترين ، من ذلك : ان يكون من جانبي السوق افريزان يعيش عليهما الناس في زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطاً . (١٤٦)

وبأمر المحتسب أهل الاسواق بكنسها وتنظيفها من الاوساخ والطين المتجمع وغير ذلك مما يضر بالناس . (١٤٧) وفي زمن الشتاء اذا كثرت طين المطر فجمعه اصحاب الحوانيت في وسط السوق اكداً ساغاضر بالمارة وبالحولة فعليهم كنسه والا فالدولة ملزمة بهذا الواجب ، اذ يجب ان تنقى الاسواق من الطين في زمن الشتاء (١٤٨) ولا يجوز لاحد من السوقة (التجار) اخراج مصطبة مكانه عن سمت اركان السقائف الى الممر الاصلى (الطريق) لانه عدوان على المارة ، ويجب على المحتسب ازالته والتمنع من فعله ، لما في ذلك من حقوق الضرر بالناس . (١٤٩)

ويستفاد مما سبق ان بعض الاسواق كانت مظلة بالسقائف لحماية السابلة من المطر والشمس (١٥٠) ، على ان هذه السقائف وان كان مسموحاً بها - الا انها كانت محظورة أحياناً اذا ما ترتب على وجودها الضرر بالنسبة للمشترين ذلك انها تسقط ظلاً على حوانيت البزازين وغيرهم فلا يتمكن المشتري من رؤية ألوان الاقمشة على حقيقتها ، وكثيراً ما يجد المشتري بعد انشراء ما اشتراه مخالفاً لفرسه في مكان الضوء . (١٥١)

وينبغي أن يمنع المحتسب احمال العطبواعدال الثين وروايا الماء وشرايح السرجيين والرماد واشياء ذلك ، من الدخول الى الاسواق لما فيه من الضرر بلباس الناس . (١٥٢)

ولما كانت شوارع الاسواق مخصصة للسردون البيع فقد ورد النهي من وقوف البائسين بالطرقات لان الواقف يصبح غاصباً لوضع المروحتى ولو كان الطريق واسعاً ، لان ذلك يؤدى الى تضيقها ويجب على المشترين ان يمتنعوا عن الشراء . (١٥٣)

(١٤٥) سابا جورج شير : العلم وتنظيم المدن العربية ص ٢٢ الكويت ١٩٦١ .

(١٤٦) الشيزرى : مرجع سابق ص ١١ .

(١٤٧) الشيزرى : نفس المرجع والمكان .

(١٤٨) يحيى بن عمر : أحكام السوق ص ١٢٧ .

(١٤٩) الشيزرى : مرجع سابق ص ١١ .

(١٥٠) الشيزرى : مرجع سابق ص ١٧ .

(١٥١) المجبلى : مرجع سابق ص ٨٦/٨٥ وقد قلنا هذا الحكم على نهى الشارع عن البيع والشراء في ليل مظلم أو مظلم بحيث لا يلف على حقيقة ما اشتراء والتظليل قريب من ذلك .

(١٥٢) الشيزرى : ص ١٧ .

(١٥٣) ابن الحاج : المجلد ج ٤ ص

المشآت التجارية (١٥٤) (القيساريات - الفنادق - الخانات - الوكايل) :

كانت توجد في داخل الحى التجارى للمدينة العربية عدة منشآت تجارية تمثل اسواقا متخصصة او تجمعات للتجارة والتجار ، سواء في ذلك التجار الوطنيين او الغريباء ، ومعنى هذا انها تخدم التجارة الداخلية والخارجية معا .

١ - القياس (١٥٥) : هى منشآت تجارية متخصصة في شكل مباني كبيرة داخل الاسواق بالمدينة تضم داخلها عدة حوانيت للتجارة ، وتختلف هذه الحوانيت من حوانيت السوق - القائمة على جانبى الطريق - في انها تشكل بناء مستقلا مستطيلا او مربع الشكل ، له عدة ابواب ويضم نحو ثلاثين حانوتا في داخل كل منها مصطبة ومقعد ، ويلحق بكل قيسارية دورة مياه تضم حوضا وحماما وثلاثة مراحيض وبئر للماء ، ومخزن للسقاء .

اما أعلى اقيسارية فربيع لسكن الاجانب وغيرهم من التجار ، واحيانا يكون في اعلى هذه القيسارية مسجد يصعد اليه بسلم ، وكانت القيسارية تطلق ليلا ولها حارس (١٥٦) . وقصد صرفت المدن المصرية القياس منذ الفتح العربى لصر ، وقد خصص ابن دقماق لقياس الفسطاط عدة صفحات من كتابه ، وكانت تنسب الى اصحابها او لا يباع فيها ، وقد يشغل وسطها في اقامة مساطب ومقاعد للخطاطين . وفي حالة عدم استخدامها في الافراض التجارية قد تتحول الى ورش تقوم بها صناعات (١٥٧) هذا ، ولانظر مدينة مصرية من وجود قيسارية او اكثر بها ، ومازالت بعض شوارع الحى التجارى في كل مدينة تحمل نفس الاسم .

ب - الفنادق : (١٥٨) هى منشآت تجارية وسكنية للتجار من اجانب ووطنيين في داخل الحى التجارى ، وينزل هؤلاء التجار اعاليها في حين يخصص اسفلها للبيع والشراء ، وتنسب

(١٥٤) يمكن معرفة المزيد من التفاصيل عن مثل هذه المنشآت التجارية من مراجعة كتب الخطط التى تبيع اشكالها وتطورها التاريخي ، كما ان حجج الوفك تعتبر مصدرا هاما في تعديدها ووصلها نظرا لان هذه المؤسسات كانت ملكا للانخاص ، وكثيرا ما كانوا يوفقونها على المنشآت الدينية والتعليمية .

(١٥٥) قيسارية : الكلمة اصلها لفظ يوناني (قيساريون) بمعنى السوق الامبراطورية مما يدل على انها كانت من انشاء الدولة ، لم اطلقت بعد ذلك على الشوارع التجارية في المدن .. انظر فؤاد حسنين : الدخيل في اللغة العربية ص ٩٢ ، آمال العمري : المنشآت التجارية في القاهرة في زمن الايوبيين والمماليك ص ١١٩ . رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

(١٥٦) آمال العمري : مرجع سابق ص ١١٩/١١٧ .

(١٥٧) ابن دقماق : الانتصار ج ص ٤٠/٢٧ .

(١٥٨) اللفظ يوناني الاصل Pandokeon ويقابلها الإيطالية كلمة Fondaco وكان يصرف في الدولة البيزنطية باسم Mitata ... انظر آدم متيز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ص ٢١٧ ، آمال العمري : مرجع سابق ص ١٢٩ ، في حين يرى ليوبولفو في مقالة عن الابنية العربية الاسلامية ص ١٢٢ ان كلمة Fonda (فندق) في الاسبانية مشتقة من اللغة العربية تماما ككلمة Alhondega . وقد اسهب شعنان الكعالي (في الحضارة العربية) ص ٦٤ / ٦٥ في وصف الفندق او الخان ودوره العظيم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية واوروبا وحدد مواقع الفنادق على ابواب المدن وفي الاسواق والفنادق الخاصة بالتفصيلات الاجنبية مع تحديد مهام كل منها وخصائصها وتفاصيل نواحيها ومن يسكنها او يتعامل في داخلها .

هذه المنشآت اما الى اصحابها او الى ما يباع بهامن سلع (حيث كان كل فندق متخصصا في بيع سلعة معينة مثل فندق الكارم) او الى سكانهم التجار . (١٥٩)

ويتألف الفندق من صحن اوسط حوله صار بها اربعة اروقة تشتمل على الغرف التي ينزلها التجار في الدور الاعلى (١٦٠) وقد عرفت الفنادق في مصر منذ القرون الاولى للهجرة ، اذ يذكر المقدسي فنادق مصر ويشير الى ان علامة ابوابها من شجر الجميز . (١٦١)

ج - **الخانات** : (١٦٢) كان للخانات وظيفتها في التخزين والبيع وكماوى للتجار الغريباء ، فشاها في ذلك شأن الفنادق ، وتسمى ايضا باسم الاشياء التي تباع فيها او باسم صاحبها . اما عن نظام بناء هذه الخانات (وفقا لما هو قائم في المغرب الاقصى حاليا) فانها تتألف من صحن مستطيل تحف به اربعة اروقة تشتمل على حجرات ، واهمية الاروقة انها تؤوى التجار والحيوانات والبضائع حتى لا يبقوا في العراء ، والطابق الارضى يخصص للمتاجر والاصطبلات ، والعلوى يشتمل على حجرات للضيوف ، وكذلك مخازن تجارية . واذا كانت للمخزن اهمية كبيرة فانه يشتمل على طابق آخر له نفس وظيفة الطابق السابق . (١٦٣)

والى جانب الخانات في الاسواق كانت هناك خانات على الطرق التجارية لخدمة التجار المارين والقيمين في هذه المنازل على الطريق . وهذه الخانات عبارة من بناء هندسي مكون من عدة حجرات تحيط بفناء مكشوف ، يضم غالبا طابقين بالارض منهما اصطبلات للدواب من الداخل ، اما من الخارج فحوائط صفيرة مثل حوائط الاسواق ، اى عبارة من حنية في الجدار حوالى ستة اقدام مربعة تضم ارفعا للبضائع ومصطبة البائع والمشتري . اما الدور العلوى فيقسم لمساكن ، وكانت هذه الانواع من المباني تفسم مسجدا ، اما في الفناء الاوسط او في الطابق العلوى فوق المدخل ، كما تضم ايضا سيلا . ويحكم هذه الخانات (واحيانا تسمى رباطات ايضا) على الطرق كان لها ابراج للمراقبة والدفاع ، ومن ثم لا تحتوى على عدد كبير من المخازن وحجرات النوم والدور الارضى غالبا مكون من حجرتين فقط على جانبي المدخل ، علاوة على قاعات كبيرة لا تزيد عن اثنتين في الجانب الوجود به المدخل الوحيد للخان ، ثم معر ، وتطل جميع هذه الوحدات على حوش اوسط مكشوف . وتخصص الحجرات بالدور الارضى للمالين بالخان وقد زود كل خان بئر ومسجد للصلاة واصطبل للدواب . (١٦٤)

(١٥٩) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٤٠ / ٤١ .

(١٦٠) ليوبولدو : الابنية الانبانية الاسلامية ص ١٢ .

(١٦١) المقدسي : ص ٢٠٤ .

(١٦٢) الخان كلمة فارسية وقد عرفها ياقوت بالنازل الى ينزلها التجار ، ومعناها منزل او سوق ، وقد انتقلت من الشرق الاسلامي الى المغرب ، وظلت محتفظة بخصائصها الى الشرق . وهناك تشابه كبير بين هذه الخانات وما نجده في المباني اليونانية فيما يسمى Agora وانتقل الى الرومان فيما يسمى Horrea ... انظر ليوبولدو مرجع سابق ص ١١٩ .

(١٦٣) ليوبولدو : مرجع سابق ص ١١٨ .

(١٦٤) آل المعري : مرجع سابق ص ١٤٧/١٤٦ ص ٢٠١ . نعيم زكي عطية طرق التجارة العالية بين الشرق والغرب في اواخر المصور الوسطى . رسالة دكتوراه (غير منشورة) آداب القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٥٦ .

د - الوكائل : تطلق على العمار التي أعدت سكنا للتجار الشرقيين وحفظ بضائعهم والتسمية محلية في مصر ، وهي أشبه ما تكون بالبورصة إذ يتولى الوكيل عن التجار في ممارسة كل صور البيع والشراء .

وهذه المنشآت كانت ملكا للدولة ويتولى الاشراف عليها موظف حكومة وهي بذلك تجميع بين وظيفتي الفندق والخان الا انها أكبر منهما من حيث المساحة وأكثر دقة في تخطيطها . وكذلك كان للأفراد وكائل خاصة بهم واصحابهم التجار الحائزين على ثقة الحكام . وقد عرفت الوكائل في مصر منذ القرن الخامس الهجري وانتشرت في القاهرة والإسكندرية ودمياط . وقد ظهرت المشروبات بكثرة في واجهات الوكالات الخارجية المطلة على الشارع والمطلة على الفناء الاوسط (١٦٥) وإذا كان الخان قد اشتمل على طابقين فان الوكالة كانت من ثلاثة طوابق اولها للضيوف وثانيها به المطبخ الذي يخدم الدورين وثالثها السكن الخاص .

خمسوع الاسواق للأشراف الحكومي : يتولى المحتسب الاشراف على الاسواق يساعد في ذلك عيونه وغلماؤه واموانه ومن كان يختارهم من العرفاء من صالح اهل كل صناعة . (١٦٦) ويشمل اشرافه عدة نواح أهمها :

- حفظ أموال التجار والغرباء الواردين من الامصار والرعايا فيمادعمهم اليه حاجة الاضطراب . باقامة الضمان للسامرة والدلالين والباعة والكيابية والنقلة والحمالين والمكارية والجمالين . وان كان في مكان فيه سفن ومرآب فللنوتية والملاحين . (١٦٧)
- مراقبة الكائيل والوازين وتحقيق كميالها وسمعتها ، وكذلك مراقبة النقود ، أي القيام بمهمة مفتش الاسواق ومنسوب مصلحة الكائيل والوازين والتمعة .
- محاربة التديليس والفسخ في السلع ومراجعة عدم الاحتكار والزام التجار بالبيع ، ومثل هذه المهام تمثل اختصاص مفتش التسمين في العصر الحاضر .
- التأكد من ضرورة مراعاة الشروط الصحية بالنسبة للمأكولات أي العمل كمفتش صحة .
- القيام باختبار اصحاب الحرف والصناعات في اعمالهم قبل الموافقة على الترخيص لهم بمزاولة المهنة كل حسب حرفته ، من ذلك مثالا الكحلون (اطباء العيون) والاطباء فهؤلاء يمنحهم المحتسب بما ذكر في كتاب « حنين بن اسحاق » واما الحجام فيمنحه بما يثبت مهارة وخفة يده في الجراحة ، في حين يلزم المحتسب المجبرين والجراحين بان يكونوا على علم بالتشريع واعضاء الانسان . (١٦٨)

(١٦٥) آمال العمري : المرجع السابق ص ١٦٨/١٦٦ ص ٢٠٩ .

(١٦٦) بما انه ليس من المستطاع ان يعطى المحتسب بكل اعمال السوق فقد جاز له ان يجعل لكل صناعة عريفًا من صالح اهلها خبرًا بضعائهم بصرا بفشوشهم وتديسائهم كون مشرفًا على احوالهم ، ويقال به باخبارهم ، بما يجب الي سؤلهم من السلع وما تستقر عليه من الاسعار وغير ذلك مما يلزم معرفته ... انظر الشيزي : ص ١٢ .

(١٦٧) محمد بن طلحة القرشي النصيبي : القصد الفريد للملك السيد ص ١٧٧ .

(١٦٨) الشيزي : ص ٩٥ / ٩٩ ، ص ١٠٠ / ١٠١ .

- هذا ولا يقتصر اشراف المحتسب على السوق الرئيسية المعنية بل كان له الاشراف على الحوانيت المتفرقة في الحارات والدروب خارج السوق، اذ يفاجيء هؤلاء على حين غفلة منهم في كل اسبوع لان اكثرهم يندلس في تجارته وصناعته . (١٦٩)

ثانيا : الافران « المخازن »

نعمت المدن العربية بتنظيم احتياجات سكانها من الخبز وذلك بفضل ما كان متعبا من ضرورة الزام الدقايق - الذين يتولون طحن القلال - برفع « الوظائف » (الكميات المتفق عليها من الدقيق) الى حوانيت الخبازين ، ثم يجعل المحتسب بعد ذلك على كل مخبز وظيفة يخبزها في كل يوم ، لتلا تختل المدينة عند قلة الخبز ، ويلزم اصحاب المخازن بذلك ان امتنعوا منه . كما كان عليه ان يفرقهم (يوزعهم) اي الافران - على الدروب اطراف البلد ، لما فيهم من المرافق (المنافع) وعظم حاجة الناس اليهم . (١٧٠)

وكان المحتسب يسجل في دفتر اسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، فان الحاجة تدعوهم الى معرفتهم (١٧١) ، ويتفقد الافران في آخر النهار . (١٧٢) وفوق كل ذلك يراعي جميع الشروط الصحية الواجبة في شخص القائمين على انجاز الخبز في جميع مراحلها سواء قبل او اثناء ذلك وبعده .

ونظرا للضرورة الملحة في وجود الافران في ارجاء المدينة فان تصميمها كان يخضع لاشراف المحتسب ، وذلك لمرعاة الظروف الصحية للسكان من ذلك ما كان ينبغي على الخبازين من رفع ستائف حوانيتهم ، وفتح ابوابها وجعل منافس واسعة (فتحات) في السقوف يخرج منها الدخان لتلا يتضرر بذلك الناس ، مع مداومة اصلاح هذه المداخل . (١٧٣) .

وكذلك كانت المطاحن هي الاخرى تخضع لتفتيش المحتسب سواء في سلامة عمليات الطحن ومرعاة الشروط الصحية وضرورة الرفسق بالدواب المستعملة في ادارة احجار الطواحين .

وقد زاد من اهتمام المحتسب بهذا الرفق بالمدن ان معظم سكان المدن الكبرى كانوا يعتمدون على المخازن لسد احتياجاتهم اليومية لانهم لا يدخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم ، وعامة ماكلهم من اسواقهم . (١٧٤)

ثالثا - الحمامات

للحمام أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية في المجتمع الاسلامي فان عادة الاستحمام متصلة في سلوك المسلمين . ولقد كانت الحمامات من مرافق المدن الهامة التي تغطي المدينة صفتها

(١٦٩) الشيزري : ص ٦٠ ، ابن الاخوة ص ١٢٠ .

(١٧٠) الشيزري : ص ٢١ ، ٢٤ / ٢٤ ، ابن الاخوة : ص ٧٢ .

(١٧١) الشيزري : ص ٢٢ .

(١٧٢) ابن الاخوة : ص ٩٢ .

(١٧٣) الشيزري : ص ٢٤ / ٢٤ ، ابن الاخوة : ص ٩١ .

(١٧٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٩٤ .

الحضرية ، واكثر من هذا فقد جعلها ابن خلدون من المظاهر المميزة للمدن المستبصرة ، حيث اثنا مما تدعو اليه عادة الترف والرفنى والتنعم .

وفضلا عن وظيفة الحمام الصحية والترفيهية والدينية للحمامات فقد خضعت لإشراف المحتسب الذي كان يتفقد حماما في كل يوم مرارا ، وأمر اصحابها باصلاح الحمامات ونضج مائها ، وبفصل الحمام وكسنة وتنظيفه بالماء الطاهر ، وان يفعلوا ذلك مرارا في اليوم . (١٧٧)

ونظرا للاهمية الصحية والترفيهية والدينية للحمامات فقد خضعت لإشراف المحتسب الذي كان يتفقد حماما في كل يوم مرارا ، وأمر اصحابها باصلاح الحمامات ونضج مائها ، وبفصل الحمام وكسنة وتنظيفه بالماء الطاهر ، وان يفعلوا ذلك مرارا في اليوم . (١٧٧)

لقد كانت اعداد الحمامات كبيرة في المدن الآهلة بالسكان ، فكان في كل حي حمام على الأقل ان لم يكن اكثر من ذلك في بعض الاحيان ، اما المنازل الكبيرة او القصور فقد كان لها حمامات خاصة على طراز الحمامات العامة ، ولو انها اصغر منها بوجه عام . كما عرفت كثير من الابنية العامة - في المدن - الحمامات مثل الخوانق والرباطات والخانات القائمة على الطرق .

ولطبيعة المجتمع الاسلامى كان للنساء حمامات خاصة ، ليس فقط في المدن الكبيرة وانما في المدن المتوسطة مثل مدينة الخانكة . (١٧٨)

وقد كان المحتسب يتفقد ابواب حمامات النساء . (١٧٩)

ومن الناحية الاقتصادية فقد كانت الحمامات من افضل المقارات التي تقتنى داخل المدن ، وقد وضع الدمشقي (١٨٠) لافضلها مواصفات منها ، ان تتوسط المدينة وان تكون مصارف الماء فيها واسعة مستقلة ليؤمن عليها من الاختناق ، وان بيوتها متوسطة مكتنزة ليعمل فيها الوقود ، وان يكون مخلمها وقيمها واسعين ليتمكن ادخال الكثير من الوقود لها . وان كان مأوها بدولاب وما قل عمق بشرها فهي افضل ، وان كان مأوها جاريا فما قرب من جهة الماء ومعظمه .

ويدخل في مجال المفاضلة بين الحمامات تفصيل ما كان قديم البناء (١٨١) كثير الاضواء

(١٧٥) ليوبولد ونوديس : الابنية الاسلامية الاسلامية ص ١٠٨ / ١٠٩ .

(١٧٦) الشيزرى : ص ٨٨ ، ابن الاخرة : ص ١٥٦ .

(١٧٧) الشيزرى : ص ٨٨ ، ابن الاخرة : ص ١٥٠ / ١٥١ .

(١٧٨) القرظى : الضفط ج ٢ ص ٩٥١ « حمام برسم النساء واستجد بعد سنة ٧٩٠ هـ »

(١٧٩) الشيزرى : ص ١٠٩ .

(١٨٠) الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة ص ٣٥ .

(١٨١) قال مهذب الدين بن هبل في كتاب « المختار » خير الحمام ما كان قديم البناء فان الحمام القريب العهد بالبناء تكون حيطانه ندية فتكون ارايبج صهاريج مفرقة قال بعض الشراح لهذا الفصل « الحمام الجديد البيناء يتحلل من حيطانه رطوبات متزجة بجوهر الكلس والحصى والنفار ويتبرخ بحرارة الحمام فيفسد استنشاقها بالروح والنفس ... فلذا اعتقت الحمام قل تحليل الابخرة الرديئة عنها ومن حيطانها فيؤمن الضرر الحاصل منها ... انظر التزلى : مطالع البذور في منازل السرور ج ٢ ص ٥ ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

مرتفع السقوف واسع البيوت ملب الماء طيب الرائحة ، وان تكون حرارته بقدر مواء الداخل اليه ، وان يكون الفناء منسجلا ان ابخرة الحمام رديئة وكثيرة وان يكون الحمام على البناء فان ذلك معين على تقليل حر ابخرتها . (١٨٢)

وكل هذه الاشتراطات ان دلت على شىء فانما تدل على مدى حرص العرب على ان تكون حماماتهم على احسن وضع ومستوفية لكافة الشروط المطلوبة في مثل هذا المرفق الهام من مرافق المدن .

اما عن تخطيط الحمامات فقد شيدت على نظام يضمن للمستحم عدم تعرضه للابداء بالانتقال السريع من البرد الى الحر او العكس (١٨٣) فقد كانت تشتمل على عدة بيوت ، الاول منها مبرد مرطب ، والبيت الثاني مسخن مرخ والبيت الثالث مسخن مجفف (١٨٤) ، وفوق ذلك فالانتقال بينها يكون تدريجيا (١٨٥) وقد حفظ لنا البغدادي وصفا تفصيلا لحمامات مصر فذكر انه لم يشاهد في البلاد اتقن منها وضعا ولا اتم حكمة ولا احسن منظرا ومخبرا ، ثم وصف الاحواض وسعتها ومقدار ما يصب فيها من ماء بارد وحار . واما البرك فمن الرخام ، وعليها اعمدة وقبة ، وسقوفها مزخرفة والارض من الرخام (١٨٦) . وكانت جدران بعض الحمامات تزين بالصور والنقوش الجميلة اعتقادا انها تزيد قوى البدن الحيوانية والطبيعية والنفسية . (١٨٧)

اما وصف البغدادي لبيت النار فان عليه من القصور المصنوعة من الرصاص التي تتصلب قرب اعاليها بمجار من انابيب فيدخل الماء من مجرى البشر الى فسقية عظيمة ثم منها الى القصور ، ثم الى مجاري الحمام فلا يزال الماء جاريا وحارا بايسر كلفة . ويشير الى ان ارض الاتون (بيت النار) تفرش بنحو خمسين اردبا من الملح - وكذلك ارض الافران - لان الملح من خصائصه حفظ الحرارة ، ويضيف البغدادي انه توجد اماكن للخاصة دون العامة . (١٨٨)

هذا وترجع الحمامات الإسلامية من حيث عمادة الانشاء وطريقة البناء الى الرومان ، وان كانت الحمامات الرومانية اكثر عظمة واكبر حجما واعظم ترفا فان العرب لم يراعوا الا الفائدة العملية في جميع ابنيتهم (١٨٩) ، وان كانت الحمامات في عصر المماليك بمصر قد اخذت الكثير من المظاهر الجمالية .

(١٨٢) الفزولي : مطالع البذور في منازل السورج ٢ ص / ٤ / ٥ . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(١٨٣) زكى حسن : فنون الاسلام ، ص ٢٨ .

(١٨٤) الشيزي : ص ٨٦ ، الفزولي ، مطالع البذور ج ٢ ص ٤ .

(١٨٥) الفزولي : مطالع البذور ، ج ٢ ص ٤ .

(١٨٦) البغدادي : الافلاحة والاعتبار ص ٢٩ / ٤١ .

(١٨٧) زكى حسن : فنون الاسلام ، ص ٢٨ .

(١٨٨) البغدادي : الافلاحة والاعتبار ص ٢٩ / ٤١ .

(١٨٩) ليوبولد ونوريس : الابنية الإسبانية الإسلامية ص ١٠٨ .

وأخيرا يجب ان نذكر ان الحمامات في مدينة العصور الوسطى بأوروبا كانت محرومة ، ولم تعرف اسبانيا الحمامات الا بعد نزول العرب بها ، ولم تقتصر الحمامات على المدن الاسلامية بل بالاندلس بل تعدتها الى غيرها، واصبح الاستحمام عادة عند الاوروبيين حتى الراهبات في الاديرة ثم مع زوال سلطان الاسلام تلاشت عادة الاستحمام في اسبانيا منذ القرن السادس عشر الميلادي وساعد على ذلك عدا الكنييسة للعادات الاسلامية . (١٩٠)

ربما - الابنية الدينية :

تميزت المدينة الاسلامية بالعديد من المباني والمنشآت الدينية التي لا يقتصر دورها على احياء الشرائع الدينية بل تعدى ذلك الى تقديم خدمات تعليمية وثقافية (١٩١) واجتماعية وصحية ، من هذه المنشآت المساجد والخوانق والرباطات والزوايا .

المساجد : لا يتشابه دور المسجد في المدينة العربية مع دور الكنييسة او الكاندرائية في أوروبا العصور الوسطى ، فانه فضلا عن قيام المسجد بعدة مهام دينية وتعليمية وثقافية ، فان مساجد الصلوات الخمس تعدد في المدينة الواحدة حتى تعد بالآلاف ولقد كانت اقامة بعض المساجد « المسجد الجامع » من مسؤوليات الحاكم أووالي ، والى جانبها مساجد تعد بالآلاف فيسبق في اقامتها الامراء والقواد والتجار وغيرهم من افراد المجتمع كل حسب قدرته .

اما المسجد الجامع - الذي اتخذ بعض الفقهاء علامة مميزة للمدن الاسلامية او الامصار - فقد كان مركزا للحياة الدينية والسياسية والاجتماعية الى جانب مهمته الاساسية اداء الصلاة ، فقد كانت تعقد فيه الاجتماعات العامة الكبيرة ، وتنظر فيه القضايا ، وتعطي في رحابه الدروس ، ومن فوق منبره كانت تقرأ النشرات الرسمية والخطابات التي تتضمن اخبارا هامة كالانصارات الحربية . (١٩٢)

ويرجع قيام المسجد الجامع بكل هذه المهام الى انه كان مجلسا لوالي ، وكان للمسجد حرس (١٩٣) حول الموضع الذي يجلس فيه الوالي الذي يتولى الولاية على الاقليم - واول مظاهرها

(١٩٠) ليوبولد ونوريس : المرجع السابق ص ١١٦ / ١١٨ ، والثاني مفقود : المدينة على مر العصور ج ٢ ص ٢٢٢ حيث يذكر انه كانت توجد في احياء المدن الاوربية في العصور الوسطى دار للاستحمام .

(١٩١) كمثال نجد في مسجد احمد بن طولون في عهد السلطان لاجين انه رتب بالمسجد ثلاثين نفسا يتلقون على مذهب الامام مالك ، وشيخا يتلقون عليه ومثلهم على مذهب الامام الشافعي وابن حنبل والامام احمد ، ومثلهم مائة من علم الحديث النبوي) وعشرة من الاطباء يقرأون الطب ، وشيخا يقرأون عليه ، وطائفة من القراء (للقرآن الكريم) ومن يلقن الصبيان الإتيان ، الى غير ذلك من وجوه الخير ، واجرى لجمعهم ازالة اجمة ، ووقف لجمع ذلك الاموال عظيمة . انظر التيجيبي السبي : مستفاد الرحلة والاقتراب ص ٧ .

(١٩٢) ليوبولد ونوريس : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

(١٩٣) الكنتي : الولاة والقضاة ، ص ٦٢ .

امامة المسلمين في الصلاة ، وقد ظل الخلفاء والولاة يؤدون خطبة الجمعة بأنفسهم حتى العصر العباسي ، ثم انابوا عنهم غيرهم .

ولم يقتصر استخدام المسجد كمركز اعلام لاوامر الدولة ومقراتها (١٩٤) بل اخلت هذه الاوامر والمقررات - احيانا - صورة الدوام والاستمرار ، فقد كانت المراسيم تنقش على الرخام وتثبت بجوار المحاريب او تثبت على ابواب المساجد ، وخصوصا تلك المراسيم الخاصة بالاعفاء من الكوس او الضرائب بالنسبة للمدينة او الجهة التي يقع فيها المسجد ، وهكذا يصبح من وظائف المسجد نشر اوامر الدولة ومقراتها على نحو ما هو ثابت في مسجد الامير نصر الله بمدينة فوه (مرسوم ابطال مكس فوم ٨٠٣ هـ) ولم يقتصر هذا الامر على المدن بل عم في اقصى في مساجدها الجامعة . (١٩٥)

ونظرا لاهمية المسجد الجامع في المدينة العربية فقد نظر اليه البعض على انه اساس التنظيم العمراني للمدينة ومن حوله بقية الانشطة (١٩٦) وانه بهذا يحتل موقعا هو بمثابة القاب او المركز الرئيسي للمدينة ، وتنتشر حوله الاحياء والخطط المختلفة بما حوته من دور ومساكن واسواق ورحاب وغيرها . (١٩٧) وقد قارن البعض بين المسجد الجامع والكتدرائية في العالم المسيحي وما بين منارة المسجد وبرج الكنيسة . وان ساحة المسجد تحل محل ميدان الكنيسة (١٩٨) . ومثل هذه المقارنة كان من الممكن قبولها لو ان المدينة العربية كانت تعرف مسجدا جامعا واحدا ، وانما تخطط على هذا الاساس ان يتخذ موضع المسجد اولا ثم تقام المدينة من حوله ، وان صدق هذا فانما على الامصار والمدن الحادثة ، اما اذا نظر الى تخطيط المدينة العربية بوجه عام فانها تختلف في تركيبها عن المدينة الاوروبية لاختلاف دور كل من المسجد والكتدرائية .

(١٩٤) يذكر ابن الاثير ان منشورات الحكومة كانت تكتب في الواح تعلق في الاسواق . ويذكر السخاوي ان هذه المنشورات منها ما كان متوقفا على رخام يطلق به في الشوارع ويلصق واحدة منها قرب ابواب المدينة الرئيسية او تلبس على حائط بقرب المسجد الجامع ، و احيانا كانت تعلق على الحوائط وابواب الدار ... انظر احمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٤٤ / ٤٥ .

(١٩٥) حسن ميد الوهاب : طرز العمارة الاسلامية في ريف مصر ص ٦ .

(١٩٦) السيد محمود عبد العزيز سالم : التخطيط ومظاهر العمران في العصور الوسطى ص ٥٤ . المجلد ٩ ، العدد ٩ سبتمبر ١٩٥٧ .

(١٩٧) فريد شافعي : العمارة والبيئة العربية الاسلامية ص ٣٦ . مجلة البدر العدد ٢ ، ربيع سنوية تصدر من دار الملك عبد العزيز . السمودية يونية ١٩٧٥ .

(١٩٨) سابا جورج شير : العلم وتنظيم المدن العربية ص ٢٠ . الكويت ١٩٦٣ .

المعاهد والمؤسسات الدينية الإسلامية :

تعتبر الخوانق والرباطات (١٩٩) والزوايا مصرا متعددة من المعاهد والمؤسسات الدينية الإسلامية العامة والتي تؤدي خدمات ثقافية واجتماعية وصحية ، ففي بعضها ينقطع اصحاب التصوف واهل التقشف للعلم والعبادة ، وفيها يتم تدريس مذاهب الفقهاء على اختلافها ، كما ان بعضها يقوم بايواء الغرباء والوافدين من الفقراء واهل المسكنة وهى بذلك بديل عن اماكن السكنى العامة . واذا كان لهذه الدور شروط في القبول فان بعضها بدون شروط ، ومنها ما كان خاصا بالنساء ، كان فيها متسع للاطفال يتعلمون الدين والعلوم العامة ، وفوق ذلك خدامات صحية .

ولقد كانت دور العبادة والعلم هذه من الاعمال الخيرية التي تنافس في تشييدها السلاطين والحكام والامراء والاعيان والتجار وكل اهل الرياسة والثروة (٢٠٠) ثم اوقف كل هؤلاء على هذه المؤسسات من العقارات والاراضي الزراعية وغيرها ما مكنتها من اداء وظيفتها في المجتمع ، وما وسع من اختصاصاتها بما لا يقارن بحال من الاحوال بدور العبادة التي قامت في المجتمع الاوربي .

خامسا - المقابر والاضرحة :

كانت المقابر القديمة الفرعونية (البرابي) احدى سمات تعريف المدينة في مصر المصير الوسيط . اما المقابر الإسلامية فقد استحدثت مع انتشار الإسلام في مصر واتخذت بوجه عام مواضع في الجهات القبلية (الجنوبية) او الغربية من مراكز العمران دون الجهات الشمالية لرعاة اتجاه الرياح السائدة .

اما خصائص مواضع هذه المقابر فكانت اامعلى حافة الصحراء او في الجزر الرملية ان وجدت بين المعمور ، او على التلال الكفرية الباقية كاثار للمراكز العمرانية القديمة ، او كبقايا للمقابر القديمة السابقة للفتح الإسلامي .

(١٩٩) من الرباط ودوره في الحياة الدينية في الإسلام وصلته بالرباط الحربى ومدى العلاقة بينهما والتشابه القائم بين هذه المنشآت ومثيلاتها في أوروبا المصور الوسطى انظر :

زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، ص ٣٦ / ٢٧ ، الطبعة الاولى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

كمال الدين سامح : العمارة في صدر الإسلام ص ١٤٢ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧١ .

عثمان الكعاب : الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط . معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٥ .

ناجى معروف : اصالة الحضارة العربية ص ٢٦٠ / ٢٦٢ .

حسن الباشا : الانقلاب الإسلامي في التاريخ والوثائق والآثار ص ٢٧ القاهرة ١٩٥٧ .

(٢٠٠) ابن خلدون : الرحلة ص ٣٠٤ .

وقد دعت الضرورة أحيانا الى انشاء المقابر في الجزر المنتشرة في بحيرات شمال الدلتا وذلك ضمنا بالأراضي الزراعية وحرصا في جميع الحالات على الدفن في اماكن جافة خالية من النز والرشح والرطوبة .

أما الأضرحة - وهي المقابر ذات القباب - فقد كثرت في منطقة المقابر وفي داخل المساجد بالمدين حتى صارت من سمات المدن الإسلامية ، ويلاحظ على هذه الأضرحة ان الكثرة الغالبة من المدفونين بداخلها من غير المصريين ، منهم الحجاج والرحالة العابرين لأرض مصر والذين انتهت حياتهم في تلك المدن ، ومنهم طلاب علم نالوا في مصر الوظائف بعد ان استقروا فيها وماتوا .

وقد تنافس في تخصيص المقابر والأضرحة وزخرفتها وتشبيدها كل من الملوك والسلاطين والأمراء والتجار وأفراد الشعب مما جعل من تلك المقابر سجلا حافلا بالنف الاسلامي العربي خصوصا اذا ما علمنا بان الكثيرين من السلاطين والأمراء والأغنياء قد اهتموا باقامة المقابر والأضرحة الخاصة بهم في حياتهم ، ويبدو واضحا ان هذه من سمات مصر منذ العصر الفرعوني .

وهناك من المقابر ما ارتبط تشييده بالمساجد والزوايا والرباطات والخوانق ، اذ ان كثيرا ما كان المشيد لهذه العمائر الدينية يقيم لنفسه وافيده من سكان هذه المؤسسات مقابر على نحو ما هو بمدينة الخاقاوة السرياقوسية .

هذا وتعد منطقة المقابر من المعالم الواضحة في المدن العربية المصرية في العصر الوسيط ، وكثيرا ما تشغل الاجزاء الداخلية من كتلة السكن الرئيسية ، وقد تعدد مناطق المقابر بتعدد النوبات السكنية القديمة للمدينة الحالية ، وفي كثير من الاحيان تشغل منطقة المقابر اطراف الكتلة السكنية القديمة .

ساسدا : احتياجات المدينة من المياه العذبة

ان توفر الماء العذب شرط اساسي لاي تجمع عمراني ، وتصبح الحاجة اليه اشد مع زيادة حجم هذا التجمع المثل في المدن ، ولهذا نجد ان القرب من النهر وفروعه وخليجانه وترعه شرط اساسي في تحديد مواضع المدن ، كما ان لفصلية النهر اثرها وبالمثل لفصلية خليجان النهر ، مما يدفع باستمرار الى العناية بالمجاري المائية وضمان استمرار جريان الماء فيها ، واذا لم تتوفر المجاري الطبيعية فان شق الخلجان او الترع يصبح البديل الضروري للمراكز العمرانية المستحدثة في مثل هذه النواحي .

هذا ويتم تزويد مساكن المدينة بالماء العذب على يد السقائين واصحاب الروايا والقرب ممن يحملون على ظهورهم او على الدواب . وقد كان من اختصاص المحتسب الاشراف على السقائين فيايمهم بالدخول في النهر حتى يبعدوا عن الشط ومواضع الاوساخ ولا يستقون من موضع النهر

بقرب سقاية الدواب أو مستخدم (خراة) أو مجرى حمام ، بل يصعدون عنه أو يعمدون من تحته . ومن اتخذ منهم رثاوية جديدة أمره المحتسب بنقل الماء الى معاجن الطين اياما ، ولا يبيعون الماء للشرب ، فانه يكون متغير الطعم والرائحة من اثر الدبابة والزفت ، فان زال التغير اذن لهم المحتسب ببيعه للناس للشرب والاستعمال .

وفي سبيل المحافظة على المارة من الببل فقد كان المحتسب يأمر السقائين بربط أفواه القرب ، وان يشدوا في أعناق دوابهم الاجراس وصفاقات الحديد والنحاس ، لتعلو جلبة الدابة اذا عبرت في سوق أو محطة . (٢٠١)

وهناك من المدن المشرفة على النهر مباشرة ما كانت المنازل فيها تأخذ حاجتها من النهر مباشرة بدركات تؤدي الى النهر مثلما شاهد ابن بطوطة في دمياط ، كما عرفت بعض المدن رنع الماء بالدواب لتوصيل الماء الى المرافق العامة كالحمامات والمساجد . وكذلك عرفت بعض المدن استخدام ماء الآبار في الأغراض المنزلية تسهيلا وتيسيرا ، في حين اقتصر حمل الماء العذب على أغراض الشرب .

وأما في المدن البعيدة من مصادر الماء العذب مثل المدن القائمة في الجرد أو الهامشية فقد اعتمدت على تخزين الماء العذب في الصهاريج أو استفادت من ماء المطر .

سأها : الصرف والتخلص من نفايات المدن :

كما عرفت المدن المصرية شبكات المياها العذبة في المساكن والمرافق العامة حيث ينقل الماء الى الادوار العليا ، كذلك عرفت المدن طرق صرف مياه آبار الحشوش (المراحيض) المتجمعة من مرافق المنازل في حفر الدور وذلك على يد الكاسح (السراباتي) الذي كان يتولى تنظيف الاسرية والقنى بعد نقل هذه المياه المستعملة . (٢٠٢) ولقد كان نص اختصاص المحتسب الزام من اخرج كتيفا ان يطرحه خارج البلد . (٢٠٣)

وفي المدن الكبرى كالقاهرة كانت الدولة تعطى حق نقل مياه الحشوش للترزم يدفع للدولة أموالا مقابل احتكار هذا العمل في كل المدينة ، ثم يتولى هو بالاتفاق مع السكان على الاجر الذى يتقاضاه مقابل نقل مياه حشوشهم ولا يستطيع مالك أن يفعل ذلك الا عن طريق هذا للترزم .

(٢٠١) الشيزرى : ص ١١٧ ، ابن الاخوة : ص ٢٤٠

(٢٠٢) السبكي : معيد النعم ومبيد التلم ، ص ١٤٦ .

(٢٠٣) الجليلدى : التيسر في احكام التسعير ، ص ٧٢ .

والى جانب هذه الوسيلة فقد عرفت بعض المنازل استخدام آبار عميقة فى داخلها يصرف اليها الماء المستعمل حتى يتسرب مع الماء الجوفى على نحو ما كشفت عمليات الحفر فى انار القسقاط . (٢٠٤)



وبعد ، فقد اتقينا الضوء هنا على جانب هام من الفكر العربى ، كيف كان يعامل مع مطبات الحضارة من حوله - المدينة - فهذه نبذة عن تركيب المدينة العربية تمكس مدى عناية العرب بجغرافية المدن ، ولقد استعرضنا نصيب هذه الظاهرة الجغرافية ، فى المؤلفات الجغرافية وكتب توارىخ المدن والحضارة ، وخاصة ما سجله ابن خلدون فى مقدمته . ولقد الحقنا ذلك بتركيب المدينة من الداخل من حيث تخطيطها : منازلها وأسوارها وتوابعها ، ثم فصلنا القول عن اهم مرافقها التجارية والصناعية والصحية ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية والدينية ، ومدى كفاية هذه المرافق فى سد احتياجات السكان اليومية لتقويم المدينة بوظائفها المتعددة .



ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء

« يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من
أضفار السماوات والأرض فانفذوا » لا تنفذون إلا بسلطان »
قرآن كريم

المهندس سعد شعبان *

وتكنولوجيا الفضاء أصبحت تترى على
عرش الإنجازات والتطبيقات العلمية نموذجاً
لدقة التخطيط ودقة التصنيع ، باعتبارهما
خلاصة الفكر الإنساني المتقدم وثمرة لجهود
حشد كبير من العلماء . ومن ثم فقد جذبت
إليها سائر تكنولوجيات العصر ، ودفعتها
إلى عجلة التطوير .

ولم تمض غير سنوات على بدء عصر
الفضاء حتى أصبح لإنجازاته وبحوثه آثار على

مقدمة

بعد الحرب العالمية الثانية ، انحسر عصر
الذرة ، وبدأ عصر الفضاء . فالفضاء عصرنا
الذي نميشه ، وإنجازاته أصبحت ملء السمع
والبحر ، تبهر الناس ، وتأخذهم ، ولكنهم
جميعاً بين خاصة وعامة ، ما زالوا يحسون
أنهم يقفون أمام المجهول . لأن ما نعرفه من
الفضاء ، وما استكشفناه منه ليس غير قطرة
في بحر لحي .

* المهندس سعد شعبان : (ماجستير في الملاحة الجوية) .

— رئيس لجنة الفضاء بنادى الطيران المصري . وعضو لجنة الفضاء باتحاد الطيران الدولي ببافيس .

— رئيس تحرير مجلة المهندسين بالقاهرة .

— له مؤلفات علمية عديدة في علوم الطيران والفضاء .

ولا شك أن الحقائق الفضائية التي نعيشها اليوم كانت أفكارا خيالية في عقول بعض أدباء أو علماء القرن الماضي ، امتزجت في خيالهم بالأحلام ، ووردت لذلك في بعض قصص أدباء القرون السابقة وخاصة القرن التاسع عشر الذي شهد فجر ثورة التكنولوجيا . لقد غزا هؤلاء الأدباء القمر وهم على الأرض ، وتصوروا هجوما سخائنا من سكان كواكب أخرى موجها إلى سكان الأرض . وصوروا للناس في بساطة كيف يمكن الانفلات من الجاذبية ومعاناة انعدام الوزن وطرق بناء مستعمرات على القمر .

من هؤلاء « **جول فيرن** » الأديب الفرنسي الذي برع في مزج العلم بالأدب في عدة روايات والذي يعرفه العالم بروايته الشهيرة **٨٠ يوما حول العالم** ومنهم كذلك الرياضي الروسي « **تسيلوفسكي** » الذي وضع تصميمات مبكرة لسفن الفضاء والصواريخ ، والتي لا تختلف منها كثير من سفن الفضاء الحالية شكل (١) ويشاركهم في هذا الركب العلماء البريطانيون « **البرت بيل** » و « **ه . ج ويلز** » ، والويسري « **بواسيه** » .

كل من هؤلاء الأدباء سبق عصره وصور للناس في قالب مشرق وشيق ، مركبات خيالية تستطيع اختراق الأغلاف الجوية للأرض ، وكيف يعاني الإنسان من انعدام الوزن ، وعند السفر للقمر ، أو التجول بين الكواكب . ومن أجل ذلك افترضوا اكتشافات لا علم للناس بها كتفجير طاقات خفية في المادة . أو تسخير قوى لا دراية للبشرية بها . وبذلك إلهموا بين قراء الأدباء لونا جديدا يمتزج فيه العلم بشيخ الرواية ، ويختلط فيه الخيال مع حقائق الوجود . وبذلك أصبحت الحقائق العلمية في تناول غير التخصصين في تبسيط محب للنفس ، وخاصة بعض المستقلات من الطاقة والذرة والفلك والإشعاع .

كل معالم الحياة في العصر ، تكاد تؤثر على كل مواطن في كل قارة ، سواء في عمله أو بيته . فقد فرضت التحولات الفضائية نفسها على حياتنا اليومية وعلى معالم الحضارة فوق أرضنا ، ليس فقط في مجالات الرفاهية بل في أدق مظاهر الحياة . فقد أصبح لها أثرها على الاتصالات بين الدول ، وعلى التنسيق بالاحوال الجوية ، وعلى الملاحة عبر المحيطات والبحار والأجواء ، وعلى التصوير من الجو ، وعلى تسليح الجيوش .

كما أصبح له اثره على الفكر الانساني في عديده من مجالات الفنون التشكيلية والتطبيقية .

ومن هذه التحولات ما فرض نفسه بحيث أصبح بشكل حجر زاوية في ركب البشرية لأنها تحولات جذرية في الأسلوب والتطبيق ، فعلى سبيل المثال كان البحث عن البترول والياه الجوفية والمعادن الدفينة يعتمد على الحفر والتنقيب في جوف الأرض ، بمثابة وحفارات إلى أعماق كبيرة تحت سطح الأرض ولكن بعد تقدم البحوث ، أصبحت هذه الوسائل متيقة ، وأصبحت عملية التقاط الإشعاعات الصادرة من هذه المناطق هي الوسيلة الرئيسية .

وكذلك فرضت التحولات الفضائية تغييرات على كثير من المجالات الأخرى ، الأمر الذي يدعونا إلى التبصر فيما نحن مقبلون عليه .

ومن ثم فان نظرتنا إلى بحوث الفضاء تدعونا إلى التبصر فيما كانت عليه أفكارنا سابقينا ، وما أصبحت عليه في واقع حياتنا ، وما هو مخطط لها في مستقبلها .

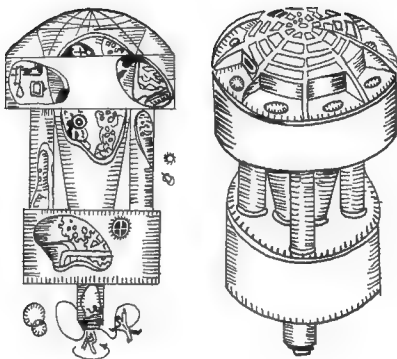
• • •

في البعد كان خيالا

لا شك أن حقائق اليوم هي أحلام الأمس .

• • •

ماذا يحدث الآن في عالم الفضاء



شكل (١) تم تختلف سفن الفضاء التي تغلبها العالم
تسيلكوفسكي في القرن التاسع عشر ، عن سفن سويوز التي
اطلقتها السوفييت في القرن العشرين

الفصل للمطية

لا شك في أن الألفار الصناعية وسفن الفضاء مدينة للصواريخ بنجاح صمودها إلى الفضاء . فالصواريخ تمثل المطية التي تحمل كل الأجسام الصناعية في الغلاف الجوي المحيط بالأرض وتفلت بها من أسر الجاذبية لم تضعها على مداراتها . والحقيقة أنه أولا الوسيلة لتعمدنت النتائج . لذلك فمن تدقيق القول تقرير أن الصواريخ كانت الجهد الأساسي في غزو الفضاء .

ولقد قامت الأفكار العلمية والأسس النظرية لاطلاق الصواريخ في العصر الحديث على اكتشاف مديد من العلماء يبرز منهم ثلاثة :

أولهم عالم الرياضيات الروسي (تسيكوفسكي) ، الذي وضع عام ١٩٠٣ نظريات الانطلاق في الفضاء ، وتحول رد فعل الغازات إلى حركة ، وربط بين الحقائق الرياضية البحتة وحقائق علوم الفلك والتفاعل الكيماوي في مركبات ترتفع بعيدا عن الأرض .

وثانيهم العالم الألماني «هرمان أويرث» وقد كان ضليعا في علوم الفلك والرياضيات والذي نشر عام (١٩٢٣) كتابا باسم «الصواريخ عابر الفضاء الكوني» وأعاد طباعته بعد أعوام مضيفا إليه رسوما توضيحية . وقد لاقى الكتاب ترحيبا في الأوساط العلمية ، نظرا لأنه قرب للأذهان فكرة سفن الفضاء التي يمكن أن تدور حول الأرض ، وتهبط على الكواكب الأخرى .

وقد اهتم «أويرث» بنشر الوعي العلمي بين الجماهير فكان «جماعة السفر ميسر الفضاء» ، وأشرف بنفسه على إخراج عدة أفلام سينمائية ، تقرب هذه المعلومات وتبسطها للناس ، أحدها باسم «رحلة صاروخية إلى الفضاء» وآخر باسم «بت القمر» .

وثالثهم العالم الأمريكي «جودارد» ، الذي يسمى باسمه حاليا المركز الرئيسي لمراقبة سفن الفضاء في الولايات المتحدة الأمريكية فقد بدأ أبحاثه وكتابات عن «وسيلة الوصول إلى أقصى الارتفاعات» عام ١٩١٩ شكل (٢) ووضع تصميمات بسيطة لعدة صواريخ ، وأخذ بطور أساليب إطلاقها ويجريها أمام الجماهير في الحدائق العامة والأماكن الخالية . وبعد عدة سنوات أفلح في الارتفاع بصواريخه إلى ارتفاع (٤٠٠٠) قدم ثم (٨٠٠٠) قدم ثم (٧٥٠٠) قدم ، ووفق في دراسة خواص الوسط المادي لانطلاق الصاروخ ، وثيقن من إمكان اندفاعها في الفضاء بنجاح . كما درس نظرية نفث الغازات ، خلال الاختناقات أو امتناق التمث (Nozzles) .

ولقد كان من أعمق أعماله ، نشر الوعي العلمي عن الصواريخ والفضاء وجذب انتباه الجماهير إلى هذه العلوم فكان عدة جمعيات علمية «لهواة السفر إلى الفضاء» ، ودراسة شؤونه .

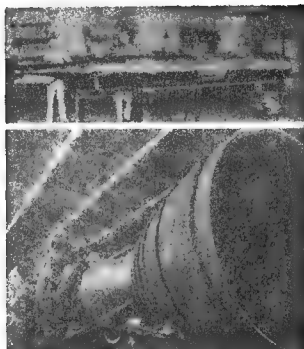
وقد ظل «جودارد» في كفاحه ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وبعثت أبحاث الصواريخ في عدة دول من أهمها ألمانيا ، البحث عن وسائل مبتكرة للدمار ، وكان لها في ذلك قصص السبق ، الذي ادخلت به البشرية عصر الفضاء .

• • •

رواد الصواريخ

لم تبدأ التفهمة القوية لإنتاج الصواريخ بصورة غير بدائية إلا أواخر الحرب العالمية الثانية في ألمانيا . ويرجع ذلك إلى مجهودات الضابط المهندس الألماني «وولتر دورنيرجر» التي تقاسفرت مجهوداته مع مجهودات مستشاره الفني الشاب «فيرنر فون براون» وخصص لهما هتسل قرية «بينموند» (Peenemunde) المتعزلة في جزيرة

ماذا يحدث الآن في عاوم النضاد



شكل (٢) جونداد يعرب صواريخه التي بدأت ترتفع
لمدة آلاف من الاقدام فوق الارض

في تصنيع الصواريخ ، وهو الذي قام بتصميم أول صاروخ حامل للمواد النووية من طراز (رداستون) واستخدم خلال الحرب الكورية عام ١٩٥٣ . كما صمم الصاروخ الأمريكي الضخم من طراز (ساترون) الذي حمل أغلب سفن (أبولو) إلى الفضاء ، شكل (٣) .

اما قرية (بينموند) فقد سقطت في يد الجيش الروسي ، وتكشفت أسرار الصواريخ لكل من روسيا وأمريكا وبدأت بينهما سبارة حامية الوطيس في إنتاج هذه الوسائل المحففة للدمار .

١١١١ تتعدد مراحل الصواريخ

يتكون الصاروخ وهو فارغ من اجزاء معدنية تتمثل في هيكله ومحركه الصاروخي ، وهذه الاجزاء لها وزن ثابت يمكن أن نسميه « وزن الصاروخ فارغا » فاذا أضفنا اليه وزن الوقود الذي يمكن أن يوضع داخله ليشتعل ، يصبح لدينا « الوزن الكلي » للصاروخ .

ونسبة الكتلة هي النسبة بين هذين الوزنين
أي بين الوزن الكلي للصاروخ فارغا .

نسبة الكتلة = الوزن الكلي للصاروخ ÷ وزنه فارغا .

ويبدو من هذه المعادلة البسيطة ان العامل المتغير فيها هو الوقود .

وهناك علاقة رياضية خاصة تربط بين نسبة الكتلة وبين السرعة النهائية التي يمكن ان يبلغها الصاروخ تتمثل في الأرقام التالية :

السرعة النهائية	نسبة الكتلة
السرعة النهائية للصاروخ = سرعة خروج الغازات	٧ر٤
السرعة النهائية للصاروخ = ضعف سرعة الغازات	٧ر٧
السرعة النهائية للصاروخ = ٣ امثال سرعة الغازات	٢٠

« يوسلوم » عند مصب نهر الودود لاجراء أبحاث الصواريخ . وكانت اولي تسمرات أبحاثها صاروخ من طراز (ف ٢) يتجاوز في مداه مدى أقوى المدافع ، ولذلك أطلق عليه اسم « سلاح الانتقام » . وأمر هتلر بتوجيه آلاف من هذه القذائف نحو مدينة لندن ليثبت الرعب في قلوب البريطانيين قبل ان يتشفوا قواعد اطلاقها في شمال فرنسا التي كانت محتلة آنذاك .

وقد توالى سلسلة النجاح والفشل في تصنيع محركات صاروخية للصاروخ (ف٢) حتى اطلق أول صاروخ منه في ٨ سبتمبر ١٩٤٤ . وأمكن تحميل كل صاروخ منها بحمولة قدرها طن من المواد المتفجرة لمسافة ٣٧٠ كيلو مترا - وهذا بلا شك ما كانت تعجز - وما زالت - عن حمله المدفعية الثقيلة .

وقد كان هذا الصاروخ يحمل تسعة اطنان من المواد المشتعلة المكونة من الكحول والأكسجين السائل ، بينما يبلغ وزنه الكلي ١٤ طنا ، وكان عدد اجزائه يبلغ ٣٠ ألف قطعة يجري تصنيعها في عدة مصانع ، ثم يتم تجميعها في قرية بينموند في شمال ألمانيا .

وجدير بالذكر ان كلا من (دورنبرجر وفون براون) قد وقعا أسرى في أيدي الأمريكيين عند غزو ألمانيا ونقلوا الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتجنسا فيما بعد بالجنسية الأمريكية عام ١٩٥٦ . وأصبح (فيرنر فون براون) مشرفا على أبحاث وبرامج غزو الفضاء في الولايات المتحدة الأمريكية لعدة سنوات . ويرجع له الفضل في كثير من التقدم الأمريكي

وفي اواخر الحرب العالمية الثانية وفق الالمان مرة اخرى في انتاج صاروخ متعدد المراحل اسموه (١٠١ - ١٠١) يتكون من مرحلتين . وكان هدفهم البعيد محاولة قذف الولايات المتحدة الامريكية به ، بعد ان افلخوا في قذف الجزر البريطانية .

ولقد كان تصميم هذا الصاروخ يسمح بخروج الغازات بعد احتراق المرحلة الثانية بسرعة تصل الى ٦٠٠٠ ميل / الساعة . وكان حلم « فون براون » بناء صاروخ يتكون من ثلاث مراحل ، الا ان الحرب وضعت اوزارها دون ان يتحقق الحلم .

وتبنت الولايات المتحدة الامريكية افكار فون براون ، بعد انتقاله اليها في نهاية الحرب ، وامكن عام ١٩٤٩ اطلاق صاروخ امريكى صغير من طراز « كوربورال » (Corporal) على الصاروخ الالمانى (ف ٢) الذى اصبحت اسراره في ايدي علماء امريكا . وشجع بعد ذلك استخدام الصواريخ المتعددة المراحل التى يرمى اليها الفضل في نجاح بلوغ الاقمار الصناعية لمداراتها العالية في الفضاء .

ونحن نسمع اليوم عن جيل من الصواريخ العابرة للقارات ، والتى تستخدم في ترسانات الاسلحة العسكرية . وهى في حقيقتها صواريخ ضخمة يمكن ان تنطلق لتصب المتفجرات فوق رؤوس الاعداء على بعد آلاف الكيلومترات ، كما يمكن ان تحمل قنابل نووية او ذرية هبر هذه المسافات الطويلة . ويمكنها ان تحمّل بدلا من ذلك قمر صناعيا أو سفينة للفضاء من احكام توجيهها الى الارتفاع المناسب في الفضاء .

هذا الجيل من الصواريخ العابرة للقارات يضم الانواع الامريكية المسماة :

اطلس - ثور - تيتان - جوبيتر -
ميتوتمان - بولاريس - بوسيدون - ساترن

وهنا قد يتبادر الى اللحن سؤال ، لماذا لا نستطيع صنع صاروخ كبير نزيد فيه من نسبة الكتلة الى حد كبير فنجعله يسع قدرا كبيرا من الوقود لتزيد سرعته الى الحد الذى نريده ؟ . ولاشك ان هناك عقبات هندسية تقف امام تحقيق ذلك ، من اهمها ان الصاروخ كجسم متحرك ، له وزن ، وان المعادن التى تستطيع تحمل هذا الوزن تعرض لاجهاد نتيجة الاشغال الذى يتم داخله ، كما يتعرض هذا الجسم الضخم لقائمة من الهواء ولذلك فليس ممكنا الى ما لا نهاية زيادة كمية الوقود داخل الصاروخ بغرض زيادة سرعته .

ولكن امكن التغلب على هذه المشكلة بالتفكير في الصاروخ المتعدد المراحل . والصاروخ المتعدد المراحل ليس اكثر من صاروخ كبير يحمل صاروخا آخر اصغر منه ، ولا يبدأ هذا الاخير في الاحتراق الا بعد ان يصل الصاروخ الاول الى سرعة معينة ، فينفصل عنه ويبدأ في الاحتراق . وهكذا يمكننا القول ان المرحلة الثانية من الصاروخ المتعدد المراحل تبدأ من حيث تنتهى المرحلة الاولى ، كما تبدأ المرحلة الثالثة من حيث تنتهى سرعة المرحلة الثانية .

وبذلك فان نسبة الكتلة لهذه المجموعة المركبة من الصواريخ تصبح حاصل ضرب نسب كتل كل منها في بعضها . فاذا كانت نسبة كتلة صاروخ المرحلة الاولى (٦) مثلا ونسبة كتلة صاروخ المرحلة الثانية (٥) ونسبة كتلة المرحلة الثالثة (٣) فان معنى هذا ان الصاروخ الذى يتكون من ثلاث مراحل له نسبة كتلة $6 \times 5 \times 3 = 90$. وقد امكن بتصميم الصواريخ المتعددة المراحل الانفلات من جاذبية الارض ، والانطلاق الى الفضاء الكونى ، والتغلب على كثير من قصور الصواريخ الصغرى الملى بتصميم الصواريخ الضخمة العابرة للقارات التى يصل مداها الى عدة آلاف من الكيلو مترات .

بعد شهر واحد في ٣ نوفمبر ١٩٥٧ حملت الكلبة « لايكا » التي ظلت حية داخل هذا القمر زهاء سبعة أيام ثم نفقت مسجلة أنها أول « شهيدة » للبحث العلمي في الفضاء .

كل ذلك دفع أمريكا الى رصد ميزانية ضخمة لبرامج البحث العلمي الأمريكية لكي لا يستأثر السوفييت بالنصر وحدهم ، وحمى وطيس المنافسة بين علماء الدولتين . ولقد تطورت الأحداث على عجل ، ولم يفض غير أربعة شهور تقريبا حتى وفق الأمريكيون في إطلاق أول أقمارهم الصناعية « إكسپلورر-١ » (Explorer) أو (الكاشف - ١) في ٣١ يناير ١٩٥٨ .

بعدئذ توالى إطلاق سلاسل من الأقمار الصناعية من كلا الطرفين ، تعد بال عشرات ، بعضها يدور حول الأرض ، وبعضها يفوس في الفضاء ، وبعضها يقترب من القمر ، كل ذلك لقياس العناصر العلمية التي تهتك ستر المجهول عن الفضاء . ولذلك سميت «مجسات الفضاء» (Space Probes) لأن مهمتها كانت التعرف على طبيعته . ولقد حملت الأقمار الصناعية العديد من الأجهزة العلمية الدقيقة لقياس الحرارة والضغط والكثافة والإشعاع في أعالي طبقات الغلاف الجوي . والحقيقة أن الأقمار الصناعية لم تكن تختلف من بعضها البعض إلا قيما تحويه من أجهزة مستخدمة ، وما تستطيع أن تبلغه من ارتفاعات أثناء دوراتها المتتالية .

ورغم أن القمر الصناعي السوفيتي الأول « سبوتنيك - ١ » (Sputnik-1) لم يكن حجمه يجاوز حجم كرة السلة ، وكان كرويا مثلها ، فإن الأقمار السوفيتية والأمريكية التالية ظلت في تزايد مستمر من حيث الحجم والوزن ، كما تباينت أشكالها وأجهزتها .

بينما أهم الأنواع السوفيتية صواريخ « فوستوك » وهو أيضا نفس الاسم الذي يطلق على سلسلة سفن فضائية بدون رواد . وقد طور السوفييت صواريخهم الدافعة لسفنهم من طراز « سويوز » حيث قدر المراقبون أنها ذات قدرة دفع ٦٠ مليون حصان . وهو ما يعادل قدرة صواريخ « فوستوك » . كما أن هناك أنواعا أخرى مطورة قللت بسفنهم الفضائية بدون رواد من طراز « فينوس » . « ومارس » . ولقد تجاوز مدى الصواريخ المتعددة المراحل عشرة آلاف من الكيلو مترات . ولذلك فهي تستطيع الانطلاق من قارة الى أخرى ، ولذلك يطلق عليها الصواريخ العابرة للقارات . وقد تنوع استخدام بعضها لتتلق من فوق الأرض أو من فوق الغواصات ، وبعضها يمكن أن يطلق من فوق قطارات السكك الحديدية .



بدء عصر الفضاء

يمكن التاريخ لبداية عصر الفضاء ، بالسوم الذي أطلق فيه الاتحاد السوفيتي أول قمر صناعي ، وسماه « سبوتنيك - ١ » . وكان ذلك في ٤ أكتوبر ١٩٥٧ . لقد لفت الحدث الأنظار ، وبهر المتطلعين ، ولكنه كان أول خطوة على طريق طويل ، للكشف عن المجهول في تيه لا يعرف العلماء له نهاية ، ولا بداية . ولا يحيطون بأمه الا قليلا . ولكن المراقبين على يقين من أن البشرية على عتبات عصر جديد .

غير أن التصاق الفجر بالاتحاد السوفيتي وضع الولايات المتحدة الأمريكية في موقف محرج ، وكأنها كانت في وقفة تخلف أمام أنظار العالم .

وتأكد هذا الانتصار العلمي بإطلاق القمر الصناعي السوفيتي الثاني « سبوتنيك - ٢ »

سبيل منهم من الأقمار الصناعية

منذ أوائل عام ١٩٥٨ توالى إطلاق سبيل منهم من الأقمار الصناعية إلى الفضاء من كل من روسيا وأمريكا ، وكأنهما في مباراة حامية الوطيس .

وكانت سنة ١٩٥٨ هى السنة الجغرافية الدولية أو السنة الجيوفيزيكية وفقا لنظم هيئة الأمم المتحدة. وخلال مثل هذه السنوات التى يطلق عليها اسم « سنة » مجازا - وحقيقتها أنها تستمر أربعة أعوام يتم تبادل المعلومات بين علماء الدول ،

ولقد لعبت الأقمار الصناعية دورا متعاظما فى نقل كثير من المعلومات المستحدثة إلى كثير من دول العالم . وتبددت بذلك كثير من المفاهيم الخاطئة ، على ضوء مناقسته من عناصر . ولذلك سميت الأجيال الأولى من هذه الأقمار بأسماء تعبر عن مهامها فى الفضاء مثل «الكاشف» (Explorer) و «المستكشف» (Discoverer) و «الرائد» (Pioneer) و « الطليعة » (Vanguard) . وحسبنا على سبيل المثال أن الأقمار الصناعية أطاحت بما كان يلقن فى المدارس للتلاميذ الصغار من أن الأرض كروية . فقد صورتها من ارتفاعات عالية فى الفضاء ، وعرف الناس أنها ليست كروية ، بل كمشربة ، يتدب طرفها القريب من القطب الشمالى .

كما أن أجهزة الرصد الجوى لم تكن - حتى آنذاك - قد بلغت كل طبقات الغلاف الجوى وقامت عناصر الضغط والحرارة والكثافة ونسب بخار الماء به ، وعرفت مكوناته ، فقد قامت الأقمار الصناعية بالقوس فى طبقات الغلاف الجوى وطبقات الفضاء الأعلى منه ونقلت إلى العلماء كل ما يريدون .

كما قاسم الإشعاعات الكونية ، والمجالات

المغناطيسية ، والإشعاعات الشمسية المرئية وغير المرئية . وصورت الوجه المخفى من القمر والذى لم تره عين بشر من قبل ، وسجلت قياسات من الشهب (Meteores) والنيازك وكثافة وجودها فى الفضاء القريب من الأرض .

كل هذه الأقمار والتي فاق عددها الآلاف فى بعض الأحيان ، كانت تهبح فى السماء ويسهل على المشاهد رؤيتها بالعين المجردة ، وهى تتجول بين النجوم أثناء الليل فهى لامعة مثلها ، ولكن يسهل تمييزها عنها ، ذلك أنها تتحرك فى خطوط مستقيمة بين النجوم الثوابت .

وحقيقة الأمر أن مسارات الأقمار الصناعية ليست مستقيمة بكاملها ، بل تظهر كذلك للمشاهد فقط من مكان واحد . فمداراتها بيضاوية ، أو إهليلجية حول الأرض كبؤرة وقد تفاوتت مداراتها فوصا فى الفضاء فبلغ (أوج = أكبر ارتفاع للمدار) (Perigee) بعضها ارتفاعات شاهقة تقاس بمئات الكيلو مترات ، كما دنا (حضيض = أقل ارتفاع للمدار) (Apogee) البعض الآخر إلى حد ملامسة الغلاف الجوى للأرض ، حتى احترق بمد حين نتيجة الاحتكاك بجزيئاته شكل (٤) . ومن هنا تفاوتت مدد بقاء الأقمار الصناعية فى الفضاء أى اختلفت أعمارها . فقد احترق بعضها بعد أداء مهام قصيرة لم تدم غير أيام ، بينما ظل بعضها يدور وما زال يدور إلى الآن ، وسيظل يدور ربما لمئات أو آلاف السنين . ومن البديهي أن المعلومات التى يقيسها القمر الصناعى ، ترسل إلى الأرض عبر محطات المتابعة التى تتبع حركتها وتستقبل معطياتها ، فيمكنك العلماء على تحليها واستنباط الاستنتاجات منها .

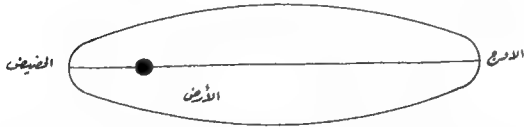
الفريدة قياسات لم تعرف قبلها ، حيث حققت نجاح التحام جسمين مختلفين في الفضاء ثم نجاح انفصالهما ، كما حققت مزيدا من التطبيقات التكنولوجية المتنوعة ، بقياس الاشعاعات وانرها البيولوجي على الميكروبات والفيروسات . وامكانات توليد الطاقة الكهربائية من الاشعاعات الشمسية والانتقال من مدار الى مدار آخر .

ولا يفوتنا أن نقرر أن بعضا من هذه الاقمار سواء الأمريكية أو السوفيتية لم تكن تطلق من أجل الأغراض العلمية المجردة بقدر ما كانت من أجل أغراض أخرى عسكرية . فقد اشرت الارتفاعات الشاهقة التي تدور عليها الاقمار العسكريين في كلا الدولتين بالتطلع الى مانحويه الدولة الأخرى من قواعد عسكرية يصعب اخفاؤها ، مثل المطارات وقواعد الصواريخ والمنشآت الجوية . هذا الى جانب كشف كل ما يحدث في هذه الدول من تفجيرات ذرية أو نووية من المجال حجب الاشعاعات أو الاهتزازات المصاحبة لوقوعها . ومن هنا تطور فن « الاستطلاع الجوي » بإبعاد جديدة ويمكننا أن نطرح هذا اللفظ المهلب ونقول بأن فن « التجسس » أخذ صورة متطورة تتسم بالعمق والشمول .

● ● ●

ومن الأمثلة البارزة في هذا المجال ما حققه العالم الأمريكي « فان آلن » (Van Allen) نتائج قياسات مجموعة الاقمار الأمريكية « (الكاشف) » أو (Explorer) من الاشعاعات الكونية المحيطة بالأرض وشدة تكاثفها . وقد خلاص من قياساته الى تركيز هذه الاشعاعات القاطلة في حزامين حول الأرض ويمتدان الى آلاف الكيلو مترات في الفضاء ، وسميا باسمه « حزام فان آلن » .

هذا السيل المنهمر من الاقمار الصناعية أو « مجسات الفضاء » ، مازال يتوالى باعداد غزيرة الى اليوم الى ارتفاعات متفاوتة في الفضاء . ولقد كانت مجموعات الاقمار السوفيتية والأمريكية تتوالى في سلاسل متتابعة ، كل منها يحوي العشرات من أقمار ذوات مهام مختلفة . فقد حوت سلسلة أقمار الرائد (Pioneer) الأمريكية خمسة أقمار ، على حين تكونت سلسلة أقمار الكاشف (Explorer) الأمريكية من ٣٨ قمرا ، بينما لم يزد عدد أقمار سلسلة الاقمار السوفيتية « سبوتنيك » من قمرين فقط . وتحول السوفييت بعدها الى سلسلة أقمار « كوزموس » التي تعد أغزر السلاسل قاطبة والتي مازالت تتوالى أقمارها الى الآن . والتي بلغت حتى أوائل عام ١٩٧٧ أكثر من (٩٣٠) قمرا . ولقد سجلت هذه السلسلة



شكل (٤) الأجرام والحفيس في مدارات الاقمار الصناعية البيضاء والتي تتخذ الأرض مولها لحدى يورني الشكل البيضاوي .

حيوانات في عداد الشهداء

قبل أن يسمع الناس عن مشاهير رواد الفضاء ، عرف العالم مشاهيراً من الحيوانات الفضائية أولها الكلبة السوفيتية « لايتكا » التي ظلت حية في الفضاء لمدة أسبوع قبل أن تنفخ داخل القصر الصناعي «سبوتنيك - ٢» ومن بعدها عرفت حيوانات تجارب فضائية أخرى مثل القرود الأمريكية «هام» و «سام» و « اينوس » . والكلاب الروسية « بيلكا » و « ستريلكا » و « تشيرنوشكا » . كما حوت بعض الأقمار الصناعية وسفن الفضاء الأخرى خزائير وفئراناً وميكروبات وحشرات للدراسة تأثير الفضاء عليها عضويًا وبيولوجيًا وسيكولوجيًا . ثم تطور الأمر وأرسلت حبوب ذراعية ونباتات للدراسة للتأثير البيولوجي للفضاء عليها .

وجدير بالذكر أن بعض الأقمار الصناعية حوت دسماً في حجم وزن الإنسان ، ووضعت في المكان المخصص لرواد الفضاء بداخلها ، للدراسة تأثيرات الوضع في الفضاء على هذا الجسم .

وقد كانت هذه الحيوانات ترتدي حلالاً فضائية مزودة بأجهزة القياس الخاصة والتي تنقل قياساتها إلى الأرض باللاسلكي ، عن نبضات القلب ، وضغط الدم ، والفرزات الجلد والغدد .

وتركز البحث في كثير من الأحيان على سلوك هذه الحيوانات عند بلوغ حالة انعدام الوزن لمعرفة ما سيكون عليه حال رواد الفضاء عند وقوعهم تحت تأثير هذه الحالة .

وبذلك أدت هذه الحيوانات أجل التوائد للإنسان ومهدت الطريق له قبل صعوده إلى الفضاء .

القياسات العلمية بالأقمار الصناعية

استخدمت الأقمار الصناعية أولاً للقياسات العلمية لتعبيد الطريق عن المجهول في الفضاء ثم استغلت لرعاية الحياة البشرية في أغراض تكنولوجية وتطبيقية . فحققت نتائج مذهلة في عدة نواحي ، من أهمها الاتصالات اللاسلكية والارصاد الجوية والمسح الجوي ، ثم استغلها العسكريون للاستطلاع العسكري . لهذا اقتصرت سلاسل الأنواع المبكرة من الأقمار الصناعية على هذا النوع الذي يحوى الأجهزة العلمية ويرفعها إلى الفضاء ، لتقوم بالقياسات اللازمة من عناصره ومكوناته ، ومن أهم هذه العناصر درجة الحرارة على مختلف الارتفاعات والكثافة ، والضغط . وحظيت الإشعاعات في الفضاء بكثير من الاهتمام أيضاً ، بالإضافة إلى دراسة مكونات طبقات الغلاف الجوي والفضاء نفسه . وكذلك مشاكل الحركة في الفضاء ، ومؤثرات ظاهرة « انعدام الوزن » وطرق التغلب عليها .

وتختلف الأقمار الصناعية في شكلها وحجمها ووزنها كما تختلف في مداراتها . فبعضها يدور على مداره عدة أيام ثم يحترق من الاحتكاك بهواء أعالي طبقات الغلاف الهوائي وبعضها الآخر يدور على مدارات عالية تسمح له بأن يظل في دورانه لعدة سنوات مقبلة ، بل أن بعضها مصمم ليظل في دورانه ما يقرب من ألف عام . ولذلك توجد على الأسطح الخارجية لأغلب الأقمار الصناعية خلايا شمسية لتستمد منها الطاقة الكهربائية عن طريق تحويل حرارة الإشعاعات الشمسية إلى طاقة كهربائية لتشغيل أجهزتها .

ومن أهم القياسات العلمية التي قامت بها الأقمار الصناعية على سبيل المثال لا الحصر :

(١) قياس شدة الأشعة الكونية

الأشعة الكونية في كونها قدائف ذرية تهبط على الأرض في صورة أشعاع مصدره الفضاء

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء

ويمتد بعمق ٤٠٠ ميل (= ٦٤٠٠ كيلو متر) .

ويصل طوله ١٦٠٠٠ ميل (= ٢٥٦٠٠ كيلو متر) .

وجدير بالذكر ان العلماء السوفيت اكتشفوا بعد ذلك ، حزاما ثالثا على ارتفاع ٢٤٠٠٠ ميل و يمتد في الفضاء ضعف هذه المسافة .

ولعل اهم ما دعا الى دراسة تأثير هذه الاحزمة في الفضاء ، هو معرفة اثرها على المواصلات الاسلكية ، والمواصلات الفضائية والحياة البشرية . والملاقة بينها وبين بعض الظواهر الطبيعية الفاضية السبب ، والتي تظهر في طبقات الجو العليا مثل « وهج الاورورا » (Aurora) والوهج القطبي .

(٢) قياس المجال المغناطيسى الارضى

تتوزع الحقول المغناطيسية حول الكرة الارضية ، والمعروف ان المجال المغناطيسى الارضى يقوم على افتراض وجود قضيب مغناطيسى وهمى ضخم مدفون في باطن الارض ويميل على قطبيه بزاوية قدرها $11\frac{1}{2}^\circ$ ، وينتهى طرفاه بالقطين المغناطيسيين للارض والالدين يبعدان قليلا عن القطين الجغرافيين لها .

غير ان القدرة المغناطيسية لهذا القضيب الوهمى ، ليست قاصرة على وجود خطوط مجاله على سطح الكرة الارضية ، بل تمتد الخطوط الى الغلاف الهوائى المحيط بها ، والى الفضاء الذى حولها ، وكان لزوما قياس مدى انتشار هذا المجال ومسحه علميا ، ورسم الخرائط التوضيحية له ، وقد تحقق ذلك بواسطة انواع مختلفة من الاقمار الصناعية .

المحيط بنا ، او من المجرات الخارجية ، ولذلك تبدو آثار هذه الاشعة واضحة فوق قمم الجبال ، والمرتفعات العالية . وهى تتكون من ايونات موجبة او بروتونات ، لكن تتفاوت درجات تركيزها حسب الارتفاع ، وتكاد تنعدم على الارض . ولولا رحمة الله بوجود الغلاف الجوى المحيط بنا ، لهلك كل يوم من البشر مئات بسبب آثارها المميتة على الخلايا البشرية .

ولقد بدأت قياسات الاشعة الكونية بواسطة القمر الصناعى الأمريكى الاول «الكاشف» (Explorer - I) فى كشف هذه السلسلة من الاقمار الصناعية الأمريكية ، عن تركيز شديد فى الاشعة الكونية فى طبقات الجو العليا التى انطلقت اليها . ويتحليل نتائج معلومات هذه الاقمار ، امكن تحديد شكل حزامين من الجزيئات المشحونة حول الارض ، وسميت باسم مكتشفها العالم الأمريكى « فان آرن » .

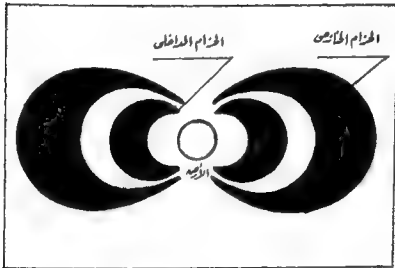
ويتخذ الحزامان شكلا قريبا حول الارض ، ويفصل بينهما فضاء غير مشحون . ويشبه الحزام الداخلى « اصبع الموز » بينما ينثنى الحزام الخارجى من حوله ، وكلاهما ينثنيان حول الارض عند خط الاستواء ، ويتبعدان عن منطقتى القطين المغناطيسيين ، ويتضح من دراسة شكل الحزامين انهما يتوزعان مع خطوط المجال المغناطيسى للارض ، (شكل ٥)

ويبدأ الحزام الداخلى على ارتفاع ١٣٠٠ ميل ، (= ٢٠٨٠ كيلو مترا) .

ويمتد بعمق ٣٠٠ ميل ، (= ٨٠٠ كيلو متر) .

ويبلغ طوله ٤٠٠٠ ميل ، (= ٦٤٠٠ كيلو متر) .

اما الحزام الخارجى فيبدأ على ارتفاع ٨٠٠٠ ميل (= ١٢٨٠٠ كيلو متر)



شكل (٥) حزاما فان آلن يمتد الخارجى منهما حتى
عمق ٦٥٠٠ كيلو متر في الفضاء وينشيان مع خطوط المجال
المغناطيسى للأرض .

والوهج القطبي ، وكذلك تأثير امتداد السنة الذهب التي تبرز من سطح الشمس وتمتد في الفضاء لآلاف الكيلو مترات والتي ينفصل بعضها عن الشمس ويفوض في الفضاء مبتعدا عنها .

(٥) قياس كثافة الشهب والنيازك في الفضاء

من أهم القياسات التي قامت بها الاقمار الصناعية ، قياس كثافة تساقط الشهب التي تلمع أحيانا على هيئة خاطفة في سماء الأرض ليلا ، نتيجة لاحتراقها بالاحتكاك بالفلاف الجوي . فهي في حقيقتها أحجار نيزكية تساقط فرادي أو في صورة أسراب من أعماق الفضاء لتصل قريبا من الأرض .

فان احترقت بكاملها بالاحتكاك في طبقات الفلاف الجوي للأرض ، وظهورت متحركة خاطفة في السماء كأنما هي نجم يتهاوى ويجر وراءه ذبلا طويلا ، فانها تسمى « شهاب » وإذا لم يكتمل احتراقها كلها نظرا لكبر حجمها ، فانها تسقط على الأرض بفعل الجاذبية الأرضية وتحدث حفرة عميقة وتسمى « نيزكا » . وكان الدافع لاجراء هذه القياسات هو الحفاظ على حياة رواد الفضاء . ولقد قامت اعداد من الاقمار الصناعية برصد القياسات اللازمة من الشهب ، وخاصة عندما قرب موعد هبوط الانسان على القمر ، نظرا للخوف من اصابة الشهب لرواد الفضاء أثناء وجودهم على سطحه ، ولذلك صممت ملابس الرواد بحيث يمكنها تحمل صدمات هذه الشهب .

(٦) دراسة طبقات الأيونوسفير

الطبقة العليا من الفلاف الجوي المحيط بالأرض ، تعرف باسم طبقة الأيونوسفير ، نظرا لتأنيها بتأثير الأشعة فوق البنفسجية . ومعنى التآني أن ذرات غازات الفلاف الجوي تفقد بعضا من إلكتروناتها الحرة التي تدور

(٣) تصوير شكل الأرض

لقد تحقق بواسطة بعض الاقمار الصناعية التقاط صور مختلفة للأرض من ارتفاعات عالية ، ثبت منها أن الأرض ليست تامة التكون .

وقد كان معروفا ان قطر الأرض الاصل بين قطبيها الشمالي والجنوبي ، يقل عن قطرها عند خط الاستواء بمقدار ٢٧ ميلا ، اذ يبلغ قطر الأرض الاقصر ١٩٠٠ ميل ، اما القطر الاستوائي الاكبر فيبلغ ٧٩٢٧ ميلا . ولقد أعطى هذا الفرق صورة مشوهة للأرض في أذهان الناس ، بأنها منبعجة عند خط الاستواء ، ومستوية عند القطبين .

وقد كان القمر الصناعي الأمريكي «فانجارد» (Vanguard) أول قمر التقط صوراً مختلفة للأرض من مداره المرتفع في مارس ١٩٥٨ .

ومازال هذا القمر في الفضاء سابجا الى الآن ، ومن المقرر له أن يستمر الى عدة مئات من السنين ، نظرا لارتفاع مداره . ولقد ثبت من الصور التي أرسلها هذا القمر أن الأرض « كمثرية الشكل » (Pear Shaped) ويمتد عنقها ناحية القطب الشمالي ، وانها ليست مستوية عند القطبين كما كان يظن من قبل ، بفارق عند التكون التام يصل الى ٥٠ قدما ، شكل (٦) .

(٤) قياس النشاط الشمسي

المعروف ان هناك علاقة بين البقع الشمسية التي تظهر على سطح الشمس وبين «العواصف المغناطيسية» التي يتكرر ظهورها كل أحد عشر عاما تقريبا . وبالأقمار الصناعية تيسرت دراسة تأثير هذه البقع على الاتصالات اللاسلكية بجانب دراسة بعض الظواهر الطبيعية في أعالي الفلاف الجوي مثل ظهرة وهج الاورا ،



شكل (٦) الأرض من الفضاء ليست تامة الاستدارة
التي يوجد فيها بروز عند القطب الشمالي قدره (٥٠) قدما

(٨) تصوير القمر ووجهه المخفي

كان أول قمر صناعي حقق هذه المعجزة هو القمر «لونيكا - ٣» السوفيتي عام ١٩٥٩ ولم يكن قد سبق لعين بشر رؤية أو معرفة أية تفاصيل من النصف غير المرئي من سطح القمر قبل ذلك . وسبب استحالة رؤية هذا النصف هو تساوي مدة دوران القمر حول الأرض ، وحول نفسه . فالقمر تابع للأرض ، يصغرها كثيرا في الحجم ويتبعها في حركتها ، ويدور حولها دورة كاملة كل ٢٨ يوما ، غير أن له حركة ذاتية حول نفسه ، فهو أثناء دورانه حول الأرض ، يدور حول محوره كذلك خلال نفس المدة . ولذلك يقال أن نهار القمر ١٤ يوما ، وليله ١٤ يوما أخرى فالיום القمري مدته ٢٨ يوما من أيامنا على الأرض . وهذا ما يجعل أهل الأرض لا يرون منه إلا وجهها واحدا فقط . ويمكننا تصور هاتين الحركتين ، بتصور دوران طفل على محيط دائرة يقف رجل في مركزها فهمما دار الطفل ، فإن الرجل أن يستطيع أن يرى من وجه الطفل غير أحد صديقه فقط . وذلك لأن مدة دوران الطفل حول الرجل ، تتساوى مع مدة دورانه حول نفسه .

ولقد أعلن السوفييت عام ١٩٦٠ عن تفاصيل الوجه غير المرئي للقمر التي صوروها وأطلقوا عليها أسماء مشاهير العلماء سواء من الروس أو من الأوروبيين ، مثل جبل بوبوف - جبل السوفييت - جبل كورشاتوف - جبل جبول فيرن - جبل هرتز - جبل مكسويل - جبل باسنيير ، شكل (٨) .

ثم تعددت بعد ذلك الأقمار الصناعية الأمريكية والسوفيتية للدوران حول القمر لتصوير تفاصيل سطحه المرئي وغير المرئي ، حتى لم يعد يوجد عليه حجر واحد أو حفرة أو فوهة أو صخرة ليس لها صورة على الأرض

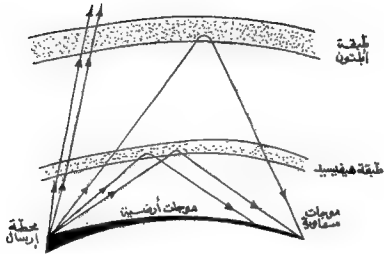
وكان الهدف الواضح لدى الأمريكيين هو التخطيط لهبوط الإنسان عليه .

حول نواة الذرة ، فيصبح للذرة شحنة كهربائية بدلا من وجودها في حالة تعادل . وتوجد أولى طبقات الأيونوسفير على الارتفاعات بين ٨٠ ، ١٠٠ كيلو متر وتعرف باسم «طبقة هيفيسايد» (Heavside Layer) وتوجد ثاني الطبقات على الارتفاعات بين ٢٥٠ ، ٣٠٠ كيلو متر وتعرف باسم «طبقة إبلتون» (Applenton) كما توجد بعض طبقات أخرى تحت هاتين الطبقتين فوقهما ، ولكن لم تحدد ارتفاعاتها بدقة ، كما لم يعرف لها شدة تأين ثابتة . ولطبقات الأيونوسفير الدور الأساسي في انعكاس الموجات اللاسلكية إلى الأرض ، وإمكان وصولها من مكان إلى آخر نتيجة لهذا الانعكاس ، كما قد يكون هذا الانعكاس متكررا على فترات ، شكل (٧)

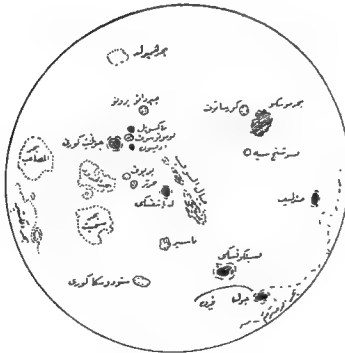
وكان لزاما دراسة تأثير طبقات الأيونوسفير على الاتصالات اللاسلكية بين الأرض وبين الأقمار الصناعية ، وسفن الفضاء ، لأن المعلومات من وإلى الأقمار الصناعية يتم لاسلكيا ، كما أن مراقبتها تتم بواسطة المراصد اللاسلكية الضخمة .

(٧) اكتشاف طبقات الغازات الخاصة

عرف من عدة قياسات أن بعض الغازات ذات الخواص الشاذة يتزايد وجودها على ارتفاعات معينة في الفضاء منها غاز «الأوزون» (O₃-OZONE) الذي له القدرة على امتصاص الأشعة فوق البنفسجية من ضوء الشمس ، ولذلك ترتفع درجة حرارة هذه الطبقة ببطيئة ملحوظة ، وتزداد درجة الحرارة فيها من درجة تبخر الماء . وقد كشف الأقمار الصناعية من أن هذه الطبقة توجد بين ارتفاعي ٨٠ ، ١٠٠ كيلو متر ، وإن سمكها لا يزيد عن ٣٠ كيلو مترا .



شكل (٧) طبقات الأيونوسفير التي تتأين جزئياً لها
ولمفس الموجات الكهرومغناطيسية إلى الأرض بعد سلسلة
من الانكسارات .



شكل (٨) تفاصيل الوجه المخفى للقمر .

الاقمار الصناعية في مجال التطبيق

لم تلبث الابحاث العلمية بالاقمار الصناعية أن تحولت الى ميدان التطبيق وفتحت الباب على مصراعيه لتطورات جديدة لرغاية البشر

ومن أبرز مجالات التطبيق التي استخدمت فيها الاقمار الصناعية تحقيق الاتصالات اللاسلكية لمسافات بعيدة لم تمهد بأقوى الاجهزة من قبل ، ونقل البث التليفزيوني الى مسافات طويلة ، ونقل حزم المكالمات التليفونية المتعددة القنوات في آن واحد عبر القارات ، فحققت إمكان الاستغناء عن الكابلات .

ومن الميادين الاخرى التي نجح فيها استخدام الاقمار الصناعية التنبؤ الجوي الذي يعتمد على التقاط صور لتجمعات السحب فوق القارات ، فامكن التنبؤ بالطقس لمدة ايام مقبلة ، بعد أن كان التنبؤ محدودا بعدة ساعات فقط .

كما استخدمت صور الاقمار الصناعية في عمليات المسح الجوي ، وتحقيق المساعدات الملاحية اللاسلكية للسفن والطائرات العابرة للمحيطات حيث يندر وجود هذه المساعدات .

وبالاضافة الى ذلك تحقيق الاستطلاع العسكري فوق اراضي الدول الاخرى ، او بمعنى ادق استخدامها للتجسس .

فبواسطة الصور المأخوذة بالاقمار يمكن الكشف عن توزيع الصواريخ العابرة للقارات فوق اراضي الدول الاخرى ، كما يمكن التحقق من توزيع الطائرات في المطارات .

وقد خلقت هذه المجالات تكنولوجيا جديدة للتصوير بالاشعة المرئية والاشعة تحت الحمراء مع التطور في صناعة العدسات ووسائل تحليل الصور وتكبيرها وتفسيرها .

ومن أبرز هذه الاقمار الصناعية الامريكية سلسلة « رينجر » (Ranger) التي استخدمت العدسات البصرية سواء للتصوير البانورامية والتليفزيونية . كما استخدمت التصوير المائل ، والتصوير بالاشعة تحت الحمراء ، إذ لم يكن الهدف منصبا على تصوير السطح وحده ، بقدر ما كان مركزا على قياس ارتفاعات جباله ، وأعماق بحاره .

(٩) تجربة الالتحام في الفضاء

كان السوفييت سابقين في هذا المضمار ، باطلاق بعض اقمار كوزموس لتقوم بتجربة الالتحام في الفضاء . وقد تلخص ذلك في اطلاق قمرين الى مدار واحد ، ثم تقرب أحدهما من الآخر ، ليلتكما ويكونا جسما واحدا ، ثم يعاد فصلهما بتحكم من الارض مرة اخرى بعد تجربة توجيههما سويا ، وتغيير مدارهما المشترك وهما ملتصحين . وقد نجحت هذه التجارب في اكتوبر عام ١٩٦٧ بين القمرين « كوزموس - ١٨٦ » و « كوزموس - ١٨٨ » وأعيدت هذه التجارب على قمرين آخرين في ابريل ١٩٦٨ هما كوزموس ٢١٢ ، ٢١٤ . واعتبرت هذه التجارب مقدمة لتجارب التحام سفن الفضاء فعلا نجحت تجارب التحام عدة سفن في برنامج « سبوز » . كما نجحت من قبلهما عمليات التحام المركبات القمرية ، بسفن الفضاء بعد ان تدور حول القمر ، أو تهبط على سطحه ثم تعود للالتحام بالسفن الام في برنامج أبولو الامريكي .

كما اعتبرت هذه التجارب مقدمة لتكوين محطات فضائية يمكن تزود منها بالوقود أو الاذن ، كما تم فعلا بتكوين محطة الفضاء السوفيتية « ساليوت » (Salyute) .



وبذلك أصبح العالم ، في قبضة بعض أقمار
تلقها بعض الدول ، تهتك ستر المخفى في هذا
العالم .

وجدير بالذكر أنه خصصت بعض الأقمار
للكشف عن التفجيرات النووية التي تحدثها
الدول الأخرى في الفضاء أو في المحيطات .
وبذلك تكاملت حلقات التجسس بين الأقمار
الصناعية ، والطائرات التي تطير بدون طيارين
وطائرات الاستطلاع التي تحلق على ارتفاعات
عالية ، ويوارج التجسس المخصصة بأجهزة
الكثرونية بالغة التقيد .

**ولا بد أن تلج بشيء من التفصيل لبعض
هذه التطبيقات لأنها تعتبر حجر زاوية في تطوير
الحياة وتقديمها .**

(١) الاتصالات الإذاعية والتليفونية والتليفزيونية

لمبت الأقمار الصناعية دورا هاما في تكبير
المدى الذي تصل اليه الموجات اللاسلكية ،
ويكفي أن نعلم أن ثلاثة أقمار صناعية تدور
في مدار حول الأرض تكفي لأن تغطي الإذاعات
اللاسلكية فوق سطح الكرة الأرضية كله .
وقد أصبحت الإشارة اللاسلكية قادرة على
الانتقال من قارة لتصل عبر القمر الصناعي
إلى عدة قارات أخرى، دون حاجة إلى محطات
تقوية في الطريق .

والى جانب نجاح الأقمار الصناعية في نقل
الإذاعات ، يتعاظم استخدامها عاما بعد عام في
نقل حزم المكالمات التليفونية عبر قنوات
الأقمار الصناعية إلى مسافات طويلة ، تقضى
بذلك عن آلاف الكيلو مترات من الكابلات
المحورية التي تستخدم على الأرض .

ولقد وجد من الأقمار الصناعية المستخدمة
في الاتصالات اللاسلكية نوعان رئيسيان هما:

— الأقمار الصناعية السلبية .

— الأقمار الصناعية الإيجابية .

وكانت أقمار النوع الأول تتكون من بالونات
ضخمة الحجم ، كروية الشكل ، مصنوعة من
مادة رقيقة بحيث يمكن أن تطوى وتوضع
في مقدمة صاروخ لتشفل حين صغرا منه ،
فاذا ما بلغ الصاروخ ارتفاعا معيناً يمكن أن
ينفصل البالون المطوى ، ويبدأ تفاعل مواد
كيميائية بداخله لتنتج أجساما كبيرة من الغازات
تملأ البالون وتجعله يأخذ شكلا كرويا . ولم
يكن يوجد بهذه الأقمار أجهزة وكان دورها
قاصرا على تحقيق انعكاس الموجات اللاسلكية
على سطحها .

وقد وجد جيل كبير من مثل هذه الأقمار
السلبية ، التي ولدت فكرتها البسيطة في
أمريكا ، ونفذت على يدى العالم الأمريكى
« ولیم أوسوليفان » منذ عام ١٩٦٠ بإطلاق
أول هذه الأنواع المسمى « إيكو - ١ »
(Echo-1) أو (الصدى - ١) .

وقد أطلقت بعد ذلك عدة أنواع إلى الفضاء
وتطور استخدام هذه الأقمار السلبية ، بزيادة
أقطارها ، وبعضها بلغ قطره ٣٠ مترا .

ويستلزم الاستفادة من مثل هذه الأقمار
امتلاك شبكة من محطات الاستقبال الفضائية
لالتقاط الإشارات اللاسلكية المنعكسة عليها ،
ومتابعة هذه الأقمار في دورانها في الفضاء .

أما أقمار الاتصالات اللاسلكية الإيجابية
فتعمل في الفضاء كمرددات للإشارات
اللاسلكية ، فهي تستقبل الإشارات المرسلة
من محطات على الأرض ، وتقوم بإعادة إرسالها
إلى محطات أخرى بعيدة عن المحطة الأصلية،

ولذلك تسمى باسم « الأقمار المتوافقة أو (المتزامنة) (Synchronous Satellites) شكل (٩) .

فهي تطلق الى مدار موحد ارتفاعه ٤٠.٠٠٠ كيلو متر فوق خط الاستواء ليتحقق دورانها بسرعة متساوية لسرعة دوران الكرة الأرضية ولذلك فهي تبدو للناظر اليها من فوق الأرض كأنها هي ثابتة في مكانها لا تدور .

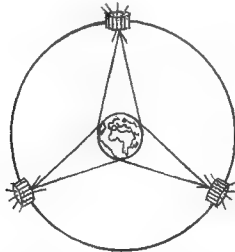
ثم أطلقت بعد ذلك سلسلة من أقمار الاتصالات من نوع (إنتلسات) (Intelsat) ويتجدد اطلاق كل قمر في السلسلة بعد خمس أو سبع سنوات هي عمر قمر الاتصالات ، لانه خلال هذه المدة تنفذ كمية الفازات التي به والتي تصحح مداره .

اوائل عام ١٩٧١ تم اشتراك جمهورية مصر العربية في مشروع نقل المكالمات بالراديو تليفونية بواسطة القمر الصناعي « إيرلى بيرد »

بعد أن تعجز الاشارات عن بلوغها الا باستخدام قدرة ارسال ضخمة .

وقد وجدت عدة انواع امريكية من هذه الاقمار قامت بتطبيقات ناجحة في اوائل الستينات ، فحققت نتائج مذهلة لم تكن تخطر ببال . ومن اشهر الانواع المبكرة اقمار « إيرلى بيرد » (Early Bird) او (الطائر المبكر) و « ريلاي » (Relay) او (اللاقط) و « تليستار » (Teletar) او (نجم الاتصالات) .

ويقف على قمته النوع الشهير « سينكوم » (Syncom) الذي كان له دور مشهور في نقل اذاعات دورة الالعاب الرياضية الاوليمبية من طوكيو الى كل العواصم الاوروبية وبعض المدن الامريكية عام ١٩٦٤ . ويتم اختصار المدار المشترك لاقمار الاتصالات والتحكم في سرعة دورانها بحيث تكون متزامنة مع سرعة دوران الأرض ، فتبدو الاقمار وكأنها ثابتة او معلقة فوق مكان واحد فوق خط الاستواء



شكل (٩) تطلق اقمار الاتصالات الاذاعية والتليفونية بحيث تتزامن مع سرعة دوران الأرض فتبدو معلقة فوق خط الاستواء وتكفي ثلاث منها لتغطية الكرة الأرضية كلها باذاعاتها

واتجاهات الرياح ، وأنواع السحب ، وارتفاع قاعدتها عن سطح الأرض ، وعمق طبقاتها .

وتبدو عملية التنبؤ بالجو مسبقاً ، عملية متعثرة تثير تهكم كثير من الناس ، لكنثرة احتمالات الخطأ فيها ، غير أن الحقيقة المجردة أن القرامات والاحصائيات العديدة اللازمة للتنبؤ الدقيق ، هي العقبة الكؤود في هذا السبيل .

ولقد أسهمت الأقمار الصناعية في تطوير عمليات التنبؤ الجوي وجعلته ميسوراً لمدة أيام مقبلة تتراوح بين ثلاثة أيام وستة أيام .

ولقد ظهرت عدة أنواع من الأقمار الصناعية الأمريكية الحاملة لأجهزة الرصد الجوي ، من أشهرها أقمار « تيروس » (Tiros) و « نيمبوس » (Nimbus) ، و « إيسا » (ESSA) ثم (SMS) ثم (ITOS) في هذا المجال أيضاً شاع استخدام القمر السوفييتي « ميتيور » (Meteor)

ويعتمد التنبؤ الجوي بالأقمار الصناعية على جمع العناصر التقليدية عن الطقس ، بالإضافة إلى النقاط صور السحب الموزعة فوق سطح الكرة الأرضية على فترات تسمح بقياس سرعة الرياح ، شكل (١٠) .

ولاشك أن الارتفاعات العالية التي يدور عليها القمر الصناعي تمكنه من التقاط صور لمساحات كبيرة من سطح الكرة الأرضية ، وبالتالي يمكن تمييز أنماط توزيع السحب عليها ، وقد أمكن بالتقاط صور السحب ، وتكبيرها رسم الخرائط الجوية التي ترسم فوقها خطوط تساوي الضغط (Isobars) . وتحديد أماكن ارتفاع وانخفاض الضغط ، وبالتالي اتجاهات الجبهات الهوائية الباردة والساخنة ، كما تقوم الأقمار الصناعية بتحديد درجات اشعاع الحرارة عن سطح الكرة الأرضية أثناء

عبور الكابل البحري الممتد من الاسكندرية إلى إيطاليا ، حيث ترسل من قرية « فيوميشينو » الإيطالية إلى أغلب عواصم أوروبا وأمريكا . وانتشرت في العالم العربي محطات الاتصالات بالأقمار الصناعية في كل من الكويت والبحرين والجزائر والمغرب وليبيا ومصر واليمن .

أما عن البث التلفزيوني ، فمن المعروف أن الإرسال التلفزيوني يتعدى نقله إلى مسافات كبيرة دون الاستعانة بمحطات تقوية . وحتى هذه المحطات يكون مداها محدوداً لأن عملية التقوية لا يمكن تكرارها مرات كثيرة .

غير أن الأقمار الصناعية عندما استخدمت في الإرسال التلفزيوني ، فاقت كل تصور ، وحولت الصور إلى الشاشات الصغيرة عبر آلاف الكيلو مترات ، وأمكن نقلها من قارة إلى أخرى عبر الفضاء . ولذلك تخصص قنوات للبث التلفزيوني في أقمار الاتصالات . وقد نجح ذلك في القمر « تلسار - ٢ » كما قامت أقمار « سينكوم - ٣ » بنقل البرامج التلفزيونية أبان دورة طوكيو الأولمبية عام ١٩٦٤ .

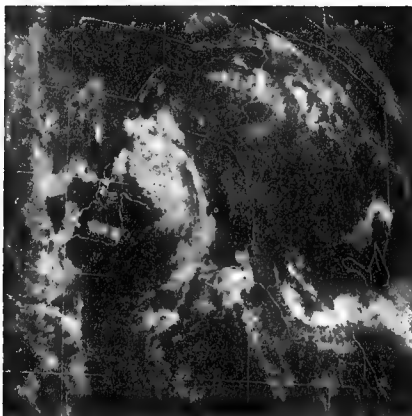
وجدير بالذكر أن اتحاد الاذاعات العربية من خلال تنظيمات الجامعة العربية يدرس إمكان إطلاق « قمر صناعي عربي » بمعونة اجنبية ، الغاية الرئيسية منه ربط الأقمار العربية بإذاعة تلفزيونية موحدة ، ويعتمد في ذلك على وحدة الفكر واللغة والعقائد والأمان السياسي في هذه البلاد التي تربطها أواصر متعددة .

(٢) التنبؤ المبكر بالطقس

يعتمد التنبؤون الجويون على جمع عدة عناصر من الطقس ، ليتمكنوا التنبؤ بالجو المحتمل خلال فترة محدودة تتراوح بين ٦ ساعات ، ٢٤ ساعة .

وأهم هذه العناصر الضغط الجوي ، والحرارة ، ودرجة الرطوبة ، وكثافة الجو ،

ملاذا يحدث الآن في علوم الفضاء



شكل (١٠) تعتمد عملية التنبؤ الجوي بواسطة
الاعمار الصناعية على التلخاط صور السحب وتوزيعها على
سطح الكرة الأرضية كلها ومنها يمكن قياس سرعات الرياح
وتبين العبهات الباردة والساخنة وامكن الاماميه .

التصوير بالأشعة تحت الحمراء في الظلام دورا هاما في هذا المجال .

والحقيقة أنه أصبح متملزا أخفاء توزيع قواعد الصواريخ والطائرات والمنشآت الحيوية عن عين الاستطلاع الهائلة لكل ستر . فقد أصبح التصوير من الفضاء فنا متماظما يستطيع توضيح كل التفاصيل وخاصة المدنية بفضل وسائل تكبير الصور ، كالمسامير المدنية مثلا التي تربط بين اجزاء كسك خشبي أخذت صورته من ارتفاع عدة آلاف من الأميال .

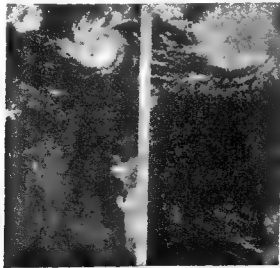
والى جانب ذلك أصبح عميرا أخفاء التفجيرات اللرية والنوية في المناطق النائية من الأراضي أو المحيطات ، سواء فوق الأرض أو تحتها . كما أصبح عميرا أخفاء قواعد الصواريخ ، نظرا لضخامة حجمها ، أو أخفاء الطائرات حتى داخل حظائر محصنة . ولذلك عمدت الدول الكبرى لإخفائها تحت الأرض ، في آبار خرسانية محصنة (Silo) أو وضعها في القواصات اللرية كما هو الحال بالنسبة لصواريخ « بولارس و بوسيدون » الأمريكية .

الليل بالتقاط الأشعة تحت الحمراء الصادرة منها . ولذلك لا تقتصر أهمية الأقمار الصناعية في مجال الارصاد الجوية على التنبؤ بالجو لمدة طويلة مقبلة ، ولكن عملية التنبؤ تشمل رقعة كبيرة فوق سطح الأرض .

وقد تحقق فعلا التنبؤ بهبوب الاعاصير المدمرة ، مثل اعصار « هاريكان » (Hurrican) قبل هوبه بمدة ايام ، بعد أن كان يدمر الشواطئ الأمريكية فجأة ويحيق بها الدمار شكل (١١)

(٣) الأقمار الصناعية للأغراض العسكرية

تعدد الأغراض العسكرية التي تستخدم فيها الأقمار الصناعية ، غير أن أهمها الاتصالات اللاسلكية المعادية للتشويش ، والتقاط الصور الجوية الدقيقة للاستطلاع العسكري . وتقف وراء ذلك تكنولوجيا التكبير ، وصناعة العدسات الدقيقة ذات الأنواع المتعددة مثل العدسات البانورامية ، والتليفزيونية ، كما تلعب عملية



شكل (١١) التنبؤ بهبوب اعصار « هاريكان » قبل وصوله الى الشواطئ بمدة ايام .

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء

وعلى الجانب الآخر تزايدت لدى الأمريكيين عقدة التخلف التي بدأت بالتدخل من السوفييت في إطلاق الأقمار الصناعية . ولكنهم لم يستسلموا لها ، بل ملك الرئيس الأمريكي الراحل « جون كيندي » زمام الموقف ، وتبنى تشجيع الأبحاث الأمريكية ووضع لها خططا طويلة الأمد تهدف إلى هبوط رواد أمريكيين على القمر في نهاية الستينات .

أنواع الرحلات في الفضاء

عندما صعد « جاجارين » إلى الفضاء استطاع أن يدور بسفينته دورة واحدة حول الأرض . غير أن أول الرواد الأمريكيين « الان شبرد » لم يستطع ذلك واقتصر على الصعود إلى ارتفاعات عالية ، تسمح بالافلات من الجاذبية ، ومعرفة تأثير مرحلة انعدام الوزن ، وأعقبه الرائد الأمريكي الثاني « جريسوم » في رحلة مشابهة .

ويمكن تقسيم الرحلات الفضائية إلى ثلاثة أنواع هي :

— رحلات دون مدارية — مدارية — وكونية

١ — الرحلات دون المدارية :

تقل سرعة سفينة الفضاء فيها عن السرعة المدارية (١٨٠٠٠ ميل في الساعة) ، لذلك تعجز السفينة عن الدوران حول الأرض ، وتتمس بقصر مدتها التي قد لا تتجاوز بضعة دقائق .

ب — الرحلات المدارية :

عندما تبلغ سرعة السفينة الفضائية السرعة المدارية ، يمكنها أن تدور حول الأرض في رحلة مدارية ، مثل رحلة جاجارين ، وما تلاها من رحلات دامت أياما وأسابيعا .

ومن أشهر الأقمار العسكرية الأمريكية أقمار « فيلا » للكشف من التفجيرات النووية ، وأقمار « ساموس » ، و « ميداس » وغيرها ، ومن البديهي أن هناك أنواعا سوفيتية غير معلن عن أسمائها .

(٤) استخدامات متعددة أخرى

استخدمت الأقمار الصناعية في أغراض عدة أخرى مثل :

— هداية الطائرات في الجو والبحار في المحيطات كمساعد ملاحي وقد اشتهر في هذا المجال شبكة أقمار ترانسيت (Transit)

— التصوير المساحي نظرا للدقة في التقاط الصور ، والتباين في ظهور المساحات المنزوعة من الصحراوية والقاحلة في الصور الفضائية .

— تنظيم صيد الأسماك بالاعتماد على الصور الفضائية الملونة إذ تكثر الأسماك في مناطق المياه ذات اللون الأخضر الذي توجد به « البلاكتون » الذي تتغذى عليه الأسماك .



مرحلة الطيران الكوني

جاجارين يدخل التاريخ

دخل « جاجارين » التاريخ من أوسع أبوابه كأول رائد فضاء ، تمثلت فيه شجاعة قهر الجحول في الفضاء . ورغم أن رحلته لم تكن تزيد عن دورة واحدة حول الأرض ، ولم تدم غير ١٠٨ دقائق إلا أن تاريخ ١١ أبريل عام ١٩٦١ الذي قام فيه برحلته سيظل على مر التاريخ يوما خالدا يرمز لنجاح الإنسان في غزو الفضاء بالطيران الكوني فيه وقد قررت الأمم المتحدة تسمية هذا اليوم بـ « يوم جاجارين » أو « يوم الشباب والفضاء العالمي » حثا لهمم الشباب .

ج - الرحلات الفضائية

عندما تبلغ سرعة السفينة الفضائية سرعة الاقلاط من الجاذبية الأرضية والتي تعادل ٢٥٠٠٠ ميل في الساعة ، فإن السفينة تخرج من نطاق جاذبية الأرض الى نطاق جاذبية القمر أو الكواكب الأخرى التي تنطلق عليه .

البرامج الأمريكية لفزو الفضاء

نفذت الرحلات الفضائية الأمريكية ، والتجارب السابقة لها ، وفق مخطط معين وضعته وكالة (ناسا) (NASA) يتضمن ثلاثة برامج رومى تدرجها بحيث تغدو نتائج كل منها الأخرى ، وهذه البرامج هي :

- ١ - برنامج سفن الفضاء طراز «ميكوري» (Mercury)
- ٢ - برنامج سفن الفضاء طراز « جيميني » (Gemini)
- ٣ - برنامج سفن الفضاء طراز « أبولو » (Apollo)

والفضل الذي لا ينكر في دفع هذه البرامج يرجع للرئيس الأمريكي الراحل « جون كينيدي » . فقد عرض مشروعه على الكونجرس الأمريكي في مايو ١٩٦١ تحت مضمون «رسالة الفضاء» ، وأقبح في التظلم على الأصوات المعارضة له والتي كانت تستنكر الاعتمادات المرسودة لمشروع « أبولو » وهي ٢٥ بليوناً من الدولارات .

والحقيقة أن « كينيدي » كان متحمساً للمشروعات العلمية الحديثة خاصة ، والمشروعات غزو الفضاء خاصة ليثبت جدارة الإنسان الأمريكي في العصر الحديث .

وكان رائده في ذلك ما استوحاه من الرئيس الأمريكي الراحل « روزفلت » الذي عمل

بوصية العلامة « اينشتاين » بدفع مجلة أبحاث الذرة الى الامام أثناء الحرب العالمية الثانية . وثبت أن ذلك كان المنصر المؤثر في وضع نهاية للحرب العالمية الثانية تتمثل في انتصار العلم بتحطيم الذرة . وكان هناك برنامج لانتاج الطائرات الصاروخية (س - ١٥) ، والطائرات الفضائية « الديناصور » الذي توقف بعد ذلك .

١ - برنامج ميكوري : كان الهدف الاساسي في برنامج « ميكوري » هو اطلاق رائد فضاء واحد في سفينة فضائية ليدور حول الأرض . وقد كانت الرحلتان الأولى والثانية رحلات دون مدارية . ولذلك لم يكد يمر على رحلة جاجارين غير (٢٣) يوما حتى أطلقت السفينة الفضائية الأمريكية « الحرية - ٧ » حاملة أول رائد أمريكي « الان شبرد » في رحلة فضائية عمودية مدتها (١٥) دقيقة تعرض رائد الفضاء خلال خمس دقائق منها لحالة انعدام الوزن . وأجرى خلال هذه المدة القصيرة (٧٠) اتصالا لاسلكيا وقام بانجاز (٢٧) اختبارا وقياسا ثم هبط بعيدا عن قاعدة الاطلاق بمسافة ٥٥٠ كيلو مترا .

واعتبتها رحلة « جرسوم » الأمريكي بعد شهرين بالارتفاع راسيا الى ارتفاع أكثر غوصا في الفضاء . ولكن المدة لم تدم غير (١٥) دقيقة كالرحلة السابقة لها .

ولم تبدأ الرحلات الأمريكية بالدوران حول الأرض الا في ٢٠ فبراير ١٩٦٢ بالرحلة الفضائية الثالثة بواسطة رائد الفضاء « جيلن » .

وقد تميزت سفن المشروع بشكلها الذي يشبه الناقوس ، والذي يبلغ قطر قاعدته ستة أقدام ، ويرتفع بطول تسعة أقدام ، بينما يعلوه برج الهروب (Escape Tower) لمسافة ١٥ قدما ، وبذلك يبلغ الارتفاع الكلى للسفينة ٢٤ قدما (= ٧٥ مترا) .

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء

ولقد تم وفق مشروع « ميكورى » اطلاق ست وعشرين رحلة فضائية تم ست منها بواسطة رواد من البشر ، كما تم اطلاق اربع اخرى بواسطة قروود تجارب ، اما التجارب الباقية فقد تمت بدون ركاب في السفينة .

وكانت اغلب رحلات البرنامج بسرعات (دون مدارية) ، والباقي تم بسرعات مدارية .

وقد كلفت بعض هذه الرحلات بالنجاح ، وفشل البعض الآخر في تحقيق الغرض منه .

وجدير بالذكر ان هذا البرنامج كلف الولايات المتحدة ٤١٢ مليون دولار ، وتكلفت الرحلة الأخيرة وحدها ٣٠ مليون دولار من ذلك المبلغ .

وقد اختير لتحقيق هذا البرنامج سبعة رواد فضائيين تم انتقاؤهم من بين ٦٩ متطوعاً كلهم من العسكريين النشطين الى القوات الجوية والبحرية الامريكية ، وهم :

ـ مالكولم سسكوت كارينتر . ـ لبروى جودون كوبر . ـ جون جلين . ـ فيرجيل جريسوم . ـ والتر شيراء . ـ آلان شبرد . ـ دونالد سلايتون .

ولقد تدرب كل منهم على كيفية تناول الطعام في الفضاء ، من الانابيب الخاصة المضغوط بها ، وكيفية التخلص من البول والفضلات أثناء الرحلة ، بحيث أصبحت هذه التصرفات ميسورة عليهم . كما سمح لكل منهم بأن يباشر حياته العائلية عادياً ، فكل منهم كان متزوجاً وله اطفال .

٢ ـ برنامج جيمنى : يعتبر هذا البرنامج امتداداً لبرنامج « ميكورى » ، ولذلك فأحياناً كان يسمى « ميكورى - ٢ » .

وكان للبرنامج هدفان هما اطلاق سفن فضائية بطير فيها رائد فضاء ، في رحلات

ولقد صمم « برج الهروب » ليضمن الرائد امكان الخروج من السفينة سالماً اذا فشل صاروخ الدفع في الاطلاق ، او بلغ بالسفينة سرعة دوران عالية اكثر من المطلوب ، ليتم هروب رائد الفضاء بواسطة مظلة .

وفي داخل السفينة كان رائد الفضاء يستلقي على ظهره فوق مقعد خاص بحيث يستمر في هذا الوضع اغلب الرحلة ، والى جانب يده اليمنى اجهزة التحكم في مستويات السفينة الثلاثة ، اذا رغب في التدخل في عمل اجهزة التحكم الاوتوماتيكية . والى جانب يده اليسرى حواكم لتشغيل اجهزة « برج الهروب » ، اذا تنطلق اوتوماتيكياً . ومن حوله فراغ يماثل الفراغ الذى يوجد حول طيار في طائرة عادية صغرة . وامامه لوحة الحواكم في الصواريخ العكسية ، وفي الضغط داخل السفينة ، والاضواء الدالة على صحه اداء اجهزة السفينة ، هذا بالإضافة الى المعدات التى يراقب عليها العناصر الدالة على مستويات السفينة بالنسبة للمدار ، ودرجات الحرارة والضغط داخل السفينة ، وداخل البذلة التى يرتديها ، وحواكم أخرى خاصة بالاتصالات اللاسلكية واضواء الانذار من أى أخطار .

كما كان يوجد في السفينة فتحة يمكن ان يشاهد منها المراقب خط الأفق ، وان ينظر من خلال جهاز بروسكوبى الى الارض التى يدور حولها .

وقد كانت السفينة مجهزة بأجهزة (الاتصالات) لاسلكية ذات ترددات عالية وعالية جداً وعالية للغاية ، ومناورات لاسلكية وادارية لتساعد على انتشار السفينة عند عودها للارض .

كما كانت السفينة مجهزة بكاميرتين ١٦ مم لتصوير رائد الفضاء وتسجيل حركاته أثناء الرحلة ، وتسجيل قراءات الصدادات التى امامه ، وبالإضافة الى ذلك كاميرا أخرى ٧٠ مم لتصوير خط الأفق .

مدارية تدوم عدة أيام وقد تصل الى اسبوع او اسبوعين .

وتحقيق التقاء مركبة فضاء بها رائدان بأخرى خالية اثناء الدوران ليلتحما ببعضهما وقد قام بدور المركبة الخالية في الفضاء مرحلة من مراحل الصاروخ « اجينا - ب » اطلقت الى الفضاء بواسطة صاروخ (اطلس) لتشتبك بها إحدى سفن «جيمنى» التى تطلق بصاروخ بيتان ، ثم تحقق التقاء جيمنى (٦ ، ٧) في الفضاء بعد ذلك .

كذلك اختلف برنامج « جيمنى » عن سابقه « ميركورى » في خلق قدرة الاحتمال لدى الرواد للبقاء مددا اطول في الفضاء ، مع تبادل القيادة بين الرائدین اللذين بها . وكذلك عمل تدريبهم على عملية من أعقد عمليات الفضاء وهى التشابك مع جسم آخر اثناء الدوران ، مما يستلزم درجة عالية من الدقة وقدرة في التحكم .

لذلك اختلفت سفينة « جيمنى » عن سابقتها ، في حجمها وان لم تختلف عنها في شكلها ، وذلك لتسع رائدين بدلا من رائد واحد ، ونظرا لطول مدة بقائهما في الفضاء فقد دوى زيادة الحيز الذى يمكن أن يتحركا فيه .

كما تميزت السفينة بإمكان تحكم الرواد في فصلها عن صاروخ الدفع عند اكتشاف أى خلل بواسطة يدوية حسب تقديرهما وليس اوتوماتيكيا كما كان متبعيا في سفن ميركورى .

ولقد اختير لبرنامج « جيمنى » تسعة رواد للفضاء هم :

- جون يتج - ادوارد هوايت
- اليوت مى - نيل ارمسترونج
- توماس ستانفورد - جيمس لوفيل
- شارلز كونراد - فرانك بورمان
- جيمس ماكديفيت

وتم تدريبهم على الاجهزة المحاكية ، للتحكم في المناورة وقيادة السفينة في ظروف مماثلة للظروف التى سيواجهونها في الفضاء .

وبالإضافة الى هؤلاء الرواد ، درب رواد اخرون شاركوا في رحلات البرنامج وهم :

- نيل ارمسترونج - سير نان
- كوللينز - الدرين

ولقد تم القيام باثنتى عشرة رحلة مدارية بسفن جيمنى ، وكانت الرحلتان الاولى والثانية بدون رواد ، واعتبارا من جيمنى - ٣ ، حتى ١٢ طار في كل رحلة رائدان . وكان قد سبق اشتراك بعض رواد البرنامج في رحلات « ميركورى » .

٣ - برنامج « أبولو » : يعتبر برنامج « أبولو » تسلسلا طبيعيا للبرنامجين السابقين ميركورى ثم جيمنى . وقد استهدف منذ بدء تخطيطه اطلاق سفن فضاء يقودها ثلاثة رواد لأجل :

- الدوران حول الارض في رحلات مدارية .
- الطيران في رحلات فضائية قريبة من القمر وتصوير فوهات وشقوقه ، شكل (١٢) .

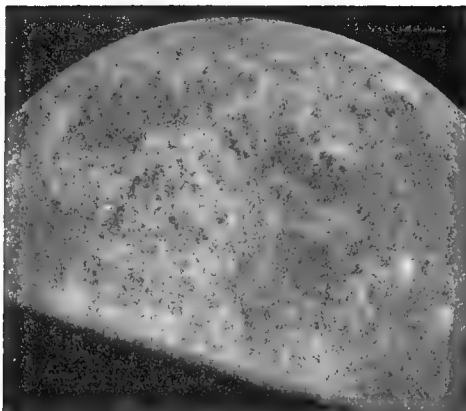
- الاقتراب من القمر ، ثم هبوط رائدى فضاء على سطحه ، وجمع عينات من تربته ، والعودة بها الى الارض .

ونظرا لان مدة رحلة كل من هذه السفن تقرب من اسبوعين ، فقد اتست سفن أبولو بسعتها لتستوعب مستلزمات الحياة لثلاثة رواد ، الى جانب الاجهزة والمعدات اللازمة .

وكانت سفن « أبولو » تتكون من ثلاثة اجزاء رئيسية هى :

- جزء القيادة ، ويتسع للرواد الثلاثة .

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء



شكل (١٢) تنتشر القوهات القمرية في كل مكان على سطحه بالقطار متفردة .

مزودة بصواريخ دفع تجعلها قادرة على العودة الى الأرض ، كما ان عملية الالتحام نفسها تتطلب دقة بالغة في الاقتراب والتأورق ، شكل (١٣) .

وجدير بالذكر ان الرواد كانوا ينتقلون الى المركبة القمرية عبر أنبوبة تصل بين قمة جزء الخدمات المخروطي في السفينة وبين المركبة ، زحفا على الركبتين . وكان للمركبة اربعة أرجل طول كل منها ٩٤ سنتيمترا ، وله وسادة نصف كروية للأرتكاز على السطح

وبلغ ارتفاع المركبة كلها بعد فرد أرجلها ٦٩٨ مترا وقطرها ٤٦ مترا ويصل وزنها الى ١٤٧٠٠ كيلو جرام . ويصرف جزؤها العلوي باسم « جزء الصعود » . ويمكن انفصاله عن الجزء السفلي الذي يعرف باسم « جزء الهبوط » ويربط الجزئين أربعة أحزمة صاروخية متفجرة . وقد صممت السفينة بحيث يتم الهبوط بها على القمر بواسطة تشغيل محركات جزء الهبوط ، لكن عندمغادرة القمر يترك هذا الجزء على سطحه ويعمل فقط كمنصة انطلاق لجزء الصعود .

ولا يمكن للراثنين اللذين يشغلان المركبة القمرية الجلوس بها ، اذ انها صممت على أساس بقائهما داخلها في حالة وقوف ، بصفة مستمرة سواء أثناء العمل أو الراحة أو حتى النوم .

ولقد فشل انطلاق السفينة « أبولو - ١ » واحترقت قبيل انطلاقتها من الأرض ومات روادها الثلاثة . وأعقب ذلك إعادة تجارب الانطلاق بدون رواد في ثلاث رحلات . فرحلات أبولو - ٤ ، ٦ التي بدأت في نهاية عام ١٩٦٧ تمت بدون رواد لاجل تجربة السفينة وأجزاءها المختلفة ، وطريقة انتشارها في المحيط .

وفي برنامج أبولو زودت سفن الفضاء بنظام لهروب الرواد وقت حدوث الخطر . ويتمثل ذلك في جهاز داخل برج يصلو السفينة ،

جزء الخدمات ، ويتسع لمعدات توليد القوى الكهربائية . وخزانات الوقود ، ووحدات الدفع الصاروخية .

المركبة القمرية ، تستخدم في رحلات الاقتراب أو الهبوط على القمر .

وكان رواد الفضاء الثلاثة يستلقون داخل جزء القيادة على كراسي خاصة وإلى جوارهم أنوار التحكم في أجهزة السفن ، وإلى جانبهم خزان الاغذية المعلبة والمؤينة والماء ، والمفصل والمراحيض . وكان جزء القيادة هو الجزء الوحيد الذي يستعاد بعد نهاية الرحلة بانتشاله من المحيط ، ويدخله الرواد . أما جزء الخدمات فأسطواني الشكل ، وبلغ قطره نفس قطر قاعدة مخروط جزء القيادة أي ١٣ قدما ، بينما يبلغ طوله ١٢ قدما ويزن ١٣ طنا .

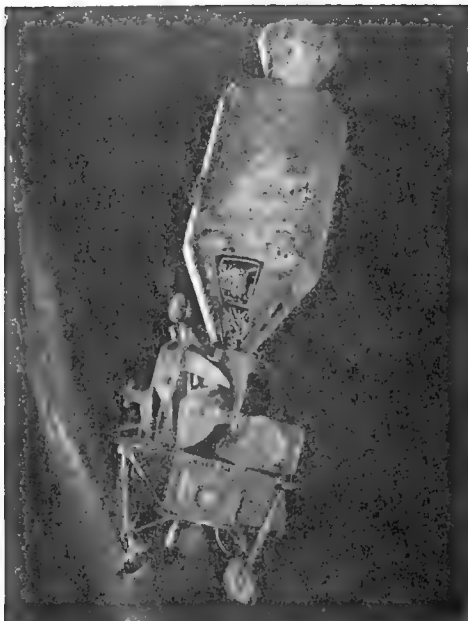
ويحتوى على أربعة خزانات للوقود ، والبطاريات ، ووحدة الدفع الرئيسية التي تتمثل في محرك صاروخي يعمل بالوقود السائل ، ويستمعل لتصحيح المسار والمدار والتأورق .

المركبة القمرية

استخدمت المركبة القمرية في الهبوط على القمر ، في رحلة « أبولو - ١١ » التاريخية وظلت تستخدم حتى نهاية البرنامج بالرحلة « أبولو - ١٧ » . كما استخدمت قبل ذلك في رحلة « أبولو - ١٠ » لتجربة الاقتراب منه حتى مسافة ١٤٤ كيلو مترا .

وقبل ذلك جربت المركبة القمرية في رحلة « أبولو - ٩ » ، للتأكد من طريقة تشغيل محركاتها بعد انفصالها عن السفينة الأم ، وتجربة دوراتها حول القمر مع اجراء مناورات للصعود والهبوط وتغيير السرعة ، ثم تجربة معاودة الالتحام بالسفينة الأم مرة أخرى . ولقد كانت هذه أخطر مرحلة لأن المركبة غير

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء



شكل (١٣) المركبة القمرية التي هبط بها رالداني رحلة أبولو - ١١ على سطح القمر ، ولدت تستخدم حتى رحلة أبولو - ١٧

الرواد « نيل ارمسترونج » ، « الدرين » وهما اللذان هبطا على القمر بينما كان يقود السفينة الام رائد الثالث « مايكل كولينز » ولقد مكث أول رائدين على القمر مدة ٢٢ ساعة ، « دقيقة وضعا خلالها علم الولايات المتحدة الامريكية على سطحه كما وضعا بعض الاجهزة العلمية والرموز التذكارية عليه . واقد قال نيل ارمسترونج عند أول خطوة له على القمر « انها خطوة خطيرة للإنسان ولكنها خطوة كبيرة بالنسبة للإنسانية » وكان الهبوط فوق منطقة منبسطة من القمر تعرف باسم بحر الهدوء عادا منها بحمل كبير من الصخور والأتربة التي جمعها منها . وقد تم تبادل حديث تليفوني بين الرائدتين وهما على القمر مع الرئيس الامريكي نيكسون واعتبرت كل دول العالم المتحضر هذا الحدث على انه فتح جديد في التاريخ وبادات التهانى مع الولايات المتحدة الامريكية لهذا الانتصار العلمى .

ولقد توالى بعد رحلة « ابولو - ١١ » ست رحلات أخرى انتهت برحلة « ابولو - ١٧ » في ديسمبر ١٩٧٢ وكان من أبرز الانجازات خلال هذه الرحلات جمع مزيد من صخور القمر باستخدام السيارة القمرية التي تميزت بكونها ذات عجلات يمكن التحكم في كل منها على حدة شكل (١٤) . وتجمع في نهاية برنامج ابولو ، ما يبلغ من ٣٧٥ كيلو جراما من صخور القمر ، بالإضافة الى وضع عدد كبير من الاجهزة العلمية وتركها على سطحه ، شكل (١٥)



البرامج السوفيتية لفزو الفضاء

ظل الاتحاد السوفيتى سباقا في تسجيل الانتصارات في الفضاء ، عاما بعد عام . وتميزت هذه الانتصارات في أوائل الستينات بالتفوق على الولايات المتحدة الامريكية ، ثم انقلب الميزان بتقديم البرامج الامريكية التي سبق الالمح اليها .

يستطيع ان يقلد مركبة الفضاء وبدخلها روادها الثلاثة عند اكتشاف اى خلل في الصاروخ وقت الاطلاق . ويظل برج الهروب يعلو الصاروخ والسفينة منذ لحظة الاطلاق ، حتى التخلص منه عندما يصل الصاروخ الى ارتفاع معين ، يطمئن بزوال الخطر من الرواد

ودهم ان الغرض الاساسى من رحلات ابولو وعددها ١٤ رحلة ، كان انزال رواد على القمر فقد اطلقت السفن الاولى من هذا النوع بدون رواد لتجربتها .

ثم بدأت أول رحلة برواد ، اعتبارا من « ابولو - ٧ » وقد تم تدريب عدد من رواد برنامج « ميركوري وجيمنى » ، في برنامج ابولو ، كما زيد عليهم رواد آخرون .

ومن أبرز من شاركوا في رحلات هذا البرنامج غير رواد البرنامجين السابقين ، رواد الفضاء التالية اسماؤهم :

- إيرلى .
- كانينجهام .
- اندرس .
- شويكات .

الرحلة التاريخية ابولو - ١١ : وأبرز من سجل لهم التاريخ فخر النصر العالمى ، وضع أول خطوات على القمر مهندس الفضاء « نيل ارمسترونج » وزميله « الدرين » . في الرحلة التاريخية المشهورة « ابولو - ١١ » . وشاركها في هذه الرحلة بقيادة السفينة الام عندما انفصلا عنها ، زميلها « كولينز » .

وثلاثتهم سبق لهم المشاركة في رحلات برنامج جيمنى ، وقد اختيروا لرحلة « ابولو - ١١ » بعد تحليل خبراتهم السابقة .

وقد بدأت الرحلة في ١٦ يوليو ١٩٦٩ ودامت ١٩٥ ساعة و ٢٠ دقيقة وانتهت في ٢٤ يوليو ، بينما سجل الحدث التاريخى بوطة سطح القمر يوم ٢٠ يوليو . وقد قام بالرحلة

ملا يحدث الآن في ملوم القشام



شكل (١٤) السيارة القوية استعملت في حفر قنطرة القشام فوق القصر شيخ بيتك من اهل
صعدة . تم انصهر في كل حيلة من حيلها على حصة ديمكي في هذه الحيلولة ، تعود ثانية مع الزوار الى الكوي .



شكل (١٥) استخدم رواد الفضاء الأمريكيون هذا كبراً من الاجهزة العلمية على سطح القمر من اهدبا جهاز لياس الزلازل على القمر واجهزة لياس شدة الاشعة الكونية واجهزة تنكس اشعة ليزر موجبة من الارض لقياس بصد القمر عن الارض بدقة .

ورغم قلة المراجع التي نشرت عن هذه المركبات وتصميمها فستعرض لتفاصيل هذه الرحلات فيما يلي :

١ - **برنامج فوستوك** : تحقق إطلاق ست سفن فضائية في هذا البرنامج ، بدأت أولاها بالرائد الفضائي الاول « جاجارين » ، وكانت كلها رحلات مدارية تحمل رائدا واحدا . وقد حملت آخرها « فوستوك - ٦ » الرائدة الفضائية الوحيدة « فالنتينا » . وتميزت الرحلات بالتدرج في كبر زمن الرحلة وعدد الدورات . فقد ظلت الرحلة الاولى مدة تقل عن ساعتين ، ولبت الرحلة السادسة أقل من ٧١ ساعة .

٢ - **برنامج فوسخود** : تمت في هذا البرنامج رحلتان ، حملت الاولى ثلاثة رواد الى الفضاء وحملت الثانية رائدين فقط .

وكانت مدة كل من الرحلتين قريبة من ٢٤ ساعة ، وتحقق في كليهما نصر علمي فريد .

فقد تم في الاولى انطلاق اول ثلاثة رواد في سفينة فضائية واحدة ، اما في الثانية فقد انطلق « ليونوف » خارج السفينة من باب فتحة في جانبها وظل يسبح في الفضاء وهو مربوط الى سفينته بحبل ، شكل (١٦) .

٣ - **برنامج سويوز** : بدأ البرنامج الفضائي السوفييتي الثالث عام ١٩٦٧ ، ومازال مستمرا الى الان .

وتتميز سفن « سويوز » بشكل اسطواني ذي مقدمة كروية ، وطول السفينة ٣٠ قدما وتستطيع حمل عدد من الرواد يصل الى ستة رواد ، ولكن الآن لم يزد عدد الرواد عن ثلاثة ، ووزن السفينة ٦٥٠٠ رطل ، واستحدث فيها تصميم جديد يتيح بقاء الرواد داخلها بدون ملابس خاصة وبدون اغطية

غير ان الاتحاد السوفييتي انفرد بتسجيل عدة انتصارات فضائية نوعية ، تعبر عن مدى تقدم علمائه ورواده في تكنولوجيا الفضاء وعملياته .

فقد سبق العالم اجمع في ارسال الرائد الفضائي الاول « جاجارين » كما سجل الانتصار العلمي الوحيد بارسال ممثلة الجنس الاناث « فالنتينا تريشكوفا » في رحلة من اصعب الرحلات الفضائية .

وقد سبق أمريكا في تسجيل أول الترحم في الفضاء بين سفينتين فضائيتين ، وسجل أول خروج لرائد الفضاء من سفينته ليمشي خارجها وهو مربوط اليها بحبل .

وكانت اولي السفن الفضائية التي تحمل ثلاثة رواد، وهي سوفيتية من طراز « فوسخود » تحلق في الفضاء قبل ان يبدأ برنامج « جيميني » الذي تحمل سفنه رائدين فقط « بعدة شهور » .

ولقد تميزت الانتصارات الفضائية السوفيتية بالتنوع المبني على الدراسة فقد كان أحد الرواد الثلاثة في السفينة الفضائية « فوسخود - ١ » طبيبا ، والثاني عالما طبيعيا والثالث طيارا كونيا ، ولهذا الاختيار وجاهته وأسبابه بلا شك .

كما تم زواج رائدة الفضاء « فالنتينا » ، من زميلها الطيار الفضائي « نيكولايف » للدراسة اجهادات الفضاء ، واشعاعاته على ذريتهما .

وقد اقتصرت البرامج السوفيتية للرحلات البشرية الفضائية الى :

- * برنامج رحلات فوستوك (Vostok) .
- * برنامج رحلات فوسخود (Voskhod) .
- * برنامج رحلات سويوز (Soyuz) .



شكل (١٦) سجل دالة الفساد السوفييتي «البيروقراطية»
أول سباحة في الفضاء .

من السفينة الأخرى . وفي ١١ أكتوبر من عام ١٩٦٩ واليومين التاليين انطلقت سفن « سويوز - ٦ » ، « سويوز - ٧ » ، « سويوز - ٨ » تباعا لتكوين « محطة فضاء » وقد بدأ إطلاق سويوز - ٦ من قاعدة بايكونور في وسط آسيا واتخذت مدارا أوجه (٢٢٣ كم) وحضيضه (١٨٦ كم) وكان بالسفينة رائد الفضاء « جورجى شونين » ، « فاليري كوباسوف » وأهم ما أنجزه الرحلة استخدام نظم الملاحة القصورية ونظم الملاحة الفلكية في توجيه السفينة واختبار لحام المعادن في الفضاء تحت حالة انعدام الوزن .

وفي ١٢ أكتوبر ١٩٦٩ انطلقت « سويوز - ٧ » من نفس القاعدة الفضائية وبها ثلاثة رواد هم « أناتولى فيلغتشنكو » ، « فاديلاف فولكوف » و « فيكتور جورباتكو » . عمل الأول قائداً والثاني ملاحاً والثالث مسجلاً للظواهر العلمية ومتابعة الاتصالات ، وقد قامت السفينة بالناورة في الفضاء ورصد الأجرام السماوية ودراسة تغير أضاءة بعض النجوم ودراسات أخرى عن الشمس . وطارت في تشكيل شديد القرب من « سويوز - ٦ » . وفي اليوم التالي أطلقت « سويوز - ٨ » وكان بها الرائدان « شاتالوف » ، « والبكس إليسيف » وكونت السفن الثلاث تشكيلا في الفضاء وكان قائد هذا التشكيل الرائد شاتالوف . غير أن السفن لم تلتحم ببعضها ولكنها جربت التحكم في المناورة الى درجة بلغت ٢٠° من الشائبة ، وكان الرواد يرون بعضهم في السفن الأخرى بالعين المجردة ، وأمكن أن يقوم رواد كل سفينة بتصوير السفينتين الأخريين . واستخدم رائد الفضاء « شونين » في سويوز - ٦ جهازا جديدا للحام المعادن في الفضاء بدون لهب . وبدأت رحلة عودة السفن الثلاث فيما يشبه المظاهرة إذ هبطت سويوز - ٦ قرب مدينة (كراجاندا) بوسط آسيا يوم ١٦ أكتوبر ، وأعطتها « سويوز - ٧ » في اليوم التالي في موقع يبعد ٢٥ كم من الأول . وفي اليوم الثالث

للارس ، ويجد الرائد فيها أماكن للجلوس وأخرى للقراءة والنوم .

وقد بدأت الرحلة الأولى بكارثة وفاة رائد الفضاء فلاديمير كومانوف في ٢٢ أبريل ١٩٦٧ عند ارتطام السفينة بالأرض بسرعة عالية في رحلة العودة بعد أن طار في الفضاء مدة ٢٦ ساعة و ٤٥ دقيقة . وقد ألغيت الرحلة « سويوز - ٣ » ثم بدأت رحلة « سويوز - ٣ » في أكتوبر ١٩٦٨ بواسطة رائد واحد أيضا هو « بيريجونوف » وبقي في الفضاء مدة ٩٤ ساعة و ٥١ دقيقة .

وفي ١٤ يناير ١٩٦٩ أطلقت « سويوز - ٤ » بقيادة « فلاديمير شاتالوف » ودار حول الأرض ٤٨ دورة خلال ٧١ ساعة ، وفي اليوم التالي أطلقت « سويوز - ٥ » وفيها ثلاثة رواد هم « بوريس فولينوف » ، « اليكس إليسيف » و « فيجيني خرونوف » واتخذت السفينة مدارا يقرب من مدار سابقتها « سويوز - ٤ » « أوجه ١٤٤ ميلا وحضيضه ١٢٥ ميلا بفارق أربعة أميال بين المدارين ، ووقعت اعتبار هذا الاقتراب نصرا علميا كبيرا ومقدمة لدراسة التحام السفن في الفضاء . وقد أخذت المسافة بين السفينتين تتناقص حتى بلغت مليون . لن أنجز التحام « سويوز - ٤ » كهدف إيجابى « سويوز - ٥ » كهدف سلبى بواسطة حاسب الكترونى كان مثبتا في الأولى حتى أصبح الفاصل بين السفينتين ٣٣٠ مترا واكممل الالتحام بالتحكم اليدوى . وقد ظلت السفينتان ملتحمتين مدة أربع ساعات وقامت بعمل مناورات لتأكيد عملية الالتحام . كما قام الرائدان « إليسيف » و « خرونوف » بالسباحة خارج السفينتين مدة عشر دقائق ، ثم انفصلت السفينتان عن بعضهما وبإبادل الرواد أماكنهم في السفينتين وعادت « سويوز - ٤ » الى الأرض يوم ١٧ يناير وبها ثلاثة رواد ، بينما عاد فولونوف بمفرده بالسفينة « سويوز - ٥ » في اليوم التالي وهبط على بعد ٥٠٠ ميل

هبطت سويوز - ٨ وقد احتفل قادة وزعماء الاتحاد السوفييتي بالرواد في الكرملين ، ومنع كل منهم النجمة الذهبية .

وفي أول يونيو ١٩٧٠ أطلقت « سويوز - ٩ » وبها الرائدان « اندريان نيكولايف وفيتالي سفاستيانوف » بغرض دراسة تأثير بقاء الرواد في الفضاء مددا طويلة . وقد ظلت السفينة ١٨ يوما حتى هبطت يوم ٢٠ يونيو، وبذلك سجلت رقما قياسيا لطول مدة البقاء في الفضاء . وقد أظهر السوفييت عملية الهبوط على شاشات التلفزيون لأول مرة .

ثم بدأت في ٢٣ إبريل ١٩٧١ الرحلة للسفينة « سويوز - ١٠ » وبها ثلاثة رواد هم « فلاديمير شاتالوف » ، « اليكس بليسيف » ، و « روكايشينكوف » إلى مدار قريب من المحطة المدارية (ساليوت - ١) التي كان قد سبق إطلاقها قبل ذلك بأربعة أيام . وقد اتخذت مدارا أوجه ٢٢٢ كيلو مترا وحضيضه ٢٠٠ كيلو متر ، وكانت تتم كل دورة من دوراتها كل ٨٨ دقيقة . وقد تم الالتحام بين السفينة والمحطة المدارية ودام لمدة خمس ساعات ونصف ، وكان ذلك أول حلقة في جهود بناء « المحطات الفضائية » الكبيرة .

ثم لحقت السفينة « سويوز - ١١ » بالمحطة المدارية نفسها « ساليوت - ١ » في ٦ يونيو ١٩٧١ وهي تحمل ثلاثة رواد هم « جورجي دوبرفولسكي » ، « فيكتور بليسيف » ، « فلاديلاف فولكوف » وقد ظل الرواد بعد انتقالهم من السفينة إلى داخل المحطة المدارية « ساليوت - ١ » مدة ٢٣ يوما ، وكذلك كانت هذه المدة أطول مدة قياسية لبقاء الرواد في الفضاء سواء بين الأمريكيين أو السوفييت . وبعد أنجال العديد من التجارب العلمية المتقدمة من آثار انعدام الوزن ، وأنواع جديدة من الملابس الفضائية ، واستزراع النباتات بدون تربة من أهمها البصل والكرفس ، والتقاط صور عديدة للأرض ، ثم بدأ الرواد رحلة العودة إلى

الأرض . غير أنه في نهاية رحلة العودة استعدادا للهبوط حدث خلل في أجهزة الضغط بالسفينة أدى إلى وفاة الرواد الثلاثة داخل سفينتهم . وقد تسبب هذا الحادث المشؤم في وقفة

تخلف لم يفق منها السوفييت إلا في سبتمبر ١٩٧٣ عند إطلاق الرحلة التالية « سويوز - ١٢ » . وتوالى رحلات سويوز حتى سجلت الرحلة « سويوز - ٢٤ » في فبراير ١٩٧٧ ، ويبدو أن البرنامج لم يتوقف بعد . غير أن أهم إنجازات البرنامج هو تحقيق الالتحام بالمحطات المدارية من طراز (ساليوت) (Salyute) والتي أطلق منها حتى يونيو

١٩٧٥ المحطة الخامسة (ساليوت - ٥) . ولقد سجل رائدا « سويوز - ١٧ » في يناير ١٩٧٥ مدة بقاء في الفضاء بلغت (٣٠) يوما قضياها في « ساليوت - ٤ » وحطم رائدا « سويوز - ١٨ » هذا الرقم في مايو ١٩٧٥ بالبقاء في نفس المحطة المدارية مدة (٦٣) يوما كما تلرب رواد بعض رحلات سويوز على السباحة في الفضاء وأجراء التجارب اللازمة لرحلة الوفاق السوفيتية الأمريكية المشتركة التي تمت في يوليو ١٩٧٥ .



مرحلة غزو الكواكب

حلبة جديدة

بعد أن خطط العلماء لهبوط رواد الفضاء على القمر ، وقبل أن يتحقق هذا الحلم ، بدأت أبحاث الفضاء تأخذ بمدا جديدة في أواسط الستينات ، بتوجيه سفن الفضاء إلى الكواكب القريبة . وبذلك أصبحت الحلبة الجديدة للجهود الفضائية ، هي رقعة المجموعة الشمسية التي تضم الكواكب الثمانية أخوات الأرض بواسطة سفن الفضاء بدل الأقمار الصناعية . وقد انفردت روسيا وأمريكا بالتباري في إطلاق سفن الفضاء ، لكنها ليست في مثل غزارة الأقمار الصناعية لأنها أكبر

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء

بينما رسمت الاستراتيجية السوفيتية لتحقيق انتصارات نوعية في الفضاء ، تحقق المزيد من الدراسة والاستقصاء عن طبيعة سطح القمر وطوبوغرافيته ، وجوّه .

تحد سوفيتي اسمه لونا

وفي الوقت الذي انطلقت فيه اشهر رحلات برنامج أبولو الأمريكي ، وهي رحلة « أبولو - ١١ » ، ليهبط منها أول رائدين على سطح القمر ويحضرا عينات من صخوره نجده السوفييت قد اطلقوا احدى سفنهم « لونا - ١٥ » لتدور حول القمر ، وتحط عليه في صمت .

وقد دارت « لونا - ١٥ » ٥٠ مرة حول القمر قبل أن تحط عليه على بعد ٥٠٠ ميل من بحر الهدوء الذي هبط عليه رائدا « أبولو - ١١ » ، ووقفت عن أداء مهمتها . وبعد أكثر من عام تقريبا كشف العلماء سر لم يدع في حينه ، وهو أن « لونا - ١٥ » لم تكمل الشق الثاني من مهمتها . ذلك انها بعد أن قامت بتصوير الأماكن التي هبط عليها رائدا الفضاء الأمريكيان . تحطمت عندما حطت على القمر ، لأن رسوها لم يكن يرقى . وكان من المقرر أن تعود إلى الأرض قبل عودة الرواد الأمريكيين ومعها بعض من صخور القمر لتسجل كونها أول سفينة فضاء تهبط على القمر ثم تعود منه ببعض تربته ، وتسجل أيضا برهانا صامتا يقول للعالم نحن أيضا نستطيع العودة من القمر ببعض صخوره كما فعل رواد أمريكا ، بدون جلبة وبدون هذه الملايين التي انفقوها . غير أن مهمة « لونا - ١٥ » لم يكتب لها النجاح عندما ارتطمت بسطح القمر وتحطمت .

غير أن « لونا - ١٦ » حققت نفس المهمة بعد أكثر من عام ، حيث حطت على القمر وجمعت عينات من صخوره وعادت بها إلى الأرض بعد أن حققت ما لم توفى « لونا - ١٥ » في عمله .

جمعا ، وانقل وزنا وتبقى في الفضاء مدة مئات من الأيام حتى تدخل في مجال جاذبية كوكب أو تستطيع أن تدور حوله .

سلاسل من سفن الفضاء

للتفرقة بين الاقمار الصناعية وسفن الفضاء يسهل علينا تعريف الاقمار الصناعية بأنها « توابيع » (Satellites) تتبع الأرض في حركتها ، شأنها في ذلك شأن « القمر البدر » ، وتجوّب الفضاء القريب منها والذي لا يتجاوز القمر ، ولا توغل في الفضاء البعيد .

أما سفن الفضاء فتعمل في آحاد أبعد في الفضاء (البينوكسي) ، ولا ترتبط بالأرض في دوراتها ، بل ترتبط بالقمر أو بأحد الكواكب .

تباين استراتيجية غزو الفضاء

تتمتع حلية استخدام سفن الفضاء على الدولتين الكبيرتين أمريكا وروسيا ، ومن المسير انفراد احدهما بقصب السبق ، اذ لا يكاد يتحقق لاحدهما نصر ، حتى تلحق بها الاخرى .

غير أن الدارسين لما تحقق في كافة أنشطة غزو الفضاء ، يدركون أن كلا من الدولتين لها استراتيجية خاصة ترسمها سياستها العلمية ، وتحققها تجاربها في الفضاء .

وبعد السيل المنهمر من سلاسل الاقمار الصناعية للقياسات العلمية ، انضمت كل منهما خطأ مستقلا لاستخدام الاقمار في الافراض التطبيقية . وبدأ التباين واضحا في الافراض المرسومة لرحلات الفضاء الكونية بدون بشر ، ثم برواد من البشر . ويصح القول أن الاستراتيجية الأمريكية لغزو الفضاء استهدفت الوصول إلى القمر ، والرسو عليه برواد ، ثم التحرك فوق سطحه لدراسة تعميره وإقامة المستعمرات عليه .

لونغود تتحرك على عجل

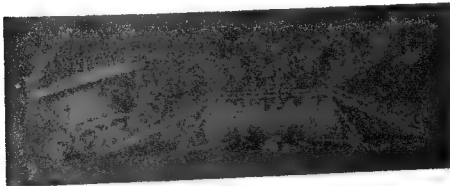
وبعد أكثر من عام وفي ١٠ نوفمبر ١٩٧١، اكتملت حلقة أخرى من حلقات التحدى الصامت، فقد حطت «لونا - ١٧» على القمر فوق منطقة «بحر الأمطار» الذي يتميز بمساحته المنبسطة وحملت السفينة معها مركبة قمرية ضخمة الحجم وذاتية الحركة أطلق عليها «لونغود - ١»، ومن العجيب أن «لونغود» انزلت من باطن السفينة فوق «كوبري» برز من داخلها وانشى فوق سطح القمر، فتحركت عليه بسهولة، رغم أن حجمها وشكلها يكاد يعادل ويشابه «باتيو» الحمام. وظلت «لونغود» التي كانت مطلية بلون أبيض - لتسهيل مراقبة حركتها - تتجول على سطح القمر فوق ثمانى مجالات معدنية يتحكم من الأرض - للهب في اتجاه، لم يتحكم فيها لتتوجه إلى اتجاه آخر. فقد كانت حركة كل مجلة من مجلاتها الثمانى مستقلة من المجلات الأخرى، وكان يتحكم في حركتها من الأرض طاقم يتكون من خمس رجال. كل منهم له مهمة مستقلة من الآخرين. ويصالح الطاقم من قائد، ومرشد، ومهندس، وملاح ولاسلكى، وكانت أمام كل منهم أجهزة معاكبة لأجهزة المركبة لونغود ليستطيع متابعة حركتها والتحكم فيها، وظلت المركبة في حركة وتحوال

مايقوق على ١٠٠ ساعة، بينما المحطات الأرضية تستقبل منها الصور، عن سطح القمر، وخاصة المناطق التي وطئتها عجلات المركبة.

وخلال الليل القمري الذي يدوم ١٤ يوما انسدل على المركبة غطاء عازل ليقبها البسرد الذي تهبط درجة الحرارة فيه إلى (-١٥٠) درجة مئوية. ودفع طاقم التحكم الأرضى بالمركبة إلى تجويف من تجاويف القمر، لتبقى في حالة «بيات ليلي» وتوقفت أجهزتها عن العمل. ثم ماودت نشاطها على فترات متقطعة طوال أحد عشر شهرا في ٩ أكتوبر ١٩٧١.

وبذلك حققت «لونغود» حلقة في الصراع الصامت على سطح القمر، لتكون كرد سوفيتى على الأمريكيين عن سياراتهم التي تتجول على القمر، شكل (١٧).

وتوالى حلقات الصراع الصامت بعد ذلك حتى أطلقت السفينة «لونا - ٢٠» في ٢٥ فبراير ١٩٧٢ وهى مزودة بمنقاب ميكانيكى يستطيع أن ينفذ في تربة القمر وقد أمكن للمنقاب أن يعمل لمدة (٢٠) دقيقة، عادت بعدها سالمة إلى الأرض حاملة بقايا من نواتج الحفر.



شكل (١٧) اخذت المركبة السوفيتية لونغود تتحرك على سطح القمر يتحكم من الأرض وليس فيها بشر.

ويرجع انها قد تكون شبكة لقنوات الري صنعها عقلاء يسكنون المريخ ويعمرونه وقوى من هذا الزعم ، ما لاحظته علماء آخرون من اختلاف لون بعض المساحات الواسعة على المريخ وعزوا ذلك الى جنى بعض المحصولات الزراعية التى تغذيها شبكة قنوات الري .

وقد أبد هذه الظنون ، حقيقة ان المريخ يتعمم بطاقتين بيساويتين فوق قطبيه ، قالوا انها جليد متجمد ، اذا ما ارتفعت درجة الحرارة تنحسر المسافة البيضاء فينصهر الجليد وينساب كماء فى القنوات التى أهداها عقلاء المريخ .

مارينر تهتك اسرار المريخ

بدأت امريكا منذ عام ١٩٦٢ فى توجيه سفن فضاء من طراز «مارينر» (Mariner) الى كوكب المريخ لتجميع المعلومات عن سطحه وجوهه، ولبيان تفاصيل طوبوغرافيته وتصويره.

وحتى عام ١٩٧١ كان قد تم اطلاق تسع سفن من هذا الطراز باء اثنان منها بالفشل ، ووجهت اثنتان هما «مارينر - ٢» و «مارينر - ٥» الى كوكب الزهرة ، بينما توالى سفن «مارينر - ٤» حتى «مارينر - ٦» الى الدوران حول هذا الكوكب . ثم اطلقت «مارينر - ١٠» فى نوفمبر ١٩٧٣ الى الزهرة وعطارد معا .

ولم له من اللازم ان ندرك ان مثل هذه السفن تقطع فى هذه الرحلات ملايين الكيلو مترات حتى تصبىح فى مجال جاذبية الكوكب وتصبح قادرة على مداومة الدوران حوله .

وعلى سبيل المثال فان السفينة «مارينر - ٤» التى بدأ اطلاقها يوم ٢٨ نوفمبر عام ١٩٦٤ ظلت تتحرك فى الفضاء مدة ٢٢٨ يوما لتقطع خلال هذه المدة ٣٢٥ مليون ميل (٥٢٢ مليون كيلو متر) ، حتى أصبحت

وعكف العلماء على تحليل ماأحضرتة السفينة من أعماق القمر ، ليضيف الى معلوماتهم جديدا بعد ما علموا عن صخور سطحه مما أحضرتة «لونا - ١٦» . ومن بعد «لونا - ٢٠» انطلقت «لونا - ٢١» فى يناير ١٩٧٣ لتواصل سلسلة سفن الفضاء التى تستهدف دراسة سطح القمر والفضاء المحيط به .

المريخ ... ماذا ؟

لم يحظ كوكب من كواكب المجموعة الشمسية بمثل ما حظى به كوكب المريخ من اهتمام ، سواء من المتخصصين أو عامة المراقبين .

فقد نسجت حوله الاساطير، وتخيل تلاميذ المدارس المسفار بعض الاحياء ذات الاشكال المعبية عليه ورسومهما فى كراساهم .

وحبك كثير من الادباء قصصا وروايات من غزو سكان المريخ لاهل الأرض ، وانزال الدمار بهم . ومع حلول عصر الفضاء ، تركت اغلب سفن الفضاء ، لتدور حول هذا الكوكب الذى يراه علماء الفلك من خلال مراقبتهم ذا لون يعيل الى الاحمرار ولذلك سموه «الكوكب الاحمر» ، ولعل علماء الفلك انفسهم اولوه عنايتهم ، لانه يلى الأرض مباشرة فى البعد عن الشمس فضلا من انه يتم دورته حول محوره فى مدة تقرب من يوم الأرض . وتراه دائما تام الاستدارة بينما يتم دورته حول الشمس فى (٦٨٧) يوما أو ما يقرب من عامين من أعوام الأرض . ونظرا لما يحيط به من جو شفاف ، فقد تمكن العلماء من رصد كثير من تفاصيل سطحه منذ عهد جاليليو . وقد طلع على الناس بعض العلماء من أشهرهم الفلكى الايطالى «شيبارديلى» والبريطانى «لؤل» بقول خلاصته ان على سطح المريخ شبكة من القنوات ذات تصميم هندسى فيه سمات من التماثل .

كما أوضحت الصور أن على المريح براكين بعضها ثائر الى الآن تتصاعد منه الحمم ، وبعضها خمد منذ ملايين السنين ، وتراكمت حول فوهته (اللافا) في حلقات ، ويتميز منها بركان « نيكس اوليمبيا » فوق جبل يبلغ قطره ٥٠٠ كيلو متر .

وهناك الار واضحة اشار اليها «مارسورسكي» تدل على أن الماء كان موجودا يوما ما على المريح ثم انجسر ، كما أن هناك مناطق تظهر آثارا واضحة لسقوط الامطار ، واخرى تبدو فيها آثار لعوامل التعرية ، شكل (١٩) .

كما اجتهد عالمان آخران هما الدكتوران « ساجان وبولاك » في العثور على مساحات مغناطيسية على المريح ، تتميز بشدة جاذبيتها ، ووجهها أن يكون السبب في ذلك تركيز بعض المعادن تحت السطح نتيجة لسقوط شهب اونيازلك وغوصها في أعماق التربة .

وقد ثبت أن انخفاض درجة الحرارة عند قطبي المريح لا يجعل هناك فرصة للدوبان الجليد الذي يظهر على هيئة طواقى بيضاء عند القطبين . شكل (٢٠)

فينوس تدور حول نفسها

كوكب الزهرة (Venus) هو ثاني الكواكب بعدا عن الشمس ، وتعد المسافة بينه وبين الارض أقل من تلك التي بين الارض والمريح ، بل تكاد تقترب من نصفها حيث تبلغ في متوسطها ٤١٥ مليون كيلو متر .

وقد بدأ اهتمام السوفيت بهذا الكوكب في مرحلة مبكرة منذ فبراير عام ١٩٦١ حيث صمموا سلسلة سفن الفضاء المسماة باسم الكوكب نفسه. وقد اطلقت السفينة «فينوس - ٢ » في الانطلاق يوم ١٢ نوفمبر ١٩٦٥ ، وأصبحت على بعد ٢٤٠٠٠ كيلو متر من

على بعد ٥٧٠٠ ميل من المريح ، ثم اخلت توالى الدوران حوله وتلتقط الصور لسطحه .

وقد زودت سفن « مارينر » بأجهزة تصوير تليفزيونية وأجهزة تسجيل وقياس للأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية وبذلك أصبح لدى العلماء على الارض حصيلة مكونة من آلاف الصور المأخوذة لسطح المريح على مدارات مختلفة .

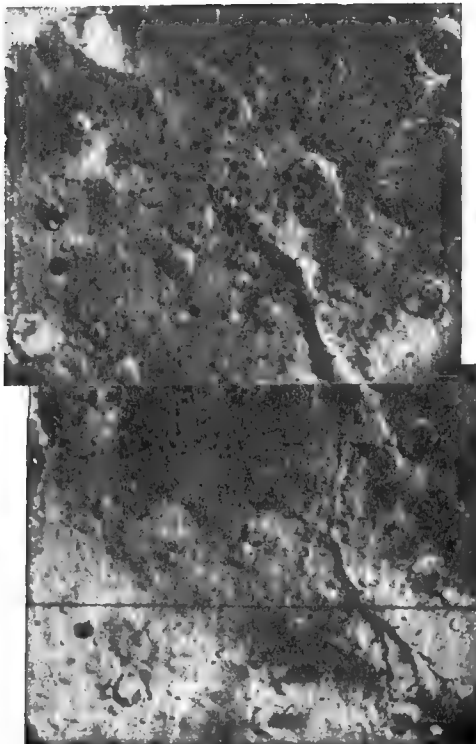
وقد احاطت ملايين الصور التي التقطت لسطح المريح ، بكثير من الافتراضات التي ظنها العلماء عنه . ويمكن القول أن تطابق هذه الصور بنظام « الوزايك » وقد وضع أمام العلماء خرائط كاملة من سطح الكوكب كله ، وعرفت كل معالمه من جبال ووديان وفوهات وشقوق وقنوات وأخاديد .

وقد برع في تفسير هذه الصور الصالام الأمريكي « دكتور هارولد مارسورسكي » المشرف الجيولوجي على مشروع مارينر وقد أعطى تفسيراً منطقياً لمعدي من هذه الصور ، وخاصة تلك المأخوذة من ارتفاعات عالية . وأهم ما خلاص اليه هو وجود « عواصف ترابية » تتحرك على سطح المريح ، فتحجب معالم المناطق التي تسبح فوقها .

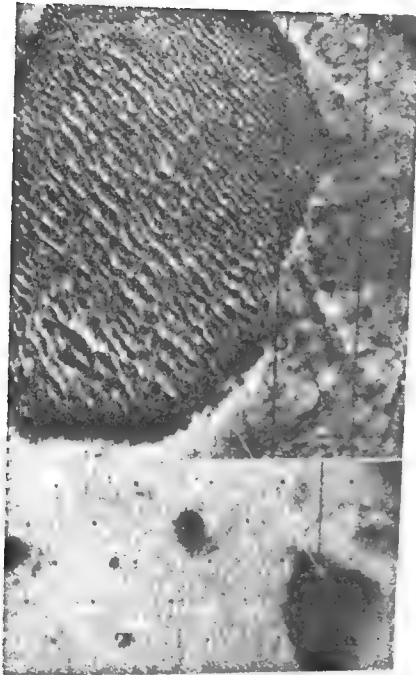
فاذا انتشمت السحابة الترابية وضحت تفاصيل ماكانت تحجبه . وبذلك وضع سبب المساحات الداكنة التي كانت ترصد على المريح والتي ظن بعضهم أنها مساحات تكسوها المحصولات النباتية .

كما تكشف وجود عديد من الشقوق على سطح الكوكب تمتد في تراج مسافات طويلة بعضها زاد من ٣٠٠ كيلو متر وبعضها بلغ عمقه ستة كيلو مترات ، وليس في أي منها قطرة ماء . وتظهر الصور أن الشقوق تتقاطع لتكون شبكة توجد بينها فوهات دائرية تماثل الفوهات القمرية ، شكل (١٨) .

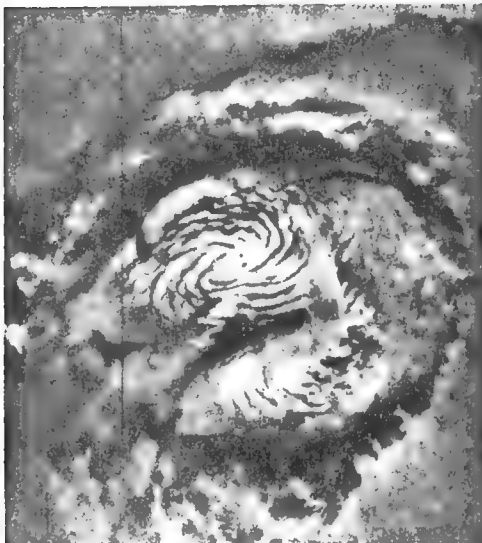
ماتلا يحدث الآن في علوم الفضاء



شكل (١٨) طبقة سطح المريخ التي ملئت بالشلل والبراكين .



شكل (١٩) : صورة من مرفق حوامل الترميز على سطح الرقعة دليل على وجود رايح وهواء .



شكل (٢٠) أوضح دكتور ماسورسكى أن الطوائف البيضاء على قطبي الرياح في حقيقتها تلوذ متجمدة لا لتلوذ لانتفاخي درجة الحرارة .

« زوند » وهي « زوند - ٢ » موجهة الى كوكب المريخ . وقد توقفت عن العمل في مارس ١٩٦٥ بعد اطلاقها بحوالى ثلاثة شهور .

رسالة الى المشتري

ملكتم امريكا زمام المبادرة ، بالسبق الى غزو كوكب المشتري قبل روسيا . ذلك انها في ٣ مارس ١٩٧٢ بادرت الى اطلاق السفينة الفضائية « بيونير - ١٠ » (Pioneer-10) الى هذا الكوكب الذى يبعد عن الارض مسافة متوسطها ٦٢٨ مليون كيلو متر . ويتميز المشتري بأنه اكبر كواكب المجموعة الشمسية قطرا وبالتالى حجما ، اذ يمكن ان يتبلغ بداخله « ١٣٣٠ » أرضا . كما أنه يحتفظ لنفسه بأكبر عدد من الاقمار التوابع ، اذ أن له ١٢ قمرا .

كما يتميز بتحركه بقع كبيرة على سطحه ذات الوان متغيرة بين الاحمر والاصفر والبني ، وقد رصدت هذه البقع في حركة سريعة وهي تقطع قرص الكوكب المرئى لمراصد الارض في أقل من خمس ساعات ، ولذلك رجح كثير من العلماء أن تكون هذه البقع نوما من السحب لغازات غير بخار الماء كالميثان أو النشادر .

ولقد انطلقت « بيونير - ١٠ » لتقطع في الفضاء هذه المسافة التاسعة وتبلغ مجال جاذبية المشتري حتى بعد ١٤٠.٠٠٠ كيلو متر من سطحه ، بعد رحلة مدتها ٢٢ شهرا في الفضاء .

وكان الغرض الرئيسى من هذه السفينة هو تصوير سطح الكوكب من قرب ، لتبين معالمه . بالإضافة الى تصوير حركة اقماره الاثنى عشر وهي تدور حوله ، فبعضها يدور في نفس اتجاه سائر اقمار الكواكب الاخرى ، بينما يشك البعض الآخر من ذلك ويدور في الاتجاه العكسى .

الكوكب في ٢٧ فبراير ١٩٦٦ . وتوالت سفن فينوس حتى « فينوس - ٨ » التى أطلقت في ٢٧ مارس ١٩٧٢ . وكانت تعتمد سفن فينوس في توجيهها على استقبال ضوء الشمس وبعض النجوم اللامعة ، حتى خلس العلماء السوفييت الى أن كوكب الزهرة يحتفظ حوله بغلاف جوى شديد الحرارة ، وأن كثافة هذا الغلاف أكبر من كثافة الغلاف الجوى للأرض بمقدار ٦٠ مرة . وأن درجة الحرارة أثناء النهار تتراوح بين ٤٧٠ و ٤٨٠ درجة مئوية ، بينما تتراوح درجة الحرارة أثناء الليل بين ٤٧٥ و ٤٥٩ درجة مئوية .

كما كشفت تسجيلات السفن عن أن ٩٧٪ من جو الزهرة يتكون من غاز ثنائي اكسيد الكربون ، ٢٪ نيتروجين ، ١٪ أوكسجين ، ١٪ بخار ماء . كما وجدت آثار طفيفه من غاز النشادر ، وكشفت قياسات التربة عن أن سطح الزهرة كجراثيم الأرض ويحوى ٤٪ بوتاسيوم ، وألثارا من اليورانيوم ، والثوريوم .

ولكن السوفييت يعموا وجوهم بعد ذلك شطر « المريخ » حيث توالت سلسلة سفن فضائية جديدة تحمل اسم الكوكب نفسه « مارس » وقد نجح من هذه السلسلة (مارس - ٣) الذى هبط برقى فوق المريخ بواسطة مظلة في ٢ ديسمبر ١٩٧١ . وبينما أطلقت « مارس - ٥ » في يوليو ١٩٧٢ ولم يمض غير اسبوعين حتى انطلقت « مارس - ٦ » في اغسطس ١٩٧٣ .

ولا يفوتنا ان نقرر أن الاتحاد السوفييتى أطلق في الستينات سلسلة سفن فضائية من طراز « زوند » (Zond) استهدفت اقمارا متعددة منها الدوران حول القمر ، وتجربة الطيران البيكوبى الطويل الامد ، واستخدام محطات ذات نوع جديد هي « محركات البلازما » . وكانت إحدى سفن سلسلة

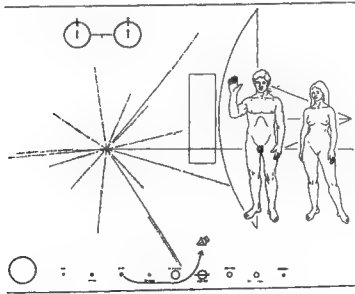
مالا يحدث الآن في علوم الفضاء

وبعد ذلك اطلقت « يونيو - ١١ » الى كوكب زحل (Saturn) وقد بدأت صور هذه السفينة تصل الى الارض في نوفمبر ١٩٧٥ .

محطات المدارية او الاستراحات الفضائية

لم تكن المسافة الى القمر الا بضعة آلاف من الكيلومترات ، ولكن المسافة الى أي من الكواكب ، تبلغ عدة ملايين من الكيلومترات . ولذلك تخيل الفنانون منذ امد بعيد ، محطات الفضاء مكونة من عدة اجزاء ، سيعمل رواد المستقبل على تجميع اجزائها في الفضاء . ليستريح فيها الرواد ، او يتبادل بها اطقم الرواد ليلموا بالراحة او يتزودوا بالصواريخ الدافئة ، او الوقود او الاوكسجين او الطعام او الشراب او الملابس .

ولا شك ان السبب في مبادرة امريكا الى القفز نحو كوكب « المشتري » (Jupiter) هو تغير الوقت المناسب لتفادي حزام « الكويكبات » (Astroids) الذي يقع بين الارض وبينه حتى لا تتعرض السفينة « يونيو - ١٠ » لخطر الاصطدام باحدها . وقد حملت السفينة رسالة على لوحة معدنية ، لتسقط برفق فوق سطح الكوكب ، لاي عقلاء عليه ، ولغة الرسالة هي الرسم المبرر يمثل في ذكر واثني ويجانبهما مستطيل يشير الى نسبة حجم سكان الارض الى حجم السفينة . ورسم للذة ايدروجين في حالة تغير ، ومسقط لكواكب المجموعة الشمسية وتسلسل بعدها عن الشمس ، مع سهم يشير الى سفينة فضاء من الارض ذات المرتبة الثالثة في تسلسل ابعاد الكواكب عن الشمس ، ويمتد الى المشتري الذي يحتل الترتيب الخامس في هذا التسلسل . وتعد هذه اول رسالة من اهل الارض لسكان الكواكب الاخرى ، شكل (٢١) .



شكل (٢١) حملت السفينة « يونيو - ١٠ » احدى رسائله من اهل الارض الى كوكب المشتري واحتضنت على لغة الرسم التي يمكن ان يفهمها اصحاب قدر محدود من الذكاء .

من ذلك يمكننا تصور ان الطريق الى الكواكب سيكون على مراحل ، او على قفوات من محطة فضائية الى اخرى .

لذلك كان من المنجزات المبكرة في عصر الفضاء ، خروج بعض الرواد من سفنهم والسباحة فيه ، ولم يكن الهدف في حد ذاته السباحة وحدها ، بقدر ما كان تجربة قدرة الرواد على القيام بأعمال ومهام مختلفة أثناءها . فبعضهم كان يكلف بتثبيت اجزاء ميكانيكية في جدار السفينة ، وبعضهم كان يكلف بتجميع اجزاء اخرى مع استخدام أدوات ومعدات ميكانيكية خاصة تمهيدا لتجميع المحطات الفضائية . واكتملت التجارب بمحاولة قام بها احد الرواد السوفييت « شوتين » في احدى رحلات « سيز » اذ قام بلحام للمعادن داخل سفينته بدون استخدام لهب . والغرض ولا شك واضح الا وهو التمهيد لتجميع اجزاء المحطات في المستقبل .

من هنا يمكن القول ان حلقات التفكير في المحطات المدارية توالى واحدة اثر الاخرى . غير ان الاهم من ذلك ان القدرات البشرية كذلك كانت محل التجربة ايضا .

« ساليوت - ١ » المحطة المدارية الاولى

من الانصاف القول بان الاتحاد السوفييتي كان سباقا الى اطلاق أولى المحطات المدارية ، وقد اطلقت اول محطة منها في ١٩ ابريل ١٩٧١ وسميت « ساليوت - ١ » (Salut-1) وتوقع المراقبون عند اطلاقها ان احدائها فضائية مستقلة ذلك ومن أنشطة هؤلاء مراقبي مرصد « بوخوم » الألماني ، الذين رصدوا النصة الفضائية الاولى وهي تدور على مدار اوجه ٢٢٢ كيلو مترا ، وحضيضة ٢٠٠ كيلو متر ، وتم دورتها كل ٨٨.٦ دقيقة . ولقد صم ما كان متوقما ، اذ لم تمض غير اربعة ايام حتى اطلق السوفييت السفينة « سيز - ١٠ » وهي تحمل ثلاثة رواد الى

مدار قريب من مدار المحطة الفضائية « ساليوت » . ودام الالتحام مدة خمس ساعات ونصف . وقد تمكن رواد « سيز - ١٠ » الثلاثة « شاتالوف » و « بليسيف » و « روكافشينكوف » من الانتقال من سفينتهم الى المحطة الفضائية أثناء الالتحام ، وقاموا بتجارب علمية متقدمة ، وتأكد السوفييت من نجاح تصميماتهم الميكانيكية والالكترونية اللازمة لتحقيق الالتحام .

وفي ٦ يونيو من العام نفسه ، لحقت السفينة « سيز - ١١ » بالمحطة « ساليوت - ١ » وهي تحمل ثلاثة رواد آخرين ، وسرعان ما التحمت بها .

وقام الرواد الثلاثة داخل المحطة الفضائية بتجارب فضائية متقدمة ومتعددة من اعمار انعدام الوزن ، واللباس الفضائية ، حيث صم لهم زي خاص اطلق عليه « طائر البطريق » واستزروا داخل المحطة نباتات بدون تربة منها البصل والكرب الصيني ، وذلك باضافة محاليل كيمياوية مخضبة لبدور هذه النباتات . ونقلت الى الارض صوراً فاحجة للرواد وهم يتناولون طعامهم فوق مائدة مخصصة لهذا الغرض ، وأثناء تاديتهم التمارين الرياضية في اماكن رحبة داخل المحطة .

وقد افلح الرواد في تصوير الاعاصير ، وخاصة تلك التي في المناطق الاستوائية . وقد ظل الرواد في نشاط دام ما يقرب من ٢٣ يوما ، وشرخوا بذلك الرقم القياسي لبقاء الانسان في الفضاء ، اذ لم يكن قد سبقهم في هذا المضمار من الرواد السوفييت الا رواد السفينة « سيز - ٩ » الذين ظلوا في الفضاء (١٨) يوما ، ومن الرواد الامريكيين غيسر رواد السفينة « جيميني - ٧ » الذين بقوا « ١٤ » يوما . غير انه في غمرة افراح الانتصار الجديد ، روع العالم بوفاة الرواد الثلاثة فجأة أثناء رحلة العودة الى الارض بعد انفصال سفينتهم عن المحطة المدارية « ساليوت » .

تقاس بملايين الكيلو مترات ، وعلى هذه المسافات يحتاج شهورا . ولا شك ان القدرة البشرية على تحمل مشاق هذا السفر لا بد ان تكون موضع دراسة . لذلك اتى « سكاي لاب » ليكون مختبرا لقدرات رواد الفضاء على تحمل مشاق هذا السفر الطويل ، ويكون ممعلا لتجارب فضائية اكثر تقدما . ومن هنا اتى اسمه « سكاي لاب » (Sky Laboratory) اي « معمل السماء » أو « مختبر الفضاء » حيث يمكن ان تجرى التجارب .

ويمكن القول ان « سكاي لاب » (Sky Lab) لم يكن الا مختبرا للمحطات المدارية الفضائية التي تنطلق في المستقبل حيث سيمكن للرواد التجهين الى الكواكب في رحلات طويلة ، التزود بالوقود والصواريخ وقطع الفيار والاجهزة الى جانب الاماكن الراحة والتزود بالطعام والشراب وتغيير الملابس . بل تبادل مهام قيادة سفن الفضاء ، عندما لا يقوى طاقم واحد على مواصلة السفن الطويل ، ويكون لزاما السفر الى الكواكب على قفترات لتصبح المحطات المدارية نهاية كل فترة من هذه القفترات .

ولقد كان من منجزات « سكاي لاب » ، ما يمس حولا لمشاكل تۇرق ركب الحضارة ، كمشكلة الطاقة ، وتلوث البيئة ، والبحث عن مصادر غذائية جديدة . كما عالجت من الامور ما لم يعالج من الفضاء من قبل ، كالتفانبات ، وهجرة الاسماك في المحيطات ومخزون المياه الجوفية في باطن الارض ، ومناجم المعادن الدفينة تحت القشرة الارضية . الى جانب عدد كبير آخر من تجارب متقدمة ستعرض لها بالتفصيل فيما بعد .

ثلاث رحلات متعاقبة

صمم معمل « سكاي لاب » ليكون محلا لتنفيذ ثلاث رحلات فضائية طويلة ، يتعاقب روادها في الحاق به بواسطة سفن من طراز

وبهذا الحادث المشؤم اصيب السوفييت بنكسة في ابحاث الفضاء ، جعلتهم رغم ما كان لهم من سبق في عدة مجالات يجمدون نشاطهم من ذلك التاريخ ما يقرب من عامين . ذلك ان الجهود السوفيتية التي كانت متوقعة عن توالي سفن « سويوز » او غيرها لم تتقدم خلال العامين التاليين ، حتى اطلقت محطة مدارية ثانية باسم « ساليوت - ٢ » ، التي فشلت في بلوغ المدار المحدد لها .

وقد تابع السوفييت انطلاق المحطات المدارية ساليوت ، حتى وصلت في اوائل عام ١٩٧٧ الى « ساليوت - ٥ » . وكلها كانت محلا لالتحام سفن سويوز لاجراء تجارب متقدمة ، وتسجيل مدد طويلة للبقاء في الفضاء ، غير ان الرقم القياسي السوفييتي لم يتعد (٦٣) يوما .



معمل الفضاء «سكاي لاب»

قياس القدرة البشرية ... كان الهدف

بعد انتهاء برنامج « ابولو » الامريكي الذي كانت آخر رحلاته « ابولو - ١٧ » في ديسمبر ١٩٧٢ ، وحقق البرنامج استكشافات على سطح القمر ، تجل عن الوصف ، اصبح لدى العلماء مسح شبه كامل عن القمر وخواص جوه وطبيعته ، وطبوغرافيته ، وجيولوجيا طباقه . فاختدوا يتعلمون الى شيء آخر ، اكثر عمدا واكثر غورا في الفضاء عن القمر . وهذا ما تؤكد عمليات ارسال سفن الفضاء لتجرب ما حول الكواكب منذ عدة سنوات ، وكان القمر بالنسبة لرحلات الفضاء لم يكن الا بمثابة الباب الى الفضاء الفسيح الممتد الى الكواكب .

فاذا كانت المسافة الى القمر تقاس بالآلاف الكيلو مترات ، وبلوغه بسفن الفضاء لم يكن يستغرق الا اياما ، فالسافة الى الكواكب

ان تلتحم بها سفينة أبولو ، ومن خلالها ينتقل الرواد من السفينة الى المعمل ، عبر أنبوب توصيل خاص بمشابة النفق .

وكان المعمل أضخم وأثقل ما أطلق الى الفضاء من أجسام صناعية لأبحاث الفضاء وما زال كذلك حتى الآن ، إذ كان يبلغ وزنه ٨٨ طناً ، بينما كان حجمه ٣٦٥ متراً مكعباً . أي قدر سعة سفن أبولو خمسين مرة ، ومن الرحابة كمنزل يتكون من خمس حجرات . وكان طول هيكله الاسطواني ٣٦ متراً ، بينما كان قطره سبعة أمتار تقريباً وطول كل من أذرعه الأربعة ٣٦ متراً ، بينما تبلغ مساحة الجناحين ٢١٩ متراً مربعاً . ويتربع فوقهما عدد مهول من الخلايا الكهرو - ضوئية ، يبلغ ٣١٢ ألف خلية ، ومساحة كل خلية ٢ × ٤ أو ٢ × ٢ سنتيمترات ، شكل (٢٢) .

معمل فضاء . . . يعمل لواءم منزل

صمم المعمل ليسع عديداً من الخزانات والدوابل والثلاجات ووحدات حفظ الطعام من التلف ، وأهم ما كان به من تجهيزات خلاف الأجهزة والمعدات الفنية : ١٠ خزانات مياه - ١١ ثلاجة لحفظ الطعام - ٥ وحدات تجفيف للطعام - عديد من الدوابل لحفظ الملابس التالية :

- ٦٠ غيار (جاكيت - قميص - بنطلون) -
- ٣٠ غيار (ملابس داخلية) - ١٥ حذاء -
- ١٥ قفازاً - ٢١٠ بنطلونات قصيرة (شورت)
- ٥٥ قالب صابون - ٩٦ كيلو جراماً من الفوط - ١٨٠٠ كيس بلاستيك لحفظ البول والبراز - ١٥٦ لفة ورق لأجهزة البرق الكتاب (تليبرينتر) - ١٠٤ أفلام تصوير فوتوغرافي - ١٠٨ أفلام للكتابة - ١ مكتبة كهربائية لشطف الفضلات والبقايا - ١ دراجة ثابتة لتنشيط الدورة الدموية - ١ مكتبة للاطلاع والتسلية والمراجع - مهمات انقاذ .

أبولو تلتحم بالمعمل ثم يعودون بها الى الأرض . على حين يظل المعمل يدور على مداره ، منتظراً لحاق رواد الرحلة التالية به .

ولذلك أطلق المعمل نفسه ، خالياً من الرواد يوم ١٤ مايو ١٩٧٣ ليستقر على مداره قبيل لحاق أول مجموعة من الرواد به بإيام قليلة .

وقد لحقت مجموعة الرواد الأولى بالمعمل والتحمت سفينتهم به ، وظلت الرحلة . مدة (٢٨) يوماً ، هبطوا بعدها الى الأرض .

وقد بدأت هذه الرحلة في ٢٥ مايو ١٩٧٣ وانتهت في ٢١ يونيو ١٩٧٣ . وبعد فاصل زمني قدره شهر تقريباً ، لحقت مجموعة الرواد الثانية بالمعمل في ٢٨ يوليو ١٩٧٣ وظلت الرحلة مدة (٥٦) يوماً .

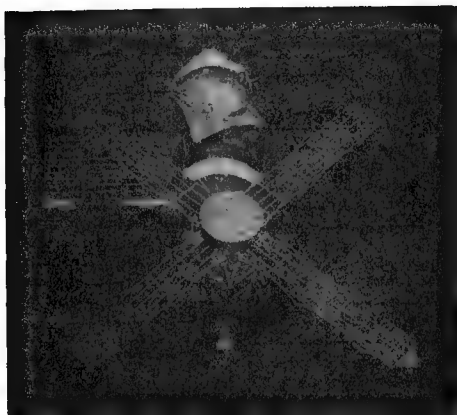
وبعد فاصل زمني آخر قدره شهران تقريباً لحقت مجموعة الرواد الثالثة بالمعمل في ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ وظلت الرحلة مدة (٨٤) يوماً .

كما ان نتائج قياس القدرات البشرية على البقاء في الفضاء مدداً طويلة ، والتي وضعت تحت الاختبار في الرحلتين السابقتين أتت بنتائج مشجعة .

معمل ذو أربعة الأذرع وجناحين

كان المعمل ذا شكل اسطواني يبرز منه جناحان تترصع فوقهما الخلايا الكهرو - ضوئية ، ويشعخع فوق القنطرة برج معدني من اعمدة متقاطعة تحمل التلسكوب الفلكي الضخم . ويمتد من هذا البرج أربعة أذرع تترصع فوقها أيضاً الخلايا الكهرو - ضوئية التي تتولد منها الطاقة الكهربائية اللازمة لتشغيل التلسكوب . ومن المقدمة تبرز وحدة المهايأة (Coupling Unit) التي يمكن

مالا يحدث الآن في علوم الفضاء



شكل (٢٢) كان ممول سكاي لابس كمنزل مكون من خمس حجرات وله أربعة الذراع وجناحان .

المعمل على مداره

اُطلق معمل الفضاء « سكاي لاب » بواسطة صاروخ - ساترن من قاعدة « كيب كيندي » في ١٤ مايو ١٩٧٣ الى مدار يبلغ متوسط ارتفاعه ٤٣٥ كيلو مترا فوق سطح البحر ليبدأ الدوران حول الارض (٣٩٥) دورة مدة كل منها (٩٣ دقيقة) .

وكان من المقرر ان ينطلق رواد الرحلة الاولى في اليوم التالي ليلحقوا بالمعمل بواسطة احدى سفن ابولو ، وليبدأوا مهامها فضائية مستحدثة مدتها (٢٨) يوما الا ان عملية اطلاقهم تأجلت لان مشاكل فنية لحقت بالمعمل وهددت البرنامج بالفشل .

تكنولوجيا الفضاء في محطة

بعد اطلاق معمل « سكاي لاب » بمدة ٦٣ ثانية ، تعرض المعمل لتأهب فنية ، اطاحت بجزء من الدرع الواقي من الاحرار والمحيط بجسمه الاسطواني . مما جعل اشعة الشمس تسقط على الجزء المعدني العاري منه وترفع درجة الحرارة داخل المعمل ، حتى وصلت ٩٠ درجة مئوية ، وهي درجة يصعب معها البقاء داخل المعمل .

والتف جزء من الدرع الواقي المنتزع حول احد جناحي المعمل ، وهاقته عن الانبساط في وضع انفي ، فنجم عن ذلك انخفاض في الطاقة الكهربائية ، كما تعطلت التروس التي تتحكم في حركة المراة المائلة التي تمكس الاشعة فوق البنفسجية للقياسات الفلكية من النجوم . كذلك انفصلت بطاريتان من مكانيهما اثناء الاطلاق ، فنجم عن ذلك انخفاض في الطاقة الكهربائية بالمعمل بنسبة ٣٥ ٪ ، ثم بدأ غاز سام يتسرب من خزانات داخل المعمل ، وبشكل تهديدا لحياة الرواد .

كل هذه المتاعب الفنية ادت الى تأجيل اطلاق رواد الرحلة الاولى احد عشر يوما

ووضعت علماء وكالة « الناسا » في مأزق لم يتعرضوا له من قبل .

وقد كان رائدهم ، ايتاذ سمعة امريكا العلمية ، وايتاذ ٢٦٦ بليون دولار من الضياع هباء في الفضاء .

ولذلك جند آلاف من المهندسين والعلماء لتصميم وتنفيذ ما يمكن ان يكون عملية انقاذ لما اصاب المعمل من تلف ، ليتمكن خفض درجة الحرارة داخل المعمل ، شكل (٢٣) .

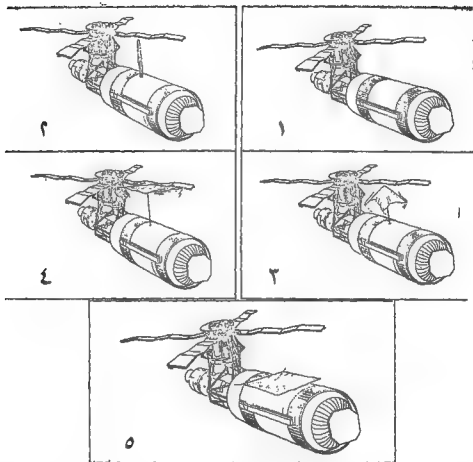
بوليس نجدة فضائي

تأخر اطلاق مجموعة الرواد الاولى ، للحاق بالمعمل حتى ٢٥ مايو ١٩٧٣ ، بعد مواعدهم الذي كان مقررا من قبل بأحد عشر يوما ، وكان الطاقم مكونا من ثلاثة رواد هم : تشارلز كونراد و بول ويتز و جوزيف كروين .

وكانوا خلال فترة الانتظار من ١٥ مايو الى موعد انطلاقهم في تدريب مستمر على وسائل انقاذ المعمل ، لمحاولة التغلب على الاعطال التي المت به باستخدام معدات وعدد خاصة من معاول وخطاطيف واجهزة قطع ، وذلك من اجل محاولة تحقيق تخليص لجناح المعمل مما يعوق بسطه على آخره . مع العمل على تغطية الجزء العاري من سطح المعمل بغطاء واقية تحميه من حرارة اشعة الشمس . ولذلك حمل الرواد معهم ثلاث مظلات ، حتى اذا اخفقوا في نشر واحدة كان لديهم التناثا اخريين .

وقد كانت الخطة هي قيام ادهم بالسباحة في الفضاء خارج المعمل من خلال كوة جانبية ، مع البقاء مربوطا الى المعمل « بجبل سري » لتخليص الجناح مما يعوقه عن البسط لتصبح الخلايا الشمسية معرضة كلها لاشعة الشمس . فتزداد نسبة الطاقة الكهربائية المتولدة داخل المعمل . وقد نجح الرواد في

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء



شكل (٢٤) اجريت اعمل سكاى لاپ عملية انقاذ لفضائية عبرت عن المفارقة والشجاعة التي تسالها مقبول الطعام .

هذه العملية جزئيا ، ولم يفلحوا في بسط الجناح بالكامل .

والفرض الثاني كان تغطية الجزء العاري من هيكل العمل بمظلة واقية مساحتها 24×24 قدما من مادة متعددة الطبقات من النايلون العازل الأرجواني اللون والتي صنعت خصيصا خلال ستة أيام . وقد عمل الرواد أثناء السباحة في الفضاء على نشر هذه المظلة فوق الجزء العاري على خطوات متدرجة ، أدى الى خفض درجة الحرارة المرتفعة داخل العمل من 49 درجة الى 32 درجة . و جدير بالذكر أن هذه المظلة قد تكلفت ما يقرب من (١٠٠.٠٠٠) دولار . كما أن احدهم أمضى سابحا في الفضاء ما يزيد من ثلاث ساعات في محاولة اصلاح البطاريات الخاصة بالتلسكوب الفلكي ، فلم يوفق تلميذاه واثى بنتائج جزئية . وبذلك تسر للرواد ، امكان البقاء داخل العمل في درجة حرارة معقولة ، مع عدم حذف جزء كبير من برامج التجارب المقررة ، نتيجة لانخفاض في الطاقة الكهربائية المتولدة .

وسرمان ما عدل العلماء على الارض خطط التجارب التي كان مقررا اجراؤها ، ومن اهم التجارب التي تمت خلال تجارب هذه الرحلة داخل العمل ، نجاح في لحام قطعتين من معدني الصلب والالومنيوم بشمعاع اليكتروني رفع دوجة حرارتهما الى ما يقرب من (٢٠٠) درجة مئوية . وكان الفرض من هذه التجربة هو دراسة تأثير ذوبان المعادن والتحامها مع التأثير بحالة اعتماد الوزن .

وفي ختام الرحلة ، كان الرواد قد حطوا الارقام القياسية لبقاء الانسان في الفضاء سواء من جانب الرواد الأمريكيين او السوفيت اذ بقيت رحلتهم (٢٨) يوما عادوا بسلام وسليم وعيطوا في المحيط الهادي . بعد ان حققوا من التجارب العلمية والطبية ، ما يعتبر ثورة في مجال الفضاء ومتجراته .

وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن الالاح

الى بعض ما أسفرت عنه هذه التجارب ، نتائج بتطبيق ظاهرة « الاستشعار من بعد »

✽ كشفت الصور عن الف مكان تنصاع . منه الغازات التي تلوث الهواء في ولاية امريكية واحدة هي ولاية فرجينيا .

✽ تبين أن بعض المدن الامريكية هائلة فوق اتون من المعادن المنصهرة المدفونة في باطن الارض ، والتي يمكن أن تتعرض لهزات زلزالية اذا مائارت هذه المعادن وانطلقت الى السطح .

✽ كشفت من اخطاء في منحنيات نهر الامازون ، موقعة على الخرائط الرسمية بعضها يبلغ قدرة ٢٠ ميلا .

✽ امكن تمييز بعض الحقول المزروعة قطنا والتي تعرضت لافات دودة القطن ، وكيف تختلف من الحقول غير المصابة .

✽ امكن التأكد من وجود مياه جوفية في كثير من قارات العالم .

✽ امكن الكشف عن احتمالات وجود حقول البترول في بعض الولايات الامريكية .

✽ امكن تصوير اماكن الكنوز المعدنية من حديد ونيكل ونحاس وذهب تحت بعض الجبال .

● ● ●

تجارب متقدمة في سكاى لاب

بلغ عدد التجارب المختلفة داخل المعمل (٢٧٠) تجربة ، وصمم لتنفيذها (٥٨) جهازا علميا جديدا . واكبر هذه الاجهزة تلسكوب فلكي ضخيم لرصد الكواكب والنجوم ، له (٨) عدسات و (٦) كاميرات للتصوير ، وتبلغ مساحة قاعدته 2×3 مترا .

ونظرا لتركيز الرحلات على قياس القدرات البشرية في الفضاء خلال مدة طويلة فقد اوليت

وللتغلب على حالات الركود في الدورة الدموية ، وضعت في المعمل دراجة ثابتة ، ينشط الرواد بالتبديل عليها بالأرجل أو بالأيدي . كما ضم المعمل أجهزة كاملة لخلق الإنسان خشية أن تصيب الأم الإنسان أيا من الرواد أثناء الرحلات . كما ضم المعمل صيدلية فيها الأدوية والعقاقير الطبية والمعدات اللازمة للإسعاف والجراحة .

ومن الطريف أن الدراسات البيولوجية استكملت في برنامج سكاي لاب على بعض الأسماك والجرذان والعناكب والذباب .

التجارب العلمية

يعتبر المرصد الفلكي ذو الثماني عدسات الذي حملة سكاي لاب ، أكبر جهاز علمي حمل في الفضاء حتى الآن ، شكل (٢٥)

وقد تركزت أغلب الأبحاث العلمية الفلكية حول الدراسات الشمسية بالذات ، إذ وضعت السنة الذهب المندلعة التي تنبعث من غبار الأيدروجين في الفضاء موضع الدراسة واستخدمت لذلك أجهزة « كرونوجراف » لتصوير الهالة الشمسية المحيطة بقرص الشمس المضيء ، وقياس درجات تقاطب ضوئها .

كما وجهت عدسات التلسكوب نحو الكواكب والنجوم ، مثلما وجهت عدسات تلسكوب سكاي لاب لرصد مذنب (كويتك) فقد عرف اقترابه من الأرض بواسطة العالم التشيكي « كويتك » في مارس ١٩٧٣ فقط ، واطلق عليه اسمه .

ومن أهم التجارب العلمية التي قام بها رواد « سكاي لاب » لحام ثلاثة معادن في الفضاء بواسطة شعاع اليكتروني تطلقه بنديقة أشعاعات خاصة وقد وضع من قطع هذه المعادن بعد لحامها ، أن بعض الفلزات تحترق داخل منطقة اللحام ، متآفرة بانعدام الوزن .

عناية خاصة بالتجارب الطبية . لذلك بلغ عددها ضمن مجموع التجارب (٢٨) تجريبية طبية ، على (١٨) جهازا طبيا حديثا .

وجدير بالذكر أن عدد العلماء الذين شاركوا في وضع برامج هذه التجارب يبلغ (٢٠٢) عالما متفرغا يضاف إليهم (٤٢٤) عالما نصف متفرغ . وليس كل هؤلاء العلماء أمريكيين بل يتبعون (٢٥) دولة مختلفة . ولعله مما يدعونا إلى الفخر أن بعضا من هؤلاء العلماء عرب ، وعلى رأسهم الدكتور «عبد المنعم عبد الجواد» وهو مصري متخصص في الزلازل والذي أوكل إليه تحليل الصور التي التقطها الرواد للدراسة موضوع الزلازل .

وكانت حركة الرواد داخل المعمل بالإستباق بخطاطيف في نهاية أحديتهم في قلوب شبكة معدنية تكسو قاعة ، شكل (٢٤) .

وقد قسمت مجموعة التجارب إلى ثلاثة أنواع مختلفة هي :

- تجارب طبية .
- تجارب علمية .
- تجارب الموارد الأرضية (Earth Resource)

التجارب الطبية

وضعت خطط أغلب تجارب « سكاي لاب » الطبية ، لدراسة الآثار البيولوجية ، أو الفسيولوجية ، أو السيكولوجية تحت التأثير بالانعدام الوزن وخاصة على نبضات القلب وبالتالي ضغط الدم ، وخلايا الدم ، وعلى تعرض عضلات الأطراف للارتخاء ، وتوزيع السوائل في الجسم ، وترسيب المعادن في العظام ، والإشارات الكهربائية الصادرة من المخ .

وكان ضمن الرواد طبيب متخصص هو « جوزيف كروين » ، وحصل باقي الرواد على دراسات طبية قصيرة .



شكل (٢٤) كانت الحركة داخل ممدل سلاى لاب ترفوق شبكة معدنية تشبك بها احادية الرواد ، وعلى جانبي الجسم الاسطوانى من اعلى توجد خزانة مياه تكفى للافراد لمدة تسعة شهور .

ماذا يحدث الآن في علم الفضاء



شكل (٢٥) التلسكوب الفضائي على متن معمل الفضاء له ٨ عدسات ومزود بست كاميرات تصوير .

تجارب الظواهر الارضية

تعتمد تجارب الظواهر الارضية (Earth Resources) على استغلال خاصية الاستشعار من بعد (Remote Sensing) تصوير الارض في أطراف الاشعاعات المختلفة، مع تتبع مدى تباينها على مدى معينة . وتعتمد الظاهرة على النقاط الاشعة تحت الحمراء الصادرة من الاجسام التي على الارض او في جوفها ، فكل ما على الارض يخترق حرارة نتيجة لمروره لاشعة الشمس نهائيا ، ونتيجة لتباين طبيعة امتصاص الاجسام لهذه الاشعة فانه بالتالي تصدر منها اشعاعات حارة على هيئة اشعة تحت حمراء (Infra Red Rays) . وتختلف هذه الاشعاعات حسب طبيعة السطح المشع .

ولقد اطلقت منذ عام ١٩٧٢ اقمار اكتشاف الموارد الارضية (ERTS) او (Earth Resources Technology Satellites) وبعد سنوات تحول اسمها واصبح «لانديسات» (Landstat) وبواسطة هذه الاقمار الزودة بأجهزة تصوير حساسة للاشعة تحت الحمراء يمكن وجود تكنولوجيا متقدمة طرحت جانبها بعضا من الوسائل التقليدية ، وكشفت عن كثير مما هو مخبوء تحت سطح الارض من ثروات طبيعية مثل المياه الجوفية ، والبتترول والمعادن . كما افادت في تبين حرارة جوف الارض ومعرفة اماكن البراكين ، ومناطق تلوث البحار والمحيطات بنفايات المصانع ، وكذلك تحديد الاماكن الزراعية المصابة بالافات الحشرية .

رحلة سكاي لاب الثانية

بدأت مجموعة الرواد الثانية في اللحاق بالعمل في ٢٨ يوليو ١٩٧٣ بواسطة احدي سفن أبولو ليقروا فيه ضعف المد التي قضاهما الطاقم الاول ، اي (٥٨) يوما . وبسبب

طول الرحلة ، اطلق الرواد عليها اسم « رحلة الملل » . وكان الطاقم يتكون من : « آلان بين » « جاك لوسما » « دكتور «أوين جاريت» .

وقد قام الرواد خلال الرحلة بأنشطة مختلفة تعتبر استكمالاً لتجارب الرحلة الاولى . فقد تمكن الرواد من تصوير قفاعة شمسية ضخمة تعتبر الاولى من نوعها ، وتتمثل في لسان منديل انفصل من قرص الشمس ، وامتد بعيداً عنها آلاف الكيلو مترات . كما سبحوا في الفضاء مدداً طويلة ، قاموا خلالها بتغيير افلام التلسكوب الفلكي بافلام جديدة ، وكانوا خلال السباحة خارج المعمل مثبتين اليه بحبل سري طوله ٢٠ متراً .

وقد انتهت الرحلة في ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣ ، مسجلة رقماً قياسياً للبقاء في الفضاء وهو (٥٩) يوما . وقد دار اثنائها الرواد حول الارض (٨٥٢) دورة وقطعوا خلالها مسافة ٣٠٦٧٥٠٠٠ كيلو متر . وامكنهم التقاط عدد كبير من الصور جعلته ١٦٤٠٠ صورة مختلفة للظواهر الارضية والكواكب والنجوم .

رحلة سكاي لاب الثالثة

بدأت رحلة الطاقم الثالث لسكاي لاب يوم ١٦ نوفمبر ١٩٧٣ ، وقد كان مقرراً ان تستمر الرحلة (٥٦) يوما كسابقها ، غير ان نتائج الرحلتين السابقتين شجعت العلماء على اطالة مدتها الى (٨٤) يوما لتصبح ثلاثة امثال الرحلة الاولى .

وكان الطاقم يتكون من ثلاثة رواد هم « جيرالد كار » و « وليم بوج » و « دكتور ادوارد جيبسون » .

ولقد واصل رواد الرحلة بعد التحصاهم بالعمل ما يده زملاؤهم السابقون من اجراء التجارب المخططة . ومن اهم منجزاتهم تغيير افلام التلسكوب ومحاولة اصلاح اعطاب الجناح . وقد ضرب اثنان منهم أكبر رقم

رحلة الفضاء الأمريكية - السوفيتية المشتركة

كانت زيارة الرئيس الأمريكي السابق نيكسون لموسكو في مايو ١٩٧٢ فتحاً في عالم السياسة اصطلاح على تسميته بسياسة الوفاق، ولكن بدأ مع هذه الزيارة أيضاً عهد جديد في التعاون الدولي الفضائي . وكانت أولى الاتفاقات في هذا المضمار ، القيام برحلة فضائية مشتركة ، حدد لانجازها منتصف شهر يوليو من عام ١٩٧٥ . وقد نص الاتفاق بين الرئيس الأمريكي السابق نيكسون ، والرئيس السوفيتي بريجنيف على أن تتم الرحلة بسفینتی فضاء الاولى من طراز « أبولو » الأمريكية ، والثانية من طراز « سويوز » السوفيتية .

ويتحقق التحام السفینتين في الفضاء ، أثناء دورانهما على مدار واحد حول الأرض . ثم تدور السفینتان كجسم واحد عبر وحدة ربط او مهياة (Coupling Unit) تحقق عملية الالتحام بينهما ، شكل (٢٦) .

ومنذ تم الاتفاق على انجاز هذه الرحلة ، بدأت الدولتان برنامجاً فضائياً مشتركاً يضم

قياسي للسباحة في الفضاء اذ سبح جيبسون وبوج ، مدة ست ساعات و ٢٥ دقيقة في الفضاء خارج المعمل . وكرر الرائدان جيرالد كار ، وبوج السباحة في الفضاء وزادا المدة الى ٧ ساعات . وقد قاما خلال السباحة باخذ عديد من الصور للمذنب كهوتيك . وانتهت الرحلة في ٨ فبراير ١٩٧٤ .

اين ذهب المعمل ؟

قد يكون من المنطقي ، التساؤل عن مصير معمل « سكاى لاب » بعد أن قضى في الفضاء زهاء تسعة شهور . هل فجر أم ترك ليواصل دورانه الى الأرض . أم هبط الى الفضلاف الجوي ليحترق به . « والحقيقة أن « سكاى لاب » ظل يدور حول الأرض مدة قدرت انها ستستمر ما يقرب من ست سنوات .

ولا شك أن المحطات التي مثل « سكاى لاب » يمكن أن تكون في المستقبل رصيفا فضائياً ، يعمل الرواد على تجميع اجزائه في الفضاء على مراحل ، لترسو عليه سفن الفضاء في الرحلات الطويلة الى الكواكب .

● ● ●



شكل (٢٦) بعد أن التحمت سفینتا أبولو الأمريكية وسويوز السوفيتية لهما وكاتهما قطار فضائي .

تحقيق نجاح الرحلة ، بوضع الخطط اللازمة لتذليل العقبات القائمة نظرا لاختلاف تصميم السفينتين .

ولقد اخذ هذا البرنامج المشترك ثلاثة اتجاهات مختلفة : الأول كان يتعلق بوضع خطة تدريب الرواد الأمريكيين والسوفييت معا ، ومن أجل ذلك تمت زيارات متبادلة بين رواد كل دولة للدولة الأخرى للاطلاع على النشاطات الفضائية فيها ، ولأجل التدريب على محاكاة فضاءية تحقق إنجاز التجارب المطلوبة في الفضاء .

اما الاتجاه الثاني من البرنامج ، فقد كان لوضع خطة هندسية لتصنيع وحدة الربط أو الهابطة التي ستحقق التهام السفينتين ببعضهما غيرها . ومن أجل ذلك اطلعت كل من الدولتين مهندسي الدولة الأخرى على تصميم سفينتها الداخلى والخارجى ، وقام طاقم مشترك من مهندسي الدولتين بتصميم وحدة الربط .

اما ثالث بنود البرنامج المشترك فكان يتعلق بوضع الخطة العلمية للرحلة ، والاستقرار على التجارب التي كلف الرواد باتجازها ، وتصميم الاجهزة اللازمة لتحقيقها . وهذا اهم ما في الموضوع ، فقد وضعت قائمة التجارب لتحقيق مزيدا من النفع لكلا الدولتين ، ولتلبى طلبات بعض الدول الأخرى بالنسبة لتعليمات علمية خاصة مطلوبة من الفضاء .

وقد اطلق الاتحاد السوفيتي سفينة « سويوز » من قاعدة « بايكور » الفضائية وبها الرائدان (ليونوف و كوبياسوف) يوم ١٥ يوليو ١٩٧٥ وبعد سبع ساعات اطلقت امريكا السفينة « أبولو » من قاعدة « كيب كيندى » بولاية فلوريدا وبها ثلاثة رواد هم « توماس ستانفورد ، دونالد سلايتون ، فينس براوند » . وقد دارت السفينتان حول الأرض بمعدل دورة كل ٩٠ دقيقة ، وبعد اتحاهما طلتا في الفضاء مكونتين جسما واحدا لمدة ٤٤ ساعة

فقط دارتا خلالها حول الأرض ٢٥ دورة . وقد تم الالتحام على ارتفاع ٢٢٧ كيلو مترا واجريت خلاله ١٨ تجربة علمية مشتركة ، وبعد انتهاء الالتحام هبطت السفينة السوفيتية الى الأرض في جمهورية أوزبكستان فوق زلاقات ، اما السفينة الامريكية فقد واصلت التجارب في الفضاء بعد الانفصال لمدة ستة ايام ، وقد التقط خلال هذه المدة الرواد الأمريكيون ما يقرب من ٨٠٠ صورة لمناطق مختلفة على الأرض لأجراء مسح جيولوجى لها ، منها دلتا نهر النيل ، والصحراوات المصرية ، وخليج السويس وسيناء ، وكان ذلك بناء على طلب السلطات المصرية ، وكذلك التقطت صور لجبال الهيمالايا .

وقد اثبتت قائمة تجارب رحلة الفضاء المشتركة أن ابحاث الفضاء لم تعد ترفا في البحث العلمى ، بل أصبحت ضروريا من العلم الملزم لتحقيق الرفاهية للبشر على الأرض . وبذلك لم تقتصر التجارب على القياسات العلمية المجردة بل عنيت بتحقيق مزيد من التطبيقات الفضائية المستحدثة على الأرض . ولقد تم اتفاق وكالة الفضاء الامريكية «الناسا» مع اكاديمية العلوم السوفيتية على التجارب المقررة والتي بلغت ١٨ تجربة تكلفت ما يربو على عشرة ملايين دولار وقد عنيت بالاهداف التالية :

✽ تصوير الهالة الشمسية حول قرص الشمس الضئى « الفوتوسفير » بفرض زيادة دراسة الطاقة الشمسية كحل بديل لازمة الطاقة المستحكمة في امريكا .

✽ قياس الاشعاعات فوق البنفسجية وخاصة أثناء الليل في طبقات الجو العليا ، حيث تعدمجزيئات الاكسجين والايروجين لمعرفة مسارات توزع هذه الاشعاعات حول الأرض .

✽ دراسة ظاهرة بريق الضوء في الفضاء التي لاحظها رواد بعض الرحلات الفضائية

✳ إجراء قياسات عن الجاذبية الأرضية، وعمل مسح جيولوجي لبعض المناطق على الأرض ، واستشعار أماكن احتمال حدوث الزلازل ، وأماكن تجمع الرواسب المعدنية تحت القشرة الأرضية .

✳ التعاون مع إحدى الجامعات الألمانية في إجراء تجارب على بعض المواد العضوية كالبيض وجذور نبات الفول والأحياء البحرية كالجمبري لمعرفة مدى تأثرها بالأشعة الكونية .



فايكنج تفزو المرنج

فايكنج - ١ -

في ٢٠ أغسطس ١٩٧٥ أطلقت السفينة الأمريكية الفضائية « فايكنج - ١ » نحو كوكب المرنج لكي تهبط على سطحه برفق . وكان مقررا لها أن تحقق عملية الهبوط يوم ٤ يوليو ١٩٧٦ في ذكرى مرور ٢٠٠ عام على قيام الولايات المتحدة الأمريكية . غير أن الرحلة التي كان مقررا لها أن تكون ٣٠٣ يوما ، امتدت حتى ٣٢٠ يوما ، بعد أن ساور علماء الفضاء خوف من تحطم السفينة فلما تبين لهم أن المنطقة التي كان مقررا هبوطها عليها مليئة بالارتفاعات والمنخفضات ، وبها كثير من الصخور ، وأخيرا هبطت السفينة فوق منطقة سهيل « كرايز » (Chryse) على سطح الكوكب الذي يطلق عليه الفلكيون اسم « الكوكب الأحمر » . وأخذت محطة المتابعة الرئيسية في « باسادينا » بولاية كاليفورنيا تتابع استقبال إشارات السفينة واستقبال الصور المرسلة منها والتحكم فيها يسامدها في ذلك محطات فرعيتان المتابعة أولاها في مدريد بإسبانيا ، والثانية في كاتبرا بإستراليا .

وبهذا النجاح ، يعتبر هذا الإنجاز الفضائي، فاتحة لبعد جديد في مجال البحث عن المعرفة

السابقة والمعتقد أن سببها هي الأشعة الكونية التي تصل إلى الأرض من المجرات الخارجية .

✳ دراسة ظاهرة بريق الضوء في الفضاء البيوكوي داخل المنظومة الشمسية وتصوير البريق الذي يصدر عنه .

✳ دراسة سلوك الأشعة السينية (أكس) في الحدود بين ١ و ١٠٠ الجنتروم .

✳ دراسة انصهار المعادن وسبائكها في الفضاء تحت التأثير بانعدام الوزن بصنع سبيكة من معادن الحديد والجرافيت والذهب .

✳ دراسة تأثير المواد المستخدمة في الصناعات الالكترونية بحالة انعدام الوزن ، كمادة الجيرانيوم المستخدمة في أشباه الموصلات .

✳ تصوير مصادر تلوث البيئة في بعض الأماكن الأمريكية والسوفيتية .

✳ تصوير جبال الهيمالايا في الهند ، للدراسة مسارات تسرب المياه منها إذا ما تعرض الجليد الذي فوقها للدوبان ، واكتشاف ما تحت الجليد من معادن .

✳ إجراء تجارب طبية في الفضاء للدراسة إمكانيات فصل البروتينات والفيروسات والخلايا الحية من دم الإنسان ودم الأرانب لأعداد اللقاح .

✳ إجراء تجارب طبية للدراسة قابلة العدوى بالبكتريا أثناء الوجود في الفضاء ، ومدى تأثير كرات الدم البيضاء بها ، وتأثير حالة انعدام الوزن عليها ، وذلك بتحليل عينات من دم الرواد قبل وبعد الرحلة .

✳ دراسة طريقة مستحقة لاقتراب سفينة فضاء من سفينة أخرى باستخدام جهاز لاسلكي يعمل على الترددات العالية جدا لقياس تغير المسافة بينهما .

الارتطام بسطحه ، وعدم تحطم الاجهزة التي يحويها ، واهم هذه الاجهزة : -

- ٢ كاميرا تصوير تليفزيونى .
- ١ - كاميرا تصوير بانورامى .
- محلل طيف بالأشعة تحت الحمراء .
- جهازا قياس للأشعة تحت الحمراء .
- اجهزة قياس للأشعة السينية .
- اجهزة ارسال واستقبال اليكترونية .

أجهزة قياس لانصر الشفط والحرارة والرطوبة .

- اجهزة تسجيل مغناطيسية .
- حواسيب اليكترونية لتخزين المعلومات .
- اجهزة تسجيل للزلازل والبراكين فوق سطح الكوكب .

- ذراع ميكانيكية طولها ٣ أمتار تقريباً تنتهى بمخلب هينات من تربة الكوكب، وإيداعها داخل السفينة نفسها ، ويتم التحكم في هذه الذراع من محطة المتابعة الأرضية شكل (١٧) .

- معمل تحليل كيمائى لتحليل العينات وإرسال نتائج التحليل الى الأرض . - معمل تحليل بيولوجى لتسجيل التفاعلات في العينات التي تودعها الذراع فيه .

نتائج تسجيلات فايكنج

توصلت اجهزة السفينة « فايكنج - ١ » الى تسجيل قياسات جديدة وضعت العلماء امام مفاهيم جديدة . من أهمها وجود غاز النترجين في جو الكوكب بنسبة ٣٪ (بينما تبلغ نسبته في جو الأرض ٧٨٪) كما ثبت وجود غاز

في الفضاء (البيكوكبي) الممتد بين الكواكب . بعد ان انتقلت أبحاث العلماء من الفضاء الدانى القريب من الأرض ، والمحيط بالقمر ، وأصبحت حلبة البحث أكثر اتساعا ، وذات ذراع يمتد ملايين الكيلومترات حول الأرض . ذلك ان متوسط بعد القمر من الأرض يقل عن ٤٠٠ ألف كيلومتر ، بينما متوسط بعد هذا الكوكب عن الأرض ٧٨ مليون كيلومتر .

ولكن لان كلا من الأرض وإيا من الكواكب تدور حول الشمس في مدار بيضاوى فان البعد بين الأرض والمريخ وقت هبوط فايكنج بلغ ٣٨٠ مليون كيلومتر .

السفينة تحمل العلم الأمريكى

حملت السفينة « فايكنج - ١ » على متنها ثلاثة رموز . الرمز الأول كان العلم الأمريكى ، والثانى كان رمزا لروح مائتى سنة على إقامة الولايات المتحدة الأمريكية ، أما الرمز الثالث فكان شعارا للمشروع فايكنج ، الذى بدأ عام ١٩٦٨ والذى تجاوزت نفقاته ألف مليون دولار حتى الآن .

وجدير بالذكر ان وزن وحدة الإطلاق التي تمطت في صاروخ تتكون من مرحلتين طراز (تيتان - سنتور) بالإضافة الى وزن السفينة ، بلغ ٦٤١ ألف كيلو جرام بينما بلغ وزن السفينة وحدها ٢٩٠١ كيلوجراما . وتتكون السفينة من جزئين رئيسيين الأول هو للهبوط (Lander) ويحوى الاجهزة وهو الذى يوجه الى سطح الكوكب ، والثانى هو جزء للدوران (Orbiter) يظل يدور حول سطح الكوكب ومهمته تصوير سطح الكوكب والعمل كمرور للإشارات بين جزء الهبوط ، والأرض . ويحوى جزء الهبوط أجهزة متقدمة تستخدم في تصميمها أحدث ما بلغته تكنولوجيا الفضاء من تقدم . وقد حقق هبوط هذا الجزء على الكوكب برقى بفتح مظلات في جو المريخ ، لتأمين مدم

مالا يحدث الآن في علوم الفضاء



شكل (٢٧) السفينة غايكنج كان لها ذراع ينتهي بمصباح ليكتشف الميناء الربيعية ويردها ممل تحليل في باطن السفينة .

« الأرجون » الخامل بنسبة بين ٢ ، ٣ ، وكذلك وجود غاز ثاني اكسيد الكربون بنسب متفاوتة .

بينما قامت ذراع السفينة بتحكم من محطة المتابعة الارضية ، بأخذ عينات من التربة حولها وأودعتها معامل التحليل الكيماوى والبيولوجى داخل السفينة . ولقد تعرضت للزجاج لمطل في الاذام مرتين ، ولكن امكن التغلب على المصائب الفنية ومعدات الى العمل في كل مرة . ومع عودتها ثبت ان العينات المريخية يتصاعد منها غاز الاوكسجين ، الامر الذى يعطى دلالات على نوع الحياة المحتمل وجودها على المريخ .

دلالات الحياة على المريخ :

يقترن وجود الحياة في صورها المختلفة سواء في مملكة الحيوان أو النبات أو الانسان بوجود الماء ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى في القرآن الكريم « وجعلنا من الماء كل شئ حي » .

ومع لبوت وجود الماء على المريخ في صورة جليد متجمد لا يذوب ، وكذلك وجود غازات ثاني اوكسيد الكربون والاكسجين ، فضلا عن غاز الزينون ، والأرجون ، لم يتوصل العلماء الى وجود أى نوع من النباتات ، أو الطفيليات ، ولم يستطيعوا التوصل الى وجود أية احياء دقيقة مثل البكتريا أو الاميبا .

المريخ في انتظار الانسان :

لقد سجلت « فايكنج - ١ » امتداد ذراع الانسان الى المريخ ، عبر ملايين الكيلومترات بسلطان العلم . وفايكنج - ٢ قطعت نفس الطريق ، لتواصل مهام سابقتها في رحلة امتدت أحد عشر شهراً حتى دخلت جو الكوكب ، وترسو عليه في ٤ سبتمبر ١٩٧٦ .

والسؤال الذى يؤرق بال كثيرين هو هل هذا كله مقدمة لوصول الانسان الى المريخ ،

كما فعل في القمر ؟ والحقيقة البادية أنه لا يمنع من ذلك الا قدرات الانسان نفسه . فالجسم البشرى لا يستطيع البقاء في الفضاء طوال هذه المدة ، معرضاً لحالة انعدام الوزن وما يصاحبها من مؤثرات فسيولوجية وسيكولوجية ، ومتى يكون ذلك .

الطائرة الفضائية الكوكب

ابحاث الفضاء لاتقوى عليها كل الدول :

المباراة في حلبة ابحاث الفضاء لاتقوى على خوضها كل الدول ، ولذلك لايتنافس في هذه المباراة غير امريكا وروسيا . بينما تقوم الدول الاخرى بعمليات مساعدة فرعية تشمل اطلاق الصواريخ ، وبعض انواع من الاعمار الصناعية .

غير أن مجال اطلاق سفن الفضاء ، اقتصر على الدولتين الكبيرتين وحدهما ، واضمح ان السبب في ذلك مرجعه ان التكاليف الفضائية تستلزم اموالا طائلة . وعلى سبيل المثال فان تكاليف رحلة « أبولو - ١١ » التى هبط منها رائدان على سطح القمر عام ١٩٦٩ تكلفت مبلغ (٧٥٥) مليون دولار .

وتكاليف مشروع معمل الفضاء الامريكى « سكاي لاب » الذى لحقت به ثلاث رحلات عام ١٩٧٣ بلغت مايقرب من (٢٠٦) بليون دولار . كذلك فان مشروع السفينة الامريكية فايكنج التى هبط منها نومان على سطح كوكب المريخ في صيف عام ١٩٧٦ تكلف نفقات باهظة تقدر بالليارات . وبسبب هذه التكاليف الباهظة التى تستلزمها ابحاث الفضاء توجد معارضة قوية لدى عديد من اعضاء الكونجرس الامريكى ، لاعتماد الميزانيات المطلوبة من وكالة الفضاء الامريكية « الناسا » . لذلك وجد علماء الفضاء الامريكىون في ايجاد حلول للاقتصاد في نفقات رحلات الفضاء بطريقة جلية . وانتهت هذه الجهود الى فكرة الطائرة الفضائية « الكوكب » (Space Shuttle) التى يمكن ان يتكرر اطلاقها عدة مرات .

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء

ملتصقة بها يستقر على مدار معين في أعلى الفضاء . بعد أن يفصل عنها على هذا المدار .

والصواريخ المستخدمة في حمل السفينة المكوك ، هما صاروخان جافان يحتويان على مسحوق جاف من مادة مشتعلة ، لتوفر في وزن المجموعة . ولتصقان بصاروخ ثالث ضخم يحوي وقودا سائلا يتكون من الاوكسجين والايدروجين .

ولتنصق السفينة الفضائية المكوك متعددة بطولها بهذا الخزان الضخم . ولذلك تكون في وضع رأسى عند الاطلاق رغم أن شكلها كطائرة فتكون مقدمة الطائرة الى أعلى وذيلها الى أسفل . وبعد الاطلاق يتوالى احتراق الوقود في الصاروخين الجافين أولا ، وبعد نفاذ الوقود منهما ، يعود جسم الصاروخين الفارغين الى الأرض ، بواسطة مظلات تؤكد سقوطهما في مياه المحيط السالين . ويمكن إعادة استخدامهما مرة أخرى . بينما تواصل « المكوك » اجتياز طبقات الفضاء بواسطة الدافع صاروخ الوقود السائل ، حتى تصل الى المدار الذى ستدور عليه .

الاطلاق من فوق متن طائرة

وفي مرحلة التجارب ، تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من تجربة اطلاق « المكوك » الى الفضاء من فوق متن الطائرة المدنية الضخمة « الجامبو » أو « البرونج - ٧٤٧ » التى تعمل في هذه الحالة كمنصة اطلاق شكل (٢٨) كما تجرى دراسة استخدام الطائرة الأمريكية العملاقة « سي - ٥ ا » المعروفة باسم « الجلاكسى » لنفس الغرض ، إذ تستطيع كلا الطائرتين حمل السفينة المكوك فوق هيكلها الضخم .

حملات مختلفة واطلاق متكرر

بعد أن تستوى السفينة المكوك على مدارها تدور حول الأرض شأنها شأن أى سفينة فضاء

طائرة تدور حول الكرة الأرضية :

ولقد اتت تسمية « المكوك » من امكان تكرار عملية اطلاق السفينة عددا يمكن أن يصل الى مائة مرة مثل مكوك النسيج . ولذلك يتوفر الثمن الاساسى لسفينة الفضاء التقليدية ، التى صممت لتكون على هيئة طائرة ذات جناحين وذيل ، ومقدمة يستقر فيها الرواد ، واطارات يمكن أن تتحرك عليها فوق الأرض في رحلة العودة . وبذلك انخفضت نفقات التجهيزات الخاصة بعملية هبوط السفينة . وزاد من خفض هذه النفقات أيضا ، أن تصميم الطائرة يسمح باستعادة بعض من أجزاء صاروخ الدفع الذى يحملها الى مدارها في الفضاء . فإذا ما استوت السفينة على مدارها ، وبدأت عملية الدوران حول الأرض يقوم طاقمها بالتحكم فيها والقيام بالتجارب العملية المطلوب أدائها . وعندما تتم مهامها المطلوبة في الفضاء يعمل طاقم الرواد على التحكم فيها والانعقاد بها الى الأرض ، كأنها طائرة شراعية .

صواريخ ضخمة تحوي وقودا جافا :

الدور الرئيسى للصواريخ بالنسبة ل سفن الفضاء ، هى انها وسيلة حمل ، تقوم بعمل المطية التى تحملها خارج نطاق الجاذبية الأرضية ، إذ تعمل قوة نفث الغازات التى تنجم من احتراق الوقود داخل الصواريخ ، على حمل جسم الصاروخ ، وما يكون معلقا به من أجسام أخرى الى طبقات الفضاء العليا ، مارا بارتفاع يستطيع أن يتحرر عنده من آثار الجاذبية . وبعدئذ يصبح مابقى من جسم الصاروخ ، وما يحمله متحركا في الفضاء بسرعة تسمى السرعة المنتظمة . وحيث لا توجد اعاقا أو مقاومة من ذرات الهواء لأنه لا وجود له . وكل جسم يتحرك بسرعة منتظمة يظل محتفظا بهذه السرعة حتى يطرأ عليه تدخل خارجى . ومن ثم تستطيع الصواريخ أن تجعل جسم السفينة « المكوك » التى تحملها



شكل (٢٨) الطفرة البنية بونج - ٧٢٧ تحمل الطفرة القوية تحمل خمسة قذائف ويحملها أثناء الطيران .

المكوك . وبدأت بعض شركات السياحة تروج لهذه الافكار .

وإذا انحدرت الطائرة المكوك وعادت الى الارض ، فانها تعود من الفضاء الى الغلاف الجوى بواسطة صواريخ دفع عكسية لتتحدّر شراعياً في طبقات الغلاف الجوى شأنها شأن أية طائرة ، حتى تلامس اطاراتها سطح القمر في أى مطار عادى .

وجدير بالذكر أن عملية الاطلاق يمكن أن تتكرر بعد ١٤ يوما بفضيها الفنيون في إعادة القمص والتفتيش على اجزاء السفينة .

ويمكن أن تتكرر عملية الاطلاق ما يقرب من ١٠٠ مرة ، وفى كل مرة يمكن أن تظل السفينة معلقة في الفضاء ما يقرب من شهر كامل .

مستقبل أبحاث الفضاء حتى سنة ٢٠٠٠

أبحاث الفضاء بين السرية والعلمانية

عندما نتحدث عن مستقبل أبحاث الفضاء، فلا بد أن نفصح عن حقيقة ثابتة هي أن الحديث ليس شطحات للخيال ورواية لأمانى وأمنيات، بل هو عرض لبرامج وضعها العلماء لجسودولة خططهم ، مع تصور لما سيكون لهذه الخطط من نتائج .

وعند ذكر هذه الخطط فلا بد من القول بأنها كلها خطط غربية أو أمريكية بالدرجة الاولى . لا لأن الولايات المتحدة الأمريكية تلعب مباراة من طرف واحد ، أو لأن الحلبة قاصرة عليها وحدها ، ولكن لأن الطرف المناهض وهو الاتحاد السوفييتي يتلفع دائماً بالصمت الرهيب من خططه ، أخذاً بأساليب الكتمان أو الحفاظ على الاسرار .

فبينما نجد الخطط الأمريكية معلنة حتى عام ٢٠٠٠ ، نجد أن الخطوة التالية في الفضاء بالنسبة للسوفييت غير معلومة حتى لكثير

وأن كان هيكلها هيكلاً طائرة . ولذلك فإن لها قمرة قيادة يستقر فيها رواد الفضاء لقيادتها، ويكفى أن يحقق عملية القيادة والدان، غير أن السفينة تضم أيضاً قمرة أخرى رحبة السعة يمكن أن تضم عدداً من الركاب يمكن أن يصل الى اثني عشر راكباً ، ليس إلزاماً أن يكونوا على نفس مستوى اللياقة كرواد الفضاء . كما يمكن أن يكونوا من العلماء أو المتخصصين في شئون القياسات الفضائية .

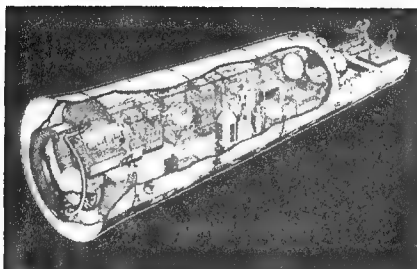
ويمكن أن يملا هيكل السفينة بحمولات مختلفة حسب الغرض من الاطلاق ، إذ يمكن أن تحمل صاروخاً يحمل قمراً صناعياً لينطلق من مدار السفينة ليصل به الى مدار أكثر ارتفاعاً ، وبذلك تعتبر السفينة نفسها كمنصة اطلاق شكل (٢٩) . ويمكن أن تكون الحمولة مرصداً فلكياً لرصد اجرام السماء . وقد تضارفت جهود بعض من الدول الأوروبية فعلاً لتصبح مرصد فلكي فضائي اطلق عليه اسم (Space Lab) ليقوم لفيف من علماءهم بالرصد الفلكي بواسطته من فوق متن المكوك ، ولا شك أن مزايا الرصد من مثل هذا المرصد لا حد لها ، وأهمها عدم وجود السحب أو الضباب أو العوامل الجوية التي تعجب اجرام السماء أو تحدد رؤيتها بعض الوقت ، شكل (٣٠) .

ولقد انطلق خيال العلماء من أسواره ، وراحت العقول تتفنن في استحداث اغراض شتى لاستخدام المكوك، منها أن تعمل كسفينة القاذ للاقمار الصناعية أو سفن الفضاء التي يصيبها العطب . ويمكنها أن تقل ضمن ركابها أطقماً من الفنيين الذين يستطيعون القيام بعمليات الإصلاح كإصلاح نجدة فضائي ، شكل (٣١) .

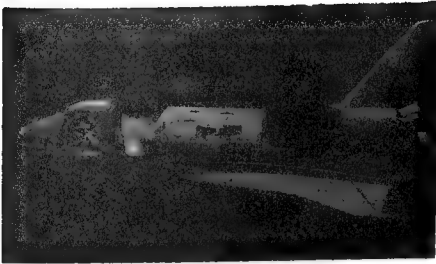
كما سرح خيال البعض الى إمكان تنشيط السياحة الفضائية ، إذ ستزول رهبة الانطلاق في سفن الفضاء ، عند ركوب متن الطائرة



شكل (٢٩) قاذف الصواريخ القوي يسبح بعمل صاروخين متتاليين .



شكل (٤٠) المرصد الفضائي الأوروبي تمانت دول
أوروبا على تصميمه لوضعه فوق متن الطائرة الكوكب .



شكل (٣١) يمكن أن تعمل السفينة الكوك كبروتيس
نجدة في الفضاء أو منصة لانطلاق الأقمار الصناعية من
مدارات عالية .

ماذا يحدث الآن في علوم الفضاء

بعض العلماء أن المكوك يمكن أن تجهز بمخالب وملاقط تستطيع الإمساك بالأقمار المعطلة واستعادتها إلى الأرض .

ولاشك أن ذلك يعنى سهولة أن تعمل المكوك مستقبلا كمنصة فضائية عالية لاطلاق الأقمار الصناعية بدلا من إطلاقها من الأرض .

ويتوقع العلماء الأمريكيون أن تشهد أوائل الثمانينات تقدما في استخدام الطاقة النووية في مجال بحوث الفضاء بحيث يصبح لديهم « مكوك فضائي نووي » وهو ما يعرف باسم (Nuclear Shuttle) يسهل به فزو كوكب المريخ .

ولاشك أن استخدام المرصد الفضائي الأوروبي على المدارات العالية التي ستطير عليها السفينة المكوك ، وتشغيله بواسطة فلكيين متخصصين بعيدا عن المواقف الأرضية التي تتمثل في السحب التي تعجب الرؤية أحيانا والأضواء التي تشوه هذه الرؤية ، وضوء الشمس الباهر الذي يغطى وجه الأرض نصف اليوم ، والغلاف الجوي المحيط بالأرض الذي يحدث انكسارات في أشعة الضوء كل ذلك سيتحرر منه الفلكيون وسيفتح لهم بابا جديدا بالنسبة للمعلومات الفلكية ، بحيث يمكن القول أن ثراءا فلكيا سيتجمع لدى علماء الرصد الفلكي عن المجرات الخارجية ، والظواهر الفلكية المحيرة مثل المذنبات والشهب سيستطيع العلماء الغوص إلى أمداد أبعد في أعماق الكون المجهول من خلال نوافذ الرصد الضوئي والصوتي والأشعاعي .

ولا شك أنه سيكون أمام علماء الحقبة المقبلة واجب محاولة الكشف عن مصادر محددة للأشعة الكونية (Cosmic Rays) واستجلاء كنهها ، ومعرفة أسرارها . وكذلك محاولة البحث عن مضمون لشفرة الموجات الكهرومغناطيسية التي تصل الأرض بالمجرات الخارجية .

من المسؤولين السوفييت أنفسهم . ومن ثم سيقصر الحديث عن مستقبل أبحاث الفضاء الأمريكية وحدها .

المكوك يفتح آفاقا جديدة

وحسب الترتيب الزمني للتطورات غاب أولى إنجازات الفضاء هي تأكيد إطلاق السفينة الأمريكية « المكوك » عام ١٩٧٨ .

فبعد ما نجحت عملية طيارتها إلى أجواء الفضاء من فوق متن الطائرة المدنية الجامبو في يوليو ١٩٧٧ كما ألقينا من قبل ، أصبح من المنتظر إطلاقها مرة أخرى بواسطة صواريخ دفع يستمد بعض أجزائها . والخطة الأمريكية الموضوعة هو تحقيق ذلك عام ١٩٧٨ وقد تحقق ، بحيث تصبح السفينة المكوك صالحة لتكرار الإطلاق مائة مرة .

ولاشك أن نجاح انطلاق السفينة المكوك سيكون فاتحة لتطورات كثيرة باعتبارها أول سفينة فضاء ذات حمولة مريحة (Pay Load) فبدلا من حمل « مرصد الفضاء الأوروبي » (Space Lab) لرصد النجوم والكواكب يمكن حمل عدد من الركاب بين (٨ ، ١٢) راکبا من علماء الرصد والقياس والتسجيل . كما يمكن أن يكونوا من « سائحى الفضاء » الذين تسمح لهم لياقتهم البدنية والمصيبة بالسفر فيه . وبذلك سيوجد العالم نفسه أمام معنى جديد « للسياحة » لم يعرف من قبل . وهذا ما بدأ فعلا في كثير من المدن الأمريكية ، إذ بدأ حجر تذاكر السفر على « المكوك » .

وكما سيوجد بعد جديد للسياحة كذلك سيوجد بعد جديد لمعنى «الإنقاذ أو النجدة» في الفضاء . لأن السفينة المكوك يمكن أن تعمل كسفينة لإنقاذ أطقم السفن الأخرى التي قد تتعرض لأية متاعب فنية ، كما يمكن أن تحمل لفيغا من الفئين لاصلاح أعطاب الاقمار الصناعية أو سفن الفضاء . ولذلك تصور

كشف اسرار الحياة على الكواكب

لم تستطع سفيتنا «فاينج ١» «٢» ان تعطى اجابة شافية عن كنه الحياة على كوكب المريخ ، ولذلك منى العلماء الامريكيون بخيبة امل لم يكونوا يتوقعونها ، غير ان الامل معقودة على استكشاف كنه الحياة على كواكب اخرى غير المريخ ، ومن هنا توجد مشاريع أمريكية للسنوات القادمة تتركز في اطلاق سلسلة سفن فضاء من طراز «فوياجير» (Voyager) الى كوكب «المريخ» في اواخر عام ١٩٧٧ ، ثم الى كوكب الزهرة (Venus) خلال عام ١٩٧٨ ثم الى كوكب المشتري (Jupiter) عام ١٩٧٩ ثم كوكب «زحل» (Saturn) عام ١٩٨١ ثم كوكب «اورانوس» (Uranus) عام ١٩٨٥ .

ومن المحتمل أنه خلال عام (١٩٨٤) ستطلق سفينة فضاء الى مذنّب (هالي) (Hally) الذي سيقترّب من الارض آنذاك ومعروف انه يكرر دوراته كل ٧٤ عاما .

ويخطط العلماء أنه خلال عام ١٩٩٠ ستطلق سفينة فضاء من طراز جديد لتتحط فوق المريخ برفق ويمكنها ان تقتبس بعضا من عيناته وتعود بها الى الارض وتكون عودتها عام ١٩٩٣ . وبذلك سيكون قد تجمع لدى العلماء ما يمكنهم من اعطاء تفسير لاصل الحياة في النظرمة الشمسية .

مطارات ومستعمرات قمرية

ورغم أن برنامج ابولو الذي كان يستهدف القمر انتهى عام ١٩٧٢ ، الا أن القمر يماثله اقرب الاجرام السماوية لنا ، مازال هدفا لبعض مشاريع الفضاء القبلية . فالخطط الامريكي يطمح في ارسال مزيد من المركبات القمرية لتحط على سطح القمر في الثمانينات بحيث تندرج سعة كل منها من (٦) اشخاص

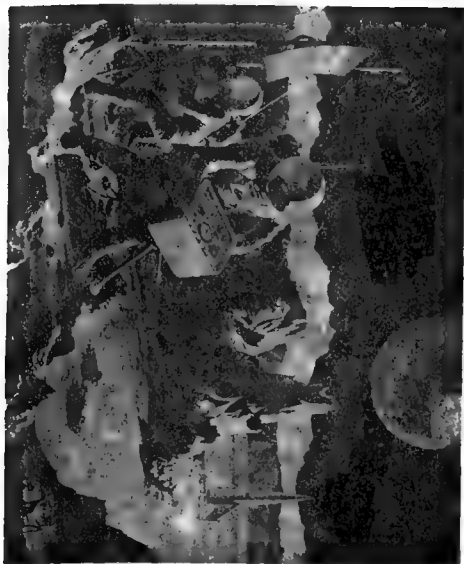
الى (٢٤) ثم الى (٥٠) شخصا كمقدمة لفكرة المستعمرات القمرية .

وامام هذه الافكار الطموحة نجد أن العلماء غارقين في وضع حلول لتدليل عقبات عدم وجود الاوكسجين على القمر ، وانعدام الجو حوله وانخفاض قوى الجاذبية على سطحه حتى تكون الحياة ممكنة وميسرة داخل مستعمرات قمرية مكيفة ، والمواد المناسبة لاقامتها : شكل (٣٢) .

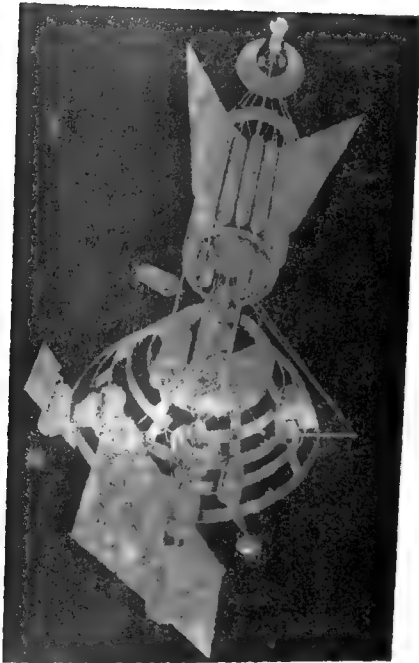
ولاشك ان المعنى المسمى للمستعمرات لا يفيب من الازهان ، لان القمر نفسه يمكن ان يكون محلا للاطماع العسكرية في مجال التصارع النووي بين الكتلتين الغربية والشرقية باعتبار امكان استغلال القمر كقاعدة عسكرية لتوجيه القنابل المدارية النووية (Nuclear Orbitat Bombs) نظرا لسهولة توجيه هذه القنابل من الارتفاعات العالية او من القواعد القمرية الى اية اهداف على الارض .

المحطات الفضائية

وامام تقدم فكرة المحطات المدارية كاستراحات فضائية لتحقيق السفر الى الكواكب على قفزات ، يوجد لدى علماء الفضاء افكار يصون الى تحقيقها في اواخر التسعينات ، تستهدف اقامة محطات مدارية فضائية تتكون من عدة اجزاء بحيث يجري تجميعها في الفضاء بواسطة رواد يسبحون في الفضاء ، او بواسطة وحدات البكرونية لتحقيق هذا الترابط بالالتحام الذي يتوقف على دقة توجيه الاجزاء بعضها الى بعض شكل (٣٣) . ويستهدف المشروع الامريكي الى تجميع محطة «جيو - توافقية» وهي ما تعرف باسم Geo Synchronous Station بدون رواد ، تمهيدا لبناء محطة فضائية كبيرة تسع (١٠٠) شخص .



شكل (٢٢) شطح خيال الفنانين الى تصور المستعمرات القمرية .



شكل (٢٢) ستكون ارضي الانجازات تجميع محطات الفضاء ذات الاجزاء المتعددة .

الدول العربية ، واتحاد الاذاعات العربية لتوفير الاعتمادات المالية اللازمة للمشروع لكي يغطي القمر باذاعاته الصوتية والمرئية والهاتفية رقعة الشرق العربي والاجزاء المتاخمة لها من البلاد الافريقية والاسيوية . وبهذا القمر سيتمكن ربط شبكات التلفزيون المحلية لكل بلد عربي ببعضها البعض ، كما سيتمكن ربطها بشبكات تلفزيون الدول المجاورة ، فضلا عن تيسر غمر العالم العربي باذاعات صوتية او مرئية موحدة ، وتحسين خدمة الاتصالات التليفونية بين دول العالم العربي عبر هذا القمر بدلا من ملايين الكيلومترات من الكوابل الارضية والبحرية .

وهناك عروض من شركات امريكية ويابانية لانجاز هذا المشروع بواسطة « منظمة الفضاء العربية » التي مقرها الرياض ، بتحويل عربي مشترك بين دول الجامعة العربية . ولو شئنا ان نحصى مزايا هذا المشروع من وجهات النظر المختلفة فسنجدها تجل عن الحصر . ولكن يمكن الالاح الى اهمها وهي :

❖ سيكون مشروع القمر الصناعي العربي لبنة فعالة في بناء صرح القومية العربية ، اعتمادا على وحدة اللغة في المنطقة ووحدة الاساني والمشاعر والروابط المقسائدية والسياسية .

❖ سيعمل القمر على توحيد العالم العربي بتقوية الاحساس بالانتماء الفواصل الجغرافية من خلال توحيد الكلمة المسعوعة والصورة المرئية لدى شعوب المنطقة .

❖ دعم الخدمات الاذاعية والتليفزيونية في مجالات الثقافة والاعلام والترفيه والتعليم

وبذلك يصبح للبحوث الفضائية منطلق جديد يسهل سفر الانسان الى الكواكب وخاصة كوكب المريخ بواسطة سفن فضاء تسع (١٢) شخصا ، تمهيدا لارساء محطة فضاء دائمة على المريخ تسع (٤٨) شخصا .

وقد يكون لازما القول بان الامل معقود في هذا المضمار على تطويع الطاقة النووية للاستخدام في صواريخ دفع سفن الفضاء لتقليل مدد السفر الى الكواكب ، لان الجسم البشري مازال يمثل عائق الزجاجة في تقدم هذه البحوث . اذ لا يقوى الكيان البشري على السفر شهرا طويلة لو اعتمدنا على الدفع بالاحتراق الداخلي المستخدم حاليا . ومن ثم يمكن ان يتكرر اطلاق سفن جديدة الى كوكبي المشتري (Jupiter) وزحل (Saturn) اللذين لم يرسل الى اى منهما الى الآن غير سفينة فضاء واحدة من طراز « بيونير » (Pioneer) ولا شك ان ذلك يمكن ان يتطور في اواخر القرن العشرين الى ارسال سفن تحط فوق سطح كل منهما برفق كما حدث على المريخ ، ثم ياتي بعد ذلك دور ارسال سفن فضاء الى الكواكب الثلاثة الاكثر بعدا عن الشمس وهي « نبتون » (Nepton) « اورانوس » (Uranus) « بلوتو » (Pluto)



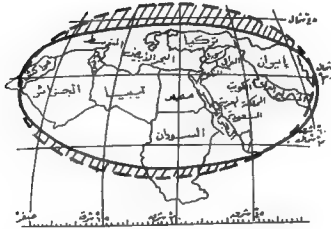
مشروع القمر الصناعي العربي

في ختام البحث نجد انتمن الضروري الالاح الى ان انجازا فضائيا على وشك التحقيق في الاعوام المقبلة ، سيعم نفعه المنطقة العربية وهو مشروع القمر الصناعي العربي ، الذي بدأ يجد سبيله الى دنيا التنفيذ . فقد اجتمعت جهود وزراء المواصلات العرب من خلال جامعة

✳ اتخاذ بعد جديد في دعم الاواصر مع الشعوب المحيطة بالعالم العربي ، وخاصة الشعوب الافريقية القريبة وايران وتركيا وشعوب جنوب اوربا ، حيث يمكن اجتذاب شركاء منهم في بعض قنوات القمر الصناعي العربي .

بتبادل الخبرات بين المتخصصين في هذه المجالات في مختلف الدول العربية ، شكل (٢٤) .

✳ تطوير وسائل التعليم بالانفتاح الايجابي على اساليب التعليم الحديث ، ودفع عجلة محو الامية بين الشعوب العربية الى الامام من خلال اذاعات القمر العربي .



شكل (٢٤) نطاق نطقة القمر الصناعي العربي .

المراجع العربية

- ١ - غزو الفضاء تأليف : عبد التتم أبو السعود
- ٢ - الإنسان والقمر تأليف : دكتور محمد يوسف حسن
- ٣ - السفر الى الكواكب ترجمة : الأستاذ اسماعيل حقي
- ٤ - الفضاء الكوني تأليف : دكتور محمد جمال اللندى
- ٥ - اتصالات الفضاء ترجمة : زكريا البرادعى
- ٦ - عالم الانفلاذ ترجمة : دكتور امام ابراهيم احمد
- ٧ - في اعماق الفضاء تأليف : دكتور عبد الحميد سماعة
- ٨ - معام على الطريق الى الفضاء تأليف : الأستاذ حسن وهيب المصرى
- ٩ - الكون العجيب تأليف : فدى حافظ طوقان
- ١٠ - مع الله في السماء تأليف : دكتور احمد زكى
- ١١ - علم الفلك وصور السماء تأليف : الأستاذ يعقوب صروف
- ١٢ - الصوام الاخرى تأليف : دكتور محمد جمال اللندى
- ١٣ - المسريخ تأليف : الدكتورين محمد اللندى ومحمود خيرى
- ١٤ - تاريخ الملك عند العرب تأليف : الدكتور محمد امام ابراهيم
- ١٥ - في اعماق الفضاء تأليف : الدكتور عبد الحميد سماعة
- ١٦ - اساطير العلم الحديث تأليف : الأستاذ فؤاد صروف
- ١٧ - صواريخ المعمر تأليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان
- ١٨ - اعماق الكون تأليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان
- ١٩ - الصواريخ في الحرب الحديثة تأليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان
- ٢٠ - طرائف علمية تأليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان
- ٢١ - الطريق الى القمر تأليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان
- ٢٢ - الاقمار الصناعية وسفن الفضاء تأليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان
- ٢٣ - سكاى لاب والطريق الى الكواكب تأليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان
- ٢٤ - الملاحة الكونية تأليف : لواء مهندس سعد شعبان

المراجع غير العربية

1. America on the Moon, by Holmes
2. Reverse Side of Moon, by USSR Academy
3. Spacecraft, by Willy Ley
4. Outer Space, by Bloomfield
5. Introduction to Space, by Lee
6. Space New Frontier, by NASA
7. Principle of Guided Missiles, by Merile
8. Rocket to the Moon, by Hull
9. Astronomy for Entertainment (Russian)
10. Space Physics, Radio Astronomy, by Messel, Butler
11. Radio Astronomy, by Lovell, Clegg
12. The Solar System, by Clifford
13. Guide to the Stars, by Patrick Moore
14. Space World, by Perelman
15. Aviation Weak and Space Technology, Magazine Series
16. Interavia, Magazine Series
17. Space, Magazine Series
18. Flight, Magazine Series.

* الأدب والسياسية

مناقشة جديدة لقضية عزرا باوند

بقلم: روبرت أ. كوريجان

Robert A. Corrigan

ترجمة: صديقي خطاب

والذي وقف في عام ١٩٠٨ يقصف ابواب لندن
الأدبية مات في إيطاليا في نوفمبر (تشرين
الثاني) عام ١٩٧٢ بعد ان أصبح هادئا
ومنعزلا وشيخا كبيرا يعيش بقية حياته في
صمت عام نرضه على نفسه. وإذا كان بالذكر
ان باوند قد غارق العالم الادبي كما دخله -

صادف ٢٣ مارس (آذار) ١٩٧٨ الذكرى
السبعين لحدث من أبرز حوادث التاريخ
الادبي وان كان اقلها حظا من الاحتفاء ، هذا
الحدث هو غزو عزرا باوند لأوروبا (١) . ان
ذلك الشاب الجريء الذي كان يتسم بالخيال
وسرعة الاستشارة والموهبة الفياضنة

« لعلنا لو اردنا ان نضع عنوانا آخر لهذا المقال لقلنا « باوند والمثالية اليهودية » ، فباوند - كما يكشف المقال -
كان ضحية للمثالية اليهودية ، تماما كما كان فورستال وزير الدفاع الامريكى (١٩٢٧ - ١٩٤٩) - من ضحاياها ،
(الترجمة)

(١) ارجع الى كتاب Etruscan Gate المنشور في اكسترلي مطبعة Rougemont عام ١٩٧١ لدوروثى باوند صفحة ٢
وفي هذا الكتاب مايشير الى ان باوند اخذ دوروثى وامها في ٢٣ مارس (آذار) ١٩٠٩ ان تناول الشاي بعد حضور حفلة
موسيقية وذلك احتفاء بالذكرى السنوية لتزوله في أوروبا .

وسط دوامة من الجدل المرير والنقاش الحاد الذي اسرع في تفجيره قرار اكااديمية ذات مكانة رفيعة هي (الاكاديمية الامريكية للفنون والعلوم) بحرمان باوند من ميدالية يطعم فيها الناس هي ميدالية امرسون وثورو (2) Emerson - Thoreau.

وليس هناك من يستطيع ان يحزم بان باوند كان راغباً في هذه الجائزة . فكثيراً ماكان لمثل هذا التكريم في الماضي شأن كبير ، ولكن غالباً ما كان المحفون في طلبه لباوند افراد تلك المجموعة من اصدقائه الراعين له واقاربه الذين كانوا يلتفون حوله في موله الايطالي (٣) وستنصر هنا على تسجيل علاقة باوند بهؤلاء الرفاق وتأثير حياته الفنية المضطربة على أسرته واصدقائه ، ثم تأثير جهودهم عليه ، هذه الجهود التي اتسمت بالنية الطيبة وان كانت قد ضلت السبيل . فالحاجة قليلة الى طريق ومز آخر يعبر تلك الأجمة من المصطلحات التي تم مسحها مرات كثيرة ، هذه الأجمة التي أطلق عليها باوند اناشيده Cantos

ان من يتذكرون باوند الشاب يتذكرون فتي نحيلاً اشقر الشعر طوله ستة أقدام ، كان على جانب كبير من الوسامة وجمال الحيا مما جعله محظياً لدى ثلاثة اجيال من المعجبين كما اعانه جيداً في الرياضة جسمه الجسدي ، فقد مشى مسافات طويلة على قدميه في ألمانيا بصحبة فورد مادوكس فورد، وتبارى في الملاكمة مع إيرنست همنجوى في

باريس ، وتبارى بالسيف في لندن مع متمرسين في هذا اللون من المبارزات (وتحدى ناقدا هاويا في مبارزة) ولعب التنس في نصف انجلترا وجنوب أوروبا ، وكان يظهر في كل مكان يرحل اليه اشقائه لاشهر الالعاب الرياضية التي تلعب في القاعات . ومن المؤكد انه لم يكن ذلك العبقري الخجول الضعيف الرخو السميع الذي كثيرا ما يصوره لنا خصوم الشعر الحديث الافظاظ .

ويذكر باوند كرجل كبير في امور اخرى ايضا ، فهناك الكثيرون ممن هم مدينون كثيرا لكرمه : فالشاعر الشيخ ولیم بطليزيتس Yeats الذي جدد باوند روحه الشعرية نال جائزة نوبل وجيمس جويس Joyce اليائس كان من الممكن ان يموت في كوخ في مدينة تريستا اعمى مغفورا لم يقرأه احد لولا فضل باوند عليه ، وروبرت فروست Frost الطموح كان في منتصف العمر ولم ينشر شيئاً واذا هو بعد لقاء عرضي وربما كان مرتباً مع باوند يتألق في سماء الأدب ، واكثر من هؤلاء كلهم ت . سي اليوت Eliot الخجول الذي سدد - ويقول البعض انه كان يسدد دائماً - ما عليه من ديون اولى لباوند ديون مؤازرة ونقد وصداقة مدة أربعين عاماً (لعل باوند كان يزدري الربا ولكننا لا نجسد شاعراً دفع مثل تلك الفوائد الباهظة على دينه مثل اليوت ، ربما لأنه لم يكن هناك شاعر مدين لغيره مثلما كان اليوت مديناً لباوند) ان قائمة المستفيدين من باوند طويلة

(٢) انظر مقال « عزرا باوند محور جدل جديد » بقلم Robert Reinhold في صحيفة نيويورك تايمز عدد ٥ يوليو (تموز) ١٩٧٢ المصطلحين ١ و ٢٩ ول عدد ١٧ يوليو (تموز) ١٩٧٢ صفحة ١٠ مقال بعنوان « جائزة باوند » ومقالاً بقلم : L. V. D. بعنوان « الاضرار على منع الاكاديمية جائزة لعزرا باونديشير جدلاً مرا بين الطعام » المنشور في مجلة Chronicle of Higher Education عدد ٢٢ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٢ صفحة ٢ ومقالاً بقلم Irving Howe عنوانه « هودة قضية عزرا باوند » المنشور في مجلة World عدد ٢٤ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٢ من صفحة ٢٠ الى صفحة ٢٤ .

(٣) وعلى سبيل المثال مسمى احد النقاد التاخرين - ولقد كتب كتباً عن باوند - الى ابيد من الاعلان عن تفكيره في تنظيم حملة من أجل حصول باونديش على جائزة نوبل ، فذكر لاصدقائه ان بالامكان اقتناع فداية البابا لدراسة منع لقب قديس لعزرا باوند .

الذي كان يكنه لارشيبالد ماكليش Archibald MacLeish هذا الشاعر الذي كان لحملته المخلصة التي دامت خمس عشرة سنة الفضل في انقاذ حياة باوند وأطلق سراحه من مستشفى سانت إليزابيث (٥) ، أما بالنسبة لروبرت فروست ، رجل ماكليش المتردد ، والذي نسب إليه خطأ تدبير إطلاق سراح باوند عن طريق صديق قوي له من نيوهامشاير ومساعد الرئيس شيرمان آدمز ، فإن التقدير الوحيد الذي لقيه من باوند على ما بطل من جهد كان عبارة مقتضبة قالها للمراسلين الصحفيين « لم يكن في عجلة من أمره . » (٦)

إن أية محاولة للدراسة لتاريخ معارك باوند التي لا نهاية لها هي محاولة مقعدة لأن الأساطير التي قامت حول هذه المعارك لا نهاية لها أيضا . أننا لن نجد كاتبا أمريكيا كبيرا ، ربما باستثناء ناثانيل وست West هالجببراهة مثله حقائق حياته الأساسية أو جعل فيه يعالجها . وعلى سبيل المثال فإنه بالرغم من أنه ولد في الحقيقة في مدينة هيلي في ولاية أيداهو Idaho ، إلا أنه لم يكن قد تجاوز ثمانية عشر شهرا من العمر عندما غادرت أسرته تلك المدينة الحدودية الباردة في قطار وسط عاصفة ثلجية هوجاء ، وكان عزرا الصغير يستق الكيروسين ، ليحصن ضد التهاب الطلق . ولكننا مع هذا لدينا كل تلك

أنها حاشية مثيرة للعجب من كتاب ورسامين وعازفي ومؤلفي موسيقى ومعماريين وحتى من صانعي الأفلام الطليعيين . ولا شك أن هذا السجل المنقطع النظير من الرعاية معروف جيدا ، لأن مدينيه سرعان ما يعترفون بدينهم من ناحية ، ولأن باوند كان سرعان ما ينشر إعلان هذا الدين .

وهناك جانب في شخصية باوند أقل شهرة من شهرته ، ألا وهو ميله إلى التواضع مما كان يثير سخط حتى أقرب الأصدقاء إليه . هناك مثلا مسألة الفيلسوف العجوز جورج سانتايانا Santayana الذي حُجِر طوال الحرب (العالمية الثانية) في روما ، لقد تحدى سانتايانا الشيوعيين والفاشييين ، الإيطاليين والألمان ، الأمريكيين ورهبط البيروقراطيين الدوليين ليزور باوند في مركز الاعتقال في مدينة بيزا في الوقت الذي كانت حتى أسرة باوند لا تعرف أنه على قيد الحياة . ومن المفروض في باوند أن يكون مجتبا لهذه الإشارة الشجاعة من الاهتمام ، ولكن اعتراف باوند بهذه الزيارة جاء بعد ذلك بعدة سنوات في حديث مع صديق له من واشنطن حيث أسر لصديقه هذا بشيء من الخشونة أنه كثيرا ما صادف أثناء تجواله في شمال إسبانيا اسم سانتايانا - وهو اسم يحمله دائما يهودي (٤) . ورسائل باوند التي لم تنشر تكشف عن درجة مذهلة من الاحتقار

(٤) من مذكرات غير منشورة موجودة في قسم المخطوطات في مكتبة الكونجرس .

(٥) ارجع على سبيل المثال إلى رسالة دوروثي باوند الوجهة إلى دونالد تكن المؤرخة في « أكتوبر (تشرين اول) ١٩٤٧ وفيها تكتب قول زوجها التالي : « إن مستوى ماكليش من الثقافة ليس من المستوى بحيث يقدم الدنيا » .

(٦) انظر مقابلة في جريدة Washington Daily News من ٢ أبريل (نيسان) ١٩٥٨ وقد نسبها Eustace Mullens في كتاب The Difficult Individual Ezra Pound المنشور في نيويورك مطبعة Fleet عام ١٩٦١ صفحة ١٩٦ .

(٧) ارجع إلى كتاب Milton and His Modern Critics « بقلم Logan Pearsall Smith من منشورات Boston : Little, Brown عام ١٩٤١ ، صفحة ١٠ ، فيه يقول المؤلف إنه نقل هذه المعلومات من أول ناشر إنجليزي لباوند وهو Elkin Mathews .

(٨) ارجع إلى كتاب Bid Me to Live بقلم Hilda Doolittle من منشورات نيويورك Grove Press عام ١٩٦٠ صفحة ٤١ .

وسواء أكان السوط بيده أم لا فقد وصل هذا الفتى الفيلادلفي الى لندن في عام ١٩٠٨ وفي جيبه شلن وتحت أبطه رزمة من القصاصد وبرز كتاب بوهمي فاسق متهور شديد الخصام مستعد لأن يدفع للمجتمع الثمن مقابل استقلاله الذي يضمن به . (١٠) كان قادراً على أن يخلق الأساطير اللازمة لدعم شخصية من الفسحامة بحيث تحتل المسرح الأدبي الأدواردي (١١) (نسبة الى الملك دوارد السابع الذي حكم إنجلترا من ١٩٠١ الى ١٩١٠) . وقد وصفه ريتشارد اللنجستون Aldington فقال : كان « بركانا صغيراً ولكنه مستمر في أجواء مجتمع لندن الأدبي المتممة » . وسرعان ما نجح باوند في ربط نفسه مع كبار التمردين الذين كانوا يخططون حتى في ذلك الحين لقلب المؤسسة (الأدبية) اللندنية وما لبث أن جعل من نفسه قائداً لتلك الثورة (١٢) . وبالرغم من اظهار هذا

القصاص الأولي البريطانية والاوربية من فتى جامع جاء من الغرب (غرب الولايات المتحدة) الوحشي ، وظهر لأول مرة في إنجلترا وهو يلبي قبعة رعاة البقر الكبيرة ويهز ببسده سوط راعى يقر ، أو يحدث فرقة به ليؤكد ملاحظاته . والحدود بالنسبة لدانتي (ولاية داكوتا) - كما وصفته الشاعرة هيلدا دولتل Doolittle - كانت فيلادلفيا شارع ٤٣ ، اما غربه الوحشي فكان الجوار الزين لكلية وست فيلادلفيا حيث استقرت أسرته في البداية وقبل ان تنتقل الى ضاحية أكثر غنى . اما مسار تعليمه فكان من أكاديمية شيلتهام الخاصة الى جامعة بنسلفانيا الى كلية هاملتون ثم ثائية الى جامعة بنسلفانيا ليأخذ شهادة الماجستير ومسابقات دراسية أخرى كافية للدكتوراه في اللغات الحديثة المشتقة من اللغة اللاتينية (٩) ، ولكن هذا لم يكن سبيل هذا الشاب لا ولا تارك الرحلتين الى أوروبا ولا تعليم دام ستة أشهر في إحدى الكليات .

- (٩) ارجع الى مقال Penn's poet Friends بقلم Emily Mitchell Wallace في عدد فبراير (شباط) ١٩٧٣ من مجلة Pennsylvania Gazette . صفحة ٢٥ . وقد اكتشفت الكاتبة ان باوند قد رسب في أحد مقررات الدراسات العليا وهو مقرر النقد الأدبي !
- (١٠) ارجع الى مقال بعنوان « والد عزرا باوند يتحدث من ابنه الذي ذهب الى لندن في جيبه شلن واحد ووجد (الشعركه) بقلم Mary Dixon Thayer المنشور في مجلة Philadelphia Bulletin ، عدد ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٢٨ صفحة ١٢ .
- » نسبة الى الملك إدوارد السابع الذي حكم إنجلترا من عام ١٩٠١ الى عام ١٩١٠ (الترتيم)

(١١) وتذكر في هذا المقام الأسطورة (أو الأساطير) عن طرباوند في نصف السنة من كلية وياشي في انديانا . وهنا يورد باوند روايتين ، وتتفق الروايتان على ان باوند كان يمشي ذات مساء عندما تقدمت منه إحدى الرافعات وقالت له انها غريبة في تلك البلد وانها بحاجة الى مكان تمام فيسهلئتها . (وتختلف الروايتان في عمل الرافعة ، هل كانت رافعة باليه ، أم كانت تمثل في برنامج ساخر) ، فما كان من باوند الا ان تغل في فراشه للرافعة ونام ليلته على كرسي ، وفي الصباح ذهب الى صفه وترك الفتاة في فراشه وسرعان ما اكتشفتها العائسات المسنولات عن البيت . ربما كانت تلك الفتاة رافعة وقد اكتشفت في فراشه من غير شك، ولكن بقية القصة تلتقي وهي : ان صبيته كانت في الواقع مليحة في إحدى حجرات ذلك البيت ، وان هذه الحادثة كانت الحادثة الأخيرة في سلسلة حوادث كئيبة أدت الى طرده من ذلك السكن المحترم ومن تلك الكلية المحافظة جداً .

- (١٢) روى هذا ريتشارد اللنجستون في مقاله Des Imagistes المنشور في مجلة Saturday Review of Literature ٢١ مارس (آذار) ١٩٢٠ ، بالمصوتين ٣٢ ، وكذلك في مقال « وداع لأوروبا » في Atlantic عدد أكتوبر (تشرين أول) ١٩٤٠ من صفحة ١٨ الى صفحة ٢٩ ، وفي كتاب Life for Life's Sake المنشور في نيويورك Viking عام ١٩٤١ .

والا تعتمد على المقرضين او المصارف الرأيين . وكان باوند يرى أن العمود الفقري في أي نظام اقتصادي سليم هو « الصندوق الاجتماعي » ويعنى به أن تقوم الامة في زمن الرخاء الاقتصادي بالان توقف عن جبي الضرائب فقط وإنما عليها أيضا أن توزع الاموال الحكومية الفائضة على مواطنيها كإرباح أسهم وطنية . وقد ازداد إيمان باوند بصحة فلسفته الاقتصادية حتى أصبح متزمتا ، وإبتعد أكثر وأكثر عن المبادئ الماركسية المقبولة وتوقف عن الكتابة كلية في المجلات الاسبوعية الشيوعية ولم يات عام ١٩٣٩ حتى كان أول هدف ينتقده كثير من الصحفيين اليساريين (١٥) .

وفي البداية يبدو أن باوند قد ظن أن الرئيس فرانكلن ديلانو روزفلت يمكن أن يعلم ليقبل الصندوق الاجتماعي ، ولكن باوند لما رأى أن برنامج الإصلاح الداخلي الذي وضعه روزفلت يسير ببطء أصبح باوند مقتنعا بأن فرانكلين ديلانو روزفلت أسير - من الناحية الأيديولوجية لاهداء الديمقراطية الاقتصادية الماكزين وهم اليهود الذين لم يكن تأثيرهم على أوروبا إلا « لعنة كربهة » (١٦) ، وأخذ يجهر

التجهر الأمريكي (١٧) لأسوأ ما في أساليب قاعة موسيقى في لندن من محاكاة ساخرة ، إلا أنه كان في طريقه لأن يصبح - ما سماه الفرد كازن Kazin - « البطل الأسطوري في عصر نهضة صغير » (١٨)

وبعد أن استنفد كل ما في حي كنزنجتون Kenzington من مبارزات أدبية ، انتقل إلى باريس ، فلما أصبحت باريس تصح بالفلين الأمريكيين المغتربين ، سافر باوند إلى إيطاليا وإسبانيا ، وأخيرا استقر في مدينة صغيرة لطيفة على البحر المتوسط هي مدينة ربالو (في إيطاليا) ، وظل يعيش ويعمل في هذه المدينة حتى التي عليه القبض بتهمة الخيانة في ٣ مايو (أيار) عام ١٩٤٥ . وفي هذه المدينة أخذ باوند في الشلائينات ينشر فلسفته الاقتصادية التي تقوم على طرف فرضية ماركسية مفادها : أنه لما كانت الحضارة تعتمد على تأثيرات اقتصادية ، وأنه لما كان الازدهار هو الناية الأولى لجميع الحكومات فانه من الضروري (لضمان هذا الازدهار) أن تتولى الحكومات إدارة أموالها

- (١٣) النظر - على سبيل المثال - التحية التي كثيرا ما يستشهد بها بقلم C, I. E. U. Lucas, Graves وهي Mr. Welkin Mark's New Post في مجلة Punch عدد ٢٣ يونيو (حزيران) عام ١٩٠٩ صفحة ٤٤٩ وهي : « أن ويلكن مارك يود أن يعلن تماما ضد رقيات لونغ جين (أنه ضمن للسوق الإنجليزي المولات الثانية لشاعر مونتانا (الولايات المتحدة) الجديد. أن غزالين تون الذي يعتبر أهم حدث في الشعر منذ دوريت براوننج ، والذي ترك أمريكا ليقوم لبعض الوقت في لندن ، ويغري شخصيته على رؤساء التحرير الإنجليزي وعلى الناشئين والقراء ، هو حتى الآن أحدث شاعر والصح مهمة فالتا الاطلاعات عنه في ذلك ، فقد نجح بينما فشل الآخرون جميعا في إبراز مزيج من صور القرب (غرب الولايات المتحدة) (الطليق ومن لغة شارع واربور من بقايا بورجيا الإيطالية) . »
- (١٤) انظر كتاب On Native Ground بقلم Alfred Kazin الذي صدر في نيويورك من Harcourt Brace عام ١٩٤٢ ، صفحة ٤٠٣ .

- (١٥) بدأت مجلة The New Masses حملتها على باوند في سبتمبر (ايلول) ١٩٢١ حين نشرت رسالة مفتوحة من مايك جولد . انظر هجومًا آخر في عدد ١٠ أبريل (نيسان) ١٩٢٤ وعدد ١٧ مارس (آذار) ١٩٢٦ وفي ١١ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ . وقد نشر إيسدور شتاينر مقالا بعنوان « خائن أم أب له قديس » في نفس المجلة ، وبعد ذلك بأسابيع ظهر في ندوة شلتل بعنوان هل يجب أن يطلق الرصاص على مزارياوند . انظر أيضا مقالة T (h) inker Pound and other Italian Legends بقلم دونالد ماكنزي في مجلة The left عدد الصيف والخريف عام ١٩٣١ من صفحة ٨ الى صفحة ٥٢ .

- (١٦) من رسالة وتدهام لويس فريارس (شيايف) ١٩٢٩ مطبوعة في مكتبة Beinecke في جامعة Yale

او لمن روزفلت أو حتى الاعجاب بأشغال موسوليني . (٢٠) ولكن رسائل باوند التي لم تشر وذكريات أصدقائه القريبين الشخصية توحى بأنه في أواخر الثلاثينات بدأ يفقد الاتصال بالواقع حتى عندما أخذت قناعته ترداد بسلطانه وحكمته وتأثيره . كان باوند مستقل الرأي ، يصل إلى ما يريد اما عن طريق سحر شخصيته وكثيرا ما وصل إلى ما يريد عن طريق قوة آرائه والحجة التي كان يعرض بها هذه الآراء ، وكان مدركا تماما للدور الهام الذي لعبه في تشكيل الحياة الأدبية لكثير من المهووبين - وفي بناء الفن الحديث من خلالهم . ولا يختلف الثنائ في انه مسئول شخصيا عن نجاح عدد من كبار الأدباء والفنانين ، وكان يعتبر أهم قوة مؤثرة في وضع قانون الشعر الجديد . كان أسطورة في عصره فالتفت للسياسة والاقتصاد حيث اكتشف ان آراءه يمكن أن تقبل ، وانها كآرائه في الأدب غالبا ما تكون موضع نقاش شديد بين كبار المفكرين .

احترار باوند لان الشعب الأمريكي لم يقبل برنامجه الاقتصادي ، ولذا لم يكن غريبا عليه ان يستنتج ان ذوى النفوذ في الكونجرس

في عدائه لروزفلت وكان قاسيا في شجبه اليهود - او « اليهود القاذورات » كما كان يسموهم . وقد قيل ان باوند في كراهيته لليهود وفي عدم ثقته بالمصالح المصرفية الكبرى وفي احتقاره لسلطان الحكومة الأمريكية كان ينتمى إلى حزب الشعب إلى تراث مسقط رأسه في غرب الولايات المتحدة . ولكنه منذ عام ١٩٢٢ نجد باوند يعارض في انتشار اليهود بين المسهين في مجلة Dial ، ويتنبأ بأنه خلال نصف قرن سيحل اليهود والسود والصينيون (١٧) محل البيض (في الولايات المتحدة) - وهذا ينفي تأكيد ضعيفا حديثا بأن باوند قد وقع في معاداة السامية عام ١٩٣٩ (١٨) . ويجب الا ننسى ان معاداة السامية كانت شائعة ولا تثير الاستغراب بين الناس في عهد الملك إدوارد السابع . وقد عبر كثير من رفاق باوند القريبين - كالوت وجون كوين Quinn صراحة عن مشاعر معادية للسامية (بينما شعر باوند بأن الكنيسة المسيحية هي بحكم تمريقها معادية للسامية .) (١٩) .

ولاشك أنه ليس من جنون في الجوهر كراهية اليهود أو المناداة بالصندوق الاجتماعي

(١٧) من رسالة إلى جان روبرت فوستر مؤرخة في ٢ فبراير (شباط) ١٩٢٢ مطبوعة في مكتبة Houghton في جامعة هارفارد .

(١٨) انظر مقالة بنوان « سيرة لاميالية » بقلم هيوكينر Kenner في مجلة New Republic عدد ١٧ أكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٠ من صفحة ٢٠ إلى صفحة ٢٢ .

(١٩) انظر - على سبيل المثال - قول ت. س . اليوت في كتابه After Strange Gods « ان اسباب العنصر والدين تتلقى ترحيل من أي عدد كبير من اليهود المتحررين فكريا مطعوما » . وارجع أيضا إلى مجابهة في رسالة John Quinn Mary Maguire Column المؤرخة في ٢ يناير (كانون الثاني) ١٩١٩ والمطبوعة في مركز البحوث الإنسانية في جامعة تكساس ومنها : « كنت أكره ألمانيا والألمانيين كراهية تقهر عن وصفها الكلمات . اما الآن فأنتي احتقرهم احتقارا تقهر عن وصفها الكلمات ، وليس عني سوى الاشتزاز والاحتقار لأنهم ولجميع الفئات الدنيا التي تجعل من أدنى انبياء اليهود مستحقين . »

(٢٠) ذكر باوند اختلافه في مناسبات عديدة مختلفة أنه قال لموسوليني عندما التقى به ان الشيء الوحيد الذي يحسده عليه هو الأشغال : انظر - على سبيل المثال - رسالة باوند إلى دونالد دنكن المؤرخة في ٨ مايو (ايار) ١٩٤٦ المطبوعة في مكتبة Beinecke في جامعة ييل . ومن ناحية كتب . س . اليوت إلى فيرجينيا وولف في ١٧ أبريل (نيسان) ١٩٣٦ يقول أنه كتب « رسائل ساخرة إلى موزا باوند من موسوليني » - ربما لئلا تترك . انظر الرسالة في مجموعة Berg في مكتبة نيويورك العامة .

الإذاعية يزداد اضطرابا وتشابكا ، وانتهاماته أكثر بداهة وتلفيقا ، والفكر فيها أقل منطقا ، ونغمتها أكثر هستيرية . لقد أخذ باوند يفقد الاتصال بالعالم الخارجى حين حبس نفسه فى بلد أجنبى هو فى حرب معلنة مع وطنه وبدأ عدد الرسائل التى يتلقاها ينضب ، وتوقفت الصحف المكتوبة باللغة الإنجليزية عن الوصول ، وكان المال الذى يتلقاه نزرا يسرا . وكان مابدا فى فبراير (شباط) ١٩٤١ كمناطق مثالي ضد الحرب قد أصبح فى فبراير من العام التالى عملا دعائيا مأجورا من جانب رجل متعصب لرابيه أنغول تماما عن أى تأثير ملطف لآرائه أو رأى يناقشها . لقد أخرجت الإذاعة كل مكان مستترا عنده من مرض الشعور بالذات ، ذلك المرض الذى عرف اصداقؤه المخلصون كيف يعالجون على مدى السنين ، ومع جمهور دولي يعد بالملايين فقد باوند كل حس بالتوازن أو المسؤولية .

ثم جاءته صلصة تسليم موسوليني ، وفرار باوند اليأس فى الشتاء فى إيطاليا ، وعودته السرية فى الربيع الى شواطئ البحر المتوسط . (٢٢) وقام الألمان بمصادرة منزله لبناء تحصينات للميناء ، وبهذا أجبروا أسرته كأعداء غريباء الى الانتقال الى الهضاب التى تقع فوق مدينة رابالو ولتعيش مع أولجاردوج فى كوخها الريفى . (٢٣) وفى هذا المكان القسى القبض عليه أنصار الحلفاء من الإيطاليين

والصحافة فد حجبا عن الجمهور آرائه ، أما لقباء منهم وما ليلهم لخداع هذا الجمهور . ولكى يتقف فى وجه هذا التأثير أبحر باوند الى أمريكا عام ١٩٣٩ وجاب أبهاء الكابيتول وأجبر أعضاء الكونجرس على الإصغاء له وأخذ يناقش نظرياته ، ويقابل كل من لديه استعداد من الصحفيين للإصغاء له ، بل أنه ذهب لياخذ من كلية هاملتون أول شهادة فخرية يأخذها ، وذلك من أجل أن يجد جمهورا أكثر لشرح فلسفته الاقتصادية . كانت رحلة باوند الى أمريكا فاشلة تماما باستثناء أخذ الشهادة الفخرية ، فأعضاء الكونجرس لم ينصتوا له ، وروزفلت رفض أن يلتقى به أو حتى أن يرد على رسالته ، والصحافة عموما تجاهلته . عاد باوند الى إيطاليا وهو مقتنع بأن اليهود وروزفلت قد أفسدوا الشعب الأمريكى ودنسوا آرائه ، وأنهم على وشك زج بلاده فى حرب لا أخلاقية . وقد ظل مصرا حتى آخر أيام حياته على أنه بدأ أحاديثه المشهورة فى إذاعة روما فى فبراير (شباط) ١٩٤١ لكى يمتنع وقوع الحرب بين إيطاليا وأمريكا ، وأنه لم يكن يخاطب الجمهور الأوروبى وإنما كان يتحدث الى المستمع الأمريكى الذى حجب عنه نظريات باوند طويلة ، وقد حجبتها - كما يقول باوند - الصحافة المعادية ، والمؤامرة اليهودية وحقدريس جمهورية مجنون . (٢٤)

ومع مرور الأيام أصبح محتوى أحاديثه

(٢١) أراجع من أجل مزيد من المناقشة الى مقالى وعنوانه « نزا باوند ووزارة الثقافة الشعبية الإيطالية » المنشور فى مجلة Journal of Popular Culture مجلد ٦ (ربيع عام ١٩٧٢) من صفحة ٦٣٧ الى صفحة ٧٨١ .

(٢٢) أراجع من أجل الاطلاع على رواية دوروى باوند للأحداث كتاب The Caged Panther بقلم Harry M. Meacham المطبوع فى نيويورك دار نشر Doubleday عام ١٩٦٧ ، وكذلك لكتاب Discretions بقلم Mary de Rachewiltz المطبوع فى بوسطن والصادر عن دار Atlantic, Little, Brown عام ١٩٧١ من أجل الاطلاع على رواية ابنة باوند لهذه الأحداث . وهناك أيضا رسائل غير منشورة تتناول هذا الموضوع وهى محفوظة فى جامعة تكساس .

(٢٣) وليلة عام ١٩٤١ ازداد عشاؤا جميعا مما - الزوج والزوجة والعشيقة ، ولو لم تكن أم الشاعر قد بلغ بها كبر السن والضعف ميلا كبيرا لتزكت شقتها فى ربالو وانقسمت اليهمى بيت من أشهر البيوت فى التاريخ الأدبى . وكانت دوروى تقوم برحلة كل أسبوع لتزور حضانها فى مدينة ربالو ، وخلال واحدة من هذه الزيارات جاء أنصار الحلفاء الأجلاف وسجنوا باوند لم يحسبوا إلى جنوا ليجرى استجوابه من قبل قيادة الحلفاء .

وهو سلوك لم ينبثق الا في اطالة مقاب باوند
عشر سنوات أخرى .

وبالرغم من جميع مخصصاته الاسطورية الا
انه كان ما يزال في عام ١٩٤٥ يتمتع بعدد من
الاصدقاء الحميمين المهيمن جدا ، فقد كان
باوند دائما كريما في وقته ، وسخيا في
تصيحته ، فاكسب اخلاص حتى من كانوا
يحتقرون مبادئه للسامية ويستنكرون قيمه
السياسية . وقد انتفع من كثيرين من هؤلاء
الاصدقاء خلال معظم السنوات الخمس التي
تلت عودته من أمريكا ، وظل سنة ونصف
السنة لا يعرف مكانه الحقيقي سوى نفر قليل
من أعز اصدقائه واقاربه ، بل ان عددا من
الناس سوغوا لانفسهم الافتراض بأنه قد
مات . والظروف التي احاطت بلقاء القبض
عليه لم سجنه ولا سيماسجنه الانفرادي لعدة
شهور أسهمت كثيرا في قلق هؤلاء الاصدقاء
والاقارب . (٢٤) وبالإضافة الى هذا فإن
تجميع المصاعب الأمريكية المعادية للفاشية
والاكتشاف الجديد لضخامة احوال معسكرات
الاعتقال وحدة الهجوم الصحفي الماركسي على
باوند ، واعداد البريطانيين الذين ممن كانوا
يعملون في اذاعات دول المحور وهما جون أمري
وليم جويس ، قد زاد هذا كله من التوتر
حتى كاد يبلغ درجة الهستيريا . (٢٥) وهناك
ايضا آثار نفسية كبيرة تربت على نقل باوند
من إيطاليا الى واشنطن ، وهي حركة اخذته
من صحبة اصدقائه المخلصين وأسرته وورضته
لحقت رحمة خليط متنافر من المعتقلين

وسلموه لجيش الطفلة لاستجوابه . وكان
باوند قد أصبح رجلا يائسا تمتلئ نفسه
بالكرهية والخوف - رجل مصاب بمرض
الذات يؤمن بصحة آرائه ويحقد على جميع
الحكومات . ولاشك ان عرضه في ذلك القفص
السلكي المشين في مركز الاعتقال في مدينة بيزا
لم يصلح حاله ، اذ سرعان ما ضاعف انهيار
جسده الدرامي من تدهور حالته العقلية
والعاطفية . قد أصبح لما القى به في حجرة في
سجن واشنطن في ١٨ نوفمبر (تشرين ثاني)
عام ١٩٤٥ ، كان قد أصبح رجلا انهكه المرض .

واذا كان باوند قد أصبح مريضا مرضا
عقليا في عام ١٩٤٥ ، وهناك دليل قوي يشير
الى ذلك ، فان هذا لا يستلزم ان يكون
اصدقاؤه واسرته قد أصبوا بمثل هذا
العجز . ان الحديث عن « مأساة » عزرا
باوند لا يعنى مجرد وصف السقوط الانزالى
لفرد . بل ان هذا الحديث هو لتأكيد تأثير
سيرة رجل على حياة الكثيرين ، انه وصف
لتأثير أفكاره وشخصيته بل ومخاوفه غير
المنطقية على من كان يفترض انهم أكثر استعداد
لما لجنيتها . ومنذ عام ١٩٤٥ تحدد مصير
باوند ، ولكن الشرك السياسي الذي تشابكت
فيه حياة الكثيرين امدا طويلا كان يجرى
نسجه . والمأساة هي ان سجن عزرا باوند قد
قاد اصدقاءه الى أن يسلكوا سلوكا ينطوى
على الهجوم والسرية والتاسر ، بل وبطريقة
لا تبدو معقولة ، وهم الذين كانوا في غير هذا
اصحاب أسس المبادئ الاخلاقية والمذهبية ،

(٢٤) ارجع الى رسالة من دوروي باوند الى E. B. Cummings المؤرخة في ٤ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٥ ، والرسالة
محفوظة في مكتبة Beinecke في جامعة ييل وفيها « لقد سمح لي الآن بالاتصال برجلي الطيب ، وسع لي باستلام
رسائل من الخارج ... وهو شاك لاية اخبار يتلقاها بمخفصة شهود من الانقطاع عن العالم الخارجى لقد
سمح لي بزيادة واحدة بعد ان ظلت خمسة شهود لا أرفق كتابه » .

(٢٥) انظر مقالة بعنوان « ايجاب اطلاق الرصاص على عزرا باوند » في مجلة New Masses عدد ٢٥ ديسمبر (كانون
اويل) ١٩٤٥ من صفحة ٦ . ولتناقش هذا ارجع الى مقال المنشور في مجلة American Quarterly مجلد ٢٢
(مارس) (١٩٧٢) من صفحة ١٠١ الى صفحة ١١٢ وعنوان المقال :
What's My Love : Bennet Cerf, Ezra Pound and the American Poet .

الزملاء البريطانيون من أمثال ت. س. اليوت وروناuld دنكان Duncan وويندهام لويس Lewis وجون دراموند Drummond وغيرهم الذين أصبحوا يثقان بهم خلال السنين الثلاثين من زواجهما .

ولا شك كان في أمريكا وليام كارلوس وليامز وي.ي. كمنجز Cummings وجيمس لافن وماريان مور وه.أ. مينكن وأرشيبالد ماكليس ولكن باوند لم يقابل أحدا تقريبا قبل وصول زوجته إلا الاطباء النفسانيين والمستشار القانوني . ولما كان جواز سفر دوروثي باوند قد انتهى في عام ١٩٤١ وكانت الحكومة البريطانية قد احتجزت جميع أموالها بموجب قانون املاك الاجانب ، فقد انفتحت عدة شهور في المفاوضات حتى وصلت الى الولايات المتحدة . وظلت شهورا هي الزائر الوحيد في معظم الاحيان لزوجها ، وزيارتها لم يكن يسمح لها أن تزيد على خمس عشرة دقيقة في اليوم . واخيرا نقل باوند في صام ١٩٤٧ بعد ان انفق خمسمائة يوم من سجن هوارد هول ذى القيود الشديدة الى حبس أقل تقييدا هو شستنت Chestnut Ward وهنا لم يقتصر الامر على زيارة دوروثي التي صارت تستغرق ثلاث ساعات في اليوم وإنما شمل أيضا الاصدقاء . بعض

السياسيين من شعراء ينشدون الشهرة وهم نسيج خصاص ، وموظفين عنصرين وادباء مرضى نفسيا . وقد اعتبرهم اصدقاء باوند من اللندنيين ممن المتطفلين على الادب غير الناضجين وما كان هؤلاء مهتمين حقاً بحل هذا الشرط القانوني وإنما احبوا أن يبقوه في واشنطن ، وكانوا يعرفون انه اذا اطلق سراحه سيعود الى ايطاليا . (٢٦)

ان هذا الشعور بالعزلة والانفراد الذي احس به باوند وامرته واصدقاؤه حاسم في فهم مأساة باوند . ويجب الا ننسى أن عزرا باوند لم يقيم في الولايات المتحدة لمدة تربو على ثلاثين سنة ، وأنه - باستثناء تلك الرحلة القصيرة جدا التي زار فيها بلاده عام ١٩٢٩ - كان غريبا في مسقط رأسه حتى عاد اليها مصفدا في ١٨ نوفمبر . أما دوروثي باوند التي استبدلت جنسيتها البريطانية بالجنسية الأمريكية عندما تزوجت بعزرا باوند عام ١٩١٤ فانها لم تر البلاد التي بنتها حتى وصلت اليها في صيف عام ١٩٤٦ لتوأسى زوجها المسجون (٢٧) . اما ولداهما ماري وعمر قائمهما - بالرغم من جنسيتهم الأمريكية - لم يزورا وطنهما أبدا . وقد خلف باوند وزوجته وراهما جميع تلك الصداقات الاوربية الثينة التي انشأها خلال عشرين سنة من الإقامة في ايطاليا بما في ذلك أولئك

(٢٦) انظر رسالة روناuld دنكان الى جون دراموند المؤرخة في ٢ مايو (٢١ يار) ١٩٤٨ والمحوطة في مركز الابحاث الانسانية في جامعة تكساس .

(٢٧) جاء في رسالة آرثر ف. مور الى روناuld دنكان المؤرخة في ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٤٦ والمحوطة في مركز الابحاث الانسانية في جامعة تكساس أن دوروثي تنوي الابحار في ٢٥ فبراير (شباط) . ولكن باوند يذكر اسم السفينة في رسالة الى Eileen Lane Kenney مؤرخة في ٣ يوليو (تموز) ١٩٤٦ ومحوطة في مكتبة Beinecke في جامعة ييل فيليل « لقد قيل ان د. ابجرت ... » وجاء في كتاب The Life of Ezra Pound بقلم Noel Stock (نيويورك : Pantheon عام ١٩٧٠) صفحة ٤٢٠ ان جواز سفر دوروثي قد تم تجديده أخيرا في يونيو (حزيران) ١٩٤٦ وانها كانت قد زارت زوجها مرتين حتى ١٤ يوليو (تموز) . وجاء في كتاب The Trial of Ezra Pound بقلم Julian Cornell (نيويورك : John Day عام ١٩٦٦) صفحة ٥٠ ان دوروثي ابجرت في شهر يونيو (حزيران) .

هؤلاء من أمثال هـ. ١. منكى (٢٩) Menken جاءوه فوراً ، وآخرون من أمثال ارشيبالد ماكليس انتظروا عشر سنوات حتى زاروه ، (٣٠) ونفر قليل منهم من أمثال إيرنست همنجوي وروبرت فروست لم يزوروه أبداً. على أن معظم أصدقائه الحميمين كانوا في أوروبا ، وكان عليه مع ذلك أن يكتسب صحة متفطلين على الأدب ظهوراً في الخمسينات .

في عام ١٩٤٥ كان الخوف الرئيسي - وإن كان خوفاً غير منطقي - الذي شعر به أصدقاء باوند هو أنه قد يحاكم بتهمة الخيانة العظمى ، وأن يدان وأن ينفذ فيه حكم الإعدام ، وقد أثارت الندوة التي عقدتها مجلة « الجماهير الجديدة » New Masses « عشية عيد الميلاد الاضطراب في نفوس هؤلاء عندما أوصت هذه الندوة بإطلاق الرصاص عليه بتهمة الخيانة . ولكن كانت هناك سوابق الحرب العالمية الأولى والتي أكدتها المعاملة الكريمة التي تلقاها بعض المتعاونين مع دول المحور واليابان ، وقالوا أن أقصى عقوبة يمكن أن توقع عليه هي السجن ، ولكن خوف هؤلاء الأصدقاء ظل موجوداً . على أن تشخيص الجنون الذي اتفق عليه أربعة أطباء نفسانيين أراحهم بعض الشيء .

وفي ذلك الحين لم يتحرك أحد من أصدقائه ليناقش حكمة الاستراتيجية القانونية في إعلان جنون باوند عند محاكمته بدلاً من بحث الجريمة المزعومة ، ربما لأنهم اعتقدوا أن هذه ليست سوى أولى مناورات قانونية عديدة ستؤدي في النهاية إلى إطلاق سراح باوند دون محاكمة . ولا شك أن جوليان كورنل ، محامي باوند ، اقنع القريين إلى الشاعر بأن الانهزام سيسقط ، وأن الرجل المجبور سيعتبر شخصاً لا يؤذي ومن ثم يطلق سراحه . (٣٠) ثم يأتي الأطباء النفسيون الأربعة - كما كان الظن - ويعلنوا بوضوح أكثر أنه لم يكن في كامل قواه العقلية في زمن أحداثه الأدمية ، وبهذا يبرئونه لدى الجمهور الأمريكي (٣١) . وكانت هناك بعض المخاوف من أن باوند قد يتصدى لدموى الجنون ويحاربها حتى ولو كان مقتنماً بعدم جدوى محاولة جعل المحلفين « الاغبياء » يفهمون حول ماذا كانت تدور حياته وعمله . (٣٢) أن التأثيرات الوهنة لثمانية شهور من السجن كانت باهظة ، فقد وضع باوند - من غير شك - مستقبله في أيدي أولئك الذين أجبر على ائتمانهم . كان إذا تحدث في مسائل الأدب أو الاقتصاد تحدث حديثاً منطقياً ، ولكنه كان ينهار تماماً - كما روى أصدقاؤه - عندما يسأل من معضله . (٣٣) وكانت الخطة حينئذ هي الانتظار بينما وأصل جوليان كورنل حت

(٢٨) جاء في رسالة من باوند إلى D.D. Paige مؤرخة في ٢٠ مايو (١٩٤٧) ومعلولة في مكتبة Beinecke بجامعة ييل ما يلي : « كتب ميتكن Mencken في العام الذي سبق العام الماضي عند وصولي وجاء ومعه خمسة اطفال من العلوي وكيفية من الكتب » .

(٢٩) كما جاء في المراسلات العلولة في مركز الأبحاث الانسانية في جامعة تكساس .

(٣٠) انظر رسالة James Laughlin إلى ت.س. ، اليوم المؤرخة في ٢٢ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٥ المحفولة في مركز الأبحاث الانسانية في جامعة تكساس .

(٣١) ارجع إلى الرسالة السابقة (حاشية ٢٠) .

(٣٢) ارجع إلى الرسالة السابقة (حاشية ٣٠) .

(٣٣) ارجع إلى رسالة آرثر ف. ميرر المؤرخة في ١٩ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٥ المحفولة في مركز الأبحاث الانسانية في جامعة تكساس .

وعلى مدى السنين ظلت الأسئلة تثار حول دقة تشخيص الطب النفسى بحالة جنون العظيمة فى شخصية سايكوباتيه (مضطربة عقليا) ، وكان الظن الشائع بأن هذا تخلص قانونى من جانب محامى الحكومة ومحامى الدفاع على السواء . ولكن أحد أصدقاء باوند المقربين أسر الى ت . م . من اليوت أثناء هذه المحنة بأنه يخشى من أن يكون التقرير الطبى دقيقاً تماماً . وقد قال هذا الصديق أن باوند لا يدري لماذا يكرهه اليهود وهو الذى كان يفكر فى خطة لبعت مبيد لهم القديم فى القدس . وكان يعر على أن الحرب ما كانت لتنع لو أن قادة العالم قرأوا ترجمته لكونفوشيوس وفهموها وعملوا بموجبها . وقد رأى الأطباء النفسانيون فى هذا الاعتقاد الأخير عرضاً من أعراض أوهام العظيمة . وكانت هناك علامات على وسواس المرض فى شكواه المستمرة من أنه متهك بالرغم من أن الفحوص الجسدية كانت تشهد بسلامته الصحية وقوته الجسدية النسبة لرجل فى مثل عمره . أما عدم قدرته على متابعة أكثر من بضع جمل فى أى موضوع ، فكان هذا علامة على تشتت ذهنه وفى احاديثه كان يتحدث عن أشياء فى الماضى لم تحدث أبداً . وكل هذه اعتبرها الأطباء النفسانيون أمراضاً كلاسيكية لحالة جنون العظيمة ، وقد وافق صديقه على حكمهم هذا على مضض . (٣٥)

وفى الحقيقة أن المحاولات المنظمة لاطلاق سراح باوند يمكن أرجاعها الى المناقشات التى جرت قبل اللقاء القبض عليه - ربما كانت بدايتها فى ٣ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٥ عندما كشف ت . م . اليوت لمحامى أسرة باوند وهو ! ف . م . مور أن عمر بن باوند

الأطباء النفسانيين لإصدار شهادة خطيئة منسوبة بالقسم تؤكد أنهم يعتقدون بأن حالة باوند لن تتحسن ، وعندئذ يتحرك المحامى لاسقاط التهمة على أساس قانون تحديد التقاضى (قانون التقادم المسقط) واستنادا الى أن المقاضاة لم تثبت الجريمة . (٣٤)

ولعل محامياً أكبر خبرة من كورنل فى هذه الأمور كان يستطيع أن يتوقع فى عام ١٩٤٥ أن هذا سيؤدى الى سجن باوند فى سبانت اليزابيث نحو ثلاث عشرة سنة - أى أطول من المدة التى حكم بها على مجرمى الحرب الألمان الذين أدبوا فى محكمة نوريمبرج والتى قضوها فى السجون الأوروبية - ولكن الشعراء والناشرين وأفراد الأسرة المضطربين ما كان لينتظر منهم أن يمتلكوا مثل هذه الاحاطة القانونية . ولو أنه ذكر أن باوند كان مجنوناً وقت الجريمة لعلج فى مستشفى سانت اليزابيث حتى يعلن شفاؤه وعندئذ يخلى سبيله ولن يكون هناك داع لمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى . ولقد كانت النتيجة المؤسفة لامراض كورنل على تقديم باوند للمحاكمة هى أنه أبقى التهديد بالمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى معلقاً فوق رأس باوند طيلة الثلاث عشرة سنة من سجنه وقد أدى هذا بدوره الى تردد شنيع من جانب جوليان كورنل ودوروثى باوند بل وعزرا باوند كما أثار هذا كثيراً من الاضطراب والقلق وعدم الاطمئنان عند أصدقائه خارج أمريكا . واشنع من هذا فقد أدى الى مثير حرج بالنسبة لوزارة العدل الأمريكية التى لم ترغب فى تقديمه للمحاكمة فى عام ١٩٥٨ وثلاثة الأتاق كانت الحظ النهائي من قدره عندما عينت زوجته قجما عليه حتى مات .

(٢٢) انظر الى رسالة James Laughlin الى ت.م. اليوت المؤرخة فى ١٥ فبراير (شباط) ١٩٤٦ فى مركز الأبحاث الانسانية فى جامعة تكساس .

(٢٥) أرجع الى الرسالة السابقة (حاشية ٢٤) .

اناس خائوا بلادهم خيانة تامة . وقد نشر كاوى هذه الرسالة لا ليخرج باوند ولكن لانه يعارض مثل هذه الاحكام الضمنية حول باوند بشكل خاص والشعراء بشكل عام . كتب كاوى يقول : ان باوند رجل وليس طفلا ، وسواء اكان شاعرا أم لم يكن فانه يجب ان يعتبر مسئولا عن افعاله كأي رجل آخر ، والعفو عنه سيكون اهانة لجميع الفنانين الاخرين . وقال كاوى : « اننى اود ان ارى باوند وجميع الشعراء الاخرين يحافظون على كرامتهم الانسانية . واذا كانت المحافظة عليها تستلزم عقابهم فليعاقبوا على الا يتجاوز هذا العقاب في شدته ما تستحقه افعالهم » (٣٧) وكان رد فصل الشاعر رولف هامفريز Rolphe Humphries متصلا نسبيا حين تسأل : « اذا سلمنا بالقدمة المنطقية من ان باوند لما كان خائنا وشاعرا مجيدا فانه يجب ان يصفح من خطيئته الاولى بسبب فضيلته الثانية فما هو الاستنتاج الذى سنصل اليه بالنسبة للشعراء الرديئين والوطنيين العدوانيين ؟ يجب اطلاق النار عليهم ام اعدامهم ؟ وفي ذهني بعض الافراد ممن لا اذكرهم الان الذين يشعرون بشيء من القلق الى ان بيت في هذا الامر » (٣٨) وعلى العموم كان الشعراء والنقاد الذين لا تربطهم ببائون علاقة مودة يشاركون كاوى في موقفه من ان باوند يستحق العقاب ولكنه لا يستحق الاعدام او السجن لمدة طويلة جدا . وكان هنالك بالطبع من شد من ذلك مثل لويس انترميير Louis Untermeyer الذى اقترح ان يسجن باوند في زنزانة تحيط به الكتب ، وكل هذه

قد استعار نسخة من كتاب « جيفرسون و / او موسولينى » لى يرى اذا ما كان في هذا الكتاب شيء يمكن ان ينتفع به أبوه . (٣٦) وبالرغم من أن محكمة فيدرالية كانت قد اتهمت باوند بالخيانة العظمى في يوليو (تموز) ١٩٤٣ . الا أن مور لم يكن قد رأى لائحة الاتهام هذه بعد ، ولم يكن قد اطلع على نصوص احاديث باوند التى اذاهاها من ايطاليا وهكذا لم يكن يدري ماذا يفعل بل ولم يكن يدري أى سلطة مستولى محاكمته . على انه كان يعتقد كما كان يعتقد اليوت ان على اصدقاء باوند ان يكونوا مستعدين لمساعدته . وهنا كان اليوت القوة الخفية وراء محاولة دامت ثلاثة عشر سنة لاطلاق سراح باوند . (كان اليوت يعمل في لندن من وراء الستار ، ولم يعرف الناس دوره في الحملة حتى ظهر ذلك واضحا بعد ذلك الجدل الشديد غير المتوقع الذى جرى عام ١٩٤٩ حول منح جائزة بولنجن Bollingen

ولا شك أن اصدقاء آخرين غير اليوت ومور كانوا مهتمين بأمر باوند قبللقاء القبض عليه ، فقد كان بعض الامريكيين يخشون عليه من الحكومة الفيدرالية ولذلك كتبوا لوزير العدل الامريكي بيدل Biddle طالبين العفو من باوند نظرا لمكانته العالية كشاعر . ومن هذه الرسائل رسالة تلقاها المحرر الادبي لمجلة « الجمهورية الجديدة » New Republic في ذلك الحين وهو مالكولم كاوى Malcolm Cowley يؤكد كتابها ارتباط باوند (الذى يقترب شعره الخالد من الجنون) باسماء

(٣٦) ارجع الى رسالة ت.م.س اليوت الوجيه الى ا.ر.ف. مور المؤرخة في ٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٥ المعروفة في مركز الابحاث الانسانية في جامعة تكساس . وقد رد مور عليها في ٦ يناير (كانون الثاني) .

(٣٧) انظر مقال « الكتب والناس » بقلم مالكولم كاوى في مجلة New Republic مجلد ١٠٩ (١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٢ من صفحة ٦٨٩ الى صفحة ٦٩٠ .

(٣٨) انظر مقال « شعراء » هوبن وولنتيون « بقلم رولف هامفريز في مجلة New Republic مجلد ١٠٩ (٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٣ صفحة ٧٤٨ .

ليعود للعيش في داره مع أسرته (٤٢). وحتى أن ت.س. الیوت كتب لدوروي يقتصرح عليها الشروط التي يجب أن تراعيها في البحث عن مستشفى خاص مناسب لزوجها (٤٣). وكم كانت مفاجئهم عندما رفضت الكفالة وأعيد باوند ثانية إلى مستشفى سانت الیزابيث ليقى فيه حتى يقرر الإطباء النفسانيون بأنه أصبح أهلاً للمحاكمة .

وبعد أن انتهت صدمة هذا القرار المفاجيء عاد اصدقاء باوند إلى التشاور فيما بينهم عن طريق الرسائل واتفقوا على تعليق نشاطهم حتى تنتهى انتخابات الكونجرس لعام ١٩٤٦ وذلك لحماية هذا الشاعر المثير للجدل من أن يصبح قضية انتخابية (٤٤). فلما انتهت هذه الانتخابات أهد كورنل التماساً لخراج باوند من مستشفى سانت الیزابيث بدعوى أنه غير خطر ، حتى وإن كان مصاباً بالجنون النفسى ، ولأنه حبسه وقتاً أطول في مؤسسة فيدرالية سيكون مضراً بصحته . وعندما سمع نائب وزير العدل الأمريكى ثيرون كودل Theron Cadle بهذه الخطأ من أحد الصحفيين أكد بأنه إذا نجحت هذه المناورة

الكتب نسخ من مؤلفات ادجار ا. جست Edgar A. Guest (٣٩) ومثل أحد أماندة الدراسات الكلاسيكية الذى أوصى توصية قاسية فقال أن باوند يجب أن يعدم لا بجريمة الخيانة وإنما بجريمة الأخطاء التي وردت في ترجماته . (٤٠) . وبالرغم من هذه الاحكام القاسية المتفرقة كان الناس عموماً يتركون جدية محنة باوند حتى أولئك الذين كانوا يرفضون دعوى الجنون كمناورة قانونية ، تلك الدعوى التي تبرم بها الشعراء والنقاد كثيراً .

وبالرغم من أن المدافعين عن باوند فرحوا بحكم الأطباء النفسانيين عليه ، إلا أنهم خشوا من أن اصدقاءه المقربين قد يجدون أنه حكم قاس من الصعب القبول به . (٤١) وهذا هو ما كان يشغل بال جوليان كورنل حين كتب لدوروي باوند حول اقتراب جلسة المحكمة لتقرير ما إذا كانت حالة زوجها من الجنون النفسى تجعله أهلاً للمحاكمة . كان كورنل واثقاً من النتيجة ، ولذا فقد تنبأ بأن الموضوع سينتهى خلال شهور معدودة وسيطلق سراح زوجته . وكانت خطة كورنل هي الإفراج عن باوند بالكفالة بهدوء ثم نقله سرا إلى مصح خاص ثم إخراجه من المصح

(٣٩) راجع رسالة Louis Untermeyer الى شارلوتورمان المؤرخة في ٨ أكتوبر (تشرين اول) ١٩٤٥ في مكتبة Van Pelt في جامعة بوسلفانيا والتي نشرت في مقالة شارلوتورمان التي عنوانها « عزرا باوند » المنشورة في مجلة PM عدد ٢٥ نوفمبر (تشرين ثاى) ١٩٤٥ صفحة ١٧ ، ولكنه لم ينشرها في كتابه المسمى The Case of Ezra Pound الصادر في ١٩٤٨ .

(٤٠) راجع مقال Ezra Pound and Sextuc Propertius بقلم Clarence A. Forbes المنشور في مجلة Classical Journal مجلد ٤٢ (ديسمبر) كانون اول (١٩٤٦) من صفحة ١٧٧ إلى صفحة ١٧٩ .

(٤١) راجع رسالة جيمس لافان الى ت.س. الیوت المؤرخة في ٢٢ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ المحفوظة في مركز الأبحاث الإنسانية في جامعة تكساس .

(٤٢) راجع كتاب The Trial of Ezra Pound بقلم كورنل

(٤٣) راجع رسالة ت.س. الیوت الى دوروي باوند المؤرخة في ١٢ نوفمبر (تشرين ثاى) ١٩٤٦ الموجودة في مركز الأبحاث الإنسانية في جامعة تكساس .

(٤٤) راجع الرسالة السابعة (حاشية ٤٣) .

الزعموة . وهنا فكروا في إنداء الفاشية من الأدباء وهو أيرنست همنجوى وهل يمكن أن يملن همنجوى رايه الذى يعترف به في السر وهو انه لا يستطيع ادانة الافعال التى لا يعتبر الشاعر مسئولاً عنها عقلياً (٤٩) . وبالرغم من أن همنجوى قد قال هذا في رسالة بعث بها الى شارلز نورمان Charles Norman الا انه لم يسمح بنشر الرسالة ولم يسمح باقتباس قوله حول « جريمة » باوند سنوات عدة . وهناك جانب آخر في هذه الخطبة غير القضائية ، وهو التأثير على النقاد المشهورين في البلاد وخارجها للاشادة بشعر باوند ولاقناع المجلات الأدبية الجيدة لاستكتاب النقاد للحديث عن شعره بل وتخصيص بعض اعدادها للتحدث عن مؤلفاته .

على أن المشكلة الرئيسية التى واجهت المخططين هي أن الاهتمام النقدي بشعر عزرا باوند قد انحدر كثيراً في الثلاثينات - الى درجة أنه لما نشر في عام ١٩٤٠ مقطوعات جديدة من أناشيده Cantos لم تثر هذه القطوعات الا مقالات نقدية ضعيفة ومتفرقة ، بل أن الشاعر رأى أن من الضروري أن يضم للديوان الجديد مقالين من شعر باوند بعد أن بيع

فانه سيبدأ فوراً اتخاذ الاجراءات لتقديم الشاعر للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى (٤٥) . وكان الصحفي الذى نقل هذا الخبر لكودل هو ألبرت دوتشسى Albert Deutsch وهو نفس الصحفي الذى اعد نشر التقارير الخاصة بالهام باوند بالجنون في عام ١٩٤٦ ، تلك التقارير التى انتشرت انتشاراً واسماً والتي شجبتها بمرارة جوليان كورنل ، لانه رأى في مثل هذا النشر غير المرفوب فيه سبباً يمنع الحكومة من اسقاط التهم عن موكله بملءه (٤٦) . ولم يتح لكودل تنفيذ تهديده لان الفاضلية بوليشا ، ج ، لوز Bolitha J. Laws رفضت طلب الكفالة . وهنا أراد كورنل أن يستأنف - الى المحكمة العليا اذا تطلب الأمر - ولكن دورولى باوند طلبت منه في ١٢ مارس (آذار) ١٩٤٨ أن يترك كل هذه الخطط (٤٧) . وقد أنهى هذا التحرك القضائى في جميع النقاط الأساسية نحو عشر سنوات . فقد كانت الأسرة مصممة على ريادة طريق آخر (٤٨) .

كان الطريق الذى اختاره اصداقاء الشاعر الصميمين والناصحون هو القيام بحملة لاحياء الادبية التى اخلت تندامى وذلك للمعويض من تأثير المعاملة التى اعطيت لخيانته

(٤٥) راجع مقال ألبرت دوتش وعنوانه « عزرا باوند الشاعر الرسد يسمى للطلاب من مستشفى الامراض العقلية الفيدرالى » ، المنشور في مجلة P.M. عدد ٢٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٧ في الصفحتين ١ و ٢٢ .

(٤٦) راجع مقال ألبرت دوتش « ادائه باوند بالجنون ينجيه من المحاكمة » المنشور في مجلة P.M. عدد ١٤ فبراير (شباط) عام ١٩٤٦ صفحة ٧ .

(٤٧) انظر رسالة دورولى باوند الى جوليان كورنل المؤرخة في ١٢ مارس (آذار) عام ١٩٤٨ المنشورة في كتاب The Trial of Ezra Pound صفحة ٦٧ .

(٤٨) على أن هذا لا يعنى أن اصداقاء باوند من الانجليز تغفلوا عن الاجرامات القضائية ، فقد استمروا في السلف

(٤٩) راجع رسالة جيمس لافن الموجة الى ت.س. اليوت المؤرخة في ٢٢ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ ، المحفوظة في مركز الابحاث الإنسانية في جامعة تكساس . على أن همنجوى قد لفت الانتظار في ديسمبر (كانون اول) عام ١٩٥٤ عندما منع جائزة نوبل في الاداب عنهما قال « انها سنة طيبة لاطلاق سراح شعراء » . ارجع الى مقال « قصاص امريكى » في مجلة Time عدد ١٣ ديسمبر (كانون اول) ١٩٥٤ صفحة ٧٢

وخصصت (مجلة بيل للشعر)
Yale Poetry Review قسمًا فيها في عام ١٩٤٧
للحديث من باوند - وهي من المجلات الادبية
الجيدة التي كان يشير اليها اليوت وغيره (٥٣)
واستمر هذا البعث في ذلك العدد الخاص
الذي أصدرته مجلة الادب الفصلية Quarterly
Review or Literature (٥٤) - ومن
الطبيعي ان هذا الاهتمام كان بشكل جزئي
نتيجة للشهرة التي اعطيت لنشاطه ابان فترة
الحرب ولكنها عكست الى درجة تفوق التوقع
تأثير الجهود التي بذلت لتحسين صورة

نصف النسخ المطبوعة . (٥٠) وكان الاهتمام
العام الرئيسي في الفترة الواقعة ما بين ١٩٤٠
و ١٩٤٧ منصبًا على سياسة باوند لا على
شعره ، ففي ست سنوات ونصف السنة -
من ١٩٤٠ وحتى سبتمبر (ايلول) ١٩٤٦ -
لم تنشر سوى مقالة رئيسة واحدة لا تتناول
الجانب السياسي في إنتاجه . وكانت هذه
المقالة هجومًا شديدًا على شعره . (٥١) ثم
اخذ الاهتمام بباوند ينبعث من جديد من
النقاد والمحرضين على السواء وكانت بداية
هذا البعث مقالة مشهورة نشرها اليوت في
عام ١٩٤٦ في مجلة (شعر) Poetry (٥٢) ،

(٥٠) راجع اناشيد Cantos باوند من النشيد رقم ٥٢ الى النشيد رقم ٧١ (نورفولك : New Directions
عام ١٩٤٠) . ولـى الواقع تم طبع الف نسخة من هذه الاناشيد ولكن النسخة الاولى هي التي تعتري على كراسة
مناوئها « ملاحظات على اناشيد عزرا باوند : البناء والولن » وهي مؤلفة من مقالين الاول بعنوان « ملاحظات على الاناشيد »
بقلم جيمس لافان ويتوبيع H.H. والثاني بعنوان « ملاحظات على نظم الاناشيد » بقلم ديلور شقارت ويتوبيع S. D.
انظر الببليوغرافيا التي اعدها Donald Gallup بعنوان A Bibliography of Ezra Pound (لندن عام ١٩٦٢)
في المصنفين ٩٠ و ٩١ .

(٥١) راجع مقال Hvatt H. Waggoner وعنوانه « أسطورة عزرا باوند » المنشورة في مجلة University of
Kansas City Review مجلد ١٠ (صيف عام ١٩٤٤) من صفحة ٢٧٥ الى صفحة ٢٨٥ . وانظر ايضًا مقالًا بعنوان
« يوم مع عزرا باوند » بقلم Elizebeth Delehanty في مجلة New Yorker عدد ١٢ ابريل (نيسان) ١٩٤٠
المصنفين ٧٦ و ٧٧ ، ومقالًا بعنوان « وستون » في New Yorker عدد ١١ أغسطس (آب ١٩٤٢) المصنفين ١٦ و ١٧
ومقال Ezra Pound of Wyncote بقلم دوغلاس ماكفرصودي في مجلة Arts in Philadelphia (مايو ايار ١٩٤٠) من
صفحة ١٠ الى صفحة ٢٨ ، والمقال قطعة تاريخية كتبها صديق من اصطفاه باوند .

(٥٢) راجع مقال « عزرا باوند » بقلم ب.س. اليوت في مجلة Poetry العدد ٤٨ (سبتمبر ايلول ١٩٤٦) من صفحة
٢٢٦ الى صفحة ٢٣٨ . ويحتوي هذا العدد على مقال بقلم جورج ديون بعنوان A Note on the Obvious ومقال
بقلم R. P. Blackmur بعنوان « A Note on E.P. »
من صفحة ٢٢٨ الى صفحة ٢٤٦ ومقال بقلم V. Healy بعنوان « تبديل Addendum » من صفحة ٢٢٧ الى صفحة
٢٢٩ .

(٥٣) تحرير Rolfe Fjeldie العدد رقم ٦ وفيه النشيد رقم ٨٣ ومقالين الاول بقلم H. H. Watts وعنوان
PoundCantos Means to an End من صفحة ٩ الى صفحة ٢٠ ، والثاني بقلم Laurence Richardson وعنوانه
Ezra Pound Homage to Propertius من صفحة ٢١ الى صفحة ٢٩ .

(٥٤) حذر مع ملاحظة من الحذر D. D. Faige المجلد الخامس نوفمبر (تشرين ثاني) من مجلة Quarterly
Review of Literature (حقوق الطبع عام ١٩٤٩) وفيه ثلاث قصائد لباوند بالإضافة الى Ezra:
The Portrait of a Personality بقلم ويندهام لويس I. Erektion و E. P. Pour بقلم جون سينيور Ezra Pound
بقلم ماريان مور ، و The Devices of Pounds Cantos بقلم كهارولك واطي و Pounds New Cantos بقلم
ريتشارد ابرهارد و Pounds and Contemporary Criticism بقلم دي ب . وست .

الشاعر ، وهي حركة ازدادت قوة عندما ايقنت أسرة باوند انهوان كان التهديد الفوري باعدامه قد تم تجاوزه الا انه ما زال يواجه مستقبلا قائما وهو السجن مدى الحياة ، في مستشفى سانت اليزابيث ما لم يفعل شيء للتأثير على اصحاب النفوذ لاطلاق سراحه .

ولا جدال في ان مؤلفات باوند جذيرة جدا بالتقويم النقدي الجديد ، ولا مراء في ان نصيبه من الشهرة السيئة كان كبيرا . والتهمة القائلة بان الحكومة عاملته برفق لكانته الادبية تعادلها تلك المعاملة الخسنة التي عاملته بها الصحافة لمركزه كشاعر مشهور ايضا . ولم يلتفت الناس الا قليلا لأولئك السبعة الآخرين من الاذاعيين الذين ادينوا بالخيانة مع باوند عام ١٩٤٣ ، (٥٥) فقد ظل ما لحقهم من اهانات سرا . اما باوند فكانت محاكمته اشبه بمحاكمة في ساحة عامة ، وفي هذه الساحة نفسا حاول المدافعون عنه تبرئته .

واذا كان جزء كبير من هذا النقد الاطرائي قد نشر يوحى من الحاجة لجعل صورة باوند كشاعر مشرقة ، فان كثيرا من هذا النقد موضوعي . فمقالة اليوت التي نشرها عام ١٩٤٦ قطعة ادبية رائعة : انها دراسة غنية مبينة ، ولا يمكن ايضا افغال ما جاء في مجلة ييل للشعر ، ولا يمكن تجاهل دوافع د. د. بيج D. D. Paige لاصدار عدد خاص من مجلة (الادب) الفصلية من باوند (وفي هذا العدد سيرة باوند الذاتية ومقال بيج وآخر لوندهام لويس Wyndham Lewis وآخر لماريان مور) وهي دوافع ان امكن الشك فيها

فانه لا يمكن الشك في قيمة ما احتوى العدد من مقالات . ومن ناحية اخرى نجد ان قليلا من المادة التي ظهرت في المجلات المتخصصة والتي تناولت نظريات باوند بأقلام اولئك المرمدين الشباب الذين احاطوا به في مستشفى سانت اليزابيث تستحق اليوم اهتمام القارئ والمجاد للادب . ومثل هذا يقال عن كتابات كثير من النقاد والباحثين الشباب الذين جذبهم الى واشنطن دورولي باوند وابنها عمر ، ولا شك ان دراسة يوستاس مولن Eustacea Miullin لباوند مليئة بالتلفيق والغمز والتعصب الاعمى ، انها شاهد على سخف السيرة حينما تملى كتابتها على مؤلفها دوافع سياسية (٥٦) وهناك ايضا جون كاسبر John Kasper المنصري المضلل الذي ينسب الى مدينة نيويورك والذي قضى عامين في أحد السجون الفيدرالية لتدخله في دمج مدارس ولاية تينيسي (٥٧) . على انه ليس كل من تناول حياة باوند ومؤلفاته يشبه مولن وكاسبر فمعظمهم كانوا جادين في جعل دراسة حياة الشاعر ومؤلفاته شغلهم الرئيسي وتدریس فلسفته واجههم الاكبر . ولكن القليلين من هؤلاء استطاعوا ان يفصلوا اهتمامهم بمصير الرجل عن تقديرهم لقيمتة مؤلفاته .

ومن الطرف ان الشاب د . دبج الذي كان قد تخرج من جامعة بنسلفانيا واشتغل بتدريس اللغة الانجليزية في كلية ويلزلي كان قد عرف لأول مرة بمنحة باوند من ثيوودور سبنسر Theodore Spencer في حفلة استقبال تلت محاضرة القاهات . من .

(٥٥) إدوارد دبليو ، وكستنس دريفيل ، وجين اندرسون ، وماكس كولشفس ، وروبرت بيست ، ودوجلاس شاندرس ، وفريدريك كانتناتش .

(٥٦) راجع كتاب Ezra Pound The Difficult Individual بقلم يوستاس (نيويورك : Fleet عام ١٩٦١) .

(٥٧) راجع مقال Intruder in the South بقلم آرثر جوردون - مجلة Look ١٩ فبراير (شباط) ١٩٥٧ من صفحة ١٧ الى صفحة ٢١ .

الحبر هنري سوابي Henry Swabey (٦٠)، ولا نصوص رسائل مثل رسائله الى وليام كارلوس وليامز التي يشبه فيها احوال الحرب الاهلية الاسبانية بالتصرف (البزل) الضروري لمياه المستنقع . (٦١) وإذا نظرنا الان الى طبعة **بيج لرسائل عزرا باوند** نجد انها محببة جدا للامال ، لا بسبب ماحذفه محرر هذه الرسائل لاسباب سياسية رآها فحسب وانما لان جيلا من الدارسين للادب توهوا ان عمل بيج عمل اكاديمي سليم وان الكتاب محاولة مخطصة لتقديم مجموعة تمثيلية من رسائل باوند . ولا شك ان هذه المجموعة تمثل باوند الاديب افضل تمثيل ، وكما قال مارك فان دورن Mark Van Doven في تمهيدته للكتاب انها مجموعة جذيرة بالنشر حتى ولو كان ذلك من أجل المراسلات التي جرت بين اليوت وباوند حول قصيدة « الأرض الخراب » . ولكن الكتاب اذا نظرنا اليه من زاوية العكس الدقيق لفكر باوند الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

اليوت . وكان بيج اول من قام بالسفر اللازم الى واشنطن لانتساب نقعة جامعة باوند ، ثم تطوع بالقيام بأكثر مشروع قام به احد من هؤلاء وهو اصدار طبعة تضم رسائل باوند ليظهر للناس جميعا ضخامة اسهام باوند في الادب وفي الاهتمام لجيل كامل جديد من الدارسين وقد نسخ بيج على الالة الكتابة رسائل باوند لا ليؤكد انه اهمل نشر النصوص الكاملة للاصول - كما اعترف بذلك في مقدمة الكتاب - وانما ليثبت أيضا ان المادة التي حذفت بشكل روتيني هي عبارة عن آراء من المرجح انها ستغفر منه الجمهور الحساس ازاء مواقف باوند السياسية والاجتماعية المكروهة شعبيا . (٥٨) وهكذا لم يورد التعليقات المعادية لليهود في رسالة باوند الى همنجوي حول العمل المصري ، ولم يورد تلك الاستهزاءات المعادية للسامية المألوفة في رسائل باوند الى لويس زوكوفسكي Louis Zukofsky (٥٩) ولم ينشر التعليقات المعادية للدين في رد باوند على

(٥٨) راجع كتاب The Letters of Ezra Pound 1907-1941 تحرير (نيويورك D.D. Paige Harcourt, Brace) ١٩٥٠. ان ناقدا واحدا على الاقل اعتبر هذا خطأ في مثال بعنوان « درس من السيد باوند » في ملحق التاييز الادبي TLS عدد ٢١ سبتمبر (ايلول) ١٩٥١ صفحة ٥٩٥ ، وقال هذا الناقد ان ادخال مثل هذه الرسائل كان يمكن ان يساعد السيد باوند ومؤيديه الكثيرين لانيات برأته »

(٥٩) وردا على مثل هذه الرسالة كتب زوكوفسكي في عام ١٩٣٨ لباوند يقول : « لم تكن هناك ضحية في هذه الاجزاء ولم يقتل آلاف الابرياء الامريكان نتيجة لجراسم السادات دويونت وروكفيلر ومودجان وفهم . ومن ناحية اذا استمر كلنا بتأييد منك في ذكر اسماء كوهن وروتشيلد وغيرها التي ننس الامريكان الابرياء فان المرء يستطيع ان يتنبأ بمجزرة في مدينة نيويورك خلال سنة او اقل يقتل فيها آلاف اليهود الابرياء . انظر رسالة لويس زوكوفسكي لعزرا باوند المؤرخة في ١٤ ديسمبر (كانون اول) ١٩٣٨ في مركز الابحاث الانسانيات جامعة تكساس . »

(٦٠) انظر - على سبيل المثال - رسالة عزرا باوند الى هنري سوابي المؤرخة في ٢٨ فبراير (شباط) ١٩٤٠ .

(٦١) لم يضم Paige مجموعة الرسائل التي نشرها باوند رسائل من باوند الى وليامز مكتوبة بعد عام ١٩٣١ . وليس في المخطوطات المكتوبة على الالة الكتابة التي تركها بيج في جامعة ييل اية رسائل الى وليامز في الفترة الواقعة ما بين ١٩٤٠ و ١٩٤٧ .

(٦٢) راجع ديوان The Pisan Cantos الناشيد بينا لعزرا باوند (نيويورك : New Directions عام ١٩٤٨) . وقد نشر هذا الديوان في ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٤٨ وطبعته ١٥٢٥ نسخة ثم تم اصداره من جديد في يونيو (حزيران) ١٩٤٩ وطبعته منه ١٠٢٣ نسخة . وقامت في ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٤٩ دار النشر الانجليزية فاير و فاير & Faber Faber طبعت منه ١٩٧٦ نسخة. انظر البليوجرافيا التي ادمها دونالد جالوب بعنوان A Bibliography of Ezra Pound لندن : Hart-Davis عام ١٩٦٣ في الصفحتين ١٠٣ و ١٠٤ .

المجادلة كونراد ايكن Conrad Aiken والآن تيت
Allen Tate وأودن W.H. Auden
وروبرت لويل Robert Lowell
وثيودور سبنسر وآرشيبالد ماكليش ووليم
كارلوس وليامز . ويبدو أن هؤلاء قد قللوا من
شان رد الفعل الجماهيري الممكن ، إذ بدلا من
أن يخلق منح الجائزة لباوند تعاطفا معه ويسهم
في الحملة المنظمة لإطلاق سراحه ، حرك أطول
وأعنف جدل حول باوند منذ اللقاء القبيض عليه
في عام ١٩٥٤ : مما جعل من باوند شخصية
مثيرة للجدل وأبرز نقدا سلبيا لشعره حتى
اقتضى نيل باوند لحيته مرور عشر سنوات
أخرى .

وسواء أكان باوند مقترفا للخيانة أم لا ،
فإن ثلاث عشرة سنة في مستشفى سانت
اليرايث تعتبر عقابا صارما في تلك الظروف ،
والسؤال الذي يبقى قائما : من الذي يتحمل
مسئولية هذا الظلم ؟ وإذا نظرنا إلى الظروف
التي ساعدت في تشكيل موقف الشاعر في تلك
الفترة الحاسمة بعد سنتين تقريبا من فراقه
من الألمان ومن الحزبيين الإيطاليين ومن قوات
الحلفاء ومن الشيوعيين نجد أن الشاعر عندما
لقى القبض عليه في النهاية كان منهكا جسديا
وعقليًا . وكساد أن يفقد عقله من الخوف
والوحدة والتشهير عندما وجد نفسه يدفع من
هذا المعتقل إلى ذلك ويعرض للאהانة عندما
سجن في قفص كما تسجن الحيوانات ومن
حواله القتل ومفتصبو الأمراض وأسا ما يمكن أن
يوجد من مناصر مجرمة في الساحة الأوروبية
والتي به مغلول اليدين في سيارة جيب نقلته
في رحلة دامت ليلة كاملة إلى مدينة روما حيث
نقل بطائرة عسكرية إلى واشنطن لم يبق طعم
النوم فيها ، ووصل إلى أمريكا وهو يعاني من

أعلى اعتبار أنه وثيقة تاريخية ثقافية تجده
قاصرا جدا ، أنه يعكس مخاوف جماعة
مستشفى سانت اليرايث من أن الجمهور
لم يكن مستعدا لأن يتقبل الآراء الكاملة لعزرا
باوند .

ومن المصادفات أن الفترة الأولى من إقامة
باوند بمستشفى سانت اليرايث قد انتهت
بذلك الشجار المشهور حول نيله في عام ١٩٤٩
جائزة بولينجن للشعر على ديوانه المسمى
« أناشيد بيزا » The Pisan ، تلك
الأنشيد التي نظمها في عام ١٩٤٥ . بينما
كان مسجونًا في إيطاليا ونشرها في عام ١٩٤٨
دار نشر New Directions في الوقت
الذي كان باوند فيه محجوزًا في مستشفى
عقلي . أعطيت هذه الجائزة بإشراف لجنة من
مكتبة الكونجرس اختيرت لتكريم أحسن
ديوان شعر لشاعر أمريكي منشور في أمريكا.
وقد انتقدت هذه الجائزة نقدا شديدا لأنها
تجاهلت ما في هذا الديوان من بعض الأشعار
ذات المضمون المعادي لأمريكا والمعادي للسامية
ويمكن أن نقول الآن أنه يبدو من الواضح أن
دوافع سياسية كانت وراء الجائزة كما ادعى
كثير ممن عابوا فيها ، وباستطاعتنا أن نرى
فيها الآن تبريجا للجهود المضاعفة التي بذلها
ت . س . الـ البيوت ونشر مؤلفات باوند لاستعادة
احترامه المفقود ومن ثم حريته . وعلى أية حال
فقد كانت مخطوطة أناشيد بيزا موجودة لدى
النشر منذ عام ١٩٤٥ ولكنه لم ينشرها
حتى عام ١٩٤٨ ، (٦٣) وكان هو محامى
باوند الأول لدى لجنة مكتبة الكونجرس بالرغم
من نفيه العلني لذلك . ومن المؤيدين الذين
الذين طال عهدهم بتأييد باوند في لجنة التحكيم
الاصليّة أو في اللجنة التي ميّنت خلال تلك

(٦٣) الفكر - على سبيل المثال - رسالة دوروي باوند إلى دونالد دنكن المؤرخة في ٢١ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٥ ،
وفيها إشارة إلى أن عشرين صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة إلى لافان في دار النشر New Direction وإلى ت.س.
البيوت في دار النشر Faber & Faber وذلك في ٢٠ ديسمبر (كانون أول) .

العداوة الغربية وتلك الكراهية العميقة في ذلك العالم المتوحش السدى يقع خارج أسوار مستشفى سانت اليزابيث فلما يربا الا غضبا تعبر منه الصحافاة اليومية ، وقد حاولا - والخوف وفيقهما الدائم - بالسنين تحليل الوضع ، وكانا يخشيان على الدوام من ان يصبح باوند ورقة سياسية في أحد البرامج الانتخابية . وقد حال الخوف والاضطراب والاعتراب بين هذه الأسرة التي كانت تتصف بالكبرياء في الماضي وبين البحث عن حل ذكي وغير عاطفي لمحتما ، وهكذا اضطر الشاعر المشهور الى أن ينفق عشر سنوات أخرى في الأسر في شبه نسيان من قبل ذلك الجمهور المعادي له معظم تلك المدة .

وليس صحيحا أيضا القاء اللوم على وزارة العدل أو على الجيش الأمريكي حين ما حدث لباوند . لقد عومل باوند معاملة جيدة خلال المدة التي قضاها في معسكر بيسرا باستثناء الأسبوعين الأولين من اعتقاله ، وذلك بالرغم من القصص الرهيبة التي أشاعها أصدقاؤه في الولايات المتحدة . وإذا كانت لا تتوفر لدينا أدلة على تلك المعاملة الجيدة فإن انتمائه أحد عشر نشيدا جديدا خلال هذه المدة يدعم هذا القول . ورسالته مليئة بالثناء على المفوض الذي تولى التحقيق معه ، وملفات وزارة العدل توحى بما بذل من جهد وعناء في إمداد القضية . وليس سبب المشكلة ما فعلته الحكومة أو ما لم تفعله .

وبالرغم من أن وزد هذا كله لا يتحملة فرد واحد أو جماعة واحدة ، إلا أن من الضروري الالتفات الى تقدير مواقفهم كانوا قريبين جدا من باوند خلال الفترة الأولى من سجنه . ويبدو الآن أن هؤلاء كانوا جميعا يشعرون

الصدمة ومن الأرهاق ليجد أصواتا غاضبة تستقبله أو ليرى أمراض أصدقاؤه القدامى عنه ، وليسمع جدل الناس حول ما إذا كان يجب إطلاق الرصاص عليه بتهمة الخيانة . وهاجمته الصحافاة لأنها اعتبرته خائنا وخطيئا لا قدر القتل في التاريخ والقي به في سجن هو حظيرة ثور بصحبة المجانين وحرّم من الاتصال بأسرته وأصدقاؤه ففقد التأثير الموزون وسعى اليه باضطراب أولئك الذين كانوا أكثر منه جموحا ولا عقلانية .

أو لناخذ وضع دروتي باوند : إنها امرأة هادئة لا تتمتع باستقلال في شخصيتها فقد عاشت ثلاثين عاما في ظل رجل نحيل مستبد هو زوجها : لقد أجبرت على أن تواجه منفردة وبلا مال عدم اكتراث الموظفين بها في السلك القنصلي الأمريكي وفي وزارة الخارجية البريطانية وذلك لمدة شهور متواصلة وهم يتناقشون في مسألة السماح لها بالانضمام الى زوجها . وبقي باوند مسجوناً خمسة أشهر وزوجته لا تدرى أين هو ولا إذا كان حيا أم لا . (٦٤) وقد تلقت من أمريكا تقارير متضاربة حول مصيره : أيعدم شنقا أم بالكروسي الكهربائي أم يودع في مصع عقلى ينفق فيه كل عمره ؟ فلما وصلت الى أمريكا كانت غريبة في وطنها ، وهناك ، في الفرصة التي استأجرتها كانت لا تقطع عزلتها إلا خمسة عشرة دقيقة كانت تقضيها كل يوم مع زوجها المسجين في ظلال القضبان الحديدية وعلى مرأى من الحرس الرسمي ووسط مجموعة مخيفة من المجانين والمجرمين في سجن هوارد هول .

ولهذا فليس من الغريب أن يتردد دوروي وعزرا باوند في مركز ذلك الاطمئنان الجديد الذي وجداه في Chestnut Ward الى تلك

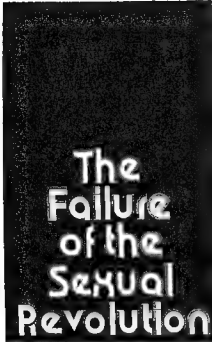
(٦٤) انظر رسالة دوروي باوند الى ي. ي. كمنجر المؤرخي ، نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٥ المحفوظة في مكتبة Houghton في جامعة هارفارد .

قد منح اهتمام خاص لشهرته ، ليس سوى نصف الحقيقة : فهذا لم يؤثر على الادعاء العام ولكنه كان مهما لدى الدفاع . فقد عملت هيئة الدفاع على اعادة بحث شهرته التي كانت مشرفة على الموت وذلك في محاولة لتبرير اطلاق سراحه أمام الجمهور . ومن السخريّة المرة ان تتويج هذا الجهد بجائزة بولنجن هو الفعل الذي أدى الى المأساة النهائية - وهي ان رجلا واحدا دفع مثل هذا الثمن الغالي لجريمة اشترك فيها كثيرون .

باحتماره للحكومة الامريكية ولشعب الولايات المتحدة ونظامها القضائي وفي بعض الحالات موقفه من اليهود الامريكيين (٦٥) . وقد اقتنع مستشاروه بأنهم بدلا من ان يعتمدوا على المحاكم لاصدار حكم عادل ، عليهم ان يحتالوا على الاجراء الطبيعى وأن يعملوا على اطلاق سراحه بهدوء . وحجة الجنون - سواء اكانت صحيحة ام باطلة - كانت مجرد ذريعة لكسب الوقت ، في الوقت الذي كانوا يخططون فيه نشاطا خلف الستارة . والقول بأن باوند



(٦٥) انظر - على سبيل المثال - رسالة الى ص.س. اليهود المؤرخة في ٢٢ ديسمبر (كانون اويل) ١٩٤٥ الموجودة في مركز الابحاث الانسانية في جامعة تكساس ، وفيها يذكر احد القريين من باوند وهو رئيس محامي الحكومة اسرائيل مانلوك Israel Matlock فيصفه بأنه « هذا الضئيل ذو الوجه الضئيل الذي ... لا يني القولها » والتي « يتاجر في ... بنلو شهرته من هذه المحاكمة »



إخفاق الثورة الجنسية

عرض وتحليل: الدكتور جلال الدين الغزالي

دورية فلسفية . كما كان على راس هؤلاء الذين اهتموا بتقديم آراء Reich الى الشعب البريطانى .

في كتابه عن فشل الثورة الجنسية الذى نشر في لندن عام ١٩٧٤ ، يقوم فرانكل بدراسة لاهداف هذه الثورة والعوامل التى - في رايه - تعتبر مسئولة عن فشلها ، والكتاب عبارة عن نقد وتحليل لحركة تعتبر من اهم الحركات التى اجتاحت كثيرا من الشعوب وخاصة فى المجتمعات الغربية . يقع الكتاب فى ١٩٠ صفحة ، ويعالج فكرة فشل الثورة الجنسية من خلال ١٤ فصلا عدا المقدمة التى يقوم فيها الكاتب بتقديم انكار Reich التى تستند فى جزء كبير منها على الاعتقاد بان

ولد مؤلف الكتاب « جورج فرانكل » في عام ١٩٢١ بمدينة فيينا في وقت كانت تجاهد فيه الثورة الاشتراكية من اجل خلق مجتمع جديد ، وذلك بعد ان اطاحت بامبراطورية هابسبورج . درس فرانكل الفلسفة ثم تبعها بدراسة التحليل النفسى وعلم الاعصاب . ولقد تأثر المؤلف بكتابات فيلهلم رايتش W. Reich وعلى الاخص بكتابه عن السيكولوجية الفاشية للجماهير Mass Psychology of Fascism فغادر فرانكل النمسا - على اثر الغزو النازى لها - الى الولايات المتحدة وكندا لاكمال دراسته واخيرا استقر به المقام فى لندن ، حيث اخذ يزاول مهنة العلاج النفسى ، وليقوم فى بعض الاحيان بالقاء محاضرات تتعلق بالتحليل النفسى والفلسفة ، بالإضافة الى اشرافه على تحرير

ويشبههم بالأطفال من حيث سرعة النسيان وخضوع عزمهم واعتقاداتهم لتوقيت محدد. وان الانسان يشبه الحيوان في سعيه وراء هدف معين ، وإذا ما حرم من بلوغ قصده سيطر القلق على تصرفاته وانتهى به الامر متخطيا في انماط من السلوك الذي يؤدي الى تدميره . ويرى الكاتب ان الشعوب المتحضرة قد مرت فعلا بمرحلة القلق ، واصبحت تواجه مرحلة تدمير النفس - وحتى تنفادى هذا الوضع يجب ان نتعلم ان نفكر في اوضاعنا هذه بأسلوب « راديكالي » .

وبهذه العبارة السابقة ينتقل فرائكل بالقارئ الى الفصل الثاني بعنوان « **المعركة الراديكالية** » ويستعين المؤلف بنظريات كانت وماركس وفرويد باعتبارهم ممثلي الراديكالية الاوروبية التي تتميز بعدم الرضا عن الاوضاع التي مازالت مسيطرة على مجتمعاتهم . ويرى فرائكل في الاتجاه الراديكالي دعوة الى احداث تغير جذري وسريع في المجتمع وقيادته . ويستعرض الكاتب آراء المرجل الثلاثي للراديكالية . نادى **كانط** بأن الدكاء الفطري للانسان هو الذي خلق انواعا مختلفة من الادراك الحسي والعقلي ، وان هذه القدرة العقلية الانسانية هي المسؤولة عن ادراكنا للحقائق ، وان كل مصادف البشر من خبرات امكن تفهمها من خلال هذه الحقائق . اما **ماركس** فكان يعتقد انه لايمكن قهر الحقيقة فقط على ماورئنا من خلال صرح انتقل اليها عن طريق التفكير ، ولكن من طريق خلق فكرة العمل الانساني ، وان انسانية الفرد التي تعبر عن نفسها من خلال العمل هي التي عبرت عن « الحقيقة الانسانية » . وبلغت مختلفة ومن خلال اتجاه مفاهيم **فرويد** على ان الذي يشكل الاوضاع الانسانية

تحرير قدرة الانسان الطبيعية على الحب هي وحدها التي تمكنه من السيطرة على ما فيه من دوافع تخريب « سادية » . وبالإضافة الى هذا الاتجاه الذي يركز على نظريات التحليل النفسي يشير الكاتب الى محاولة استاذة Reich لاقتناع الماركسيين بأن هدمهم للرأسمالية دون التعرض الى تغيير البناء الاجتماعي الذي « يرفض الجنس » سوف يساعد على خلق مجتمع يتصف بالفائسية . وينبثق هذا الاستنتاج من الاعتقاد بأن الثورة الاجتماعية لا بد وان تجلب معها ثورة جنسية تتيح المجال الى الوصول للحب الذي يمثل جذور السعادة الانسانية ، وان السعادة الجنسية تعتبر الركيزة الاساسية للسعادة الاجتماعية . وان من يعجز عن حب السعادة الجنسية لا يمكن ان يحب ، ومن عجز عن الحب لا يقوى على بناء مجتمع قوى .

تحت عنوان « **ثورات ومسلحون** » يؤكد الكاتب في الفصل الاول أن الانسان أصبح يشعر بأنه في وضع يمكنه من تدمير الارض التي يعيش عليها . فيما مضي تمت ابادء مجتمعات باكملها ، وتم القضاء على بعض نظم الطبقات ، ودمرت المدن - وعلى الرغم من ذلك - بقي الجنس البشري وتمكن من الاستمرار في الحياة - اما الآن فقد أصبح الانسان كليلابوضع نهاية البشرية، والى جانب هذا الشعور ظهور شعور آخر يعكس الاعتقاد بأن الانسان وحده هو المسؤول عن كل ما سيحدث على وجه الارض من امور .

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى وصف القرن العشرين بأنه أصبح مقبرة للأمال الثورية حيث سقط كثير من المثاليين الذين فردوا يمن آمن بهم . ويستطرد فرائكل في وصف هؤلاء « الثوريين » بعدم تقديرهم للمسئولية -

سوف تبحث في النفوس الشعور بالاثم والقلق .

وينتهي الكاتب من هذا الفصل محاولا التأكيد بأن الهدف من وراء الثورة الجنسية كان يقصد به أن تكون عبارة عن حافز للتغير الاجتماعى الذى يتميز بالوصول الى جلود السلطة المتحركة في المجتمع ، وذلك بدلا من توقفها في الطريق مدافعة ومؤيدة للفكرة « الاباحية » دون ان تتعرض الى اعماق البناء الاجتماعى . ويرى فرانكل ان الثورة الجنسية قد انحرفت عن اهدافها الحقيقية الى طرق التحدى والتعرد ، مؤكدة بهذا السلوك سلبية الاعتماد على « الذات العليا » لصرح البناء الاجتماعى . والمهم هنا هو اشارة الكاتب الى ان التخلص من قلق « اللذة » قد تحول الى نوع من العبادات للاغتراب الجنى الذى يأخذ صورة سلعة استغلها طموح « الذات العليا » لمصلحته الخاصة فدفن بها الى سوق العمل التجارى.

ويتناول الكاتب في الفصل الرابع موضوع **مهنة الجنس** وهنا يؤكد أنه بدلا من ان تصبح الثورة الجنسية حافزا للتغير الاجتماعى اصبحت تعمل كحافز لتقديم سوق جديدة للاستغلال التجارى . ويسخر الكاتب من قادة هذه الثورة قائلا ان الغرض باس في سوق الجنس هم « متعمدو الحرية الجنسية » . ولا يفوت فرانكل الحديث من انتشار المصانع التى اصبحت كل اهتمامها موجها الى انتاج العقاقير التى يؤدى تعاطيها الى الشعور بالارتياح العاطفى او التخلص من الشعور بالقلق . فبالنسبة لهؤلاء الذين وقعوا فريسة للحزن والكآبة وبشوا من وضعهم في مجتمع حرمهم من انسانيتهن فإن

لا يعيش الا داخل انفسنا . ويرى فرانكل ان ماركس قد فشل في فهم دور اللاشعور في قدرته على السيطرة على تفكير الانسان واتجاهاته والذى كان سببا في فشل كل حركة للحرية وكل طموح نحو السلام والتعاون الانساني . ويسهب الكاتب في توضيحه وتأكيده لنظريات فرويد عن الجنس والدور الذى يلعبه ليس فقط في حياة الانسان كفرد ولكن فيما له من تأثير على حياة المجتمع بأكمله .

الفصل الثالث يمكن وصفه بأنه جيد ، لان الكاتب بذل فيه جهدا محاولا تقديم تحليل نفسى لمفهوم **الاغتراب** Alienation ويرى فرانكل انه لايجوز ان نستند على القوة السياسية او الاقتصادية كتفسير ملأنا لخضوع الانسان للسلطة ، كما يرى ان التحليل النفسى للبناء الاجتماعى الذى يخضع فيه الفرد خضوعا كاملا لمصلحة الدولة يجب ان يكون مكملًا لفكرة ماركس عن التحليل الاقتصادى ، وذلك لان الذات العليا تلعب دورا رئيسيا داخل نظام السلطة المطلقة في المجتمع . ومن هنا يحاول فرانكل ان يوضح للقارئ كيف تنمو « الذات العليا » في الفرد ويتبع انعكاس مظاهرها على المجتمع ، هادفا بذلك الى مساعدة القارئ على تقبل الفكرة التى تنادى بان الاضطهاد لايمكن حدوثه الا في حالة ما اذا كان الانسان في حالة من الاستعداد النفسى لتقبل الظلم ، وان « **الاغتراب** » لايصبح ممكنا الا اذا تمكنت اقوى الاقتصادية من استغلال نزوة الفرد النفسية ليصبح غريبا عن نفسه وعن ماينتجه بساعديه . ويرتب على هذا ان اى محاولة للبحث عن الحرية الجنسية سوف تبوء بالفشل لان « الذات العليا » بصفتها السائدة

فيه فرصة لإنشاء المجتمع لان يتخلصوا من العقد النفسية ، وذلك عن طريق انفساح المجال للتعبير عنها تعبيرا كاملا . ويتعرض فراتكل بعد ذلك الى موضوع انهيار القيم الاجتماعية والدينية ، ولجوء الانسان الى علم الاجتماع ، ليكشف له عن القوانين والقوى التى تفسر طبيعة الحياة فى المجتمع . ولكن الكاتب يعتقد أن علم الاجتماع قد فشل في أن يحل محل اللاعقلانية القديمة التى اعتمد الناس عليها فى التعبير عن سلوكهم . كما يرى انه فى الوقت الذى باوت فيه جهود علم الاجتماع بالفشل فقد نجحت الصحافة فى منع الناس الشعور بالانتماء واحساسهم بكيانهم .

ويتحدث الكاتب فى الفصل السادس عن **صحافة المرأة** مشيرا الى أهمية كثرة انتشارها فى وقتنا الحاضر (حسب احصائيات هام ١٩٦٦ ظهر فى انجلترا وحدها ٣٧ مجلة بيع منها ٣ ملايين نسخة لمجلة Woman ، ٣٢ ألف نسخة لمجلة Harpers and Queen وبعد عرض لهذه المجلات يبدى الكاتب اسفه لعدم وجود دراسة موسيولوجية للتصرف على مدى تأثير انتشار هذه المجلات . الا انه يشير الى دراسة واحدة قامت بها Cynthia I. White والجدير بالذكر هنا ان الكاتب لم يشر الى عنوان الكتاب الذى احتوى على هذه الدراسة فى صفحات كتابه الخاصة بالراجع ، لم ينتقل الكاتب الى استعراض للمجالات النسائية التالية مرتبة حسب أهميتها :

Harpers and Queen, Woman, Cosmopolitan, Nova, Woman's Own, Vogue, Petticoat, Honey, Woman's Weekly, She.

ان عرض الكاتب لهذه المجلات يعتبر - فى رأى الناقد - على جانب عظيم من الأهمية

الكيان السائد كفىل بانعاشهم ليحمل منهم متقاتلين وذلك عن طريق نقلهم « عقليا » الى عالم افضل . فاذا ما عانى الانسان من الضعف الجنىسى والوهن او عدم الشعور بالاهمية فهناك عقاقير الامفيتامينز Amphetamines التى بإمكانها تنبيه الجهاز العصبى للفرد ومنحه الثقة فى النفس . واذا ما عانى الانسان من التوتر العصبى واحتياج الى مهدىء فان املاح الباربيتوراسى Barbiturates تملا السوق لتعيد اليه هدوءه . ويخرج فراتكل من تقديمه لهذا الفصل بنتيجة يزعم فيها انه عندما يعمل المجتمع على تشجيع استهلاك اللذة الماطفية والجنسية فان أى محاولة للتصرد على النظام الاجتماعى تصبح عديمة الجدوى . واذا ما حاولت احباطات الليبدو Libido الظهور فانها سوف تكون عاجزة عن ابداء أى رغبة فى أحداث التفرى الاجتماعى ، أو القيام بثورة ، وان كل ما يمكن أن تسببه مثل هذه الاحباطات هو نوع من الاضطراب العصبى او عدم الرضى العصابى الذى يفصح عن وجوده فى صورة انحرافات او تومر المراهقين ، وكلها فى رأى المؤلف امراض يمكن التغلب عليها عن طريق التردد على المحللين النفسيين ومانتيجه المصانع عن عقاقير بما فيها ال . اس . دى .

الفصل الخامس من الكتاب ، وان كان لا يكمل صفحتين ، الا انه يقرب القارئ الى فكرة العلاقة التى تجمع ما بين **الصحافة والثورة الجنسية** مبرا عن ان الصحافة هى التى تقوم بوظيفة المرأة التى تمكس التقاليد الجنسية فى المجتمع ، ولكن بطريقة ماهرة يجب أن تسترعى انتباه الباحثين . وتتلخص هذه الماهرة فى قدرة الصحافة على تدعيم قواعد سلوك « اللات العليا » فى الوقت الذى تطل

وبالإضافة إلى ذلك يرى في هؤلاء الذين ينادون بالقضاء على الأدب الإباحي أنهم يتمسكون بالظاهر دون التمرس للأسباب الحقيقية التي تمتد جذورها بعيدا في الماضي ، وقبل أن تحصل البرجوازية الحديثة على حريتها ، ويعتقد الكاتب أن ما نواجهه في وقتنا الحاضر إنما هو عبارة عن حيلة للضغوط الشديدة التي كانت تعانيها الحرية الجنسية في الماضي ، سواء كان ذلك عن طريق السلطة الدينية أو السياسية ، ويسترسل فرانكل بعد ذلك في عرض هذه الناحية من طريق ربطها بنظريات التحليل النفسي الخاصة بالاشعور والجنس عند الأطفال .

ويحاول فرانكل في **الفصل الثامن** من الكتاب إثبات أن **الرومانسية لا تسلب المرأة شخصيتها** بل على العكس من هذا . فهي تؤكد وتعظم من هذه الشخصية ، ويستعرض الكاتب آراءه في الحب الرومانسي الذي لعب ومازال يلعب دورا هاما في الحضارة الأوروبية ، وذلك من طريق تحليله للحركات الرومانسية الرئيسية وهي : العادة أو الهيام Adoration من جهة ، والسادية Sadism والمازوكية Masochism من جهة أخرى . وهاتان الحركتان الأخيرتان تعان ضمن نطاق الشذوذ الجنسي . فالأولى يتمثل فيها نوع الحب الذي يتلذذ فيه المرء من طريق أنزال صنوف العذاب بمحبوبه ، والثانية يتمثل فيها الحب الذي يتلذذ فيه المرء بالمتعدي الذي ينزله به رفيقه . وبالطبع يعتمد الكاتب في شرحه وتفسيره للرومانسية بتوابعها المختلفة على نظريات فرويد في التحليل النفسي .

يخصص الكاتب **الفصل التاسع لصحافة الفن الإباحي** وأكثر هذه شيوعا هما مجلتي Penthouse, Playboy وبكل دقة يصور

بالنسبة للقارئ وخاصة في المجتمعات غير الغربية ، حيث يقوم فرانكل بتقديم دراسة بسيطة ذات طابع تحليلي لكل مجلة على حدة ونوعية « القارئ » الذي يفضل قراءة مجلة على مجلة أخرى . وإذا احتاج الأمر نجده لا يتردد في عقد مقارنة ما بين مجلة وأخرى . وينتهي الكاتب من تقديمه لهذه المجلات بتعميم ينادي فيه بأن الثورة الجنسية لها تأثير كبير على المرأة المثقفة ، وأنها قد لعبت دورا قويا لم يقتصر فقط على التسهيل من عملية خلق نوعية جديدة من المرأة الواعية ، بل تعداه إلى التأثير على الفتيات المراهقات .

وكثيرا ما يصاب القارئ بالحيرة عندما يجد الكاتب يعبر عن اعتقاده في تعاطف مفهوم الحرية الجنسية عند النساء ، وأن هذان في الحياة قد تعدت الحدود التي كانت مرسومة لهن في الماضي ، ثم يعود بعد ذلك متسائلا عما إذا كان هذا التغير يعتبر تضررا أصيلا في حياة المرأة ؟ ويجيب على ذلك متشككا في طبيعة هذا التغير لأنه - في اعتقاده - بني على أساس أن الثورة الجنسية لا تصدو كونها موجهة للاستهلاك ، حيث أن تأثير المحاسن التي جنت من وراء التسامح الجديد يعتبر - في نظره - تأثيرا سطحيا للغاية دون أن يكون له أثر ملموس على البناء الاجتماعي نفسه !

يتحدث الكاتب في **الفصل السابع** عن الدور الذي لعبه **الأدب والفن الإباحي** Pornography في أسقاط الثورة الجنسية . ويعتقد فرانكل أن نقد الثورة الجنسية يجب أن لا يكون عن طريق شن هجوم مباشر على الأدب والصور الإباحية لأنها لا تمثل « المحرم » الحقيقي في القضية ، وإنما لا تعدى كونها عرضا من أعراض مرض أثير بعمق في الحضارة الغربية.

لا يصبح متكاملًا إلا إذا احتوى على آلة الاهتزاز الجنسية Vibrator التي في مكانها أن تشبع المرأة جنسيا دون الحاجة الى وجود الرجل . ويتعرض فرانكل بالنقد للتجارب التي أجراها كل من

Masters and Johnson والتي قاما فيها بملاحظة أكثر من عشرة آلاف رجل وامرأة انشاء ممارستهم للعملية الجنسية سواء عن طريق الجماع أو ممارسة العادة السرية . وقام الباحثان بتسجيل ملاحظتهما وتناجيهما في كتاب بعنوان « الاستجابة الجنسية عند الإنسان » Human Sexual Response

وعلى الرغم من امتداح فرانكل للصفة العلمية التي اتصفت بها هذه الدراسة إلا أنه لا يتردد في التقليل من شأنها عند مقارنة النتائج التي توصل اليها هذان العالمان بما كتبه Reich وتفسيره للجنسانية الإنسانية من وجهة نظر التحليل النفسي ، ويعلق بعد ذلك على هذه التجارب مؤكداً ان الجدال حول فكرة السعادة التي يصل اليها الإنسان عن الطريق العضوي فقط تعتبر ذات مفزى محدود بالنسبة للإنسان وتحتاج الى تصحيح ، وذلك حتى لا تقودنا الحرية الجنسية - التي يشر بها الكاتب - الى طريق مسدود .

وبالمج الفصل الثاني عشر موضوع

تحرير المرأة ويرى فرانكل أن كفاح المرأة من أجل الحصول على احترام النفس والمساواة قد انطوى على نوع من العدوان الوجهه الى الرجل بصفة عامة . ويعتقد الكاتب أن كثيرات من النساء التحرفات جنسيا قد التحقن بحركة تحرير المرأة ليس بدافع الاعتقاد فيها ولكن من أجل الكفاح في سبيل تأكيد حريتهن في مزاولة الانحراف . ويسخر الكاتب مما جاء في كتاب Germaine Greer (وهى تعتبر احدي المتحدثات

الكاتب في عرضه لهاتين المجتئين كل ما تقدمه لقرائهما من موضوعات ، وخاصة فيما يتعلق بالجزء الخاص بالاعلانات الجنسية ذات الطابع الخاص الذي تنفرد به كل مجلة . وينتقل بعد ذلك الى عرض لتوعية اخرى من المجلات تعتبر - في نظره - على مستوى أدنى من سابقتها وهي Knave Special, Modern Man, Mayfair, Forum, Prove.

وفي سياق عرضه وتحليله لهذه الدوريات ذات الطابع الجنسي البحت يتساءل الكاتب على لسان استاذة Reich عن جدية الدور الذي تلعبه في المجتمعات التي تنتشر فيها ، وعما إذا كانت تعزز من فكرة اظهار الحياة الحرة الصحية للرجال والنساء ، إذ انها لا تمثل سوى محاولة من جانب الافتضاحيين لاثارة الآلاف ممن من جانب اشباع رغباتهم الجنسية المكتوبة من طريق النظر الى مثل هذه المجلات ومطالعتها .

الفصل العاشر مخصص لما يطلق عليه الكاتب اسم Political Pornography ويقصد بها الصحافة السرية Underground Press ويعتقد فرانكل أن أهم ما يميز هذا النوع من الصحافة هو أنها تنظّر الى الثورة الجنسية وكأنها مطية لثورة اجتماعية قادمة . ولهذا فهي تعبر عن وجهات نظر يسارية ، وكلها تعمل ضد النظم المستقرة الحالية ، ممثلة في اخلاقيات الرأسمالية ، والأسرة ، والسلطة الأبوية والمتزولين والخنازير (المقصود بهم هنا رجال البوليس) .

ان قراءة الفصل العاشر تعطي الانطباع بان العالم كله منهمك في عمليات التجريب بميكانيكيات الجنس ، وان أي بيت

أولا يجب أن نخلق بيئة إيديولوجية تشر
بأن القدرة على ممارسة اللذة الجنسية لا
يمكن أن تكون عن طريق استخدام الأعضاء
التناسلية فقط ولكن عن طريق الجسم ككل،
ويجب أن ينظر إليها على أنها نوع من الفضيحة
التي يجب تشجيعها . وأن انكار اللذة سواء
بالنسبة للأنثى أو للآخرين ، ونشر الشعور
بالآلم يعتبر عملا شريرا . وفي الوقت نفسه
يجب أن نساعد الآباء على ادراكهم بمسئوليتهم
في توصيل المعلومات الجنسية لأولادهم
باعتبارها أمرا مهما يساعدهم على النمو
كأشخاص أصحاء وأحرار .

ثانيا يجب أن نعرض خصائص انكار
الحياة الجنسية التي تتميز بها ثقافتنا
الماصرة الى تحليل دقيق ، وأرجاع هذه
الخصائص الى دوافع النظام الأبوي المستبد
والتي لا تقاوم ، ثم نقوم بوضع إطار نظري
لمجتمع خال من مثل هذه التعقيدات النفسية.

وأخيرا من وجهة نظر هذا الناقد - لقد
قام فرانكل بدور المرأة التي عكست بكل دقة
نظريات فرويد في التحليل النفسي - وكلنا
في نظره نمائى من مقدة « أوديب » التي تحول
دون قدرتنا على الاطاحة بالحكومات
الديكتاتورية التي نخضع لها والتي تبدو
- من وجهة نظره - وكأنها تنتشر في جميع
اتحاء العالم - ومن الاسور التي استرعت
انتباهى كعارض لهذا الكتاب أن فرانكل لم
يحاول أن يعالج مشاكل الأسرة والعلاقات
بين الأزواج من وجهة نظر « الحرية الجنسية »،
كما أنه لم يحاول أن يحدد معنى « الحرية »
في نطاقها السياسي كما أن لفظ « المسئولية »
لم يذكر في سياق الكتاب .

« رسميا باسم حركة تحرير المرأة » بعنوان
The Female Eunuch الذى يعنى « الانثى
التي سلبت كل شيء ما عدا قدرتها على
الانجاب » ويصف أفكار الكاتبة بأنها لا تستحق
التعليق .

الفصل الثالث عشر مخصص لمعالجة
قضية يثيرها الكاتب بسؤاله « هل انتشر وباء
إصابة الرجال بالعمية » ويرجع فروانكل السبب
في اثاره لهذا السؤال للنواحي التالية : -

١ - كبت الرجل « المسيطر » لظهور
غضبه نحو المرأة المحررة أو صاحبة السلوك
العدوانى .

٢ - انماط وحدوية الجنس Unisex
التي بدأت تنتشر في المجتمعات الغربية .

٣ - الرجل المطيع الذى يرحب بالمرأة
المسيطرة التي تقوم ازائه بدور الام .

وعلق الكاتب على كل ناحية من النواحي
السابقة بالشرح والتحليل ساخرا من فكرة
وحدية الجنس التي تنادى بأن كلا من المرأة
والرجل يجب أن يقوم بنفس الاعمال التي
يقوم بها الآخر . وهذا بالإضافة الى اصراره
على أن النساء سوف لا يحققن أى نجاح عن
طريق رفضهن لأنوثتهن في الوقت الذى
يحاولن فيه « خفى » الرجال . وأن المتحررات
منهن يتسببن في إصابة الرجال بالعمية .

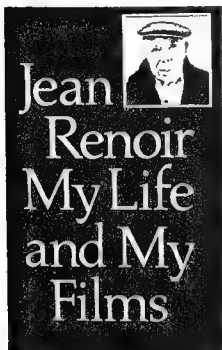
وتحت عنوان نتائج وابدائات ينهى فرانكل
كتابه بالفصل الرابع عشر . وفي هذا الجزء
يتصور الكاتب مرحلتين للتحويل الثقافى الذى
ينظر البشرية .

كيف تحرر أناسا يعانون من الوحدة والقيح
وكبر السن والحاجة الى الحب .

وبصفة عامة فان الكتاب جيد ، ويعالج
موضوعات انسانية على جانب كبير من الاهمية،
ولا بد للمجتمعات من مواجهتها بعراحة دون
مواربة أو خجل .

والكتاب ليس سهلا ، اذ يتطلب من قارئه
ان يكون على دراية بالتطورات الحديثة في
مجال الجنسية الانسانية ، وأن تكون له
خلفية فيما يتعلق بالنظريات الخاصة
بالتحليل النفسى .

لقد دافع فروانكل بكل ما لديه من قدرة
فكرية عن نظرية فرويد التى تتلخص في
شعور الفتيات الصغيرات بالحسد ازاء الاولاد
الذين يملكون امضاء تناسلية مميّنة لا تملكها
الفتيات وذلك عندما اعترضت هذه النظرية
بواسطة زعيمات الثورة الجنسية ، ولكنه
يفشل في ذكر ان ما امترض عليه هؤلاء
النساء هو عدم تطبيقه لهذه النظرية على
الفتيات الكبار اللاتى اصبحن يناقشن
الرجال في المجالات ذات الطابع الفكرى .
وأخيرا لقد نسي فروانكل ان يذكر في كتابه ان
هناك الكثيرات من النساء ممن لديهن حاجات
اخرى ملحة لا علاقة لها بالاستمتاع بالشهوة
الجنسية اذ ان القضية التى نواجهها الآن هي



جان رينوار حياتي وافلامي

مرض ومحايل: الأستاذ هاشم النحاس

عليه من هذه الناحية — على المستوى العالي — غير المؤنستين . ولا يقاربه فيها غير عدد محدود جدا من المخرجين العالميين .

من أهم هذه الكتابات — على سبيل المثال لا الحصر — كتاب « الفيلم والعين الفاحصة » تأليف دينيس دينيتو بالاشتراك مع وليسام هيرمان ١٩٧٥ ، وكتاب « جان رينوار . بحث في الملامه وفلسفته » تأليف بيير ليبروهون ١٩٦٧ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الانجليزية عام ١٩٧١ في سلسلة « سينما اليوم » . ومن اضعف ما كتب من أعمال جان رينوار الكتاب الذي كتبه ريموند دورجنات (١٩٩٤ صفحة)

يعتبر جان رينوار من أبرز المخرجين في تاريخ السينما العالمية ، وفي رأي شارلي شابلن أن « أعظم مخرج سينمائي ظهر في العالم هو المخرج الفرنسي جان رينوار » .

تبلغ أعمال رينوار ٤٦ فيلما ما بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٦٩ ، كتب السيناريو لأولها ، وأخرج الباقي ، بالإضافة الى اشتراكه في كتابة السيناريو بصفة دائمة ، وتحظى هذه الأعمال باهتمام النقاد والدارسين . ما نشر عنها من كتابات ودراسات يفوق كل ما نشر من أي مخرج فرنسي آخر . وربما لا يفوق

Jean Renoir, My Life and My Films. Collins. London, 1974.

ويحمل اسم « جان رينوار » وفيه يحاول ان يكشف عن تناسق البناء الفني لكل فيلم من افلامه باعتباره وحدة عضوية متكاملة .

ومنها كتاب « جان رينوار » الذي يضم مجموعة من المقالات والأحاديث واللقاءات مما سبق نشره في نيويورك وواشنطن (لندن) ما بين صامى ٦٩ ، ١٩٧٣ ، بقلم **بنيولوب جيليات** التي تنظر الى رينوار باعتباره « اعظم عظماء السينما » وعن أعماله تقول : « يعتبر عمل رينوار في مجمله من أقوى الأعمال تأثيرا في تاريخ هذا الوسط . وعلى مستوى الأفلام الفردية نجد ان أفلاما مثل : « الوهم الكبير » (قواعد اللعبة) من بين اعظم الأعمال السينمائية التي لاتتجاوز اصابع اليد الواحدة » .

ويحاول ليوباردى في كتابه « **جان رينوار** » عالم افلامه ١٩٧٢ ، ان يكشف لنا عن ابعاد مقترية رينوار السينمائية . ولايتأتى هذا ببساطة عن طريق تناول فيلم بعد آخر ، ولكن بدراسة نقدية فنية من أعمال الفنان الكبير مجتمعة ، يركز فيها على العلاقات الأساسية في أفلام رينوار بين المسرحي والطبيعي ، السحري والميكانيكي ، المرحل والمخطط ، الاجتماعي والجمالي .

اما كتاب أندريه بازان عن « **جان رينوار** » الذي يصل الى ٣٢٠ صفحة في ترجمته الانجليزية ١٩٧٤ ، فيحتل مكانة خاصة من بين كل ما كتب عن رينوار . وقد قدمه رينوار بنفسه . ومن الكتاب يقول فرنسوا تريفو - أحد رواد الموجة الفرنسية الجديدة « بالنسبة لى يمثل هذا الكتاب أفضل كتاب في السينما كتبه أفضل ناقد سينمائي عن أفضل مخرج سينمائي » .

وفي هذا الكتاب يحاول بازان ان يتابع شعر رينوار المرئي ابتداء من فانتازيا الافاق جارد في « **بائعة الكبريت الصغيرة** » ، ومن خلال ريادته للواقعية الجديدة في « **توني** » ، والانسانية الملحمية في « **الوهم الكبير** » ، والسخرية الاجتماعية المرة في « **قواعد اللعبة** » والصورية الرقيقة في « **يوم في القرية** » وللتناسق التام في **النهر** » .

ومما يجدر الاشارة اليه انه الكتاب الوحيد بالعربية عن رينوار ، وهو كتاب « **تحليل افلام رينوار** » الذي ترجمه عن الفرنسية انوبيس شنودة . والكتاب عبارة عن مقالات تحليلية ملهسية يختص كل منها بفيلم من افلام جان رينوار اشترك في تأليفه طلبة معهد الدراسات العليا بباريس .

ورغم كل ما كتب عن رينوار ، فقد حثه الكثير من اصدقائه على كتابة سيرته الذاتية « انهم لا يكتفون بما يقدمه الفنان من خلال الكاميرا او الميكروفون بل يريدون ان يعرفوا من هو الفنان » (١) وكان هذا الكتاب الذي بين ايدينا ويحمل عنوان « **جان رينوار . . حياتي** » وأفلامى » في ٢٨٧ صفحة من القطع الكبير . ويحدد لنا جان رينوار من البداية غايته من وضع هذا الكتاب ، كما يحدد لنا وجهة النظر التي يعالج من خلالها مادته حين يقول : « **من جهتي ارى ان الفنان - او أى شخص آخر - هو نتاج بيئته . ومن الملاحظة الاعتقاد بسيادة الفرد . فنحن لا نوجد من خلال انفسنا ولكن من خلال البيئة التي تشكلنا . ومن ثم فن نحاول ان اضمن هذا الكتاب ، قائمة بكل الملامى ، وهو ما تم من قبل ، وعلى الاخص في العمل الفذ الذي كتبه أندريه بازان ، ولا أستطيع ان اضيف عليه شيئا ، ولكنى سأحاول** »

(١) كل ملهو بين القوامى فيا يلى دون ذكر مرجعهمكتيس عن كلام رينوار بالكتاب المروى .

والاستحمام . ونعلم ان اياه كان مغرما بشعره الذهبي وكان يحب أن يرسمه ، ذلك تركوا شعره يطول حتى يهدل على كتفيه . وفي سن السادسة ، ورغم البطولون الذي يرتديه ، كان الكثير من الناس يظنونه فتاة . لهذا كله شاق رينوار الطفل بشعره وانتظر اليوم الذي يلتحق فيه بالمدرسة للتخلص منه . لكن اياه كان يؤخر هذا اليوم لانه كان يفضي نظام التعليم ، وهو يعتقد أن نسمة الهواء أفضل من درجة الماجستير في الرياضيات .

وعندما اخذته امه يوما الى احد المعارض ورأى لأول مرة بعض لوحات والده خسارج المنزل صدمه ان يجدها في هذا المكان الغريب « لم اصور وجود هذه الصور التي تصاحب حياتي اليومية في هذا المكان الا على انهاسرت ولابد ان ذلك الرجل الملهب زعيم عصاة من اللصوص » وتكشف لنا هذه الحادثة عن نوع علاقة جان رينوار بلوحات والده وعنها يقول « ان هذه الصور كانت جزءا من مملكتي الخاصة » .

وكان رينوار الأب يبحث دائما عن قيسم جديدة للضوء لذلك كان دائم التغيير لمسكنه في الضواحي قريبا من الريف . وفي وسط احدى القرى، وتدعى ماجاجنوسك، استاجر كوخا ريفيا ، ويعبر لنا رينوار الابن عن عواطفه المشوبة المتعلقة بهذه الفترة الاولى من حياته في الريف مما يكشف عن نزعة رومانسية واضحة بقوله « لم أمد أرى شيئا من هذا السلام الذي كان يفرح ماجاجنوسك مسرة أخرى ، ودراجة الأب أوبرت (التي كان يتعلق بها) ومشيئة الفلاحين البطيئة الهادئة .. فقد تفر العالم الى الأفضل وإلى الأسوأ أيضا . ومن المؤكد ان هدوء المساء قد اختفى من العالم الحاضر الذي يبدو انه يقوم أساسا على توتر لا غاية منه .

أن استرجع من الأشخاص والأحداث ما أعتقد أنه لعب دورا في تشكيل شخصيتي مما جعلني علي ما أنا عليه » .

ولا شك أن رينوار بتحديد هذه الفساية وحرصه على تحقيقها بالفعل خلال فصول الكتاب كله جعل من عمله شيئا مبتكرا ، لا لانه عمل غير مسبوق ، او لان غيره لا يستطيع أن يكتبه بحكم طبيعة مادته الذاتية ، ولكن لانه - فوق هذا وذاك - كان قادرا على الاختيار والتحليل ومن ثم النفاذ الى اعماق ممارساته الحياتية والفنية مما جعل من كتابه درسا كبيرا في الفن والحياة ، يمكن وضعه بكل تقدير الى جانب اعماله السينمائية العظيمة التي تعلم منها الكثيرون ، ولازالت تمثل رصيذا هاما في تاريخ فن الفيلم .

الطفولة (*)

من الطبيعي أن يبدأ رينوار في فصول كتابه الاولى بتحديد مكونات نشأته : الناس والأحداث .. وعلى الأخص مايقودنا الى علاقته بالسينما « كانت اول تجربة لي مع السينما عام ١٨٩٧ وكنت قد تجاوزت الثانية بقليل ، غير أن اول لقاء مع المحبوب كان لقاء فاشلا تماما » ، ذلك انه ما أن بدأ العرض حتى أفرعه الظلام والآلة المخيفة التي تطلق شعاعا من الضوء ، وظهور سلسلة من الصور غير المفهومة على الشاشة مصحوبة بصوت يبانو عند احد الاطراف . وما كان منه الا ان انفجر بالصراخ واضطرت جابريل ان تأخذه آسفة الى الخارج . وجابريل هي ابنة عم امه التي تعيش معهم وترتبط في ذهنه بالمرح والنزهة واللعب في مقابل امه التي كانت تمثل عنده الجانب المتعب في حياته لانها الشخص الذي يأمره بأكل طعامه كله والذهاب الى دورة المياه

(*) الشاويين الوجودية جدا لا تمثل عناوين الفصول الوجودية بالكتاب وإنما وفهمنا من عندي وفقا لسياق العرض وتوفيها احتواء .
(هاشم النحاس)

جنون السينما :

سمع رينوار في شبابه عن ممثل موهوب اسمه شارلوت. وهو أحد الأسماء التي اشتهر بها شارلي شابان في باريس . « ومنذ ان رأيت أول أفلامه لم أنسه وحرصت على مشاهدة كل ما يعرض له في باريس ، ولم يخب حبي له أبداً » .

وكان شارلي هو السبب في جنون رينوار بالسينما عموماً حتى أصبح يرى ثلاثة أفلام يوميا . اما جريث فهو الذي جعله متعلقاً باللقطة القريبة . « ولشدة حبي لهذه اللقطة الجأ أحيانا الى اقحام مشهد كامل في فيلمي لانه ببساطة يسمح لي بتصوير لقطة قريبة حقيقية » .

كيف بدأ العمل بالسينما :

كانت «ديدي» موديل والدته تشارك رينوار الابن غرامه بالسينما ولعب هذا الغرام المشترك دورا كبيرا في قرارها بربط حياتهما ببعض . كانت ديدي شقراء جميلة جدا وكانت تسلك سلوك النجوم .. وكثيرا ما أوقفها الناس في الطريق ليسألوها ان كانوا راوها في أحد الأفلام . واتصل رينوار بصديقه بيير ليسترينجوير لتقدمها الى السينما حيث كان كاتباً وله علاقة بهذا الفن . ويؤكد رينوار انه لم يضع قدمه في السينما الا من اجل ان يجعل زوجته نجمة على ان يعود بعد ذلك الى استوديو الفخار . ولم يكن في ظنه انه لن يستطيع العودة « ولو ان واحدا قال لي وتتها باني ساكرس كل ما أملك وكل طاقتي لصناعة الأفلام لما صدقته » . واختار رينوار القصة الملائمة لزوجته ونمت في داخله الرغبة في الاخراج وقرر مع زوجته الدخول في مغامرة انتاج فيلم « فتاة الماء » . وكان يحلم هو وزوجته التي اختار لها اسم كاترين هسلنج بتحرير السينما الفرنسية من كل الآثار المسرحية والادبية « وكنا تأمل أيضا ان نراعي

وكان رينوار الطفل في حوالى الخامسة عندما اصططحته جابرييل الى عرض القراقوز واصبح متبها بذلك الشكل من التسلية . وعملت مشاهداته هذه على تشكيل ثقافته الفنية ذلك ان ملابس الشخصيات الرمادية الداكنة على خلفية من الديكورات الرمادية جعلته - على حد قوله - يخشى التناقضات الحادة ، كما يلجأ الى أن هذه العروض فرست في نفسه الغرام بالقصص البسيطة والارتياح العميق بما يدعى عامة باسم علم النفس .

وكان في حوالى التاسعة من عمره عندما حدث لقاءه الثاني بالسينما من خلال العروض الاسبوعية بالمدرسة ، وكانت عبارة عن أفلام قصيرة يلعب بطولتها دائما ممثل هزلي معروف باسم اوتومايول . وقد بلغ من تأثير هذه العروض في نفسه ان أحد طموحاته التي يأسف على عدم تحقيقها عندما أصبح صانع أفلام كان صناعة مجموعة من الأفلام القصيرة تقوم على فكاهات ميكانيكية على فراخ ما يتذكره من أفلام اوتومايول . الامر الذي حققه بعض زملائه ممن يعجب بهم أمثال رينيه كلير ومالك سينيت .

وكان رينوار في حوالى العاشرة عندما اكتشف الكسندر دوماس ، وكان يمثل أبطال ميلودراماته . ويتخيل نفسه في مواقف البطولة الشريفة دفاعا عن اليتامى والفقراء . جابرييل هي التي علمته ايضا تقديس الميودراما حيث حرصت على اصطحابه في متابعاتها للمسرحيات الميودرامية المنتشرة وقتها . ويدافع رينوار عن اصحابه بهذه المسرحيات ساخرا من العقول المتعالية التي تعتبر هذا النوع من المسرح مجرد كلفة ، ويستبدلونه بما يدعى المسرح الواقعي . لان هذا المسرح الاخير في نظره لا يقل كدبا عن المسرح الرومانسي .

المياه » . وذهب رينوار مع كاترين على مضض لانه كان قد قرر قطع علاقته بالسينما حتى كمشاهد . لكن استقبال الجمهور الحافل للمشهد ولهما جعله يشعر لأول مرة بفرححة النجاح ويقدر مع كاترين الا يتسركا صناعة الفيلم ابدا .

نانا ثم ماركيتا :

وكان نتيجة هذا القرار المصري فيلم «نانا» ١٩٢٦ المأخوذ عن رواية زولا . ولتمويل الفيلم كان عليه ان يستدين بالاضافة الى مساهمة أسرة زولا وشركة « فيلم المانيا » في الانتاج . واختار رينوار لدور « كوت موفات » الممثل الالماني وارنر كراوس وعنه يقول « هو الذي علمني كيف اقدر الممثل » كان من اسباب اعجاب رينوار به قدرته المميزة على توظيف الحركات الجسدية الصغيرة . لكن رينوار يتبين فيما بعد ، ان هذه المهارة المتحلة في العرض الجسدي الشخصية ليست هي اساس عمل الممثل ، ذلك على الرغم من ان المظهر الخارجي المقتنع يساعد بكل تأكيد ، لكنه ليس اكثر من عامل مساعد . اما المهم حقا على حد قول كراوس لرينوار « هو ما اشعر به . وهو ما يتم التعبير عنه بردود الافعال التي لا احكمها » .

« انقسم الجمهور ازاء الفيلم الى فريقين احدهما يمثل السينما الكلاسيكية اعتبرني اصحابه (ولا ادرى لماذا) لوريا شريرا ، والفريق الثاني وبمثل الموجة الجديدة اعتبرني اصحابه (ولا ادرى لماذا ايضا) مبتكرا جريشا . واعتقدت ان مثل هذا الاستقبال يعني ان الفيلم سيحقق اقبالا تاما . لكن الواقع كان على العكس من ذلك . وادى فشله الى قرارنا بمقاطعة السينما كالعادة » .

لكن بعد ايام اتصلت به ماري لويس وكاتت قد بدأت توالى تأسيس شركة افلام تجارية

الاسلوب الأمريكي في الحركة » . كان رينوار هو منتج الفيلم وليس مخرجه لكنه لم يستطع منع نفسه من التدخل في الاخراج دائما . وقد عمل ان فيلم على اساس استعراض امكانيات كاترين الفوتوغرافية ولم يكن للحبكة غير اهمية ثانوية ، ذلك ان رينوار يؤمن بقول اندريه جيد « الشكل هو كل شيء في الفن » غير ان هذا القول وان كان يصديق في حالة الموسيقى واحيانا في بعض اتجاهات الفنون التشكيلية الا انه لا يمكن ان يكون على نفس المستوى من الصديق في السينما ، ذلك ان الصورة السينمائية بما تحويه من كلمة وانسان تفرض المعنى ، ومن ثم لا يمكننا القول بصفة مطلقة بان الشكل هو كل شيء في الفن وخاصة اذا كان المقصود هو فن الفيلم .

فرحة النجاح :

لم يحرك فيلم « فتاة المياه » اهتمام احد . والهموه بأنه يستهين بمقلبة المتفرجين بمشهد الحلم الذي تجرى فيه الفتاة في السماء على حصان ابيض بينما يحيط بها شخصيات مشوهة ترمعها ، ويتحول الرباط حول رقبة العم الشرير الى لعبان . وبسبب هذا الفشل فكر جان رينوار ان يعود الى عمله بالفخار لكنه كان على ثقة بان الذين يشتررون اعماله الفخارية لا يحبونها في داخلهم . وانما يشترونها من قبيل التظاهر وانجذابهم باسم ابيه حتى يقولون ان لديهم فائزة من اعمال رينوار مما يرضى غرورهم . وقرر ان يفتخ محلا لبيع التحف الفنية لكنه اكتشف انه غير قادر على بيع اى شيء .

وفي احد الايام بينما كان يهيم بلا هدف عبر شارع مونمارتر التقى بصديقه جان تيديسكو الذي دعاه لمشاهدة العرض في دار سينما الموجة الجديدة التي افتتحها مؤخرا ، وكان البرنامج يتضمن فقرات مختلفة من الانلام ومنها مشهد الحلم من فيلم « فتاة

كما كان اجد مبادئه الراسخة ايمانه بالتناسب .
والتناسب الكامل هو ما جعل من المعبد
الاغريقى الصغير البارثينون احد اعمال البناء
التاريخية العظيمة .

بعد ماركيتا الذى حقق ايرادا حاول رينوار
بشق الانفس ان يعتمد على منتج لفكرة كان
يشاركه الاعجاب بها ليستر نجويز ولكن لم
يقبل الفكرة احد . ويعلق رينوار على هذا
الوضع بقوله انه نظام غريب ذلك الذى لا يسمح
بحق التعبير عن نفسه الا لمن يملك حسابا
بالبنك او ان يكون من ذوى القربى باصحاب
السلطة » ومع ذلك فان الافلام الثلاثة التالية
التي اخرجها رينوار عن طريق القطاع الخاص
ولم يتم باختيار أى قصة منها يقول عنها « بعد
عدة أسابيع من العمل فى السيناريو كنت
اجملها قصصى واجد السعادة فى عملها . .
ويصل من هذه المحاولات الى النتيجة التي
لا يفتأ يكررها حين يقول « ومرة أخرى اجد
ان الموضوع فى الفن اقل أهمية من التنفيذ » .

اول افلامه الناطقة :

« رحبت بقدوم الصوت ورايت فيه امكانية
خلق المواقف الاسرة بين كاترين وميشيل
سيمون فى فيلم مأخوذ عن رواية « الكلبة »
التي كتبها لانوشاردية وعلى الاخص فى المشهد
الدرامى القائم على اغنية شعبية تثير اعجابى
وهى سريناد دى باقى » . وغالبا ما استخدم
هذه الحيلة لاضفاء شكل ما على احد المواقف
فى الفيلم كما فعلت فى « الوهم الكبير » وفى
« تونى » وفى « قلب نينون الصغير » .

وكان على رينوار ان يجتاز الكثير من العوائق
قبل ان يحصل على فرصة عمل الفيلم . وكان
هذا الفيلم بمثابة نقطة تحول فى عمله على حد
قوله « حيث اقتريت فيه من الاسلوب الذى
اسميه بالواقعية الشعرية » ، وان اتهمنى
الجمهور والنقاد بانى ضحيت بايمانى
السابق » .

وطلبت منه ان يخرج لها فيلما بعنوان « ماركيتا »
كتب السيناريو ليستر نجويز وقد حمله بكل
ما هو مسلم به من اكليشيات . وقبل رينوار
ان يخرج الفيلم ليبر الحدود الى عالم السينما
التجارية . وكان اول فيلم يخرج به بدون كاترين
هو اول فيلم يعمل على حد تعبيره « من اجل
نجاحى انا وليس نجاح زوجتى » .



ما هو الفن :

يطرح رينوار على نفسه السؤال « هل
السينما فن ») ويجيب بقوله : يمكنك ان
تصنع افلاما او ترزع حديقة ففى كل من
العملين ما يكتفى لان تدوم باسم الفن . صانع
الطوى الذى يصنع كمكة جيدة فنان ، الفلاح
بالمحراث القديم يخلق عملا من الفن عندما
يحرث حقلا . الفن ليس قضية فى حد ذاتها
ولكنه الطريقة التي يعالج بها الانسان القضية .
الفن هو الصنعة Making . فن الفخار
هو صنعة الفخار وفن الحب هو فن صنعة
الحب .

ويستشهد رينوار بقول ابيه عن موزار
بخصوص دوانع الابداع حين يقول : انه كتب
الموسيقى لانه لا يستطيع ان يمنح نفسه من
ذلك ثم يضيف . . والامر لا يعدو ان يكون
مثل الرغبة فى قضاء الحاجة . من الواضح
ان تأثير والده عليه لم يكن له مهربا منه رغم
ان والده لم يكلمه ابدا عن الفن . لم يكن رينوار
الاب يتدخل فى توجيه نشاط ابنائه وانما كان
يتركهم يفعلون ما يشاءون . ولكن لعل تأثيره
كان يتسرب اليهم من خلال لوحاته ومن خلال
احاديثه مع اصدقائه . ومما نقله رينوار
عن ابيه ايمانه بواحدية العالم وحب كل الاحياء
وهو يقول عن ابيه « كان يعتقد ان سحق حشرة
قد يؤدى الى فقدان توازن امبراطورية كاملة »

بينما نجاح الفيلم في رأى رينوار يرجع في الأصل الى صانع الفيلم والممثلين . ولا شك ان تاريخ السينما يقف الى جانب رينوار ، فالقصة الواحدة يتم انتاجها اكثر من مرة وتتفاوت مستويات النجاح كما تتفاوت مستويات الاصاله فيما بينها .

ميول يسارية :

يعمل فيلم « جريمة مسيو لانج » الى جانب تعاونيات العمال ، ومن ثم وضعه هذا الفيلم في الجناح الايسر من صانعي الافلام . أما فيلم « الحياة لنا » فقد وضعه ضمن الناس الذين يحبون الطبقة العاملة حقاً . كان يرى في امتلاك العمال للسلطة الدواء الممكن لانايتنا المحطمة . غير ان رينوار يستمدرك بقضوله « ولكن ابن الطبقة العاملة اليوم في البلاد المتقدمة . لقد شملتهم الحياة البرجوازية والبروليتاريا الحقيقية الآن في البلاد المتخلفة فقط . »

أما فيلم المارسلبيز فقد منحه فرصة التعبير عن حبه للفرنسية . وتلور احداك حول فترة الثورة الفرنسية وعن هذا الفيلم وسابقه يقول رينوار انه تنفس من خلالها الهواء النقي للجهة الشعبية .

تنفيذ السيناريو :

تأخذ العلاقة بين كتابة سيناريو الفيلم واخراجها طابعا خاصا عند رينوار ، ذلك انه كثيرا ما يفاجأ بان الديكور الذي تم اعداده لا يتفق والموقف الذي يريد تصويره ، فلا يتردد في اجراء التعديلات في السيناريو بما يسمح باستغلال الديكور ، وفي حالات كثيرة تؤدي مثل هذه التعديلات الى نتائج مشعرة . ويضرب لنا مثلا على ذلك من فيلم « رحلة جماعية الى الريف » فقد تم وضع سيناريو الفيلم على اساس تصويره في جو مشرق ، لكن الطبيعة أجبرته على تصوير جزء كبير منه تحت انهمار المطر ، واضطر الى تعديل

كان العود النسائي يناسب كاترين الى حد الروعة . غير ان الاستوديو كان متعاقدا مع المثلة جان ماري ، ومن ثم كان من الطبيعي ان يتم اختيارها ، وتخلو رينوار عن كاترين . وكانت هذه الخيانة علامة النهاية لحياتهما معا .

وقد حدث بعد ان انتهى من تصوير الفيلم ان انتزع منه وسلم ليد مونثيرة تقوم على تركيبه . وحاول رينوار انقاذ الموقف لكنه منع بالقوة من دخول حجرة المونتاج . وكاد هذا الوضع يلقي به في هوة اليأس لولا انه توصل الى أحد كبار المسؤولين في الشركة وقد استقبله في منزل صديقه التي تأثرت جدا بعرض مشكلته فأصرحت على ان يصدر المسؤول الكبير امره لكي يتركوا رينوار ينهي فيلمه بالشكل الذي يريده .

وعندما عرض الفيلم في « تانس » اعتبرته بعض الجماعات اليمينية المتطرفة فيلما ثوريا . ربما راوه امانة للسلطة القضائية ، وقول الفيلم بالصغير والاستهجان وتحطيم كراسي دار العرض ، ومن ثم سحب الفيلم « وبدأ الأمر لي انه نهاية أعمال في السينما » . لولا ان أسعفه الحظ بأحد الاصدقاء من الموزعين الذي عرض الفيلم بأحدى دور العرض التي يملكها ، بعد ان قدمه بطريقة غير معتادة . فقد عمد في اعلاناته ان ينصح المائلات بعدم دخول الفيلم لأنه فيلم مروء ولا يناسب اصحاب الاعصاب المزهفة واستمر الفيلم لمدة اسابيع والكر نجاحه اصحاب دور العرض الذين تهافتوا على طلبه للعرض في دورهم .

بعد هذا النجاح تصور رينوار ان طريقه سيفرش بالورود . ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل كالعادة . المشكلة انه كان يريد ان ينفذ افكاره بينما يفضل المنتجون ان يستخدموا افكارهم . وهناك تصور خاطيء بان نجاح الفيلم يرجع الى القصة ، ورجل المال يعتقد ان اى قصة يجلبها سوف تجلب الجمهور ،

السيناريو ، وصار ذلك في صالح الفيلم حيث اضافت العاصفة بعدا جديدا للدراما .

أما فيلم « الأعمال السحيقة » فقد اختلف فيه السيناريو عن القصة الاصلية حتى اقتضى الامر الحصول على موافقة مؤلفها مكسيم جوركي . واثناء التصوير اجرى رينوار تعديلات اخرى بناء على اكتشافه امكانيات الممثلين . اكتشف رينوار ان جان جابان يصل الى قمة تمبيره عندما لا يرفع صوته فابتكر من اجله مشاهد خاصة مما يجرى فيها الكلام همسا . ولم يكن لديه فكرة ان هذا الاسلوب من التمثيل سينتشر في كل العصور لكنه اسلوب لا ياتي دائما بنتائج سعيدة .

يقول رينوار : « اعتدت ان اقرأ السيناريو مع الممثلين مرة واثنين وثلاثا وربما عشرين مرة بدون تمثيل ولكن من اجل تحليل الدور واكتشاف اصالته المميزة عن دور مماثل . وهو ما يتم لنا اكتشافه معا بالتدرج .

ويترك رينوار للممثل الحرية الكاملة في التعبير عن نفسه . ولا يعترض ابدا على اداء الممثل حتى لو كان اداؤه كاذبا في نظره ، وانما يطلب منه في هذه الحالة ان يعيده مرة اخرى ، مع مراعاة ملاحظة او ملاحظتين . وبذلك يحصل منه على الاداء الاكثر ملائمة له ، ويعتقد الممثل ان هذا الاداء من عمله هو .

ويعمل رينوار احيانا الى توزيع الممثلين على ادوار تختلف تماما عن مجالهم المعتاد . وما يسعده ان يستخدم الممثل بأسلوب غير أسلوبه حتى يحصل منه على التعبير انطباع الذي يمنح الجاذبية للممثل المبتدئ ، ولهذا السبب رفض ترشيح المنتج لجينا مانيه ، وهي اعظم ممثلة تراجيدية وقتها على الشاشة

في دور سيفيرين في فيلم « الوحش الانساني » ذلك ان الجمهور في هذه الحالة سيعلم مقدما بانه يقبل على مشاهدة دراما مروعة ، وفضل عليها رينوار المثلة سيمون سيمون التي تؤدي ملامح وجهها الصينية الفاتنة ان يتوقع المشاهد اى شيء الا ان يكون في مجال المأساة . وكان دور سيفيرين من ادوارها التي لا تنسى .

ويرى رينوار ان كان ما يحيط بالمنزل يجب ان يخضع لهذا الهدف وهو ان يجعل الجمهور على صلة بالانسان . ويمكن ان يقوم الديكور بمشاركة كبيرة في هذا الجال ولكن ليس عن حساب الممثل . ومن ثم فقد اضطر رينوار الى اسقاط مشهد الهروب من فيلم « الوهم الكبير » كما وضعه في السيناريو ، رغم انه كان يعلق عليه أهمية كبيرة ، وذلك بسبب معاناة الممثلين الشديدة لظروف الجو القاسية حتى كاد يستحيل عليهم الكلام ، فضلا عن تلطيخ ملابسهم بالطين واستبدال النص بأغنية « المركب الصغيرة » وجمعت الاغنية شريط الصوت أكثر ثراء ومبررة رمزيا من الهروب . وكانت النتيجة رائعة .

ويخلص رينوار من ذلك الى النتيجة التي لا يمل تكرارها بقوله : « في السينما لا يمكن ان يوجد الديكور الدقيق ، او التصوير الجليل ، او التمثيل العظيم ، او الاخراج اللهم .. اقول لا يمكن ان يوجد اى منهم منفصلا على حدة ، فكل شيء يرتبط بكل شيء آخر » .

وينظر رينوار الى المشاهد على اساس انه انسان قادر على التفكير والتخيل لذلك يعامل الجمهور كما يعامل الممثل ، ومن ثم يفضل ان يترك الباب مفتوحا ويبدو الجمهور للدخول بتفسيره الخاص للموقف ومشاعر الشخصيات .

في أمريكا :

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية انتقل رينوار الى أمريكا بدعوة من روبرت فلا هيرتي الذي توقع - من حق - أن رينوار لابد وأن يكون في خطر بسبب مواقفه الواضحة ضد الهتلرية سواء في أفلامه مثل « جريمة مسيولانج » و « المارسليلز » و « الحياة لنا » او في العديد من المقالات المنشورة بالصحف . واستقبله فلا هيرتي بحفاوة بالغة ، وهناك التقى رينوار بالعديد من الشخصيات السينمائية التي احبها وعقد صداقات مع الكثير منها ، مثل اورسن ويلز ويورس اينفنز وجون فورد وشارلز لوتون وغيرهم . . . ووقع رينوار عقدا مع شركة فوكس .

أرادت شركة فوكس من رينوار أن يتمثل منهج هوليوود . ومن ثم دخل رينوار في مناقشات لانهاية لها مع داريل زانوك أكبر رؤسائها محاولا إقناعه بأن يتركه يعمل على طريقته الخاصة حتى يمكنه أن يقدم شيئا ولا يكون مجرد مقلد . واقتنع زانوك بمسد جهد ، وبدأ رينوار بقصة أمريكية خالصة هي قصة فيلم « مياه المستنقع » ١٩٤١ المدة عن رواية فيرن بل ، وهي قصة رجل اثم بدون وجه حق بجريمة قتل فلجأ هاربا داخل برادى اوكلينوكى ، وعاش هناك لمدة سنوات الى ان ظهرت برأته بالصدفة . وترجع جلاية القصة لدى رينوار الى شخصياتها البدائية التي أفرم بها . وجرى التصوير في المواقع الطبيعية ، الامر الذي لم يكن زانوك مقتنعا به . حيث يجرى عندهم كل شيء في الاستوديو ، « ولكنني تنبأت لهم وقتها بأنه سيأتي يوم تنطلق فيه فرق هوليوود الى مختلف أنحاء العالم بحثا عن الاصل » .

توني والواقعية الإيطالية :

يرفض رينوار رأى النقاد في فيلمه توني « باعتباره المبشر بأفلام الواقعية الإيطالية » ويبنى اعتراضه على أساسين اولهما أن الأفلام الإيطالية تمثل في النهاية نتاجا دراميا رفيعا ، بينما كان في توني يبدل جهدا عظيما لتجنب الدراما ، كما انه لجأ في الفيلم الى استخدام الصوت الطبيعي بينما يعمل الإيطاليون بنظام الدوبلاج وشرط الصوت عندهم مصنوع بالكامل .

غير أن ماذكره عن فيلمه بعد ذلك يتفق تماما وما نعرفه عن مواصفات المدرسة الواقعية الإيطالية الجديدة بحيث يجعلنا لا نتفق معه في الرأى ونقف الى جانب النقاد ، ومن ذلك محاولة ترك الانطباع بأن ما يتم تصويره انما يتم تلقائيا ودون اعداد سابق . وقصة الفيلم مأخوذة من قصة حب حقيقية اخبره بها صديقه رئيس الشرطة ، وتم تصوير الفيلم اما خارجيا او داخل أماكن حقيقية ، والممثلون جميعا ومنهم هواة جاءوا من نفس المنطقة التي حدثت بها القصة ، ومن ثم كانت لهم نفس لهجة أهل المنطقة . والفيلم يتجنب غلبة الطابع الفردى . ورغم أن رينوار كان يحب اللقطة القريبة فانه وجد فيها عامل انصرال وفصل ولذلك لجأ الى لقطات استعراضية تربط بين الشخصيات وبعضها ، وبينها وبين البيئة الخاصة بها . وتجنب رينوار التقطيع ، كما وجد في اللقطات الطويلة فرصة للممثل لتنمية إيقاعه الخاص في النطق بكلماته .

وكل هذه الأساليب التكنيكية هي نفسها ما أخذت به المدرسة الإيطالية الواقعية فيما بعد حيث تم انتاج الفيلم عام ١٩٣٤ .



أخرى مثل تسلط الاهداف التجارية أو التخلف الاخلاقي للانسان نفسه حيث يتطلب منه هذا الفن قدرا من التعاون والتآزر لم يؤهل له بعد ؟ ومن ثم فإن حل المشكلة يأتي بالتهوين بمستوى الانسان في هذه الناحية بدلا من عملية النكوص الى حرفية القرن التاسع عشر .

وهل من الممكن حقا اعادة تحقيق نموذج شارلي شابان الفريد ؟ أن شارلي نفسه فشل في الوصول الى نفس القمة بدخول الصوت الى السينما وزيادتها تعقيدا .

على كل حال ان هذه الاسئلة يجب ان نضعها في الذهن ونحن نحاول التفكير في حل هذه المشكلة التي يدور حولها رينوار كثيرا ولا يمكن ان نحسم فيها حتى الآن برأي قاطع، حيث لا يسعنا تاريخ هذا الفن القصير نسبيا بأمثلة كافية ، كما تموزنا الدراسات النفسية وعلى الاخص في مجال الإبداع الفيلمي . ومن ثم فإن المستقبل وحده هو الذي سيكشف من هذا الموقف وان كانت الملاحظات العملية تفرض نفسها وتفرض التخصص . ولكن التخصص نفسه أصبح يأخذ اشكالا مختلفة وربما كان اهتمام بعض المخرجين الآن بكتابة السيناريو والمشاركة في الإنتاج يحقق وضعا بين النموذج المستحيل الذي يطرحه رينوار والمتطلبات العملية للتخصص، غير أن هذا الحل ليس عاما . وليس دائما مضمون النتائج . فمن خلاله تتم افلام جيدة وأخرى (هي الأكثر) أفلاما تجارية أيضا ، ويبدو أن الدوافع في النهاية هي الأهم . فمتدما تكون الدوافع تجارية بحتة قلن بنقلها التخصص أو عدمه والغاية من السلعة هي التي تحدد نوعيتها.

كان المجلس الاعلى برئاسة زانوك يراقب المادة المصورة كل مساء . ولم يرق لهم تصوير أحد المشاهد الذي أخذه رينوار في لقطة مركبة واحدة تجمع كل عناصر الموقف . واضطر الى اعادة تصويره في لقطات بناء على رغبتهم . وكان هذا أول خضوعه لهوليوود . ثم طلبوا منه مرة التخلي عن الفيلم ، وعلم من أحد مساعديه أن السبب هو البطء في العمل ونصحته نفس المساعد أن يلقى بالتهمة على رأس مدير التصوير ، لكن رينوار رفض وذهب الى بيته الى أن أعاده زانوك بعد أن شاهد عمله وأقنع به .

غير أن أكثر ما ضايق رينوار أنه وجد نفسه غير مسئول عن مونتاج فيلمه « ربما تكون النتيجة ممتازة لكنها ليست من علي » وهو ما يتناقض تماما وحلم رينوار الأساسي من سينما الحرفي Craftsman's Cinema حيث يكن المؤلف أن يعبر عن نفسه مباشرة ، شأنه شأن الرسام بلوحاته أو الكاتب في كتبه . ويعتبر رينوار أن النموذج الفريد لهذا الحلم هو شارلي شابان .

والواقع أن هذا الحلم لا يراود رينوار وحده وإنما يراود الكثير من فناني السينما ، ومن خلال تحقيقه بنسب مختلفة استطاع بعضهم ان يحقق ورائع سينمائية ، لكن ورائع أخرى تمت بالطريقة المخالفة التي تعتمد على الشخص . والسؤال الآن لماذا تقنع اسرى تشبيه من الفيلم بفنون أخرى سابقة ونسقط ما يتميز به هذا الفن من تعقيدات هائلة لاتجمل هذه المقارنة بأي وجه من الوجوه مقارنة عادلة ؟ ولماذا لا يرجع هبوط مستوى الافلام الرديئة القائمة على التخصص الى أسباب

الواسعة . والطموح البسيط للبطل ،
والحرارة والجوع ، والأصرار على حياة تروخ
تحت ضغط الاحتياجات المادية اليومية .
ونجح الفيلم وسعد رينوار بنجاحه .



رينوار ليس منا :

تعاقدت شركة RKO مع رينوار على عمل
ثلاثة أفلام أولها وآخرها المرأة على الشاطئ
« كانت القصة تتعارض تماما مع كل أعماله
السابقة . فبينما كان رينوار يحاول في فلامه
السابقة ان يصور الروابط التي تربط الفرد
بخليفته فقد وجد نفسه هنا مطالبا بدراسة
لشخصيات تسمى الى العزلة . فالتاس ،
وقد سئموا حضارة الإنتاج بالجملة ، يجاهدون
للهرب من الحشد ، ومن الصعب ان تتحقق
العزلة لانها لا توجد ، حتى الخلاه يمتلئ
بالانسباح .

وتحت تأثير ادراك رينوار لعدم صلابه
مايصنعه حاول ان يغير القصة أثناء التصوير
والنتيجة كانت سيناريو مضطربا أدى الى
عمل نهائي يعتبره من جانبه عملا هاما لكنه
غامض جدا لعمامة الناس . ولم يرق الفيلم
للجمهور الأمريكي ، والأسوأ من ذلك انه
أغضب كل رؤساء RKO حتى أنهم بعد
بضعة ايام من العرض الاول للفيلم إبدوا
استعدادهم للتخلي عن التعاقد على الفيلمين
الآخرين مقابل مبلغ من المال . ولما كان رينوار
غير مقاتل بطبيعته فقد قبل العرض . وكان
فشل هذا الفيلم علامة النهاية لخامسة
الهوليودية ، وقد لخس داريل زانوك حالة
رينوار بقوله « ان رينوار يملك موهبة كبيرة
لكنه ليس واحدا منا » .

الجنوبي :

كانت هوليود مغرمة برينوار ، لكنه على
حد قوله غرام الفتاة الصغيرة بعروستها .
وكان طموحه ان يقبل غرامها دون ان يلتقي
بأفكاره جانبيا . وأتاح له فيلم « الجنوبي »
هذا الطموح الى حد كبير ، واليه ترجع
عودته الى صناعة الفيلم .

« كان الفيلم من الأفلام التي يمكن لها
تحقيق غايي الرئيسية وهي ان أدير شركة
صغيرة تخصص في أفلام تجريبية ذات
ميزانيات محدودة يقوم بأداء الادوار فيها
مبتدلون او ممثلون لم يتألقوا بحظهم بعد وتتمثل
هذه الغاية أحد الاحلام الأساسية التي تراود
ذهن رينوار وتتفق مع حلمه المركزي وهو
سيطرة الفنان الكاملة على الفيلم .

عندما رفض جول ماكراي القيام بدور
« الجنوبي » سأل رينوار المنتج ان يتخلى
عن فكرة النجوم ويبحث عن ممثل جيد .
وفاجأ رينوار من حوله باختيار زخاري سكوت
الذي تخصص في بعض ادوار قطاع الطرق .
وهو من الجنوب ومن ثم ضمن رينوار سلامة
مخارج حروفه ، أما السبب الآخر فيرجع
الى ما سبق الإشارة اليه في اعتقاده بأهلية
ان يقوم الممثل بدور خشارج نطاق دوره
المعتاد .

يحكى الفيلم قصة فلاح سئم العمل لدى
الآخرين ويحاول ان يعمل لحسابه باستصلاح
قطعة ارض صغيرة . ورغم المصائب المتوالية
فانه لا يستسلم . وعندما عرض السيناريو
على رينوار لم يجذبه اليه القصة وانما عدم
وجود القصة . فهو ليس سوى سلسلة
من الانطباعات القوية تنتج عن المناظر الطبيعية

اول افلامه اللونية :

قرأ رينوار كتاب «النهر» للكاتب الانجليزى رومر جودن ، وظن أنه وقع على القصة التى تفتح له أبواب استديوهات هوليود ، ولكن خاب ظنه لان القصة لا تتضمن صيد الافيال أو صيد النمر ، والهند بدون ذلك فى رأيهم ليست هى الهند ، ولكن عندما حاول كيثيت ماكيلداني (الذى يعبد السينما ويعبد الهند) واتفق مع الهنود على تحويل فيلم من الهند) عندما حاول شراء حق اختيار قصة النهر وجد أن رينوار كان قد سبقه الى ذلك فانصل به واتفق معه على اخراج الفيلم .

وكان رينوار يتوق لاجراء فيلم بالالوان ، وحاول فى هذا الفيلم اول افلامه الملونة ان يضع نظريته فى استخدام اللون موضع التنفيذ . والمبدأ الاساسى الذى يحكم استخدام اللون عنده هو الابتعاد عن تاثيرات العمل . وبعبارة اخرى يرى أنه لادامى لاستخدام مرشحات خاصة . والمبدأ الثانى الذى يذكره لنا هو أنه يتجنب اثناء التصوير الخارجى المناظر الطبيعية ذات الظلال اللونية الناعمة ولهذا كانت البنغال بالنسبة له (مثلها مثل الكثير من المناطق الاستوائية) مناسبة جدا للتصوير الملون . فالالوان فيها ليست بالفن الحوية وليست مختلطة ببعضها .

كانت رواية النهر نوعا من وصف الحياة لاسرة انجليزية فى البنغال ، واستعان رينوار بزوجة احد اطباء الانجليز ، كما استعان بالماملين معه من الهنود فى محاولته النفاذ الى الروح الهندوسية . . كان الفيلم فى حاجة الى فتاة صغيرة لدور هاريت ، وهى الشخصية التى يعتمد عليها الفيلم كله ، وكانت الميزانية

لا تسمح باستخدام نجمة من هوليود ، لم يتردد رينوار عن اختيار فتاة من الهواة ممن استجيب للاعلان المنشور فى الجريدة وهى باتريشيا والترز .

ويحدد لنا رينوار طريقة تعامله مع الممثلين الهواة بقوله اذا اردنا ان ننجح معهم فليتنا ان نوفر لهم التدريبات ، ولكن لا تكون هذه التدريبات على حساب الادوار التى سيقومون بها . الامر ببساطة هو ان نجعلهم يقرأون بدون لثمة ، وعندما يصلون الى هذه المرحلة ينقلون الى العمل على السيناريو ولكن بالطريقة الايطالية ، أى بدون تمثيل .

مشكلة الاعتماد :

لقد جذب رينوار الى السينما وفي نيته كما ذكر فى البداية ان يتجنب بحزم الاعتماد للسينما عن الاعمال الادبية . وماتم بالفعل أنه اتجه كلية الى عكس ذلك . ويناقش رينوار مشكلة الاعتماد فيقول ان المهم فى الاعتماد ليس فى تماثله للعمل الاصلي ولكن فى الطريقة التى يستجيب بها صانع الفيلم للعمل الاصلي . وكالمادة يلجأ رينوار الى تدعيم افكاره بالرجوع الى فن الرسم ، فيقول ان اعجابنا باللوحة لا يرتبط بمدى اخلاص راسمها للموديل . ان كل ما تتطلبه من الموديل ان تشير خيال الفنان . لكن رينو لا يذهب بهذا الرأى الى اقصى مداه تاركا للفنان حريته الكاملة فى الابتعاد عن الموديل ، ويعتبر ذلك غرورا ، ويعود الى القول بأن الفنان الحقيقي يتبع الموديل ، وهو يقصد أنه اثناء عمله يعيد خلق الموديل ، سواء كان هذا الموديل شيئا او انسانا او فكرا .

الداخلية ، وهذه الحقيقة الداخلية هي الشيء الوحيد الذي يهمني فقط .

ولا ينسى رينوار أن يعود في نهاية كتابه إلى جابريل التي كان لها أكبر الأثر على شخصيته ، فهي التي علمته منذ طفولته أن يتبين من خلال عروض التسلية غير الواقعية جدا مبرورا لاختيار الحياة الواقعية ، كما علمته أن يرى الوجه خلف القناع ، والدجل خلف الزخارف ، وعلمته أن يحتقر الكليشيه .

خبرة حياة :

لقد حاولت قدر الإمكان في هذا العرض حصر الخبرات والآراء الفنية التي يطرحها رينوار . والكتاب من هذه الناحية يعتبر - في رأيي - مدرسة . وقد استطاع رينوار من خلاله أن يقدم فيه بذكاء ووضوح خلاصة خبرته الفنية . وهو إذ يطرح هذه الخبرة ذات الأهمية الخاصة لكل دارس سينما ، يجعل من كتابه أيضا مادة خصبة لكل من يريد دراسة العملية الإبداعية في هذا المجال الذي تندرج فيه مثل هذه النصوص الوثائقية ، وعلى الأخص من خلال سيرة ذاتية نادرة ، مما يرفع كثيرا من قيمة الكتاب ويجعله جديرا بالقراءة بل وبالدراسة لكل مهتم بالفن والأبداع فضلا عن المهتم بالسينما أصلا .

ولعل قيمة هذا الكتاب تبدو أكثر وضوحا إذا ما قرأنا بينه وبين محاولة شابلي المأثلة أيضا في كتابه ، فنجد أن محاولة رينوار كانت أكثر ثراء . أما لو حاولنا مقارنتها بمحاولة إيزنشتين في كلامه المتفرق عن أعماله في كتبه المختلفة فإن الأخيرة تبدو إلى جانبها معقدة للغاية . والواقع أن البساطة الشديدة

رينوار والمرح :

كان لدى رينوار الرغبة في أن يدخل مجالا جديدا تماما عليه هو مجال المسرح ، وسنحت له الفرصة لتحقيق رغبته عام ١٩٥٤ باخراج مسرحية شكسبير بولبوس قيصر ، ثم اخرج عام ١٩٥٥ مسرحية أوفيت . وكان فيلم « وصية الدكتور كور ديليه » فيلما تجريبيا ينبع عن عمله في المسرح . تجنب فيه اللقطات القصيرة وصور أغلب مشاهدته في لقطة واحدة . وجد أن هذه الطريقة هي الأفضل لضمان اندماج الممثل ، واتخذ رينوار نفس الأسلوب في فيلم آخر هو « الغداء على العشب » ثم هجره بعد ذلك .

آخر أعماله :

لقد حاول رينوار في هذا الكتاب أن يعطى على حد قوله فكرة عن إنتاجه ، ولكنه اقتصر فقط على تلك الأعمال التي تمثل علامات في تطوره كصانع أفلام . ويحرص أن ينهي هذه المجموعة بذكر آخر أعماله « مسرح جان رينوار الصغير » الذي صنمه للتلفزيون عام ١٩٦٩ بعد سبع سنوات من السكون وعنه يقول « في هذا العمل طرحت اعتقادي وشكوكي من خلال حكاياته الأربع » .

وإذا كان رينوار قد ارتبط بالمنهج الواقعي في معالجه الحكايتين الأولى والرابعة فإنه في الحكايتين الثانية والثالثة جنح إلى الخيال . ومن ميله إلى استخدام الأساليب المختلفة يفتنم رينوار كلامه بقوله « لقد قضيت حياتي أجرب مختلف الأساليب لكنها جميعا كانت تتجه نحو غاية واحدة ، وهي في النهاية تمثل محاولاتي المختلفة للوصول إلى الحقيقة

مشاعة وميسرة لنا . وكانت اعماله النماذج التطبيقية الحية لهذه الافكار التي ظلت صحيحة - في مجملها - حتى الآن . وذلك فضلا عما تضمنه الكتاب من افكار وآراء اخرى لازالت قيد البحث والمناقشة . وبفض النظر عن اتفاقنا او اختلافنا مع آراء رينوار ، يبقى حيا - فوق كل هذا - كشف رينوار المتعمق عن تجربته الدائبة في الفن والحياة .

التي يعرض بها رينوار افكاره مميزة اضافية للكتاب تجعل منه مادة جدابة سهلة الاستيعاب لكل قارئ .

ولا شك ان نسبة كبيرة من الافكار المطروحة عن فن الفيلم لم تعد جديدة علينا الآن نكتنا اذا ما ربطناها بمرحلتها استطعنا أن نعطيها قيمتها الحقيقية . فقد كان رينوار واحدا من مكتشفى هذه الافكار التي اصبحت



من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتنطيل في الاعداد القادمة

1. Evans, Gareth Lloyd ; The Language of Modern Drama, Dent, Rowman and Littlefield, N.J. 1977.
2. Jeffry, D. Balfour & Katz, Roger C. ; Take it Off and Keep it Off, A Behavioral Program For Weight Loss and Healthy Living, Prentice-Hall, Inc., N.J. 1977.
3. Kirstein, Lincoln ; Stuart, Muriel and Dyer ; The Classic Ballet, Basic Technique and Terminology, A & C Black Ltd, London, 1977.
4. Menuhin, Yehudi (editor), My Favourite Music Stories, Lutterworth Press, London, 1977.
5. Nasr, Seyyed Hossein ; Islamic Science. An Illustrated Study, World of Islam Festival Publishing Company Ltd. 1976.



مطبعة حكومة الكويت

العدد التالي من المجلة

العدد الثاني - المجلد التاسع

يوليو - أغسطس - سبتمبر

قسم خاص عن

الاجتماعات الحديثة في النقد الأدبي

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	٥	٣	٣	٣
البحرين	٥	٥	٤٥	٤٥	٤٥
اليمن الجنوبية	٤٠	٤٠	٣٥	٣٥	٣٥
اليمن الشمالية	١٠٠	١٠٠	٤٠	٤٠	٤٠
العراق	٤٠	٤٠	٥	٥	٥
لبنان	٣٠	٣٠	٥٠	٥٠	٥٠
الأردن	٢٠	٢٠	٥	٥	٥
سوريا	٥	٥	٥	٥	٥
المتاهرة	٥	٥	٥	٥	٥
السودان	٥	٥	٥	٥	٥
ليبيا	٥	٥	٥	٥	٥
مستقط	٥	٥	٥	٥	٥
الجزائر	٥	٥	٥	٥	٥
تونس	٥	٥	٥	٥	٥
المغرب	٥	٥	٥	٥	٥

الاشتراكات :
 للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت
 مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر

المجلد التاسع - العدد الثاني - يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٨

نحو علم جمال عزلي

الشكل والمضمون
في النقد الأدبي الحديث

يحيى حقي
بين المصرية والتركية

راي الانجليزي في دور التكوين

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٨
للمراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٢

المحتويات

النقد الأدبي

التهويد	بقلم التحرير
الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث	الدكتور محمد زكي المشاوي
نحو علم جمال عربي « تصور تطبيقي »	الدكتور عبد العزيز القسوي
يحيى حلي . . . بين المصرية والتركية	الأستاذ عبد العزيز محمد الزكي
النقد الروائي الإنجليزي في دور التكوين	الدكتورة نود شريف

أفاق المعرفة

تكنولوجيا العصر والجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠	الدكتور مصطفى كمال محمد
الدفاعية بين التنظير والتلمذجة دراسة تحليلية مقارنة الدكتور ظلمت منصور	

ادباء وفنانون

ابن شرف القيرواني	
وآراءه النقدية في رسالته « اعلام الكلام »	الدكتور محمد سلامة موسى

عرض الكتب

مقدمة للمكان	عرض وتعليق الدكتور مصطفى ناجي
مهاجرون سود ومواطنون بيض	عرض وتعليق الأستاذ عبد الله عبد الفتحي فاهم

المراسلات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي

محمد

ربما كان سقراط هو أول من فرق بين تأليف الأدب ونقد الأدب وميز بينهما ، وذلك حين ذهب الى أنه قلما كان يجد من بين الشعراء من يستطيع أن يشرح ما كان يعنيه بشعره . وكأنما كان سقراط يود أن يقول في هذه العبارة أنه لم يكن ثمة من بين الشعراء من يستطيع أن ينقد شعره . وقد أدى ذلك بالاستاذ لاسيل أبركرومي ، وهو يستعرض رأى سقراط في مقاله الرائع عن قواعد النقد الأدبي الذي نقله الى العربية منذ سنوات طويلة الرحوم الدكتور محمد عوض محمد الى أن يميز بين ثلاثة أنواع من المقدرات هي : **القدرة على تفوق الأدب ، والقدرة على تحليل الأدب تحليلًا منطقيًا ، ثم القدرة على نقد الأدب** . وحاول أبركرومي أن يرد هذا التمييز بين المقدرات الثلاثة الى وجود ثلاث ملكات مختلفة هي ملكة الإنشاء أو الإنتاج الأدبي ، وملكة التدقيق ثم ملكة النقد . وهذه الملكة الثالثة يمكن أن تكتسب وأن تنمي بالدرس والممارسة والمران ، وأن كان هذا لا يمنع من أن النقد قد يكون فريديًا كثير من الأحيان ، وأن يصدر على ما سنرى من القارئ بطريقة تلقائية دون أن يعد لممارسة هذا العمل أعدادًا متممًا مقصودًا .

ومهما يكن من امر ، فالهم هو ان « الناقد عادة يكون مدركا » للخطأ التي يتبعها في نقده ، وان هذه الخطأ تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لان ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص . ومن الممكن دراستها وتطبيقها في دقة وعناية » ، بينما ليس هناك في رأيه « قواعد ترشدنا الى كيفية ابتكار الادب ولا الى كيفية الاستمتاع به » . بل الاكثر من ذلك ان النقد الادبي يعجز تماما عن « ايجاد هاتين الملتكيتين عند الناس اذا لم يكن لهما وجود من قبل . فهو يفترض اذن وجودهما افتراضا » (انظر كتاب **قواعد النقد الادبي** - د. دار التأليف والنشر والترجمة - القاهرة - صفحات ٤ ، ٥)

ولكن على الرغم من اختلاف القدرة على النقد الادبي اختلافا تاما من المقدرة على ابتكاره والقدرة على تدوينه فليس ثمة ما يمنع بطبيعة الحال من امكان اجتماع القدرات الثلاث في شخص واحد ، بحيث يكون الاديب قارئا للادب وناقدا في الوقت ذاته . وعلى اي حال فان النقد يبدأ بمجرد ان يأخذ قارئ الادب نفسه بالتزام « قواعد عقلية » يطبقها اثناء قراءته ويستعين بها في تدوين الادب مع تقدير ما يقرأ بحيث يصبح الاستمتاع بالقراءة « مبنيا على اساس من الفهم وحسن التخير » وبذلك يكون النقد عبارة عن « اسئلة معقولة يسألها المرء عن كل شيء يتعلق بالادب لم الاجابه عنها كذلك اجابه عقلية » (ص ٧) سواء كانت هذه الاسئلة والاجوبة متعلقة بنظرية الادب ذاتها ، او بما يسمونه « بالنقد الاساسي » والنقد الخاص لاعمال ادبية معينة ومحددة بالذات ومع التسليم بهذا كله فليس ثمة ما يمنع من ان يكون النقد الادبي على ما ذكرنا من قبل « عملا شخصيا كالتأليف الادبي سواء بسواء ، ويكون كالادب وليد النبوغ العبقري » بحيث يصدر عن مواهب معينة قد لا تستند الى اي قواعد واسخة ملبة او مدروسة ، بل وقد تنفر من مثل هذه القواعد الجامدة فلا تلتزم بها ، وبذلك لا يتمسك الناقد بنظرية محددة او يبتدأ معين بالذات يلتزم به طول الوقت ويحاول تطبيقه على كل ما يقرأ . وهذا هو ما يسميه ابركرومبي **بنقد الالهام** الذي يصدر عن الخصائص والمميزات والقدرات الذاتية للناقد ، وان كان هذا النوع من النقد لا يعتبر في رأى الكثيرين ، وبخاصة من المهتمين بنظرية النقد الادبي ومدارسه اهم انواع النقد ، لان الذي يهم ذلك هو مدى ما يضيفه النقد والناقد الى قواعد النقد وطرائقه واسهامها في شرح تلك القواعد والطرائق وتفسيرها والعمل على اثرائها وتقديمها . فمثل هذه الجهود هي التي ادت وتؤدي الى ظهور الاتجاهات المختلفة وتنوع المدارس والمذاهب في النقد الادبي . وسوف يجد القارئ عرضا لبعض هذه الاتجاهات والمذاهب في هذا العدد .

والواقع أنه ليس هناك أسلوب أو منهج واحد « صحيح » لمعالجة مشكلات الأدب ، كما أنه لا يوجد مدخل واحد يمكن اعتباره محكاً ومعبأراً لتقييم كل أنواع الأدب وكل الكتابات الأدبية على اختلافها . ذلك لأن الأعمال الأدبية كثيرة ومتنوعة إلى أبعد حدود الكثرة والتنوع ، وتغطي حقبة طويلة جداً من تاريخ الإنسان والحضارة . ومع الاعتراف بالدور الذي تقوم به الدراسات النقدية ، وكذلك نظرية الأدب في توضيح ماهية الأدب ومساعدة القارئ على فهم طبيعته وعلى الوصول إلى درجة أكبر من الاستمتاع والتذوق من قراءته للأعمال الأدبية ، فإن من الخطأ الزعم بأن التذوق والاستمتاع وتقدير هذه الأعمال لن تنجح للقارئ إلا عن طريق الإلمام بنظرية الأدب أو الدراسات النقدية فيه . وكما يقول ديفيد دايش David Daiches أنه من السخف أن نزع أن اليونانيين القدماء لم يستطيعوا الاستمتاع بأعمال سوفوكليس وتذوقها وتقديرها حتى قدرها قبل أن يجيء أرسطو ويكتب كتابه الشهير عن الشعر Poetica ، أو أن نزع أنه كان يتعين على رواد المسرح في بريطانيا أن ينظروا مجيء برادلي A. C. Bradley أو الأستاذ هيلمان Heilman حتى يمكنهم الاستمتاع بـ « الملك لير » . ذلك أن التذوق والتقدير يمكن أن يكونا مستقلين تمام الاستقلال عن نظرية النقد ، ولو أن الاستعانة بهذه النظرية قد تساعد على توضيح معنى العمل الأدبي وبالتالي تساعد على الاستمتاع به ، والغوص إلى أعماقه . وهذا معناه أن النقد الأدبي لا يمكن أن يكون غاية في ذاته ، وأنه حسب تعبير T. S. Eliot ليس غاية ذاتية autotelic وإنما هو بالأحرى وسيلة للوصول إلى فهم أعمق للعمل الأدبي وإلى تحقيق درجة أكبر من التذوق والاستمتاع . ويحقق النقد وظيفته بتحقيق ذلك الهدف .

والذي لا شك فيه هو أن الفن أكبر بكثير من شراحه على ما يقول Daiches أيضاً ، وأنه ليس هناك من بين النقاد من يمكنه أن يزعم أنه استطاع أن يحدد قيمة الفن الأدبي ومغناه بكل ما تحتوي عليه من معنى . فنظريات النقد نظريات جزئية ومتمحيزة وذاتية وقابلة للمناقشة والاختبار ، وإن كان هذا لا يعني أنه لا توجد مقاييس أو معايير للقيمة ، أو أنها تعتمد فقط على الذوق الخاص أو الانطباعات العامة الباهتة . وكل ما يعنيه ذلك هو أنه لا يوجد حكم نقدي لأي عمل أدبي يمكن أن يكون حكماً كاملاً مطلقاً وصحيحاً ومقبولاً من الجميع . ومع أنه يمكن من الناحية النظرية البحث - وضع بعض المبادئ العامة القوية فالواقع أن الأحكام التي تصدر من الناقد من أي عمل أدبي هي بالضرورة أحكام تقريبية ، وأنه على الرغم من كل ما يبذله الناقد من جهود للكشف عن طبيعة العمل الأدبي وماهيته فإن يستطيع في الأغلب أن يحيط بكل جوانبه وأعماقه . فالعمل الأدبي مجموعة متشابكة ومعقدة من الأفكار والآراء والإحساسات والمواقف والتجارب التي خضع لها الكاتب أو الشاعر ، ومن الصعب ، أن لم يكن مستحيل ، أن يصل إلى كل جزئيات

تلك التجربة، وأن يتعرف في دقة وعمق على كل جوانبها ودقائقها . ومن هنا كان النقد الأدبي اقرب في طبيعته الى الفن منه الى العلم ، ومن هنا أيضا كان الناقد الذي يحرص على اخضاع الاعمال الادبية لعدد من المبادئ الجامدة المطلقة ويعمل على تطبيق هذه المبادئ بطريقة منهجية دقيقة وصارمة عرضة لكثير من المخاطر ، كما يشوب عمله كثير من اوجه العيب والنقص .

ومع ان بعض النقاد المحترفين قد يميلون الى وضع قواعد ومناهج ومبادئ محددة لكي يسترشد بها البتدئون في فهمهم لاصول فن النقد الادبي وللاستمانة بها في خطواتهم الاولى فكثيرا ما تنقلب الاوضاع وتخرج هذه القواعد والمناهج عن الاهداف التي وضعت من اجلها ، بحيث تصبح دراسة النقد الادبي في آخر الامر مجرد دراسة للاسلوب الذي يتبعه الكاتب والمبارات التي يستخدمها وما الى ذلك وبدلا من ان يكون دراسة لطريقة الكاتب في عرض تجربته بوضوح وعمق ، واداة لمساعدة القارئ على فهم تلك التجربة وادراك اعماقها وجوانبها المختلفة .

ومن هنا كان لا بد من أن نفهم وظيفة الادب او على الاقل الغرض منه ، ولقد اختلفت الآراء في ذلك اختلافا كبيرا . ولكن الظاهر ان من اهم هذه النظريات التي يعتنقها ليف كير من المشتغلين بالنقد الادبي والتي نجد لها صدى عند كثير من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع المهتمين بدراسة الادب وتحليله وعلاقته بالمجتمع ، الاتجاه الذي يذهب الى ان الغرض الحقيقي من الادب هو « التعبير » « والتوصيل » فالادب نوع من التعبير من تجارب المؤلف وحياته واحاسيسه وانفعالاته وما يدور في نفسه وعقله من مشاعر وافكار ، كما اننى الوقت ذاته وسيلة لتادية هذه التجارب والانفعالات والافكار الى الآخرين بنفس القوة التي يشعر بها الكاتب الذي يمر بتلك التجربة . والاختفاق او الفشل في ذلك يعنى الاختفاق والفشل في انتاج ادب يستحق ان يطلق عليه هذا الاسم .

هذه الوظيفة المزدوجة للادب ، اعنى **التعبير والتوصيل** ، تكشف لنا عن الجانبين الاساسيين اللذين يجب توفرهما في اى عمل ادبي ، وهما الجانب الذاتي للادب - والجانب الموضوعي وتوكيد احد هذين الجانبين او الاخر ، والاهتمام به وإبرازه هو الذى ادى الى ظهور مذهب الرومانتزم من ناحية ، والمذهب الواقعي من الناحية الاخرى . والجمع بين هاتين الناحيتين (الذاتية والموضوعية) هو الذى يشمل في اعتبار الادب . نوما من توصيل ونقل التجربة العيسة العميقة التى يمر بها المؤلف التى يعبر عنها في كتاباته ، وليست العبارة اللفظية في آخر الامر سوى « اداة » وسيلة لتحقيق هذه العملية .

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول مع آبركرومبي - مرة أخرى - أن الأدب يفترض وجود أطراف ثلاثة هم المؤلف والقارئ ثم العبارة اللفظية - أو الكلام - الذي يكون بمثابة الوسيط بين هذين الطرفين . وليس المقصود بالتوصيل هو توصيل (المعلومات) كما هو الشأن في الكتب العلمية، فنحن لا نحكم على الكتابة الفنية أو العمل الأدبي بمدى صحة ما قد يكون به من (معلومات) ، وإنما الذي نأخذه في الاعتبار والذي تصدر عنه أحكامنا هو مدى صدق ذلك العمل الأدبي في التعبير عن التجربة التي يمر بها الكاتب بكل أبعادها وقوتها ، وقدرة ذلك العمل الأدبي على نقل هذه التجربة الذاتية بكل جوانبها وتنوعها وأصالتها .

فالناقد إذن ينظر إلى التعبير على أنه قيمة ذاتية خاصة به بصرف النظر عن الأحكام التي قد يتضمنها ، وذلك على الرغم من كسل ما يقال من الأدب التطبيقي الذي قد يهدف إلى الإقناع ، وإلى قبول قضية أو رأي أو حكم .

فالفرض إذن من الأدب الصرف « هو أن يؤدي عمق الإحساس دون أن يكون له غرض آخر غير مجرد وجوده ، كما أن الحكم عليه بالقوة أو الضعف إنما يكون بالنظر إلى قدرة الكاتب على توصيل تلك التجربة والتعبير عنها » .

وما دام العمل الأدبي تعبيراً عن تجربة معينة مر بها الكاتب فإن النظرة إلى ذلك العمل وتقديره وتقييمه يجب ألا تكون مجرد نظرة جمالية خالصة وإنما لا بد من أن تأخذ في الاعتبار المناخ العقلي والثقافي والحضاري الذي تم إنتاجه فيه ، ومحاولة التعرف على العوامل السيكولوجية والظروف الاجتماعية التي خضع لها الكاتب . فهذه كلها أمور من شأنها أن تزيد قدرة القارئ على فهم ما يقرأ والاستمتاع به وتقديره ، وعلى النفوس إلى أعماق التجربة الإنسانية التي يعكسها الكاتب على ما يقول ديشيس .

فكان الأدب على ما يذهب إليه أنصار هذا المذهب ، ومعهم المهتمون بالدراسات الأدبية من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا - هو عمل اجتماعي ثقافي إلى جانب كونه إنتاجاً فنياً أو جمالياً . ومن الطريف أن نذكر هنا أن الكثيرين من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين تعرضوا لهذه المسألة ينظرون إلى الكاتب أو الأديب على أنه إنسان يمارس حرفة أو مهنة معينة . وإلى العمل الأدبي على أنه وسيلة للاتصال ، أي سلعاً ثقافية ، وإلى القارئ على أنه مستهلك لتلك السلعة الثقافية بشكل أو بآخر .

والمعروف انه منذ عام حاول شوكنج L. L. Schü King على ما يتسول سكاربت Robert Scarpit في مقاله عن « الادب » في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية - ان يضع نظرية من علم الاجتماع الادبي او سوسيو لوجيا للتذوق الادبي . ومع ان هذه المحاولة صادقت كثيرا من الصعوبات ، على الاقل في بداية الامر ، فانها اثارت الاهتمام بالموضوع لدى عدد مسن المفكرين الاجتماعيين الذين اهتموا بالتعرف على العوامل الاجتماعية التي تؤثر في العمل الادبي ومدى تعبير الادب عن الواقع الاجتماعي وانعكاس البيئة الاجتماعية للكاتب في كتاباته ، واثار البناء الاجتماعي عموما في الانتاج الادبي . ثم بدأت بعض المدارس التي تأثرت بكتابات الفيلسوف المجري **جورجي لوكاش** Gyorgy Lukás تنظر السى المجتمع على انه هو الحقيقة الواقعية التي تخفي وراء مظاهر الإدب ، وان كان ذلك لا يتنافى في الوقت ذاته مع اعتباره الادب غاية في ذاتها . وقد بلغ الامر ببعضهم الى حد اغفال دور القارئ في عملية الاتصال الادبي ، بل ان منهم من اتكر ان يكون الادب عملية اتصال بالمرّة ، وبذلك اتركوا وجود ما يمكن تسميته بالاتصال الادبي .

وهذا موقف متطرف يتعارض تماما مع موقف كاتب مفكر مثل **جان بول سارتر** Jean-Paul Sartre الذي يرى في كتابه « ما هو الادب » الذي صدر عام ١٩٤٨ ان العمل الادبي السلي هو نتاج مكتوب للفكر لن يكون له وجود واقعي الا حين يقرأ بالفعل ، لان الكتابة تغير القراءة هي مجرد لغو ، كما ان الكتاب الذي لا يجد من يقرؤه لن يكون اكثر من مجموعة من الاوراق الملوثة بالحبر . وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن اعتبار الظاهرة الادبية مجرد حسيلة للفن نفسه ، وانما هي لقاء او تقابل ، بل وحيانا صدام بين فعلين صادقين من الحرية ، الاول يُعمل انتاج والاخر فعل استهلاك ، بكل ما يقتضيه هذان الفعلان من نتائج وآثار على العلاقات الاجتماعية والاخلاقية . وعلى اية حال فلا بد من ان يكون هناك دائما « رجل اخر » في الادب : كاتب بالنسبة لقارئ، وقارئ بالنسبة للكاتب .



وهذا كله معناه ان من الخطورة الى حد كبير اخضاع النتاج العقلي المكتوب للمحركات الجمالية وحدها او اغفال غيرها من المحركات الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، خاضعة وان اداة الادب هي اللغة والكتابة ، وهما اداة اجتماعيتان .

وليس من شك في ان الكاتب يأخذ في اعتباره في معظم الاحوال الافكار والاحكام والقيم التي تسود في مجتمعه ، فضلا عن الاحكام التي يصورها القراء انفسهم على ما يكتب . فالتفاعل بين الكاتب

والقارئ قائم وقوى ويعمل في اتجاهين متكاملين ، بحيث يلعب الكاتب دورا إيجابيا يتمثل فيما يحاول توصيله من « رسائل » أو تجارب إنسانية إلى جمهوره قرائه الذين تصدر عنهم « استجابات » لهذه « الرسائل » تتمثل في الأحكام التي يصدرونها على ما يكتب والتي تنعكس بدورها على كتاباته الأخرى وهكذا .

ولقد كان من الطبيعي إزاء ذلك أن يشغل دارسو الأدب أنفسهم بوضع الحدود وإقامة التمييزات بين « التاريخ الأدبي » و « النقد الأدبي » .

فالتاريخ الأدبي على ما يقول الأستاذ بيتشون Bateson بهتم بتبيين أن استمد من ب ، بينما النقد الأدبي يحاول البرهنة على أن أ أفضل من ب . . . التاريخ الأدبي يبالغ حقائق مؤكدة ، أو يمكن البرهنة عليها ، أما النقد الأدبي فيتناول أمورا تتصل بالاعتقاد أو الرأي ، وقد تتطرق باصدار الأحكام التقويمية . وهذه تمييزات معقولة ومقبولة إلى حد كبير ، وأن كانت المناهج والأساليب المتبعة كثيرا ما تخلط بينها ، كما أنه كثيرا ما يصعب تصور تاريخ الأدب بغير الرجوع إلى نظرية الأدب أو النقد الأدبي ، أو ممارسة النقد بغير الرجوع إلى نظرية الأدب وتاريخه . وليس من شك في أن النقد الأدبي يأخذ في الاعتبار الأحكام التي كانت تسود في عصور إنتاج العمل الأدبي الذي يتعرض له بالدراسة والنقد ، ويحاول أن يتعمق في فهم اتجاهاتها ومواقفها وفلسفتها ويتعرف على المعايير الأدبية والفنية الموجودة حينذاك . وتعرف هذه النزعة بوجه عام - كما يقول ويليك Wellek ووادين Warren في كتابيهما من **نظرية الأدب** Theory of Literature بالنزعة التاريخية historicism . وكانت هذه النزعة شائعة في ألمانيا بوجه خاص في القرن التاسع عشر رغم اعتراض الكثيرين عليها ، ثم انتقلت من ألمانيا إلى إنجلترا فالولايات المتحدة ولا يزال الكثيرون من « مؤرخي الأدب » يتمسكون بها ، وأدى ذلك إلى ظهور ما يعرف باسم « النسبية النقدية » Critical Relativism ، على ما يسميها فردريك بوتل F. Pottle . وهذه تسمية تتضمن الاعتراف بوجود نوع من عدم الاستمرار في تاريخ الأدب ، ما دام إنتاج كل عصر سوف يقاس بمعايير عصره فحسب .

ومع التسليم بما في هذا الموقف من وجهة ، فقد تعرض لكثير من الهجوم والنقد ، على اعتبار أنه يغفل أذواق القراء المعاصرين ، ويحصر العمل الأدبي داخل إطار ضيق من الوحدة الزمانية والمكانية ، وبذلك يسلبه خاصية العمومية والكلية التي يجب أن يتصف بها أي عمل أدبي جيد . فالعمل الأدبي يجب للحكم الصحيح عليه أن يخضع لمعايير ، وأن يدرس من بمديرين متكاملين هما اللدوق الفني الذي كان يسود عصر إنتاجه ، ثم اللدوق الفني أو الأدبي العام ، ما دام

الادب يعبر عن تجربة انسانية ، حتى وان كانت هذه التجربة تتمثل في شخص المؤلف الذى يجب ان يبرز النواحي الانسانية العامة العميقة في تلك التجربة .

ونحن حين نقرأ اى عمل ادبى انما نقرؤه في ضوء عصره ومجتمعه وثقافته على ما ذكرنا . ولكن ايضا في ضوء التجربة الانسانية العامة وفي ضوء المواقف والاتجاهات الحديثة . وهذا الموقف المزدوج له ما يماثله في الدراسات الانثربولوجية مثلا ، حيث ينظر الباحث الانثربولوجى الى اية ثقافة في ضوء الظروف التى انتجتها وكذلك في ضوء ثقافته هو نفسه ، على اعتبار ان تلك الثقافة الجزئية التى يدرسها ما هى الا مظهر من مظاهر الثقافة الانسانية ككل . وكذلك العمل الادبى ما هو الا تعبير عن جزء معين من التجربة الانسانية العامة ، بقدر ما تعرض لها الكاتب .

فكان من الصعب الفصل فصلا قاطعا وحاسما بين وجهة النظر التاريخية والمعاصرة في دراسة الادب . دراسة نقدية ومحاولة تقييمه . ومع ذلك فانه يتعين على الناقد ان يعمل على ان يتجنب بقدر الامكان الوقوع فريسة في « النسبية النقدية » او في « النزعة المطلقة Absolutism » ، بحيث يتخلص من قصور النسبية دون ان ينزلق الى الاحكام المطلقة الجامدة التى تعتقد ان الطبيعة الانسانية ثابتة لا تتغير ، **فالعمل الفنى او الادبى (ابدى) (تاريخى)** هما . وليس من السهل الجمع بين هذين (البعدين) ، ولكنه امر لا بد منه اذا اريد فهم العمل الادبى فهما صحيحا يريد من معرفة الانسان بطبيعة النفس البشرية وعمق التجربة الانسانية وتمتعها .

الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث

شغلت قضية الشكل والمضمون في الأدب المشتغلين بالدراسات الأدبية والنقدية على مر العصور ، لا في الآداب الأوروبية وحدها ، ولكن في أدبنا العربي كذلك ، وخطورة هذه القضية إنما تنشأ من ارتباطها الوثيق بتقدير قيمة العمل الأدبي وتبين تأثيره . فإن أي خلط في فهم طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون سيؤدي بالضرورة إلى الخلط في الحكم على الآثار الفنية ، والسبب اختلاف النقاد والأدباء في حقائق : أن جاز الاختلاف فيها في العصور الماضية فلا يجوز أن يختلف عليها أحد اليوم . وعلى الأخص بعد أن تطورت دراسات علم الجمال الحديث وبعد أن وضحت من خلال هذه الدراسات الأسس التي يبنى عليها الفن إما كان نوعه .

وقبل أن تبدأ في دراسة هذه القضية وتبعضها في مراحلها المختلفة يحسن بنا أن نحدد ما يعنيه النقد الحديث بامصلاحي الشكل والمضمون أو الشكل والمحتوى ، وقد يستخدم أحيانا اصطلاح الصورة بدلا من الشكل فيقال: الصورة والمضمون .

والشكل عندهم هو الصورة الخارجية ، أو هو الفن الخالص المجرد عن المضمون والذي تتمثل فيه وتحقق من خلاله شروط الفن الأدبي ، سواء كان قصيدة غنائية أم قصة أم مسرحية . فإذا حكمنا على قصيدة غنائية من حيث الشكل مثلاً قصرنا أحكامنا على كل ما يتجمل بتحقيق الصورة

الخارجية لهذا الفن من وزن وموسيقى وصور شعرية ، وصياغة فنية ، وبما قد يتحقق من خلال ذلك من جمال أو انسجام في الوحدة أو تناظر في الأجزاء . وبالجمل كل ما يتصل بالعنصر الشعري الفني في القصيدة وصياغته واسلوب تصويره . وكذلك الحال في المسرحية ، فالشكل فيها هو كل ما يتصل ببنائها الدرامي وعمايك هذا البناء وتدرجه من بداية ، الى وسط ، الى نهاية ، ثم التحام اجزائه وروعة تصويره بغض النظر عما يشمل من مضامين او يشير من قضايا انسانية او اجتماعية او نفسية او اخلاقية .

اما المضمون او المحتوى فهو كل ما يشتمل عليه العمل الفني من فكر او فلسفة او اخلاق او اجتماع او سياسة او دين ، او غير ذلك من موضوعات ذات شأن تاريخي او وطني . ومن هنا يكون المضمون او المحتوى هو في غالب الامر المادة الخام التي يستخدمها الاديب او الشاعر ، والتي يشكلها الفنان في الصورة التي يريدها .

وانقسم النقاد وقتنا لهذا التمييز بين الشكل والمضمون الى مدرستين : احدهما مدرسة الشكل والاخرى مدرسة المضمون . واخذت كل مدرسة تقيس الفن بمقاييسها الخاصة . فاصحاب الشكل لا يرون في المضمون اية قيمة فنية ، ويحصرون احكامهم في دائرة الصياغة الفنية وما يتحقق عنها من جمال ، واصحاب المضمون يرون ان الفن كله مضمون . وحددوا المضمون كما يقول كروتشه تارة بما بلد ، وتارة بما يتفق مع الاخلاق ، وتارة بما يسمو بالانسان الى سموات الفلسفة والدين ، وتارة بما هو صادق من الناحية الواقعية ، وتارة بما هو جميل من الناحية الطبيعية المادية (١) .

والمسألة مرتبطة في جذورها بفلسفة ادراك الاشياء : هل ملهية الشيء متحققة فيه ، او ان الماهية فكرة منفصلة عن الشيء ؟ او بمعنى آخر هل المدرك الحي الذي امامنا يحمل في ذاته حقيقة كامنة فيه أم انه يمثل ظلا زائلا لحقيقة منفصل عنه وبعبدة عن كيانه ؟

اما **أرسطو** فيرى ان الماهية ليست فكر منفصلا عن الاشياء ، والحقيقة عنده كامنة في المدرك الحسي ، ومن ثم فان جوهر الشيء عنده لا ينفصل عن تحققه المادي ، ومن هنا كان عالم الشعر عند **أرسطو** كامنا في المظاهر الحسية ، ويستطيع الباحث ان يستنتج من نقد **أرسطو** انه مؤمن بالتلازم بين الصورة والهيولى .

والذين يفصلون الشكل والمضمون اتسموا بيزولون الى حد كبير بين الافكار او الماهيا وبين المدركات الحسية .

والكلمات لا تعني الدلالة على اشياء ، وانما تعني افكارا او اشياء في الوقت نفسه . فاذا ذكرنا كلمة اسد يتبادى الى الذهن شيان :

أولا جملة الصفات التي تحدد شكل الاسد وتكتسب عن طريق الملاحظة والتفرقة بين الصفات الجزئية والمرسئية والصفات المشتركة :

وثالثها جملة الارتباطات والانطباعات القائمة حول الكلمة ، أو بمعنى آخر ما يمكن أو تضيفه الكلمة من احساس. من اجل ذلك كان من الصعبان تفصل بين ماهية الاسد وبين الاحساس المرتبط بها. ثيريه الكلمة في النفس من احياءات خاصة الاتى نطاق التقسيم النظري بين ما يدرك بالعقل وما يدرك بالحواس . وقد يمكن القول بأن ماهية البدر مستقلة عن جمال البدر الذي يستمد عادة من جملة الاحياءات والارتباطات ، وفي وسع أي إنسان أن يقول ان استدارة البدر واستنارته شيء وجماله شيء آخر ، كما في وسع الدراسة النظرية البحتة ان تقول ان وصفنا للبدر بالجمال شيء نابع عن الذوق ، اما ماهية البدر التي تتمثل في فكرته كنجم مستدير مستدير في السماء لئلا نفسيه آخر اكتسبته من طول النظر والتأمل، لا عن طريق الذوق .

ومن الممكن ان نقول ذلك ، وان نفصل بين ماهية الشيء وبين الانطباعات أو الارتباطات القائمة حوله ، ذلك اذا اردنا ان نفرق بين الادراك العقلي المحض وبين الادراك الحسي . (٢)

ولكننا في مجال اللغة والادب نخضع لمبدأ ما لا ينبغي الاختلاف عليه وهو مبدأ رمزية اللغة، فليست الكلمات في اللغة والشعر مجرد علامات أو اشارات نتخذها لنشير بها على وجود شيء أو سواه ، وإنما هي رموز تتضمن شحنا من المشاعر والاحساسات .

« فالرموز بالمعنى الدقيق هي تلك التي لا يكتفي فيها على مجرد الدلالة بحيث يكون هناك طرفان فقط : طرف العلامة الدالة من جهة ، وطرف الشيء المدلول عليه من جهة أخرى ، بل يضاف الى مجرد الدلالة شحنة عاطفية من نوع معين مقصود يراد لها ان تنزوي في نفس الراي أو السامع كلما وقع على رمز معين ، فعلم جمهور مصر العربية - مثلاً - له ما لهذا الاسم من دلالة على البلد المراد الدلالة عليه ، لكنه يضيف الى مجرد دلالة الاسم على مسماه ضربة من الشعور يراد له ان ينشأ في النفوس كلما وقعت العين على ذلك العلم ... والهلال رمز للاسلام ، والصليب رمز للمسيحية ، فكانهما كلمتان ، لكنهما يريدان على كونهما مجرد كلمتين لكل منهما مدلوله المعين ، إذ هما تضيفان الى عملية الدلالة موقفا شعوريا خاصا » (٣)

فالكلمات اذن ليست قطعا من الخشب أو القيسفساء يوضع بعضها الى جانب البعض ، وإنما الكلمات ارواح تختزن في داخلها مشاعر واحساسات ، وهي وبفاعلها مع غيرها في داخل سياق لغوي قادرة على منح بعضها البعض دلالات وفاعليات خاصة ، وبذلك تكون اللغة في يد الكاتب أو الادبي في حركة خلق مستمرة ، والنفس الادبي استثمار لامكانات اللغة التي لا تنتهي عند حد .

واذا فهمنا رمزية اللغة على هذا النحو يصبح الفصل بين الفكر الخالص المجرد ، وبين الشعور أو الاحساس أو ما تتضمنه كلمات اللغات من ارتباطات أو احياءات أمرا بعيدا كل البعد عن المفهوم الحقيقي لآثر اللغة فنيا .

(٢) نظرية لغوية في النقد العربي ص ٧٠ وما بعدها - دكتور مصطفى ناصف .

(٣) فلسفة لولن ص ٤٣ ، ٤٤ - دكتور ذكي نجيب محمود.

من أجل هذا حق لاوسطو إلا يفصل بين الصورة والهيولى ، ولكن فهم أرسطو للفة لم يصادف هوى عند مدرسة اللغويين الإسكندرانيين : وعند هوراس وشيشرون فقد رأى هؤلاء أن الشعر عالم من الالفاظ ، واختلط عندهم مفهوم الشعر بمفهوم الخطابة ففصلوا بين الشكل والمضمون تحت اصطلاحى الالفاظ والأشياء (RES) ، واستمر هوراس فمن جاء بعده وحتى فى عصر النهضة فاصبح النظر الى الشعر يتساوى مع النظر الى الخطابة والمنطق وفلسفة الاخلاق (٤) .

ومن الغريب ان يمتد هذا تأثير الى القرن التاسع عشر فينقسم فلاسفة الفن فى هذا القرن الى مدرستين : مدرسة الشكل ومدرسة المضمون ، والإعجب من هذا كله ان نرى بيننا اليوم من المعاصرين من يفهم الشعر والأدب على أنه شكل ومضمون أو لفظ ومعنى . ويرجع الفضيلة فيه الى الشكل دون المضمون أو الى المضمون دون الشكل . فما أكثر ما نسمع من النقاد ان قصيدة ما جيدة فيما تشتمل عليه من احساسات ومشاعر ، ولكنها فقيرة من ناحية اسلوبها أو صياغتها . وكثيرا ما نسمع بعض النقاد يتحدثون عن مسرحية ما فيقولون انها سليمة من حيث البناء الدرامى ، ولكن يعوزها الموضوع الهام ذو الشأن التاريخي أو الوطني أو الاجتماعي .

وهذه جميعها اخطاء ياباها الدوق بل وينفر منها العلم والفهم الصحيح لمعني الخلق الادبي والنقد الادبي على السواء .

وليس من شك فى ان هذا الخلط فى مفهوم العمل الفني خلقا ونقدا انما يرجع الى ظهور النظريات الكثيرة مثل نظريات اللذة ، والنظريات الاخلاقية والمادية فى الفن وغير ذلك كما يرجع اساسا الى اهمال العنصر الفني اما اطلاقا أو عجزا . الامر الذي جعل اصحاب نظريات يعتبرون الفن عنصرا لاحقا أو عرضيا .

وليس هناك ما هو اشد حسما للخلاف القائم بين انصار الشكل والمضمون من نظرية الخيال عند كولردج فقد حددت النظرية الخطوط الاساسية التي يبنى عليها الخلق الادبي بدرجة لم بعد هناك مجال بعدها للتشيع أو الانقسام . فقد عرفنا ان الخيال هو الذي يبدع الشكل العضوي ، وهذا الشكل العضوي ينبع من داخل العمل الفني ، كما انه خاضع لتجربة الشاعر لا لشيء آخر يفرض عليه من الخارج . ومن هنا اصبح الشكل الخارجي فى الشعر ليس بلذ قيمة فى ذاته ، ان قيمته فى اتحاده اتحادا عضويا مع سائر العناصر المكونة للعمل الفني . واعتماد كل جزء من اجزاء العمل الفني اعتمادا كلياً على الاجزاء الأخرى هو معيار جودة الشكل عنده . وقد نتج عن هذا كله نتائج غاية فى الاهمية نجملها فى النقاط الآتية :

أولا : اصبح نقد العمل الفني عند كولردج يقوم على اساس هام هو ان الشكل والمضمون يتحدان اتحادا تاما ، وان الشكل العضوي امر غير مكتسب ، وليس مصنوعا صناعة آلية ولكنه فى باطن العمل الفني ويتحدد فى تطوره من الداخل ومعنى شكله هو بالضبط اكتمال نموه (٥) .

(٤) فن الشعر ص ١٩١ ، ١٩٢ دكتور احسان عباس

(٥) كولردج ص ٩٢ الدكتور مصطفى يعوى

ثانياً : إن قيمة العمل الفني تأتيه من اتحاد جزائه ، وإذا كان ثمة قوانين للعمل الفني في قانون المبتدعة ، لا القانون المفروض على الفنان من الخارج . أنه قانونه الخاص الذي يستطيع أن يطرق به أفضل السبل لتحقيق أهدافه ، وبهذا يقضي كولردج على ما كان يلجأ إليه الكلاسيكيون في تقديمهم عندما كانوا يحددون للقراء أصولاً يعينها لا يجيدون عنها ، ويلتزم بها النقاد فلا يحكمون بالجودة أو الرداءة على عمل فني إلا إذا توافرت لهذا العمل شروط محددة . وبذلك يحطم كولردج فكرة القانون الصارم في النقد ، ويرى أنه مسألة نسبية يحددها العمل الفني نفسه الذي يختلف من شاعر إلى آخر ومن عصر إلى عصر .

ثالثاً : القضاء على ثنائية اللفظ والمعنى التي كانت سائدة في النقد الأدبي قبل كولردج . وله في هذا المجال فهمه الدقيق للغة ووظيفتها في العمل الفني .

فهو يميز بين الكلمات كأصوات وبينها كأمعان . أو بينها كأدوات اصطلاحية الغرض منها الإشارة ، وبينها كوسيلة من وسائل الدلالة على حقيقة الشيء . فیر أن اللغة في الشعر تجمع بين لغة الإشارة الباردة وبين اللغة الحية الناقلة للمشاعر . وهو يصف لغة الشعر فيقول عنها : « أنها اللغة الأولى مترجلة باللغة الثانية ، اللغة الاصطلاحية المستخدمة بحيث لا تكنفي بمجرد الإشارة إلى الصورة الباردة ، وإنما بحيث تعبر عن حقيقة الشيء (٦) » . ويقول في موضع آخر :

إن الفرق الشاسع بين الالفاظ التي تستعمل كمجرد علامات اصطلاحية للفكر ، والتي هي بمثابة عملة للتخاطب ، عملة ناعمة للملمس أمحرما كان عليها من رسم وكتابة لكثرة الإستعمال ، وبين تلك الالفاظ التي توصل لنا صورا . سواء أكانت هذه الصورة مستعارة من موضوع خارجي معين لكي تحيي وتخصص موضوعاً آخر ، أم كانت مستخدمة بطريقة رمزية لكي تجسد حالة المتكلم الباطنة ، أو مستخدمة بحيث تعبر على الأقل من نزواته الخاصة (٧) .

ويعرف الشعر بقوله :

« أنه أفضل الالفاظ في أفضل الاوضاع » (٨) .

ومعنى هذا أن أي كلمة في المصطلح الفني لا يمكن تغييرها أو استبدالها بأخرى دون أن يفقد السياق معناها . فكل لفظة مستقلة بوجودها متميزة بشخصيتها . فليس هناك لفظة يمكن أن تتساوى مع لفظة أخرى في محصولها من الشعر . فخذ أي كلمتين متشابهتين في المعنى وحاول أن تستجلي ما وراءهما من إحساس فتستجد أن لكل منهما مزاجاً مختلفاً وروحاً متباينة . من أجل ذلك قال كولردج : « أن الشعر الرائع هو الذي لا يمكن ترجمته إلى الالفاظ أخرى دون أن يفقد جماله شيئاً » (٩) .

(٦) للرجع السابق ص ٩٦

(٧) للرجع السابق ص ٩٦

(٨) للرجع السابق ص ٩٦

(٩) للرجع السابق ص ٩٦

ولو كانت الكلمة مجرد رمز يشير الى معنى أو فكرة فحسب لكان يمكن للكلمتين المترادفتين ان يتساويا أو ان تحمل الواحدة منهما مكان الأخرى. ولكننا عرفنا ان الكلمة ليست مجرد إشارة باردة لمعنى أو فكرة ، وإنما هي نسج متشعب من احساسات . بل ان لكل كلمة تاريخا طويلا مرت به ، وظروفا نشأت فيها ، وارتباطات احاطت بها، وهذا كله كفيلا ان يزيد الكلمة خصبا وحياة ، وان يجعلها شخصية متميزة تماما وهذا هو ما عناه كولردج بقوله :

« ولا يتضمن معنى اللفظة في رأيي مجرد الموضوع الذي يقابلها ، بل يشمل ايضا جميع الارتباطات التي تبعها اللفظة في اذهاننا . فطبيعة اللفظة لا يمكنها من نقل الموضوع فحسب ، وإنما تجعلها أيضا قادرة على نقل شخصية المتكلم الذي يعرض الموضوع ونواياه » (١٠) .

يتضح لنا من كل ما سبق ان علاقة اللفظ بالمعنى عند كولردج علاقة حية ، وأن ارتباطهما وثيق بحيث لا يمكنك ان تغير اللفظة أو تنقلها من مكانها أو تستبدلها الا اذا تغير المعنى .

وابصارا : من النتائج الأخرى الهامة التي تولدت من مفهوم كولردج للشكل والمضمون اعتباره الوزن الموسيقي في الشعر جزءا لا يتجزأ من التجربة الشعورية ، وعنصرها ملتحما التحاما كليا بسانها العناصر الأخرى المكونة للقصيدة . بل ان الوزن عنده ثمرة من ثمار الخيال ، يقول :

« انني اعتقد انه من البشائر المرضية جدافي تأليف الشاب الولع بالصوت الغنى العذب حتى وأن كان في ذلك انطباع معيب . ذلك بالطبع اذا كان من الواضح ان الموسيقى في شعره أصيلة ، وليست نتيجة تقليد آلي سهل . . . فالصور الشعرية (حتى ولو كانت مستقاة من الطبيعة ولا سيما حين يكون مصدرها الكتب مثل كتب الاسفار والرحلات وعلم الاحياء) شأنها شأن الاحداث المثيرة ، والافكار الصادقة والمشاعر الشخصية او العائلية الشيقة . كل هذه الاشياء بالإضافة الى فن جمعها أو صياغتها في صورة قصيدة ، قد يستطيع أي فرد موهوب ، وعلى قدر من الاطلاع ان يكتسبها بالجهد المتصل مثلما يكتسب المرء حرفة من الحرف . اما الاحساس بالثمة الموسيقية بالإضافة الى القدرة على توليد هذا الاحساس لدى الغير فانما هي هبة الخيال وحده . ومن الممكن تنمية هذا الاحساس وتثقيفه، ولكنه يستحيل تعلمه ، مثله في ذلك مثل القدرة على خلق اثر موحد من الكثرة ، وعلى تعديل سلسلة من الافكار بواسطة فكرة واحدة سائدة أو انفعال واحد مهيمن . ان هذه هي الاشياء التي يصلق عليها المثل القائل بان المرء يولد شاعرا . ولا يمكنه ان يصبح شاعرا عن طريق الصنعة » (١١) .

ومصدر الوزن عند كولردج هو العاطفة أو الانفعال بمعنى ان الذي يختار الوزن الشعوري انفعال الشاعر نفسه فعندما تثور في نفس الشاعر عاطفة جياشة يلجأ الى الوزن أو الى الموسيقى لانهما اقرب الوسائل للتعبير عن العواطف المشبوبة ولانها هي الأخرى بدورها

أكثر الوسائل قدرة على تبليغ العاطفة وإثارتها عند القارئ أو السامع . على أن الوزن الذي هو وليد الانفعال والعاطفة المشبوبة بحاجة إلى أن يفرض عليه الشاعر درجة من التوازن ، وهنا تتدخل الإرادة التي تستطيع أن تحول العاطفة الثائرة المشبوبة عند الشاعر إلى ارتفاع محدد خاضع لنظام ، وليس مجرد تفجر عاطفي غير خاضع لسيطرة الإرادة . ومن ثم لا يتحقق الوزن في الشعر إلا نتيجة لدرجة من التوازن بين العاطفة والإرادة . وفي هذا يقول كولردج :

« وبما أن الوزن نتيجة فعل إرادي لأجل مزج اللذة بالانفعال فإنه يجب أن تكون آثار هذه الإرادة واضحة في سائر اللغة المنظومة حسب تدخل هذه الإرادة » (١٢) .

ويربط كولردج بين الكلام المنظوم ولفته . وهو يرى أن أي كلام موزون بحاجة إلى لفظة خاصة تناسبه ، فلما كان الوزن وليد الانفعال وصادراً عن عاطفة الشاعر فكذلك لفته . هذا بالإضافة إلى أن جزءاً هاماً من موسيقى الشعر نابع من علاقات اللفظة وأصواتها ونبراتها ، وما تحمله تلك النبرات والأصوات من مشاعر . ومن هنا نشأت العلاقات العضوية الحية بين الوزن وغيره من مقومات العمل الفني وعلى الإخص باللفظة التي هي مستودع الانفعال والموسيقى والصورة .

أما تأثير الوزن عند كولردج فيرجع إلى ناحيتين : الناحية الأولى ناشئة من تكرار وحدة موسيقية معينة تنتشر في العمل الفني كله ، وتعمل على تشويق القارئ ودفعه للقراءة والثناء حب الاستطلاع في نفسه . أما الناحية الثانية فهي النغمة غير المتوقعة ، والتي لا تنشأ من التشابه بين وحدات موسيقية متكررة وإنما تلك التي تنشأ من عنصر المفاجأة أو خيبة الظن كما يتطوّر لريتشاردز أن يسميها . فالإيقاع عنده لا يتحقق من قانون التوقع وحده وإنما يتوقف على قانون المفاجأة أو خيبة الظن . يقول ريتشاردز :

« والنسيج الذي يتألف من التوقعات والإشباع أو خيبة الظن أو المفاجآت التي يولدها سياق المقاطع هو الإيقاع . وربما كانت معظم ضروب الإيقاع تتألف من عدد من المفاجآت ، ومشاعر التسويف وخبية الظن لا تقل عن عدد الإشباعات البسيطة المباشرة . وهذا يفسر لنا لماذا سرعان ما يصبح الإيقاع المسرف في البساطة شيئاً تمجّه النفس » (١٣) .

وهذه النغمة الناشئة عن عدم التوقع أو المفاجأة هي التي تولد الدهشة وتثيرها لدى القارئ في الكلام المنظوم .

ومجمل القول في الوزن عند كولردج أنه جزء لا يتجزأ من التجربة ، يصدر عن درجة عالية من التوازن بين العاطفة المشبوبة والإرادة الواعية ، ويثير في النفس حب الاستطلاع والتشويق والدهشة . ويتألف الوزن مع مادة القصيدة يمكن للشاعر أن يحقق عملاً فنياً رائعاً

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٠

(١٣) مبادئ النقد الأدبي - تأليف ريتشاردز - ترجمة د. مصطفى بدوي ص ١٩٢

أما الوزن وحده فلا يمكنه أن يحقق قيمة غنية ذاتية . من أجل ذلك يشبهه كولودج بالخمرة فيقول :

« أن الوزن إذا ما قصد استعماله لأغراض شعرية أشبه ما يكون بالخمرة ، فالخمرة في ذاتها عديمة القيمة ، بل إنها كريهة المذاق ، ومع ذلك فهي تضاف على الشراب الذي تمتزج به بنسب معقولة روحاً وحيوية » .

ومن هذه العبارة الأخيرة يتضح لنا أن قيمة الوزن في الشعر لا تتحقق إلا إذا استطاع أن يتحد ببقية العناصر في القصيدة اتحاداً تاماً .

الشكل والمضمون عند كروتشه :

ومن أهم من تعرض لقضية الشكل والمضمون في العمل الفني الفيلسوف الإيطالي المعروف بندتو كروتشه وأضع كتاب « علم الجمال » وصاحب مدرسة كبيرة في الدراسات الجمالية والفنية .

ولقد لاحظ كروتشه أن هناك ثلاثة تمييزات خداعة تملأ ساحة فلسفة الفن وتفسر المرء بسهولة وبدايتها الظاهرة وكلها تتعلق بالشكل والمضمون وأشهر هذه التمييزات هو التمييز بين **المضمون والصورة** (١٤) .

وخطورة هذا التمييز في رأي كروتشه يرجع إلى الناقد سوف يجد نفسه أمام قيمتين اثنتين للعمل الفني لا قيمة واحدة . أحدهما ترجع للشكل والآخرى للمضمون . فيرى أشياح المضمون أن الفن هو العنصر الصوري المجرد ، ويرى أشياح الصورة أن الفن هو العنصر المجرد من المضمون .

ويسخر كروتشه من هؤلاء وهؤلاء ، حين يتشبع دراستهم وفلسفاتهم ويجد في نهاية الأمر أن كل ما دار من جدل حول المدرستين لم ينته إلا إلى حقيقة واحدة هي أن أصبح أشياح المضمون ، على غير إرادة منهم ، أشياحاً للصورة ، أصبح أشياح الصورة على غير إرادة منهم أشياحاً للمضمون . وهكذا وقت كل من الطائفتين موقفه الآخرى ، ولكن على غير استقرار ولا أطمئنان ، لم تعود إلى موقفها على غير أطمئنان ولا استقرار كذلك .

ولكن قضية الشكل والمضمون عند كروتشه قد وجدت الحل تلقائياً في تفسيره للفن وتحديد مفهومه . وقدرنا أن الفن حديث عند كروتشه . وعرفنا ما يعنيه بكلمة الحديث ، وأدركنا أن تعريفه للفن بأنه حديث قد ميز الفن عن المفاهيم المنطقية والفلسفية والاجتماعية ، كما ميزه عن اللذة والأخلاق ، ولكنه مع تمييزه للفن عن كل المفاهيم فهو لم يقلل من شأن المضمون بل لقد جعله نقطة البدء التي تنفرع منها التجربة والحقيقة التعبيرية أو الفنية . ولكنه مع ذلك لم يجعل للمضمون خصائص فنية سابقة على العمل الفني . فإذا كان للمضمون قيمة فهو لا يكتبها إلا من خلال العمل ذاته .

وينتهي كروتشه في مناقشته لموضوع التمييز بين المضمون والصورة الى الحقيقة الآتية ، فيقول :
 « والحقيقة هي أن المضمون والصورة يجب أن يميزا في الفن ، لكن لا يمكن أن يوصف كل منهما على انفراد بأنه فني ، لأن النسبة القائمة بينهما هي وحدها الفنية ، أعنى الوحدة ، لا الوحدة المجردة المجتهدة . بل الوحدة العينية للحية » (١٥) .

ويقول في موضع آخر :

« فسيان إذن (أو قل اتها وسليتان من وسائل التعبير الموافق) أن نعد الفن مضمونا أو صورة ، شريطة أن يكون المفهوم دائما أن المضمون قد برز في صوره ، وأن الصورة متمثلة بالمضمون ، أي أن الشعور هو الشعور المصور . وأن الصورة هي الصورة المشعور بها » (١٦) .

ويقول كذلك :

« والعاطفة أو الحالة النفسية ليست مضمونا خاصا ، وإنما هي الكون كله منظورا اليه من ناحية الحدس . وليس في وسعنا أن نتصور في خارجها أي مضمون آخر ليس في الوقت نفسه صورة مختلفة من الصور الحدسية :

لا الأفكار التي هي الكون بأسره منظورا اليه من ناحية التمثل ، ولا الموضوعات الفيزيائية والعناصر الرياضية التي هي الكون بأسره منظورا اليه من ناحية الإرادة » (١٧) .

وبهذه العبارات الأخيرة المحددة يحسم كروتشه في القضية كلها عندما يربط بين المضمون والصورة هذا الربط المحكم ، فلا يمكن تصور مضمون مهما يكن شأنه خارجا عن الصورة الحدسية . وما الفكر والعقل ، والتخيل والتجربة ، والإرادة إلا وسائل خادمة للفن ولكنها ليست بذاتها فنا .

أما التمييز الثاني الذي لا يقل عن التمييز الأول خداما والذي تمتلئ به أيضا ساحة فلسفة الفن فهو التمييز بين **الحدس والتعبير** أو بمعنى آخر التمييز بين الصورة وترجمتها المادية .

فمن الناس من يميز بين التجربة باعتبارها موضوع الانفعال والتصوير وبين ما يستخدمه الفنان من كلمات أو أصوات ألوان للتعبير عنها . ويرى هؤلاء أن الأولى هي باطن الفن والثانية هي ظاهرة . ويعتبرون الأولى هي باطن الفن والثانية هي مادته .

ويرد كروتشه على هؤلاء فيرى أن التفريق بين الباطن والظاهر قد يكون سهلا أمره ولو في القول على الأقل ، ولكننا إذا انتقلنا من عملية التفريق الى تقرير النسبة أو التركيب فسوف نصلهم بمواقف تخيب الظن وتحطم الآمال ، وإذا بنا ندرك أن تمييزنا كان خاطئا . يقول :

(١٥) المجلد في فلسفة الفن ص ٥٥

(١٦) المجلد في فلسفة الفن ص ٦٦

(١٧) المجلد في فلسفة الفن ص ٥٦ ، ٥٧

« فأنى لشيء خارج عن الداخل وغريب عنه أن يجتمع إلى هذا الداخل ويعبر عنه ؟ كيف يمكن لصوت أو لون أن يعبر عن صورة مجردة من الصوت واللون ؟ كيف يمكن للجسم أن يعبر عما ليس بجسم ؟ بآية طريقة يمكن أن يساهم في فعل واحد الخيال التلقائي والتفكير والنشاط المادى ؟ متى فرقنا الحدى عن التعبير ، وجعلنا طبيعة الأول مختلفة عن طبيعة الثاني ، لم نجد هناك حدا وسطا يستطيع أن يجمع بينهما ويلحس أحدهما بالآخر . ولا تستطيع جميع نظريات التداوى والعادة والآلية والنسيان التى ارتآها علماء النفس أن تحل مسألة الاتصال هذه بين التعبير والصورة . وهذا ما اضطر بعضهم إلى افتراض أن فى المسألة سرا ... فمنهم من رأى أن هذا السر تزواج عجيب ، وهؤلاء من أصحاب الدوق الشعري ، ومنهم من رأى أنه نوع من الموازنة النفسية الجميلة .

وكان ينبغي قبل أن نلجأ إلى السر أن نبحث هل كان تفريق العنصرين صحيحا ، بل هل يمكن أن تصور حدسا من غير تعبير . وفي رأبي أن ذلك لا يقل امتناعا على التصور من تصور نفس بلا جسد ... والواقع أننا لا نعرف إلا حدوسا معبرا عنها . **فالفكرة لا تكون بالنسبة إلينا فكرة إلا إذا أمكن أن تصاغ بالفاظ ، ولا اللحن الموسيقي يمكن أن يكون لحنا موسيقيا ما لم يتحقق بانغام ، ولا الصورة التجسيمية يمكن أن تكون صورة تجسيمية ما لم تظهر بخطوط واللون .** ولست أحتس أن تنطق الالفاظ جهارا ، ولا أن تصرف الموسيقى على آلة ، ولا أن تثبت الصورة على خيش . ولكن من المحقق أنه متى بلغت الفكرة حد النضج وأصبحت فكرة حقا دارت الالفاظ فى كياننا كله ، فحركت عضلات الفم ، ورنّت فى داخل الأذن . ومتى كانت القطعة الموسيقية قطعة موسيقية حقا رأيتها ترتن على الشفاه ، وتحرك الأصابع حتى تكأن الأصابع تلعب على أوتار خيالية » (١٨) .

ويقول كذلك :

« أنك لو جردت الشاعر من أبحره والفاظه وقوانينه . لما بقى هناك فكرة شعرية كما يخبى إلى بعضهم . بل لما بقى شيء البتة . فأنما نشأ الشعر مع هذه الالفاظ وهذه القوافى وهذه الأبحر . وليس فى وسعنا كذلك أن نقول أن التعبير أشبه بالبشرة بالنسبة إلى الجسم . اللهم إلا أن نقول : أن الجسم كله ، فى كل خلية من خلاياه ، وفى كل عنصر من هذه الخلايا . هو فى الوقت نفسه بشرة » (١٩) .

وهكذا ينتهى كروئشه فى مناقشاته بفكرة الفصل أو التمييز بين الحدى والتعبير إلى حقيقة هامة مؤداها : أنه لا يمكن تصور الفصل بين الفن ومادته طالما كانت العبقورية الأصلية لدى الفنان هى فى الحقيقة كامنة فى قدرته الفائقة على استغلال مادة فنه واستثمارها على النحو الذى يبلغ به درجة عالية من الكمال . إذ كيف يمكن لإنسان أن يكون شاعرا عظيما وهو يسئ نظم الشعر أو مصورا كبيرا وهو لا يجيد الملامحة بين الألوان . أو موسيقيا موهوبا وهو لا يحسن تحقيق

التناغم بين الأصوات . أو يكون فنانا كبيرا وهو لا يحسن التعبير ؟ من أجل ذلك قالوا من روفائيل لو لم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، غير أنهم لم يقولوا لو لم يكن له إحساس بالرسم لظل مصورا عظيما . (٢٠)

أما التمييز أو التفريق الثالث الذى ملأ مساحة فلسفة الفن والجمال والذى خدع الناس طويلا وما زال يخدعهم ، والذى يحرص كروتشه على أن يبنه الأذهان اليه لخطورته على نظرية الفن ، وعلى المذاهب النقدية هو موضوع التفريق بين **التعبير والجمال** .

وهؤلاء ، في نظر كروتشه ، يقسمون مفهوم التعبير الفنى الى لحظتين « لحظة التعبير بالمعنى الخاص للكلمة : معنى الوصول الى التعبير ، ثم لحظة جمال التعبير : معنى زخرفة التعبير . وعلى هذا الأساس صنفوا التعبيرات في زمركين : التعبيرات العارية ، والتعبيرات المزخرفة » (٢١) .

ويرى كروتشه أن هذا الاتجاه في التفريق بين التعبير وزخرفة التعبير منتشر في ميادين الفن المختلفة ، ولكنه قد نما واتسع في ميدان اللغـة بوجه خاص ، بل أنه يحمل اسما مشهورا هو اسم البلاغة . ذلك لان البلاغة في اعتقاده هى الميدان الذى تنفصل فيه الصورة البيانية عن التعبير . فكثيرا ما نرى الدارسين في الميادين البلاغية يعنون عنابة خاصة بزخارف التعبير عن تشبيه واستعارة ومجاز ، ويفردونها بالبحث والدراسة ، وكثيرا ما يقفون عند هذه الصور وقفات خاصة يتناولونها منفصلة عن التعبير مما جعل بعض الناس يظنون ان للصور البيانية قيمة مستقلة عن التعبير الذى وردت فيه .

ويعلق كروتشه على هذا الاتجاه بقوله :

« وقد كان للبلاغة تاريخ طويل منذ بلغاء اليونان الى ايماننا هذه ولا تزال تدرس في المدارس ، ويعنى بها في الكتب ، بل في المباحث اللغوية التى تزعم لنفسها انها عملية ، فضلا عن الافكار العامة بطبيعة الحال ، ولو انه فقد في ايماننا هذه كثير من قوته الاولى ، وقد قبله اناس من اهل الذكاء والحصافة لا ادري امن كسل ام لقوة التقاليد ، وتركوه يعيش قرونا طويلة . ولم تكسح تحاول الثورات النادرة التى قامت في وجهه ان تشيد ثورها مذهباً ، وان تنتزع الخطأ من جذوره . ولم يقتصر شر البلاغة التى تقول بوجود لغـة « مزخرفة » مختلفة عن اللغة العارية وسامية عليها ، لم يقتصر شرها على ميدان فلسفة الفن ، بل تعداه الى ميدان النقد » (٢٢) .

وليس من شك في ان المنهج البلاغى الذى يرجع مقياس الجمال والجودة في الشعر او في النثر الى ما فيه من صور بيانية منهج لا ينهض على أساس من فهم صحيح للأدب . ولقد نبه

(٢٠) ارجع السابق ص ٦٣

(٢١) ارجع السابق ص ٦٤

(٢٢) دلال الاصباح - عبد القاهر الجرجاني - ص ٧٩

عبد القاهر الجرجاني الى خطورة هذا المنهج في القرن الخامس الهجري ، وذلك عندما قضى على فكرة التفريق بين التعبيرات العادية والتعبيرات المزخرفة بقوله :

« ان من الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من يعد العلم بالنظام والوقوف على حقيقته » . (٢٣)
وقد كان لنا قدنا العربي الكبير منهجه الخاص في دراسة البلاغة وهو منهج يختلف كثيرا عن منهج من استمسكوا بالتقسيمات البلاغية الشكلية من امثال السكاكي والقزويني .

وما نظن ان هناك اليوم من النقاد المحدثين من يجادل في ان الجمال ليس محصورا في الزخرف او الاستعارة . ومن البديهي ان يخلو بيت من الشعر من الصور البيانية ويحقق قمة الجمال في الجمال في التعبير الفني ، بل ان من الشعر مالا يعدو مجرد التعبير عن حالة نفسية تعبيرا بالغ التأثير قوى الايحاء ، وهو بهذا وحده قادر على ان يبلغ الجودة لسداجته وصدقته ، ويقول كروثه في هذا :

« ان التعبير المناسب اذا كان مناسباً ، كان جميلاً كذلك ، لان الجمال ليس الا القيمة المحددة للتعبير وبالتالي للصورة . ولذا كنا نعتي بنعمته بالمرى انه يعوزه شيء يجب ان يتوافر فيه . فنعني ذلك في هذه الحالة انه ليس مناسباً ، اوانه ليس تعبيرا ، او ام يصح بعد تعبيرا . وكذلك التعبير المزخرف ، فانه اذا كان تعبيرا في كل اجزائه لم نستطع ان ننعته بانه مزخرف ، بل بانه عار كالاول وبانه سليم كالاول كذلك » (٢٤)

ويقول :

« ليس التعبير والجمال مفهومين اثنين ، فما هما الا مفهوم واحد يمكن ان ندعوه بأحد اللفظين على السواء . ان الخيال الفني لا يكون بدون جسد ، ولكنه ليس بدين ، ولباسه من ذاته ، لا يلبس شيئا غيره ، وليس اذن بمزخرف » (٢٥) .

ويرى كروثه ان موضوع التفريق بين التعبيرات العادية والتعبيرات المزخرفة يرجع في الحقيقة الى تأثير المنطق والفكر على دراسى اللغة وعلمائها الذين كثيرا ما دارت بينهم المناقشات حول علاقة الفكر بالخيال والفلسفة بالشعر ، والمنطق بالفن ، والجدل بالبلاغة . ووجد هؤلاء ان التفريق بين الفكر والخيال يقتضيهم ان يصنفوا اللغة الى لفتين : الاولى لغة الفكر والثانية لغة الشعر . وذهبوا الى ان التعبير العادي او العارى هو المطابق للفكر والفلسفة ، وان التعبير المزخرف هو المطابق للخيال والشعر . واستمسكوا بهذه القسمة النظرية التى ان جاز لها ان تصح في مجال التفريق بين لفتين ، احدهما لغة عملية صارمة تستخدم خارج ميدان الشعر ، والثانية لغة الانفعال التى تستخدم في ميدان الادب والشعر . ان مثل هذه القسمة لا يجوز لها ان تصح ، هذا ، اذا قصرنا كلامنا على ميدان التعبير الادبي سواء منه المزخرف او غير المزخرف . وذلك اننا في مجال

(٢٢) ارجع ص ٦٢

(٢٤) المجلد في فلسفة الفن ص ٦٥

(٢٥) المجلد في فلسفة الفن ص ٦٥

الأدب لن نجد إلا خيالا وشعرا وفنا ، وإن ادخلنا المنطق أو الفكر الفلسفي المجرد هاهنا ، ظلما ، خليق كما يقول كروتشه أن يلتقي ظللا خادعا ، حقيقا بأن يلبس الأمر على العقل ، ويوقعه في الاضطراب ، ويحول بينه وبين رؤية الفن في كامل رحابته وتفاوته بدون أن يريه منطقا ولا فكرا . (٢٦)

ثم يزيد كروتشه الأمر توضيحا حين يهاجم النظرة المنطقية إلى اللغة تلك النظرة التي فصلت بين النحو والبلاغة . فقد ظن أصحاب هذه النظرة أنه ما دامت اللغة نحوا فينبغي أن تكون نظرتها إليها نظرة منطقية . والذي زاد الأمر فظاعة أن هذه النظرة المنطقية للغة قد فرضت هي الأخرى سلطانها على منهج البلاغة ودراساتها . وحين يهاجم كروتشه هذه النظرة المنطقية إلى اللغة اتما ينبه إلى خطورتها على مناهجنا في دراسة الأدب والبلاغة يقول :

« على أن أسوأ الشروخ التي سببها مذهب التعبير « المزخرف » لتصنيف صور الفكر الإنساني تصنيفا نظريا هو ما تعلق بنظرة أصحابه إلى اللغة . فإنا إذا سلمنا بوجود تعبيرات عارية نحوية فحسب ، وبوجود تعبيرات أخرى مزخرفة أو بلاغية لزم من ذلك أن ترجع اللغة إلى تعبيرات العارية وأن ترد إلى النحو . وبالتالي ، (إذا كان للنحو في البلاغة ولا في الفن) إلى المنطق حيث يستند إليها دور ثانوي . والواقع أن فساد اللغة المنطقية مرتبط ارتباطا وثيقا بالمذهب البلاغي في التعبير ، وهو يتقدم معه جنباً إلى جنب ، فقد نشأ معاً في العصر اليوناني القديم ، ومعا يعيشان في أيامنا هذه ، رغم تعارض الأول مع الآخر . وقد كانت الثورات على النظرية المنطقية في اللغة نادرة جداً ، ولم يكن لها نتائج ذات بال ، شأنها شأن الثورات التي قامت في وجه البلاغة .

وظل الأمر على هذا المتوال حتى العهد الرومانطيقى ، فأصبحنا نرى لدى بعض المفكرين أو في بعض المراكز المصطنعة ، شعورا قويا بماتماز به طبيعة اللغة من قوة خيالية أو مجازية ، وبما هنالك من روابط تجعل اللغة أوثق بالشعر منها بالمنطق .

على أن كثيرا من خيرة هؤلاء المفكرين ممن ظلوا يرون في الفن رأيا خارجا عن الفن « كالمذهب المفهومي أو المذهب الأخلاقي أو مذهب السلة » ظلوا كذلك يتفرون نفورا واضحا من التوحيد بين اللغة والشعر . وفي رأينا أن هذا التوحيد محترم وسهل مما ، ما دمتا فهمنا الفن على أنه حدس ، وفهمنا الحدس على أنه تعبير ، ووجدنا بذلك ، ضمنا ، بين التعبير واللغة ، إذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع . فما قصرنا تحكما على ما يدعى باللغة الملفوظة ، ولا حدفنا منها ، تحكما عنصر النبرة والاشارة ، وإذا فهمناها بأكمل قوتها ، أي إذا فهمنا هاتين واقعها ، من حيث هي فعل الكلام نفسه ، فما خلطنا بينها وبين مجردات النحو والمفردات . ولا ظننا — يا للحماقة — أن الإنسان يتحدث وفقا للنحو ووفقا للمفردات . أن الإنسان يتحدث في كل لحظة كما يتحدث الشاعر لأنه كالشاعر ، يعبر عن تأثيراته ومواقفه في هذه الصورة التي يسمونها كلامية أو مألوفة ، والتي لا تفصلها أية

قوة من سائر الصور التي يسمونها نثرية ، أو نثرية شعرية ، أو قصصية ، أو ملحمية أو حوارية
 درامية ، أو غنائية أو موسيقية وما الى ذلك . ولئن كان لا يسمى الإنسان أن يعد كالشاعر
 (وهو في الحق كذلك ، لكونه انساناً) فما ينبغي أن يسمى الشاعر أن يجمع الى عامة الناس ، فان
 هذا الجمع يفسر لنا لم كان للشعر الراقى سلطان عظيم على كافة النفوس الانسانية ، فلو كان
 للشعر لغة خاصة ، لو كان « لغة الآلهة » لما استطاع البشر أن يفهموه لئن كان الشعر يسمو
 بالبشر ، فانه لا يسمو بهم فوق ذواتهم ، بل داخل ذواتهم : وهكذا نرى الديمقراطية الحققة
 والارستقراطية الحققة ، في هذه الحالة ايضاً لتلتقيان : فيلتقي الفن بالغة ، وتلتقى فلسفة الفن
 بفلسفة اللغة حتى يمكن أن تعرف كل منهما بالآخرى ، أى أن تعدا شيئاً واحداً ... وان هذا التوحيد
 بين الشيئين يعود على الدراسات الفنية والشعرية بفائدة عظيمة ، فيخلصنا من روااسب النظريات
 المفهومية والإخلاقية ، ونظريات اللغة التي لا تزال تلاحظ بوفرة عظيمة في النقد الأدبي والنقد الفني .
 كما أنه يعود بفائدة عظيمة على الدراسات اللغوية التي يحسن أن نخلصها من المناهج الفسيولوجية
 والنفسية الفسيولوجية التي تجري الآن مجرى المودة ، وان نحررها من نظرية الاصل الاصطلاحي
 هذه النظرية التي ما تفك تتجدد ، والتي تستتبع وراءها المزاجات الغيبية بين الصورة والاشارة ،
 لان اللغة لا تفهم على انها اشارة ، بل على انها صورة اشارة . أى على انها اشارة للصورة ذاتها ،
 وبالتالي صورة ذات لون موسيقى وغناء . ان الصورة هي نتاج عغوى للخيال ، لان الاشارة التي
 يتفاهم بها الانسان مع الانسان ، تفترض مقدماً وجود الصورة وبالتالي وجود اللغة (٢٧) .

هذا العرض الممتع الذي عرضه علينا كروثه للنظرة المنطقية للغة ، وما ترتب عليها
 من آثار في المذاهب البلاغية والنقدية جدير بأن يلقى الضوء على كثير مما التبس على أذهان
 الدارسين حين يفرقون بين لغة الخيال ولغة المنطق ، وحين يفصلون بين اللغة والشعر ، وحين
 يميزون بين اللغة العالوية واللغة المخرفة وحين يراوون بين الصورة والاشارة ، وكلها تقسيمات
 خطيرة تعود على النقد الأدبي والبلاغة بالضرر البالغ ، وتباعد بين الدارسين وبين الفهم الصحيح
 لطبيعة اللغة الأدب .

ولما كانت هذه الافكار وثيقة الصلة بدراساتنا البلاغية ومنهج العرب القدماء في درس
 البلاغة ، وفي تصوره للغة ، فقد حرصنا كل الحرص على أن نثبت هنا ما قاله كروثه كاملاً
 حتى ينتبه مؤرخو البلاغة الى ما ينهض من مناهج البلاغة على مبدأ سليم ، وما لا ينهض منها الا
 على شقي في النظرة وفساد في الحكم .

الشكل والمضمون ووظيفة الادب

تؤمن المدارس المالية في الادب بأن الاثر الأدبي - أيما كان نوعه - إنما يصدر من تجربة
 خيالية أو حدسية تنمى لذاتها ولا تهدف لغاية من ورائها ، اللهم الا ما في التجربة ذاتها من جمال

او لذة او جودة . وبمعنى آخر وعلى حد قول وولتر باتر ، ليست الغاية في الالء الفننى هى ممارسة التجربة بل التجربة ذاتها . وواضح ان اصحاب هذه النظرة لا يمنون فى التجربة الشعريّة او الادبيّة الا بقيمتها الجماليّة والفنيّة وحدهما ، والفن عند هؤلاء ليس وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، بقدر ما هو وسيلة لخلق صور واخيلة واحساسات تبعث على اللذة ، وتنتشر الجمال للجمال وحده . اما ما فى العمل الفننى من نشاط آخر عقلى او اجتماعى ، او فلسفى او اخلاقى فليس له قيمته ذاتة ، وفى هذه الحالة لا تتوقف قيمة العمل الفننى على ما فيه من خير خلقى او اجتماعى او فلسفى ، ولا يتوقف معيار صدقه على اى شىء يقع خارج العمل الفننى نفسه .

وواضح ان اصحاب هذه النظرة لمفهوم الاثر الادبى وطبيعته ووظيفته قد تورطوا فى خطأ جوهرى ، فهم بهذا الاتجاه انما يعزلون مادة الفن عن صورته ، ولا يلقون بالا لكل ما يتضمنه الادب من امور تتعلق بالاجتماع والاخلاق وسائر مقومات الحياة الفكرية المعيشية ، وما يتصل بالحياة الانسانية من مشاكل هى فى الحقيقة من صميم تفكير الفنان . فاذا كانت مشكلة الفنان الحقيقية هى فى محاولته الربط بين شعوره بفردية الحياة ، وبين حقيقة العالم حواليه ، فان الشاعر الذى يبدو فى وصفه للعالم مغرقا فى الرومانسية او المثالية انما هو شاعر لم يصب الا قسما ضئيلا من النجاح ، بل لعله ان يكون فى بعض الاحيان عازفا عن محاولة الخوض فى موضوعات تحتاج الى تعمق مشاعر الآخرين ، والى قدر من قوة الخيال التى بدونها لا تتوافر للادب اصالته وقدراته . اصف الى هذا اننا اذا زعمنا ان ليس فى دولة الفن الا عبادة الجمال ، وان الجمال وحده هو غاية الغايات فى دولة مستقلة ذات سيادة ، فقد حجبنا الادب عن ممارسة الحياة ، بل قل جعلنا الحياة شيئا ساذجا لا يستحق ان يعاش .

وفى هذا يرد عليهم الناقد الماركسى جوزيف فريمان بقوله :

« ان الناقد الليبرالى يطلب منا ان نعتقد اننا حين نكتب عن رياح الخريف وكيف عبثت بشعر فتاة ، او نكتب عن النهود العطشى ، انما نكتب عن تجربة . فان كتبنا عن ثورة اكتوبر او مشرود السنوات الخمس او عن شقق الزوج فى جنوب الولايات المتحدة او عن اضطراب مسان فرانكيسكو ، فهذه الموضوعات لا تسمى تجربة » (٢٨) .

وفى هذا ايضا يقول ستيفين سينتور : « الشعر ليس مجرد تصوير لحظة احمرار وجنات الحبيبين او رؤية جمال الزهرة او روعة لون الغروب ، بل الشعر هو الذى يمتد سلطانه فيشمل الحياة بأسرها ، بل وما بعد الحياة ، هو ذلك النهر الهائل الذى يروى الحياة كلها ، لا يحتقر الفسيفساق الغضى ، وان كان يتجاهل النافه » (٢٩) .

(٢٨) الاشتراكية والادب ص ٥٤ د . لويس هوف

(٢٩) الحياة والشاعر تاليف ريتشاردز ترجمة ترجمة د . مصطفى بدوي ص ١٨

هداما وقع فيه المثاليون من خطأ أمثال اليساريون المتطرفون فخطأهم لا يقل خطا عن خطأ المتطرفين من اليمينيين. فإذا كان اليمينيون قد عبدوا الجمال والفرد وحدهما، فإن اليساريين قد أحلوا عبادة الجماعة محل الفرد، وعبادة المادة محل الجمال، وجعلوا ظواهر المجتمع بشتى صوره السياسية والاقتصادية غاية يستخر لخدمتها الإنسان، وليست وسيلة تسخر لخدمة الإنسان.

وما نفلن أن القضية بحاجة بعد هذا التحليل إلى أن ينقسم فيها النقاد إلى فئتين، أحدهما تقول بوجود أن يكون الأدب هادفاً، والآخرى تنادى بضرورة أن يترك الأدب حراً من فيسود الأهداف، ذلك أن جذور الخلاف كائنة كما يقول الشاعر الألماني الحديث «أريك نوساك» في خلط الناس بين مفهومين متميزين: مفهوم «الإنساني» ومفهوم الاجتماعى ولو إدركنا في وضوح أن «الاجتماعى» وسيلة تحقيق لنا «الإنسانى» لزلت عن المشكلة عقدها، لو إدركنا أن كل ظواهر المجتمع بشتى صورها السياسية والاقتصادية إنما جاءت، أو جرى بها لتخدم الإنسان - والإنسان لا يكون إلا فرداً - لادركنا تبعاً لذلك أن الأدب لا بد أن يكون هو الإنسان المتعين المتجسد. فإذا شغل الأدب نفسه بأحداث عصره، فإنما يشغلها بها من الجانب الذى يصور لنا وقفة الإنسان أزاء هذه الأحداث، بحيث إذا زلت الأحداث، واختفت أمارتها، بقيت صورة الإنسان حية في كل عصر وفي شتى الظروف (٣٠).

وما دام التوجه إلى الإنسان هو غاية الأدب الحقيقية في كل عصر وكل زمان، بغض النظر عن اتجاهات الأدب ومدارسه، فإن الأدب العظيم هو الأدب الذى يتأمل العالم والإنسان وقوانينه، ويتساءل لماذا تجرى الأمور على هذا النحو، والأدب الباقي هو الذى يستمد قوته من الحياة والجمال معا، وهو الذى ينظر بعين يقظة إلى المجتمع الإنسانى، فيناصر من هذه المجتمعات ما يتماشى مع القيم الإنسانية، وما يساير الحق والعدل والجمال. فالأدب الحق يحرص على أن يكون لنظم المجتمعات غاية تمكس ما في نفوس البشر، وأفراد المجتمع الواحد من هموم وآمال وشعور بالحب والحاجة إلى التطور والتقدم.

على أن التوجه إلى الإنسان - إما كان محتواه الفكرى أو الفلسفى أو الاجتماعى - لا يرتقى إلى مستوى الفن إلا إذا توافرت فيه شروط العمل الفنى، ذلك أننا نعلم أن الذى يحدد القيمة النهائية لى عمل فنى هو ما يحتوى عليه من قيم فنية وجمالية. ومهما تكن قيمة المضمون وأهميته فلا بد له في النهاية أن يتحول إلى فن، والعمل الذى لا يقتننا فنياً بظل قامراً من بلوغ كماله.

نحو علم جمال عَرَبِي

« تصور وتطبيق »

● تمهيد ...

شغلتنى - عبر أروام طويلة من حيائى - فكرة ظلت تلح علي الحاحاً متواصلاً . وكانت لتجسد بين الحين والحين فى بعض كتاباتى ، بطريقة نظرية أو تطبيقية . ولقد نجر فى نفسى هذه الفكرة ، سؤال القيتة على نفسى بالمصادفة : لماذا لا يكون لنا « علم جمال عربى » ؟

ووجدتنى أبحث عن تحديد دقيق لهذا المصطلح . ونفشت فى البداية أن اكتفى بالتعريفات العامة المبسطة . فعرفت هذا المصطلح بأنه « النسق الفكرى المترابط الذى نبحث من خلاله عملية الإبداع الفنى ، ونختبر على ضوءه طبيعة الأعمال الفنية فى اللغة العربية ، وسيكلوجية مبداها ، والعناصر التى شكلت ذوقه بطريقة فلسفية » .

ويمكن أن نحدد هذا التعريف بمصر التحديد ونعتبر علم الجمال العربى : هو « مجموعة الأسس النظرية والقواعد والقوانين التى ندرس على نورها التجربة الجمالية »

ونمتحن من خلالها الخبرة الجمالية ، وتذوق عناصرها الفنية ، وقيمها التصويرية والتعبيرية والتشكيلية » . فعلم الجمال العربي - إذن - يؤدي الى ادراك ماهية الجمال الفني ، في الأجناس الأدبية والفنية المختلفة .

ورحت أفتش عن سبب لاختفاء هذا اللون من ثقافتنا العربية المعاصرة . على الرغم من أنها حفلت بكل الأجناس والأنواع الأدبية ، حتى تلك الأجناس الأدبية - التي قيل ان تراثنا العربي قد خلا منها خلوا تاما ، أو على الأقل ، لم يعرفها بصورتها المتطورة الناضجة - كالرواية والأفصوصة والمسرحية ، عرفت ثقافتنا العربية الحديثة ، وطورها ، وأصلتها وأنضجتها ، وتحولت الى أجناس أدبية عربية ، لها أصولها الجمالية وتقاليدها الفنية .

فلماذا خلت ثقافتنا العربية الحديثة من هذا العلم ، مع أنه ضارب بجذوره في حضارتنا العربية ، وتراثنا العربي ؟

من الممكن ان نؤجل الإجابة على هذا السؤال ، حتى نتعرف على بدور هذا العلم وجذوره المتصلة في تراثنا العربي القديم .

● تاريخ وموازنة ...

ولكى نتضح في أذهاننا الصورة كاملة ، نشر الى نشأة علم الجمال وكيف انتقل الى الحضارة الأوربية وكيف تطور في الثقافة الغربية ... وبدون الدخول في تفاصيل ، نحب ان تقدم عرضا سريعا بين يدي القارئ لنحدد له طبيعة هذا العلم ونشأته ومساره في الحضارات القديمة والحديثة .

نشأ هذا العلم نشأة طبيعية في حضن الثقافة اليونانية القديمة ، وكان طبيعيا أن يكون فرما من فروع الفلسفة . وقد اهتم به **سقراط** و**أفلاطون** و**أرسطو** ، وبحثوا في ماهيته ووضعوا له الحدود والتقسيمات . وتشير الكتب التي اهتمت بفلسفة الفن وعلم الجمال الى بدور هذا العلم في المحاور التي جرت بين **سقراط** وتلميذه **(هيباس)** عندما سأل سقراط تلميذه .

— ماذا عسى ان يكون الجمال ؟

— وأجاب (هيباس) استأذه ، بأن راح يعدد له بعض الاشياء الجميلة .

فلم يجد سقراط بدا من أن يلتفت نظر تلميذه الى أنه لم يكن يسأل عن « الجزئيات » التي تنطبق عليها صفة الجمال . وإنما قصد من وراء سؤاله : معرفة ماهية ذلك (المدرك) الكلي الذي نسميه باسم (الجمال) . فليس من شأن فلسفة الجمال ان تبحث في احصاء أنواع الجمال ، وإنما تنحصر مهمتها في تعريف ماهية الجميل « (١) » .

(١) الدكتور ذكريا إبراهيم : فلسفة الفن في الفكر المعاصر ٦ (مكتبة مصر سنة ١٩٦٦) .

ويحدثنا الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه « فلسفة الفن في الفكر المعاصر » أن هذا المفهوم الأفلاطوني الذى أشرنا إليه في المحاور السابقة ، ظل كما هو في الفكر الأوربي الحديث ، وبخاصة عند هؤلاء الفلاسفة المثاليين فهو « بعينه فهم هيجل في القرن التاسع عشر لمهمة (علم الجمال) . ففى كتابه (دروس في علم الجمال) ، أكد : أنه لا بد من أن نتخذ نقطة انطلاقنا من (الجمال) بوصفه (فكرة) أو حقيقة كلية لأننا بذلك ، وبذلك فقط نستطيع أن نتجنب الوقوع في الكثير من المأزق التى تسببها لنا كثرة المواضيع الجميلة . أو تعدد مظاهر الجمال في الطبيعة والفن على السواء » (٢) .

ثم تطور هذا العلم بعد ذلك في الثقافة الأوروبية تطوراً كبيراً ، وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، على أيدي الفلاسفة والمفكرين ، وتنوعت اتجاهاته ومدارسه وتصوراته حسب فلسفة كل فيلسوف من فلاسفة هذين القرنين . ويبدو أن ازدهار هذا العلم في أوروبا في هذين القرنين يعود إلى ازدهار فلسفاتهم وتطورها الكبير ، وكان من الطبعي أن يهتم الفلاسفة بفلسفة الفن وعلم الجمال ، لأنهما من العناصر التى تدخل في مجالات بحوثهم واهتماماتهم . وكان اهتمامهم بدراسة الظاهرة الجمالية والنفاذالى باطن العمل الفني لا يعنى وضع معايير للجمال يطيعها منتجو الأعمال الفنية ، بل كان مجرد دراسة نظرية معرفية .

فعالم الجمال « ليس بمثابة تنحصر كل مهمته في الإدراك الحسى ، كما أنه ليس بفنان يصدر في عمله عن الهام فنى ، وإنما هو باحث تتمثل وظيفته في فهم الظاهرة الجمالية ، والعمل على توضيحها في ذهننا فليس (علم الجمال) علماً معيارياً يبين لنا ما ينبغي أن يكون عليه العمل الفني ، وإنما هو علم وصفي يدرس العمل الفني باعتباره ظاهرة بشرية تدخل في صميم النشاط الروحي للموجود البشرى وعالم الجمال لا ينصح الفنان بشيء ولا يلزمه بشيء . بل يقتصر على دراسة النشاط الفني ، والنفاذ إلى المعنى الباطني العميق للعمل الفني . » (٣)

ثم أخذت نظره الفلاسفة الحديثين للدراسة علم الجمال تتطور وتأخذ مسارات جديدة . فبعضهم اعتبرها مجرد دراسة تجريبية للذوق الإنساني . والبعض الآخر يحولها إلى دراسة لسيكولوجية الإبداع الفني والتذوق الجمالي . والبعض ، من الذين يهتمون بالتفسيرات الاجتماعية ، ربطوها بالنشاط الحضاري ، وغدت دراسة تعنى بالبحث في العلاقة بين منتج الفن وجمهوره . وقد كانت هذه التحولات ثمر من ثمار اهتمام الأدباء وغير الفلاسفة ببحوث علم الجمال . وإن كان من الحق أن نقرر أن الفلاسفة والمهتمين بالدراسات الفلسفية ظلوا على اهتمامهم بدراسة علم الجمال ، والاهتمام بالخبرة الجمالية في حد ذاتها ، باعتبارها نشاطاً إنسانياً يؤكد حرية الفرد وقدرته الإبداعية .

على ان اهم تحول طرا على دراسة علم الجمال ، هو ما حدث في مطلع القرن العشرين ، او في ربعه الاول على وجه التحديد ، وعلى ايدى مجموعة من الباحثين الالمان من امثال « دسوار » و « اوتيتس » . وغيرهما ، فقد حولوا « علم الجمال » وفلسفة الفن وبحث الظاهرة الجمالية ، الى (علم عام للفن) وتصورهم ان التسميات الاولى ، غير محدده وغير علمية ، وترتبط في اذهان الناس « الاستطيقا » لتصورهم ان التسميات الاولى ، غير محدده وغير علمية ، وترتبط في اذهان الناس بالتأمل الفلسفى المجرد . في حين انهم كما يقول الدكتور (زكريا ابراهيم) « قد ارادوا ان يجعلوا من (علم الفن العام) دراسة وصفية تستوعب شتى مظاهر الخبرة الجمالية دون ان تصطبغ بأية صيغة معيارية » (٤) .

وتد كان هدف هذه الدراسة الوقوف على نشأة الظاهرة الفنية وتقويمها « ومعرفة وظائفها البدائية وبيان علاقتها بما عداها من الظواهر الحضارية الاخرى . وقد كتب (اوتيتس) مجلدين ضخمين بعنوان « اسس علم الفن العام » حاول ان يبين - فيها - ان الفن لا يمثل ظاهرة نوعية مستقلة ... بل هو واقعة من وقائع الحضارة او الثقافة بمعناها العام ... وليس علم الفن العام مجرد دراسة علمية وصفية ، او موضوعية للظاهرة الجمالية ، تختفى فيها شتى التاملات الفلسفية حول طبيعة الجمال ، وتنعدم فيها كل الاحكام التقويمية ، بل هو ايضا دراسة بشرية عامة ، تظهرنا على الوظائف الدينية والقومية والتفعية والوجدانية » (٥) .

واذا كان هذا الاتجاه في دراسة الظاهرة الجمالية قد حاول ان يحولها الى علم تجريبي وضعى فان الفلاسفة ظلوا يعرضون للخبرة الجمالية على ضوء تأملاتهم الميتافيزيقية ، وتأثيراتهم العميقة التى انتقلت اليهم من التراث اليونانى . وواجهوا « المشكلة الجمالية في ضوء فهمهم العام لطبيعة الوجود البشرى ، ولصلة الخبرة الجمالية بما عداها من خبرات بشرية اخرى . ومن هنا فقد ظلت فلسفات الفن في القرن العشرين متأثرة بالتيارات الفكرية التى ظهرت في هذا العصر ، مطبوعة بطابع الانجساع المذهبى لكل فيلسوف من الفلاسفة على حدة . والا فبل يمكننا ان نفهم نظرية برجنسون في الفن ، ان لم تكن على علم بمذهبه العام في (الحدس) ؟ ... وهل يكون في وسعنا ان نتف على جوهر « (الخبرة الفنية) مند جون ديوى ان لم تكن على دراية واسعة بنزعه التجريبية المتطرفه واتجاهه البرجماتى الواضح ؟ ... وهل يتسنى لنا ان ندرك معنى العمل عند (هيدجر) اذا لم تكن على وى تام ، بنوع اتجاهه الفكرى ، وطريقته (الفونومولوجية) في تحليل الظواهر البشرية » (٦)

ومن خلال هذه التيارات والاتجاهات المتعددة في دراسة الظاهرة الجمالية فتمتير المفاهيم التى كانت سائدة قبل القرن العشرين ، على يد مجموعة متنوعة من الفلاسفة ودارسى فلسفة الفن من امثال « بندتو كروتشه » و « جورج سفتيانا » و « ديوى » و « آلان » و « مالرو » و « اليركامى » و « مبرلوبوتنى » و « سارتر » و « مارتى هيدجر » و « ارنست

(٤ - ٥) المصدر السابق (١٠)

(٦) المصدر السابق (١٠ - ١١) « بتعرف »

كاسيد» و «سوزان لانجر» و «هربرت ريد» و «سوربو» و «باير» وغيرهم من الفلاسفة والباحثين الذين تناولهم الدكتور زكريا ابراهيم في كتابه القيم «فلسفة الفن في الفكر المعاصر» .

ولم يكتف هؤلاء الباحثون في فلسفة الفن القرن العشرين بإعادة النظر الى المفاهيم التى درج علماء الجمال على استخدامها مثل مفهوم (التعبير) ومفهوم « الصورة » ومفهوم (الحدس) ومفهوم (الرمزية) ... بل ربطوا علم الجمال بمباحث أخرى مثل (علم اللغة) و « علم النفس » وغيرهما من العلوم التى تهتم ببحوث الذكاء ، والعبقرية ، والابداع الفنى . تلك هم الصورة العامة لنشأة علم الجمال وتطوره وتأثيره على الفكر الأوربي الحديث ، اعترف انها اثرت تأثيرا كبيرا في دراساتها الأدبية والنقد الأدبي ، ولكنهم لم تبلور تيارا محددا واضحا من تيارات علوم الجمال كما حدث في البلاد الأوروبية .

وان كانت هناك بعض الجهود الفردية التى قامت بترجمة بعض بحوث علم الجمال من اللغات الأوروبية الى اللغة العربية . وجهود أخرى قام بها اساتذة في تأليف بعض البحوث القريبة من مباحث علم الجمال ، وان كانت اقرب الى النقد الأدبي ومناهج التحليل النفسى منها الى علم الجمال ومن هؤلاء وهؤلاء على سبيل المثال : يوسف مراد وأمين الخولي والفقاد وزكى نجيب محمود ومحمد خلف الله احمد . ومحمد النوبهي ومصطفى ناصف وعز الدين اسماعيل وزكريا ابراهيم واميرة مطر ومصطفى سوف وفؤاد البهى السيد وغيرهم من بعض اساتذة الجامعة الذين قدموا دراسات جامعية في الابداع الفنى .

ولكن كل هذه الجهود العلمية الصادقة المخلصة ، لا تشكل ما يمكن أن نطلق عليه (علم الجمال العربى) وهى في معظمها دراسات متأثرة تأثيرا شديدا بعلم الجمال الأوربي وتياراته وأبحاثه ، ويمكن ان ندرجها في مجال النقد الأدبي والدراسة الأدبية .

وبقى السؤال قائما : لماذا لا يكون لنا علم جمال عربى ؟ وهل اختفى هذا للعلم من ساحتنا الثقافية الحديثة ، لأن رواد الحضارة العربية القديمة لم يلتفتوا اليه ؟ وهذا التساؤل الأخير لا يمثل الحقيقة ولو رجعنا الى تراثنا العربى ، فنسجد كثيرا من فلاسفة الاسلام والمتكلمين والعلماء والأدباء من أجدادنا ، قد عرفوا هذا العلم معرفة دقيقة ، وهم الذين نقلوا هذا العلم الى العالم الأوربي القديم ، قبل النهضة الأوروبية الحديثة ، فقد ترجموا كثيرا من تراث اليونان والفلسفى والأدبى . وقد تأثروا بهذا التراث . وهم الذين ترجموا أهم كتابين من كتب «ارسطو» يعتبران اساسا هاما من أسس علم الجمال ، هما كتاب « الخطابة » و « فن الشعر » ، وهذا الكتاب الأخير ترجمه ولخصه من فلاسفة الاسلام « أبو بشرمى » ويحيى بن عدى و « الكنتى » و « الغارائى » و « ابن سينا » و « ابن رشد » ، ولا شك أن هؤلاء المفكرين والفلاسفة ، قد عرفوا أفكار الفلاسفة والشعراء والخطباء اليونان ، ووقفوا على كثير من اتجاهاتهم الأدبية والعلمية . وكان يمكن أن يفيدوا فوائد كبرى في مجال علم الجمال والنقد الأدبى . ولكن اهتمامهم كانت تنجبه في المقام الأول الى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام . وجاءت اهتمامهم الأدبية والجمالية على هامش رسائلهم الأساسية وتبعاً لها .

ولكن هذا الا يمنع من أن نجد عند هؤلاء من تأثر بهم من الكتاب والادباء العرب القدامى بدورا معتبرا أساسا نظريا لعلم الجمال ، ازدهرت على أيدي بعض الفلاسفة المسلمين ، وبعض رجال المعتزلة والاشاعرة . وبعض فلاسفة المتصوفين .

وكان هم هؤلاء جميعا الوصول الى اللزوة في التأثير في الناس واقتناعهم بأفكارهم . وكان سبيلهم الى ذلك التأثير والاقتناع ، هو الكلمة الواضحة ، او الكلمة الملهمة المؤثرة . ومن هنا جاء اهتمامهم بدراسة عناصر الابداع الفني في الكلام ، ووجوه تأثيره والهامه وإيحائه . وتحولت نظرهم في هذا المجال الى تأصيل فكري لعلم الجمال .

ويمكن ان نشير على سبيل المثال الى كاتب موسوعي كبير **كاتب عثمان الجاحظ** ، وهو من فرقة من فرق المعتزلة ، كيف شغل هذا الكاتب الكبير ببعض الموضوعات التي تعتبر على نحو ما ، من بحوث علم الجمال ، ومن امعان النظر في كلامه عن هذه الموضوعات نشعر انه كان يمتلك تصورا فكريا لعملية الابداع الفني ، فهو يرى مثلا ان الموهبة الفنية هي الأساس في كل ابداع فني . وان الكاتب الموهوب يندفع بفطرته الفنية الى ابداع اعمال ادبية مكتملة الاداة قادرة على التأثير في الناس . ومقياس جودة العمل الفني عند الجاحظ هو هذا التأثير في نفوس الناس أولا . ثم يأتي بعد ذلك ما في الكلام من صواب ومنفعة . ونستطيع ان نجد دليلا على هذا الكلام في تلك النصيحة التي يسديها الى الناشئين من الادباء ، يقول « فاذا اردت ان تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب الى هذا الادب ، فقرضت قصيدة أوجرت خطبة . أو ألقت رسالة ، فابالك ان تدعوك ثقتك بنفسك او يدعوك عجبك بثمرة عقلك الى ان تنتهط وتدمع ، ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل او اشعار ، أو خطب ، فان رأيت الاسماع تصفى له ، والعيون تحدج اليه ، ورأيت من يطلبه ويستحسنه ، فانتعطه . فاذا عاودت امثال ذلك مرارا ، فوجدت الاسماع منه منصرفا ، والقلوب لاهية ، فخذ في غير هذه الصناعة . واجمل رائدك الذي لا يكذبك ، حرصهم عليه او زهدهم فيه » . (٧)

وحول استقبح الجفاف العلمي في الشعر وعدم بناء القصيدة على الافكار وحدها ، يقول الجاحظ : « لو ان شعر صالح بن عبد القدوس كان مغرقا في اشعار كثيرة ، لصارت تلك الاشعار ارفع مما في عليه بطيقات ... ولكن القصيدة اذا كانت كلها امثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء الى شيء ، لم يكن لذلك عنده موقع » . (٨)

ويمكن ان نجد في كتابات الجاحظ أفكار كثيرة حول « الوحدة المضوية » وحول « اللفظ والمعنى » وحول « فكرة التأثير » او « الخيال » وغيرها من الافكار التي تعتبر من مباحث علم الجمال .

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ، ٢٠٣ (تحقيق عبد السلام هارون)

(٨) المصدر السابق ٢٠٦

نحول اللفظ والمعنى يقول « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها المجمل والعربي والبدوي والقروي والمديني. وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة ، وضرب من النسيج . وجنس من التصوير » (٩) ، فالجاحظ في هذه المباحث يتحدث كعالم من علماء الجمال الفاهقين الذين يرون ان العمل الادبي لا يكتمل الا من خلال البناء الفني والوهبة التي تلتقط المعاني المطروحة في الطريق فتصوغها وتنسجها في كلمات وتعبيرات شفافة ، تبرز جمالها وتزيد في تأثيرها. ولا اعتقد ان الجاحظ كان يهدف من وراء هذه الافكار وامثالها الى تفضيل اللفظ على المعنى ، كما ذهب الى ذلك كثير من دارسينا ، ولكنه كان يؤكد تلك الفكرة الجمالية التي ترى اننا لا نستطيع في مجال الابداع الفني ، ان نفصل اللفظ عن المعنى ، او نفصل المعنى عن اللفظ ، فهما مقترنان متمزجان، ولعل هذه الفكرة هي التي اهتمت — فيما بعد — عبد القاهر الجرجاني في نظريته عن « النظم » التي تعتبر بكل المايير من مباحث علم الجمال ، وهي تلاصق كثيرا من افكار علماء الجمال المحذرين ، والذين يعاودون النظر في كتابي « اسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر يتأكدون من صحة كلامي هذا .

ويمكن ان نشير الى حكيم آخر من حكماء المعتزلة هو بشر بن المتحر ، وقد كانت له نظرات في علم الجمال والنقد الادبي . وصحيفته التي سميت باسمه تحمل تلك الانكسار والنظرات . ويقول في هذه الصحيفة حول قضية اللفظ والمعنى « التوهم يسلمك الى التعقيد . والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشبه الفاظك ، ومن اراد معنى كريما فليتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (١٠) .

ويحدثنا عن مناسبة المعاني للالفاظ بقوله لابد « ان يكون لفظك رشيقا جذبا فخما سهلا ، ويكون معنك ظاهرا مكشوفيا وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة اردت ، والمعنى ليس يشرف بان يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بان يكون من معاني العامة ، اتسامدار الامر على الصواب واحراز النفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من القول » (١١) .

وهناك كثيرون من الفلاسفة والادباء والباحثين العرب القدامى يمكن ان نستشهد باتوالمهم في هذا المجال من امثال (الامدي) و (قدامة بن جعفر) و (ابن طباطبا العلوي) و (ابن رشد) و (ابن سينا) و (الكندي) و (الفارابي) . ولكن المجال لا يتسع لهذا .

(٩) (الجاحظ : الحيوان ج ٢) ١٢١ - ١٢٢

(١٠) (نغلا من البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩)

(١١) (المصدر السابق)

وكذلك الامر بالنسبة للمتصوفة .. ولكن لابد من ان نقف عند قضيتين هامتين في هذا المجال هما :

قضية اعجاز القرآن

وقضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين

فقد ثارت حول القضية الاولى قضايا كثيرة ، والفت مباحث متعددة . وكان من الطبيعي ان يهتم اصحاب هذه القضايا والمؤلفات بدراسة الظاهرة الجمالية في التراكيب الادبية حتى يتمكنوا من فهم المغزى الادبي والفنى لامعجاز القرآن الكريم .

وقد ألف كثير من علماء الكلام من المعتزلة والاشاعرة واهل السنة . كتباً تدور حول اعجاز القرآن ، ويعتبرا هنا بصفة خاصة كتابان بعنوان « اعجاز القرآن » الاول « **لابى سليمان الخطابى** » والثانى « **لابى بكر الباقلاني** » .

ولست أقف عند هذين الكتابين لأعرف رأى الخطابى والباقلاني في قضية الاعجاز ، ولكن لاتبين موقفهما من فهم الظاهرة الجمالية في نتاج الادباء . ففيهما أفكار وتصورات في الابداع الفنى والتشكيل البنى وروعة التجارب الادبية تحتاج الى تأمل ودراسة ، فالخطابى (مثلاً) له مفهوم عام لجناس الكلام ودرجات جودتها يحدثنا عنها بقوله « ان اجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل . ومنها الجائر المطلق الرسل . وهذه اقسام الفاضل من الكلام ، فالقسم الاول اعلى طبقات الكلام وارفعه ، والقسم الثانى اوسطه واقصده . والقسم الثالث ادناه واقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الاقسام حصه . وأخذت من كل نوع من انواعها شعبة ، فانظم لها بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والمعدوبة ، وهما على الانفراد في نموتهما كالمتضادين ، لان المعدوبة نتاج السهولة ، والجزالة والثالثة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الامرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما من الآخر - فضيلة خص بها القرآن » (١٢) .

ويمكن ان نقف عند معنيين هامين في هذا الكلام للخطابى هما « الجمال » و « الجلال » واثراً في النفس الانسانية ، وهو يعبر عن الجلال في اثر الفنى بالريانة والجزالة والفخامة والمثانة وعن الجمال بالمعدوبة والسهولة والصلابة .

ومما يلفت النظر في كلام الخطابى حول الابداع الفنى : ادراكه العميق للمعانة التى يتحملها مبدع العمل الادبى وما يجب ان يتوافره من ثقافة وبراعة وقدرة على تحمّل المعاناة وبصر بمواضع التراكيب ونظمها ، وهو يحدثنا عن كل ذلك بقوله « وامر معاناة المعانى التى

تحملها الألفاظ شديد ، بالغ الشدة ، لأنها نتائج العقول ، ولولاد الأفهام وبنات الأفكار ...
وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والخلق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني .
وبه يتصل أخذ الكلام ، ولتثم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها
البيان » (١٣) .

وهذا كلام لا يختلف كثيراً عن نظرات بعض علماء الجمال في الحضارة الأوروبية الحديثة ، من
علاقة المعاني بالألفاظ التي تحملها ودور الثقافة . والتقاليد الفنية الخاصة بنظم الكلام .

أما « الباقلائي » فهو عالم من أهم علماء الأشاعرة ، وكتابه (اعجاز القرآن) من أدق
الكتب العلمية المبكرة التي تناولت بالتفصيل هذه القضية ، ولكنه تناول إلى جانب ذلك ، كثيراً من
قضايا النقد وعلم الجمال . وتعرض في معظم صفحات كتابه لدراسة الخبرة الجمالية عند
الشعراء والأدباء ، والموازنة بينهما وبين أساليب القرآن الكريم في التصوير والتعبير ، وطريقته في
عملية النظم ، وقد تحول الكتاب إلى معرض أنيق للتدقيق الشعري العميق .

ويمتاز الباقلائي عن غيره من المتكلمين ومن كثير من اللغويين والكتاب ، بأنه كان يختار نصاً
كاملاً يجري عليه تجاربه في التدقيق الفني ، فوقف عند « معلقة امرئ القيس » . واستشهد بأشعار
كثيرة تناولها في دراسته ووأزن بينها وبين البلاغة القرآنية .

وفكرته عن أسلوب النظم في الكلام جيدة ، وآراؤه حول اللفظ والمعنى ، وعملية الإبداع
الشعري ، سليمة مستقيمة تدل على ذوق مرهف وحس فني عميق . وهو يميز تمييزاً كبيراً بين
ذوق العلماء ، وذوق الأدباء والشعراء في عملية التقويم الشعري والتدقيق الفني . وله تصور
فني متكامل لطبيعة التعبير الأدبي والفني .

فالكلام عنده موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس . وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من
اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد ، وأوضح في الإبانة عن المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع
على الأذن ، ولا مستنكر المودد على النفس ، حتى يتأني بفراسته في اللفظ عن الأفهام ، أو يمتنع
لعويص معناه عن الإبانة . ويجب أن يتنبه ما كان عامي اللفظ مبتذل العبارة ، ركيك المعنى ،
سفاسق الوضع ، مجتلب التأسيس ، على غير أصل ممد ولا طريق موطد » (١٤) .

يبقى أن أثير في نهاية هذا العرض السريع لبذور علم الجمال وجذوره في تراثنا العربي ، إلى
قضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين . وهي قضية هامة ومتشعبة تحتاج وحدها إلى
دراسة متخصصة وتكاد تكون نظرية مستقلة في علم الجمال ورائد هذه النظرية بلا مراء ، هو
الشيخ الأكبر « محيي الدين بن عربي » . فقد اهتم هذا الفيلسوف المتصوف ، إلى نظام
رمزي كامل ، طبقه على اللغة والفكر ووصل من خلاله إلى كشف فكرية وفنية كبيرة .

وقد درس (ابن عربي) هذا النظام الرمزي في موسوعته الكبرى « الفتوحات المكية » . درسه في السفر الأول تحت عنوان « علم الحروف » وعاد اليه في السفر الثاني بالبحث والدرس . ولست بصدد تقويم هذا النظام الرمزي الذي اهتمت اليه ابن عربي ، فهذا الأمر محتاج الى فترة طويلة للتفرغ الكامل لهذا النسق المعقد الذي استغرق مئات الصفحات في الفتوحات المكية ، ولكن الذي لاشك فيه ان قدرة ابن عربي على التذوق الفني والادراك الجمالي ، تسلكه في زمرة علماء الجمال ، وان كان الرجل لم يكن يقصد الى هذا ولا يسره ان ينال هذا اللقب ؛ فقد كان همه الأكبر الوصول من خلال هذا كله الى علم الباطن ، ليكون طريقه الى الروح الأعظم . وسر الاسرار ، الذي كان الهدف من كل مكابذاته الصوفية ، واشواقه الروحية .



اذن لماذا اهتمنا كل هذا التراث الرائع .. ؟ ولماذا لم تتطور هذه النظرات العميقة في دراسة الخبرة الجمالية ، كما تطورت في الحضارات المختلفة ؟

ولماذا بقينا بلا علم جمال عربي حتى الآن ؟

ولا أريد ان اغامر بالرد على هذا السؤال . فليس يكفي ان نقول ان انقطاع تيار الريادة في مجال الفلسفة الاسلامية والعربية كان وراء هذا الأمر . فلاشك ان عندنا مجموعة من المفكرين والدارسين للفلسفة الاسلامية والمهتمين بالأدب والتذوق الجمالي والفني ، كان من الممكن ان يقوموا بتأصيل نظري حديث لعلم الجمال العربي في ساحتنا الثقافية .

وعلى كل حال فليس المهم أن نجيب على التساؤلات التي تثيرها ، ولكن الأهم ان نفجر المزيد من هذه التساؤلات ، ثم نترك الاجابة عليها للتطورات الفكرية والروحية واحداث الحياة وتقلباتها ، ومرور الأيام وكر اللبالي . فهي كقيلة بان تحل أعقد المشكلات ، وتجب على أصعب الاسئلة .

وقد نجيب على السؤال بطريقة اخرى ، وذلك بان نقوم بمحاولات في سبيل الوصول الى علم جمال عربي . وقد قمت - على امتداد عشرين عاما - بمحاولتين ، او بمعنى أدق بمفامرتين في هذا السبيل لا مفر من ان اعرض لهما مادمت احدث عن خلو ساحتنا الثقافية من « علم جمال عربي » .

واتمنى ان تثير حول هاتين المحاولتين مزيدا من الجدل والحوار والنقد والتفنيد حتى تبلور هذه الأفكار ونحدد المصطلحات ، مادنا نسمى الى « علم جمال عربي » .

محاولتان :

المحاولة الاولى :

اما المحاولة الاولى فقد عرضت لي وأنا أقوم بدراسة تفصيلية في شعرنا المعاصر مسنة ١٩٥٨ وكنت أفت عند شعر الرائد الكبير **محمود حسن إسماعيل** طويلا ، أعيش بين صوره والتذوق

تجاربته الفنية ، واحلل طرائفه التعبيرية وقيمه الجمالية . ولكن كنت احس في شعر محمود حسن اسماعيل بشيء آخر غير كل هذا ، شيء يفرغ نفسي ، ويهز وجداني ، ويحرك عقلي . واحيانا كنت اسمع همسه واضحا في اذني . . ما طبيعة هذا الشيء ؟ هل هي القدرة اللغوية الفائقة عند الشاعر ؟ هل هي الطاقة الشعرية ؟ هل هو قاموس محمود حسن اسماعيل المتفرد ؟ هل هي طريقته في تشكيل صورته الفنية ، وتراكيبه وتعبيراته ؟ هل هو مزيج من كل هذا . .)

ووجدتني ابحث عن تصور جديد لاكتشاف هذا الشيء . وبعد معايشة طويلة لمعلم شعر محمود حسن اسماعيل ، ووجدتني اهتف : حقا لقد وصل هذا الفنان الكبير الى درجة « الوجد الشعري » وسحرني رنين هاتين الكلمتين ، وفرحت بهما فرحا كبيرا فقد مهدا لي الطريق الى المحاولة الاولى . واكتشفت ان الفنان الموهوب لابد ان يصل في مرحلة من مراحل حياته الى ذروة النضج الفني ، وكما يصل المتصوفة والسالكين الى الوجد الصوفي يصل الفنان الى شيء قريب من هذا ، لابد من الكشف عنه وتحديد به بطريقة موضوعية .

الوجد الفني

وقد ردت ان اطلق على هذا الشيء اسم « الوجد الفني » .

واعترف ان فكرة (الوجد الفني) هذه ، تراءت لي في الاصل خاطرة صوفية هابرة ، في لحظة من تلك اللحظات الراهفة النافذة العميقة التي تشبه الاشراق الصوفي ، وقد اقتنصت تلك الومضة الحاملة ومزجتها بفلسفة الجمال ، ومصطلحات النقد الادبي ، واستيقظ طموحي العارم وتذكرت خلوي ساحتنا الثقافية من علم جمال عربي ، فحاولت ان اجعل من تلك الومضة العابرة لبنة من لبنات هذا العلم . فاستعرت مصطلح « الوجد » من قاموس المتصوفة والسالكين واسندته الى تجربته الفنية فصار « وجدافنيا » ، ورحلت ادرس على ضوء هذا الاكتشاف « جهاز الابداع الفني » وطبيعته وطريقته في ابداع التجربة الفنية وادوات الابداع التي يعمل من خلالها هذا الجهاز . وجعلت اتساءل هل اللغة وما يحيط بها من اشعاعات وظلال ، وما تفجره من شحنات وصور ورموز ، هي ادوات هذا الجهاز ؟ وكيف يعمل هذا الجهاز من خلال هذه الادوات والرموز ؟

وما علاقة كل هذا بالعالم الخارجي ، او عالم الفنان الباطني ؟

ثم عكفت — بعد ذلك — على وضع بعض الاسس الموضوعية لهذا (الوجد الفني) من خلال دراسة التجربة الفنية في مراحلها المختلفة حتى تصل الى ذروة التوهج والاشراق وتقتل معنى كلمة « الوجد » من قاموس الفلاسفة الالبيين والمتصوفة وحولته الى مصطلح جمالي يعسور ارتباط مبدع اثر بتجربته الفنية ارتباطا عضوياحيما متوهجا ، فيه جدة الفن وعمق التسعور ونضج الاداة الفنية . وحددت السمات والخصائص التي تميز الوجد الفني . ومنها :

التنبه الحاد المصحوب بيقظة الحس ورهافة الشعور وعمق الاحساس بالحياة .

جيشان النفس واحتدام العاطفة ، والروح الانساني العميق الذى يحتضن الوجود بما فيه من كائنات .

غزارة الوهبة ، وثرائها ، واكمال الاداة الفنية ، مع الاحساس بالدهشة الدائمة من مظاهر الوجود ومراىي الطبيعة .

ووضحت ايضا الروايات المتعددة التى يمكن أن نطل منها على الوجد الفنى والتى يمكن أن يتحول اليها :

فقد يكون معيارا فنيا نختبر من خلاله التجربة الفنية ، وندرس ظروف مبدعها وطبيعته

وقد يتحول الى فلسفة جمالية اذا درسنا على ضوءه ، تصور الفنان للجمال ، وادراكه للعلاقات والنسب التى تشكل معمار الممثل الفنى .

وقد يصبح حالة تلم بالفنان ، فتفجر نظره الفنية ، وتصبغ ادراكه للاشياء ونظيره للعلاقات الانسانية .

وقد يتحول الى سمة من سمات الممثل الفنى ، وخصيصة من خصائصه ، ويكون ادراك تلك السمات والخصائص الجمالية ، منهجا نقديا يمكن أن نفيد منه ونفسر على ضوءه الاعمال الادبية والفنية . على أن هذه التحديدات الصارمة لم تمنعنى من القيام بعمليات متعددة من التدقيق الجمالى من خلال منهج « الوجد الفنى » فقامت بدراسة لشعر محمود حسن اسماعيل بعنوان « الوجد الشعرى عند محمود حسن اسماعيل » . . . ودرست على ضوءه بعض التجارب الصوفية كاحياء علوم الدين ومشكاة الانوار للفرزلى . والرعاية لحقوق الله للمحاسبي والرسالة القشرية للقشيري . والفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربي .

وقامت بدراسة فكرة الموت على ضوء منهج الوجد الفنى . ومن خلال هذا المنهج تدوقت القصيدة العينية لابن سينا « هبطت اليك من المحل الارفع » . وهى تجربة عميقة تمتزج فيها الرؤية الفكرية بالرؤية الفنية امتزاجا تاما ، حتى يصعب علينا ان نفرص فيها بين التفكير والتصوير والتعبير . ولعل ذلك يعود الى ان الشاعر كان قد وصل الى تلك الحالة المتوهجة المشرقة ، التى تلم بمن يصلون الى درجة الوجد الفنى ، فتحولت الفكرة فى وجدانه الى تجربة مشبوبة فى اعماقه . فخرجت القصيدة الى الوجود على هذا النحو المركب الذى تسوده وحدة عضوية ووحدة فنية ووحدة شعورية . وقد تراعت لى اشياء جديدة فى أثناء الدراسات التطبيقية التى كنت اقوم بها على ضوء نظرية « الوجد الفنى » .

مثلا : وأنا أدرس الفتوحات المكية لأبرهيمى تبين لى انه اصل مجموعة من النظرات الجمالية ، ووضع نسقا متكاملا للمعرفة يتلاءم مع أفكاره وتصوراته ، وتوصل الى مجموعة من الرموز الفنية فى الباب الذى سماه « علم الحروف او « علم الاسرار » . وأشاع مجموعة من المصطلحات الفنية واللغوية من الممكن أن تكون نواة صلبة لعلم جمال عربى . الى جانب ما توصل

اليه من رموز واشارات ، واستخدامات للغة :مكنته من ابداع مجموعة من النصوص الادبية والفنية ، اعتقد انها تثرى نقدنا العربى الحديث ، لو صبرنا على فهمها وسر اغوارها ، واخضعناها للدوق العصرى .

واكتشفت وأنا ادرس (مشكاة الانوار) للامام ابى حامد الفزائى ، انه توصل الى النور الباطنى والظاهرى وربط بين الذين يدركون هذه الانوار وبين من يتذوقون الموسيقى ويدركون طبيعة الالحن ويتذوقون الاغنى ويميزون بين الاوتار وقال « فانظر الى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس ، وهو نوع احساسى وادراك . ويحرم منه بعضهم ، حتى لا تتميز عندهم الالحن الموزونة المنزحفة . وانظر كيف عظمت قوة الدوق فى طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والاغنى والاوتار » .

وقد نشرت بعض هذه الدراسات التطبيقية التى قمت بها . ولفت نظرى بصفة خاصة ما اثاره البعض حول دراسة التراث العربى واستلهامه واستيحائه على ضوء هذا المنهج ، فقد ظن البعض ان هذه حيلة الجأ اليها لحياء التراث العربى ، ولا ادرى لماذا نحتال لحياء تراثنا ، وهو واجبنا جميعا ، ولكن الحقيقة المجردة ان « الوجد الفنى » معيار نقدى يصلح لدراسة الادب المعاصر والادب القديم على السواء .

فليس طريقنا لتلخيص آراء العرب القدامى في علم الجمال وتصورهم لفلسفته .

وليس مناهجا لاعادة النظر في مدلول كلمة الوجد عند الصوفية على اختلاف مدارسهم وتصوراتهم .

وليس دعوة لتلفيقية مزج أفكار مختلفة من مدارس علم الجمال فى الحضارة الاوربية ، وخلقها بأفكار مشابهة فى تراثنا العربى .

فإن الوجد الفنى معيار نقدى معاصر استلهم فى البداية التراث العربى ، ثم تحول بعد ذلك الى مصطلح جديد له اسمه وخصائصه وسماته التى حددتها فى هذه الدراسة .

وهذا فى نظرى ، هو المعنى الحقيقى لاستلهام التراث ، فنحن نعمل عقولنا وذاقنا المعاصر فى خامات مشبعة بحبة من تراثنا ، لنحولها بعد ذلك الى شيء جديد ، له غزارة الإحياء وميق التراث فى اطار المنهج العلمى الحديث .

ليس معنى ذلك اننى لم استغنى من نظرات العرب القدامى فى علم الجمال وتصورهم للعلمية النقدية ، او لم استغنى من معانى الوجد عند الصوفية ، او من افكارهم فى الدوق والجمال والخير والحب والوهم والخيال ، والابداع الفنى بل الصحيح ان هذه الاشياء كلها ، كانت الخميرة الاساسية لهذه الفكرة ، اختلطت بهذه العناصر كلها وتغلغل فيها فانتجت هذا الذى نسميه « الوجد الفنى » .

واعتقد اننى افدت كثيرا من تطبيق (معيار الوجد الفنى) على الاعمال الفنية والادبية للمتصوفة والسالكين ، لان اصحاب تلك التجارب وصلوا فى معظم الاحيان الى حالة من الوجد

الصوفي ، وهي وقدة روحية مشحونة بالألوان والظلال تهز النفس الانسانية وتفجر كل طاقات الإبداع ، ومن ثم تكون الاعمال التي يبدعونها ، على هذا المستوى المشحون المتوتر التوقد ، وانتهت من هذا الى ان كل اديب لا يصل الى تلك الوقدة الروحية والشعورية وهو. يبدع عمله الفني ، لا يكون اديبا بالمعنى الحقيقي . قد ينتج في غير هذه الحالة أعمالا كثيرة ، ولكنها تظل أعمالا فائرة ، لا تهز الوجدان ، ولا تلذ العقل ، ولا تسر القلب ، ولا تثير الشعور . ولا تلهب الخيال ، ولا توصلنا الى هذه الفبطة الفكرية والجلل الروحي ، الذي نشعر به عادة بعد ان نقرأ الاعمال الادبية الشامخة .

وتبين لي - بعد ان وصلت الى هذا الحد - ان « الوجد الفني » معيار خاص لا يصلح لسبر اغوار كل التجارب الادبية . فهو يهمل التجارب المتوسطة والجيدة ، وينأى عن التجارب العادية . ويسقط من حسابه كثيرا من الادباء والفنانين الذين لم يصلوا الى تلك الحالة من التوهج والإشراق التي تصاحب عادة من يصلون الى درجة الوجد الفني . وبذلك يكون معيارا خاصا بالقمم والشوامخ والاعمال الادبية والغنية الكبرى .

على أية حال ليس عيبا ان يكون الوجد الفني معيارا خاصا . وليس عيبا ان يصل الفنان ومبدع الادب الى تلك الحالة ، من التوهج والإشراق التي نسميها وجدا فنيا ، لانها عندما يصلان الى تلك المرحلة ، يبدعان أعمالا نفيسة رفيعة ، تمتزج فيها التجربة الشعورية بأدوات الفنان والأديب التعبيرية والتصويرية والتشكيلية وتنصهر في باطنهما التجربة اللغوية بالتجربة الشعورية ، ويخرج المعسل الفني موجدا ، تتلا في داخله رؤية الفنان ممتزجة بأدواته اللغوية ، وصوره التعبيرية وتدفعه الشعورية .

ولكن هذه الخصوصية في المعيار تستلزم خصوصية فيمن يستخدمه . . . وإذا كان مبدع الفن قد وصل الى حالة الوجد الفني ، فلا بد ان يكون الناقد الذي يتناول عمله ، قد وصل هو الآخر الى تلك الحالة من التوهج والإشراق ، أي قد تربع على قمة الوجد الفني .

ولا شك ان تذوق الجمال في الحروف والاصوات والانغام والاضواء والأشكال ، يعطى الناقد رميدا من التجارب المتعددة والدرية والخبرة في استكناه اسرار الجمال في العلامات بين الأشكال وبعضى الزمن والنضج واكتمال الاداة ، والامعان في دراسة الخبرة الجمالية ؛ تحول هذه الخبرة عند الناقد الى « حدس فني » وبذلك يصل الى درجة التوهج والإشراق والوجد الفني ، التي يصل اليها مبدع العمل الادبي والفني . وبذلك يتساوى - حيال معيار الوجد الفني - الفنان المبدع مع عالم الجمال والناقد الذي يتناول الاعمال الفنية ، ويصبح الناقد والدارس للخبرة الجمالية فنانا مبدعا . لا فرق بينه وبين الفنان المبدع الا ان الاول يأخذ تجاربه من الحياة مباشرة . بينما يأخذ الفنان الناقد تجاربه الإبداعية من الاعمال الفنية . على انني اعترف ان معيار (الوجد الفني) لم يستكمل خطه من الدراسة . ولم يتحدد بصورة نهائية . ولعل ذلك يرجع الى انني عنيت في المقام الاول بالدراسات التطبيقية على ضوء الاصول النظرية القليلة التي اهتمت اليها . ولم اشأ ان اغفرغ للتفاصيل النظرية في بداية الامر ، وتركت

الباب مفتوحا امام الجديد الذي اكتشفه على ضوء الخبرة الجمالية ومن خلال تدقيق الاعمال الادبية . وظل الامر على هذا النحو حتى استفرقتني المشاغل ، وانصرفت نهائيا عن « معيار الوجد الفني » ولم امد اثنائه في مجال التنظير ، او في مجال الدراسات التطبيقية .

ولكن يبدو ان فكرة « علم الجمال العربي » ظلت تقبع في اللاشعور ، ولم تفرقني ابدا . حتى اتبع لها ان تخرج في شكل جديد يختلف عن « معيار الوجد الفني » وكان ذلك نواة المحاولة الثانية .

المحاولة الثانية :

منهج الرؤية الفنية

ولهذه المحاولة قصة ، فقد اكتشفت اثنائي مجال الدراسة الادبية لاعلام شعربا العربي لا تزال تجتر الافكار التي اهتدى اليها الرواد في مطلع هذا القرن والعقود الثلاثة التي تلت ذلك ، وقد نستثنى بعض الدراسات القليلة التي حاولت ان تضيف جديدا ، او تقدم شيئا مبتكرا ، مع ان الدراسة الادبية تطورت في العالم تطورا كبيرا ، واحتدمت الساحة الثقافية في اوربا وامريكا بالنظريات النقدية الكثيرة والحديثة .

ثم رايت ما طغى على معظم دراساتنا الادبية من وقوع في بوائن المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فوفقت في خلل كبير اصاب التدقيق الجمالي بنكسة كبرى . وتحولت معظم دراساتنا الادبية وخاصة في الثلث الثاني من القرن العشرين الى وثائق سياسية ونظريات في الانجتماع والاقتصاد .

ومن لي ان اقف مع القلة القليلة من الاساتذة الجامعيين الذين لا يزالون يولون القيم الجمالية عناية كبرى . ويحاولون اعادة الدراسة الادبية الى طبيعتها الاصلية .

وفكرت في القيام بعمل ايجابي يجمع بين امرين . الامر الاول : اعادة دراسة اعلام شعربا العربي من جديد ، حتى هؤلاء الذين درسوا على ايدي الرواد واعلام النقد العربي الحديث . في محاولة لتفديهم للأجيال الجديدة من خلال تصور جديد يستلهم ما جد من تطورات على مناهج النقد والدراسة الادبية في العالم .

والامر الثاني : ان اصطنع منهجا جديدا يتيح لي ان انفذ من خلاله الى جوهر التجربة الفنية لهؤلاء الشعراء ، وان اقدم شيئا جديدا ، يحمل بعض النظرات المبتكرة .

واخترت ان ابدا دراساتي هذه ، بتقديم شاعر من اكبر شعراء العربية على امتداد عصورها هو « ابو الطيب المتنبي » وكان السبب في اختيار هذا الشاعر ، وتقديمه في طليعة هذه الدراسات لونا من الملاحظة ، ونوعا من التحدي ، فهذه الشاعر بالذات حظي بدراسات كثيرة والقت حوله مئات الكتب في القديم والحديث . والاقبال على دراسته من جديد ، يؤكد للأجيال الجديدة ، ان طبيعة الدراسات الانسانية تختلف عن طبيعة العلوم ومناهجها ، وان احدا لا يستطيع ان يقول فيها الراي الاخير ، وان التجارب الفنية والادبية تمهما قبل حولها ، في حاجة دائمة الى من يقول

فيها رأيا جديدا . واهتديت بـ بعد معاناته إلى منهج متعيز ، تناولت على ضوءه المتنبي . وسميته « منهج الرؤية الفنية » . وقمت بتحديد هذا المنهج تحديدا نظريا ، وفصلت قواعده وأساسه العلمية . وأن كنت في دراستي لمعالم المتنبي الشعرى لم أشأ أن أثقله بتلك التفاصيل النظرية ، وهذه الأسس الفكرية (١٥)

واكتفيت بتقديم بعض الأصول النظرية العامة في مقدمة المقالة الأولى من هذه المقالات التي نشرتها عن المتنبي ودخلت فيها عالمه من خلال رؤية فنية .

وكنت أنثر بين الحين والحين - وفي أثناء الدراسة - بعض ملامح نظرية لهذا المنهج .

معالم منهج الرؤية الفنية

ويمكن في هذا المجال أن أتناول بصورة عامة معالم منهج الرؤية الفنية ، وأحدد سماته المميزة ، وأشير إلى بعض أدواته وبعض مصطلحاته الجمالية .

ولا أريد أن أضع له تعريفا جامعا مانعاً من الوهلة الأولى ، ولتقتصر على وصفه حتى نتيج له النمو بعد ذلك . وهو على أية حال « منهج ينظر إلى العمل الأدبي من الناحية الفنية والأدبية . وليس مقيدا بصورة سابقة ولا بمنطوقى معين ، أو مذهب سياسى أو اقتصادى أو عقيدة من العقائد ، ولكنه يلج مباشرة إلى داخل العمل الأدبي مجردا من كل الأفكار السابقة ثم يحاكم العمل من خلال مقياسه الجمالية والفنية ، ويصل إلى أهدافه ومراميها من خلال معايير لنية بحث .

ولكن ليس معنى ذلك أن هذا المنهج يتنكر للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمبدع العمل الأدبي والفنى ، فلا شك أن هذه الظروف تؤثر تأثيرا عميقا بصورة أو بأخرى على الأعمال الأدبية والفنية ، وتشكل طابعها العام ، ولامحها الأساسية ، وتميز تقاليد الجمالية في عصر من عصر آخر . ولكن هذا التأثير لا يكون بصورة مباشرة فقد يكون بلرة صغيرة تنمو داخل التجربة الأدبية والفنية وتحول مسارها وجهات متعددة ، وقد يكون هذا التحول ملانما لطبيعة هذه الظروف ، وقد يكون على النقيض منها ، وقد يكون مزيجا مركبا من هذين النقيضين ، المهم أن الفنان عندما يجبل تجربته الفنية ، لا يصوغها من جزئيات العالم الخارجى بطريقة مباشرة ، ولكنها تتحول بجزئياتها وعناصرها داخل جهاز إبداعه الفنى هـذه التحولات المركبة المعقدة . ثم يزداد تعقدها بما يحيط بها من عناصر الإبداع الأخرى غير المنظورة والتي ترجع إلى طاقة الفنان وموهبته .

ومن أجل هذا كان على الناقد الذى يتناول عملا أدبيا أو فنيا ، أن يطرح كل أفكاره السابقة ، ويدخل مباشرة إلى داخل العمل الأدبي والفنى يتذوقه ويتعرف على عناصره الجمالية والفكرية ، ويعرف طبيعته الفنية وتقاليد الجمالية . ولا شك أن كل عمل فنى له عالم خاص مستقل

كل الاستقلال عن كل الظروف الخارجية : وله معايير ومقاييسه الخاصة به ، وقد يكتشف الناقد أن جزئيات العمل الأدبي والفني الذي يعيش في داخله ، قد تشكلت من بعض عناصر العالم الخارجي ، ومن كل عناصره ، وقد يجد في داخل العمل اصداء واضحة للظروف السياسية والاقتصادية والمعادنية التي أحاطت به . هنالاً يمكن لمنهج الرؤية الفنية ان يتنكر لهذه العناصر التي اكتشفها الناقد من باطن العمل الفني والأدبي .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الأفكار، ما شاع في بعض الدراسات الأدبية التي تصطنع المناهج الاجتماعية والعقائدية بما يسمى (بالحتمية والجدلية) بين ظروف مبدع العمل الأدبي والفني وبين ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وطبيعة حياته ونزعاته ، لأن الذين يقولون بهذه الحتمية ، مقيدون بمعايير أخرى ، تختلف عن معايير العمل الأدبي والفني ، ثم هم يسدأون دراستهم من خارج النص الأدبي والفني ، فإذا دخلوا الى باطن العمل الفني ، فلكي يبحثوا فيه عن السياسة والاقتصاد والاجتماع واصداء المذاهب والأفكار ، وقيسوا على ضوئها شعر الشاعر وعمل الأديب وفن الفنان ، ويبحثوا عن مطابقة هذه الأعمال لتلك الظروف الخارجية ، فإذا طابقتها فهي أعمال أدبية صادقة وممتازة ، وإذا لم تطابقها فهي في نظرهم أعمال غير صادقة أو ضعيفة أو زائفة . وبذلك تتحول الأعمال الأدبية والفنية . عند هؤلاء الى وثائق سياسية وتاريخية واجتماعية وفي بعض الأحيان الى وثائق نفسية .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الأفكار ، جديراً عن تصور هؤلاء ، يختلف في طبيعة عمله ، وفي تصوره وفي ادواته الفنية . فهو - كما قلنا - يبتدأ من داخل العمل الأدبي والفني نفسه فهذا العمل الأدبي والفني في نظره ، كونه مستقل عن عناصره الأولى وجزئياته التي أسهمت في تشكيله ، كونه خاص له قوانينه الموضوعية وتقاليد الجمالية الخاصة به . فشعر المتنبي مثلاً عالماً لغوياً جمالياً ، مستقل كل الاستقلال عن عناصره الأولى التي شكلته ، وهي ظروف الشاعر السياسية والاجتماعية واثاره بأفكار عصره وعقائده مجتمعاً ، هو خلق لغوي مستقل ، ولكن يعود في داخله كل ما يعود في الحياة من ميارات ، ولكنه ليس الحياة ذاتها ، وقد نمل من خلال هذا العالم الفني الى أحداث وظروف تطابق أحداث حياة الشاعر وظروف نفسه ، وقد نصل الى أحداث تناقض الأحداث التي نعرفها عن الشاعر لأن الشاعر عندما يشكل تجربته الشعرية تتفاعل وتتحوّل الى خلق لغوي وعالم فني مستقل عن جزئياته التي شكلته ، فظروف الشاعر وأحداث حياته ، قد تكون مجرد مثير للتجربة ، وقد تلهمه تلك الظروف والأحداث صوراً عكسية . وقد يعود الشاعر في تلك الأحداث وقد يضيف إليها أحداثاً من عنده يخترعها اختراعاً . وقد يطمس كل الأحداث الخارجية طمساً تاماً . ولهذا فالربط الحتمي الساذج بين الظروف الخارجية وبين العمل الفني ، عمل تأباه طبيعة (منهج الرؤية الفنية) . وهذا هو الفرق الأساسي الذي يميز هذا المنهج عن بقية مناهج الدراسة الأدبية التي تهتم بالرؤية الاجتماعية .

(الرؤية الفنية) منهج فني يهتم بالعمل الفني وحده ومن داخله يصل الى كل القيسم الفكرية والجمالية . وقد تكون هذه القيسم من عالم السياسة او من عالم الاجتماع او من طبيعة النفس البشرية ، المهم ان تتوصل اليها من داخل العمل الفني وفي اطرافه ، وبهذا يختلف منهج الرؤية الفنية أيضا عن مناهج الدراسة الادبية ، التي لا تهتم الا بالتواحي الجمالية او تصطنع مناهج التحليل النفسي ، او التحليل اللغوي .

انه منهج يجمع في اطار واحد بين جوهر كل تلك المناهج ، ولكنها تتفاعل وتتوحد وتتحول الى معيار واحد هو ما اطلقت عليه « منهج الرؤية الفنية » .

لقد افاد هذا المنهج من كل مناهج النقد الموضوعية والتاريخية والجمالية والاجتماعية والنفسية ، ولكنه في النهاية حدد لنفسه نسقاً مميزاً من كل هذه المناهج ، وجعل له طبيعة مختلفة ووظائف متفيرة .

علي ان هذا المنهج لم يقتصر في تناوله للأعمال الادبية والفنية على الادوات المتعارف عليها في مجال الدراسات الادبية ، ولم يكتف بمصطلحات البلاغة القديمة ولا مصطلحات النقد السائدة . وانما اصطنع لنفسه مصطلحات جديدة وصك تعبيرات جمالية جديدة ، نوع في استخدام الادوات النقدية واغاد في كل ذلك بعلم اللغة الحديث والدراسات الصوتية . كما افاد من مجالات فنون اخرى كالغنون التشكيلية والموسيقى والتصوير .

ولقد كانت الدراسات التطبيقية مجالاً للاختبار هذا المعيار الجديد وامتحان المصطلحات الجديدة التي حاولت ان احكمها . لان الاصول النظرية لاي منهج من المناهج ، تظل قيماً جامدة ساكنة ، لا تنبض فيها الحياة الا اذا نزلت الى ساحة الاستعمال التطبيقي . وقد اتاحت لي دراسة شعر المتنبي من خلال منهج « الرؤية الفنية » ان اختبر بصورة تطبيقية معظم هذه المصطلحات الجديدة . فاسهمت بشكل جيد في حل كثير من المشكلات التي كانت تواجهني ، وانا اقوم بعملية التدقيق الفني ، قبل ان اهتدي الى هذه المصطلحات . وارجو ان استشهد في غير هذا المجال بنماذج تطبيقية تبين كيف كنت انقلب على هذه المشكلات . لاني خصصت هذه الدراسة للجانب النظري .

ولست ارجو في استقصاء كل المصطلحات التي حددتها خلال « منهج الرؤية الفنية » ويكفي ان اذكر اهم هذه المصطلحات مع التعريف به .

ولعل من اوائل المصطلحات التي احدثت اليها مصطلح « التشكيل اللغوي » والفنان العظيم يملك الى جانب موهبته الفنية وطاقته الابداعية موهبة التشكيل اللغوي ، وهي التي تمنينه على تشكيل العمل الادبي والفني من خلال الصور ، او من خلال براعته في استخدام الكلمات وتتابع المقاطع ، والقدرة على استخراج ظلال الالفاظ وابعادها وجرسها ، واكتشاف المعاني المستكنة في باطن الكلمات .

وهناك مصطلح آخر يتصل بفكرة التشكيل اللغوي في الشعر اطلقت عليه « بناء القصيدة على طريقة الوحة » فالشاعر الذي يملك القدرة على هذا التشكيل الفني . يبني قصيدته بالطريقة

التي يشكل بها الفنان لوحته . فكما يهتم الفنان - وهو يبدع لوحته - بالأضواء والظلال ، والفراغ والنسب في المساحات والألوان ومعالم الأبطال الذي يضم كل هذه العناصر : يهتم أشاعر بكل هذه الأشياء . ولكن في حدود وسائله التعبيرية والتصويرية ، قادواته التي يبنى منها قصيدته على طريقة اللوحة : هي الحروف والألفاظ والمقاطع . والشاعر الذي يملك هذه القدرة الفنية ، يستطيع أن يشكل عمله من خلال تتابع الحروف وانتقاء الألفاظ والمقاطع . يستطيع أن يحدث ظلالاً وفراغات ومساحات وبفجر فيها الضوء ، وقد يستخدم موهبته السمعية والبصرية في مراعاة النسب في القصيدة وإدراك التوازن والتباين والتدرج والإيقاع والتماثل في الإطار العام الذي يشكل فيه القصيدة وبذلك تتحول القصيدة إلى لوحة تبحث فيها عن كل هذه العناصر التشكيلية . وقد أتاح لى هذا المصطلح أن أسمى قصائد المتنبي لوحات ، وحللت بصورة تفصيلية على ضوء هذا المصطلح الجديد ثلاث لوحات من شعر المتنبي . هي الموحة الأولى وهي قصيدته التي مطلعها

والسيف أحسن فعلا منه باللمم

« ضيف الم برأسى غير محتشم

واللوحة الثانية : قصيدته التي مطلعها

ومن بجسمى وحالى عنده سقم

« وأحر قلباه ممن قلبه شيم

واللوحة الثالثة : قصيدته التي مطلعها :

طوال وليل العاشقين طول

« ليالي بعد المغاضين شكوك

وقد تبين لى بعد تدقيق هذه اللوحات الثلاث أن المتنبي يملك حساً فنياً متفوقاً وقدره باهرة على الإحساس بالألوان والظلال في الكلمات ، ولقد كان يشكل منها لوحاته الفنية تشكيلاً إذا جازا بما لا يتأتى إلا لفنان موهوب يملك ناصية اللغة ، ويعرف كل مفرداتها ، ويتفهم دلالاتها المختلفة .

هناك مصطلح آخر أطلقت عليه « الإشعاع الفنى » وهو مترتب على سجية شخصية تكون في الفنان الموهوب . وهي « جاذبية الشخصية » الفنية . والفنان الذي يملك جاذبية الشخصية يتمكن بسهولة من إدراك الألفاظ والتعبيرات والحروف والمقاطع التي تسهم في عملية البناء الفنى وتزويد في حيوية العمل الفنى ، ولكن هذه الجاذبية تتحول إلى شيء آخر عند الفنان المبدع هو الذى سميت « الإشعاع الفنى » . وهو شيء لا يمكن أن نقف عنده في تعبير أو تصوير أو تركيب أو صورة ، ولكننا نحسه عندما نقرأ العمل الفنى : سارياً كالنور يضيء بين أجزائه وفصوله ، ونندرك آثاره بالتدقيق ، متمثلة في تلك الغبطة والنشوة والجلل الروحي ، الذى نحس به بعد فراغنا من قراءة عمل فنى ممتاز .

أتنا نحس آثار هذا « الإشعاع الفنى » ونطرب لها ، لا مجرد طرب حسى عابر ، ولكن على صورة جيشان فكري وروحي وفنى ، يلانزمتا وقتاً طويلاً وبغيرنا . وبذلك نصير شيئاً آخر غير الذى كنا عليه ، قبل القراءة . . شيئاً جديداً يضيء داخلنا ذلك (الإشعاع الفنى) الذى سرى إلينا من العمل الفنى العظيم .



هذه أهم المصطلحات الجديدة التي أضافها (منهج الرؤية الفنية) ، الى مصطلحات النقد الأدبي وعلم الجمال .

وهناك مصطلحات أخرى ثانوية وغير دائمة تجيء من داخل العناصر التي تشكل العمل الفني او من الأفكار التي يحتوى عليها العمل .

مثلا « فكرة الزمن » قد تتحول عند فنان موهوب من مجرد فكرة تدل على معنى محدد ، الى مصطلح جمالي يسهم في تشكيل العمل الفني كله ، فتصير كل الادوات التعبيرية والتصويرية وتدوي فكرة الزمن في كل جزئية من جزئيات العمل الفني .

ولا اريد ان اتابع الحديث عن هذه المصطلحات الثانوية ويكفي هذا المثال دليلا عليها .

ونود مرة أخرى الى منهج (الرؤية الفنية) بعد ان عرنا طبيعته ووظيفته وادواته التي يستخدمها صاحب هذا النهج في تذوق الاعمال الفنية ، لتسائل : .

هل هذا منهج جديد حقاً ؟ وهل من حق الباحثين والدارسين ان يحاولوا اصطناع مناهج جديدة في النقد الأدبي وعلم الجمال ؟

وسأترك الرد على الشق الاول من السؤال للقارئ ، الذي عرف هذا المنهج من هذا العرض النظري ، وتابع تطبيقاته التي نشرتها في مجلة الثقافة القاهرية . واتخذت شعر المتنبي مجالا لتطبيقه ، وتمحيص قيمة الفنية . واختيار معايير الجمالية .

اما الرد على الشق الثاني من السؤال . فيتلخص في ان من حق كل باحث او دارس في كل عصر من العصور ان يتذوق العمل الفني بالطريقة التي تروق له ، وان يعيد قراءة الاعمال الفنية القديمة ، قراءة جديدة ، وان يستخرج من تجربة الاديب والفنان ، ملامح جديدة في الابداع والفن ، وان يعيد تحليلها وتركيبها على ضوء قراءته الجديدة من خلال ما يصلح من مناهج .

وهذا هو العمل الذي يعمل به منهج « الرؤية الفنية » والذي حاولت استخدامه .

قراءة جديدة للتجارب الأدبية والفنية ، وتحليل لمكوناتها الجمالية ، وتفسير لخصائصها الفكرية والروحية ، وتركيب جديد - على ضوء هذا التحليل والتفسير - حول التجربة الفنية والحديث عنها ، الى شيء جديد . وبهذا يتحول العمل النقدي الى عمل فني ابداعي ، يثير من الامتناع واللذة العقلية والفنية ، ما تثيره التجربة الاصيلية من متعة جمالية وروحية ، وتحول - بذلك - التجارب النقدية الى تجارب فنية . ويقدّر ما تتعدد الاعمال الفنية ، يجب ان تتعدد الاعمال النقدية التي من هذا الطراز الفني ، بل يمكن ان تتعدد الاعمال النقدية تمعددا كبيرا حول عمل فني واحد . فالعمل الفني لا يبوح بكل أسرار له ناقد واحد مهما كانت مواهبه وقدراته واكتمال ادواته . وسيظل لكل ناقد جديد عنده - سر جديد يبوح له به دون غيره ، ومن الممكن ان يظل العمل الفني محتفظا بأعظم خصائصه واجمل سماته واكبر اسراره لناقد معين قد لا يجيء الا بعد ألف عام او اكثر .

ولعل هذا ما يفسر لنا ما نراه الآن من جدوة وطزاجة وإبتكار في دراسات نقدية جديدة .
تعرض لأعمال جاهلية وعباسية وأموية . كما نجد في دراسات الدكتور مصطفى ناصف عن الشعر
العربي ودراسات الدكتور عبد القادر القط عن الأدب الإسلامي والأدبي ودراسات الدكتور محمد
النويهي عن الشعر الجاهلي ، ودراسات الدكتور إبراهيم عبد الرحمن . وغيرها من الدراسات
التي تتناول جوانب الأدب القديم .

لكن يبقى أن أطرح على نفسي سؤالاً ، هل هاتان المحاولتان اللتان قدمت لهما تأصيلاً نظرياً في
هذه الدراسة يمكن أن تكونا نواة لعلم جمال عربي ؟

✽ وهل تصلحان أساساً نظرياً لمزيد من الدراسات التطبيقية ؟

✽ وهل تصلحان للنقد والتمحيص ؟

✽ وهل حقاً هما محاولتان جديدتان ؟

وأدع الاجابة على كل هذه الاسئلة للمتخصصين في الفلسفة والنقد الادبي وعلم
الجمال وعلوم اللغة ، ولا شك أنني سأفيد من توجيهاتهم فائدة كبرى .

ولكن ردي على السؤال بصفة مبدئية انني لم انظر الى هذين المنهجين الا على انهما محاولتان .
وهذا وحده يؤكد انني لا ازال في مجال المحاولة والتجريب . وقد اصل في يوم ما الى اساس
نظري متكامل يصلح ان نقول عليه : هذا هو « علم الجمال العربي » ولكن هاتين المحاولتين -
وحدهما - لا تصلحان اساساً لهذا العلم الذي نهفوا اليه : ونسعى الى تأصيله في ساحتنا
الثقافية ، ولكنهما بالتأكيد خطوة نحو علم جمال عربي .

تقويم المحاولتين

واذا كان لي في نهاية هذه الدراسة ، ان أقوم بنقد هاتين المحاولتين ، فاني اعترف أولاً
بالعيب الاساسي ، الذي تسال اليهما ، على الرغم من محاولتي الشديدة تجنب الوقوع فيه ،
وهو الاختلاط وعدم التحديد الدقيق للمصطلحات ، وان كان هذا الامر في النهاية
سيتيح لي ان امعن النظر طويلاً حتى انتهى الى التحديد الدقيق للمصطلحات ، والتعريف الجامع
للمائع لها .

وهناك مشكلة تثار حول هذين المنهجين ، ومن الممكن ان تكون عيباً ، ما لم نحاول العمل
على تحديد حجمها وتوضيح ما تثيره من اختلاط .

وهذه المشكلة تلخص في ان هذين المنهجين يتشابكان مع مدلول « النقد الادبي » بشقيه
النظري والتطبيقي .

وفي رأبي ان النقد الادبي يقف على ارض مشتركة مع « علم الجمال » وهناك مساحات
كبيرة يتجولان عليها معاً .

على ان علم الجمال ظل لفترة طويلة فرعاً من فروع الفلسفة ، وعندما انفصل عنها احتفنته النقد الادبي ، وظل رافداً من روافده حتى الآن ، والنقد الادبي نفسه ظل معترجاً لفترات طويلة بالدراسات الادبية والادب المقارن وتاريخ الادب والنظريات الادبية . ولم يستقل كل علم منهما استقلالاً تاماً الا بعد تقدم الدراسات العلمية وقيام المتخصصين بتحديد دقيق صارم لكل نوع من هذه الانواع .

ولهذا لن افزع كثيراً اذا وجدت هاتين المحاولتين تدخلاً على نحوهما في مجال النقد الادبي .

وان كنت اعتقد انهما اقرب الى علم الجمال منهما الى النقد الادبي : لانهما تحاولان اساساً البحث في ماهية الجمال . والخبرة الجمالية في الادب والفن .

و (معيار الوجد الفني) موغل في القرب من علم الجمال ، لانه يقوم في البداية على اساس فكرة فلسفية ، اقتبستها من قاموس فلاسفة المتصوفة . ولان الاسس التي يقوم عليها اقرب الى التنظير الفلسفي ، وهو من هذه الناحية يكاد يكون علماً « معيارياً » وان كانت له جوانب اخرى تتمثل في الأدوات الفنية التي يستخدمها لدراسة الخبرة الجمالية ، وتلوق النصوص الادبية والفنية . وهذا الجانب يقرب من النقد الادبي ويجعل « الوجد الفني » يلامس مناهج العلوم الوصفية .

اما منهج « الرؤية الفنية » فعلى العكس من (منهج الوجد الفني) جانبه الاهم ، موغل في القرب من النقد الادبي وهو الجانب الذي يهتم بتذوق العمل الفني من خلال ادوات النقد الادبي ، ولكن يغلب عليه من ناحية اخرى الاهتمام بدراسة الظاهرة الجمالية وتحديدتها تحديداً علمياً كلون من الوان المعرفة الفلسفية . وهو صميم علم الجمال .

وهناك عيب اعترف به في نهاية هذا التقديم وهو الحماس الشديد الذي غلب على بعض اجزاء الدراسة في هاتين المحاولتين . وقد كان هذا الحماس ناشئاً عن احساس بانني لا بد ان آتي بشيء جديد . ولعل هذا الاحساس هو السبب الرئيسي في كل العيوب التي لحقت بالمنهجين .

ولكن حسبي - في هاتين المحاولتين ، انني بذلت جهدي ، واستنفذت ، في البحث والتلوق طاقتي ، فان اخطأت فلي اجر المحاولة ، وان اصبت فلي اجران ، كما يقول العلماء . والله من وراء القصد . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه ائبت ، ، .

یحییٰ حقى بین المصریة والترکیة

لا جدال فی أن دراسة فن یحییٰ حقى الادبی يستلزم التعرف علی نشأته وأسالیب تربیته ؛ خاصة وأنه نشأ وتربی فی أسرة ذات أصلا بترکیة تهرعت فی أحضان المجتمع المصری ؛ وتعرض بذلك لكثیر من الصراع بین المصریة والترکیة ، كما تراوحت حیاته بین الانتماءات الصوفیة الاسلامیة والبوهمیة الرومانسیة .. وأسالیب التفكير الشرقی والحیة الغربیة الحدیثة . ثم محاولاته للنجاة من تلك المتناقضات فی رحاب حرية الفنان .. ومع ذلك فإذا كان هذا البحث یركز علی مشكلة صراع یحییٰ حقى بین تریكیته الموروثة ومصریته التي یحياها فان الهدف الآخر منه هو أن یبین کیف انتصر یحییٰ حقى علی ذاته ووصل الی نوع من السلامة النفسیة التي شق علی الكثیرین من أقرانه الوصول الیها . وقد حقق له ذلك الكثیر من وضوح الرؤیة ونفاذ البصيرة مما جنبه التخبیط والضیاع . وعاونته علی ممارسة الفن وهو متحرر من مختلف العقْد الموروثة والمكتسبة ...

— ٩ —

أن جلدور یحییٰ حقى لیست مصریة صمیمة ، فقد نشأ جده « ابراهیم حقى » فی بلاد المودة بجنوب اليونان ، فی حین كانت تنتشر اصول العائلة فی ربوع ترکیا وفلسروع منها فی مصر

وشاهد ابراهيم حتى من قرب بعض نواحي النهضة الأوروبية الحديثة الى أن بدأت أوروبا تضيق الخناق على العناصر التركية في حركة مناهضة الحكم العثماني بقصد تحرير بلاد اليونان ، وصاحب ذلك هجرة الكثيرين من الأتراك من أوروبا الى تركيا وغيرها من أقطار الدولة العثمانية ، وبذلك رحل ابراهيم الى مصر بعد أن توسّط له خالته السيدة « حفيظة هانم » خازندارة قصور الخديو اسماعيل ، ونجحت في تعيينه في خدمة الحكومة المصرية التي كانت تعاني نقصاً في مختلف الوظائف الحكومية ، التي لا يشغل كوادرها العليا في غالب الأحيان إلا من له صلة قرابة بالعناصر المصرية التركية الأصل ...

وهكذا حضر ابراهيم حتى التركي المقيم في بلاد اليونان .. والجامع بين الحضارة الإسلامية وحضارة الغرب الحديثة - الى مصر في عهد الخديو اسماعيل طلباً للدخل المستقر ورغبة في الأمن ... واستلم مهام وظيفته ببلده دمياط ، وأخذ يتدرج في وظائف الحكومة حتى أصبح مدير مصلحة في بندر الحمودية بالبحيرة (١) في ظروف سياسية معقدة تتشابك فيها الصراعات بين العناصر التركية والمواطنين المصريين ...

وعاصر ابراهيم أحداث الثورة العربية ، وعاش كل ما تعرضت له العناصر التركية من انفعالات ومشاعر ، وانساق في نهضة أعمال وتصرفات نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمر بها مصر في ذلك الحين .. ومع ذلك استقر فكر ابراهيم حتى على البقاء في مصر ، وتزوج من سيدة تركية تعيش في مصر ، أنجب منها ثلاثة من الأبناء أكبرهم محمد والذي يحى حتى ، والثاني محمود طاهر الذي ألهمته مشاعره الفنية هو في فترة الشباب « ملوحة دنشواي » فأنفعل بأحداثها وخرج علينا برواية « ملوحة دنشواي » ، وهي أول رواية فيها مشاركة وجدانية وطنية من العناصر التركية للمواطنين المصريين . أما الابن الثالث فهو « كامل » ولا يكاد يذكر عنه يحى حتى شيئاً ..

والذي يهمننا هنا هو الابن الأكبر محمد حتى ... ولقد ولد محمد حتى في مصر ، وحاول والده ان ينشئه في أول الأمر تنشئة إسلامية صرفة ، فالحق بأحد المعاهد الأزهرية حيث حصل على نصيب من الثقافة الإسلامية العربية قبل ان يلتحق بأحدى المدارس الفرنسية ، ولكنه لم يلبث ان قطع تعليمه عندما أدرك أن ظروف أسرته المتوسطة الدخل لا تقوى على تكاليف المدارس الفرنسية ، ورضى بوظيفته في وزارة الأوقاف .. ولكن صلته بالثقافة والعلم لم تتوقف ، وحده طموحه الثقافي الى قراءة عيون الكتب العربية كديوان المتنبي وكتب الفرائسي ومقامات الحريري ، استجابة لتنزعات أدبية وميول فنية ساعدته على حفظ روائع الشعر العربي ، فأكسب فصاحة في اللسان وقدرة على البيان . وتزوج محمد حتى أيضاً من سيدة البانية الأم تركية الأب تعيش مع أسرهما في بندر الحمودية حيث كان والدها يعمل دليل مكتب البريد .. وكانت السيدة/ سيدة السيد حسين تجيد القراءة والكتابة ، كما كانت شديدة التدين تقبل على قراءة

(١) يحيى حتى : أشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .. مجلة « عالم الفكر » المجلد الخامس - العدد الثالث : أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٤ - الكويت .

القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف والسيرة النبوية العطرة ، كما ألفت كذلك كتب الأدب العربي القديم ... وهكذا شجب يعحى حتى بين والديس يشقان الأدب ويميلان للقراءات الإسلامية ..

ولقد أنجب محمد سبعة من البنين والبنات ، وكون أسرة كبيرة العدد تحملت الأم شئى المسئوليات وكثيرا ما أشاد يعحى حتى بتفسيحات والدته ودورها الفعال في حسن تربيته هو واخوته واخوانه فقال : « ربنا يبلها تطبخ وتطمنا متكلفة في ذلك أشد العناء متميلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ... ربنا بلسانها تحت بغير الحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة كسوط صاحب الجواد الاصيل له دفع وليس له لسع ... وبتنا بنظرنا اذا كنا في تجمع من الناس تحوط علينا وتعلمنا كيف ينفضى ان نحلس وكيف ينفضى ان يكون الكلام المهلب ، قيد علينا كل ذلة لسان وان كانت بريئة ، وتنبها اليها اذا انفضى الجمع ... بل من عادة أمى ان لاتنام الا ان اطمانت انسا عدا جميعا » (٢)

ولد يعحى - وهو الثالث في تسلسل قائمة الإبناء - في السابع من يناير - الموافق - يوم عيد ميلاد السيد المسيح عند أقباط مصر - عام ١٩٠٥ - وقت أن كانت حركة مصطفى كامل الوطنية على أشدها ، في بيت ضئيل من بيوت الاوقاف بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب المتفرع من شارع الصليبية يحى قيسون المعروف حاليا بقسم الخليفة ، وهو حى من الأحياء الشعبية الصميمة .. فشب يعحى حتى في الأجواء الشعبية القاهرة ، وشاهد منذ الصغر « ابن البلد » عن قرب شئى أحواله : في جده ودعابته ، في حرمانه وسخريته ، في ذكائه وقناعاته ، في أيمانه وانحرافاته ، فمما في قلبه وهو مازال صبياح ابن البلد وميل التردد على الأحياء الشعبية ، خاصة بعد أن ترك حى قيسون وسكن بعيدا .. بل أن أول ما عرف قلبه الحب تعلق بحب بنت من بنات البلد رغم أنه كان يعيش في أسرة تنتمى الى مجتمع مهاجر ميل لنوع من العزلة الانطوائية ، يرقب المجتمعات من بعد دون اندماج ويشعر بأن مستواه الحضارى أرقى من المستويات المصرية ، وأن جمعة بين الثقافة الإسلامية والحضارة الغربية أعطاه ميزات لا تتوفر في كثير من جماعات عامته الشعب .. ولكنه مع ذلك حرص على ألا يظهر بأى مظهر من مظاهر الاستعلاء ، مما يدعو السر تصنع فروب من التواضع لا تخلو من تكلف يكشف من معالم التعالى الكائن .. ومع أنه كان لا يتكلم إلا باللغة العربية فإن الكلمات التركية كانت تظهر عادة في حالات انفعالات الغضب والضيق التى تحرر من التصنع والتكلف ... وحتى حين كانت تقوم علاقات مع بعض الأفراد من عامة الشعب فانها كانت مجرد علاقات سطحية تهتم بتوثيق الروابط مع من يتعاملون معه ، ويقدم لهم خدمات يومية لا يستغنى عنها أحد .. ويؤكد يعحى حتى ذلك حين يذكر أن « أسرى كان يشملها منذ وعيت روح من الديموقراطية الشعبية .. لا أدري من أين جاءها .. ؟ هى طبع وخلق

(٢) يعحى حتى - عليها على الله : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ .

لا ثمرة علم واقتناع ... فما دخل بيتنا خادماً والخالطينا مخالطة الأهل .. ولم ننظر بأنفة إلى التصاب والبقال وبائسة الجبن والصابون .. ولكننى أظنها ديمقراطية معاملة فحسب ، (٣) .

هكذا كانت تعيش الاسر المصرية ذات الجذور التركية سواء من الناحية النفسية او الاجتماعية اصة منذ قيام الثورة العربية .. ونشأ يحيى حتى وبرى وتعلم وهو يمايش شتى محاولات المعاناة التى كانت تقاسى منها المجتمعات المصرية ذات الاصلاب التركية فى جهودها للمواصلة بين يراوت الاتجاهات التركية واغراض الاستقرار فى مصر ... ويبدو ان يحيى حتى لم يستطع ان يتخطى الحواجز الاسرية وان يندمج فى الحياة المصرية التى لم يشهد غيرها الا خلال واقعية روحية بمواقفه وعقله جميعا بعد ان عايشها بكل كيانه وارتضاها طوعية حتى استمد منها رغباته وآماله واحلامه واوهامه ويعكس عليها كل ماينفعل داخله من مشاعر وافكار وخيالات وهو اجس .. لم يحس اطلاقا فى قرارة نفسه بان هذا التباين الذى يوجد بين حياته المنزلية بتقاليدها التركية وحياته العامة فى مختلف مجالات المجتمع المصرى تدعو الى اى نوع من الانفعال ترغمه على ان يستقل بعباءة اسرية بعيدة عن مجتمع القاهرة .. ولذلك لا تكاد نلمح اى احساس يجعلنا ندرك انه يشعر باى نوع من التغاير او الاختلاف بينه وبين اى مواطن آخر يرامله الحياة فى المدرسة او فى العمل او فى اللهو رغم معرفته الاكيدة باصله التركى ... بل يلمح عليه احيانا علامات من الضيق والتأفف اذا ما تبهه احد عَرَضَ بطريقة أو أخرى من قريب أو بعيد الى اصل عائلته الابائى خاصة اذا ما كان يحاول ان يشكك فى اصالة انفعالاته المصرية وعمق تجاربها مع الحياة المصرية ..

واذا كانت أحداث الحرب الابالبانية اثاروت وجفائه عام ١٩١٢ والهبت مشاعره التركية وهو ما زال صبيا فى السابعة من عمره ، وحثته على قول الشعر ليعلم السخط على الاستعمار الاوروبى الذى يهدد كيان الدولة العثمانية ويعرض مسقط رأس اجداده للخطر ، فان فطائغ دنشواى - التى اطلع على أحداثها عام ١٩١٤ فى قصة « عذراء دنشواى » التى كتبها عنه محمود طاهر حتى - زادت من سخطه على فطيان الاستعمار البريطانى فتعلق قلبه بجهاد الزعيم مصطفى كامل الذى يدعو باصرار الى ضرورة جلاء الانجليز عن مصر دون شروط مسبقة .

ولقد سحر مصطفى كامل العناصر التركية ببلافته الكلامية فى الخطب والمقالات التى اخذت تتصاعد لهجتها وتتشدد وتقوى حتى بلغت السدورة حين أعلن حربا لا هوادة فيها ضد احكام الاعدام الظالمة فى حادثة دنشواى . واذا بالعناصر التركية بجرفها تيارات المشاعر الوطنية وتجد نفسها تعيش هذه المشاعر بكل وجدانها ، واذا بها تحس بانها اكثر التصاقا بأرض مصر مما تظن . ويكاد محمود طاهر يتفرد بعرض هذه المشاعر فى رواية « عذراء دنشواى » . ويرجع يحيى حتى حماس هذه الانفعالات الفنية الى انه قد تم « التحام كامل بين محمود طاهر

(٣) يحيى حتى : دمنة .. فابستامة . دول اليوسف - القاهرة . ديسمبر - ١٩٦٥ .

حتى وشعب مصر .. واصبح ابن بلد مصفى جلوره الحديثه نزلت الى الطمى السفلى التلخف من ايام الفراغة هيهات ليد أن تقتلها ، او لما بلد آخر أن يهبها الحياة .. وقد ظهر هذا الالتحام في رواية علماء دنشواي (٤) .. ولاشك أن رواية علماء دنشواي نجحت في تقريب المصريين الاثراك من المصريين الفلاحين اكثر فآثر .. حتى انه لم يظهر من بين الاسر التركية من قبل ان يترافع ضد الفلاحين المتهمين في حادثة دنشواي بخلاف ابراهيم الهلباوى المصرى الصميم الذى ارتضى أن يجرب بلاغته ضدهم ، ويجنى على مواطنين ابرياء من بني جنسه ويسوقهم الى ساحة الاعدام متملصا من وطنيته .. ولكن بلاغة الهلباوى حفرت له قبره اذ ظلت مراقبته في دنشواي سحابة سوداء تظل على كل عمل يصدر عنه وتشوه اخلاسه وتعرض مستقبل حياته العامة ، حتى فشل في الحصول على الغفران عندما حاول الدفاع عن ابراهيم ناصف الورداني بعد أن اغتال بطرس غالي الذى كان رئيسا لمحكمة دنشواي .

ولقد تصدى الكتاب الاثراك الى هذه النزعات فكتب « ولي الدين يكن » في مقال الشقاق (٥) « أنا تركى .. وابغض عباد الله الى تركى يعتدى .. احب العناصر الثمانيه كلها وآخذ بناصر المستضعف منها .. ثم احب العرب حبا خالط الروح وجرى مجرى الدم في العروق .. وأنا عربى الادب والقلم ، عربى النزعة ، ومن ابغض العرب فأنا مبغضه .. » ولكن اذا به يعود ويقول بعد اغتيال بطرس غالي في مقال رومانسي الافكار والعواطف عنوانه « بطرس غالي في موكبه الاخيره » (٦) قال القضاة : قتل أحد الباغين بطرس باشا غالي قتل لقد قتل مصر .. كل قطرة من ذلك الدم البريء عند الله اجرها وعلى الانسانية والمصر العشرين عارها .. ماذا جنى هذا الفقيد المعلوم .. ؟ صاح أكثركم مذكرا بحادث دنشواي ، وتشدد آخرون باتفاق اكلتسرا ومصر على السودان ، وشكا غيرهم من قانون المطبوعات ..

ولقد تصدى كذلك عبد الخالق ثروت باعتباره النائب العام لمهمة التحقيق في الاعتداء بنفسه ، ثم قام بالمرافعة في اللعوى ضد ابراهيم ناصف الورداني .. وانسمت كلمته بالاعتدال وان استنكرت اغتيال الاكفاء المخلصين « نحن اول من يحل الاشتغال بالمسائل العامة ، ونرى ان السعى بالطريق المشروعة فيما ترقى به البلاد اهلها من فروض المين على المصرى ، وان كل مصرى مطالب بتضحية شيء من وقته وماله وهنقه في خدمة بلاده .. نحن اول من يوجب تشمية الوطنية ورياسة النفوس على احتمال اشق المشقات في اعلاء كلمة مصر وزيادة شرفها ورفعتها ، وكذلك نرى من مرقيات الامم الدارجة في نظرها النظر في اعماق القابضين على ازمة الامور فيها ونقددها ... ولكننا لا نسلم بحال من الاحوال ان يتطلع الى مقام ناقد الحكام الى رجل

(٤) يعنى حلي : عطر الاحباب : دار الكتاب الجديد . القاهرة ١٩٧١ .

(٥) الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. المنفلوطي .. المقاد . جمعه محمد محمد ذكي الدين . الناشر حسين حسين .. القاهرة بدون تاريخ .

(٦) الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. المنفلوطي .. المقاد . جمعه محمد محمد ذكي الدين الناشر حسين حسين .. القاهرة بدون تاريخ .

جمع الى العلم الفزير والحكمة البالغة الاثرانى القول والفعل حتى يقدر الاعمال حق قدرها وينظر الى الامور بفكر صحيح فلا يتمدى حد المشروعية والا انتقلت الخدمة العامة وبالا ، وارادة الخير شرا .. » (٧)

لاشك في أن استنكار الكتاب ، خاصة الاثرانك منهم حادث اغتيال بطرس غالى وتولى العناصر التركية مهمة توجيه الاهتمام الى الوردانى اثار الرب في نفوس الشباب المثقف في مصر بينما كسب الوردانى عطف الكثيرين منهم .. فاذا نال ثروت بكلمته الحكمة المعتولة اعجاب المسؤولين وتقديرهم ، الا أنها بعثت الضيق والسخط بين الشباب رغم اعجابه بكفاءاته وحسن بيانه كالمسؤولين سواء .. ولكن الحكم باعدام الوردانى حرك ماضيا في النفوس من مشاعر التلمس والاحساس بالقهر ، والاستبدادجددت اللوعة من قوة احكام الاسدام الظالمة في حادثة ونشوى .. وسرمان ما اجتاحت البلادحركة اغتبيالات اخرى تولى تنفيذها اجهزة سرية اشترك فيها الوطنيون من المصريين والعناصر ذات الجذور التركية على حد سواء .. واذا بها تخطط من أجل التخلص من الخونة الى اختلافاجناسهم ودياناتهم مناصبهم ، ومن الانجليز الذين يقيدون الحريات في مصر ..

الا ان المحتل البريطاني لم يدع الوحدة الوطنية تسير في طريقها الطبيعي وتحقيق مسا تصبو اليه النفوس من قوة وترابط. وثيق بين كافة المصريين ، واخذ يضرب على وتر فرق تسد .. ولذلك كثيرا ما حاول أن يستغل اى خلافظاهرى ويشير ضروريا من التنافس ، خاصة بين اعيان المصريين وقادة العناصر التركية حول السلطة خلفت صراعات انحرفت عن طريق الوحدة الوطنية واثارت الشكوك بين الجميع ، حتى احدثت كل فئة في نوايا الفئات الاخرى ... ولقد نجح الانجليز بالمحاولة الملمة في تفجير حدة الخلافات بين سعد زغلول الممثل الشعبى لكافة المصريين وبين عدلى يكن صهر اسرة محمد على الذى زوج ابنته لشريف صبرى شقيق نازلى زوجة السلطان احمد فؤاد بانارة الاشاعات حول عرض الانجليز العرش على سعد زغلول شريطة قبول الحماية البريطانية وفضل السودان عن مصر مما اشعل مخاوف السلطان فؤاد من اطماع سعد زغلول .. الا ان عدلى يكن ، والحق يقال كان في موقف صعب ، فهو لا يستطيع أن يقف في جانب السلطان والانجليز ويمادى الشعب الذى يمثل سعد زغلول ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع ان يجارى الشعب في اندفاعه الوطنية التى لا يقبل الانجليز الخضوع لها ، فلم يجد امامه الا ان يقف موقفا وسطا ، وحاول ان يوفق بين مبادئ سعد زغلول في الوطنية التى تتمسك بالاستقلال التام وجلاء القوات البريطانية وسيادة الشعب المصرى على اقدارة وبين حرص الانجليز على البقاء في مصر بصورة او اخرى يرضى عنها جميع الاطراف المعنية ... واستطاع عدلى بموقفه الوسط المرن ان يكسب ثقة السلطان فؤاد وتعاون الانجليز وان يتوصل بمجهوداته

(٧) الدكتور محمد حسين هيكىل : شخصيات معرية وغريبة .. كتاب رول اليوسف رقم ٢ القاهرة يناير - ١٩٥٢ .

الخاصة الى ان يقتنع بعض الاعيان الاقطاعيين من المصريين داخل حزب الوفد نفسه ويكسب تأييدهم لسياسته التي تقبل ان تقابل الانجليز في منتصف الطريق (٨) .

واحسب ان اسرة حقي ، رغم انها أسرة موظفين يلقب عليها الحياء والانطوائية ، لم تكن في منأى من الاحداث سواء التي تقع في تركيا او في مصر ... فكانت تتعاطف مع كل ما يدور حول الدولة العثمانية . فما ان نشرت قصيدة احمد شوقي في البكاء على خلع السلطان عبد الحميد في الصفحة الاولى من جريدة الاهرام حتى « كان البيت كله يقف على رجل .. كنا نقرأها بصوت عال . ونحفظها ونظل نردها في مختلف المناسبات (٩) » وتتعاطف ايضا مع اتجاهات مصطفى كامل التي تتمسك بجلاء القوات البريطانية ولا تعادي الخديو عباس الثاني، وتستعدي الدولة الفرنسية على الانجليز .. ولذلك كانت جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطني هي جريدة الاسرة المفضلة .. ومع ذلك « لم يمتعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة احدثات ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة .. في اكثر ما كنت اصحب ابي وشقيقي ابراهيم واسماعيل الى الازهر او بيت الامة او شادر مقام في ساحة فسيحة لاستمع الى خطباء الثورة ... واحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للزهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة .. فكنت اسير مع ابي واخوتي في طرق ملتوية وازقة ضيقة حتى نصل الى الازهر ونستمع الى خطباء الثورة ونردد مع الجموع اناشيدھا .. وكان افراد الاسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل الى ابدننا من منشورات الثورة ... وقد سرت في بعض المظاهرات الصاخبة التي كانت تكتسح شوارع القاهرة .. وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت اجدى مع الجارين ... وفي تلك الايام قرأت كل ما وقع في يدي من كتابات عبد الله النديم ومصطفى كامل .. وكل ما نشر عن حادثة دنشواي ... وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجداني حتى الثمالة بحب مصر » (١٠) ولكن لما دب النزاع بين سعد زغلول وابن الفلاح المصري وبين عدلى يكن ذى الاصل التركي « اجتاحت بيتنا موجة عارمة من الكتابة وخيبة الامل لفرقة الصف الوطني » (١١)



لاشك في أن ثورة ١٩١٩ ضد المحتل البريطاني الذي يماطل في خروج قواته من ارض مصر صهرت كثيرا مما تبقى من مشاعر الغربة التي كانت تعاني منها العناصر التركية المصرية في بوتقة الوحدة الوطنية ، واقتربت من التخلص النهائي من نزعات تعدد الولاء لاكثر من وطن ، خاصة بعد انحصار الدولة العثمانية في نطاق الاراضي التركية فقط .

(٨) محمد كامل سليم : ازمة الولد الكبرى : سعد وعدلى : كتاب اليوم برفم ١٠٧ ، مؤسسة اخبار اليوم - القاهرة - مارس ١٩٧٦ .

(٩) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(١٠) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب .. سيرة ذاتية .. مجلة عالم الفكر ١٩٧٤ .

(١١) نفس المرجع .

وإذا ما انتقلنا من المجالات السياسية والعواطف الوطنية الى المجالات والعواطف الانسانية نجد انه ، لكل تستقيم الحياة للعناصر التركية في مصر ، ينبغي ان يبلغ حبهم للمصريين نفس قوة حبهم لارض مصر ووظائف مصر .. ولا يتأتى ذلك الا اذا اتسع حب الوطن بشفاافية الحب الانساني وودعة الحب الاجتماعي الذي لا يهدف الى اى نوع من السيطرة العسكرية أو التفوق الاقتصادي أو السيادة السياسية ، ويتجنب بقدر الامكان اثارة التنافس على مراكز القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية ويعتمد أكثر ما يعتمد على اصول الحضارة المصرية من فكر وفن وادب ، ومن علم وثقافة ، ليحتفظ بدرجة عالية من الرقى الاجتماعي والتفوق الحضارى .. ناقيل ابناء الاسر التركية المصرية على دراسة القانون والهندسة ، لان معرفة القانون تسمح بتولى مناصب القضاء ، والنيابة أخطر المناصب وأكثرها رهبة بين عامة الناس .. بينما تسمح دراسة العلوم الهندسية بالتغلغل في شتى شئون المرافق العامة المصرية في المدن وفي القرى ، نظرا لشدة حاجة الجميع للخدمات الهندسية ... وكثير من ابناء الاسر التركية لم يبقوا عند حد التعليم العالي في مصر بل اهتموا بطلب المزيد من العلم والثقافة والحضارة في أوروبا .. ولذلك كان هناك تنافس مثير على التفوق الدراسي للفوز بالمعاشات المجانية الى الخارج خاصة بين النابهين غير القادرين على تحمل تكاليف العلم في أوروبا . وبذلك فقد اتيحت للكثيرين منهم فرص الاتصال الوثيق بالتطور الفكري والثقافي والاقتصادي والاجتماعي في العالم الحديث .

ولا نعجب اذا ما شعرت العناصر التركية بانها أكثر قدرة على خدمة مصر حضاريا من المصريين الاصليين ، لانها شعر بان لها خبرات أوسع في المجالات الحضارية الحديثة .. ولقد كان لها بالفعل الاسبقية والغايلية في تنشيط كثير من مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية في مصر .. فلم تقف هذه العناصر عند حد التمتع بان تصل مصر الى ما وصلت اليه أوروبا من نهضة وازدهار ، وابتكتفى بان تشيد بذكر حضاراتها السابقة .. بل اخذت تسهم اسهاما جديا في مختلف مجالات الإصلاح تحت احساس بانهم على مستوى حضارى متقدم يسمح لهم بسرعة استيعاب الحضارات الغربية مما يعطيهم امكانيات ثقافية تضمهم على رأس قادة الفكر والادب والإصلاح الاجتماعي في مصر .. واذا بهم يكونون شتى الجمعيات التقدمية الثقافية والاجتماعية ، ويظهرون كثيرا من النشاط الجاد الصادق لبعث نهضة فكرية مصرية تطور المجتمع المصري وترفع من مستواه الحضارى . ولقد تنافس كل من أحمد شوقي - وهو من اصل تركي - وحافظ ابراهيم - وهو من أم تركية ودياه خاله المهندس زميل والده - على الترنم بأشعار تسبح بحمد مصر ، وتشيد بمجدها الخالد وتظهر الحب العظيم الخالص لمصر ، وتشدو بالوطنية المصرية وتغلبها على كل وطنية وقومية .. بينما أعطى محمد تيمور ومحمود طاهر لاشين ومحمود طاهر حتى - وكلهم من اصل تركي - اهتمامات زائدة لواقع الحياة المصرية في المدن والقرى . وكتب كل منهم قصصا تناول احوال الفلاحين في الريف ، وتعريض ميل

ابن البلد في المدن للفكاهة والدعابة ، وتعلقه بالثكنة الساخرة ، وتمسكه بروح الشهامة التي تظهر في كثير من تصرفاته الانسانية ... كما يبرز من بين العناصر التركية قاسم أمين على رأس الداعمين لقضية تحرير المرأة المصرية ورفع الحجاب حتى تستطيع أن تكون أكثر حركة وقدرة على الاسهام في تحرير الوطن وتقديم المجتمع المصرى .

ولكن كيف يمكن لهذه العناصر التركية التي تكاد تعيش في الواقع في شبه عزلة اجتماعية وتعودت على أن تتوقع داخل نطاق الاسر التركية وتبتعد بقدر ما تستطيع من كل ما يحيطها من مشاكل يومية أن تفهم واقع الحياة المصرية في الصميم في الريف وفي المدينة ، وعلى ما يدور في خلجاتها الداخلية وهي لا تنتظر السأهل الريف وسكان المدن الا من علو الفكر ؟ ان الحثني للوطن الاصيل لا يمنح من الوعى مهما طال الزمن .. وان اخشني من الوعى الظاهر فلا بد ان يكون كامنا في الوعى الباطن يؤثر في الفكر وفي الوجدان وفي التصرفات .

وليحيى حتى رأى خاص يفر به نجاح العناصر التركية في تناول الحياة المصرية في قصص ومسرحيات .. فزعم ان محمد تيمور ووجد « ان المجتمع المصرى في المدن والريف قادر على أن يعد الكاتب بقصص فنى مما يشهد على أن نزعته الادبية مبعثها حب صادق لمصر وأهلها وليس من الغريب كما يظن لأول وهلة ان الذى يضر هذا الحب كله ويحمل لواء المناداة بالادب المصرى الصميم فنى لا تجرى في عروقه دماء مصرية بل دماء خليط من التركية والكردية والاغريقية . هذه ظاهرة طبيعية مألوفة عند الآخرين ، كما عندنا في ان العرق الحديث اشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباهه للنضال وجماله .. ولذلك نرى محمد تيمور ، ومن بعده محمود حريصين اشد الحرص على تأكيد خبرتها بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن . وليست العبرة ان يولد الكاتب في أحضان هذه الطبقات بل في قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى . » (١٢) ولكن بحى حتى يمود ويتساءل « لا أدري لماذا استشف في كتابات محمد تيمور - رغم خفتها وميلها للدعابة نعمة حزن دفين » (١٣) كأنه يريد ان يقول ان اثار مشاعر القربة الاليمة رغم كل ذلك الحب لمصر وللمصريين قد اظهرها الوعى الباطن في تلك النعمة التي تش بحزن دفين .. !!

الا ان تردد كثير من الافراد من بين العناصر التركية على اوربا واحتكاكهم المستمر بأوروبيين اناح لهم فرص الاطلاع على الدراسات العلمية الغربية في الشؤون الاجتماعية والاتجاهات الاقتصادية والمذاهب السياسية التي تتصارع في مختلف مجالات الحياة الاوروبية .. وتكاد هذه الدراسات تتفق جميعا في ضرورة تحقيق نوع من العدالة الاجتماعية ومن المستوى الاقتصادى اللائق بكرامة الانسان ، ومن الحرية التي تساوى الكل في الحقوق والواجبات ..

(١٢) يحيى حتى : فجر القصة المصرية .. الكتبة الثقافية رقم ٦ - القاهرة .

(١٣) نفس المرجع السابق .

مما حدا ببعض الافراد من هذه العناصر الى الاهتمام بأحوال الفلاح المصرى وفقراء المدن .. ومما يثير الدهشة حقا هو الحاج قوم من الاستقراط فى الدعوة لرفع مستوى حياة الفلاحين وعامة الفقراء . !! هل قامت هذه الدعوة تحت تأثير مشاعر من القلق لم ترتفع لاضاع اجتماعية تقسو على أناس وتحرمهم من كثير من ضروريات الحياة وتهدر كرامة آدميتهم ؟ أم ترجع لمجرد بواعث انسانية صرفة تبحث فى النفوس الاحتكاك بالحياة الغريبة ويسندها فكر متعال لا يقبل ان يكون اتباعه على هذا الوضع الميّن المخجل .. ؟ ولكن كيف تحولت نظرة التعاطى الى مشاعر من العطف والرحمة والحنان ، ؟ هل الاحساس بسوء معاملة الفلاح واستغلاله من قبل الحكام الاتراك وحاشيتهم حرك عقد الذنب وحملهم الشعور بالآلم مسئولية عما انتهى اليه الفلاح من حالات يؤس وشقاء وتخلّف .. ؟ هل استيقظ فيهم الضمير الحضارى وحسهم الاحساس بالواجب على بذل أقصى ما يستطيعون بذلك من فكر من صيانة انسانية هذا الفلاح وتعويضه عما ضاع عليه من فرص الحياة الكريمة وتخليصه من الهوان الاجتماعى الذى يعانيه حتى يستطيع أن يرفع رأسه ويشعر بتعام المساواة مع جميع الناس .. ؟ ..

لا ريب ان الدعوة الى الإصلاح الاجتماعى لا تعدو وان تكون مجرد عملية تطهير ذاتية ، قصد بها ممارسة عمل فكرى نبيل يعطى نوعان الامان الذاتى والاطمئنان الروحى ، تمنح من السيادة الفكرية والقيادة الانسانية والنفوذ المعنوى ما يعض العناصر التركية عما فقدته من جاه سياسى وسلطان اقتصادى وزعامة عسكرية ، قد تحقق نوعا من الشعبية تعزز من صدق المشاعر الوطنية ، وتدعو الى مزيد من الالتصاق بمصر وشعب مصر ، يساعد على تحطيم دهائم العزلة الاجتماعية التى تحاصر الاسر التركية المصرية ، وتيسر اندماج افرادها فى شتى ثنائيا المجتمع المصرى دون عقد ، وتقاوم كل ما يعترض الاندماج الكامل فى الحياة المصرية .

ولذا فان جيل الشباب من العناصر التركى فى اوائل القرن العشرين اثناء حركة مصطفى كامل الوطنية وبويرة سنة ١٩١٩ الشعبية تعرض لهزات نفسية اوقعتهم في ازيمات فكرية ، فاذا به يعانى مرارة حيرة الآباء بين الولاء للدولة العثمانية من جهة وتعلقهم بالقطر الذى ولدوا على ارضه ثم هاجروا منه من جهة ثانية .. بينما يعانون هم انفسهم من تضارب العواطف وتناقض التصرفات ، ولا يدرون كيف يوفقون بين التعالى العائلى على عامة المصريين وبين التواضع الاجتماعى فى المعاملات اليومية مع عامة الناس ، والتعاطف الفكرى والمشاركة الوجدانية التى تجارى المصريين فى طعامهم واكلهمم . !! ولا يعرفون كيف يجمعون بين التمسك بالتقاليد التركية داخل البيت وبين مجاراة العادات المصرية خارج البيت ... ويتأملون كيف داخ الجميع من محاولات المزج بين الدعوة للوحدة الاسلامية التى تحت على تكتل الدول الاسلامية فى جانب تركيا ضد الاستعمار الاوربى ، وبين ضرورة الارتباط بالوطنية المصرية التى تلزم جميع العناصر والطبقات بالتكتل من أجل مصر ضد أى تدخل اجنبى .

لا شك في أن شباب هذا الجبل وجد صعوبة ما بعدها صعوبة في حفظ التوازن النفسى والتماسك الفكرى واليقين الروحى ، الذى يدعو الى التصرف الحكيم السليم في خضم هذه التناقضات الاجتماعية والثقافية والقومية. ولم يكن امامهم لتحقيق مثل هذا التوازن الا اتخاذ ضروب من التظاهر بدمالة الخلق وادب الحديث ورقة العاملة ، اخفاء معالم التعالى الذى لا يرتاح اليه عامة المصريين .. ويدون اعجابهم باخلاقيات ابن البلد . ولا يتورعون عن محاكاته في دماياته وفكاهاته الى حد الرغبة في تقمص هذه الشخصية او اظهار البراعة في تصويرها في اعمال فنية او التخلق بمثالياته في الحياة العملية .. كأنهم يحاولون بكل الطرق تعميق احساساتهم المصرية الصميعة، والتخلص نهائيا من التناقض الرهيب الذى يعيشون فيه، وتحقيق نوع من الانضباط السلوكى لا يثريق المواطنين من التصرفات المتعالية . وكل ذلك اكسبهم قدرة على المواءمة بين الشخصية التركية والشخصية المصرية ، بحيث نجحوا في تجنب غضب العناصر التركية المتزمنة من ناحية والابتعاد عن اثارة حفيظة المواطنين المصريين من ناحية اخرى . الا ان كل ذلك لم ينب عن عامة المصريين وخاصتهم ، وكثيرا ما يلقون عليهم نظرات تراتب في تمام اخلاصهم للمصريين .. الا ان هذه النظرات تسبب كثيرا من الالام القاسية ، خاصة لشباب ذلك الجيل الذى ولد ونشأ وتربى في ارض مصر ، ولم يعايش غير المصريين ولم يمتحن غير مشاكلهم ، وشب على مشاعر وطنية لا تحب سوى الوطن المصرى .. ولذلك تلحظ كيف يبدو الالم على وجه يحيى حتى عندما يحس بأنه ما زال يوجد هناك من المعارف من يعتبره دخيلا على المصريين ، ولا ينظر اليه على انه مصرى صميم الا بنوع من المجاملة .. وكثير من شباب الاسر التركية المنبت يحاول ان يتحاشى ذكر اصله التركى ، حتى يتناساه ويفغل عنه الجميع ويبعد شبحه الى الابد ، حتى لا يتعرض لشبهة الاتهام بأنه مواطن غريب دخيل على المصريين .. ولعل مساهمة هذا الجيل اسهاما ايجابيا في ثورة سنة ١٩١٩ عن صدق واخلاص بريئين من كل غرض وطدفيه نوها من الامان النفسى ، حرره كثيرا من قلق الشكوك وبليلة الريب التى تراكت داخله على مر الاجيال ، فانطلقت آماله من جديد وأخذ يوسع من دائرة طموحه ، وبعد ان كان يقتصر نشاطه على مجالات النقد الاجتماعى والاشتغال بالاداب والفنون والحرص على تولى وظائف الاداب والفنون والحرص على تولى وظائف الاداب والفنون والحرص على تولى وظائف النيابة والقضاء والاشتغال الهندسية اذا به لا يلتحق بمدرسة الحقوق الا لانها توصله الى مناصب الوزراء او النلك الدبلوماسى ، ولا يتردد في فصول المدارس العسكرية رغبة في بلوغ مناصب قيادية في الجيش .. وكاد يخفى ذلك التزمت الذى يقف احيائى سبيل مصاهرة العائلات المصرية .. وهكذا نجح هذا الجيل في تحقيق خطوات اوسع نحو ضرب من الاندماج يقترب شيئا فشيئا من الاندماج الكامل ، ويبدوانه تخلص نهائيا من مشاعر الغربة ، واصبح لا يستولى عليه سوى وطنية صادقة خالصة لمصر وشعب مصر .

ولعل المحاولات التى بذلتها هذه العناصر من اجل التوفيق بين الحياة الخاصة للعائلات التركية داخل البيوت والحياة العامة في خضم المجتمع المصرى خارج البيوت .. وكذلك

الجهود التي صرفت للموازنة بين اتجاهات الشخصية المصرية ونزعات الشخصية التركية اكتسبت افراد الاسر المصرية التركية نوعا من المرونة النفسية ،وسبت خبرات وقدرات ومهارات تساعد على وضع الحلول الوسط ،وتحقيق نمط من التوازن بين كثير من الاختلافات المتضاربة يرضى عنها الجميع رغم الصراعات التي بينهم .. واذا بالظروف تكاد تلزمهم بان يلتزموا على الدوام بالمواقف الوسط في المنازعات السياسية التي غالبا ما تنشأ بين المصريين والانجليز حول الجلاء والحرية والاستقلال .. ولذلك ارتاح لهم الانجليز ، واستغلوا وساطتهم في اخضاع المصريين لمطالبهم ، واطمان اليهم القصر السلطاني واعتمد عليهم في المفاوضات مع الانجليز ، بل قدر عامة الشعب وخاصته كذلك مجهوداتهم في تخفيف حدة التوترات السياسية .. ولا نمجب اذا مالجا اليهم الجميع على اختلاف مواقفهم عندما تستبد بالبلاد الازمات السياسية .. واحيانا كانوا يتنجحون في تخفيف حدة الشقاق وتجنب البلاد مخاطر التعطرف في اي نزاع ، مما مكثهم من ان يلعبوا على الدوام دورا ايجابيا في تحقيق ضرب من الوحدة الوطنية تمتص خلافات كل العناصر المتنافرة ، فترضى مواقفهم الوسط جميع الاطراف المتنازعة ، على اساس الاعتقاد بان الوحدة الوطنية كفيلا بان تتعدى شتى العقبات ، وقادرة على ان توصل الى الاماني المنشودة ، وتخص بالذكر موقف عدلي يكن الذي حاول ان يوفق بين خداع الانجليز وتمسكهم بالبقاء ، وبين صراحة سعد زغلول ومواجهته للانجليز وتنسبته بتحقيق المطالب الوطنية في الجلاء والحرية والاستقلال ... ورغم حسن نوايا عدلي يكن الوطنية ، ورغبته الاكيدة في تحقيق استقلال مصر فان محاولاته في لقاء الانجليز في منتصف الطريق ، واتباع سياسة الخطوة خطوة ، وتحقيق الاستقلال على مراحل افسد عليه كل شيء وتمرض لمقاومة سعد زغلول الذي رفض في النهاية التعامل معه ، واثار ضده غضب الشعب الذي اسقطه في الانتخابات وهو رئيس الوزراء فانسحب من الحياة العامة ويرجع كل ذلك الى ان جيل العناصر التركية في هذه الابام رغم قوة نزعاته الوطنية ما زال يعاني من ميول ارسنقراطية لم تعابش المشكلات الشعبية معايشة واقعية ، ولم تسمح له بالاندماج فيها اندماجا متكاملا ، وانما سمحت له بالندماج محدود يتألمها من علو الفكر دون ممارسة شاملة .. ولذلك خلا هذا الفكر من يقين المعاشة ووضوح التجربة .. بل عاش في استرخاء يحتل بعض المناصب القيادية والرئيسية لتعدد قدراته وكفاءاته وخبراته ، واستعداده لتحمل شتى المسؤوليات ، وغفوه في الثقافة من علم وفن وادب يحده حماس متدفق يرضى النزعات الانسانية الإصلاحية ، دفعته للإشراف على الجمعيات الخيرية التي توزع المساعدة والعون لكل من يستطيع ان يصل اليها بطريق او آخر او لكل من يريد ان تصل اليه لسبب او لآخر .. وحثته كذلك على تنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية التي لا تعود مكاسبه الا على فئات معينة دون بقية الفئات الأخرى .. وتعتمد أكثر ما تعتمد في السيطرة على جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على نقص الخبرات المصرية وضعف وعيها الحضاري من ناحية ، وانتهاز فرصة

انحسار النفوذ الاجنبى تدريجيا بسبب المقاومة الوطنية لتتسرب بسرعة ، وتستولى على المواقع التى تركها الاجانب قبل ان ينتبه الى خطورتها المواطنون المصريون من ناحية اخرى .. وكل ذلك بنم عن ان هناك نوعا من الانانية كانت تتحكم في تصرفات العناصر التركية ، افقدتها القدرة على الرؤية عن بعد ، والتصور السليم ، لتطور المواقف المصرية الصميعة ، وقدرتها على مواجهة مختلف الصعاب واسترجاع شتى حقوقها المقتضية .

ولذلك كانت مفاجأة ثورة ٢٣ يولية التى لم تصدم القوى المالية والنفوذ الاجنبى وسلطان الاقطاع فقط ، وانما صدمت كذلك العناصر ذات الاصول التركية صدمة مباهتة ، جددت في نفوسهم كل ما كانت تثيره الثورة العربية من مخاوف ومواجع وتهديدات .. واذا بهم يرون احمد حرايى جديدا يعود في ثوب جمال عبد الناصر ، وما لم يستطع احمد حرايى تحقيقه في المجالات الداخلية استطاع جمال عبدالناصر ان يحققه . فلقد اطاح بالنظام الملكى من اساسه ، وازال القصر ومن كان يدور في فلكه من امراء وحاشية واباع دون تمييز بين مختلف العناصر ، سواء اكانت من اصلا ب تركية او مصرية صميعة او اجنبية ، دون نظر لخبراتها وامكانياتها الحضارية وسرعان ما الفيت الانقلاب المخزية واخفى ما تثيره من حساسيات التعالى التى تباعد بين طبقات الشعب ، وضاع كل ما تحاط به من هبة مفتعلة واصبحت مقامات الجميع على قدم المساواة .. ولعل قوانين تحديد ملكية الاراضي الزراعية وتأميم الشركات والمصانع والمصارف وتأسيس القطاع العام كانت من اشد الضربات التى انزلتها الثورة الناصرية باقتصاديات الاسر ذات الاصول التركية وافقدتها كل ما اكتسبته على مر الاجيال من مميزات اجتماعية وسياسية واقتصادية ... ولا غروا اذا ما اخذت المخاوف القديمة على المستقبل الامن تعاود الاسرة المصرية التركية من جديد بعد ان عاشت امانة مستقرة تنسره طويلا ...

ولكن ما ان اطمانت ثورة ٢٣ يولية الى امكانية السير في الخط الاشتراكي دون معوقات خطيرة حتى اهتمت بتعزيز الخط الديمقراطي الذى ضحت به بعض الوقت من اجل تلميم الاصول الاشتراكية في العقول والنفوس .. وما ان اطلقت الحريات في حدود القانون ، واعيدت الحقوق التى تحفظ عليها التحول الاشتراكي ، واستعانت بأهل الخبرة بعد ان شربوا من مناهل الاشتراكية ، حتى عم اقتناع عام بلهيمتها في حل مشاكل الجماهير وازال كثيرا من القلق الذى راود البعض خوفا على المستقبل الامن للابناء ، ويرد الشكوك التى حثت البعض على الهروب ، واخذ الفارون يرجعون تباعا الى ارض الوطن وهم اكثر اطشانا ، لا يخلون باسهامهم في حل مشاكل الجماهير .. وهكذا قبلت اخيرا العناصر التركية نمطا من الذوبان في المجتمع المصرى لم يسبق لهان قبلته في اى عهد من العهود ... !!

- ٢ -

هذه صورة سريعة لتطورات الاسرة المصرية التركية من النواحي الفنية والاجتماعية والاقتصادية منذ الثورة العربية حتى الثورة الناصرية ... وفي معمة هذه التطورات ولد يحيى حتى ونشأ وترى وتعلم وتوظف ومارس الادب والفكر والفن وهو يعيش شتى محاولات

الموامة بين الطبع التركي وتطلعاته في تحقيق المستقبل الآمن وبين اهتماماته بالاستقرار في مصر كإبنائها الأصليين ... وشاهد يحيى حتى كيف بدأت دعائم الوحدة الوطنية تتوطد بفضل جهاد مصطفى كامل ولوروية سعد زغلول ... وثقف على أيدي أجيال اهتمت بتدعيم التقارب بين مختلف جماعات الشعب المصري ، رغم اختلافاتها العنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية والدينية .. وتقلب بين جنبات الطبقة الوسطى الحديثة التكوين من جماع المثقفين والإيمان من شتى الفئات ، وسأيرها وهي ناضل من أجل تحقيق نوع من التناسق بين اتجاهات الحياة المصرية الحديثة وتأسيس وحدة وطنية مصرية تصرف جهودها نحو بناء مصر العصرية ..

فمنذ البداية شب يحيى حتى في حي شعبي ، وأحب ابن البلد ولفته العامة المميزة .. ولكن على قدر ما أحب الحقى الشعبى وابن البلد كره المدرسة المصرية والمدرسين المصريين .. إذ ما أن بلغ السن الذى يسمح له بتلقى العلم حتى بدأ تعليمه في كتاب السيدة زينب .. ثم التحق بمدرسة ابتدائية مجانية لا يدخلها عادة إلا أولاد الفقراء عانى فيها من قسوة ضرب عصا المدرسين ما جعل الدنيا تظلم في عينيه يجبر نفسه إجباراً ويعلمها عذاباً شديداً حتى تقوى على حشر دماغه بمعلومات لا يكاد يفهم منها شيئاً ولا يدري لماذا يتعلمها ، وذلك لكي لا يتكرر رسوبه كما حدث في السنة الأولى الابتدائية ، ويطلق سراحه من جحيم المدرسة الابتدائية ويرضى أمه التي تفضب وتحتسر على خيبة أمها في أولادها إذا ما رسب أحدهم (١٤) .. وظن أنه قد يجد تعليمًا أفضل في المدرسة الثانوية ، إلا أنه عانى فيها حرماناً في تربية الخلق ، وخالداً في انهاء الشخصية ، وتقصير في الكشف عن المواهب والاستعدادات والقدرات تكفى بحشو الرأس بالتشويش وبالعالم النظري دون أن تهتم بالدراسات العقلية والتجارب العملية .. تخلو الكتب الدراسية ومناهج التعليم من كل ما يتصل بالموسيقى من قريب أو بعيد رغم أنها غذاء الروح . وتخلو أيضاً من الفنون وهي مهذبة للحس والدوق ومن التربية الدينية السليمة ، ويقتصر التعليم الديني على استظهار بعض الآيات القرآنية ... إلا أن يحيى حتى عوض كثيراً مما حرم منه في المدرسة المصرية بماتلقاه من مدرسة الأم التركية .. إذ كانت على قدر من الثقافة الأدبية والدينية ، تعطي اهتماماً بالاحتفالات الدينية والإعياد الإسلامية خاصة مولد النبي الشريف ... ولذلك فإن أول مؤرخية خبرها يحيى حتى في حياته كانت أيام الطفولة أثناء حفلة المولد النبوي الشريف ، التي كانت تهتم الأم بإقامتها بالبيت في مياعها من كل عام ، كما عودته منذ الصغر على زيارة المساجد ، خاصة تلك المساجد التي تقام بها الموالد . ولذلك عشق حضوراً احتفالات مولد سيدنا الحسين ليمتع برؤية ما يستعرض فيها من مشاهد السيرك من ألعاب الحيوانات ومن تمثيلات بسيطة ومن الأغاني الدينية .. (١٥)

(١٤) يحيى حتى : خليها على الله .

(١٥) يحيى حتى : دعمة فابتسامه .

وما كاد يحصل يحيى حتى على شهادة الكفاءة حتى وقع في حيرة . اذ كان عليه ان يختار بين القسم العلمى والقسم الادبى .. لقد كان يتمنى في صباه ان يكون طبيباً لان الطب مهنة حرة تهتم بدراسة جسم الانسان ، وتكشف عن اسباب علله وامراضه ، فكان عليه ان يختار القسم العلمى ولكنه فضل القسم الادبى خشية ان يرسب سنة او اكثر من ناحية ، وان يحمل الاسرة مزيداً من الاعباء والمصروفات من ناحية اخرى .. فما كاد يحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢١ حتى التحق بمدرسة الحقوق العليا التي كانت تمثل قمة التعليم العالي في ذلك الوقت ، ولا يدخلها الا المحظوظون من الاوائل ، ولذلك اعتبر التحاقه بمدرسة الحقوق شرفاً عظيماً لا يناله من يدخل مدرسة التجارة العليا او مدرسة المعلمين العليا .. الا انه لم يجد في اساليب الدراسة في مدرسة الحقوق ما يجعلها تفضل عن المدرسة الابتدائية او المدرسة الثانوية ... لقد افتقد فيها علاقات التراحم والانصاف والمساواة بين الاساتذة والطلبة ، ورأى حدة الصراع بين الاساتذة القدامى والاساتذة الجدد . ومع ان منصب الاساتذة لا يعلوه منصب آخر فان اغلب الاساتذة اقرب الى التجار الجشعين وابعد ما يكونون من حملة العلم .. ووجد الطلبة في زحمة الامتحانات في سباق مروع من اجل الظفر بالاولوية دون مرشد يدهم على احسن المراجع وادقها . في حين يجامل بعض الاساتذة ابناء الوزراء وكبار موظفي الحاقية التي تتبعها مدرسة الحقوق .. ويسرقون وقت الطلبة بالعبث والمحاكة حتى اصبح التعليم « كسلق الببش » ومجرد حشو الدماغ ، حتى يكاد ينفجر بالتفاصيل والقشور دون ان يتاح لطلاب واحد فرصة ليقف ويتكلم امام جمع من الناس وهو حاضر الدهن مالكا لشخصيته واعصابه ، حتى لا يمارس المحاماة الا وهو مدرب على صنعة الكلام وحسن الخطابة بعد معرفة القانون واجراءاته .. (١٦)

وهكذا كان مجتمع مدرسة الحقوق صورة مصغرة من المجتمع المصرى ككل شاهدني يحيى حتى صراعات غير مفهومة بين الاساتذة المصريين على الربع والمنصب ، ومنازعات بين الاساتذة الانجليز والفرنسيين من اجل توجيه الدراسة في المجالات التي تراعى مصالح بلادهم ، وتنافس بين الطلبة على الاولوية من طريق التفوق في الامتحانات او الوساطة والمحاباة والمجاملة .. ولقد اكتوى يحيى حتى بنار هذه الصراعات والمنازعات والتنافس التي كانت تثير في داخله تيارات مريرة من القلق والشك وعدم الاطمئنان ...

وانتهت مرحلة الدراسة بمدرسة الحقوق العليا بنجاحه في امتحان الليسانس عام ١٩٢٥ وجاء تربيته الرابع عشر ... فبعد ان كان قبل ظهور النتيجة يتمنى فقط مجرد النجاح ولو جاء اسمه في ذيل قائمة الناجحين حتى لا يفضباه او يجرعها مغبة خيبة الامل . وحتى لا تنعى ضياع جهادها من اجل اولادها او تندب سوء حظها معهم . فلذا به يتطلع ان يكون من بين الاربعة الاوائل الذين سترسلهم مدرسة الحقوق في بعثات الى جامعات اوربا لامتدادهم لشغل

مناصب الاساتذة لتفجعا لحركة تمصير مدرسة الحقوق ، واحلال الاساتذة المصريين مكان الاساتذة الاجانب من انجليز وفرنسيين ... وأخذت تراود يحيى حتى آمال تؤكدها له تجربته في المدارس المصرية ، واشعرته بأن لا مجال للتثقيف الحقيقي الا في الخارج ولافرصة له في اتمان لغة اجنبية الا بالسفر الى بلاده حيث تتوفر مناسبات لمشاهدة ضروب من الفن الرفيع على مسارح البالية والأوبرا والكونسير... وكما أنه ان يرسب في الكشف الطبى ويخرج من دائرة المرشحين الاصليين وينزل الى مرتبة المرشح الاحتياطي .. وتصر على ضياع فرصة كان يأمل ان يعمده من كل ما افتقده في المدارس المصرية ، وينعم بالجو العلمى الصحيح ، ويعيش في اجواء ثقافية تنمى عقله وترهف حبه وتندب ذوقه وتسمح له بالتمتع بمختلف ضروب الفن الرفيع ...

ولم يكن هناك بد من ان يقف يحيى حتى في طابور الطالبين للوظيفة . مثله في ذلك مثل جميع افراد أسرته الذين لا يوجد أحد منهم من تجرا واشتغل بالمهن الحرة ... واصبح امه ان يعينه ترتيبه المتقدم للحصول على وظيفة في قلم قضايا الحكومة .. وحيث أنه كان يعلم ان وظائف النيابة المختلطة كانت وقفا على اولاد الدوات وعلى من يجيد الحديث باللغة الفرنسية اضطر ان يقدم طلبا للنيابة الاهلية ، فوضع تحت التمرين في مكتب نيابة الخليفة لقربه من سكنه .. وبدأ صلاا أصدق وصف له هو « صبي وكيل نيابة » كل مهمته ان يجلس بجوار وكيل النيابة ويراقبه .. فد سُمح له بقراءة محضر التحقيق وابداء الراى فيه شفويا .. ولكن لا يحمل مسؤولية تولى التحقيق ذاته او ابداء الراى فيه كتابة . ولم يجد من يحاسبه على الحضور والانصراف فلم يرجع لمثل هذا العمل ، وشغل نفسه في الفترة ببعض الدراسات القانونية عن الاحداث والقام بعض المحاضرات عنها .. كان يطعم عن طريقها ان يتولى وظيفة تسمح له بالاشراف على ملاجىء الاحداث ومواصلة ابحاثه في كل ما يتعلق بمشاكل الحدث . ولكنه وجد السبل مسدودة لمثل هذه الوظيفة . فحاول ان يجرب حظه في المحاماة وهى عمل حر غريب عن أسرته يتطلب اتصالات متشعبة بمختلف فئات المجتمع .. بينما أسرته قليلة العدد منظومة على نفسها في شبه عزلة اجتماعية .. كل رجالها موظفون ، ليس لهم معاملات مع الناس تدعو الى الدخول في خلافات مدنية او منازعات جنائية او حتى مشاحنات عائلية تستدعى خصومات شرعية . فلم يجد يحيى حتى من يسنده في القاهرة ، وهى بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشئ الى اتصالات ومعارف واصدقاء لى يستطيع ان يجد لنفسه مكانا بين كبار المحامين الذين يسيطرون على مختلف القضايا .. (١٧) فاذا به يركب الصعب ويقبل الذهاب الى الاسكندرية وينزل ضيفا عند خال له يعمل بالجمارك ليحارس المحاماة في بلد تكاد تخلو من كبار المحامين الاهليين ، ويكثر بها المحامون الاجانب الذين يسيطرون على سوق محكمة الاستئناف المختلطة . فاشتغل اول الامر في مكتب محامى يهودى وجد فيه كثيرا من مظاهر التقدم الثقافى ومن علامات الرقى الحضارى .. ولكن سرعان ما تركه عندما لم يف المحامى

اليهودى بوعده ويدفع له المكافأة في أول الشهر .. واشتغل في مكتب محام مصرى وعده بمكافأة شهرية أكبر .. ويبدو أنه لم يجد الأمان كذلك عند المحامى المصرى وإذا به ينتقل الى دمنهور وينزل عند أحد أنسابه البعدين ويعمل في مكتب محاماة أتابه صاحب المكتب في تولى أمر الدفاع في بعض القضايا الصغيرة .. دعتة الى التنقل بين مراكز دمنهور لحضور جلسات محاكمها .. وفي دمنهور تعرف على طباع أهالى البحيرة من خلال خلافتهم التى تعرضها أمامه ملفات القضايا التى وكلت اليه دون أن يخالط الأهالى مخالطة تعرفه بهم عن معاناة وتجربة .. إلا أنه فزع من قضايا النصب وما تنطوى عليه من غفلة وبراءة متناهية ، ومن لؤم وخسنة ودناءة وطمع وجشع من ناحية أخرى .. وتعجب من كثرة ضحايا الخلافات بين الرجل والمرأة ، وما تدعو اليه من خيانات تمس العفة والشرف حتى أحس بأن الأمانة في هذه الدنيا أمر مستحيل .. وليته وجد أي نوع من الراحة وهو يبدل أقصى ما يستطيع من جهد لإظهار الحق ودفع الظلم عن موكله ، ولكنه تعرض لخداع سمارة القضايا الذين يعملون كوسطاء بين المحامين والمتقاضين .. كما لم يرتح الى كفاءة المدالة بسبب العجلة التى تدار بها جلسات المحكمة وسرعه إصدار الأحكام .. فساعد كل ذلك على ظهور عقدة التركى في مصر التى أفقدته الإحساس بالأمان والاستقرار ، وأغرقتة في مشاعر القربة والخوف من المستقبل . فلم يستطع مقاومة ضغط التخويف العائلى من مقبة الاستمرار في عمل حر غير مضمون الجانب، خاصة بعد وفاة والده في ١٩٢٦/١٠/٢٦ . وقلق أهله بعد مرور ثمانية شهور على اشتغاله بالمحاماة .. دون فائدة تذكر فوجد نفسه في النهاية يستسلم لاساليب الاتراك في الوساطة واشغاعه لنيل وظيفة ، وإن كانت أقل كرامة مما كان يتمنى .. وإذا به يقول : « تعرضت لضغط شديد .. خوفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول .. من أجل أن أرضى بوظيفة في الحكومة .. لم يجدوا لي بصد الوساطات والشغاعات الا وظيفة معاون ادارة .. ان هذه الوظيفة أقل كرامة من وظيفة النيابة .. فلم اقبل 'النصب الا صاغرا مستسلما » (١٨) .

ولكن ما أن علم أنه عين معاون ادارة بمنفلوط حتى أحس بان سفره الى مقر عمله هذه المرة لا يماثل بهجراته الى الاسكندرية ودمنهور حيث نزل عند الأقارب .. وإذا به يتهيب السفر الى الصعيد ، ويتوهم أنه مهاجر يقيم منفردا في بلد غريب بعيدا عن الأهل ، ويتوجس خيفة من انقطاع صلته بعائلته ، ويضطر أن يعيش وحيداً في بلاد تنتشر فيها جرائم القتل والاخذ بالثأر ، محرومة من وسائل التقدم الحضاري من ماء نقي ونور كهربائي ومجاري .. تزحف فيها المقارب في كل مكان .. كلها حياة خشنة صارمة لا تعرف الزينة ولا تجيز دلع القاهرة في طعامه وملبسه وتكاته ونزهاته .. ليها سجان له يد سوداء تطلق الأبواب عند غروب الشمس على الإنسان والحيوان .. فأخذ يحى حتى يردد أفواجا لا تخلو من رعشة « لا أستطيع أن أبين شعوري حين علمت أنني مهاجر لاقيم منفردا بالصعيد .. هل هو تهيب من المجهول .. أو هو خوف من

الانقطاع والوحدة .. ٢ لم يسبق لي قط ان سافرت للصعيد او خالطت اهله .. صورته المنطبعة في ذهني رسمتها لي اقارب تقاربهاويل الاشاعات عن جرائم القتل والاخذ بالثأر .. (١٩) ومع ذلك سافر يحيى حتي الى منفوط وتسلم عمله كمعاون ادارة في اول يناير سنة ١٩٢٢ . تحدوه مشاعر « بمصادرة الانطلاق .. الى عالم غامض احس بسحره وعطره .. كنت اشتاق اليه من قديم .. وادرك ان مصريتي ومحبيتي لبلدي لا تمنان الا اذا اغتسلت في حوضه » (٢٠)

لا جدال في ان الشيء الجديد على حياة يحيى حتي في منفوط هو معشيته وحيدا بعيدا عن الاسرة ، دون تدخل من والده التي يبدو انها كانت ذات شخصية مسيطرة يعمل لها الجميع الف حساب ... ولقد سكن بمفرده لاول مرة ، اذ لم يكن هناك اقارب ينزل عندهم كما كان الحال في الاسكندرية ودمهور ... يدخل البيت ويخرج منه بلا رقيب ، لا يحاسبه احد وقت الخروج ولا يجد من يساله متى عاد .. اذ كانت والدته تحرص على ان تتم على اولادها جميعا قبل ان تنام ، ولا يأتي لها نوم الا بعد ان يدخل كل منهم فراشه .. وكل هذه الحرية اتاحت له الفرصة الكاملة لكي يتخلص من تأثير كثير من تقاليد اسرته التركية ، ويقترب اكثر فاكث من صميم الحياة المصرية بعيدا عن كل التدخلات الخارجية .. يعيش في معمعة المجتمع المصري صباح مساء ، تحيط به مختلف مظاهر الحياة المصرية من كل جانب .. يستعين بأهل منفوط ويعتمد عليهم كل الاعتماد في مواجهة شتى الحاجات اليومية الضرورية ... وان ظروف عمله كمعاون ادارة حصرت اتصالاته بالفلاحين الى حد كبير ودفعته لمعرفة طباعهم وعاداتهم في مواقعها الاصلية .. بينما التنقل بين المراكز والقرى لتلبية الواجب الوظيفي جعله يشاهد عن قرب الطبيعة المصرية ويتصل بها اتصالا مباشرا حين يخترق الحقول ويتأمل النباتات ويراقب الحيوان .

وبذلك تكون اقامة يحيى حتي منفردا في منفوط مدة عامين لمباشرة مهام عمله قد أدت الى احتكاكه الفعال بالانسان المصري والمجتمع المصري والطبيعة المصرية ، مما ساعد على تنمية شخصيته المصرية في ظروف لا تسمح بتسرب نفوذ التقاليد التركية ونوعاتها ، وتدعو الى تغليب التقاليد المصرية وتعميق نزعاتها في مختلف تصرفاته .. واذا بالحياة الجديدة تستغرق كل وميه واهتماماته ، ولا تكاد تفلت منه لحظة من لحظات الريف في الصعيد .. فانتبه الى انماط من الانسان الساذج المتخلف .. روعه الدجال الذي يتظاهر بالتقوى ويلبس العمامة الخضراء ليستقل بساطة الفلاحين .. ويبحث الرهبة في قلوبهم ويسلبهم اموالهم ويستدرج نساءهم ... وشغفه المحتال الذي يلجأ الى كشف الطالع وادعاء القدرة على شفاء الامراض المستعصية .. فهاهنا ان ينهزم العقل امام الدجل والاحتيال الذي يوهو بإمكانية الكشف عن كنوز مختفية واظهار الغائب البعيد ... ويهزه نفوذ رجال الدين على الفلاحين .. ليس فقط في

(١٩) نفس المرجع السابق .

(٢٠) المرجع السابق .

حلقات الذكر وصلوات الجماعة بل على الخصوص في فض الحزازات وإبطال الإخذ بالثأر ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها وتقديم النصائح الأخوية التي تمنع الجرائم وتحض على مصالحمة المتخاصمين ورد المطلقين ، والسماح بتأجيل سداد الديون .. ولقد أدهشه كيف يعم السلام في القرية طوال إقامة المسيح بين ربوعها يتنقل من ضيافة إلى ضيافة أسابيع وشهوراً ، وكيف يتوجس الأهالي خيفة إذا ما عزم على ترك قريتهم ليتوجه إلى قرية أخرى .. !! إلا أنه يلحظ أن قوة هؤلاء الشيوخ لا تتناسب مع ثقافتهم وشخصياتهم بأنه لا يوجد عندهم علم يهر ولا قوة روحية خارقة ، وأن ولايتهم ليست إلا مجرد مهنة متوارثة لكسب العيش بطريق شريف يغيد الأهالي ، ويقوم بدور فعال في تطهير المجتمع من كثير من الشوائب الخلقية والاجتماعية .. !! ولذلك كانت العلاقة بين هؤلاء الشيوخ والفلاحين علاقة مثالية تنسج بالنبل ، ليس فيها استغلال أو خداع بل فيها تبادل المحبة والاحترام والثقة والرغبة في تعمير الخير ونشر السعادة والأمان والأطمئنان بين الجميع . وذلك بخلاف العلاقة السائدة بين الفلاحين وموظفي الحكومة الذين استقروا في بلادهم ليقدموا لهم مختلف الخدمات ...

لقد كانت علاقة الموظفين بالفلاحين تفتقر على الدوام إلى الثقة المتبادلة ، مما دعا يحيى حتى لأن يشعر بالأسى والأسف لوجود « هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة » ولذلك فإن « معظم أشغال الحكومة ، رغم حسن نيتها ، يساءل فهمها .. وتفرقل وتهتم .. » (٢١) وحاول يحيى حتى بكل قواه أن يستلين الفلاح حتى يثق به كموظف حكومي فلم يفلح .. إذ أصبح في ذهن الفلاح اعتقاد راسخ بأن الحكومة لا تفهمه .. هو في واد وموظفو الحكومة في واد .. ينظر إلى هؤلاء الموظفين على أنهم أغراب أجراء ، لا يفهمهم إلا قبض مورتاتهم ، وتلويهم ليست معه .. حتى دب في قلب الفلاح رغبة متناصلة من القرية ، ورغبة أشد إذا كان الغريب من طبقة الأفندية الموظفين ، الذين يمتدنون أنه راقده على كنز ، وأن خيرات أرضه موفورة ينبغي أن يكون لهم نصيب فيها .. فلا تعجب إذا ما أخذ الفلاح حذره حتى لا يظهر عليه دلائل النعمة فلا يطمع فيه « الشباحون » من الموظفين الذين يتوهمون أن تقدير مهابة وظيفتهم تقاس بما يلفونه من إكرام ، ويقدم إليهم من مأكولات حين ينزلون على الفلاحين لظروف العمل ويضطر العمدة لاستضافتهم ... إلا أن « فراغة عين الموظف » ليست السبب الوحيد لعدم ثقة الفلاح فيه .. إنما لا هتزاز صورته كذلك أمام عينيه ، ما ينشج بين الموظفين من خلافات وخصومات تصل إلى حد العداء السافر وكتابة العرائض الكيدية ، فكيف تؤمن جانبه .. ؟ فقد بلق الفلاح الموظف الجديد بالترحاب عند قدمه لأول مرة ، ويقبل أن يدخل معه في علاقات طالما أنها تعود عليه بالفائدة .. لأنه يعلم أن هذا الموظف لم يأت إليهم « حبا في سواد عيونهم » بل تادية لواجب مفروض عليه ربما يراه كرهيا فإذا ما فرغ منه يسرع فيولي ظهره وينفض يديه منهم ... ومن خلال هذه المشاعر كانت تصرفات الفلاح تلدبها بين عواطف الوفاء وتكرار الجميل

... وبين التودد والتفاني .. مما جعل الموظف بالتالي ، يشعر بأن الفلاح رجل لا يوثق به ، عنيد لا يتحول عن طبيعته ، وأن معاملته باللين والانسانية عبث ضائع .. ولكن عدم الثقة المتبادلة وريبة كل منهما في الآخر تفسد كثيرا من مشروعات الحكومة ، خصوصا تلك المشروعات التي لا تراعى أحوال الفلاح المصري الاجتماعية والثقافية ولم يسبقها اعداد الموظف المناسب لحياة الريف المصري . . . ١١

وفقد الثقة بين الفلاح والموظف ليست المظهر القبيح الوحيد في ريف الصعيد .. فان هناك مشاهد أخرى أشد قبحا تستلقت النظر وتدعو الى التأمل .. فان الفلاح المصري الذي لا يثق في الموظف يتعرض يوميا لضروب مختلفة من الضغط في شتى مجالات حياته العادية : يستغله الموظفون من اكبرهم لاصغرهم .. فان المأمور يفرض نفسه على العمدة لكي يعد له وجبة فاخرة اذا ما نزل عليه لسبب من الاسباب يستدعي البقاء في بلدته مدة طويلة ... فيضطر العمدة ان يستولى على دجاجة فلاحه ففسيرة لكي يقدم للمأمور الوجبة الشهية التي ينتظرها ، ويرضيه على حساب « فلاحه غلبانة » في أشد الحاجة الى العون والمساعدة . . . بينما يعامل الطبيب الفلاحين بأساليب تخلو من الانسانية ، وتتسم بالاستعلاء والغلظة والاستقلال . . . فطبيب القرية لا يتورع عن تشريع جثة قتيلى في مقر داره امام أهله ، ولا يبالي بحرمة الميت ولا يحترم مشاعر الجماهير ويقطع في جثة الفريق على الجسر امام المارة ... ولا يستنكف من ان يسخر من شباب القرية وهو يكشف عليهم عرايا بواقحة يوم فرز القرعة ... فلو كان يفحص كلبا جربا لكانت يده أحسن عليه من على هؤلاء الفلاحين ... يعيش في قصر جميل ، معتزلا القرية ، كأنه أقامه وسط فانية وأحاطه بالماريس ، ولا يتسع الا له ولا سرته ويخرج منه يوميا للدغال لصيد الوحوش ثم يعود ليتمتع دون بقية أهل القرية بكل مزايا المدنية المادية والمعنوية . . . يحيا في قصر يسوده السلام والدعة والركة والنظافة والابهة والرفاهية ولا يمكن ان يتصور ان هذا الطبيب المهذب النبيل داخل بيته هو نفسه الذي يعامل الفلاحين بغلظة وقسوة لا اخلاقية ... فيشترط دفع الاجر قبل تقديم العلاج المطلوب او قبل اجراء عملية ، لا هم له الا الاثراء العاجل بأى ثمن بالطرق المشروعة او غير المشروعة على حد سواء دون تمييز بين الخير والشر او الحق والباطل « (٢٢) . هذا فضلا من ان الفلاح كثيرا ما يتعرض للظلمة العمدة بل وظلمه واستغلاله احيانا لتحقيق مآرب شخصية ، او ليظهر مدى سطوته على الفلاحين حتى يرضى عنه الحكام ... فيعيش الفلاح بين مطرقة العمدة وسندان شيخ البلد ، يحاول ان يكسب ود الطرفين المتنافسين دون جدوى .. فلا تعجب اذا ما سرت الغلظة والقسوة في مختلف نواحي الحياة في ريف الصعيد فلانكاد نموت زوجة الفلاح حتى يتزوج بأخسرى مهما كان عدد اولاده ومهما بلغ من الكبر . وسرمان ما يتأمر الاولاد على الاب ويقتلونه . واذا ما فرطت بنت في عرضها فلا يتردد أى فرد من افراد العائلة عن قتلها حفاظا على الشرف

.. ولا سبيل لحل الخلافات على حدود الأرض ويرى الشيطان سوى تبادل إطلاق النار وسقوط الضحايا من هنا وهناك ، صونا للكرامة ودفاعا عن حرمة الأرض ... بل إن الفلاح منذ ولادته محروم من حياة الطفولة يقاسي منذ الصغرة ويلات العمل في الحقول ، وسرعان ما يصاب بأمراض البهارسيا والملاريا التي ترهق بدنه وتقتل حيويته وتسرع به إلى شيخوخة عاجزة ، في حين لا تعرف الفلاحة الرفاة ، فماتكاد تتزوج حتى تنجب ، ولا تمنعها كثرة الخلفة ومتاعب الواجبات المنزلية أمام الفرن وتقريص الجلة من مشاركة زوجها في الغيب .. وهكذا تستمر في عمل يومي شاق دون توقف منذ الصبا إلى الشيخوخة حتى يصعب التمييز بين الشابة والعجوز من نساء القرية « فليس في قبضة الفقر والشقاء إلا عمر واحد » . (٢٣) يجد الفلاح نفسه مضطرا لأن يهتم بحيواناته إلى درجة تفوق اهتمامه بأولاده وزوجه .. فإذا ماتت الباموسة لدفن عليها الدموع ، ولطمت النساء الخدود ، وأقيمت منحة كبيرة يتقبل فيها الزاء من الأهل والجيران .. ولذلك فليس هناك أشد قسوة في الانتقام من دس السم للبقر والباموس .. وإن الترف الوحيد الذي يعرفه فلاح الصعيد الحافي القدمين المرتدى الجلباب الأزرق البالي هو القتل عند الأخذ بالثأر . (٢٤) بينما تكاد تغلو حياة الفلاح الخاصة من اللهو والمرح ، ولا يسرى عنه إلا نزول السمكة إلى مولد السيد عبد الرحيم القتالي .. فيتسابق الفلاحون الأوفدون من جميع أنحاء المركز على مشاهدة الألعاب البهلوانية وعروض التمثيل ومشاهد الفناء والرقص في نشوة ما يبعدها شؤنة لا تتركز إلا نادرا .. إلا أن الفلاح لا يعرف شيئا من بهجة الانثى حتى أن الفوانى - وهن فلائل - يرقصن في لباس يغطي أجسادهن إلى الكمين في بيوت من القش والطين .. ومسح ذلك فإن الحياة الجنسية تلمب دورا هاما في تحريك الحياة في الصعيد وتثير متناقضاتها الاهتمام .. !! إذ كيف تصبح نزيهة - التي كانت في شبابها غانية من الفوانى - وليست من ويلات الله ويشيد لها مقام يرار ويشيرك به .. بسبب ما أظهرته من كرم وتوبة وتبتل في أواخر حياتها .. ومع أن التقاليد لا تمنح للمرأة التي تغرط في عرضها فرصة للتوبة وتقتص بهافورا بالأعدام .. كما أنها سمحت بوجود نقطة للعدالة الرسمية .. فلم يعترض أحد من الأهالي على احترام الفحشاء أو بتحسين لأجساد المومسات على مفادرة البلاد .. بل لم يتأفف فرد منهم من سوق الشرطة لهن لاستقبال قطار الرحلة الملكية وإطلاق الزغاريد التي يمتنع أحرار نساء الصعيد عن إطلاقها علنا .. ! وكذلك يعرف الضمدة وشيخ البلد كل امرأة تمارس الجنس سرا ولا يحاول أحدهما أن يمنع واحدة من بائعات الهوى عن التردد على بيوت الأفندية في المساكن النائية في الخفاء تحت ستار الليل .. بل لا يتورع العمدة أو شيخ البلد عن أن يدفع بأمراة بحراوية بعد أن يأخذ مأربه منها إلى يدها الموظفين الذين يتقززون من قذارة المومسات الرسميات اللاتي يكشف عليهن كشفا طبيا شكليا وإن كان دوديا ..

(٢٣) يعنى حتى : أم العواجز : قصة الزاوة ربيعة . الكتاب الحبي العدد ٢٩ أغسطس ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٤) نفس المرجع السابق .

بهدف إبعاد خطر استهواء الشبان من الموظفين لبنات القرية ونسائها .. حتى لا يتعرض لمصرع أليم .. مع أن الرعب من القتل يكاد يحد من انحراف النساء الصعديات .. فإذا ما طاش سلوك واحدة منهن غالباً ما تكون من نوعية معينة: كان تكون ابنة تاجر ثرى مشغول بتجارته .. في حياته يسر ، يتمتع بقسط من التحرر يخفف من شدة الرقابة . (٢٥) أو تكون بنت مدارس دخلت في علاقات اجتماعية لم تنشأ عليها .. أو تكون من أسرة مسيحية يلتحق بناتها بمدارس التبشير التي تسمح بنوع من الاختلاط مع الجنس الآخر (٢٦) وفي جميع هذه الأحوال تنتهى حياة البنت التي لا تحرص على شرفها لسبب أو لآخر وان كل ما ينسب إلى الصعيد من انحرافات جنسية ينصب في الغالب على نساء بحارويات اثنين من خارج الصعيد (٢٧) أو إلى الفوانى اللاتي ينشأن على حياة حرة طليقة لا تحافظ على حرمة الجنس وصيانة العرض ، ومستعدة لأن تبذل كل شيء في سبيل المصلحة والنفع والمادة (٢٨) .. وهكذا اهتم بحى حتى بأن يعرض تناقضات القيم الجنسية في الصعيد وبين كيف انه يحق للرجل الصعيدى ان يمارس الجنس في حرية مطلقة دون قيد أخلاقى أو شرط دينى ، ولا يلام إذا ما أشبع نزواته الجنسية بأساليب داعرة رغم تعدد زوجاته . ولا يشعر بالعار إذا ما رأى الدمار تطوف من حوله ، ولا يجد داعياً لأن يحرك ساكناً طالما أنها لا تمس أهله ، بخلاف إذا ما سمحت امرأة من الصعيد لنفسها بممارسة الجنس في غير النطاق الذى وضعه الشرع وتسريع عليه التقاليد فانها تلقى مصيرها من غير تردد أو تفاض . . . ١



الا أن وصف الصعيد ليس كله قبحاً فان الطبيعة وهبت من الجمال الشيء الكثير ، ما أجبر يحيى حتى على أن يصف روعة تدفق مياه الفيضان مع احتفال الفلاحين بوفاء النيل ، ويعرض مناظر حقول القطن والبرسيم في لوحات خلابة ، ويتأمل حيوانات الفيط من قرب ، خاصة الحمار الذى زامله مدة اقامته بمنفلوط ، ويحاول أن يستشف كنه كل حيوان من خلال ميني « البقرة عين غارقة في أحلام لذيذة .. للجمال عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنها يخشى أن تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء .. وللحصان عين تنم عن الخيلاء والتبل والذكاء تمسك الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة .. وللتيس عين فيها العناد كله ، وحتماً الخبث والؤامرات .. وللجاموسة عين متطفنة لا تنبعث منها حياة أو ارادة إلا وهي ترضع طفلها فينقعد سباتها على الحنان .. اما الحمار فان عينيه ذليلة حزينة تكاد تترقق فيها الدموع ، بل يخيل

(٢٥) نفس المرجع السابق .

(٢٦) يحيى حقي : دماء وطن : قصة البوسطنى .. مجموعة اقرا ، دار المعارف ، العدد ١٥٣ ، عام ١٩٥٥ ، القاهرة .

(٢٧) يحيى حقي : دماء وطن : قصة « أبو فودة » .

(٢٨) يحيى حقي : دماء وطن : قصة : قصة في سجن .

الى في بعض الاحيان انها معمصة كميون الاطفال بعد بكاء .. اهذا هو سر نهيته .. ليس في صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقاة والتفجع والمرارة ، انها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد الناس في نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تلدوب كانها لم تكن .. (٢٩)

لا شك في ان الفترة التي قضاهها يحيى حتى في ريف الصعيد - رغم قصرها اذ لم تتجاوز العامين - قد عمقت مصيرته الى ابعاد ما كان يستطيع أن يصل اليها لو بقي في القاهرة بصفة مستمرة ولم يتركها الى الصعيد .. فلقد يستر عليه فهم كثير من اتجاهات الحياة المصرية ونجع في تصويرها تصويرا واقعيا صادقا في كتابه «**خليها على الله**» .. والهفته بأروع قصصه الاولى في «**دماء وطن**» و «**أم العواجز**» كانت صدى لتجارب حية ظلت تتفاعل في داخله وتوحي اليه بمواطف ومشاعر وافكار وحكمة وموعظة وصور وخيالات ، شغلت وجدانه وحركت عقله لمدة طويلة حتى وهو بعيد عن ارض مصر متنقلا بين بلدان اوروبا .. وعلقت قلبه بالفلاح المصري رغم قداوة ملابسه وبيته وشالة طموحه وسرعة وقوعه في الجريمة والانحراف .. فسخر منه الفصصى ليكشف عن اسرار طبيعة شخصيته ، ويدعو الى النهوض به نهضة انسانية وثقافية حتى يرتفع مستواه الحضارى .. الا ان يحيى حتى نظر للفلاح نظرة اهل الحضر وسكان المدن التي لا تستسيغ الاوضاع المتهاكلة التي عليها اهل القرى وسكان الريف ، فكان هدفه من وصف المجتمع الصعيدى الوصول الى نوع من النقد والتوعية بقصد ، اولا وقبل كل شيء ، اصلاح حال الفلاح المصري في ضوء المفاهيم الحضارية الحديثة .. ولكن اوصاف يحيى حتى للفلاح والحيوان والحقول تفت عند حد القطعاعات التي سمحت ظروف حياته بأن يتصل بها اتصالات مباشرة او يدخل معها في علاقات عمل او لهو واقلت فكره وجدانه .. ولا غرابة في ذلك فلقد نشأ يحيى حتى وتربى في القاهرة ، وترجع معرفته بالريف ، قبل أن يذهب الى منفوط ، الى مجرد رؤية بعض القرويين الذين يدخلون بيته لتقديم حساب المحاصيل واجرة الارض ، او لقضاء عمل من الاعمال المنزلية .. واغلب تصوراتهن الريف استقاها من بعض التهاويل والاشاعات التي استمع اليها من هنا وهناك .. ولما ذهب الى اعماق الريف الصعيدى لم يخاطب اهله او بعاشريهم ، انما كانت اغلب اتصالاته مع ائندامن الموظفين وبذلك لم يختبر حياة الفلاحين في احضان الريف ، لانه لم يقيم في بيوت من الطوب اللبن ويرقد على الارض بجوار الحيوان .. ولم يأكل اكلهم صباح مساء او يشرب من مجارى الانهار ويرتدى زيهم الفضفاض .. ولم يشاركهم في جد هم وعيهم ، يستغويه ما يستهويهم وينفرما ينفرون ، يخطط معهم للاخذ بالثأر او يجد نفسه بلا ارادة مندفعاً في معركة من معاركهم دفاعاً عن الكرامة او الارض .. ولذلك اذا اطلع يحيى حتى على بعض اسرار الريف في الصعيد ورآها من كتب فلم تتح له الفرص الكاملة لان يندمج في عائلة من العائلات الصعيدية اندماجاً شاملاً يسمح له بالامتزاج التام في خضم حياة

الفلاحين ليتعرف على أبسط دخائهم اليومية التي لا يمكن أن يلمحها القريب مهما بلغ من الوعي والثقافة ودقة الملاحظة .. أو يستجيب لكل ما يشغل وجدانهم ويشير اهتمامهم ، ويتجاوب مع كل ما يفتعل في قلوبهم من هموم ومخاوف وآمال وتغنيات .. ولذلك لا يكفي أن يحس الفنان بالمشكلة لكي يفعل بها ويعايش إبعادها معايشة حيوية ليستطيع أن يعبر عنها تعبيراً صادقا ، وإنما يجب أن يعيش هذه المشكلة بكل جوانبها ويندمج فيها اندماجا شاملا في تجربة كاملة لا تقف عند مجرد الانفعال والمعايشة ، معتمدة على نفاذ البصيرة وشفافية الرؤية ..

إذا لا جدال في أن من بعث التجربة أكثر صدقا وأبلغ دقة وأكثر قدرة على التعبير عنها عن الذي يفعل بها أو يعايشها لفترة من الزمن مهما طال .. إذ سرعان ما يستولى عليه الملل ويفقد الانفعال حيويته ، وتصبح المعايشة عبثا ثقيلا قد تنقلب إلى ضيق وتدمر بمعنى الخلاص من حياة لم يعتدها .. وإذا حاول يحيى حتى أن يوهم نفسه قبل أن يوهمنا بأنه بلغ أغوار شخصية الفلاح المصري ، وأنه كان في موقع يسمح له بأن يفسر أحوال هذه الشخصية تفسيراً سليماً فإن نظرته إلى هذه الشخصية لم تكن نظرة موضوعية خالصة ، إنما كانت نظرة أثر فيها منطق أهل المدن ، حتى يمكن أن يقال أن نظرة يحيى حتى إلى أهل الصعيد أقرب ما تكون إلى نظرة هؤلاء المستشرقين أصحاب القلوب الكبيرة العامرة بحب الإنسانية التي تقبل طواعية أن تعيش في المجتمعات البدائية أطول مدة ممكنة ، بهدف انتقاد الإنسان المتخلف ورفع مستوى حياته وحمايته من الجهل والاستغلال .. إلا أن يحيى حتى يمتاز على هؤلاء المستشرقين بأن بواعثه في الحذب على هؤلاء الفلاحين لا تقف عند حد الإشفاق والعطف خلال لفظة إنسانية ، إنما تستند كذلك إلى نوع من الغيرة الوطنية يحزنها أن ترى المواطنين على ما هم عليه من تخلف وشفاء ..

وهكذا اكتفى يحيى حتى بأن ينفذ في أعماق الريف المصري محاولاً أن يتسرب إلى وجدان الفلاح المصري من خلال تعرفاته الخارجية التي يراها أمامه ولا يقلها منطق أهل المدن ليفسرهما من خلال علاقاته المتضاربة بين الفلاحين أنفسهم من ناحية ، وبين الموظفين من ناحية أخرى ناشدا فهم خبايا الريف وأسرار شخصية الفلاح المصري .. ولكن هذا الفهم كان مفيداً كما ذكرنا بحدود إمكانات نشاته القاهرية في نطاق أسرة ذات أصلاب تركية ..

ولا نعجب إذا ما أخذ يحيى حتى يشكو من مرارات الحياة في ريف الصعيد ، ويش من قسوة عمله صارخاً « طالما أرهقني وإذاقني عذاب الجسد والروح أشكالا وألوانا ، ثم يستدرك زاعماً أنه لولا معاناة مثل هذا النوع من الحياة ، وممارسة مثل ذلك النمط من العمل ما عرف بلوى أهله ومشاكله وشدة حاجته أن يخذل بيده من ابتائه ، يتروم بلهجه وطنية ناشدا أن هذا الشعور قد انقذه من (الضياع) حتى وجد في إقامته بمنقلوط (السلامة وراحة القلب بقدار ما في الدنيا من سلامة وراحة قلب) (٣٠) .. إلا أنه كثيراً ما كانت تستولى عليه مشاعر

النور والزهق ، تصور له تلك البلدة على أنها راقدة بين الفيضان والنخيل .. حيوان مشوه .. جسم رابض على الأرض لا فكر له .. عيناه واسعتان ولكنه أعمى .. يتنفس ويحيا ويجد سبيله في الحياة بفضل غريزة قوية .. نومه وجوم .. استيقاظه تحفز .. سكوته بين هذا وذاك .. مخاوفه . (٣١) وكم روعه ذلك الفلاح المعدم الذى يهوى القتل تحت بواش الأخلد بالثار ، وكثيرا ما كان يتحسر لمعجزه في التمييز بين الشابة والعجوز من النساء في مجتمع يسندر ان تظهر فيه المرأة ... واذا بالملل يستبد به في النهاية ويشعر بان يعيش حياة رتيبة كئيبة لا تسرى عنه سوى الجلسة التشابهية كل يوم في القهوة مع الاصدقاء ذاتهم يتحدث معهم في نفس الاحاديث التى لا تنفد ، وعادة تدور حول خبايا عائلات الزملاء من الموظفين وخاصة حول تصرفات بعض الزوجات المنحرفات (٣٢) فأخذ يتشوق لعمل ينقله من تلك الحياة القاسية الكئيبة ، واذا بالأمال تراوده في البحث عن مستقبل آخر يبعده عن هذا المكان يحرره من امر الريف ، ويطلقه في عالم أكثر رحابة الى أن صادفه ذات مساء إعلان في صحيفة يومية .. فبينما (كنت راقدًا بعد الغشاء على السرير بعد نهار أنك روحي وان له جسدى .. اقلب ولا اقرأ صحيفة يومية واذا بتظري يقع على اعلان لوزارة الخارجية بانها استمعدت مسابقة تعين الفائزين فيها بوظائف امراء المحفوظات اى سكرتيرين في القنصليات والمفوضيات » (٣٣) فتبقت في كل الرغبات السابقة التى كثيرا ما شوقته للحياة في الخارج حيث تتوافر مختلف المتع الفكرية والثقافية والفنية وكذلك الحياة المتحفرة الراقية التى للمرأة فيه دور بارز وسرمان ما (تقدمت للسابقة ... ونجحت .. وان جاء اسمي في ذيل قائمة الفائزين .. صدر امر تعييني امينا لحفوفات القنصلية المصرية في جدة باعتباره اسوا المناصب الشاغرة وقتذاك) (٣٤) ..

وهكذا حدث الانقلاب الخطير الثاني في حياة يحيى حتى بعد حدث هجرته من القاهرة للصعيد بعامين من الزمان .. فانتقل من حياة يفيض فيها العمل المرهق عن الزمن الحدود الى حياة يفيض فيها الزمن عن عمل موهوم .. (٣٥) فلم يتأخر يحيى حتى في تسلّم المنصب الجديد رغم انه لم يحقق كل طموحه ويرضى بطلعائه ، الا أنه مبرع من رضاه بالعمل في جدة بقوله : سآزور الحجاز .. وادرس المذهب الوهابي .. واهرف مشاكل الحج والكورتينيات ... وارى جميع الشعوب الاسلامية .. وبعض كبار المستشرقين .. (٣٦)

(٣١) يحيى حتى : أم الموجل : قصة : اذاعة رجلة .

(٣٢) يحيى حتى : خليها على الله .

(٣٣) المرجع السابق .

(٣٤) يحيى حتى : اشجان فطو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٥) يحيى حتى : خليها على الله ..

(٣٦) المرجع السابق ..

- ٣ -

ويبدو أن حياته في جدة وهي تمتد من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٠ لم تكن أسعد حالا من حياته في منفوط . فلقد كتب لي أخيرا رسالة خاصة ذكر فيها شيئا عن حياته في ذلك الوقت يقول « فقد عشت في جدة وعمرى ٢٤ سنة قرابه سنتين ... في جو حار رطب خانق ... بعرض وعرق .. كنت اعطى حبوب الكينسايوميا .. اناام على مرتبة ساخنة داخل ناموسية .. استحم في طشت بماء من صفيحة .. اشتغل بالليل على كلوب اثلث عيني .. ومع ذلك قرأت مكتبة القنصلية كلها .. وعرفت لأول مرة الى الجبرتي ، وكتبت عدة مقالات وقصص لا اذكرها .. اذ (في تلك الاونة كان النشاط الدبلوماسي قليلا فرحت اقضى وقت فراغى في مكتبة القنصلية حتى قرأتها عن آخرها - وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتي لأول مرة وفتنت به أشد الافتنان .. فلم اعرف كتابا أو مؤرخا استطاع ان يصور روح الشعب المصرى مثله » (٣٧) فلم يتوقف يحيى حتى وهو في جدة عن السعى من أجل تجميع مصرته . فاذا به يعيش مع الجبرتي يحوم حول الروح المصرية ويكتب مجموعة من المقالات في **جريدة البلاغ** تحت عنوان **« الفكاهة في المجتمع المصرى »** ولتمها باسم **« عبد الرحمن بن حسن »** وهو اسم الجبرتي نفسه . لخص فيها كل ما ورد في تاريخ الجبرتي من فكاهة . بعد ان حصرها وبوبها وارجمها الى اصولها النفسية ، محاولا الكشف عن بعض نواحي الشخصية المصرية .

ولعل اهتماماته بالشخصية المصرية وتعزيز معرفته بها في تلك الفترة هي التي شغلتها عينا **بعبور في بلاد الحجاز من حياة ..** فلم ير هنالك سوى « المسلمين باتون للحج من جميع ارجاء العالم ، فيكونون لوحة شاسعة كان لها اقوى الاثر في نفسى » (٣٨) ومع ذلك لا تكاد تشر له عن اى نوع من الكتابات الوصفية التأثيرية الغنية التي عرف بها - تعطى لنا لوحة قلمية حول الكعبة الشريفة أو الحرم النبوى الكريم رغم شغفه الزائد بوصف كثير من الآثار الاسلامية في القاهرة واستنبول « وان كل ما ظهر له من انعكاسات حياته في جدة لم يتمد كتابة بعض المقالات عن المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورنتينيات في مجلة الرابطة الشرقية ، وهو في هذه المقالات يكاد يسر على هدابة هؤلاء المستشرقين الذين التقى بهم خلال العمل الدبلوماسى واصعب بعقليتهم الغربية المنظمة » ..

وهكذا نجد يحيى حتى في جدة مشغولاً في مكتبة القنصلية بعيداً عن المجتمع الحجازى .. **يقراً ويقراً محاولاً أن يجتهد مدى ما توصل اليه من مصرية ..** وان ذهب لمشاهدة المسلمين في ساحات الحج الا ان بواعثه كانت بواعث فضول - وما اقبل على دراسة المذهب الوهابى الا بدافع نقاى يريد أن يتلمس مدى قدرة هذا المذهب على تطوير الفكر الاسلامى في الدين .

(٣٧) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٨) المرجع السابق .

وما ان تم نقل يحيى حتى من جدة الى استانبول في عام ١٩٣٠ حتى اتاه الفرج .. فاذا كان قد حبس نفسه في جدة بمكتبة القنصلية فانه في استانبول خرج الى المجتمع التركي يتصل بالعائلات ، خاصة تلك العائلات التي تمت له بصلة قرابة ، ويوزر الاحياء الشعبية ويتردد على مقاهيها وملاهيها ، ويصف آثارها الاسلامية ويعايش الحركة الكمالية .. لا شك في ان خروج يحيى حتى من جدة الى استانبول اعاد اليه بعض حيويته .. فان قلب يحيى حتى لم يفض بفكر جديد وهو في جدة ، وان عقاه لم يتفعل بحياة اهل جدة ، وعاش على هامش المجتمع الهجازي يتصل اكثر ما يتصل بالمستشرقين الاجانب ، واقتصرت تحركاته على نطاق الاعمال الدبلوماسية .. ولعل ذلك يرجع الى ضرب من الحذر الذي شب عليه يحيى حتى في معاملاته مع كل من لا يجري في عروقه دماء تركية ، خاصة من هم من اصل عربي صرف ، الذين دخلوا معهم خلال التاريخ في صراع مرير على السلطة استمر اجيالاً ، فتخوف من ان تظهر العقد القديمة اذا ما دخل في علاقات وطيدة مع الهجازيين ، او اذا ما حاول ان يتعمق في فهم المجتمع الهجازي وتبين ايجابياته وسلبياته ، وفضل ان يكتم انفاس فكره ويضيق الخناق على نبضات عقله حتى لا يتعرض لاهتمامات التحيز .. ولكن بمجرد ان استقر يحيى حتى في استانبول حتى شعر انه يعيش في موطن اجداده الاول ، وانه عاد من المهجر الى بلد له فيه عدد عديد من الذين لهم به صلة رحم .. فلم يعد يحس بان هناك ما يدعو الى الحذر ، وانطلقت تصرفاته في شتى المجالات يدخل بيوت الاقارب وغير الاقارب من الاصدقاء والمعارف ، ويوزر المساجد ويتردد على الآثار الاسلامية .. وبحاول ان يصادق بعض المصريين المقيمين في استانبول ويدخل معهم في علاقات .. يتدمج في المجتمع الدبلوماسي ويشاركه في كثير من تحركاته الاجتماعية .. يتفعل بشوكة كمال اتاتورك ولا يتردد في تقويمها .. يقبل على تعلم اللغة التركية لان معرفته باللغة التركية لم تكن تسعفه في التفاهم مع اهله اذ « لم تكن اللغة التركية تستخدم في بيتنا الا للسباب في لحظات الغضب » . (٣٩) وقد استطاع ان يتقن تلك اللغة لدرجة انه تمكن من تدلوق الشعر التركي وان يتصل بشعراء تركيا ويتعرف عليهم .. وينابع بوجه خاص تطورات الحركة الكمالية في منغوليا يربط محاولات كمال اتاتورك في تحويل تركيما من دولة شرقية اسلامية الى دولة علمانية حديثة بنفصل فيها الدين عن الدولة . ويشهد مظاهر تحول حكومة شعب مسلم متدين الى دولة تنجاهل دينه وتعاديه وتعتقد ان التمسك بالدين هو سرائر الشعوب ، وتحاول ان تويل كل ما يمت للدين بصلة ... ويقرأ كل ما كتب عن كمال اتاتورك فاستطاع ان يصاحبه يوما بيوم يشاهده وهو يخطب ويجالسه عندما زار السفارة المصرية في انقرة ليسترضي المصريين بعد حادثة اهانة الطربوش .. واذا كانت شخصية مصطفى كمال قد بهرت بهرته الا انه اخذ عليه دكتوريته ومصادرته للحريات الدينية ومعاداته لرجال الدين وتمطيله اداء فرائض الاسلام ومحاولته اعادة مسجد اباصوفيا الى الكنيسة التي كان عليها اول الامر . ولكنه رضي بحل وسط بان يكون البناء مجرد

متحف لا هو مسجد ولا هو كنيسة تبطل فيه الصلوات الخمس ولا تعود اليه تراتيم الصلوات المسيحية .. (٤٠) ولعل محاولات مصطفى كمال لقطع صلة تركيا بالدين الاسلامي - رمز الحضارة العربية الاولى - تهدف الى ازالة كل ما اخذه الاتراك من العرب .. ولذلك اتخذ خطوات ايجابية من اجل تطهير اللغة التركية من الالفاظ العربية وهي تكاد تصل الى ثلث مفرداتها .. والزعامات الشعب التركي بكتابة اللغة التركية بالاحرف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، بل امر بكتابة القرآن الكريم ذاته والاذان بالحروف اللاتينية كذلك .. وفضل ان يرمى في احضان الحضارة الغربية املا في التطور والاصلاح والتقدم على ان يظل راكدا جامدا في تكايا حضارة العرب وثقافتهم المتكاسلة ، رغم انه حارب بشراسة الاحتلال الغربي في بلاده حتى طهرها من التدخل الاجنبى.

ولقد تصور يحيى حتى ان مصطفى كمال كره العرب وحضارتهم وثقافتهم كرها لم يعرف له مثيلا بلغ الحماسة ، اذ ليس هناك « احق من رجل يهاجم في العصر الحديث دين رجل آخر ، فما بالك بحماقة من يفعل ذلك بامتته على بكرة أبيها » (٤١) واذا لم يثر الشعب التركي ضد مصطفى كمال بسبب نزعتة المعادية لدين الاسلام فليس ذلك « خوفا من بطشه انما اكراما له لانه انتقده من التمزق والعبودية واستلاب الاجنبى لارضه » . (٤٢) واذا استجاب الشعب التركي لاوامر مصطفى كمال بهذا الصدد ، فان قلبه ظل يخفق بدين الاسلام وايمانه به لم يتزعزع وان كانت تصرفاته تجامل تعليمات الحاكم ... واذا تحسر يحيى حتى على عداء مصطفى كمال للدين الاسلامي وحرمان الشعب التركي من الحرية الدينية فانه تضابق الى حد الغضب لانه نوعا من العداء للعرب يبدو في اهماله لحضارتهم واعطاء ظهري لثقافتهم ، رغم ان تركيا ما استطاعت ان تحكم العالم العربي ويقبل العرب الخضوع لسلطانهم زمنا طويلا الا بفضل تمسكها بالدين الاسلامي ، حين اهتم سلاطين الدولة العثمانية بان يتولوا الخلافة الاسلامية ، لان سلطات الخلافة الاسلامية تمنح لهم من النفوذ والتاثير الروحي ما يضمن ولاء الاقطار العربية للدولة العثمانية .. ولقد كان الدين الاسلامي دوامامن اهم العوامل التي قربت العناصر التركية في مصر من عامة المصريين ، ودمت المصريين الى حسن استقبال الاتراك كلما نزلوا بديارهم حتى لو بغرض الاستعمار والاستغلال .. ولقد ضحي مصطفى كمال بكل هذه الجذور التاريخية في سبيل اعتقاده بان حضارة الغرب هي حضارة المستقبل ، وان حضارة العرب اخفدت في الذبول ولا حاجة لتركيا فيها وضررها يفوق نفعها ..

ولكن ما هو الباعث الحقيقي لهذه القيرة الدينية عند يحيى حتى ... ؟ هل هو باعث روحي صرف ، او هو باعث يحركه نوع من القلق يشغى انفكك الارتباط الروحي بين تركيا

(٤٠) يحيى حتى : دعة .. فابتناساة .

(٤١) المرجع السابق .

(٤٢) نفس المرجع السابق .

يحيى حتى .. بين المعركة والتركبة

ومصر ؟ ان هذا الحرص على الدين لم يترنم به يحيى حتى وهو في الحجاز مسقط رأس الديانة الإسلامية حيث ولد رسول المسلمين عليه الصلاة والسلام .. وانطلقت منه دعوته الى العالم الخارجى .. وحيث الكعبة الشريفة اقدس المقدسات الإسلامية .. وحيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومقابر آل محمد والصحابة وشهداء الإسلام الاول .. فان كل هذه المواقع المقدسة لم تدفغ حواس يحيى حتى الروحية كما دفدغ وجدانه مسجد اياصوفيا ومسجد الانصارى الصحابى باستانبول .. واذا كان ازدحام ساحات الكعبة الشريفة بالحجاج قد بهره والآله الا ان ذلك لم يدفعه الى كتابات اشبه بكتابات عن ازدحام مسجد اياصوفيا بالمصلين في ليلة القدر .. **فالغيرة الدينية هنا تكاد تكون غيرة ارتباط .. ! لا شك في أن يحيى حتى يعشق مصر عشقا مابعد عشق ، ولكنه يود كذلك لو تظل هناك علاقات وطيدة بين مصر وتركيا وخاصة العلاقات الروحية .. وان الدين الإسلامى كان على الدوام من أهم العوامل التى توثق الروابط بين الشعوب وتجدد حيويتها كلما اعترها فتور بين المصريين والأتراك ..** فإذا ما تخلت تركيا عن الدين الإسلامى وارتعت في احضان الحضارة الغربية فان الذى يخلق يحيى حتى في المقام الاول ان هذا التخلي يقضى على ما تبقى من روابط الوصال بين مصر وتركيا والعرب والأتراك .. ويمز على المصريين الذين تجرى في عروقهم دماء تركية ان يشهدوا المرع الاخير لعلاقات تاريخية قاومت القرون ، وان يستشهدوا على فتور الروابط بين المصريين والأتراك الى حد العلم .. وكل ذلك يضعف من اتصالات المصريين بأقربائهم في تركيا ويمهد لقطع العروة الوثقى بوطن اجدادهم ... ولهذا السبب بالذات كان يحيى حتى ضد سياسة مصطفى كمال فى معاداة الإسلام وكرهية العرب .. !



الا ان اقامة يحيى حتى الطويلة بين الشعب التركى خلال فترة عنفوان الحركة الكمالية ، وما اثاره من تقلبات فكرية ونفسية ، وما خاضته من تجارب اجتماعية وثقافية اتاحت له من الفرص ما مكنته من ان يدرس جوانب كثيرة من اتجاهات الشخصية التركية السلوكية والاجتماعية ، بينما يشاهد تصرفات الأتراك وانفعالاتهم وميولهم فتكشف له من المفارقات ما لفت انتباهه .. ولعل اهتمامه الزائد بتحليل الشخصية التركية يرجع الى حد بعيد لرغبته في فهم بعض اتجاهاته الداخلية .. ولعل نجاحه في فهم هذه الشخصية يعينه اولا وقبل كل شيء على فهم ذاته فهمسا يعربه بنفسه ... فوجد ان الشعب التركى « شعب غريب يجمع بين المتناقضات » تتسم شخصيته بسمات متعارضة تجمع بين « القوة والرقه » ورأى في الأفراد « عيون بعد ان تشرق بلهب نظرة النمر الجائع تترقق فيها السحابة وحب الدعابة .. فرض الاعتداد بالنفس يغلو في مواسم التادب الاغاوى .. شعب يتوه في الخيال وترفعه الموسيقى الى السماء ثم لا يحيد في نظره عن الواقع العلمى واللغة المادية ... شعب تنفض في أغانيه الشعبية بدموع البكاء على الشهداء الذين سقطوا في ميدان الجهاد ضد روسيا وضد اليونان .. وأشدها حزنا البكائيات على الشهداء

في حرب البغداد .. ثم هو في الوقت ذاته يزدري الموتى والقبور ازدراء شديدا . . لم اشهد طوال اقامتي أربع سنوات في استانبول جنازة واحدة . . تتم المراسم كلها في المسجد . . يتقبل العزاء ثم انصرف كل حى لسبيله (٤٣) ورغم أنه شعب فشا فيه التصوف وكثرت التكايا وتمددت الطرق الصوفية . . ومع ذلك فليس في استانبول قبر لولى من هذا الشعب يزار وتنسب له كرامة « ولذلك فلا نعجب اذا ما تقبل الشعب التركي الغناء التكايا . . ووجد يحيى حتى « بين الكتب الرائجة في استانبول تتندر برياء الدرويش الذى يزعم انه يلتزم المسجد واذا سئل عنه وجدوه في الخمار « وكان ذلك من بين الدواعى التى حثت الحكومة على حل الطرق الصوفية ومطاردة « المتجنين اليها مطاردها للمجرمين المستحقين للشنق « وكذلك شجعت عامة الشعب على الاستهزاء بالدرويش والوعاظ « وما اكثر هزم تكالهم الشعبية بالوعاظ ودعاة الفضيلة والكرم وبالوعد المحولة على الغد لا اليوم « بل ان « مساجد استانبول كلها كانت لا تنطق بشيء عما تنطق به أحجارها . . كلها روائع معمارية فحسب . . مقامة على مقابر العظماء من سلاطين آل عثمان . . لا توحى بأية شحنة روحية . . ورغم ذلك لم أر مثيلا للشعب التركى في تبجيله وتحيته واعزازه لشخص الرسول بشرا لانبياء فحسب « (٤٤) . . **والذا انتقل يحيى حتى من واقع الحياة الدينية الى عالم الرجل والمرأة وجد ان « استلاء الرجل على المرأة * في تركيا لا يتمثل الا في اختطافه لفتاة من قريته والهرب بها الى الجبال ونوالها عنوة . . فهذا الاختطاف هو عنده البرهان الوحيد على الرجولة . . » (٤٥)** وشد انتباهه كمادته احوال بالعات الهوى فيقول « لم أر مثل البنى التركية في ايمانها بانها ضحية مجتمع الرجال الذى لا يرحم . . » وتحسر حين شاهد « في تلك المقاهى الشعبية الصغيرة في استانبول بين ردى التلال المخضرة المشرفة على البسفور او مرمرية اعزازا وتصفيقا لفتاة لم تبلغ سن الرشد . . ولكن خدوها مداس للجميع « ثم رثى لظروفها القاسية عارضا لاحوالها المتضاربة « لم أر انسانا ضعيفا مثلها يجمع بين الابتسام والرعب وبين الصلف والمسكنة . . بين الافصاح والاختناق . . بين الطرب والالين « وكما غاظه مجتمع الرجال لانهم « تقننوا في تفصيل ثوب لها . . ثوب ففطرية اسمه اللل . . » (٤٦)

هذه هى الملامح الاساسية للشخصية التركية كما تكتشفت ليحيى حتى في ضوء تجاربه في استانبول . . ولا شك في أن اقامته الطويلة في تركيا التى بلغت ست سنوات على فترتين متباعدين في استانبول وفى انقره قد مكنته من أن يتعرف على مدى التفاوت بين الشخصية

(٤٣) يحيى حتى : دمة . . فابستامة .

(٤٤) الرجوع السابق .

(٤٥) الرجوع السابق .

(٤٦) نفس الرجوع .

العربية والشخصية التركية .. كيف ان تعميق معرفته بالشخصية التركية يعينه على حسن التصرف خلال شخصيته المصرية ، ويكشف له بعض ما خفى عليه من جوانب ذاته الموروثة من الأصول التركية ، فيتمكن من أن يتحرر من ازدواجية الاتجاهات وتضارب الانفعالات وتصادم القيم المصرية والتركية ، ويحقق شخصية واحدة متجانسة ترتاح لكل ما هو مصرى ولو رفضها طبعه التركى لسبب من الأسباب .. وأن طول إقامته بين أهل أجداده لم يحدث فيه أية رجعة نفسية ارتدت به عن مصر .. بل لم تفارقه احساسات التربة وهو بعيد عن مصر .. فان اتضحت له جذور مقوماته التركية فان ذلك لم يمنعه من ان يتعمق في فهم روحه المصرية في نفس الوقت الذى يتأسي فيه على هؤلاء المصريين الذين ينحرفون عن طريق التفكير المصرى الأصيل السليم .. !!

- ٤ -

ولقد قرأ يحيى حقي قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم فإذا بالحنين الى مصر وشعب مصر يماوده ، وإذا به يبعث بمقال عنوانه « توفيق الحكيم .. بين الغشبية والرجاء » لـ « الحديث » يحط في آخر سنة له في استانبول عام ١٩٣٤ . وكانت من أولى مقالاته التي حاول فيها أن يحدد المسار الذى ينبغي أن يسير فيه الأدب المصرى حتى يصبح المبرر الحقيقى عن كل ما يخلق داخله من انفعالات وآمال .. فاستهل مقاله بأنه « لعل الاغتراب هو وحده الذى حفزنى الى كتابة هذا المقال » (٤٧) وعاب فيه اتجاهات الادب المصرى التى تغلب عليها الميول الفردية من دون الميول العامة التى تعمى عن روح كلية هي روح الشعب المصرى بأجمعه .. ولذلك كانت أغلب الكتابات الادبية في ذلك الوقت مجرد صرخات شخصية تدور في واد لا تجد لها من صدئ بين عامة النفوس ... ولقد ذهب توفيق الحكيم باتجاهاته الصوفية في مسرحية أهل الكهف يشيد بأن كل موجود هو من الله .. والله دائم .. فكل ما هو موجود دائم .. وينوه الى أن الزمن هو احدى خصائص عقل الانسان الذى لا يدرك الا بثلاثة مقاييس .. وبذلك حاول ان يمزج بين المواقف الصوفية والنظرات العلمية .. الا ان هذه المسرحية بمذهبها الصوفى العلمى لا تكاد تعبر من قريب او بعيد عن مشاعر الجماهير ولذلك لم يكن لها اى صدئ لدى عامة الناس ، ولم يتجاوب معها الشعب المصرى ككل ، ذلك الشعب الذى كان يمر بمرحلة فضال سياسى واجتماعى واقتصادى يحتاج اكثر ما يحتاج الى عوامل تقوى فيه نزعات الجهاد حتى يستطيع أن يتغلب على مختلف انواع المصاعب التى يضعها الاستعمار لمرحلة نهضته .. وليس في حاجة على الإطلاق لتقوية النزعات الصوفية التى قد تدعو الى نوع من الاسترخاء ، يستعزى الكسل والخمول ، ويتهرب من المسؤولية الوطنية بدوافع من الانانية التى تحث على قطع صلة الفرد بكل ما حوله طلباً للطهر والخلاص ، في ظل وهم نظرية صوفية سطحية .. **والذلك اعتبر يحيى**

(٤٧) يحيى حقي : خطوات في التلذذ . مكتبة دار الروبوت القاهرة - بدون تاريخ .

حتى مسرحية « أهل الكهف » من المسرحيات الخطرة على شباب مصر ، إذ قد تستهوية بالميول الصوفية، على حين أنه لا خلاص لمصر من الاستعمار ولا نهضة للشعب المصرى من الفقر والتخلف إلا على يد جهود شباب مصر الذى يجب أن يبذل كل فرد منه في تعاون ويشترك أقصى ما يستطيع من جهد ، دون نظر لآى نوعية من المنافع الفردية سواء أكانت مادية أو روحية .. ولذلك فإذا كانت مسرحية أهل الكهف بمثابة نجاح كبير لتوفيق الحكيم كفنان في عالم الادب فإنه لا يكاد يكون لها أى دور ايجابي في المجالات التى تدعم مقومات الشعب المصرى .. ولا نعجب اذا ما شك يحيى حتى في قيمة مسرحية أهل الكهف بالنسبة للشعب مصر .

واحسب ان يحيى حتى هنا يكاد يكون متأثرا بالحركة الكمالية من جهة ، وبالنزعات التركبة العملية من جهة أخرى .. فان مصطفى كمال قد قاوم التصوف بكل صوره ليصرف جهود عامة الجماهير ويركزها في خدمة تركيا .. ويبدو ان يحيى حتى كان يتمنى في ذلك الوقت ان يظهر في مصر شخصية قيادية مثل مصطفى كمال تعطى للشعب مصر من الكرامة والحوافز المادية والمعنوية ما يلهب القوى الكامنة لتعمل على رفع قيمة الانسان المصرى .. دون ان تستغرقها قيم غيبية لا تساعد على رؤية افصاح الحقائق التى يعيش في قلقها المصريون ..

الا ان يحيى حتى تنبه الى ان نزعة التصوف التى تشوب قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم تنسم بالحمية خلاف نزعة التصوف العالمية التى تنسم بها مسرحية « أهل الكهف » وهى قصة تقوم على ديانة الفرائضة تستوحى اسطورة أوزوديس وايزيس ، وتتخذ من ثورة ١٩١٩ الشرارة التى اوقدت الحياة في اسلاء مصر المتقطعة الاوصال المتفرقة المرفقة الجوانب ، وأعادت اليها الروح التى وحدت جميع الصوف وشملتها تحت راية مصرية واحدة .. وعرضت هذه الافكار تصرفات عائلة مصرية صميخة .. رغم انها كثيرة الافراد . فلقد كان بعضهم اتحاد ووصال وود .. ولكنهم وقعوا جميعا في حبة فتاة متلابة تسكن بجوارهم حاول كل منهم ان يتقرب اليها على غفلة من اخوانه .. فتوشك المصلحة المتضاربة ان تباعد بينهم .. واذا بالثورة المصرية تمصفهم جميعا وتكتسح جهم التافة ، وتجمعهم على الوفاق من جديد داخل حب كبير هو حب مصر .. فعادت الروح الى مصر التى ظن الجميع انها ماتت ، حتى ان عودة الحياة الى هذه الروح لغت انتباه اجنبى فرنسى .. ويرى يحيى حتى في هذه القصة صورة صادقة للمجتمع المصرى سواء في القاهرة او في الريف ، ولذلك لها قيمة واقعية يمكن ان تعود بشيء من النفع . لانها استعدت اصلا من التراث المصرى القديم من ناحية ، واتخذت من الحياة المعاصرة الحديثة سبيلا للتعبير عن عظيمة الماضي وحيوية الحاضر .. الا ان يحيى حتى لم يجد في قصة « عودة الروح » ما يشفي غليله الوطني ويشبع اتجاهاته المصرية الصاعدة اشباعا قويا . فان القصة تريد بصدق وإيمان الجمع بين الروح والجسد .. بين المعنى والرمز .. بين السر والتفكير .. بل وتريد كذلك ان تبين لنا كيف تسري الحياة من جديد في جسد مصر .. ولكن القصة لم توضح كيف اسهم كل فرد من افراد الاسرة في الجهاد الثورى .. كما جاءت الخاتمة

باردة تافهة ليس فيها حرارة الباطن ولا عظمتة. فكانت صورة الثورة باهتة مقتضبة كما لو كانت دخيلة على القصة وثانوية بالنسبة لموضوعها .. لم تجد مصريا واحدا يليق بأن تعلق على لسانه بأن مصر التى خال الجميع انها ماتت قد عادت اليها الروح واختارت اجنبيا فرنسيا لكى يشهد على هذا التحول .. بينما جعلت جميع افراد الاسرة بصرعهم المرض ، وتنتهى القصة وهم اشبه بالوتى ، كل منهم لائذ بفراشه .. ورغم ان القصة توحى بأن مصر لا يمكن ان تحيا الا بطلمس الفراغنة . فلا شك في ان استلهم مجد الفراغنة يثير كثيرا من الاحلام الجميلة .. الا ان اسطورة اوزوريس ما زالت بميدة من الوعى المصرى العام ، وبذلك لا تستطيع ان تستفز روح مصر الحديثة استغراقا قويا فعلا ، مما اصاب القصة بنوع من عدم التوازن بين الباطن الفرعونى القتبس والظاهر العصرى المستمد من الواقع . فاذا كان الباطن عظيما فان الظاهر لا يوجه اليه العناية الكافية ، وتغلب عليه الوقائع الصيبانية التى لا تخلو من تصنع واستطراء .. فان الادب المناسب لشباب مصر فى هذه الايام ينبغي ان يكون ادب كتاب اقوياء يطول فيهم حرارة اليقين الذى لا يسلم من وسواس الخشية .. وتكون روحهم مزيجا من الكبرياء والتواضع وخليطا من الحلم بالآمال والشعور بالواقع الملموس .. ينظرون الى السماء ولا ينسون ان ارجلهم على الارض .. (٤٨)



وهكذا اصبحت المصرية تشغل يحيى حتى اكثر من اى شيء آخر ، ويكاد يغلب المصرية على التركية بينما هو يعيش فى تركيا الوطن الاول لاجداده ، اذ لم تستطع الحياة التركية بسريرها الحديث نحو الاستقلال والتقدم ان تستويه استهواء يجعله يتألف من مصريته . بل اعطته دوافع قوية لكى لا يالو جهدا فى سبيل ان يصل بالمصرية الى درجة من الشفافية والوضوح . حتى تهذا روحه الماشقة لمصر .. ولقد ظهرت قوة حاسته المصرية درجة قوية من البصيرة الصادقة حين حاول ان يكشف الغلل فى مصرية الكثيرين من المصريين خاصة اذا كانوا من بين المصريين المهاجرين ويشتملون بمسائل عامة تهم كافة المصريين .. فانه من العروف عن نجيب الريحانى ان فنه « مصرى خالص صادق قد اتبع من قلب مصر ودل عليها وترحم عنها وارخ لها .. وان الريحاني هو مصر ، ومصر هي الريحاني .. (٤٩) الا ان ازدواج شخصيته وجمعها وبين الاصل العراقي والشمى والمصر المصرى يراه يحيى حتى « مفتاح الفاز حياته وتفسير شخصيته .. عاش الريحاني طيلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين .. وهذا سر وحدته الملحوظة فى حياته العامة والخاصة .. (٥٠) . وان كان

(٤٨) المرجع السابق .

(٤٩) نفس المرجع السابق .

(٥٠) نفس المرجع السابق .

الريحاني من اوفى طبقات المهاجرين الى الشعب المصري واكثرهم فهما لعاداته وعجائب طبيعه فانه لم يسلك الطريق السوى الذى يخدم الفن المسرحى خدمة مصرية خالصة .. وناثر حد كبير بظروف مصر السياسية والاجتماعية دون ان يؤثر فيها ، وجارها دون ان يطورها .. عالج ميوبها معالجة سطحية لم تنفذ الى الاعماق وتقتلها من جذورها .. فلما فكر الريحاني فى تكوين فرقة مسرحية هزلية كانت فرقته تستمد موضوعاتها من هامش الحياة المصرية . ومسرحياتها الاستعراضية لا تكاد تخرج عن انها مجرد مسرحيات « فرانكو آراب » تعتمد على رواد من الليغاتين الاجانب ومن انصاف المتعلمين من المصريين الذين سحرهم الثقافة الغربية .. ويترددون بين الشرق والغرب وهم لا مصريون او اجانب .. ولما حاول الريحاني ان يطمس مسرحه ويعطيه صبغة اكثر مصرية لجأ الى شخصية « كشكش بك » عمدة كفر البلاحي الحديث الثراء بسبب ارتفاع اسعار القطن المفاجيء فاصاب انفاقه ضروبا من الاضطراب ، فأخذ يصرف أمواله بسخاء على اللهو والمتعة ، مما جعله موضع سخيرة سمسرة القطن واشباههم واستغلال الرأقاص والنسائيات .. فأتخذ منه الريحاني موضوع تسلية على المسرح بهرا من تصرفاته وهو يعيث بين بائعات الهوى ينفق عليهن كل ماله بلا مبالاة ، دون ان يحصل منهن على شيء .. لكى يسرى على رواد المسرح ، وأغلبهم من الطبقة الوسطى ، سواء من المصريين او الاجانب المقيمين فى مصر .. ولكن سرعان ما مل الجمهور شخصية « كشكش بك » لرتابة الموضوعات والحركات والكلمات ، فاضطروا ان ينزى من الشخصية الاولى لمسرحياته ويجارى التطورات الاجتماعية ، فاتخذ من شخصية « الافندى » - الذى اعده ذتلوب فى المدارس المصرية واسلم اليه الانجليز شئون مصر الداخلية ، واخذ يكون طبقة وسطى نامية ينتمى اليها فى الغالب موظفو الحكومة واشباههم ليكسب جمهورا عريضا متزايدا من المصريين ، وحيث ان هذا الافندى لم يالف بعد لبس البذلة او رباط العنق .. محووق بين الشرق والغرب .. دخله متواضع لا يكاد يكفى مطالب الحياة الحديثة .. يعيش بين دسائس الديوان وتحكم الرؤساء وانتشار الوساطة .. فأخذ الريحاني يعبر عن مشاكل هذه الطبقة حتى يبدو اكثر مصرية واكثر تطورا فى معالجة حياة قصر الحديثة . تصور مسرحياته ، المكتسبة من المسرح الفرنسي الرخيص ، هذا الافندى على انه انسان طيب القلب حسن النية وان كان لا يخلو من مكر ودهاء .. لا يريد من الحياة الا السلامة ، ولكنه قادر على الدس والطعن دفاعا عن النفس .. عواطفه حائرة بين حب الفتاة العفيفة المتخلفة والفتاة الحديثة المشكوك فى اخلاصها .. ولا يجد ما يتسلل به الا النكت التى تسخر من خداع الناس ونفاقهم وتكشف خبيثهم الاجتماعى .. ومع ذلك لا يتخلل عن خلقه الشرقى الصميم الذى يسلم بالقدر والرشاء بما قسم الله .. الا انه عز على يحيى حتى ان يستمد الريحاني مواصفات هذه الشخصية من مسرحيات غير مصرية اعتمدت اكثر ما اعتمدت على المسرح الفرنسى الهابط واقتبست منها اكسد بضاعة بعد ان زوقت بلغائف من التدليس والخداع لا تكاد تخرجها عن اعمال الفش التجارى ، واستوددت لشعب مصر لكى تحبس فى نطاق هذا الفن المروق وتفرض عليه ان

يحيى حتى .. بين العربة والتركية

يعيش فقط في متاعب طبقة واحدة هي طبقة الاندية .. » ولولا غلبة هذه الطبقة على المصرى ما توفرت اسباب هذا النجاح السطحي للريحاني . » (٥١)

ولذلك كم آلم يحيى حتى ان يقتصر مسرح الريحاني على شخصيات منحرفة غير سوية .. لا تصور الا ما في المجتمع من تفكك وضعف وتخاذل وتراض .. تنحصر في شخصيات . ابن الدوات التالف .. والفنى المبيط ... والخادمة الشرشوحة .. والبنت الدلوعة .. والمعلم لايس اللامسة .. والاندى المجوز الخبيث .. وامرأة تركية مجبوز لاضحاك الجمهور على رطانتها العربية تشبها باضحاك الاتراك على شخصية باشا مصرى يقسم بالله بين كلمة واخرى .. ورغم ان هذه الشخصيات هي شخصيات مجتمع السنوات الاولى من عشرات القرن العشرين الا انه حر في نفس يحيى حتى ان لا ترى مسرحيات الريحاني في المصريين الا اشخاصا طبيعتهم بلاهة ، وغزلهم لتليب حواجب ، غضبهم سريع واصحابهم مغلوته .. يثورون للتافة من الامور . يستسلمون للحكم والمواظف الفارغة .. يميلون للروح والتشليق .

اذ ان عرض الشعب المصرى يمثل هذه الصورة البشعة التي تبعث على الياس من قدرة المصرى على النهوض والتطور والتقدم لا يمكن ان تكون الا خلال نظرة خاطفة متعلجة لاجنبى تخدعه بعض المظاهر فينساق في الترويج لها والالحاح عليها على انها هي كل شيء في الشعب المصرى شأنه في ذلك شأن الزائر الطارىء او المقيم الذى لم يندمج فلم تتح له فرص فهم بواطن الامور في الشخصية المصرية .. فعاقت مسرحياته الشعب المصرى من فهم امكانياته فهما صحيحا: وبلبت كثيرا من المعاني والقيم ، مما عرقل تطوره بما تبثه من ضعف وعجز ويأس ، ومن تشويه للواقع وتشهير بالحقائق .. وبذلك لم يقدم مسرح الريحاني خدمة تذكر للحياة المصرية ، ولا شك في ان ضرره تعدى كل ما سببه من فحش وقهقهة .. واذا كان الريحاني فنانا عظيما لم يؤد خدمة عظيمة لمصر . وهذا هو عيبه الكبير الذى لا يمكن ان تغفره له الحمية المصرية ، ولا يرضى ان يسكت عنه كل من يعشق مصر ، ولا يفكر الا في دفع المصرية في المسار السوى الصميم .

- ٥ -

واذا لم يرض يحيى حتى من اتجاهات الافكار الاجتماعية في مسرحية اهل الكهف ، وتضايق من ضالة المواظف الوطنية في قصة « عودة الروح » .. كما عز عليه ان يشوه الريحاني ملامح الشعب المصرى ليسلى الاجانب تارة وانصاف المعلمين من الطبقة الوسطى تارة اخرى .. فانه ايضا لم يغفل عن هؤلاء الاتراك الذين جرى في قلوبهم حب مصر ، ثم لم تستقم لهم الحياة بين المصريين لسبب او لآخر ، فتأوه اشد التأوه من المصائب التي نزلت

(٥١) المرجع السابق .

بالأسرات التركية المصرية التي ارتاحت الى العزلة والانزالية ، واتخذت مواقف سلبية انانية من الحياة العامة في مصر ..

ولقد صور لنا يحيى حتى ابرع تصوير كثيرا من الشخصيات القلقة التي تعاني من عقدة الصراع بين المصرية والتركية في كتابه « دعة .. فابتنامة » وفي كتابه « ناس في الظل » ولعل تحليله لشخصية « علي بك فوزي » تعد من اروع التحليلات واشملها لذلك المصرى الذى يشعر بحتين ضائع لوطن يشعر في أعماقه أنه أصبح غريبا عنه ... لقد سيطر الصراع بين المصرية والتركية على نفسية « علي بك فوزي » فلم يعرف الاستقرار او الراحة ، وظل يقاسى من القلق حتى غاب عنه الهدف الرئيسى الذى ينشده من الحياة . واستولى عليه نوع من الضياع الروحي لم يسمح لمصريته أن تستفرقه استغراقا تاما ولم يمكنه في الوقت ذاته من أن يستعيد تركيبته الاولى في صورتها النقية .. وعرض يحيى حتى كل ذلك في كتابه « ناس في الظل » في لوحة انتقادية رائعة حاول أن يحلل فيها احوال ذلك المصرى الذى تجرى في مرقه نماء تركية، ويعانى من اضطرابات ترجع لعرب من ازدواجية في الميول والرغبات والنزعات والعواطف والانكار والمثل ... وبين كيف ان على بك فوزى خاب في ان يوفق بين النزعات التركية ودوافع الحياة المصرية ، وبالتالي مجر من الوصول الى تلك الموازنة التى تحقق له السلامة النفسية والازران العاطفي والانسجام الفكري ، الذى لا يشتمل من قبول الواقع المصرى على ما هو عليه والاندماج فيه قلبا وقالبا ، مشاركا الناس مشاركة فعالة ايجابية في كل ما يخطر على وجدانهم من آمال وآمالى ، وكل ما ينزل بهم من آلام ومصائب ، ولا يدع الاسى على فقدان الجاه والسلطان يشل ارادته ويدفعه لعزلة لا تقدم ولا تؤخر ، تمرقل نشاطه وتجعله يجتر أوهاما بالدة لا تنتهي ، ولن يعود عليه الا بأن تمنحه من أن يتطور مع تطور الاحداث الجارية ، فاذا به يقف عند حد التأفف من كل سلوكه هابط .. والضيق من قبح الفباء وظلمة الحصى وتبلد الشعور ، والتبرم من الكلمة النابية والنكتة الباردة ، وكراهية الجلف والمنفور الذى يدوس على اقدام جلسائه دون أن يدعى أو يبالى .. وهكذا لم يتقبل علي بك فوزى كثيرا من الارضاع الاجتماعية السائدة بين عامة الناس ، ولم يرجع اليها على اعتقاد أنها تنافى مع المستوى الحضارى الرفيع المتمسك والخلق الكريم الفاضل .. فوسع هذا الاعتقاد هوة التناقض بين الاتجاهات التركية والواقع المصرى ، وادى الى نوع من الانقسام يفصل الفرد عن المجتمع ...

لقد تخرج علي بك فوزى في مدرسة المعلمين العليا التي كانت متميزة في ذلك الوقت اقل المعاهد العليا شأنًا ، خاصة بين الطبقات الشريكية التي ينتمي اليها ، على اعتبار أنه من سلالة المالك ولا جاء ترتيبه الاول بين المتخرجين ارسل الى بعثة لانجلترا على نفقة حكومة مصر ، ليدخل مدرسة اكستر التي لا تصل الى مستوى جامعات كامبردج واكسفورد التي لا يدخلها الا ابناء القادرين من الاعيان المصريين على نفقتهم الخاصة .. وكل هذا امتهان وظلم لابن من ابناء الانساب المريقة

التي كان لها الحكم والسيادة في يوم من الايام ... وما ان عاد من البعثة الى مصر واشتغل بالتدريس حتى اصطلح بتحكم « مستر دنلوب » الانجليزي مستشار وزارة المعارف والمهيم عليها هيمنة تامة ... وتحركت في داخله كوامن السخط على الاحتلال البريطاني الذي ازال كثيرا من نفوذ العناصر التركية ونافسها منافسة خطيرة تهدد مستقبلها ، فاحس بأنه يقع تحت وطأة الظلم الاستعماري الذي اضاع هيبة العناصر التركية واطعن مكانتها بين المصريين .. في حين ان على بك فوزي رجل رقيق مهذب شديد الحساسية متمتع باتباع اساليب الحضارة .. ذكي الفؤاد غترف من الثقافات الغربية والعربية .. صاحب ذوق فني وادبي يعشق الطبيعة ويتحسس جمال الالفاظ .. وقف علمه وثقافته ومواهبه في اول الامر على تعليم تلاميذه لا المنهج فحسب ، بل كذلك معنى النخوة والرجولة والشهامة والاعتزاز بالوطن وامجاده .. ومعنى التبرى من التعصب والفرور والصلف والكبر الفارغ .. ومعنى الاستمسك بالعدل وكرامية الظلم حتى قدره تلاميذه تقديرا عظيما واخلصوا له الود والحب .. الا أنه لم يشعر بالسعادة لئلا هذا التقدير وذلك الحب ، لانه كان يحس على الدوام انه مغلوب على امره يعمل تحت ظل الاستعمار الذي تشخص امامه في شخصية مستر دنلوب الكريمة ، وان رضاه بالسكوت عن استبداده دون مواجهة يناقض الدروس الاخلاقية التي يلقتها للطلبة ، فهرب من مهنة التعليم ودخل في مهمة الوظائف الادارية حتى بلغ منصب السكرتير العام لوزارة الزراعة وحصل على رتبة البكوية ... ولكن رقب الوظيفة الادارية تحت الاحتلال قضى على كل ما بقي من قوة الاحتمال ونفد صبره ، فمال للعزلة والتبحر في دراسة التصوف ... لانه لم يكن عنده القدرة على ان يعلن الثورة ضد الاحتلال ويقاوم الاوضاع الفاسدة ويعترض على سياسة الحكام ويقوم تصرفات الحكوميين .. بل لم يكن امامه الا ان يتخذ موقف الرفض ، وهو موقف سلبي يلجأ الى عزلة قد تشجع ميوله في التصوف وتغفيه من اللوم ، وتنفي عنه المسؤولية الناجمة عن الاشتراك في اى عمل من الاعمال ، وتنفذه مما يتفق بين الناس من احقاد وخسرة ووضاعة ، الا انها حطمت كل جسر يربطه باهتمامات الناس ، وجعلته يعيش في امتعاض كامل لكل ما يدور حوله ، سواء من تسلط الانجليز او من استعلاء الاجانب على المواطنين ، او من تخبط سياسة الوزراء او من نهس الخديو للبلاد .. او من تقشى اللفظة والحاجة والوقاحة والفش والكر والخبث بين العامة .. فاذا بالشعور بعدم الرضا الذي ادى به الى العزلة يتحول الى سخط ، والسخط يصبح امتعاضا يشعره بأنه ليس له مكان في هذا البلد فترك مصر هربا من كل هذه الاوضاع التي لا يتراح اليها .. ولكن ما ان خرج من مصر حتى وجد نفسه في مهب آلام غابرة تعصف به من كل جانب .. فما استقر في بلد الا واجس بالفربة وعاش في عذاب اشد من عذاب الحياة في مصر ، فلم يصبر على الإقامة في المانيا وسرعان ما هاجر الى استانبول لعله يجد في بلاد ينتسب الى اهلها بنسب من الاصل بعض الراحة بين آل اجداده ، ويحس بنوع من الامان والاطمئنان يخلصه من الشعور بالظلم والاضهاد والمهانة .. ولكن ظل حبيس عزلته وهزيماته ، تبدو عليه مظاهر

الاعياء من ارهاق نفسي رهيب .. تشقيه الوحدة في الشيخوخة وتضنيه الهريمة بعد ان ضاع
الامل في كل شيء ، ولم يعد يبالي بالتقدم او التخلف بالحياة او بالوت فلا الحياة في مصر اعطته
ما يريد ولا العودة الى الوطن الاول ردت اليه ما ظن انه فقدته في مصر .. وما ان اشتد به المرض
حتى اضطر للعودة الى الوطن الذي نشأ فيه وترى ليموت ويدفن في مقابر أسرته .. ولقد
شيع جنازه خلق غفير من تلاميذه واصدقائه وكل من سمع عن مكانته وجهوده ليشهدوا العالم على
ان مصر لم تبخل على هذا الرجل بالتكريم والتقدير ، ولا تنكر فضل من قدم لها خدمات
جليلة ، حتى ولو تنكر لها واعطاها ظهره ليخفي معالم القضب والضيق والرفض والامتعاض. (٥٢)

الا ان يحيى حقي لم يكتف بان يعرض مشكلة تمثّر العناصر المصرية التركية في تعميق مصريتها عرضا
واقعيا من خلال مشاهداته وملاحظاته هنا وهناك في مصر وتركيا ، وفي مختلف الاوساط التي اختلط
بها واجتمع فيها مع عناصر تتضارب في داخلها التيارات المصرية التركية من الاقارب والاصدقاء
والعارف .. بل اهتم ايضا بمعالجتها كفنان القصص المتميز تاركا مطلق الحرية في العرض
والوصف والتحليل لشخصيات موجودة فعلا في المجتمع المصري ، دون ان ينسب الى اصولها التركية
الا بالاشارة او الرمز ، محاولا يبرز مجهوداتها المتواصلة من اجل الاندماج في المجتمع المصري
اندماجا كليا خلال شتى مراحل تطور تفكيره . ونخص بالذكر هنا ثلاثة نماذج مختلفة تناولها في
« قنديل ام هاشم » وهي شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » .. وفي
مرحلة « صبح النوم » وهي شخصية « القزم مع زوجته » .. ثم في مرحلة « القرائش الشافر »
وهي شخصية « فتي العائلة » ..

١ - اما عن شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » فهي تصور لنا كيف
ينزل المجتمع العقاب بكل من يعتزل الناس ويميش بعيدا عنهم ولا يشاركهم في معارفهم وانفعالاتهم ،
فيتعذر عليه الاندماج اندماجا ايجابيا فعلا في الحياة العامة ، فيجانب تصرفاته الصواب ، اذ
كثيرا ما تختلط عليه الامور ويقع فريسة الحقد والمكر ، فيتصرف بحماقة قد توقعه في مشاكل
تضيق عليه كل شيء وتفرض عليه ضربا من التأقلم تفقده مقومات شخصيته الاصلية المتوارثة ، دون
أن يمنحها أصالة جديدة ويفرقها في تقاليد بالية متخلفة ... ويصر يحيى حقي على ان « داود
افندي » شخصية خيالية ، الا أنه يؤكد من حين لآخر أنه ليس شخصية خرافية بل بل بنفي احتمال
وجوده بيننا حيا يرزق .. وداود افندي كما يصوره لنا يحيى حقي أحد اولاد الذوات الذين
ودلوا عن وارثين من وارثين .. فكان من المعقول ان يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل
« فاصبحوا كالحيوان البرمالي لا هو هنا ولا هو هناك .. فهم لذلك اسرع انقراضا » (٥٣) يتشبث

(٥٢) يحيى حقي : « ناس في الظل » كتاب الجمهورية المصدرة ٢٨ يولية ١٩٧١ القاهرة .

(٥٣) يحيى حقي : قنديل ام هاشم .. قصة السلحفاة تطير : دار المعارف - القاهرة مجموعة الروايات رقم ١٨ .

بأن يمكن في ملكه بدار قديمة في حارة مسدودة ، مع أن له استحقاقا في وقف ورثة عن أم أمه أو جد جده ، يمكنه من أن يعيش في حى أفضل .. هو بالنسبة لجيرانه غنى ولكنه في الواقع فقير .. يعتز بأصله الذي يفتنه فيستريح ولا يسلكه في الفقراء فيربح .. أن هو ككل أولاد الذوات الذين تربوا في آثار عز سالف .. نجد فيه مع الكبرياء والافتة كثيرا من الاخلاق الصبيان وقلة الدراية بالحياة في معتزاتها .. بما في العالم الخارجى تمسكا بالماضى .. طيب كريم مع معاونة .. ينفر من الغريب .. أهل الحارة تجلبه لفناه .. وتستعبطه لنزوله الى مستواهم ، ويتعجبون كيف يجد لذة في أن تصافح يده الناعمة النظيفة يدا صلبة خشنة كيد العمال ...

ولما حدث أن استدعى لقسم الشرطة بسبب مخالفة لقاء ماء قذرى الطريق وهو مجهول اسلوب التعامل في المجتمع الذى يعيش فيه - فإذا بمامل عمود الجلوس معه ويتظاهر بصدافته يستغفره ويسهل عليه اثارته ضد سوء معاملة رجال الشرطة لعامة الناس ، ويبدى رغبته في الذهاب معه الى قسم الشرطة ليكون في عونه .. الا أنه لم يف بهله الرغبة .. وكان الجاويش فعلا من الغفظة وقلة الادب بحيث لم يستطع داود افندى ، بمافيه من الكبرياء وقلة الصبر ، أن يقبل أن يهزه الجاويش هزة توضع طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس .. وصمم على أن يرفع دعوى تمويش بقرش صاغ واحد كرد شرف .. وما كان من هذا العامل الا أن سايره وشجعه على أن يستمر في مقاضاة الجاويش .. ولم يتأخر هذه المرة في الذهاب معه الى المحكمة . لما رآه وجلا مضطربا رغم أنه اعتقد أن العدالة تقتضى أن يدفع داود افندى ثمن تعاليه وإبتعاده من محيط الحياة التى يعيشها المكثرون المتعبون من عامة الشعب المتصيبون هرقا في زحمة الحياة القاسية ، إذ أن قلبه رق له عندما اشتد به القلق .. ولكن سرعان ما اعتاد داود افندى المحاكم بعد أن تكرر تأجيل جلسة الدعوى مرة بعد اخرى .. وإذا به يصاحب وكلاء المحامين الذين وجدوا فيه صيدا نعيينا يلتفون حوله ، يحتسون القهوة والشاي ، ويدخنون النارجلية على حسابه .. ويجد متعة تصل حد الهواية في عمل المحاكم دعتة الى أن يشارك وكلاء المحامين في احاديث القضايا ويدخل معهم جلساتها لمجرد الاستمتاع .. مما اغرى صديقه العامل بأن يعرض عليه بأن يتكلف برفع دعوى تقريب له معدم يستولي رجل ذو بطش وسلطان على ملك واسع له نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما .. فوقع في المصيدة واذا بشهامته وطيبته وجهله بتسبط له الامور ، ودفعه لان يظهر كامل استعداده ليصرف على هذه الدعوى حتى ولو رهن مصاغ زوجته .. وورط نفسه في مشاكل الآخرين غرقه فيها هذا العامل عن حسن قصد او سوء نية ، اذا انه يدعى أنه ما اراد الا خير الجميع بان يخدم الاثنين معا فيشغل داود افندى اوقات الفراغ في عمل يعود عليه بالنفع ويرجع الملك المتصتب لقريبه .. ولكن وكلاء المحامين تزاحموا حول داود افندى يستغلونه ويستنزفون امواله ، كأنهم يريدون أن يستردوا ديننا بطريقة غير مباشرة او يستعيدوا اموالا كانت لهم سلبت منهم بطريقة أو بأخرى ..

فكان داود افندي ضحية انتقام جيسل مما سبق فعله اجداده بمعاملة الفلاحين واستغلالهم لكافة المصريين وخداعهم لهم وسلب اموالهم .. وهو لا يدري كيف يتصرف بحكمة وقورة .. بل تستولى عليه كبرياء وانفة تجعله يعيش في الماضي اكثر من الحاضر .. وتدفعه لان يعتز بأصله الذي لا يفنيه ، ولكنه يتشبث به لجرد انه يريحه ويرتاح الى المشاعر التي توهمه بأنه ما زال ابن من من قمة راسه الى اخمص قدمه ... « عجبت من همه التأفه .. ولكن كثيرا من الناس الطيبين لا يسمون في بعض الاحيان من الوهم والشك في براة ماضيهم ... فتختلط في اذهانهم الرغبة بالحقيقة ... ام هم يستيقظون فجأة الى انه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مردوجة .. لا يستطيع ان يكون والقأ كل اللوق من أن ليس له في الوقت نفسه حياة أخرى كالاحلام .. لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركة الدوار في حياة تتصلطي ضباب كثيف بحياة اشد غموضا لكانت أخرى .. (٥٤) » .

ولكن سرعان ما طحنته الأيام وضاع بين الاحداث وتاه في خضم المشاكل ، بسبب جهله بالمصريين وبعده عن الحياة المصرية وتوقعه داخل عادات واتجاهات تأبى عليه الخروج من داره القديمة بالحارة المسدودة .. ومع ذلك اجبر في النهاية الى ان يندمج في الحياة المصرية ولما منه ولكن من الباب الخلفى دون أن يتحرر من مشاعر القرية .. وإن بدا أنه اخذ يجارى بعض المظاهر السطحية للحياة المصرية .. بخلاف جاره ذلك العامل الذي نشأ نشأة متواضعة ولا ينفك يعرض عليه خدمات لا ينجزها ، بل يورطه في مشاكل مدعيا انه يقصد مساعدته ... يركز اهتماماته نحو التخلص من وسط عمال اليومية ليحقق طبقة الافندية اصحاب المربعات الشهرية .. واخيرا نجح في تحقيق رغبته بعد الحاج وارقة ماء الوجه وتخلص من ماضيه الكريه كله . حتى العارة المسدودة تركها وسكن المنيرة .. بينما انحدر المال بداود افندي .. وادابه يشاهد يجلس في مطعم امام طبق فول مدمس بجلاية وجاكيته ، تجمع اصابعه بلقمة حبات الفول ويمسحها في الزيت ثم تحملها كتلة واحدة كالكرة الى فمه .. ويتجشأ برائحة البصل الاخضر والفجل .. وهو الذي تعود تلوق ضروب من الموسيقى الرفيعة يتائق في ملبسه ولا يأكل الا اخف انواع الطعام ، امعانا في اقفار احساساته بأنه يختلف حقا عن عامة الناس .. وما ان شاهده العامل وهو يأكل في مطعم الفول حتى اظهر انشراحه وسروره لهذا التحول في حياة داود افندي . اذ تأكد أن صحة داود افندي آخذة في التحسن ، وأنه تخلص من امراض معدته التي يشكو منها .. ولكن ما ان تقدم اليه لتحيته حتى نظر اليه داود افندي نظرة تجمع اقصى ما تستطيع ان تستوبه من الكراهية والتأفف والبغض ويصرخ شائعا بوجهه : « روح الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتي » (٥٥) .. وهكذا القى داود افندي مغبة كل ما وصل اليه

(٥٤) نفس الرجوع السابق .

(٥٥) نفس الرجوع .

يحيى حتى .. بين العربة والتركية

من حال على هذا العامل البسيط الذى أصبح أفندي .. ولا يدري لماذا يكن له داود أفندي مثل هذه الكراهية وذلك الغداء ، مع أنه حاول أن يقدم له كل ما يستطيع أن يقدمه له من خدمات .. ولم يعرف ماذا فعله حتى يلتقى منه مثل هذه المعاملة القاسية .. !!

ب - ان تمسخ شخصية داود أفندي لم تقادر ذهن يحيى حتى .. فما أن قامت ثورة ٢٢ يولية حتى دعت ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات جذرية في المجتمع المصري الى وضع قصة « صبح النوم » ليحلل نماذج من الشعب المصري قبل الثورة وبعدها .. وإذا به يتم بأن يكون من بين الشخصيات المصرية الصميحة شخصية التركي المصري ، على اعتبار أنه ظاهرة اجتماعية تعيش في المجتمع المصري تحتاج للوصف والتحليل والدراسة .. ويقع اختياره على قزم قوقازي يتناول تصرفاته قبل الثورة هو وزوجته في لوحة من القسم الأول لصبح النوم سماه « كتاب الأمس » كما تتبع تطورات هاتين الشخصيتين بعد الثورة في القسم الثاني من هذه القصة الذي سماه « كتاب اليوم » ، محاولاً أن يكشف عن المزيد من ملامح الشخصية التركية المصرية في ضوء المتغيرات الجديدة ، لتتضح له خبايا دخالها عن طريق ملاحظة كيفية تكيفها مع كل ما يقع من تغييرات اجتماعية ... ولطعم في ذلك يريد أن يصل الى معرفة نفسه أولاً وقبل كل شيء حتى يجنبها التخبط والتورط والارتباك ، ويحفظها من الضياع الذي ليس بعده ضياع .. !!

وكان يحيى حتى في تعرضه للقزم وزوجته أكثر صراحة في تحديد أصولهما التركية .. لم يبق عند الزم والاشارة ... وإذا به يصور لنا رجلاً بلغ من قصر القامة حتى كاد يكون قزماً .. بعد نفسه من أبناء القرية بينما هو حفيد أسرة من براري آسيا ، تركوا الوطن وهاجروا الى مصر وتقرّبوا الى حاشية السلطان الذي أقطعهم أرضاً فسيحة في تلك القرية التي يدعى أنه من أبنائها ... بنت الأسرة في هذه القرية دارافخمة كان أئامها وتحفها حديث الأهلالي وذهبتهم .. ومع ذلك لا تقيم فيها الا حين تجيء مع جميع المحصول ، ثم تعود الى العاصمة بعد قبض لئمه « وشاوريك مالك المالك ان يخلف الآباء أبناء أعضاها ما ورثوا ، وأخذت الأرض تتناقص أطرافها ، ويد الخراب تمتد الى المنزل .. ولم يبق لسلالة هذه الأسرة في وقتنا هذا الا ثلاثة أفندي وحجراتان فوق مدخل الدار لم تتهدم جذراتها .. » (٥٦) ومن أجل هذه التركة بلل حفيد هذه الأسرة جهداً كبيراً ليفوز بمنصب أمين مخزن السماد الهين ومربيه الضئيل ، حتى يستطيع أن يعيش هو وزوجته فيما تبقى من المنزل ويراقب أرضه وينتفع بخيراتها .. وحتى لا تردد زوجته ما تلحيه من أنها تزوجت عاطلاً .. كما يعيش في وسط أناس يعرفون قدره وأصله .. فتتم له كرامة وعمل وجاه .. لم يكن قد تبقى في أسرته من الرجال الا هو .. يلتف حوله عدد قليل من النساء بعضهم أرامل وأغلبهن عوانس وكلهن مصابات بأمراض شتى .. بعضن جميعاً

في غافة مستترة في منازل مختبئة في ازقة العاصمة .. ولما تزلزلت واحدة من تلك القريبات وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة قبل العزم ان يتزوجها بصد ان وضعت يدها على التركة رغم انها ضخمة الجثة ذميمة الخلقة بشعة الصورة .. وادعى انه ما تزوجها الا قيما بواجبه كزعيم للأسرة اذ ليس لها احد غيره .. وقبلت ان تذهب معه للقرية .. الا انها اقامت في دار حسنة جميلة في اطراف القرية يدفع لها ايجارا يوازي مرتب الزوج .. ثم جاء باناث لا بأس به بدل على سعة العيش واستعان بخادم اسود ، وهو ترف لا تعرفه القرية ...

وما استقر القزم في القرية حتى اخذ يرتاد على الحان ويتردد على فتاة من بالعات الهوى في عاصمة الاقليم ، يبعثر نقوده التي يبتزها من زوجته بعد عراك وصياح وبواجه عقبتها من اسرافه بغضب اشد ارهابا ، مدعيا بان الديون قد كثرت عليه وينبغي ان يسدها فلا تقوى على احتمال رؤيته مضموما فتجود عليه بما يسال ... ولكن جاء يوم ونفل فيه صبر الزوجة وبست من علاجه .. فاذا بها هي الاخرى تحاول ان تبعثر نقودها وتوزعها على جيرانها المازومين والمساكين ، قبل ان يستولى عليها ويصرفها على الخمر والنساء .. واخذت تتوسع في الاحسان فارتبت لاسر فقيرة امانة شهيرة لا تنقطع .. وتكفلت برعاية بعض ايتام القرية ، وتقدم لهم ما يحتاجون اليه من مأكول وملبس وتعليم .. وتسرول لمساعدة المرضى بالهدايا والمال .. فذاع صيت كرمها بعد ان مخيرها اهل القرية واحبها الناس جدا .. واخذوا يضيرون بها المثل في النبل والعطف على الفقراء والمساكين وصارت دارها مقصد المحتاجين وملجأ الموزرين ... ولكن كثرة اتفاق الزوجة خفف النقود في يد القزم واذا به لا يقدر على زيارة عاصمة الاقليم الا مرة واحدة كل اول شهر ، وان لم ينقطع عن الحان فاته اخذ يباعد بين الكأس والكأس ويكثر من التحدث عن تكبته في تلك الزوجة الثلاثة التي تبعثر نقودها على الغرباء وتبخل على زوجها ، رغم انها تعلم ان كثيرا من تصادها من النصابين والادعياء .. ومع ذلك احيانا ينجح في الوصول على مال منها بطريقة او بآخرى ، وسرعان ما ينفذ الى الحان ويشرب حتى الثمالة ، ويجبر جميع رواد الحان على الشرب على حسابه ، وويل للذي يرفض .. انه يجمع بين المهابة والعريضة يصر على ان يحترمه اهل القرية حين يتسلط معهم .. ويثور اذا لم يتسلطوا معه حين يزور عنهم متمجرا ...

وكان هذا بالامس .. ولكن ما ان جاء الامتاذ - ابن القرية المثقف - وتولى حكم القرية وبدأ اصلاحاته باغلاق الحان والزم الجميع بالاستقامة حتى تبدل حال القزم وزوجه .. فاذا به يحرص على الخروج من داره في الصباح بعد ان تاب من شرب الخمر حرصا على النقود ، بل لم يعد ايضا يهتم بحسن هندامه ، فذهب ثنائقته وتبدل مظهره بعد ان انصرف كل تفكيره الى استرداد الارض التي اضاعها الآء بعد ان ورلوا من الاجداد « كانت ارضنا مربعة الشكل .. خير ارضي القرية .. فانا الآن لا افكر الا في استرداد هذه الارض .. وان ارى ارضنا عادت

مربعة الشكل كما كانت .. كان الجزء الناقص مقطوع من قلبي .. إذا عادت لي ساكون اسعد خلق الله ... ومن أجل ذلك قررت أنا وزوجتي ان نوهر كل قرش وكل ملهم لشراء هذه الأرض . وبذلك انتهى كل نزاع وخلاف بين الزوجين لما توحدت أهدافهما وخطتهما .. وأخذت الزوجة تدخر إيراداتها كله حتى تمكن زوجها من استرداد أرض - أجداده .. وقبلت ان تتحمل في سبيل ذلك كل مشاق العمل المنزلي بعد ان استفتت عن الخادم ، ولم تعد تبالي بمساعدة أحد .. لا يهمها سوى ترقب اليوم الذي تحلم به هي ولزوجها .. وهو يوم تربيح الأرض ..

لما الذي بدل الاندفاع والمجرة والتبذير والحماقة عند القزم الى حرص وتقتير وإهمال المظاهر ؟ .. ولماذا انسأقت الزوجة وراء الزوج في مثل هذه التصرفات ، ورضيت ان تتخلى عن الإحسان والمطف على الفقراء والمحتاجين ، وقبلت العمل المنزلي الشاق دون عون خادم وهي التي نشأت على الترف والرخاء .. ؟ ولماذا هذا الإصرار على تربيح الأرض .. ؟ لاشك ان هنالك انفعالات عميقة هزت شخصية المصري التركي تنبه يحيى حقي الى تطورها الغريب بعد قيام ثورة ٢٣ يولية التي نزلت نزول الصاعقة على كثير من العائلات المصرية ذات الإصلااب التركية بسبب ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات اجتماعية واقتصادية فاذا بكثير من هذه العائلات تجد نفسها في العراء بلا أرض او مال بل بلا سند من السلطان بعد الفناء الملكية واصدار قوانين التأميم ولعديد ملكية الأراضي الزراعية .. اذ أحدث كل ذلك ضربا من الفزع الفكري ما جعل مثل هذه الشخصيات تنكمش انكماشا اجتماعيا مريضاً يتخلى عن القيم التي تتمسك بها وتعودت عليها، فنشكرت للأحسان ومساعدة الآخرين وحسن معاشرة الذين يحيطون بهم ، وحسبت انفاسها في أحلام الماضي تحاول ان تحقق آمالا بالعودة والحرمات من تلك المتع التي كانت ملك أيديهم في ذات يوم بدون مقابل من الجهد والعرق ..

الا ان يحيى حقي لا يترك قاريء « صح النوم » دون ان يشعره بأنه ما زالت في جميعه تحليلات تخص الاسر التركية المصرية لم يفض بها بعد ... واذا به يفاجئنا بقصة « الفواش السافرة » فنجد فيها من الكتابة والبشاشة ما تشمئز منها النفس على غير ما تعودنا عليه ... فاذا كانت صراحتة وسخريته لأذعة فان عرضه للخراب الروحي الذي أصاب أسرة شارع الرياح يثير الفزع المخيف .. ويتعدى مرحلة الضياع التي كانت تميشها أسرة القزم .. وتلد بخراب يبعث على نفور انساني مرووع من واقع حياة كريمة تننن ، يئن في أعماقه من تأوهات تشكو من ظلم الانسان للانسان على مدى اجيال واجيال خلال أحداث ومحن لا ذنب فيها للجيل الحالي المتخاذل المتواني ، الذي استسلم لوهم بأن الاقدار هي التي شاءت وهو لم يشأ شيئا على الإطلاق .. !!

ولكن يحى حتى لم يرد أن يكون واضحا كل الوضوح في قصة « الفرائش الشاغرة » ولذلك لجأ الى الرموز الرهيبة التي تهول في إثارة القرف من مصير أسرة شارع لريحان التي هوت الى حضيض خلقى يحط من كرامة الإنسان .. واستباح لنفسه بأن يستعين بثتى الصبيغ البلاغية من تشبيه واستعارة وتورية وكتابة .. يخفف بما يتممه إيهام وأعمال فكر من وطأة البيان المباشر عن الفحش والفسق والخسة في الإنسان .. II

اذ تصور لنا قصة « الفرائش الشاغرة » مدى ما وصلت اليه أسرة مصرية - هي في الاغلب من اصل تركى كانت تسكن بشوارع الريحان ، وهو أشبه بحارة في حي شعبي تتزاحم على جانبيه كثير من الدكاكين المتلاصقة الفقيرة .. من بينها دكان حاتونى يقع قبل بيت هذه الأسرة التى تتكون من أب وأم وولد ، وحين تعيش فى سر وترف وسط أسر مطحونة وعمال فقراء ... ومع ذلك تركها الجيران وأهل الشارع في حالها لما بدأ لهم أن أفرادها على نسط كبير من الحياة الذى يجعلها تفضل أن تعيش في عزلة وراء ستر .. الا انها لم تستطع أن تخفى ما ترتع فيه من سعادة ورفاهية وترف ، اذ تفيض مظاهرها في المواسم والأعياد بنور الفرح الذى يتدفق من النوافذ وما يصل الى أسماعهم من خلجة الضحك .. كما انه كثيرا ما تقف سيارة فاخرة من حين لآخر امام باب البيت وينزل منها رجال يتأسون لحاله لما يصدر منه من تصرفات غريبة ..

الا ان هذه الأسرة في الحقيقة تميل الى « نفث اليدين من دنيا الناس .. هي متبدهم زنا بيز لا امن الا في تجاهلها .. » - وتمتد ان العيش ، ليس خطا عموديا يرتكز جديده على قديمه ويتسع الافق كلما علا .. ولا قوس دوران فلك شروق ثم سمت قانحدار فمغيب بل تقف نظراتهم الى الحياة منذ حد انها مجرد خط افقى ابيض مستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها من شدة تلاحمها ولذلك آثرت هذه الأسرة الانسحاب من دنيا الناس ، فأفرغت حياتها من كل مضمون ايجابي ... وضمت تحيا في السلبية ... انهم يخشون الجهد ... فيؤثرون حياة الشح والجبن لانها دائما مضمونة .. اما ان تكون كريما وشجاعا على الدوام فهذا ليس مضمونا « (٨٥) » بل سخط ترفهم درجة ان « طعامهم تمضغه لهم قبلهم المغارم ويد الهاون .. يأكلون اللحم والخضروات كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدن لذة مذاقها في شياخ طعم اجزائها .. فالشيوخ عندهم نجاة من مقابلة وجها لوجه لنعمة مخلوقة المذلل (٥٩) » واذا كان الحق يقتضى ان يشكروا الله على هذه النعم .. الا انهم ينتكرونها وينكرونها بما يوقعهم في وضع متعب ، يفتح على مصراعية كل أبواب الفكر ، رغم انهم اكثر من غيرهم معرفة بتقدير هذه النعم وينبغي ان يكونوا أشد امتنانا لها ... واذا زعموا انهم « كفوا عن الاعطاء خشية نوال عوض يفرقهم بجذبه او

(٥٨) يحى حتى : الفرائش الشاغرة .. مجلة الكاتب .. ابريل - ١٩٦١ - القاهرة .

(٥٩) نفس المرجع السابق .

يمتصم بغيضانه وادعوا انهم بذلك امنوا النجوع وضرب الكف للدماة العقوق من الآخرين الا انه بهذه الزام تلك الادعاءات لا يخفون الا خسة ارواحهم هم انفسهم وهي تنهيب عن الاخطاء حتى تبقى على ما هي عليه من حنق الشخ وخوره .. وتبعد عنها ما استطاعت سماحة الكرم وشجاعته .. ولذلك « اذا ما خلوا الى انفسهم يشعرون بان اياهم قد سقت اسماءها » وتشابهت ولا ينتبهون الى ما بينها من فروق .. ولا يحصون بحيوية تحدث من الاحداث الا اذا ارتبط « بدوران ظل أو برديد صيحات الطيور المهاجرة (٦٠) » .

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من غربة تكاد تفصلها تماما .. سواء اكان فكريا او عمليا .. من كل ما يحيطها ومن حياة اجتماعية مما يجعلها عاجزة على التجاوب مع كل ما يطرا عليها من تقلبات وتطورات .. فان هناك ايضا رباطا هشالا يكاد يوطد العلاقات بين افراد هذه الاسرة .. ولذلك لا نمج اذا ما اختلطت الاعمار باختلاط الايام ونادى الزوج امراته بيا امي .. وهي تناديه بيا ابني .. ويناديان ابنتها الوحيد بيا اخانا .. ونادى الابن امه بيا عروستى .. في حين ان مناداه لايه قد نسبها لانه اقلع عنها منذ سن الخامسة ، واصبح لا يتحدث اليه او عنه في حفره ، ولا يشير اليه بضمير الغائب « هو » في حالة غيابه ...

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من سرور فاهية فانها رغبته بان تقيم في شارع الريحان الشعبي الفقير المتواضع الذي كل اهله من الكادحين المكودين ... وقد يرجع ذلك الى نوع من الحب للشارع واهله ينبعث من ارتياح افراد هذه الاسرة الى نظرات التقدير والإنبهار التي يشاهدونها في عيون الاهالي من حين لآخر ، وتعوضهم عما فقدوه من سلطان وقوة ونفوذ .. ولذلك فضلت السكنى في وسط هؤلاء القوم البسطاء السذج في نفس الوقت الذي تحيا فيه حياتها الخاصة حسب تقاليدها وما شئت عليه ، فهي وان كانت ترمح للاقامة في احد بيوت شارع الريحان كمكان استيطان فانها لا تميل لمشاركة الناس والجيران وسكان الشارع سواء في حياتهم الخاصة او العامة .. بسبب فقدان الثقة المتبادلة أولا وقبل كل شيء .. وتوقع الفدر من الآخرين في اية لحظة بمناسبة وبدون مناسبة .. ولذلك خشي افراد هذه الاسرة تقديم المعروف حتى لا يقابلوا بالخسة وتكران الجميل ... بينما يشعر اهل الشارع بان هذه الاسرة ترتفع في عز ليس من حقها لان افرادها لا يكادون يملكون شيئا ولا يؤدون خدمة ما تعود على احد ينفع .. في نظرم لا تستحق حتى مجرد الحياة .. وان ما تتوهمه فيهم هذه الاسرة من خداع وغش وتكران للجميل ما هي الا ضروب من الاسلحة يتلذعون بها ضد مواقف مثل هذه الاسر من عزلة وسلبية .. ونأتي التقرب بالزلفى والخضوع والطاعة إن يمتنع عن الاعطاء ويريد في مقابل بقايا ما يتساقط من الموائد الزيد من الشكر والعرفان .. ولذلك لا نمج اذا ما اتعدم التفاهم وتفككت الروابط ، وان كان الجميع يلتفون حول حب الشارع ولا يريدون به بدلا ويتعلقون به كل التعلق ...

وهذا التضارب في المشاعر يدعو الى ضرب من التخييط الانفعالي لا يعرف كيف ينسج بين تيارات هذه المشاعر المتعارضة ... فالعزلة لا تمنح الامان ... والاختلاط لا يبعث على الاطمئنان ... !! ان الكبرياء المجروح .. والتعالي العاجز والعنجهية المتدامية تشعر على الدوام بان المشاركة والامتزاج والدوبان لا تخلو من انهزامية ، وتمن عن خيبة وفشل واضمحلال فيزداد التمسك بالعزلة كمنار يخفى العجز ويمنع الاخرين من كشف النقص والضعف والتخاذل ، ويكتفى ، بان يعيش حياة سهلة ميسرة تخفف عنه وطأة ضياع النفوذ والسلطان ولا تشعر بالحاجة الى العمل الجاد النافع ، او تدافع لتحقيق مستقبل افضل ... لان المشاركة بمختلف الجهود لن توصل الى ما كان عليه الاجداد او ترجع مجد الماضي الذي ولى .. فهناك نوع من الياس ادى الى حالة من الرفض لا تقبل الاستسلام والرضوخ للامر الواقع ، فانساق اصحاب المجد الضائع الى العزلة السلبية والامتناع عن عطاء يعلتون بها عن سطوتهم وغضبهم ... ولم يجدوا ما يمنعم عن التمتع بالثراء المورث في لا مبالاة تقف عند حد الاستهلاك لهذا الثراء ، دون التفكير في استثماره استثمارا يعود على الجميع بالخير يدعون انهم يعيشون على موارد يحاول الاهالي نهبا وحرمانهم منها ، وليس امامهم الا زيادة الحرص الذي اضاف عليهم مظهر الشح الذي يتهرب من السخاء ، خشية فبة تكاثر عدد المطالبين بالهبات والهدايا ... وهكذا تحول الخوف من نهب المال المورث والمصدر الوحيد للحياة الرغدة الى امتناع عن الاعطاء ... !! ولا بد ان نتوقع انقطاع كل صلة نبيلة بينهم وبين عامة الناس . وضياح الثقة المتبادلة بين الجميع ... ولا تدري كيف يمكن تحمل مثل هذه الحياة التي تفتقد كل هذه الماني لولا حب الكل للشارع ... !! ان العزلة مهما كانت صارمة لا تستطيع ان تقطع كل الصلات بحياة اجتماعية يعيش الانسان في وسطها ، وتحيطه من كل جانب ، وتقابل به رغبته في اية خطوة ولذلك فان الانطواء الذي يلتزم بالعزلة الكاملة لا يمكن ان يصل الى حد الهروب الكامل الشامل من هذا المجتمع ... بل ان العزلة في حد ذاتها لا تستطيع ان تحول دون اثر المجتمع المضاد ، الذي قد ينزل اشد ضروب العقوبة على كل من يقف منه موقفا سلبيا ولا يسهم اسهاما ايجابيا في تقدمه ويمتنع عن المشاركة والبلل والاعطاء .

لقد توفر لاسرة شارع الريحان حياة سهلة مترفة دون صراع او تراحم ، جعلها لا تبالي ببذل جهد او امان فكر ، لانها لا تحس بالقلق على الرزق او تخشى من تقلب القدر . كما تعودت ان تصرف بحرية دون قيد او ضغط ... تتمتع بقدرة على التحرك دون ان تسمح بتدخل من احد ... يوجد بين افرادها علاقات رقيقة لا عنف فيها ولا صخب ، تهتم بتبادل الاحترام والحرص على مظاهر الحية ... وتلتزم بتماسك لا يعترف بتسرب دخيل . الا انها في النهاية لا تكون مجتمعا قوى البنيان يحتمل مواجهة كل ما يحدث من تطورات في المجتمع الكبير ... ولذلك غالبا ما تتخبط التصرفات وتضطرب التحركات اذا ما احتك احدهم بالمجتمع الخارجي ... او اعترى هذا المجتمع اى تغير مفاجيء او تعديل غير متوقع ... رغم ما يتمتع به من حرية تسمع بالانطلاق والتصدى لكل ما يستجد من مفاجات ... وتقوى على ازالة كل غشاوة تموق وضوح

الرؤية وتطمس معالم الطريق السوى .. وذلك لان افراد هذه الاسرة رغم ما يرمون فيه من مستوى حضارى متقدم فانهم يقضون ايامهم بلا آمال عريضة تقصد تحقيق هدف محدد ، ويسرون بتلبية رغباتهم الطائفة دون اهتمام ببلوغ غاية مرجوة .. !!

ولذلك لما ابدى الابن الوحيد رغبة في الالتحاق بكلية التجارة دون ان يبذرى الاسباب لم يعترض احد ، وتركت له مطلق الحرية في الاختيار .. بل لم يندهش الوالدان حين عدل عن الدراسة في الكلية بعد ان امضى بها سنة كاملة .. اذ لم يخطر على بالهما ان يجبرا على دراسة اورنته كرها للعلوم التى تتعلق بشئون المال والتجارة والادارة والارقام .. لانهما لم ينتبها الى ان فقدان الهدف والبرنامج وضياح الامل في المستقبل هو الذى جعل الفتى لا يجد المتعة العقلية في هذه العلوم .. فلم يواصل دراسته في كلية التجارة .. ورغم انه رأى باختياره ان يلتحق بعد ذلك بكلية الآداب ، الا انه لم يرجع الى ما عرفه من نظريات ومذاهب ودراسات حثته على الجدل والثروة والسفسطة ، ولم ترب فيه تلقوا للدرب والفن ، ولم تقدر على تنمية احساسه بالجمال ... ولم يجد من يراجمه حين عدل عن دراساته في كلية الآداب بعد ان كرس لها سنة اخرى .. بل طامعه والداه حين فضل ان يقطع صلته بالدراسة ويبقى في الدار عاطلا بلا عمل سنة ثالثة ... ولكن الفراغ قلب حياته راسا على عقب ، اذ اخذت تراوده افكار الزواج .. الا انه لم يشغل نفسه طويلا في البحث عن زوجة تهون عليه مثل هذا الفراغ ... لقد كانت تزورهم فتاة ريفية في صحبة امها ومع ابوها مستاجر اطيان نجم العائلة كلما حل موعد تسديد القسط الشئوى او القسط الصيفي ... وسرهم ما استولت عليه نزوة حكمت بان هذه الفتاة تصلح له « فهي فتاة خام ساذجة لها عيون سبالة لا تقوى على توجيه النظر .. وجبهة لا تبرق بفكرة .. وجدد في حالة شيوخ تاهت فيه مغائن الاعضاء .. وشعر ملبد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل صفائر مبتلة على جبينها وخديها .. » فلم يتردد ووقع عليها اختياره لتصبح زوجة له ، رغم انه عرف انها ارملة لزوج من اقربائها في الصعيد قتل في حادث أخذ بالثأر بعد ايام معدودة من زفافها اليه ... اذ أحس وهو في طريقه اليها انه قد ارتد الى الطبيعة الام وتخلص من تقاليد الاجداد ، التي جرت على خوض المارك من اجل الظفر بزوجة ابتداء من المطاردة واقتناص الوحش للوحش الى خطف ثم شراء وابيات بطولة بعد نزال الحالى فيما يتساق اليه من متاهات الغزل والسهر .. ولا يوجد ما يجبره على ان يجارى الشيباب والتنهيدات .. وراثة ان يحصل على زوجة سهلة قد تولى غيره فك بكارها ودكها كالطاجن .. وما عليه الا ان يشتريه مستويا ناعما جاهزا.

ولقد هيات له نزوته في الزواج من فلاحه صعيدية حالة نفسية جعلته يستغنى عن فرش المدينة ، ويهتم بان يؤث حجرة العرس على النمط الريفي من حصيرة ترص عند حائتها الشبشب والقباقيب .. وسرير من الحديد لعله شابت العروس ان تكون من سلك هزاز ... وناموسية من حرير وردي ... وصندوق للملابس مزين بالأحمر والأخضر .. وطلست

ودست للفسيل .. حتى يعيش في جو مصرى ريفى خالص ... ولعله يكون قد توهم بأن اقباله على الزواج من صعيدية ، وتأتيث غرفة ريفية على خلاف عادة اسرته في الزواج داخل العائلة ذات الامراق المتشابهة والتقاليد المتقاربة قد ساعد على تحقيق رغبة كامنة تنشده الامتزاج بعمامة الناس ولا تعرف السبيل الى ذلك ، ولكن النزوة والتوهم والرغبة لا تكفى لتحقيق حياة مستقرة ... لقد اختار الفتى زوجة فقيرة جاهلة ساذجة يسر لها كل ما تنشده في عش الزوجية ، وكفل لها كل سبل العيشة الطرية .. وتوقع ان تكون طوع بنائه .. فلقد اعطاها ما فيه الكفاية وهو لم يتعود الاعطاء .. وليس لها في ان تلزمه باى نوع آخر من الاعطاء .. وغاب عنه ان هناك اعطاء تفرسه الطبيعة بمد في نظرها ونظر شبيهاهما من اولى واجبات العشرة الزوجية ، لا تحقق الا به ولا تتم او تستمر الا في احضانه .. ففوجئ على الليلة الاولى ذاتها بان يرى هذه الفتاة الخام الساذجة الطيبة في حياء قد اقلبت الى وحش صار مفترس .. الميون المسبلة ابرقت وانبعث منها في جوف الليل نظرة مستمرة تلحس جسده .. والجبين الذى لا يلعب بفكرة اصبح سطورا عليه امر مستعجل نافذ الاداء على الفور .. الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت عن رعشت تلهت ... الفم يتلطم ولا يستقر ... وانكشفت أسنان تلالا جوعها فغطاير من حولها الظلام مدهورا ... والاعضاء التي كانت تزعم انها فقدت فتحتها في شيوخ الجسد استرد كل منها حقه ، بل واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله .. « ولم يكن يتصور ان واجبات العشرة الزوجية تتطلب كل هذه الحدة والاندفاع وذلك النهم والالاحاح .. الامر لا يحتاج لمثل هذه العجلة التي تفقد الشهية وتضيع المتعة .. انه اراد من الزوجتان تكون مجرد دمية طيبة يتسلى بها ، او لعبة جامدة يلغو معها .. ليس لها حق المبادرة وهو غير ملتزم باية مسئولية نحوها .. ولذلك لم يكن يتوقع ان تصدر مثل هذه الانفجالات المفرية عن تلك الفتاة السراة .. ! !

ولكن كيف يتصرف معها ويعطيها ما تمسك بطلبه .. ؟ كيف يرى ظماها الفريزى الملتهب ويشبع جوعها الجنسى المارم .. وهى لا تقبل التسويف والمماطلة والمراوغة .. ؟ بينما هو سليل اسرة كفت عن الاعطاء من زمن طويل ، ولا تقبل على امر الا اذا كان سهلا ميسرا .. ولا تقدم على عمل الا طواعية وبارادة كاملة دون دفع .. ولا تلزم بمسئولية او تكره على اداء واجب .. ؟ !

وما كانت تختبره في اول واجبات العشرة الزوجية في نظرها حتى تمثر .. واذا بفحولته لما شعرت بانها وضعت موضع الاختبار والالزام تفقد حماسها ولا تسعفه .. فسقط امام العروس ورفضت ان تعيش في ظل حياة زوجية صورية لا جنس هائج فيها ولا غرائز ملتهبة .. فتبين استحالة الجمع بين سليل الاسر الراقية وبين الفتاة الصعيدية الفقيرة سليله الاسر الكادحة المكادودة التي لا متعة لها في الحياة الامتعة التي وهبتها له الطبيعة ، وتضيق في جنباتها شتى المفارقات الاجتماعية والاختلافات الحضارية ، ويتساوى الجميع في اسلوب اشباع هذه الفريزة الاولى وينعدم مراعاة اى تمايز او تمييز اذا ما كان شيق يلح في طلب الارضاء ... ولما تأكدت الفتاة ليلة بعد ليلة من عجز عريسها في مشاركتها جنسيا بعد ان عرت جسدها وكشفت له عن

نوع جنسى كانت تخفيه في مداحه وعباءه، وامساحت له نفسها تحت اعتقاد بان ذلك امر نرضه الطبيعة ولا نعترض عليه التقاليد والعادات واقرته الاديان ما دام يسلك الطريق الشرعي المتعارف عليه ... فاحسنت بالخدعة والمهانة بعد ان عرضت نفسها عرض العبيد ولم تجد غير الصد والابتعاد ... ففضيت لافتضاح شراسها الجنسية .. وثارت لغريزتها الجريحة .. ولم تتورع عن ان ترفس زوجها وافضة ان تستمر في عشرة رجل على ما هو عليه من احجام في فراش الزوجية .. وتصارحه بعزة ونخوة بان « نساء الصعيد خلقن لرجال الصعيد » ثم تمنع في امتنانه وتواجهه بلفظة في اباء وشمم .. « اننى ابول على تتودك وانا نكت وكلامك الطو » وتسخر منه مستهزأة .. « ابحت لك عن مومياء ملطخة بالابيض والاسود والاحمر » تليق بابن الاكابر وتستطيع ان تستثير فيه نوازعه الجنسية المهيضة ...

لم يكن الفتى يتوقع ان يسقط هذا السقوط في اولى محاولاته الايجابية للمشاركة الواقعية التي تقر به بالفعل لبنت من عامة الصعيد وتمكن من البدء في السير على درب الاندماج الكامل ... واذا بهذه المحاولة تتحول على مديح الجنس الى دفع في تيار عارم لا يقبل التردد والتسويق .. مع ان تصوراتها في انه اختار زوجا مطواعا لينة العريكة تستسلم في هواده لاوامره ، تطيعه في كل شيء وتلبى رغباته عند الطلب دون مبادرة منها ... ولما فوجيء بضروة جنسية مصممة على نوال حقوقها المشروعة دون الاهتمام باى اعتبار آخر .. فلم يخطر على بالها ان ترى ما بينها من فروق في الحسب والنسب والتحضر والتمدن والنشأة والتربية والثقافة ... ولم تستعمله وتاخذه على راحته حتى يتغلب على كل هذه الفروق ، تغلبا يمكنه من ان يجتاز ما رتبته من حواجز نفسية تحول دون مساعدته على تكوين نوع من الالفة والانسجام والمودة ، تضيف على العشرة الحلوة لا افتعال فيها ولا انتهازية ، فيسهل عليه ان يستجمع ركاثر رجولته ويشهد فعولته لتكون على اهبة الاستعداد ... ولكن تمسك العروس باداء حقها على الفور وفي اللحظة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية جعل العشرة الزوجية تقوم على مجرد نزوة طارئة طائشة عند الفتى في مواجهه زوجة جادة تسي التمسك بحقوقها المشروعة ، بينما لم يسبق هذه العشرة الرسمية محاولات لتحطيم الحواجز التي خلقت ظروفنا نفسية جعلت الفتى يحجم عن اداء اولى الواجبات النوعية ، كان قوى داخلية اكبر منه دفعته رغما عنه ان يعطى نوعا من الرفض لئلا هذه الرغبة غير المتكافئة ، الخالية مما ينبغي ان تكون عليه من تقارب ومشاركة واندماج لا يمكن ان تتحقق الا ببذل جهود مسبقة متواصلة لم ينتبه احد من الطرفين ان يقدم على بذلها اولا وقبل كل شيء ... !!

ولكن الصعيدية كانت اكثر حسما للمشكلة .. وسرعان ما طلبت الانفصال .. اذ احسنت بانه ليس هناك ظل من امل في حياة زوجية على ايسر اساس من العلاقات بين الرجل والمرأة .. في حين آلم الفتى ان يسقط في نظر هذه الصعيدية التي يسيطر عليها شبق جنسى متوقد ورغبة

ملتهبة تلج في الإشباع كأنها لا تجد ما تستطيع أن تعرض به كل ما تعانيه من ضروب الحرمان
الاماتريد أن تستمتع به من لذة في فراش الزوجية...!! ولم يكن أمام الفتى إلا أن يرضخ
لرغبتها في الطلاق، ولم يمارض الانفصال، ووجد فيه خروجاً من هذا المأزق اللعين... وتركها
تعود إلى بلدتها بعد زواج صوري دام أقل من أسبوع...!! وهكذا انتهت هذه الزيجة في مدة
وجيزة لأنها قامت على مجرد نزوة طفل حاول أن يلعب دور الرجولة... وانسحبت الصعيدة
من بيت الزوجية الثاني بإرادتها غير آسفة... إلا أن هذا الانفصال جدد مواجه حسرتها على
فقدانها لزوجها الأول الذي ضيعته عليها تقاليد الصعيد الصارمة في الأخذ بالثار، وتركها حيرة
حتى أصبحت مطعماً لمن يريد أن يلهو ويلعب على حساب كرامتها وعزتها... وفضلت أن تهجر حياة
لا كيان لها فيها وعادت إلى الصعيد لعلها تجد في قريتها من يعوضها عن عريسها الأول من بين
رجال الصعيد الذين خلقت لهم نساء الصعيد ويطيّب لهم الحياة معهم... بعد أن فشلت في أن
تلمب مع زوجها الثاني دور الدمية التي لا يريد منها بديلاً...!!

ولكن إذا صعب على فتانا أن يحصل على دمية لبعض الوقت فإنه يمكنه أن يصل إلى ما
أشبه بالدمية بعض الوقت متى دفع الثمن... لقد أتاح له جو الحرية المطلق الذي تعيش فيه
أسرته أن يلجأ إلى العاهرات يشتري منهن، لينفي عنه سبة العجز في فحولته دون اذعان لالزام
أو اكراه... ويبعد من رجولته شبهة العنة دون المساس بمشاعره التي يخربها أن توضع قدراته
الجنسية موضع الاختيار... إذ « ليس لواحدة منهن حق عليه... فلا مسئولية عليه قبلها...
أنه يريد أن يشتري بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء... » (٦١)

وكان في أول الأمر لا يفرق بين غانية وأخرى... ثم بدأ يتأنق في الاختيار... لا تروقه
إلا البالعة التي يتكالم عليها المشترون حتى يضيّع في الزحام ومع ذلك قلما يجد جنته المنشودة لأنه
« لا يزال يتوهم حتى في أكثرهن رواجاً وانشغالاً: إشاحة وجه... أو لوية خشم... أو دفعة بد
تفسد عليه طمأنينته... وأصبح غاية ما يتمنى أن يجد من جمده وجهها فلا يتحرك ولو صبغ بلون
الشمع... وتعتقد خشمها في قالب ثابت... ولو تصلبت الشفتان كالخشب... ومن شلت يدها
ولو أصبحت باردة كالثلج... » (٦٢)

وهكذا - حتى في أحضان بنات الهوى لم يجد فتانا المتعة المرغوبة التي تكفل له الاطمئنان
والثقة وتمنحه التقدير الذي يرد له اعتباره ويؤكد وجود ذاته ويمز فحولته ويكرم رجولته... فلما
لم يمش على العلاج الشافي عند الغانيات اتكس نكسة أصابته بمرض غريب ساعد عليه ميكروباً
ضعيفاً تستطيع أن تلتهمه الكرات الحمراء وتغضى عليه في الحال بكل يسر... ولكن جسده المتخاذل
عجز كذلك عن مقاومة هذا الميكروب الوافى لا لعله فيه وإنما لفقدان إرادته الرغبة في المقاومة،

(٦١) يعنى حقى : الفواش الشافى .

(٦٢) نفس الرجوع .

حتى اعييا الاطباء في علاجه مما دعا احدهم الى النصيح بعرضه على طبيب نفساني .. قد يكشف عن مورات داخلية ويعرى ذاته من كثير مما تستورعه .. ويفصح خباياه الباطنية ويظهر للجميع خوره وتردده وضياعة سواء بين الرجال او مع النساء ... ويكفيه ما اصابه مما كشفت عنه بنت الصعيد .. وما كاد فتانا يصل الى هذا الحال حتى بدا وجهه نديا ينطق « بانصياع رضى وطبية حلوة » واذا بحركات اعضائه تتناسق ويشملها هدوء عجيب رماه بالبالدة والتراخي « ولكنه وجدته عز الاناقة » فزاد اعتناؤه باظافره وربطة عنقه وانسجام هندامه « واخذ » يتحرك بخشوع فيه دلال مخنث .. ويتكلم بنبرات خفيفة فيها غنة .. وبدت في عينيه علوبة كأنما كطها بعسل « اضعفت عليه رقة مهذبة ارتاح اليها » وان كانت مغرية تدعو الآخرين للتودد اليه مما شعره بأنه مرغوب فيه ولا ينفر منه .

وما كاد يشعر بشيء من الاستقرار النفسي حتى راودته الرغبة في مواصلة الدراسة من جديد .. واختار هذه المرة كلية الحقوق . وسرمان ما انتبه زملاؤه لاناقته ورقته ، واخذوا يلتفون حوله لا يدرون ما يجلبهم اليه « اهي اظافره .. ام اصابعه الرخصة .. ام هذا العسل الذي يسيل من عينيه .. وهذه الرقة في حديثه » وان اسعده هذا الالتفاف الا ان « احدا منهم لم تتقدم به صلته الى درجة الصداقة التي يفصل رباطها قلبين من وسط الزحام » ولكنه « لم يشعر بالوحدة .. بل شعر بالراحة » مما اضاف على تصيلة نظرتة ايتسامة حلوة « حتى ازداد تعلق انزلا به واخذوا « يضربون به المثل في الطيبة ونبل الاخلاق » على اعتبار انه ابن الناس الاكابر ... وهكذا استطاع فتانا بحسن علاقته مع زملائه ان يكسب ارضية جديدة تمنحه ما يحتاج اليه من اعتياد وتقدير يعود عليه بالثقة التي تساند الارادة .. وبالامان الذي يبدد الآمال والاماني .. رغم انه لم يسلم من اقوال السوء التي ترى ان مقالاته في الاناقة والرفقة مقومة ورخواه هي اقرب الى الانوثة منها الى الرجولة ، مما دعا البعض الى توهم انه يعاني من شذوذ جنسي هو منه براء .. !!

اقبل فتانا على دراسة القانون هو مراتح البال فتوالى نجاحه حتى لم يبق على تخرجه في كلية الحقوق الا سنة واحدة « فقد اصعبه ان القانون نجا برقبته من شريعة الكون وربكها وتناقضها ... وتسميتها للظلم على انه في بعض الاحيان مثل » وراى ان « القانون يصطنع لنفسه منطقا مستقبلا جميلا على الورق .. بارع التقسيم والتسلسل عجل النفاذ » الا انه بدا له كانه « هدم بناء الحياة واخذ من انتقاضها قوالا برقومة اقام عليها صرحه : القاضي لا يحكم بعمله .. بل من الورق ... فالورق ابين من الحقيقة ... الصدق عنده كالكلب مرفوض ، الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ... الرذيلة عنده محددة ... والفضيلة مبهمة ليس لها حساب » (١٦٣) فالتانون قد يقضى لعقاب الزوج الخائن ولكن لا يكافئ الزوج المخلص ... كما ان نظرتهم متساوية للجميع دون تمييز بين العامل والجاهل والتطوع والمكذوب . ولا يعطى اى اعتبار للقدر وما ينزله

بالناس من محن ومصائب وما يستلزم بعض الرفق والرحمة والعطف ... ولذلك فإن أحكام القاضي مهما كانت نزيهة لا تصل الى مستوى العدالة الحقّة ... ومع ذلك فإن القانون المنطقي مهما كثرت مخالفاته أفضل بكثير من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم ... وهكذا اختلطت الأمور على فتاننا وأخذ ينقد تدريجياً الإحساس بالفروق بين الغضبية والردية ، بسبب ما توهبه من وجود تناقض كبير بين منطق شريعة الكون الالهية وبين منطق القانون الوضعي . عجز عقله عن إدراك ما بينهما من تقارب ووقف عند أدرك ما بينهما من تفاوت ... !! فإن ارتاح الى دراسة القانون في الأمر لوضوح منطقته وتسلسل أحكامه إلا أنه لم يجد فيه ، ما ينصفه من قسوة القدر وبرحه من شريعة الكون ويمكنه من الانتصار على ذاته وينقذه من مصيره المحتوم ... !!

ولكن إذا لم تحقق دراسته للقانون ما كان ينشده من وضوح الرؤية وراحة الفكر .. إلا أنها أتاحته لذمته من فرص التأمل الحر المنطلق ما أدى به الى بلوغ « لحظة صفاء » غمرته بنقاء وسكينة خلصته من كل ما يكبله من قيود وإغلال. وانقلبه من شتى الأوهام والخاوف وطهرته من الدنس والنجاسة وقاضت عليه بمشاعر لا حد لها من الحرية الرجسة ... كان يستطيع ان ينتهر هذه الفرصة التي لا تموض في تدعيم أحوال الصفاء والنقاء والسكينة والطهارة والنجاة والحرية وتعميقها في الذات وتثبيتها بين جنبات وجدان .. إلا ان ذلك يتطلب سلوك هدى طريق شاق لا يقوى على تحمل جهاده إلا من مرف الندم والتوبة ، والتزم بطريقة ما وجاهد جهاداً متواصلاً لا ينحرف عن مزاولته شتى شروبه من المجاهدات الجسدية والرياضات النفسية .. ليقنع كل ما في داخله من جدور الشر .. ولذلك غفل كيانه الهزيل الهش المتخاذل عن إدراك جلال ما انتابه من لحظة صفاء ، ولم ينتبه الى أن ما توصل اليه من لقاء يمهّد له الاقتراب من حال التوبة .. فغاب عليه أن يسير في طريق الندم والتوبة .. وإذا به ينمى على ما غمره به الصفاء والنقاء من حرية بلغت من العنفوان ما زلزل قوامه زلزلة أمجزته عن أن ينهض ويصرع الرجس في داخله ويصحح الخلل الذي أصابه ، وينقذه مما هو مساق اليه من أمراض مستعصية .. ورضى أن يبقى على حاله في مرحلة يتصارع فيها الخير والشر ويتنافس في السيطرة على تصرفاته السلاك والشيطان ... فوقع صريع دوامة الحق والباطل .. إلا أنه فضل أن يعاني الصراع بين الغضبية والردية تستولي عليه بليلة تسوقه الى متاهات غريبة شاذة على أن يترك هذه الحرية التي اتته بدون جهد يذكر تغلّض على كيانه وتحكم في تصرفاته الهوجاء ... فإذا بإحساس ملل فظيع يستولي على كل وجدانه ، ويعكس كيانه بمرارة مرة ما بعدها من مرارة ساقته في تيه من التخبط والقلق .. بينما لم يبق أمامه إلا أشهر قليلة ويتقدم لامتحان ليسانس الحقوق مما زاد من توتره .. وتجمعت عليه شتى الواجع ، ودفعته دفعا لتصرفات بلهاء حمقاء أبعد ما تكون من الحكمة والرفقة والنخوة الإنسانية ، وساقته سوفا الى حتفه في هاوية سحيقة لا قرار لها بعد أن سمح للشيطان أن يلعب برأسه ، ويترك للمعصية أن تفتريه فيغيب عنه الوعي الطاهر القويم ، وينساق وراء أوهام حكمت عليه بالعار والاحتقار واثارت ضده مشاعر التقزز والاشمئزاز فاستحق اللعنة في الدنيا وفي الآخرة ... !!

فوجد الطالب الجامعى الذى عجز عن توطيد صداقة كريمة يزميل له فى كلية الحقوق يتمتع فى كنفها بما يرحمه من زحمة الحياة .. يقسع صريع صداقة مهينة غير متوازنة لا تكاثر فيها بين الطرفين ، ويرضى ان يصاحب صبيا حائوتياى شارع الريحان ... واذا بأقاويل السوء التى كانت تهمز بالشذوذ تصبح فجأة حقيقة واقعة ... !! لقد تعود الصبى الحائوتى ان يراه على ما هو عليه من اناقة ونعومة ورقرة ورخاوة فى نزوله وصعوده من البيت الذى يقابل دكانه ... ربما سولت له نفسه امرا خبيثا فاخذ يترصص به حتى ينتهز فرصة ليوفق علاقته به وينال منه مراده ... وحدث بينما هو يضع ضيقا مما يعيث فيه من ملل ان وقع نظره عفوا ذات مرة وهو خارج متأخرا من بيته بغير عادة على صبى الحائوتى وهو واقف على سلم يعلق لافتة على دكانه ... فما ان تقابلت العيون ورأى فتانا شابا « مدكوك الجسم ككيس قطن .. نصير القامة والذراع .. ضخم اليد .. ضيق الجبهة والعينين .. نظراته نائمة لها لمان ، فيها مكر وحقن ومكارة دم فاسد وجوع الوحش » (٦٤) فظن صبى الحائوتى ان الفرصة المربقة قد واثته « وقبل ان يشيح بوجهه رأى الصبى يبتسم له ويرفع يده الى راسه بتحية وسلام .. لمضى وهو يعلم انه لا بد عائد اليه » .

ولا ندرى كيف توفقت مرى الصداقة بين شاهين رغم ما هى عليه من تباين اجتماعى واقتصادي وثقافى وحضارى وكيف : « اصبح من عادة الفتى ان يمضى امسياته فى صحبة صبي المعلم امام الدكان » لعله حاول بذلك الهروب من الملل والتحرر من الشقاء الذى يمانى منه الامرين ... !! كان اول الامر ينزل اليه مرديا بلذته وحداه .. ثم « ثم لم يجد بأسا من أن ينزل اليه فى جلبابه وشبهه » لما توطدت اللفة وزالت ما بينهما من فروق .. فلم يجد فتانا ما يحول دون مجاراة صبى الحائوتى ليس فى ملبسه فقط بل شاركة كذلك فى موفسوعات الحديث بشغف زائد ، خاصة تلك الموضوع التى تتصل بعمل الحائوتى حتى اصبح « حديث الصبى عن الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطوقسه وفنونه وحيله » (٦٥) ولما احس صبى المعلم بازدياد شغف فتانا بالاستمتاع اليه والاستفسار المتواصل عن كل ما يتعلق بتفاصيل عمله فى عالم الموتى والقبور .. رغبة فى أن يحضرمه ليشاهد بنفسه عن قرب كل ما يستغسر عنه .. ومن الغريب حقا فى الا يتردد فتانا فى قبول مثل هذا العرض فى التو واللحظة مجدوبا بسحر عالم الموتى الذى لم يكن يدرس عنه شيئا .. كأنه مساق وهو فى غيبوبة بعد ان فقد انطلاقة الحرية وصفاء الطهارة واستكان لافراء دخوات خبيثة تحت تأثير وهم مضلل بأن ما يتحكم فى مصيره المحتوم قدر لا يخضع لمنطق او قانون ولا يعرف الرحمة او الشفقة .. فاندفع فى تيارات هوائيه الجديدة التى أصبحت لعبته المفضلة ، مع انه لم يسبق ان رأى جثة ميت من قبل .. !!

(٦٤) الغراش الشافى .

(٦٥) نفس المرجع .

وما إن رأى أول جثة حتى وقف أمامها مشدوها في حيرة ما بعدها حيرة لا يدرى هل ما يراه أمامه هو «استسلاما بلغ حد التعذيب به .. أم عذابه بلغ مداه فذاب في استسلام .. ؟ وما إن أدرك أن الذي أمامه « لا شيء .. له صورة بنى آدم » حتى زالت عنه الرهبة من الموتى وأقبل يفسل الجثة برفق آمن مادام الميت « ما يشيع بوجهه .. ولا يلوى خشيمه .. ولا يدفع بيده » (٦٦) فطالب له هذا العمل الذي أطلق له حرية التصرف .. وأصر على أن يصحب صبي الحانوتي في كل طلب .. بينما ظل صبي الحانوتي أن تمسكه بمصاحبه يرجع أولا وقبل كل شيء إلى شدة تعلقه به شخصيا ، بحيث لا يستطيع له فراق ، خاصة وأن ابتسامته له أخذت ترداد رقة وعذوبة .. وإن نظره فاضت تمسكيا وحلاوة .. بينما استولى على جسده ارتخاء ورخاوة .. فطمع فيه ووسوس له شيطانه أن يتجرأ عليه ويصارحه بما يريد منه ويطلب منه إلا بتدلل عليه أكثر من ذلك ويستسلم له ما دامت هذه هي رغبته .. وحته على أن يسربا داخل ظلام الدكان حيث يوجد نَش كبر يسعما مما ويتيح لهما أن يقضيا مآربهما في شوق زائد إليه ، ورغم أن الفتى رد صبي المعلم عن غيه .. إلا أنه لم يظهر له أى نوع من الغضب أو الضيق لمجرد توارد مثل هذه الرغبة على شهوة صديقه .. ولم يبد عليه أى نوع من التافف من مثل هذه المهانة التي يريد أن يسوقه إليها هذا الرفيق المفضل .. لأن ذهنه التائه في غيبوبة يستولى عليه ملكوت القبور ولا يكاد يلتفت لأى شيء آخر ولو كان يتصل بكرامه رجولته .. ولذلك لم يمر أى انتباه لكلام صبي المعلم الذي لما لم يجد استجابة فورية لم يلج عليه وتركه في ملكوته فابتعد عنه بعد أن كان ملتصقا به وهو يناوله هذا الحديث حتى يوحى للفتى بأن ما طلبه كان مجرد نزوة طارئة ، وأنه تاب إلى رشده ورجع عن رغبته .. وغير موضوع الحديث ودخل في كلام ليزيل ما يكون قد انتاب الفتى من انفعالات الرفض ليفقده إلى الأبد قبل أن ينال مرامه منه ، وإذا بحديثه يذهب إلى « الاستبعاد ودم الزمام والتحسر على الماضي » ليشغل الفتى بكلام عام يتردد هنا وهناك بلا مغزى ولا هدف ...

ولكن صبي الحانوتي لم يتخل هدفه وتحقيق مأربه بطريقة أو أخرى .. وأن رفض الفتى غير الحاسم لم يدعه يأس .. ودفعه لأن يفكر في إعادة المحاولة بطريقة أخرى أكثر فاعلية تفقده القدرة على المقاومة وتجبره على الاستسلام وهو غائب الوعي مشغوف عنه بمآرب آخر .. وهكذا يحاول كل منهما أن يلعب على الآخر لعبة الشيطان ... !! وإذا بصبي المعلم يفاجئه بنبا يشبه كل الإنارة بعد أن أخبره بوفاة عروس صغيرة السن قبل ليلة زفافها بيوم واحد .. هي عزز الطلب ... وأخذ يربنها له حتى يرغبه قيهسا ويحصل منه على ما يريد في مقابل تحقيق رغبته .. فلم يتورع عن استئثار تلك الرغبة بكل شدته والحاح ، وبين له كيف سيتم جنازتها بالموسيقى ونثر الحناء على القبر ، وغطى جسدها بثوب الزفاف ، وأهل عليها بآقات الياسمين فاشمل هذا الحديث كل كوامن رغبته وأيقظ شيراته المكبوتة ، فإذا بها تطلب الانشباع وترأده على أمر

لا يقره عرف أو قانون ولا يرضى عنه خلق أو دين وثأباه كل الإباء الكرامة الانسانية .. الا ان احساسا حادا استولى عليه يصور له ان امامه فرصة فريدة طالما تمنها وها قد واثته ولن تتكرر وليس امامه ان يقتنصها مهما غلا الثمن الفادح .. !!

وهكذا انهارت كل القيم التي شب عليها الانسان منذ الازل .. وضاع الفتى سليل الاكابر ابن الاصول في متاهات وضعية تتم عن شراسة بشيمة كامنة تريد ان ترد اعتبارها وتنتقم لكرامتها بأساليب لا انسانية ولا اخلاقية ، لم تبال بما قد يصاب به الفرد من خراب روى او دمار فكرى فلا تستقيم له حياة سوية ... ولم يكن هذا الفتى أول من ضاع في هذه الأسرة .. ولن يكون آخر شخص يتعرض لثل هذه الامراض المستعصية .. لقد سبقه نجم العائلة .. اذ بلغه عقب ارتكابه الفحشاء مع العروس الراقدة جثة هامدة في قبرها لا حول لها ولا قوة انه هوى في المستشفى وهو يعالج من ادمان تعاطى مخدرات يلجأ اليها ليعبد من مخيلته تصورات فاسية وتيهؤات ، خادسة توهمه بأنه محاط بادمان مجهولين يرتبسون ويريدون تحطم روحه ووعيه ومنطقه ... فتركت نهايته فراشا شاغرا في المستشفى تنذر بأن هناك نزولا جديدا يتوقع ان يحل مكانه الشاغر قريبا .. لعله فتانا مما يهدد مصر هذه الاسرة المكتوبة ويؤدي بها الى الانقراض والفناء ... !!



لا شك ان قصة « الفراش الشاغر » تشهد ليحيى حقي انه قد تحرر فعلا من الجول التركية ونزعائها الموروثة ، ولم تقف حائلا دون الرؤية الصادقة لواقع الاعراق التركية المصرية وما وصلت اليه من حال .. وان تناول هذا الواقع تنغمسه الصراحة الواضحة ، ولجأ فيه الى دبلوماسية لا تغلو من حياء تستمن بصيغ بلاغية هي اقرب الى الرمزية منها الى الواقعية .. فانه ربما اراد تخفيف وطأة النقد الاليم الذي يفضح خبايا بنى امرائه ويتقزز من مبادئهم ... ومع ذلك فان قصة الفراش الشاغر يمكن وضعها في قمة نتاج يحيى حقي القصصى باعتبارها آخر فصل في ملحمة صراع الاصلااب التركية المهاجرة، تشهد مأساة المهاجر التركي الذي قاوم الدوبان في المجتمع الجديد ، فتكالتب عليه نواجد المجتمع المصرى واعطاهما فرصة لان عضه بشراسة خلال سلبانيته ، وتظهره بمظهر ممين يشير الازدراء والراء على حال من فقد الجاه والسلطان والمجد وتخلى عن الشرف والكرامة والفضيلة ، واتساق في هاوية سحيقة من الدمار الروحي والخراب العقلى ..

ان قصة « الفراش الشاغر » هي آخر لون فنى لجأ اليه يحيى حقي ليحدد معالم الشخصية التركية المصرية، فلقد ابتدا بتحليل نماذج بشرية. ثم اهتم بتصوير لوحات ادبية .. الا انه لم يروع البراعة الكاملة في عرض ما آلت اليه الشخصية المصرية التركية الا عند تأليف « الفراش الشاغر »

الدرامية التي تمثل صراعا رهيبا بين الانسان وقدره وكيف أدى به الى مصر غاشم لا رحمة فيه ولا عدل ... الا ان قصة « الفرائس الشافر » اشبه باعلان رفض واستنكار .. يحذر وينذر .. بل يتوعد بسوء العقابة التي تبدو في ابشع صور الانسانية المنحطة لكل من يعترض على سسنة الحياة ، ويعتمد اهتزال الناس والابتعاد عنهم لا يشاركون في حياتهم الخاصة أو العامة، ويفضل ان يظل كامنا داخل دائرة ضيقة يأسر كيانه تقاليد وعادات تمنعه من تكوين صداقات سوية ، وتحرمه من علاقات الوصال والود وتحول دون التضحية والاعطاء والبذل .. ولذلك تكاد قصة « الفرائس الشافر » تعوى بصواء كئيب نحيف يريد ان يروى كيف يؤدي الانفلاق الى العفن ويسوق بصرح الانسان الى الانحطاط ...

ان قصة « الفرائس الشافر » ليست الاصرخة توجع غاضبة فيها حسرة واسى على ما وصلت اليه بعض الاسر المصرية التركية فاخذت تستعرض فاجحة نجوم اسرة شمسارح الريحان وشبابهم وتبين ما اصابهم من خراب روحي ودمار عقلي وانهيار خلقى ، وتظهر ضيق ألق الأسر التي لا تراضى في تربية ابنائها ظروف المجتمع الذي تعيش بين جنباته ، ولا تعد شباب العائلة لخوض تياراته بكل قدرة وتمكن حتى لا ينشأ على العزلة ولا يشب على الشج وعدم الاعطاء .. ولا يبدو امام المجتمع انه يرفض ان يطاوع عامة الناس ويتعالى على الدويان فيهم بعناد يسوقه الى الدمار والخزى والعار ويتزل بكرامته لعنة ملعونة لا أمل لها في رحمة الله ...

ولا يخلو تصوير هذا الانتحار الروحي على مذبح التقاليد العاتية الراسخة الجذور من قسوة وعنف وإيلام .. فان يحيى حتى لا ينهبه أو يحلر فقط انما يهدد ويهرب كذلك بأسلوب مرعب بشع لا يضع مجالا للاختيار الا بين اتجاهين لا ثالث لهما . اما الامثال طواعية دون عناد أو تكبر للظروف الاجتماعية الجديدة التي آلت اليه حياتهم ، وقبول تعديل السلوك المتوارث عن رضا واقتناع ، تمهيدا لمشاركة الناس والاندماج فيهم أو الاختلاط بهم الى حد الدويان من طريق الود والتعاون والاتصال والوصال والتضحية والاعطاء والبذل والسخاء .. وذلك لمن اراد النجاة .. واما التجمد على ما هو عليه من عزلة وإبتعاد والتحجر على ما شب عليه من شج وامتناع عن الاعطاء ، متهربا من الناس والمجتمع خشية التصادم بالوجود والتركيز ، ومتجنبا مواجهة الخسة في أي مكان .. فتنفش في داخله أوبئة تبدد قيمه الانسانية ، وتصيبه بخراب بقفى على الأدمية ويعرض سلالاته لنهاية البيمة حقيرة ..

- ٦ -

لا جدال في أن محاولات يحيى حتى المتوالية لتعطيل الشخصية المصرية التركية ، ونجاح جهوده في تحديد معالمها الاساسية لكنه من التحرر من ضغط النشأة والتربية الاولى مما عاونته على التخلص من قيود التقاليد واغلال الوراثة ، وهيماله من الغرض الكاملة لاداء واجبه نحو بنى جنسه

يحيى حتى .. بين الحرية والبرية

بأن حذرهم التحذير الشديد من مغبة ما قد ينزل بهم من دمار وخراب وهلاك .. إلا أنه لم يعف المجتمع المصري من مسئولية بعض ما أصاب آل سلالته من جمود وتدهور وانحلال .. وكيف أن نساد بعض جوانب المجتمع أصابه بالتعفن والتخلف الحضارى ، وأضاع عليه كثيرا من القيم الإنسانية وأشاع فيه فوضى لا أخلاقية .. امتدائها بصورة أو أخرى على الاسر المصرية التركية ويعكس على تصرفاتها سلوكا معينا .. !!

فان بنت الصعيد لما اكتشفت في مرسها ابن الاكابر .. من وهن جنسى يتوانى عن ثادية ما عليه من التزامات ، ويتقاعس عن أن يهبها كل ما يملك من حيوية في الحال وبلا تردد ودون مقابل عاطفى ، ما دامت قد وهبته نفسها وهرضت عليه كل بضاعتها وإباحته له أن ينال منها ما ينال ، حتى قبل أن تعرف من هو وتتوطد بينهما المحبة .. لم تستطع بنت الصعيد أن تقف موقفا سلبيا من هذا العريس ولم تجد داعيا لأن تستمر علاقتها معه وهو على ما هو عليه من شح جنسى يمنع عن الاعطاء الحيوى فسارعت بمطالبة الفراق في اشمئزاز وعثرة .. ولم يكن امام عريسا الا الرضوخ لهذا الطلب وهو صاغر لانه وضع في ظروف لا يستطيع ان يعاند فيها أو يكابر ، وأنه لا يملك أن يعطى الا بقدر وحساب وحين يشاء أو يريد دون امل أو اجبار .. فما كان منها الا أن نبذته في اباء وشم ، وتخلصت من عثرته غير نادمة على ما يمكن أن يتيحه لها من حياة رغدة .. ولا آبهة بما قد يؤول اليه من مصر .. فتركته حطاما هشيما لا يقوى على مصارعة الواقع التربص به .. فاذا به يتسرب في حرية الظلام متسللا من الابواب الخفية الى حياة رخيصة وشيعة هي اقرب الى الموت .. ورات ان سعادتها الحقبة في العودة الى مسقط رأسها لتمش بين من يقدروها من اهل الصعيد ويستطيع ان يمنحها ما تريد دون تخالل أو مراوغة ..

الا أن ابن البلد لم يستمهل ولم يتورع عن أن ينتقم منه شر انتقام ، وينهش عرقه ويلد رجولته وهو يجرى وراء رغبة حقايق تريد ان تنال متعة خالصة لا يشوبها عائق ولا يفترها صد أو منازلة ، وخاصة اذا ما كانت على مديح بنت الصعيد فلم يبخل عليه ابن البلد بان يتيح له مثل هذه المتعة ولكن ليس قبل ان يسلبه كل عشرة وكرامة ، ويدفع به الى هاوية محيطة لا نجاة منها .. لقد نشأ على الشح لا يعطى دون مقابل واذا به في النهاية يعطى كل حياته ويفقد انسانيته وأدميته دون مقابل ، بعد ان رضى ان يضاجع المولى وهو في غيبوبة من الحس والشعور والادراك والمولى .. فكان الخراب الروحى والدمار الملقى والانحطاط الخلقى ..

يمثل هذه التحليلات الواعية استطاع يحيى حتى ان يتطهر من قيود العقد التركية المترتبة .. ولكنه يعيش وسط مجتمع يعكس عليه كثيرا من الانطباعات التى لا يرتاح اليها وجدانه وتحد من انطلاقاته الفكرية .. فاذا به يقف حائرا امام الاتجاهات المصرية غير المتوازنة لمخوضها لتيارات متضاربة يقب عليها روح الانتقام ولا تتورع عن أن تلجأ للعدو والخداع وتخط بين سفك الدماء

والجريمة وبين العزة والكرامة .. قد تحسم المواقف بالعنف ولكن دون فاعلية إيجابية وتترك جلود المشاكل تستشري .. فاحس يحيى حتى بأنه مكبل بقيود تدخله في صراع جديد من أجل حريته - فإذا به يجاهد في سبيل معرفة الشخصية المصرية الأصيلة ويتكفل بتحليلها وعرضها خلال تطور خبراته الفكرية في صور أدبية متنوعة تشمل فحص النماذج البشرية واستعراض اللوحات الفنية وخلق القصص الترامية .. ويبدو موقفه من الشخصية المصرية واضحا في قصص «البوسطجي» و «قنديل أم هاشم» ولوحات «صبح النوم» ويمتاز هذا الموقف بأنه لم يصل بعد إلى حد اليأس ودرجة التشاؤم التي تلوح بصراحة من الضياع والخراب والهلاك .. وأنه ما زال هناك أمل يدعو إلى الجهاد في سبيل تحرير المجتمع المصري من كل مخازنه ، ويسوق الشخصية المصرية إلى السلامة الفكرية والسوية الحضارية .. بتعديل مسار انحرافاتها وترشيد اندفاعاتها بالتنسيق بين تياراتها المتداخلة ..

واحسب ان عرض موقف يحيى حتى من المجتمع المصري والشخصية المصرية ومدى توفيقه في التحرر من انعكاساتها على نشاطه وتربيته وتعليمه بما لها من ردود فعل تنبعث من مكمن النزعات التركية التقليدية المتوارثة .. يحتاج إلى دراسة مفصلة تبحث مرحلة أخرى من مراحل صراعات يحيى حتى المستمرة من أجل الحرية .. تبين حدود معاركه مع ذاته - أولا وقبل كل شيء - سواء وهو يعايش المجتمع المصري ويختلط بالشخصية المصرية .. أو حين يتحرك من ميوه الصوفية الفتية إلى خضم البهيمية الصاحب المنطلق .. ويصارع بعقليته الشرقية تدفق أمواج الحضارة الغربية المتلاحقة .. !!

النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

كثيراً ما عبر الروائي الانجليزي عن مخاوفه من الناقد المحترف الذي رأى فيه قوة معرقة لتطور الرواية ولحرية الكاتب . فأشار سومرست موم (١٨٧٤ - ١٩٦٥) الى خطأ الاعتماد الكلية على نقاد من غير الادباء المبدعين لان الناقد ، كما يقول موم « الذي لا يعمل بنفسه في حقل الادب الخلاق يحتفل ان تكون خبرته في صنعة الرواية بسيطة . ولذلك فهو اما يعتمد في نقده على انطباعاته الشخصية التي قد لا تكون ذات قيمة تذكر ... او يصدر احكاماً مبنية على اساس جامدة على الروائي ان يثنيها بها اذا ما أراد ان يحوز قبول الناقد » (١) . وفيه هـ.ج. ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) H. G. Wells ، قبل ذلك باربعين عاماً ، الى عدم جدوى اصرار النقاد على قواعد ثابتة ، والى خطورة اللجوء الى النقاد المحترفين عند تقييم الرواية ، فقال :

إذا أردنا أن نعرف أن الرواية أكثر من وسيلة للترفيه فلا بد في اعتقادي من أن نتحرر من القيود التي يلج عليها أولئك الذين يرغبون في تحديد إطار عام لها . أن كل فن في هذه الأيام يجد نفسه مضطراً إلى أن يسلك طريقاً وعراً بين

"The Art of Fiction", Ten Novels & Their Authors (1954), 19-20.

مصفور من السنوات التالية الهنية وبين دوامة من النقد العشوائي اللامعقول . فعندما يصبح نقد أى فن من الفنون متخصصا ومعتبرا ، وتظهر الى الوجود طبقة من الحكام على الادب ، يبدأ وضع قواعد ومقاييس علمية محددة ونماذج تطبق على الفن ... لقد تناول النقد الرواية كما لو كانت ذات شكل فني لا يقل تحديدا عن شكل السونيتية (٢) .

واتخذت فرجينيا وولف (١٨٨٢ - ١٩٤١) Virginia Woolf الرواية التي اشتهرت بتجاربها في الرواية الانجليزية الحديثة ، موقفا مضادا لموقف ويلز وموم عندما اسفقت لانعدام النقد الروائي النظري تقريبا . ورات ان مشاكل الادب الروائي في ايامها ترجع الى عدم اهتمام النقد بشكل الرواية ونظرياتها الفنية والجمالية ، وقالت :

إذا كانت هناك سموات تواجه الرواية فلعل السبب في ذلك هو عدم وجود من يعالجها بثقة ويحدد معالمها بدقة . لم يكن احد للرواية ، ولم يولها الا القلة اهتماما جادا . وعلى الرغم من ان القوانين قد تكون مخجلة ويجب تعميمها ، فان لها مزاياها ، فهي تضمن الوفاء والنظام على الرواية ، وتعترف لها بمكانتها في المجتمع المتحضر ، وتثبت فيها في التقدير والدراسة (٣) .

وايا كان موقف الروائي من الناقد فمن الملاحظ ان ناقد الرواية المحترف - باستثناء امثال **برسي لابلوك** (١٨٧٩ - ١٩٦٥) Percy Lubbock و **ف.د. ليفيز** (١٨٩٥ - F.R. Leavis) وتلاميذهم في القرن العشرين - لم يصل الى مستوى نقاد الشعر والادب المسرحي . فليس هناك ناقد روائي خلال القرون الاولى لظهور الرواية وتطورها يضاهي **ارسطو** و **صومييل جونسون** (١٧٠٩ - ١٧٨٤) Samuel Johnson و **كولردج** (١٧٧٢ - ١٨٣٤) Coleridge في النقد المسرحي والشعري . ومما يسترعى النظران **ماتيو آرنولد** (١٨٨٢ - ١٨٨٨) Matthew Arnold عميد النقد الفكتوريين لم يلتفت اطلاقا الى الادب الروائي الانجليزي الذي بلغ ذروته في ايامه .

بلد الرواية الانجليزية في اول نشأتها كماردجبار . ووصلت الى مستوى ادبي رفيع خلال السنوات التي تلت ظهور **رويتسون كروود** (١٧١٩) رواية **دانيال ديفو** (١٦٦٠ - ١٧٣١) Daniel Defoe الشهيرة . وعندما نشرت اعمال الروائيين **الكبيرين فيلدنج** (١٧٠٧ - ١٧٥٤) Fielding و **ريتشاردسون** (١٦٨٩ - ١٧٦١) Richardson أصبحت الرواية الانجليزية واقعا لا جدال فيه ، واحتلت المكانة الاولى عند هواة القراءة . ومع ذلك لم يصاحب نشأة هذا الشكل الادبي الجديد نقد يستحق الذكر . لقد اثارت روايات ريتشاردسون في عدد قليل من الكتيبات بعض التساؤلات عن اهدافها ، ومدى اضرارها بمستوى القراء الخلفي . كما بدا نفس الاتجاه الاخلاقي في مقال لجهول بعنوان « دراسة لتاريخ **توم جونز** » (٤) (١٧٥٠)

«An Examen of the History of Tom Jones» هاجم فيه الكاتب هجوما عنيفا مقلدا ما اعتبره انحطاط الاخلاقيات التي بنيت عليها رواية فيلدنج ، دون اية اشارة الى قيمتها الادبية ،

(٢) "The Contemporary Novel", An English Man Looks at the World (1914), 150-51.

(٣) The Moment & Other Essays (1947), 90

(٤) مقال الكتوب تحت اسم مستعار هو (اوربيليوس) Orbilius

وكانها منعدمة تماما . ثم ظهر اتجاه مماثل في الخلاف الذي قام حول روايات **لورانس ستيرن** (١٧١٣ - ١٧٦٨) [Laurence Sterne] في نفس العصر عندما ركز المتناظرون جدالهم حول مدى اللياقة في ان يكتب ستيرن ، وهو قسيس ، روايات على الاطلاق . ولم يعلق واحد من هؤلاء النقاد على التجديدات الفنية التي اشتهرت بهاروايات ستيرن فيما بعد ، والتي جعلته من اصعب الروائيين تأثيرا على تطور الرواية الانجليزية في عصرنا . وكان على ستيرن ان ينتظر حتى عشرينات القرن الحالي ليحتل المكانة التي تليق برائد الرواية الانجليزية الحديثة ، عندما اكتشفت فرجينيا وولف اهمية تجاربه الفنية . وان مايدعو الى الدهشة في كل هذا هو فشل النقد في ان يخلق يركب الرواية في نشاطها وتطورها سنين طويلة .

استمر تجاهل النقد للرواية طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اي خلال السنوات التي لاقت فيها الرواية شعبية لا مثيل لها اذاما قورنت بانواع الادب الاخرى . واولي النقد الشمر اهتمامهم كما في **تراجم الشعراء الانجليز** (١٧٨١) *Lives of the English Poets* لصمويل جونسون ، او الى نظريات النقد الجمالية في كتابات بيرك (١٧٢٩ - ١٧٩٧) *Burke* وريبنولز (١٧٣٢ - ١٧٩٢) *Reynolds* . اما فيما يختص بالرواية فقد ظهرت في دوريات من مثيلات *The Monthly Review* (١٧٤٩ - ١٨٤٥) و *Critical Review* (١٧٥٦ - ١٨١٧) تعليقات على الروايات التي اخذت تتكاثر بسرعة فائقة . ولكن هذه التعليقات تمثلت في ملخصات للروايات وسرد لاحداثها ليس الا .

على ان الاوضاع قد تحسنت قليلا بالنسبة للدوريات الجديدة في اوائل القرن التاسع عشر ، الا ان تجاهل المعلقين عامة لروايات **جين أوستن** (١٧٧٥ - ١٨١٧) *Jane Austen* التي ارتقت الى مصاف اعظم الروائيين الانجليز ، يشير الى حقيقة الامور فيما يتعلق بالنقد الروائي المحترف وكان الاستثناء الوحيد لافتقار النقد في ذلك العصر هو المقال (٥) الذي رحب فيه الروائي **سيب والتر سكوت** (١٧٧١ - ١٨٣٢) *Sir Walter Scott* في بحرارة برواية اما (١٨١٦) *Emma* ل **جين أوستن** اما المحاضرة السادسة لوليم هازل (١٧٧٨ - ١٨٣٠) *William Hazlitt* في محاضراته المنشورة بعنوان **الكتساب الانجليز الهوليسون** (١٨١٩) *Lectures on the English Comic writers* وتقليد ولتر سكوت في كتابه **تراجم الروائيين** (١٨٢١ - ١٨٢٤) *Lives of the Novelists* لا سبق ان انجزه صمويل جونسون في مؤلفه **تراجم الشعراء الانجليز** ، فليست الا محاولات عقية في النقد الروائي .

ومتى وصلنا الى العصر الفكتوري وجدنا ان اتجاه النقد للمحوظ الى تجنب الرواية في دراساتهم . فالروائي الوحيد ، تولستوى ، الذي تناوله ماثيو آرنولد في مقال طويل (٦) لم يكن انجليزيا بل روسيا . وكان آرنولد في اول المقال صائبا عندما قال : « لقد ولى عهد الروائيين

الانجليز العظام ، ولم يتركوا من بعدهم خلفا في مثل شهرتهم « . وفي هذا القول دليل على قدرة آرنولد على التمييز بين الجيد والردىء من ادب الرواية ، ومع ذلك فقد اولى ظهره لامثال **ديكنز** (١٨١٢ - ١٨٧٠) و **ذاكرى** (١٨١١ - ١٨٦٣) **Thackeray** و **جورج اليوت** (١٨١٩ - ١٨٨٠) **George Eliot** وهم من اعظم الروائيين الانجليز في فترة انتاجهم الخصب وعصر الرواية الانجليزية الذهبية .

يبدو مما سبق اننا اذا ما اردنا ان نكتشف حصيلة من النقد الروائي الذي يعترف بالرواية كادب رفيع يستحق الدراسة الجادة ، فعلى ان نوجه نظارنا بعيدا عن الناقد المحترف متجهين نحو الاديب الروائي نفسه وما جاء في كتاباته من ادبه . وهنا نذكر ما قالته **اليزابيث بويش** (١٨٩٩ - ١٩٧٤) **Elizabeth Bowen** الروائية الانجليزية في الروائي الناقد ، وهو : « ان الكاتب الابداعي الذي يفتقر الى ملكة النقلا وجود له . بل ان مهنته كروائي لا تتحمل مثل هذا الافتقار » (٧) . ومما يؤكد الدور الذي يلعبه الروائي الناقد بروز **اسماء فيلدينج وجورج اليوت هنرى جيمس** (١٨٣٤ - ١٩١٦) **Henry James** و د . هـ . لورانس (١٨٨٥ - ١٩٣٠) **D. H. Lawrence** واسم . فوستر (١٨٧٩ - ١٩٧٠) **E.M. Foster** و **فرجينيا وولف** ، على سبيل المثال لا الحصر ، في تاريخ النقد الروائي الانجليزى .

وباستثناء فيلدينج ليست هناك اية محاولة في القرن الثامن عشر لدراسة الرواية على اساس نقدي جاد . ويبدو اسهامه في هذا المجال فيما كتبه في نقد الرواية ونظريتها بينما كان يحاول ان يفسر لنفسه ولقرائه تجاربه في الكتابة الابداعية . ولا جدال ان فيلدينج هو رائد النقد الروائي في انجلترا بغير منازع . بل لعله ليس مجرد رائد لان الرائد يتبعه آخرون ، وهذا ما لم يحدث في حالة فيلدينج الذي سبق النقد الروائي بقرن من الزمان على الاقل . وتكون تسميتنا أكثر دقة لو لقبناه بمستكشف وحيد خاص في نقده عالم الرواية البكر وتحسس معالمها المجهولة .

ونقد فيلدينج الذي احتواه في ثلاث مقدمات لروايته **جوزيف اندروود** (١٧٤٢) **Joseph Andrews** وفي ثماني عشرة مقدمة ، واحدة لكل كتاب من كتب روايته **توم جونز** (١٧٤٩) **Tom Jones** ، محاولة فريدة في اسبابها ترمى الى الرفع من شأن الرواية بتحرير بعض القاييس النيو كلاسيكية وتطبيقها على الرواية . وايا كانت نتيجة هذه المحاولة (وقد بات بالفشل كما كان فيلدينج نفسه يعلم) ، فان المحاولة في حد ذاتها كانت مثلا مبكرا للنقد النظري للتعريف بالرواية والتعقّن لها .

كان الهدف الاساسي الذي سعى اليه فيلدينج اول الامر هو تعريف ماهية الرواية متخلدا بروايته **جوزيف اندروود** نموذجا لهذا الشكل الجديد . فوصف الرواية بانها « ملحمة هزلية

منشورة « (٨) . وكان فيلدنج يعلم تماما مدى الابتكار الذي تتضمنه تلك الموازنة بين الرواية والملحمة ، كما كان يعلم أيضا ما يحتمل من إساءة فهم القراء له في مقارنته بين هذين الشكلين من الأدب . فيقول في مقدمة **جوزيف أندروز** أن الرواية « تمثل ... نوعا من الأدب لا أذكر أنني رأيت حتى الآن أية محاولة مشابهة له في لغتنا » . ويستمر فيلدنج في شرح أوجه الشبه والخلاف بين الرواية والملحمة ، كما عرفها هوميروس ، مشيراً إلى أن الملحمة مثل المسرحية ، منها ما هو هزلي ومنها ما هو مأساوي . وهوميروس ، كما جاء في أرسطو ، ترك لنا ملحمتين ، أحدهما هزلية بعنوان **مارجيتيس Margites** وقد فقدت ، والثانية مأساوية وهي **اللياذة** ، والملحمة قد تكتب إما بالشعر وإما بالنثر ، وأن كان الشعر هو الأسلوب الغالب . وبه فيلدنج إلى عدم الخلط بين « الملحمة الهزلية المنشورة » وبين المسرحية الهزلية والرواية الرومانسية المنشورة الجادة . فالرواية عند فيلدنج أو « الملحمة الهزلية المنشورة » كما عرفها تختلف عن المسرحية الهزلية من حيث أن « حركتها أكثر امتدادا وشمولا ، ودوائرها أكثر اتساعا ، وشخصها أكثر تعددا واختلافا » . وعندما انتقل فيلدنج إلى توضيح الاختلاف بين « الملحمة الهزلية المنشورة » والرواية الرومانسية صادف صعوبات لا حد لها . واعتبران من أسس الاختلاف الأسلوب الهزلي والميل إلى المحاكاة التهكمية burlesque للادب الجاد ، والمغالاة فيها ، وهي التي وجد فيها فيلدنج متعة بالغة .

وننتج من تعريف فيلدنج للرواية وتفسيره لهذا التعريف كثير من الخلط . والسؤال الذي نطرحه هنا هو : هل الرواية كما عرفها فيلدنج أساسا مجرد « محاكاة تهكمية » للشكل الملحمي المأساوي ، أم هي رواية هزلية أخلاقية متكاملة في حد ذاتها ترمي إلى تصوير المجتمع المعاصر ؟ ويعكس هذا السؤال الانشطار الواضح في **جوزيف أندروز** بالذات ، التي بنيت أول الأمر على « المحاكاة التهكمية » لرواية **باميللا Pamela** (١٧٤٠) لريتشارد سون ، ثم تطورت وأخذت شكل رواية « المفامرات » Picaresque التي تصور مساوي المجتمع بأسلوب الهجاء الساخر ، مستندة إلى المبادئ الأخلاقية . ويسرى هذا الخلط الواضح بين اتجاهين مختلفين ما يشير الدهشة لأنه موجود أصلا في نظرية فيلدنج النقدية .

لا شك أن فيلدنج قد تنبه إلى عدم التناسق في تعريفه للرواية مما أدى به بعد ذلك إلى تجنب أية محاولات لبناء نظرية في الرواية متكاملة . وقضت السنوات السبع التي فصلت بين **جوزيف أندروز** و**توم جونز** على الدور الرائد الذي لعبه فيلدنج في النقد الروائي . ولا يعني هذا أنه أحجم كلية عن النقد . فتوم جونز تحوى من حيث الكم نقداً أكثر مما تحويه **جوزيف أندروز** ، ولكنه نقد متناثر يفتقر إلى الوحدة . وحتى هذا النقد المتناثر في المقدمات يقل تدريجياً

طولا ومضمونا خلال الرواية . وان كان فيلدنج يشير من آن لآخر في **توم جونز** الى نظرية « المحمة الهزلية المنشورة » ، إلا أنه من الواضح أنه بدايقده اهتمامه بالمسائل النظرية المجردة .

ان ميل فيلدنج الى الاحجام عن التحليل النقدي في **توم جونز** يشير الى اكتشافه ان النقد في إنجلترا في عصره لم يسلك الطريق السليم ، وان الدور الذي لعبه النقد في سن القوانين وتطبيقها ما هو الا عبث ، لان القواعد التي اصر عليها النقاد النيوكلاسيكيون مستقاة من تراث ادبي غريب عنهم ولا تتناسب مع العصر . « والوحدات » التي ألح النقاد الكلاسيكيون على ضرورة اتباعها في المسرحية لم تكن في نظر فيلدنج الا اصطلاحا ضاراً يردده النقاد دون تفكير . وقد عبر فيلدنج عن هذا الرأي ستة عشر عاما قبل ان يكشف صموئيل جونسون ، وهو من اعظم نقاد القرن الثامن عشر ، عن عقم هذا القانون في مقدماته لاعمال شكسبير . كما انتقد فيلدنج رغبة نقاده عصره في تطبيق حرفية القوانين المستخرجة من روائع الادب الكلاسيكي دون الاهتمام بروح الادب نفسه . كل هذه احكام جريئة تدل على انها صادرة عن وهي نقدي صائب ، حتى ولو ان صاحبها قد فشل في التوصل الى اسلوب في النقد يحل محل النقد العشوائي السائد في عصره .

وعلى الرغم من فشل فيلدنج في بناء نظرية نقدية في الرواية فانه كان واعيا على الاقل ، باعتباره روائيا أصيلا ، بأهمية هذا الشكل الجديد من الادب وما يستحقه من اهتمام وما يتطلبه من تثبيت اقدمه والاعتراف بمكانته ، ولعل محاولات فيلدنج النقدية التي كانت ترمي الى الارتقاء بالرواية الى المكانة الادبية اللائقة بها ، هي في حد ذاتها انجاز له قيمته في هذه المرحلة المبكرة من نشأة الرواية ، ونحن نطلب من اولدواني ناقد في إنجلترا اكثر مما يستطيع اذا ما حملناه مسؤولية وضع نظرية متكاملة في تعريف ماهية الرواية .

وكان من الطبيعي اثناء نشأة الرواية ان يتلاحق اسئلة الروائي عن كيفية كتابة الرواية من الناحية العملية المحضة ، وهي اسئلة في الواقع لا بد وان يطرحها كل روائي في كل مرة يبدا في خلق رواية جديدة . فكما يقول تولستوى « ان كل فنان عظيم لا بد وان يخلق الشكل المناسب لعمله » . وكلما ازداد الابتكار والاصالة كثارت الاسئلة التي هي من صميم عمل الناقد .

وكان سترين من اهم التجريبيين في ادب الرواية ومن اعظمهم ابتكارا في رواية **تريسترام شاندي** (١٧٦٠ - ١٧٦٧) *Tristram Shandy* التي قلب فيها الزمن راسا على عقب . وبدلا من ان يقدم بطله كما كان متبعيا في اولى صفحات الرواية فانه لم يسمح له بالظهور الا بعد انقضاء اكثر من نصف الرواية . ومن هنا تظهر احدى المشاكل الفنية الاساسية في كتابة الرواية ، وهي : من اين يبدا الروائي وكيف يعالج موضوع الزمن وتتابع الاحداث ، ماذا يختار وماذا ينحى جانبا ؟ وقد عرض سترين لبعض مشاكل الروائي الفنية في **تريسترام شاندي** ، متخذاً من التأليف احد موضوعاته . ومن اهم الاسئلة التي شغلت باله السؤال : الى اي حد يعتبر الروائي قد حاد عن جوهر موضوعه عندما يستلزم في تصوير ابعاد الشخص المحيط ببطله ليحسمهم للقارئ ؟

وهذا سؤال لا بد وان يجب عليه الروائي قبل ان يبدأ في الكتابة ، كما لا بد وان يطرحه الناقد ايضا عندما يتناول الرواية ، وهو نابع من الوعي بالشكل الفني للرواية .

وسترين مثل فيلدنج لم يصل الى اجوبة واضحة في النقد الروائي . والاجوبة في هذه المرحلة من نشأة الرواية ليست في نفس مستوى أهمية الاسئلة ذاتها . فالذي يهم هو صحة الاسئلة وتنوعها واتساع الرقعة انى تغطيها في مجال الادب الروائي . ويتضح من الاسلوب الذي اتبعه هذان الروائيان في ادماج تعليقاتهما النقدية في كتاباتهما الابداعية ، انهما لم يشعرأ بالحرص في الجمع بين دور الكاتب الخلاق والناقد في آن واحد . فلا تناقض بين الابداع والنقد ، بل هما بالنسبة الى الروائي متكاملان .

وتتبع جين اوستن نفس الاسلوب في الجمع بين الابداع والنقد في بعض رواياتها ، الا انها تصهر آراءها كناقدة في موضوع الرواية وتصوير شخصها وتطوير حركتها ، بدلا من ان تعرضها ، كما فعل فيلدنج ، في المقدمات . ويبدو هذا في رواية *نورث آنجر آبي* (١٨١٨) *Northanger Abbey* التي تكشف عن قدرة *جين اوستن* على تقييم الرواية المعاصرة لها من خلال « المحاكاة التهكمية » . وقد كتبت *نورث آنجر آبي* في قالب ساخر يحاكي اسلوب « الرواية العاطفية » « رواية الرعب » بهدف نقد هذين النوعين من الروايات التي انحدرت بالمستوى الادبي والفني للرواية بشكل ملحوظ . وجاءت هذه الروايات مجرد تكرار لا ابتكار فيه لما سبق ان كتب في مواضعها . فكانت شخص الرواية من بطل وشرير صورة طبق الاصل لبطلات وابطال واشرار مثيلاتها من الروايات ، وهذا صحيح ايضا بالنسبة للمواقف والاحداث والحركة والحوار الى غير ذلك من عناصر الرواية .

ويبدو دور جين اوستن كناقدة روائية عند افتتاح الرواية وتصوير البطلة كاترين مور كتيغض للبطلة المتفق عليها في الروايات الشعبية . فهي كما تقول الروائية ليست بطلة مثالية ، وليست من اسرة هريفة ، ولا تتصف في طفولتها بالجمال والنباهة والحسن الرفيع والنبوغ في الموسيقى والتصوير ، الى آخر تلك الصفات المبالغ فيها . وانما هي طفلة عادية ، وتصبح عندما تنمو فتاة عادية ايضا . وتضح سخرية جين اوستن اللاذعة في موقف كاترين لفنائة البسيطة المجالة الى تصديق كل ما تقرأ من « روايات عاطفية » و « روايات الرعب » التي تعطي البطلة صورة كاذبة من الحياة . وتضع جين اوستن بطلتها في عدة مواقف تطابق المواقف المعروفة في « روايات الرعب » ، فتتصور كاترين ان الحياة انعكاس لمجموعة التجارب المثيرة التي تمر بها بطلات « روايات الرعب » التي استحوذت على تفكيرها وخيالها . الا ان مواقف كاترين تنتهي دائما بخيبة املاها ، واكتشافها الاخطاء التي وقعت فيها نتيجة لانها رأت الحياة من خلال قراءاتها لتلك الروايات الرديئة المثيرة . والدرس الذي تتعلمه البطلة في نهاية *نورث آنجر آبي* هو ان الحياة لا هي « رواية عاطفية » ولا هي « رواية رعب » وان كانت لا تخلو في الواقع من العاطفية والرعب .

من الواضح ان نقد جين أوستن للرواية الشعبية المعاصرة لها يدور حول الهوة الشاسعة التي تفصل بين الواقع وتصوير الرواية له . وبسخرتها من الاثر الذي يتركه هذا الفصل بين الواقع والخيال المثير المبالغ فيه تنقد الكاتبة الرواية التي لا تنتمي الى الواقع في شيء ، والتي تصور الحياة بجمود وتصنع . وتشير جين أوستن الى الاحتقار السائد للرواية وخجل قرائها من الاعتراف بادمانهم لها ، مما يؤكد مستوى الرواية الهابط وشعبيتها في نفس الوقت . وفي الفقرة التالية تذكر الفئاة القارئة هواجسها ، بينما تعلق جين أوستن على الموقف .

« انا لست من قراء الرواية ، فقلما تصفحها . لا تظن اني اراها كثيراً » . هذه هي التعليقات التي يكثر ترديدها . « وماذا تذاين ايها الأنسة ؟ » فيكون جواب الأنسة « انها ليست الا رواية » بينما تلوح كتابها امامها بلا مبالاة مصطنعة او لي خجل مؤقت (٩) .

والامر الذي يهم جين أوستن هو الا يعتمد هذا الاحتقار الى الرواية عامة التي تستحق التقدير . وفي دفاعها المباشر عن الرواية كعاصرتها وكتبها تبدو امكانيات الرواية في احسن صورها . ويلاحظ ان هذا الدفاع مكتوب على لسان الكاتبة نفسها موجهة قولها الى القارئ ، وهذا أسلوب قلما تستخدمه جين أوستن في رواياتها ، مما يوضح الاهمية التي تعلقها على تلخيصها لهمة الرواية الادبية كما فهمتها . وتستمر الكاتبة في تعليقها الساخر على لا مبالاة القارئة التي هي في الواقع قارئة ، كما تقول الكاتبة : « جود ما انتجه ذهن انسان :

انها (اي الرواية التي نقرؤها الانسة) ليست الاسيبيلا او كاميللا او بليندا ، او بالاحرى ، انها ليست الامعلا من الامعلا التي تكشف عن اعظم قدرات العقل الانساني ، التي تنقل الى العالم في احسن اسلوب مختار معرفة وبيئة بالطبيعة البشرية ، ومثلها المشتملة ، وفكرها التند ، وحسورها الذهني ، وروح الفكاهة التي تتصف بها (١٠) .

ويبدو من هذه الفقرة ان جين أوستن انما تصف كتاباتها هي ، كما تصف الادب الروائي في ارقى مستواه . وهي تحاول في هذا التعريف ان تضع اسسا ومقاييسا عامة للرواية .

وترى جين أوستن نتيجة للاحتقار السائد للرواية ضرورة وقوف الروائيين من امثالها صفا واحدا ضد النقاد المحترفين ، الذين يحطون في تقديم الروائي المنشور في الدوريات من شأن الرواية ، فتقول :

فلتدع الملحن النقاد يندفون الرواية ذات الخيال المنطلق بالصدق الاوصاف كما يحلو لهم ، ويتحدثون عن كل رواية جديدة بأسلوبهم الواهن ، مشيرين الى المصيد الذي تن من تحتة دود النشر . علينا الا نخطئ بعفينا عن بعض . اننا نحن مشر الروائيين هيئة مفيدة . فعلى الرغم من اننا نجاننا قد وفر للقراد ترفيها لا حد له ، ولا يمكن لاي هيئة ادبية اخرى في العالم ان تصافحها ، فليس هناك شكل ادبي آخر قبول بمثل الهجوم الذي قوبلت به الرواية (١١) .

(٩) لوثر اجر ابي ، الفصل الخامس

(١٠) المرجع والفصل السابقان .

(١١) المرجع والفصل السابقان .

في كل ما سبق أن جاء في نقد الرواية على لسان فيلدنج وستيرن وجين أوستن على غائلته وتحصسه في الظلام ، نجد محاولة الروائي توضيح ماهية الرواية ومهمتها ، مما يعينه عمليا في كتاباته الخلاقة ، كما يكتشف هذا النقد رغبة الروائي في الارتفاع بالرواية الأدبية والرفع من شأنها .

وقد مهدت هذه الخطوات الأولى في نقد الرواية الطريق لأدب روائي آخر هو سير والتر سكوت ، الذي اشتهر في القرن التاسع عشر برواياته التاريخية ، فظهر مقاله « **أما رواية** » كمثل جيد للنقد الموضوعي . ويستحق هذا المقال « *Emma, a Novel* » مناية خاصة لأنه مثل ميكر لتقييم حاد للرواية سواء أكانت مجرد التسلية أو أنها تتضمن هدفا أخلاقيا واجتماعيا . وإلى جانب هذا فالمقال من أجود ما جاء في نقد أدب جين أوستن وفي التعرف على الأهمية الأدبية لرواياتها في أيامها الأولى . وملكة النقد الموضوعي عند والتر سكوت تنضح على وجه التحديد في قدرته على تقييم عمل كاتبة مثل جين أوستن يختلف اختلافا تاما عن إنتاجه التاريخي .

ويشير سكوت في مقاله إلى نوع الروايات الهزلية التي اكتسحت السوق في أيامه ، وإلى موقف القارئ منها ، الذي سبق أن أشارت إليه جين أوستن في **نورث أنجز آبي** - أي رفض القارئ الاعتراف صراحة بقراءاته على الرغم من استمتاعه بها . وسكوت لا يحكم بقسوة تامة على هذا النوع من أدب الهروب الذي يساعد ، كما يعترف ، على التخفيف من كثير من آلام البشر مثل « الملل والقلق والالام وحتى الفقر » ، كما يخفف من وطأة حياة « المسنين والعزباء المهجورين والوحيديين » . ونظرة سكوت المتسامحة إلى رواية الهروب جعلته يشعر بالتزام أكثر نحو توضيح قيمة رواية في مثل مستوى **أما الأدبي** ، فيقول :

إن واجب الناقد يصبح مساعدا حيا لأممال ... تكشف عن معرفة عميقة بقلب الإنسان ، وتغير منها بقوة وجراسة بهدف إلى وضع هذه المعرفة في خدمة التسلية والشرف (١٦) .

وأهم ما في نقد سكوت في مقاله هو التفرة التي سبق أن أشارت إليها جين أوستن في **نورث أنجز آبي** بين روايات معاصرها ورواياتها هي التي تتطلب « اهتماما يفوق بكثير ذلك الاهتمام الذي يتطلبه إنتاج معاصريها الزائل الذي يفتدى مكتب الإعارة ومشتريها من النساء » . فأعمال جين أوستن ، كما يقول سكوت :

تنتمي إلى مستوى من أدب الرواية لم يكد يظهر إلا في عصرنا الحالي ، وتصور الشخصيات والأحداث المستقلة على نحو أكثر مباشرة من حياتنا العادية اليومية . وهو أمر لم تسمح به القواعد السابقة للرواية (١٧) .

Emma ; a Novel, Quarterly Review, October 1815

(١٢)

(١٣) المقال السابق

ان حكم سكوت الصائب كروائي ناقد جمع بين الرومانسية والواقعية في رواياته التاريخية
مكنه من تقدير مشكلة الروائي في عصره الذي تحرر من قيود المواضيع الرومانسية البعيدة
عن الواقع دون ان يتحرر من التقاليد الرومانسية في اسلوب الكتابة . ويقول سكوت بهذا الصدد :

ان الرواية الحديثة في ظهورها هي الطفل الشرعي للرواية الرومانسية ، وعلى الرغم من ان شكلها العام قد
تغير ليتناسب العصر الحديث ، الا ان المؤلف استمر مقيداً بكثير من العالم الخاصة بالرواية الرومانسية التي ظهرت
عند نشأتها (١٤) .

من الواضح ان سكوت يشير هنا الى المعالجة الفنية التي لا تتماشى مع موضوع الرواية
العصرية ، ويبدو هذا ايضا عندما يقول : « ويمكن متابعة (هذا الاسلوب) في تناول احداث الرواية
وتطورها ، وفي المناخ العاطفي المحيط بالشخص بالخصوص الرواية (١٥) » .

وان كان اسهام جين اوستن في تطور الرواية الحديثة يتلخص في التحرر من المواقف
والشخص والاحداث التقليدية كما جاءت في الرواية الرومانسية ، فان اسهام سكوت في نقدة
يرجع الى تعرفه على ما انجزته جين اوستن في كل من الموضوع والشكل الفني اللذين لا يفصل
بينهما . ويقول في هذا :

اننا لا ننسى لثاء هيليا على مؤلفة ما عندما نقول انها التزم القرب من الاحداث العادية والشخص العاديين . ومع
ذلك فقد انتجت صورا مبتكرة ذات حيوية الى درجة اننا لنشعر انها لتفكر الى الآلة التي تعتمد على سرد احداث
غير عادية ... ان احداث رواياتها مبنية على وقائع عادية لا تختلف عما تلح تحت اعين قارئة الناس . وتتصرف شخصياتها
نتيجة لدوافع وعلى اساس مبادئ يسهل على القارئ ان يتعرف عليها ، لانها نفس الدوافع والمبادئ التي تحكمهم
وتحكم قارئة اصغافهم (١٦) .

وعلى الرغم من جميع هذه المحاولات النقدية التي ترمي الى النهوض بالرواية الادبية فانها
لم تكن ذات اثر فعال . لقد بنيت على مناقشات جادة لبعض نواحي الادب الروائي مما يدل على
وعي الروائيين الرواد بمشاكلهم الفنية والشكلية، ولكن تقديمهم لم يفسح عنها باستفاضة ، ولا على
نحو منظم يمكن ان نستخلص منه مجموعة من الاسس النقدية المتكاملة . والى جانب هذا
فان دفاع الروائي عن ادبه وما يستحقه من احترام لم يأت بالنتيجة المرجوة .

استمر الهجوم على الرواية حتى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر على اساس
ان هدفها الواحد هو التسلية ، وان قراءة الروايات ليس الا نوعا من الادمان والانغماس في اللذة .
وليس في هذا ما يشير الدهشة ، لان الفكتوريين عرفوا بالتطورية والتزمت اللذين دفعا بكثير من
الآباء الى حرمان اولادهم من تلك « التسلية الخطرة » ، كما سمو قراءة الروايات . ومنهم
غير ذلك من الشروط العشوائية . وقد شبهت عادة قراءة الروايات نهارا بشرب الخمر في الصباح ،

من كان اقل صرامة فوضعوا قواعد لقراءة الرواية قبلوا لنا اليوم مضحكتها في شروطها . نكرم بعضهم قراءة الروايات صباحا او ايام الاحد ، وسمح بعضهم بقراءة والتر سكوت وجرم دوامس الى كما شبهت العادة عامة بالاقبال المفرط على الحلوى الذي كانت لها شروطها ايضا في البيت الفكتوري . وقد استلخدم كثير من الروائيين انفسهم هذين التشبيهين ، فقال **تسولوب** (١٨١٥ - ١٨٨٢) Trollope : « ان الناس يقرأ الروايات كما يأكل الرجال الفطائر بمسد العشاء والشعور يداخلهم بان المذاق في كل هذه الحالات زائل ان لم يكن ضارا » . و اشار لكتيري الى نفس المعنى عندما قال : « آه - تلك الروايات البديعة . كم اذكرها جيدا . انها حلوة ولذيذة مثل فطائر الفاكهة التي عرفتھا في صباي » . ومن عشاق الرواية في عهد فكتوريا هنري كراب روبنسون Henry Crabbe Robinson الذي لم يتقطع عنها طوال سبعين عاما . وقد عبر عن ايمانه في مذكراته بقوله :

« ان الرواية بالنسبة لي مثل الخمر بالنسبة للآخرين » . ويقال انه كان يقرأ الروايات دون تمييز بين الجيد منها والردى . وهذه هي علامة المدمن الحقيقي . وقد واصل القراءة حتى سن التسعين ، عندما اشار في مذكراته الى قراءته لرواية *Vanity Fair* (ولم تكن للمرة الاولى) وهو مستلق في الفراش ممسكا بشمعة لتتبر له الصفحات .

كان من الصعب اذا القضاء على النظرة الترفيفية المجردة للرواية التي اشترك فيها الروائيون انفسهم في بعض الاحيان ، وهي احدى الاسباب التي يرجع اليها تاخر تطور النقد الروائي . ومع ذلك فالاستمتاع بقراءة الروايات الذي وصل الى حد الادمان في كثير من الحالات ، وان كان عائقا في سبيل ظهور النقد الروائي ، يمثل في الواقع نقطة الارتكاز في هذا النقد . فالروائي ، كما قال **تسولوب** ، « غير مسموح له بان يبيع المال . ان كاتب القصص لا بد ان يدخل السرور على قرائه . والا فهو لا شيء » (١٧) وسأنده في هذا الرأي هنري جيمز الروائي والناقد الشهير ، وهو من اكثر كتاب الرواية وعيا بشكلها الفني ، عندما قال : « ان الشرط الوحيد المسبق الذي ينبغي على الرواية ان تتقديه هو اذرة اهتمام القارئ » (١٨) . وعندما يوضع ذلك الاهتمام تحت الدراسة الموضوعية في محاولة لتفسير ما الذي ادى في الرواية الى اذرة ذلك الاهتمام ، يولد النقد . ما الذي يدفع بالقارئ الى قراءة الرواية الواحدة عدة مرات بعد ان كشف عن تطور أحداث الرواية والعلاقات بين شخصوها ومصيرهم من زواج ووفاة الى غير ذلك ؟ ان مهمة النقد هي الاجابة على هذا السؤال .

ولكن قبل ان يتجه النقد الروائي الى هذه الدراسة الموضوعية التي تركز على تحليل وتقييم لشكل الرواية واسلوبها ، اتبع طريقا آخر تناول من خلاله الرواية من حيث اخلاقياتها ودورها

Autobiography, ch. XII.

(١٧)

The Art of Fiction (1884)

(١٨)

الفعال في المجتمع . وهذا اتجاه لا غرابة فيه متى تذكرنا تطهيرة الفكتوريين وقلعهم العميق من أي اثر ضار قد يلحق بمجتمعهم . وقد بلغ هذا القلق ذروته خلال الستينات واستمر حتى الثمانينات . ففي عام ١٨٦٦ ظهرت في دورية *London Quarterly Review* ، التي اشتهرت بميولها المتطهرة ، حملة ضد ما اعتبرتها روايات مشيرة كتبها **تشارلز ريد** (١٨١٤ - ١٨٨٤) **Charles Reade** و **ولكي كولينسر** (١٨٢٤ - ١٨٨٩) **Wilkie Collins** ، ومسل هنري وود **Mrs. Henry Wood** . ووصفتها بأنها نوع من « السم الخفي » الذي سيؤدي الى انهيار المجتمع . ويتضح من الاسلوب الذي اتبع في هذه الحملة التي لم يكن لها أي أساس من الصحة ، هبوط مستوى النقد الروائي والألا منطقية التي بنى عليها . فكان النقد يقفزون من اعتراضهم على لا أخلاقية رواية بالذات الى الحكم الشامل على طبيعة الرواية عامة وتأثيرها الفاسد على المجتمع .

وقد طبق كثير من النقد المحترفين مقياس الفائدة الأخلاقية للرواية على نحو أكثر تفاقولا . فاشاد بعضهم برقي مستوى الروائيين الأخلاقي وطهارة تعاليمهم الأخلاقية . وبذلك أصبحت الرواية في نظرهم أداة للتعليم ووسيلة لتصحيح الأوضاع الاجتماعية الفاسدة المحيية ، ولنشر الفضيلة . وتنعكس هذه النظرة المنفعية الى الرواية في السبعينات في الجدل الذي نشأ حول الرواية . وسرد المدافعون عنها أمثلة تثبت ان الرواية تعمق من تجربة القارئ ، وتعمل على احياء المثل الفاضلة ، « وتوفظ قليلا من البطولة وتعلم الفتيات « الاشارة والطيبة والركة » (١٩) . ولا تمتنع ، نفس الدورية ، من مهاجمة والتر سكوت لفشله ، كما تقول ، في تطوير الفائدة الأخلاقية التي رفعت الرواية الى مصاف الادب المحترم منذ ان كتب رواياته . وتعود مرة ثانية الى وصف رواياته بأنها روايات تسلية لا أكثر ولا أقل ، متسائلة كيف يتأتى لثل هذا الكاتب بما له من نبوغ وقوة وإمكانات ان يسقط من حسابه اهدافا عظيمة تتفتى مع ما حباه الله به ، وتنتهي بالسؤال : « اليس هناك قضية واحدة حية تستحق الدفاع ؟ » (٢٠)

وبذلك كانت معاناة الرواية ، في نهاية المطاف ، من اصدائها الأخلاقيين المنفعيين لا تقل عن معاناتها من اعدائها الأخلاقيين المتطهرين . ففي كلتا الحالتين لم يثر موقفهما عن الاعتراف بالرواية كشكل أدبي له كيانه واستقلاله الذاتي .

ومع ذلك فقد تقدم النقد الروائي على أيديهما نتيجة لا تفاقهما على تقييم الرواية على أساس تأثيرها المنفرد على خيال القارئ ومشاعره . وفي مقال نشر صمام ١٨٦٦ في *Saturday Review* أشار الكاتب الى هذا التأثير غير المباشر الذي اعتبره أعظم ما تتصف به الرواية فيما يتعلق بغايتها العملية ، ويرجع الى الصلة الوثيقة بين « خيال الإنسان المسرحي »

“The Uses of Fiction”, *Tinsley's Magazine* (1870), vi.

(١٩)

The Scott Centenary (١٨٧١ - ١٨٧٢)

(٢٠) نفس المرجع ،

ومجمل طبيعته الاخلاقية . ويعطي هذا النوع غير المباشر من الفائدة العملية لكل من الروائي والناقد النظري مجالاً اوسع للعمل مما يعطيه النوع الاخر من الفائدة العملية المباشرة . وهذا النوع السابق هو الذي اعتمدت عليه جورج اليوت في تبرير اهمية عمل الروائي وجديته . وجاء فيما قالته :

ان اعظم فائدة لدين بها للفنان ، سواء كان رساما ام شاعرا ام دوائيا هو تأثيره على اتساع دائرة مشاهرينا وتماخضنا ... ان الفن هو الرب شبه للحياة ، وهو وسيلة لتوسيع حلقة تجاربنا ، ولكد صلاتنا ببني البشر خارج حدود حياتنا الشطمية (٢١) .

ويتبين من هذه الفقرة ان جورج اليوت ، مثل جميع الفكتوريين العظام ، كانت تنظر الى دورها كمعلم او مؤثر على فكر الناس ومشاعرهم نظرة جادة ، كما تؤمن بمسئولية الكاتب الكبيرة وقداسته عمله .

وقد ادى الاعتراف باهمية الدور الذي يلعبه الروائي في حياة الانسان والمجتمع الى تأكيد جديد في النقد الروائي لاعلى اثر الرواية في السمو بالاخلاق ، ولكن على النواحي الفكرية والابداعية في الرواية . وفي مقال ظهر في *British Quarterly* عام ١٨٦٧ ارتفع الكاتب بالمقاييس الفنية التي تتطلبها الرواية ، واضفى ثناء على الرواية لشمولها واحتوائها على الادوار المتعددة التي تؤديها ككل من الملحمة والمسرحية والشعر الغنائي . ويتساءل الكاتب « ما الذي لا يستطيع الروائي عمله ؟ » ان اسعى الحقائق في نظره - وهنا يميز وبين مجرد الدرس الاخلاقي والوعظة - يمكن التوصل اليها من طريق الرواية ، وخاصة اذا كانت جورج اليوت هي كاتبة الرواية التي يقارن الكاتب بينها وبين جوته *Goethe* من حيث نظرتها الجدية وسمو مبادئها .

وتختلف جورج اليوت عن كثير من معاصريها في مفهومها للنظرية الاخلاقية للرواية ، فهي تعتمد في تأثيرها على القارئ لا على الموعظة المباشرة (وان كانت رواياتها تحوى كثيرا من هذه المواقف) ولكن على التأثير الخفي لا سلوبها في الكتابة الذي تخاطب به مشاعر القارئ وعقله وحواسه كاتسان متكامل لا يمكن الفصل بين عناصر انسانيته المتعددة . وتقول جورج اليوت في هذا الصدد مؤكداً العامل الجمالي في رواياتها لا العامل المذهبى المباشر :

ان مهمتي هي مهمة المعلم الجمالي لا المعلم اللهبي ، وهي تهدف الى احياء الابل المشاعر التي تدفع بالانسان الى الرغبة في العدل الاجتماعى ، ولا تهدف الى وصف الخطوات العملية اللازمة للصدقة التي قلما يستطيع طفل الفنان العلم عليها مهما حركه تماطفه الاجتماعى (٢٢) .

اصبحت القضية هنا قضية فنية جمالية ، وليست قضية تلقينية هادفة مباشرة ، كما اصبح الشكل الجمالى او الفنى اساسا في تصوير الرؤية الاخلاقية الشاملة . اى ان الشكل الفنى في سبيله الى الارتفاع الى نفس مستوى اهمية الموضوع ، او على الوجه الاصح اهمية الرؤية .

"The Natural History of German life", *Westminster Review*, (1856), X (٢١)
Letter, edit G. S. Haight, 1954-5, vii p. 44

وهنا اعتراف صريح بالدور الفني والشكلي للرواية الذي لم يتنبه اليه النقاد في غمرة دفاعهم عن اخلاقيات الرواية المتعلقة بالموضوع .

ولعل جورج اليوت في الرواية هو من اجود واقدر ما كتب في هذا المجال في العصر الفكتوري . ونظريتها - ان صح تسمية تعليقاتها المتفرقة بنظرية - مبنية على الاسلوب الواقعي الذي نادت به ، ودافعت عنه ، وطبقته عمليا منذ اول رواية نشرت لها . وقد اتخذت الالتصاق بالواقع القيد الوحيد للرواية ، وهاجمت في نقدها ، مستندة الى هذا المبدأ البسيط الروايات التي حادت عنه . فالمبالغة والتقاليد الادبية البالية ، وكل ما يمكن وصفه بالتصنع الادبي لاقى منها نقدا لاذعا . وقد نشرت تعليقاتها ومقالاتها في دوريسى ليدر Leader ووستمنستر Westminster في خمسينات القرن الماضى . واهم ما كتبه في هذا الصدد مقال بعنوان : « التاريخ الطبيعى للحياة الانسانية » " The Natural History of German Life " « روايات تافهة لنساء روائيات » " Silly Novels by Lady Novelists " وفي الفصل السابع عشر لرواية آدم بيد (١٨٥٩) Adam Bede شرحت نظريتها الواقعية موضحة البساطة والقوة اللتين بنت عليهما رايها في تصوير الحياة ، وقالت :

وبذلك فلنا راضية ان احكى قصتي البسيطة دون ان احاول تصوير الاشياء على نحو الفصل مما هي عليه فى الواقع . انا لا اخشى شيئا بالتأكيد الا عدم توخي الصدق ، فهذا رغم اني ما نبذه من جهد شره يخشى منه . ان البعد عن الحقيقة سهل والصدق صعب . ولي صلة الصدق الرفيعة الثابتة هذه ، التي تصطب بها صوري الواقعية ، والتي يحتكرها اصحاب النفوس التمثالية ، في هذه الصنعة اجد متعة كبيرة .

ان الاحترام ، بل والتقدير ، اللذين تميز بهما جورج اليوت في نظرتها الى انتاجها الروائي ساعدا في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر على قيام حركة في مجالى الرواية والنقد الروائى اساسها الجديدة والفكر والعقلانية . واصبح روائيون من امثال جورج ميريدث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) George Meredith وجورج مور (١٨٥٢ - ١٩٣٢) George Moore وجورج جيسنج (١٨٥٧ - ١٩٠٣) George Gissing و توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) Thomas Hardy تقطعة التقاء عاصف وجدال مستمر حول الرواية الادبية ، وما يجب ان تكون عليه . فكان راي ميريدث انها يجب ان تتضمن « فلسفة » و « فكا » و « فكرة » بدلا من ان تكون قابلا لاخلاقيات الطبقة المتوسطة ووسيلة لقتل الوقت . واتخذ جورج مور نفس الموقف مهاجما معاصريه عندما قال غاضبا : « ان اهتمامى لا يتجه نحو اولئك الذين ينظرون الى الادب وكأنه نوع آخر من رياضة ركوب الدراجات » (٢٣) . واصبح « الضمير الفنى » المصطلح الذي تعارف عليه الروائيون النقاد في حريمهم لرفع المستوى الفنى للرواية ووضعه في المرتبة الاولى قبل اى اعتبار آخر . وكان يخشى عليه ، كما حدث في العصور السابقة ، من انتشار الرواية الرخيصة الشعبية واكتساحها السوق في اعقاب قوانين التعليم الجديدة التي استولت عددا كبيرا من المواطنين ، تعلموا القراءة والكتابة دون ان يحصلوا على اية ثقافة .

وكان جورج جيسنج من الروائيين النقاد الذين بهروا بإنجازات الروائيين الفرنسيين والروسين ، الذين اقتصت أعمالهم بلدك « الضمير الفني » الحى الذى وضع الادب فوق اى اعتبار مادى ، مالا كان ام شهرة . وقارن جيسنج بين الرواية الفرنسية والروسية من ناحية وبين الرواية الانجليزية من ناحية اخرى ، فقال :

ان الروايات الانجليزية مادة بالسة بسبب بالى جدا ، وهو ان الروائيين الانجليز يخشون من انجاز احسن ما لى مقدورهم لخوفهم من يفر ذلك بشعبيتهم ، ومن ثم بدخلهم... فليكن الروائيون صادقين مع ضمائرهم الفنية وسيستبهم الدوق الجاهلى فيما بعد (٢٤) .

ساعد موقف الروائيين النقاد من الرواية في الربع الاخر القرن التاسع عشر على الانتباه الى الشكل الروائي ومناقشة جمالياته . وكانت هذه آخر مرحلة من مراحل تطور النقد الروائي في القرن المائسى واصعبها ، كما يبدو من تخطي النقد وتردهم ، وعدم توصليهم الى ايسط المبادئ التى يمكن الاستناد اليها .

فانكرت فيرنون لى Vernon Lee الرواية التى عكفت على دراسة البناء الروائي ، جماليات الرواية . ان الرواية في نظرها ، متى قورنت بفن التصوير او الموسيقى ، ليست الا نصف فن . ففى تفتقر الى الوسيلة التى يمكن بواسطتها ان تحول موضوعها ذا الاهتمامات الانسانية الاخلاقية الى تلك الانطباعات الحسية التى منها يتألف كل ما هو جميل . ان جاذبية الرواية في نظرها غير جمالية ، بل تستند الى ميلنا المنطقى نحو النقاش والجدل واكتساب معرفة بالحية ، والاثارة العاطفية ، والشعور بالرضا الذى تدخلة علينا نماذج مركبة من الكلمات . وهذا العنصر الاخير هو الوحيد الذى يمكن اطلاق مصطلح « الشكل » عليه وهو عنصر ، كما تدعى فيرنون لى ، تستطيع الرواية الاستغناء عنه (٢٥) .

وظهرت نفس السلبية فيما قاله **جورج بارنيت سميث** George Barnett Smith عام ١٨٧٤ حين بناء الرواية . فيمد ان اثنى ثناء عظيما على فيلدنج واعماله الروائية ، قال :

ان تحظى الرواية ابدا بمكانة نوازى في اهميتها مكانة المسرحية بسبب الصوب فى بنائها (٢٦) .

ورفع سميث ، كما وقع كثير من معاصريه ، فى نفس الخطأ الناجم عن الاعتقاد بانه يمكن الحكم على بناء الرواية المتفكك بالاستناد الى مقاييس تنتمى الى شكل ادبى آخر مثل المسرحية ، لا الى مقاييس تناسب اهداف الرواية .

(٢٤) "The New consorship of literature", letter to the Pall Mall Gazette, XI, (December 1884)

(٢٥) "The Aesthetics of the Novel", Literature, (1899), V 98-100.

(٢٦) "Our First Great Novelist" Macmillan's Magazine, xxx (1874), 1.

وعلى العكس من ذلك اعتبر آخرون مرونة الرواية واحدة من مزاياها الجمالية . فقال احد المعلقين على الرواية :

ان الرواية من بين جميع الاشكال الادبية هي الشكل الوحيد الذى يستطيع ان يعبر بسهولة مطلقة عن كل عاطلة يمكن تصويرها (٢٧) .

غير انه صاد ثانية واعترف بمخاطر هذه المرونة فى البناء الروائي .

والهم فى كل هذا ، سواء اجاءت التعليقات النقدية على الشكل الروائي ايجابية ام سلبية ، هو بدء ظهور الوعى بالناحية الجمالية للرواية ومناقشتها . وقد صاحب هذا الاتجاه الجديد فى اواخر القرن التاسع عشر ازدياد الوعى الفنى عند الروائيين انفسهم الذين وقعوا تحت تأثير فلوير (١٨٢١ - ١٨٨٠) Flaubert الروائى الفرنسى الذى ساعد اهتمامه بالشكل الفنى للرواية على تطوير الرواية الحديثة ، كما ساعد على النهوض بالرواية عامة لما ابداه من جدية فى معالجته اياها .

ونتيجة لهذا ، اخذ النقاد الروائيون بالدلتا فى اواخر القرن ، يعبرون عن حماسهم المتزايد للرواية وعن تقمهم فيها ، متخذين من الرواية الفرنسية مثلاً يحتذى لرعاة الفن . فى احدى المقالات الهامة التى ظهرت عام ١٨٨٤ بعنوان « فن الرواية » « The Art of Fiction » . اكد والتر بيوانت (١٨٣٦ - ١٩٠١) Walter Besant الروائى الانجليزى ، ان الرواية قرين تام لاشكال الفنون الاخرى ، محكمة مثلها بقوانين دقيقة يمكن ان تلقن كما تلقن قوانين الهارموني فى الموسيقى . وعندما نصل الى عام ١٨٩٠ نجد ان النقاش والجدال قد ازداد حول اهداف الرواية واساليبها ومبادئها ، حتى اصبحت ظاهرة من ظواهر الدوائر الادبية . وانصب هذا الجدل حول جانبي الشكل والموضوع ، وكان لكل منهما انصاره . فاصبحت الرواية محور اهتمام عدد من النقاد اعتبروها الان شكلاً ادبياً يستحق الدراسة .



كان الوقت قد حان لظهور ناقد يستطيع ان يجمع الخيوط المفككة فى شكل مترابط . وآلت هذه المهمة الى الروائى هنرى جيمز الامريكى الاصل الذى عاش معظم حياته الادبية فى انجلترا وتجنس بالجنسية البريطانية . وقد ارتفع جيمز الى مصاف الروائيين العظام كما اصبح رائد النقد الروائى فى العصر الحديث .

كانت الثورة فى النقد الروائى التى قامت على اكتشاف جيمز مفاجئة وساحقة وكاملة . ففي عام ١٨٨٤ جاء على لسان جيمز ، وهو ما زال فى منتصف العمر ، ان الرواية الانجليزية ليست

موضوعاً « للدراسة » (٢٨) ، وعبر عن اسفه العميق لافتقارها الى النقد لاهميته في تطور الادب . وبعد عشرين عاماً ، كان جيمز قد درس الرواية وحلها بدقته لم يسبق لها مثيل في مقدماته الثماني عشرة التي كتبها لطبعة نيويورك لرواياته وقصصه « (١٩٠٧ - ١٩٠٩) . ولعلنا لا نخطيء اذا ما قلنا انه ليس هناك في تاريخ النقد ثورة في مثل شمول الثورة التي ادت الى **مقدمات جيمز** . وينفرد النقد الروائي في هذه الظاهرة المفاجئة ، يعكس النقد الشعري الذي نما وتطور في انجلترا ببطء وصعوبة طوال ثلاثة قرون منذ ايام الشاعر درايدن . واذا ما استثنينا المحاولات الراهنة المتفرقة التي سبق ان ذكرناها ، فاننا ان تكون مخطئين كل الخطأ اذا قلنا ان النقد الروائي في اواخر القرن التاسع عشر في انجلترا ولد من لا شيء . وايا كانت الاهمية التي نضعها على نقد جورج اليوت وزميلها جورج هنري لويس George Henry Lewes فمن الواضح لنا اليوم كما كان واضحاً لجيمز انها كتبت دون استناد الى مبادئ فنية مولوفة بها ، بدون التأكد من ان الجمهور القارئ يتمتع بنفس الثقة في الرواية . اما في حالة جيمز ، ففي استطاعتنا ان نقول انه لاول مرة منذ ايام فيلدنج ، الرائد الاول في النقد الروائي ، يتحدث روائي عن فنه بمعرفة وليقة ، كما يكتب عن اعمال غيره من الروائيين بنفس الاسلوب الواثق .

ان نشر **مذكرات Note books** جيمز عن رواياته عام ١٩٤٧ اثبت بما لا يدع مجالاً للشك ان جيمز كان فناناً ذا وهي عميق استطاع ان يعبر عنه منذ البداية . فمن سن الخامسة والثلاثين حتى وفاته لم يتوقف عن شرح الاسباب والظروف التي دعت الى اختيار موضوعات الباطن ، موضحاً في **مذكراته** نواة رواياته ، والخطوات التي مرت بها ، وكيفية تطورها . ان كل رواية من روايات جيمز وكل قصة من قصصه ظهرت الى الوجود بلادة واعية افصح عنها الكاتب باسهاب لا يكاد يكون له نظير في تاريخ الرواية . في هذه **المذكرات** اذا ، التي بدأ جيمز يكتبها عام ١٨٧٨ ولد النقد الروائي كما نعرفه اليوم . اما **مقدمات** رواياته الثماني عشرة التي كتبها في نهاية حياته الادبية فهي تتوج لجميع انجازاته . ويجب ان نشير هنا الى ان الاعتقاد السائد بان النقد كثيراً ما ينشأ نتيجة لفشل الكاتب في اعماله الخلافة لا ينطبق اطلاقاً على جيمز ، حيث نجد التوهم الثامن من النقد والخلق . وبلا حظ ايضاً ان جيمز لم يكتب معتبراً او مدافعاً عن بعض او كل ما جاء في عماله . ان مجموع تقده يتصف بطابع الثقة المتواضعة ، كما يتصف باحترام الكاتب العميق لذلك النموذج الذي لا بد ان يكتب كل عمل ادبي خلاق .

واذا ما تركنا **مذكرات** جيمز جانباً لاختلافها العام عن بقية تقده من حيث هي توضيح وتفسير لعملية الابداع عنده ، فان تقده يقع في ثلاث مراحل يتناول الناقد غيرها كتاباً معاصرين له وفالبيتهم من الروائيين الانجليز والفرنسيين والامريكيين . وتنطى المرحلة الاولى مقالاته المنشورة ابتداء من سن الواحدة والعشرين في مجلة Nation وغيرها . وهي تعليقات على كتب من مختلف الانواع ، من

بينها مقال (١٨٠٥) هاجم فيه رواية **صديقنا المشترك** (١٨٦٥) **Our Mutual Friend** لتشارلز ديكنز . اما المرحلة الثانية فهي تلك الفترة الوسيطة المثمرة التي بدأت بنشر مقال (فن الرواية » (١٨٨٤) " **The Art of Fiction** " ، وهو تعليق على محاضرة والتر ييزانت المنشورة تحت نفس العنوان ، وبيان في نظرية الرواية . ثم تلته مقالاته الهامة عن الروائيين **تورلوب** (١٨٨٣) و **ستيفنس** (١٨٨٨) و **موباسان** (١٨٨٨) **Maupassant** و **زولا** (١٩٠٣) **Zola** و **بلزاك** (١٩٠٥) **Balzac** ويمكن ان نضيف الى هذه المقالات مقالة عن **هوثورن** (١٨٧٩) **Hawthorne** اعطى فيه الروائي الامريكي حقه في الشاء كاملا ، ثم مقالة عن **كونراد** **Conard** و **آرنولد بينيت** **Arnold Bennett** و **هيو والبول** **Hugh Walpole** بعنوان « جيل الشباب » " **The younger Generation** " ، واخيرا تجيء المرحلة الثالثة التي ظهرت خلالها **مقدماته** (١٩٠٧ - ١٩٠٩) التي تتضمن مجموع ما جاء في نقده الروائي ، وتمثل عمق وفضى اهتماماته النظرية في النقد . واعتبر جيمز هذه **المقدمات** في مجموعها مرشدا لمن يصبوا الى مهنة الرواية الشاقة ، كما سماها . ولا يمكن ان ننكر ان هذه الاشادات لا تتبع نظاما معيناً ، فكل رواية وكل قصة كانت تطرح اسئلة نقدية خاصة بها لا تنطبق على غيرها ، ولا تستند الى خطة واضحة الهدف . ومع ذلك فمجموع ما جاء فيها ذو طابع متنوع تشمل جوانبه العديدة اهم اوجه النقد الروائي عند جيمز .

وكان جيمز في هدفه طموحا ، فرمى الى خلق تقليد انجليزى في النقد الروائي من لاشيء . وكان مصيبا في شكواه من افتقار الرواية الى النقد عندما قال :

كان الاعتقاد السائد الى وقت قريب على ما يبدو ، هوان الرواية الانجليزية ليست على حد قول الفرنسيين مجالا للدراسة . ولم يبد عليها انها تستند الى نظرية او اقتناع او هي بنفسها ، او انها تعبير عن عقيدة فنية نتيجة اختبار ومقارنة ... لقد كان هناك شعور عام مريب منبسط . بان الرواية هي رواية كما ان « **البونج** » هو **بونج** (٢٩) ، وان مهمتنا الوحيدة هي ان نبتلعها . (٣٠)

وقد سبق ان لاحظ جيمز في مقاله عن **تورلوب** ان « **من المظنونة** بمكان » في انجلترا « ان يكون المرء قناتنا صريحا او واهيا ، اوان يتبع نظاما او مذهبا » . وقد اخذ جيمز على عاتقه مهمة اصلاح الوضع بان جعل الرواية الانجليزية موضع « **الدراسة** » الجادة لأول مرة تقريبا في تاريخها الطويل .

واساسا النقد عند جيمز هو التعاطف والتوحيد بين الناقد والمعمل الادبي . ويعرف النقد بانه « **مبدأ تفهم الاشياء** » ومهمته « **الالاحاح في المطالبة بحاجة جميع الاشياء الى التفهم** » (٣١) . ولا فائدة من ان يضجر الناقد من موضوع المؤلف ، كما سبق ان حدث مع المتطهرين والنقميين ، لان

(٢٩) « **البونج** » نوع من الحلوى المائسة الشكل ويتصداستعمال الكلمة هنا النقاد الرواية الى الشكل المحدود .

" **The Art of Fiction** "

(٣٠)

Views & Reviews, (1908), 94

(٣١)

الموضوع هبةً تعطي عن طريق مؤثرات وعمليات في نهايتها غامضة . واهتمامات الناقد يجب ان تنصب على المعالجة الادبية التي لا يستطيع ان يلم بها الا « بالانغماس في عمقوية الكتاب ، وتبع خطاه ، والتعرف على كنهه » (٣٢) . ومع ان جيمز في مقدماته كان في وضع يحسده عليه النقاد من حيث انه كان يلعب دور الناقد لأعماله الخلاقه، وبذلك كان ناقداً مكتمل المعلومات عما يكتب ، فانه كان يلعب دور القارئ ايضا الذي تفوته اشياء كثيرة ، وخاصة فيما يتعلق بالأعمال التي انتجها منذ زمن بعيد . ولذلك فعندما تناول رواياته اقرب منها في تواضع الناقد الذي لا يستطيع مهما حاول ان يتعرف على كل ما يكنه الممثل الخلاق . فكان مثلاً للناقد المثالي كما تصوره جيمز، الذي عليه ان يقبل حدود معلوماته ونقائص قدراته عندما يقف وجها لوجه امام السر الفاض الذي يكتنف كل عمل ابداعي . ان الناقد المحترف يستطيع ان يتعلم الكثير من موقف جيمز من العمل الفني ، واهترافه باستحالة التوصل الى كل الحقائق التي تؤول في نهاية الامر الى ما نسميه فنا . وقد عبر جيمز عن هذا بقوله :

ان التاريخ الخاص لأي عمل مخلص مهما كان متوافعا ، يبين في مجمله على جو الرواية الفني العاطف بالغموض ، مما يفسى وقارا على العمل (٣٣) .

ويقول ايضا :

ان السطح الغمور هنا وهناك يرفض الاستجابة ، بلاشك ، فالاسرار والنوايا الخفية مدفونة الى درجة لا تسمح لها بالظهور ثانية (٣٤) .

وفي موقف جيمز هذا بعض الشبه بنظريات النقاد المحدثين الذين يؤكدون عدم جدوى تتبع نوايا الكاتب . ولكن الشبه لا يعدو كونه سطحيًا ، اذ ان جيمز يملك من البصيرة ما يمنعه من القول بان الاستحالة تعني عدم المحاولة . ان جيمز يعلم تماما انه ليس هناك نقد مهما تعمق ، يستطيع ان « يستحوذ ذهنيًا » على العمل الفني . واما النقد انواع ، فمنه ما يقترب قليلا من العمل ، ومنه ما يبعد عنه كلية .

وقد كتب جيمز قصة قصيرة في موضوع الكاتب والناقد بعنوان **الصورة في السجاد** (١٨٩٦) *The Figure in the Carpet* . ويشير العنوان الى السر المدفون في العمل الفني الذي ينبغي على الناقد والقارئ ان يكتشفاه . ويلاحظ ان السخرية في القصة لا تصدر ، كما ظن البعض ، عن الاعتقاد بان سر « فيريكر » ، الكاتب الابداعي ، لا يستحق الاكتشاف ، ولكنها تصدر عن خطأ لاعتقاد بان هذا السر يمكن التوصل اليه دون اللجوء الى قراءة متعمقة ومتفهمة للعمل الادبي نفسه . وكل محاولة لاكتشاف سر « فيريكر » الكاتب العبقري الذي يموت حاملا معه هذا السر الى القبر ، كما تظن شخصو القصة ، كل محاولة جديدة تلقي بالباحث بعيدا عن الجواب ، لانه يعتمد في بحثه

(٣٢) "Notes on Novelists with Some other Notes" (1914), 259.

(٣٣) "The Art of the Novel", edited by R. P. Blackmur (1934), 4.

(٣٤) المرجع السابق . ص ١١ .

على الآخرين وليس على « تحليل دقيق مبني على التقدير » للأعمال الإبداعية ذاتها . والقصة تعبير عن احتياج جيمز على افتقار انجلترا الى التقدير الروائي الجاد ، وعلى « جمود الحسن العام » فيما يتعلق بالرواية . وقد لخص هذا في قوله :

« ان ما نسميه نقداً بعيد من الاحساس بحقيقة الاشياء » (٣٥) .

ويرى جيمز في هذه القصة الى الارتقاء بالرواية الى مكانة الفن الرفيع المركب الذي يصعب على الناقد ان يحلل جميع تركيباته ، وان يستخلص منه بالتجريد رؤية الكاتب او « الصورة في السجاد » ، كما سماها جيمز في قصته . فجوهر العمل الخلاق سر غامض لا يمكن الاستمتاع به وتقييمه ، الا عن طريق القراءة المتعاطفة . ويعني هذا ان مهمة الناقد شاقة . فيجب ان يتصف بالقدرة على النظرة المركبة والاحساس المرفه ، وعلى بذل كل مشاعره وانتباهه . ان النقد عند جيمز هو « آخر الفنون واكثرها تركيباً ، آخر ما يؤهل له الانسان ، وآخر ما يصل اليه . وهو اكثر الفنون حاجة الى النضوج والفهم والمقارنة » (٣٦) .

وجيمز في نظرية الرواية التي تناولها في مقاله « فن الرواية » يصوغ بعض العبارات المحددة في مفهوم الرواية والرؤية الروائية التي ينفرد بها هذا الشكل الادبي ، كما يوضح نقائضها ومزاياها التي لا جدال فيها . ونقطة الابتداء عنده ، كما كانت عند فيلدنج وجين اوستن وجورج البوت ، هي تصوير الرواية للحياة . فيقول :

ان السبب الوحيد لوجود الرواية هو انها تحاول تصوير الحياة . ومتى اقلت هذه المحاولة جانباً ... تكون قد وصلت الى وضع غريب منها (٣٧) .

ويقول في مكان آخر : « ان الرواية تتصف بالشمول والعمق في مطابقتها الرائعة للحياة » . (٣٨) وهناك فقرات عديدة في نقد جيمز تشير عامة الى تقبله للأسلوب الواقعي واعجابه بكتاب هذا الأسلوب من الروائيين العظام من امثال بلزاك وفلوبير وموباسان ودودييه وجورج البوت وتورجينييف . وبينما يعبر عن استيائه من أسلوب جورج صاند (٣٩) (١٨٠٤ - ١٨٧٦) George Sand لافتقاره الى « الدقة » - اي أسلوب الحقيقة ، فانه يثنى على « الدقة » في تصوير التفاصيل « الى حد التشبيح » في روايات بلزاك وفلوبير .

وعلى الرغم من تأكيد جيمز لعلاقة الرواية بالواقع فانه لا يخلط بينهما . فالرواية ليست مرآة ولا هي محاكاة للحياة بالمعنى الضيق لان الفن ، في نظر جيمز ، لا يمكن ان يكون مجرد

(٣٥) المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

(٣٦) "The Art of Fiction".

(٣٧) "The Art of Fiction"

(٣٨) Partial Portraits (1888), 378.

(٣٩) French poets & Novelists (1878)

« شريحة من الحياة » كما ادعى زولا . بل الروايات مخترعات من الحياة ، يحورها الروائي ويشكلها ويخلقها من جديد . والاختيار ضروري لان الحياة كلها شمول وقوضى ، والفن كله تمييز واختيار » (٤٠) .

وقد شبه جيمز الفن بالفاعل الكيميائي الذي يصهر مواد الحياة حتى تظهر في قالب جديد لتؤدي عملها . واستخدم نفس الصورة في وصفه للفنان عندما قال : « انه الكيميائي Alchemist الحديث الذي يبعث اللحم القديم في البحث عن سر الحياة » (٤١) .

الرواية اذا تعطى القارئ صورة واهمة بالحياة ، ويكون نجاحها بالقدر الذي يستطيع الروائي بأسلوبه اقناع القارئ بهذه الصورة وهنا تظهر مشكلة الصدق الفني التي شغلت بال جيمز كما كانت موضع اهتمام جورج اليوت التي اكتشف في رواياتها « ذلك الدليل القوي الكامن بالصدق » (٤٢) . نجيمز احتار في تحديد ما كان يعنيه بالصدق والحقيقة فيما يتعلق بالأسلوب الواقعي . ولم يستطع « تثبيت » درجة الواقع الذي يتطلبه العمل الفني ، ووجد صعوبة في قبول شخصيات خيالية مثل دون كيشوت ومسترميكوبه لان « حقيقتهما » كما قال « مسألة في غاية الدقة ، مصبوغة برؤية الروائيين الى درجة تتردد معها في تقديمها كنموذج يحتذى . مهما وضحت معالم الشخصيتين وحيث » (٤٣) . واتخذ جيمز موقفا مماثلا خيال رواية ديكنز **صديقنا المشترك** ، فقال عنها انها تحفل بشخص ممسوخة تثير الضحك ، مشوهة في مظهرها ومسلكها دون سبب مقنع ، الى درجة قضت على انسانيتهن .

فالواقع اذا ذو اهمية اساسية في الرواية ، ولكن ليس من السهل اعطاء الفكرة واضحة ووصف كامل لما يعنيه الواقع ، كما يتضح من قول جيمز :

لا جدال في انك لن تستطيع ان تكتب رواية جيدة الا اذا كان لديك الاحساس بالواقع ، ولكن من الصعب ان اعطيك وصفا لمصطلح للعناصر التي تعمل على خلق هذا الاحساس . ان الاساليب شائعة والواقع ذو اشكال لا حدود لها (٤٤) .

وهنا يتساءل جيمز لماذا يحاول الروائي ان يخلق صورة « واهمة بالحياة » ؟ وماهى وظيفة الفن ؟ والسؤالان متداخلان والاجابة عليهما تكاد تكون واحدة . ووظيفة الرواية في نظر جيمز هي اعطاء القارئ « عالما آخر » ، تجربة تشبه في مفعولها الاثر الذي يستلزمه طبيب الانسان ، فكلاهما يسكن من « آلام الواقع » . وبصيف جيمز : « ان مآثره طبعاً هو واقع آخر ، واقع اشخاص آخرين ، ويتوقف ما نراه على القدر الذي تحتويه الصورة من الحياة » (٤٥) . غير ان جيمز لا يدعى انه يعرف كنه هذا الشعور بالسكون ولتخفيف من الآلام الناتج عن قراءة

“The Art of Fiction”	(٤٠)
Notes on Novelists, 275	(٤١)
Views & Reviews, 4.	(٤٢)
“The Art of Fiction”	(٤٣)
الترجع السابق	(٤٤)
Notes on Novelists, 436	(٤٥)

تجارب الآخرين في الرواية . وكل ما توصل اليه ملاحظته هو اننا بعد القراءة نعود الى واقعنا ، وقد ازدادنا قوة وصلابة . وتبين ان الروائي الذي يسمح لنا بان « نحيا حياة الآخرين » لا يعمق من تجاربنا فحسب ، بل كذلك رؤية جديدة للحياة ومعرفة صادقة بانفسنا . اننا نشارك في رؤية الروائي ونتشكل . وفي هذا الرأي امتداد وتطور لنظرية جورج اليوت في الواقع والصدق الروائي وتأثيرهما الخفي على القارئ .

ان الرواية تستطيع ان تكشف للقارئ عن حقائق نفسه وعالمه بنسبة اكثر من اشكال اخرى فنية في نظر جيمز . فالروائي ، كما يقول جيمز ، يمكن القارئ من ان يختار ويتقارن ويفهم ، حتى يصل في نهاية المطاف الى نوع من التكامل الذي لا ينتمى الى الوضاعة والتناقض مهما كانت سطحيته وفغراته « (٤٦) » . وهذا التكامل الذي يعتبره جيمز الرايما من آثار الرواية يفترض مسبقا الشمول في هذا الادب والابتعاد عن النظرة الجزئية للواقع . فعلى الروائي ان يعبر من خلال ادبه عن كل نواحيه الانسانية . وهنا يجد جيمز مكانا للاخلاقيات والضمير في نظريته ومقاييسه الادبية . ويرى على هذا الاساس ان الرواية يجب ان تكون عملا وصفا محليا ، مجرد صورة للسطحيات . بل يجب ان يكون لروح الانسان وجوهه مكان في الرواية خليق به حتى لا يظهر مجزا معززا بل متكامل روحيا وعقليا وجسميا .

وينتقل جيمز بطبيعة الحال من هذه الفكرة الى تناول موضوع العلاقة بين الرجل والمرأة في الرواية فغير من اعتراضه على الرقابة المستترة في انجلترا تلك التي حرمت على الروائي معالجة نواحي هامة من الحياة ، كما عبر عن اسفه للقيود التي وضعتها الميول المتطرفة والاحتشام المتكلف في ذلك الوقت على العمل الروائي . ونادى جيمز بضرورة التحرر من هذه المواقف للرواية في سعيها نحو الرؤية المتكاملة .

ولكن لم يطل دفاع جيمز عن فكرة التحرر هذه التي استلهمها من الروائيين الفرنسيين وترجع هذا نتيجة تطوره هو ونفوره من الناحية الفيزيائية في الانسان ، واقباله على الناحيتين الروحية والاخلاقية ، اي ما اعتبرهما اكثر انسانية وشمولا . وقد وجد ، وايه ، ان غالبية الروائيين الفرنسيين يفتخرون الى الرؤية الاخلاقية . فهم على حد قول اساتذة في الفن والشكل ، وفي تصويرهم لسطحيات الحياة : الاحساسات والنرائز والרגبات ، ولكن ينقصهم تصوير « الشخصية في حركتها ، وامكانيات سلوكها ، والدور الذي تلعبه الفكرة في الحياة . . وعندما يضعون ايديهم على حياة الانسان الروحية تتبدد مهارتهم » (٤٧) . ويقارن جيمز مقارنة فاصلة على هذا الاساس بين الروائيين الانجليز والفرنسيين .

فالانجليز ، في نظره ، كتاب تملأ كتاباتهم العيوب ، وينقصها الشكل ، ويميلون الى معالجة الامور معالجة نفسية اخلاقية باحتشام متكلف . اما الفرنسيون فهم اساتذة فضح لا اخلاقيون في تصوير سطح الحياة . وكان جيمز يرمى الى تحقيق التوافق بين الميول الانجليزية والفرنسية

في الرواية بكتابة الرواية النفسية الاخلاقية ذات الشكل الفني المتناسق ، اى الجمع بين المعنى الاخلاقي والناحية الجمالية .

ورأى جيمز ان مثل هذا التكامل امر شخصي محض وثيق الصلة بالعقل الذى يصدر منه . وقال في هذا الصدد :

ان اعظم ما يسفر عنه العمل الفني هو عمق العقل الذى اتجه ... فالرواية الجيدة ان تصدر ابدا من عقل سطحي . هذه حقيقة نظمي ، بالنسبة للفنان ، المي الاخلاقي الذى يحتاجه (٢٨) .

فمثل الفنان بالمفهوم العريض هو الذى يشكل رؤيته وكلاهما محور اهتمام الناقد الروائي وقد شبه جيمز ادب الرواية بالبيت و « بيت الرواية » (٢٩) ، له واجهة عريضة تتخللها نوافذ عدة ، كثيرا ما تكون مجرد نقوب و وراء كل واحد من هذه الفتحات اسس ذات هينين او نظارة مكبرة - اى اداة ملاحظة فريدة تضمن لصاحبها « انطبعا يعتمى على كل انطباع اخر » . فقد يرى المشاهدون نفس المشهد ولكنه يكون دائما مختلفا لان الرؤية تتوقف على المشاهدة وزاوية الرؤية . والنظر هنا هو مشهد الحياة ، والفتحة او الثقب هو الشكل الادبي والمشاهد الذى نفتت الحياة في كلها هو وعى الفنان المتكامل . هذه هي الصورة الثلاثة التى استخدمها جيمز في احدى مقدماته الاخيرة لوصف فن الرواية ، الذى لا وجود له الا بوجود « المشاهد عند التافلة » .

وقد ركز جيمز اهتمامه على ناحية الخلق عند الروائى التى تعكس الخيال اثناء عملية الابداع ، وتكشف عن عملية نسج مشاعر الكاتب وانطباعاته ، اى ذلك الوجه الذى يعكس ذاتية الفنان الدقيقة . وكل روائى يستحق المراجعة النقدية في نظر جيمز « حالة خاصة » . وجمع هذه « الحالات » فريدة في نوعها . ويكون الحكم على مستوى الناقد وقدرته بقدر ما يستطيع ان يصل الى اعماق « الحالة » التى يدرسها . ويلخص جيمز بعض تلك « الحالات » التى درسها في نقده على النحو التالى : فقلوبير هو « المثل والصورة للحالة الفكرية » ، وزولا هو الشخصية التى « تسود وتهيمن في النهاية » ، اما موباسان « فحالته » مميزة لانه يكتب عن طريق الاتصال الجريء المباشر بحواسه . وجيمز في نقده هذا يكتب كالمطبيب الذى يحاول تشخيص « حالاته » لا وصفها . والشئ الذى يبحث عنه في « تشخيصاته » المستندة الى أسلوب العمل الادبي ونسجه ، هو مزاج الروائى الفريد ، ومدى رؤيته ، وحركة مشاعره وحواسه . انها تلك الاشياء التى سماها جيمز ب « لون الهواء الذى يشيع به الفنان ، ايا كان ، صورته للحياة دون وعى » . فالتقيد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل لخلق ، والناقد مثله كمثل الروائى يجب ان يتشبع بالعمل الذى يتناوله ويتفاعل معه كما يتشبع الاديب بالحياة المحيطة به ويتفاعل معها . والهدف في نهاية الامر هو الوصول الى الجوهر .

وقراءة الرواية على هذا النحو معناها دراسة الروائى نفسه والمعيش من جديد في جو حياته الدينية . ومع ذلك فان جيمز في نقده لا يخلط بين الروائى وعمله . ويقول في هذا الشأن :

« ان الحياة والأعمال شيان مختلفان ، والمعرفة الوثيقة بأحدهما ليست ضرورية اطلاقاً للاستمتاع العام بالأخرى » . ولكن على الناقد ان يتعلم « ان يقرأ ما بين السطور » .

وجيمز لا يقع أبداً في الخطأ الذي وقع فيه كثير من النقاد من بعده ، وهو محاولة استنباط حياة الكاتب من خلال عمله . انه لا يرمي الى مجرد الترجمة عندما « يقرأ السطور » وإنما يرى الى مسائل أكثر أهمية بمراحل تكشف عنها حياة الكاتب ، مثل الأسلوب الذي من خلاله اختبر الحياة والناس ، والأشياء التي سلط عليها اهتماماته ، وتلك التي اشاح عنها بوجهه ، والمواقف التي تنبأ بها في رواياته وكيفية حلها . وعلى رأس هذه القائمة تقع قيمه الأخلاقية المستفادة من تجاربه . فالمطلوب من الناقد عملية تقترب من المنهج النفسى . ويؤكد هذا مقالات جيمز في نقد الروائيين التي تستند الى الملاحظة النفسية ، والاستنباط والاهتمام بالمعاني الخفية ، والعلاقات الانسانية ، والظروف المحيطة بها ، والدوافع المسلكية .

وجيمز في تأكيديه لاهمية المشاعر والاحساسات عند الناقد يمكن اعتباره الى حد ما ناقداً رومانسياً تنصب اهتماماته على عملية الخلق عند الاديب ، مثله في ذلك مثل كوليرج الشاعر والناقد الانجليزي . وهناك شبه ملحوظ بين نظرة جيمز الى العمل الخلاق ونظرة كوليرج ، فكلاهما يعترف على عضوية العمل الحيوية التي تضفى عليه استقلالاً مثل استقلال اى من الكائنات الحية . وفيما قاله جيمز عن شخص روايته صورة سبيلة (The Portrait of a Lady ١٨٨١) دليل على استقلالها الذاتي ، ووجودها المنفصل عن وجود المؤلف . فيقول جيمز انه بينما كان يكتب روايته اخذت شخصها تتصرف على انفراد وكأنها هي بدورها تبحث عن مؤلف آخر يطلق لها العنان . وكان انطباع جيمز اثناء عمله انها تقول له « لو انك اعطينا فتنك فسنرشدك الى الطريق الذى يجب على البطلة ازابيل آرتشر ان تسلكه » . وفي مقدمته لرواية السفراء (١٩٠٣) The Ambassadors نصح جيمز قراءه الا ينتقصوا من قيمة « القوة الدافعة التي تولدها الرواية لنفسها » والتشبيه الذى يستخدمه جيمز ليوحى بالحياة التي تتخلل العمل الخلاق يبعث الى الاذهان ما قاله كوليرج ايضا عن الوحدة العضوية للقصيدة الشعرية . واليك نص ما كتبه جيمز ، وهو الاقتباسات المشهورة في النقد الروائي :

(الرواية) كائن حي ووحدة مستمرة ، مثلها في ذلك مثل اى عضو حي ، ونقدر ما فيها من حياة سنجده ، كما اعتقد ، ان كل جزء من اجزائها يحوى على بعض مما في اجزائها الأخرى (٥٠) .

وتعدى هذه الفكرة الى وجه من أهم أوجه النقد عند جيمز ، وهو اهتمامه الملح بالشكل الفني وعلاقته بالموضوع . وفي تأكيد جيمز لاهمية الشكل ، ارجع الى تأثير الرواية الفرنسية والحركة الجمالية في نهاية القرن الماضي ، اسهامه الاساسي في النقد الروائى . وتتركز مقدماته حول قضية الشكل التي كان يعلم جيمز مدى تعقدها وتركيبها . لقد كان يعي انها مبنية على تناقض لا يمكن حله . فههدف الرواية والشكل النهائي الذى يأخذه لا يتقابلان

ولا يتواءمان كما يحدث للماء في الوعاء ، والعلاقة بين الشكل والمضمون علاقة مختلفة تماما عن علاقة الوعاء والماء . ولم يحاول جيمز تبسيط القضية ، بل حاول ان يعيها في ابعادها المتعددة .

ولقد اخص جيمز اهمية « الشكل » بالنسبة للرواية في قوله « بدون الشكل تكون الرواية مجرد « بودنج مائع » . وهذا ما وصفه روائع روايات تولستوى ودوستويفسكي . وبني اعتراضه على روايات تولستوى لما اعتبره افتقارا الى الشكل ، وان كان لم يسمه ، وهو الناقد ذو البصيرة النفاذة ، ان يضفي عليها ثناء عظيما . فروايات تولستوى كما قال جيمز : كتلة واثمة من الحياة . واقفة عظيمة - حدث عشوائي هائل . وحش قيد موضوعه الكبير هو الحياة باجمعها (٥١) .

ان اصحاب جيمز بهذه الاعمال الرائعة لا تنكر . لقد وصفها بانها « بودنج » حقا الا انه اعترف ان عبقرية الروائي الروسي جعلتها طيبة المذاق . ومع ذلك فـجيمز يؤكد ميوبها وهي : « الافتقار الى التكوين ، وتحديدها للاقتصاد والشكل البنائي » (٥٢) . اما اساس اعجابه بالرواية الفرنسية ، على الرغم من نفوره من اخلاقياتها ، فهو اهتمامها بالشكل والوعي الفني الذين انصف بهما الروائيون الفرنسيون .

وقد يبدو من تعليقات جيمز على اعمال تولستوى ان نظره الى الشكل في الرواية نظرة ضيقة تفصل بينه وبين المضمون . ولكننا اذا ما معنا النظر في نظرية جيمز في الرواية وجدنا وعيا كاملا بالوحدة بينهما . فهو يشكو من الاعتقاد السائد بان الموضوع والشكل في العمل الفني مختلفان ومتفرقان . ويحاول اقناعنا بان ذلك التمييز الخطير بين المضمون والشكل في العمل الفني الرفيع يجب القضاء عليه . وبين ايضا انه من المستحيل وضع حد فاصل بينهما وتحليل التكامل الذي هو جوهر العمل . وقد اتى جيمز على مدام بوفاري Mme Bovary فلغوبير لهذا التواءم الكامل بين الشكل والمضمون ، فقال :

والشكل في حد ذاته لا يقل باى حال من الاحوال عن جوهر الموضوع او الفكرة في الثارة الاهتمام وفي اللطافة . ومع ذلك فهو مطابق للمضمون لا يمكن فصله عنه الى درجة اننا لا نستطيع ان نستخلص الشكل في اية لحظة على انفراد . (٥٣) .

وهذه الوحدة بين الشكل والمضمون هي احد متطلبات جيمز الاساسية في الرواية ، فالشكل وحده ، كما يقول « يأخذ المضمون ويمسك به ويحفظه » (٥٤) .

وبالاضافة الى تحليل جيمز الدقيق لاجه الرواية الفنية المختلفة ولانجذابه نحو المشاكل الشكلية المتعلقة « بوجهة النظر » والاداة المصطلح عليها « الوعي المركزي » البنائية على

«The future of The Novel» Essays on the Art of Fiction, ed. Leon Edel (1956) 228 (٥١)

Selected Letters, 171. (٥٢)

Notes on Novelists, 80. (٥٣)

Selected letters. 171. (٥٤)

تصوير الفعل من خلال وعي شخص ذي حس مرهف وذهن متقن قريب من المؤلف نفسه ، بالإضافة الى كل هذا فإن اسهام جيمز في تطور النقد الروائي يظهر ايضا في مفهومه العضوى لكل عمل خلاق ، ذلك المفهوم الذى على اساسه فرض الاشتراك في جدال النقد حول ما سمي « برواية الحدث » « ورواية الشخص » . فجميع عناصر الرواية كما رآها جيمز متداخلة ومندمجة ، ومهمة الناقد تقييم الشكل الذى هو جماع هذه العناصر . ويقول جيمز في هذا الشأن :

يكثر الناس الحديث عن هذه الاشياء (الوصف - الحوار - الحدث - الشخصوى) كما لو كان كل منها يتميز عن الآخر بشكل قاطع ، بدلا من ان يلوب بعضها في بعض في كل لحظة من الانفاس ، وتشكل مجتمعة في علاقتها المتداخلة وحدة شاملة معبرة . انا لا استطيع ان اصور شكلا مكونا من سلسلة من الكتل ، او ان تكون هناك في اية رواية تستحق الدراسة على الاطلاق فترة وصفية لا يكون السرد من مهمتها ايضا ، او فترة من الحوار لا ترمى في نفس الوقت الى الوصف ، او لحظة من الحقيقة ايا كانت لا تلعب دورا في الحدث ، او حدثا يستلزم الاهتمام من اى مصدر غير المصدر العام لنجاح الرواية ، وهو قدرتها التصويرية . فما هي الشخصية اذا لم تكن لتحديد للحدث ؟ وما هو الحدث اذا لم يكن لتحديد للشخصية ؟ واين هي الصورة او الرواية التي لا تتناول الشخصية (٥٥) .

بهذا يؤكد جيمز طبيعة الرواية العضوية ووحدةها . ولكن بما ان الوحدة تتصف بالعضوية فانها وحدة مبنية على التصدد والاختلاف . وجيمز يعلم جيدا ان هناك تناقضا في محاولة اختواء الحياة التي لا شكل لها في اطار الرواية المصطنع الذى لا بد وان يكون له شكل ومجرد « فكرة تثبيت » (تلك الكلمة التي يرددناها جيمز مرارا في مقالاته) الحياة هي في حد ذاتها تناقص للحياة . وعندما يأخذ جيمز في ادلاء النصيحة الى الكاتب الروائي قائلا انه يجب ان يبدأ من نقطة تجارية ، يجد نفسه يتحدث بشكل عام دون تحديد ، ويعترف بان نصائحه لن نفيد الروائي كثيرا . ويقول :

فاى نوع من التجارب نمضي ؟ واين يبدأ واين تنتهى ؟ ان التجربة لا حدود لها ولا هي مكتفية اياها . انها نوع من الحساسية الهائلة تشبه بيت متكبوت فضاء بنى من ادق الفيوف الحريرية الطفلة في غرفة اليومى ، ونصك في نسجها بكل دقة تدير على اجنحة الهواء . انها مناح العقل : وعندما يكون خيالها ، بل عندما يكون عقل يقار ، فانه يحتفظ بأوهن ما يوهى بالحياة ، ويحول نبضات الهواء لنفسها الى دوى (٥٦) .

ويعرف جيمز مشكلة الروائي بانها مشكلة الاختيار من تجارب الحياة الفنية وتركيزها وتشكيلها لاسباب القارئ بالحياة . فعليه ان يختار ، كما يقول ، من فوضى الحياة « العديدة الشكل والنظام » ، من الواقع « المدمم الهدف » بحيث يشكل اختياره هذا معنى ويكشف عن قيم . وبذلك فالرواية في نهاية الامر تتضمن - حتما - نوعا من الخداع . ولكن جيمز اصر على ان يكون الخداع مكيفا ومشكلا ومصنعا بمهارة المحترف التي تتطلب المعالجة الدقيقة الواضحة . فالحياة ، كما قال جيمز ، مستحيلة التحديد لا تعرف اين تنتهى ، اما الرواية فيجب ان تعلم حدودها . وعلى الرغم من ان جيمز يؤكد اهمية الاختيار والتركيز والاقتصاد ، فانه يصر ايضا على ان الهدف هو جعل الرواية « ممثلة للحياة شاملة عليها » ، ولكن دون ان تخلف

انطباعا بالتصنع والتكلف . وقد شرح جيمز هذه النقطة المنطوية على التناقض بين الفن والحياة في قوله :

يفقد ما ترى الحياة بدون تنظيم جديد من خلال ما تلتمسه لنا الرواية يكون شعورها باننا نلمس الحقيقة .
ويقدّر ما ترى الحياة وقد انطقت لنفسها نظاما جديدا ، يكون احساسنا باننا امام بديل للحياة ، حل وسط ، وتقدير لها . (٥٧)

وبما ان مشكلة الاختيار هي اولى المشاكل التي يواجهها الروائي ، ولا احد يستطيع حلها الا هو ، فان جيمز يعترف باستحالة ان يشترط عليه تناول موضوعات دون اخرى . واذا كنا نحترم الروائي فعليا ان نمنحه حرية في الاختيار خاصة بعد ان عانى الكثير من النظرة المترتبة الى كل من الحياة والادب . وفي رد جيمز على اشارة والتر بيزانت الى الرواية لانجليزية وهدفها الاخلاقي الواهي ، هيجوم على افتقارها الى الشجاعة الادبية عند ما قال :

لا بد وان الروائي الإنجليزي العادي قد استرعى نظرات الناس بالفقار الى الشجاعة الادبية ، ونفوره من مواجهة الصعوبات التي تتارحج حول معالجة الواقع - انه يميل الى الجبن الى أقصى الحدود ... ويتميز عمله ، في الغلب الاحيان ، بالسمت الحريص فيما يتعلق بمواضيع بالذات... ان جوهر الطاقة الاخلاقية هو مسح الحياة باجمعها . (٥٨)

وبلخص جيمز موقفه كناقد بقوله اننا نحاسب الروائي على موضوعه ، وانما نحاسبه على معالجته للموضوع . فيقول :

يجب ان نطعي الروائي حقه في موضوعه ، في فكرته ، في اننا نقفنا فيطبق فقط على ما يصنعه من مادته . (٥٩)

واي فشل ينسب الى العمل الادبي هو فشل في التنفيذ فقط حيث يظهر من خلاله ضعف العمل الادبي او قوته .

ويبدو مما سبق ان الرواية في نظر جيمز اقل الاشكال الادبية جمودا . لقد اشار الى « روعة هذا الشكل » الذي يمثل « قليلا جدا من القيود ومديدا من الامكانيات » . وفي استمرار تأكيد حرية الشكل الروائي تحدث من شرط واحد فقط ، كما هو واضح من الاقتباس التالي :

وبالمقارنة فان الفنون الاخرى تبدو مقيدة معاقة ، والظروف التي تعمل من تحتها جامدة ومحددة . والشرط الوحيد الذي انصود انه يمكن وضعه بالنسبة لكتابة الرواية هو ان تكون صادقة . ان هذه الحرية ميزة عظيمة رائمة ... الحقيقة كلها (مضاهيا الروائي) لك ... لا تصغ الى اولئك الذين يودون سجنك داخل بعض زوايا الحياة ، قائلين ان الفن لا يعيش الا فيها ... ليس هناك طابع للحياة ، ولا اسلوب للنظر اليها او للشعور بها ، الا ويمكن ان يجد له مكانا في خطة الاديب الروائي . (٦٠)

وبهذا فالناقد الذي رمى - فيما يبدو - الى بناء نظرية نقدية في الرواية ، لم يطوقها بآلة شروط الا شرط الصدق . انه لم يرفع من شأن الرواية فحسب بشاؤله لها في اسباب وجدية لم يسبق لهما مثل ، بل صورها وفتح لها المجال لتناقض الحياة بأسرها . وتصورها في النسب بشكل

(٥٧) نفس المرجع

(٥٨) نفس المرجع

(٥٩) نفس المرجع

(٦٠) نفس المرجع

يطابق رؤيا الفنان . وهو في هذا يقارب روائياتنا قدا آخر هو د. هـ. لورانس ، يختلف تماما عن جيمز ، وإنما يتفق معه في تأكيده ضرورة استمتاع الروائي بالحرية الكاملة ليحقق رؤياه بشرط واحد ، وهو ان يكون صادقا ومخلصا في هذه الرؤيا بما يرضي ضميره الفني . وقد قيم **لورانس** الرواية في مقالة « الاخلاقيات والرواية » (١٩٢٥) (Morality & The Novel) واعتبرها ارقى وسيلة لتصوير الحقيقة ، وكان يعنى بذلك الحقيقة التي تنتمي الى سلوك الحياة . كما الح على انه ليست هناك قواعد لبناء الرواية ، وأن القواعد يمكن تطبيقها فقط على الروايات التي هي مجرد نسخ من روايات اخرى لا اصالة فيها . وفيما عدا ذلك ، فالرواية الحية التي تصور « الانسان الحي » لا تحكمها الا الحياة . لقد تقدم لورانس كثيرا عن جيمز فيما يتعلق بتحرر الروائي في كتابه ، وان كان هناك صدى للورانس عن كيفية كتابة الرواية حين يقول جيمز : يجب ان تكتبها كما تستطيع .

ومهما نقل من الثورة التي حققها جيمز في النقد الروائي فلن تكون مبالغين . فغالبية المبادئ التي نستند اليها في النقد الروائي الحديث والتي اغنته بالمصطلحات المعروفة اليوم هي من آثار جيمز . انه هو الذي نهنا الى المعنى الشامل الموحد في الرواية ، وهو الذي كشف لنا عن الوحدة العضوية بين اجزاء الرواية ومناصرها ، وهو الذي عرف الدور الذي تلعبه الاخلاقيات بالمعنى العريض في الرواية ، وليس بالمعنى الضيق المبني على السلوك الاجتماعي المتفق عليه ، وهو الذي اشار الى عامل الخداع في الرواية ، وفي نفس الوقت أكد جوهر الصدق فيها . وفوق كل هذا ، فـجيمز هو أول ناقد انجليزي بحث في اسباب المسائل الجمالية والفنية في الرواية . ومع ذلك فقد انجز كل هذا دون اللجوء الى شروط مسيقة . وفيما قاله ليون ادبل Leon Edel الناقد المشهور بابحائه عن جيمز وترجمته لحياته ، اشارة الى عدم مذهبية الاديب والناقد الكبير :

ليس هناك كاتب حجة اقل مذهبية من جيمز . انه يتحدث اليها بصراحة حتى اليوم ... معرفا بنفسه ، وبذلك الفن الذي احترفه بالاخلاص . (١١)

ومنذ وقت بعيد مضى قال يرسى لايون الناقد الروائي المعروف الذي تتبع خطى جيمز في نقد الرواية ، قال انه الناقد الحقيقي الوحيد في فن الرواية .

وكان جيمز مثالا للاديب الذي وهب حياته لفنه وعاش ليصور في رواياته فيما انسانية ، ليمتد بالحياة ويتمتع فيها حتى تصبح دقيقة في وعيها وغنية في مسؤوليتها . اما النقد الروائي بالنسبة اليه فهو اداة ترمي الى تفهم ذلك النوع من الادب الذي انتجه . ومن الطبيعي ان تكون الاداة في نفس مستوى رقى الادب ، ما دام كلاهما وليد نفس العقل والروح . ان النقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل الخلاق ، بل يصح ان نقول انهما وجهان لعملة واحدة ، ومظهران متكاملان لمعقربة جيمز الابداعية التي تركت تراثا في النقد الروائي لا يقل في كثير مما تركته في الادب الروائي . وبانجازات جيمز في النقد بدا الطريق امام الناقد الروائي المحترف من بعده اكثر وضوحا ، وانتقل النقد الروائي الى مرحلة جديدة تتميز بالنقطة والتقييم المتزن .

تكنولوجيا المصّر والمجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ .
ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قُرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا
النَّفْثَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا
لِلْمَضْغَةِ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ
خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ
صدره الله العظيم

للدكتور : مصطفى كمال محمد

الوسطى ، بل تمتداه الى العصور القديمة حيث قامت وازدهرت حضارات مصر وبابل وآشور . ونفضل هذه الحضارة على العالم والذي لا زال يدين لها بالشكر والعرفان . فالعرب امة علوم واختراعات ، وامة ادب وشعر، وهم الذين أسسوا الاسس الاولى في شتى الوان العلم والعرفه . ان جابر بن حيان مثلا هو الرائد الاول في ميدان البحث العلمي التجريبي ، والكندي اول من اثبت كروية السطوح المائيه ، والادريسي الذي اكتشف

فما من شك ان عقل الانسان العربي يحمل في تقدمه سمات ماضيه ، فالحضارة العربية سلسلة متعاقبة لتطور هذا العقل العربي وكشفه عن أسرار هذا الكوكب الذي يعيش فوقه والكواكب المحيطة به ، وفي الكشف عن مختلف القوانين الفيزيائية والكيميائية والرياضية والطبيعية وتذليلها لفاتيحه ، واصبح هذا العقل المستنير يحمل شملة الحضارة من عصر الى عصره . فمبقرة الحضارة العربية لا تقف عند حدود العصور

من هنا جاء اهتمامي بتناول العلاقة بين التقدم الحضاري في مجالات العلم والتكنولوجيا وبين التأثير الاجتماعي الذي يمس نظم المجتمع وقيمه الاجتماعية . وأن درجة النمو الاقتصادي تتوقف على درجة نقل واستيعاب التكنولوجيا الراقية الموجودة في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

البلاد المتقدمة تعيش في نهضة علمية وثورات تكنولوجية مستمرة وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر . كذلك فإن القدر الأكبر من النمو الاقتصادي في هذه البلاد يدين إلى التقدم العلمي والتكنولوجي الذي تحقق في هذه البلاد .

فلكى نعيش هذا العصر ونصل إلى سنة ٢٠٠٠ بسلام ، فإنا يجب أن نشارك تماماً أهمية التكنولوجيا المعاصرة وتطبيقاتها في شتى المجالات قوة ثقافية ديناميكية مصرية ، بمعنى أن رصيدها دولة من رجال العلم والتكنولوجيا بمعاملهم أو أجهزتهم ومعداتهم ، هو الذي ينقل المعاصرة إليها ، والتكنولوجيا في هذا البحث لا يقصد بها المعرفة بمعناها العام وباختلاف فروعها بل إمتنى هنا المعارف العلمية التي قد تتنوع في مجالاتها التخصصية . ولكن ، لا ننكر أيضاً أنها تشترك وتركز على المنهج العلمي السليم والذي يعتمد بصفة رئيسية على التحقيق الموضوعي والتجريب التطبيقي ومدى الانتفاع منها ومدى الحدود التي تتيح استخدامه . بهذا البحث أود أن أوضح مساهمة تكنولوجيا العصر في المجال الطبي وكيفية الاستفادة منها في بناء العالم العربي سنة ٢٠٠٠ ، وكيفية التركيز على خلق وتنمية الثمن ما نتمتع به ، وهو الطاقة البشرية القادرة على الإسهام بالعلم في صنع المستقبل . هنا أيضاً لا أطمع إلى جعل الإنسان العربي خالداً ، ولكن كل ما أريد هو إعطاء أجيالهم ولادة بدون حادث ، ونمو عادي ، وحياة بدون ميوب وأمراض وآلام . وأن طريق العلم يؤدي دائماً في نهايته إلى تحقيق الغايات المرجوة وتوفير

مناخ النيل والاستقرار - ثم ابن سينا وبحوثه العظيمة في الجراثيم وتكوين الجبال والمعادن ... ثم ابن يونس الذي اخترع البندول ... وكذلك الرازي وكشوفاته الطبية العديدة ... ولا نستطيع أن نتجاهل إسهام كل من ابن الهيثم والبيروني وابن النفيس والبزرجاني وابن رشد والجاحظ وابن البيطار وغيرهم في مجال العلوم والمعرفة كالجبر والهندسة والفلك والطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والمعادن وغيرها . كما أن القيم الإسلامية لا تتعارض مع العلم ، بل هي روح العلم نفسه ، والتقدم التكنولوجي طالما يستهدف في النهاية خير الإنسانية وسعادة البشر .

لا جدال في أن إقامة مجتمع الرفاهية هو الهدف الاسمي الذي تسعى إليه كافة الدول المعاصرة ، وهو المعيار الذي يقاس به مستوى تقدم الشعوب ، 'لمجتمع الرفاهية هو المجتمع الذي يتحقق فيه أكبر قدر من الرفاهية الكلية . أي أكبر قدر من الإشباع من المنافع والسعادة لجموع أفرادها .

فالدول النامية تخوض الآن على الصعيدين الوطني والدولي حرباً ضد الجهل والفقر والمرض وسيطرة الدول الأقوى عليها ، فالعالم العربي في أشد الاحتياج إلى استراتيجية علمية مدروسة لتنمية موارده الطبيعية والبشرية . لأن الدولة الحديثة التي تريد بناءها تعتمد بالدرجة الأولى على الإنسان العربي صاحب الحضارة العريقة ، وحامل القيم الشريفة ، وهذا يتطلب تحقيق تفرات جذرية في أنماط السلوك الاجتماعي ومحاولة أحداث تغيير في تركيب وخصائص البيئة المحيطة بالإنسان العربي ...

فإن العلم والمجتمع يكاد يكمل كل منهما الآخر . فيقدر حاجة المجتمع إلى النتائج العلمية لتنميته وأزدهاره ، فإن العلم في حاجة إلى التقبل الاجتماعي لتدعيمه وتثبيته .

العصر في المجال الطبي ، ومدى الاستفادة منها
للعالم العربي سنة ٢٠٠٠ .

✽ تكنولوجيا انتاج العناصر الالكترونية
والمخاطيسية وعلم الانفورماتيك في المجال
الطبي : اشار العالم لوكلائش رئيس اكااديمية
الطب بفرنسا الى الاهمية المتزايدة التي يحتلها
الالكترونيك والانفورماتيك في مجال العيادة
الطبية . فمعد فترة قريبة جدا كان العلماء
يعتقدون ان مخ الانسان يتكون من ١٢ - ١٤
مليار نيرون ، متحدة مع بعضها بأعصاب الطرق
ومتصلة بخيوط عصبية مع اعضاء وانسجة
الجسم . كما يوجد نيرون الجسم الحي عادة
في حالتين اما هادئة واما مثارة . ويقول
الخبراء ان وظيفتي النيرون هاتين يمكن
مقارنتهما في التصوير المبسط بمصدر راديو
الكتروني ذي وضعتين يعمل بنظام « اومسل
والقطع » ويمكن ان يكون ذلك صامما او مرحلا
او ترائستورا . ومن النيرونات « بني »
الاعصاب التي تعتبر بالنسبة للجسم بشابة
الاسلاك ، او خطوط الواصلات بين الجسم
كلل وبين بعض الاجهزة او القطاعات على
حدة . وبعبارة اخرى فان الاسلاك - الاعصاب
تربط الجسم بالمحيط الخارجي : فنجد مثلا
المخخ وحده وهو غرفة التحكم في الجهاز
العصبي المركزي - يضم حوالي ١٠٠ مليار
خلية . والخلية هنا ليست مجرد « نواة
الحياة » بل مؤسسة متعددة الفروع ذات
قطاعات عمل واقسام مختلفة ، ونظام للتغذية
بالطاقة ووسائل نقل . ففي الجسم الحي
يجري باستمرار تنسيق العمل بين مختلف
الاجهزة ، وتتجمع المعلومات عن حالة النظام
ومن ظروف الوسط الخارجي ، ويحافظ على
درجة حرارة ثابتة وضغط ثابت . من هذا
النطلق وعلى اسس علمية قوية توظلت
تكنولوجيا العصر وعلم السبيرنتيكافورومعا
بثقة في المجال الطبي لخدمة الانسان البشري
 واصبحت انتصاراتها في هذا المجال اكثر اهمية
وبذلك تجد ان المجال الطبي استفاد ، وسوف

السعادة المنشودة لبنى الانسان العربي في كل
زمان ومكان .

وواجب الانسان العربي ان يتعلم وان
يسعى الى مجالس العلماء ليتفقه ويتعظ
بالمعلم النافع الموصل الى رضوان الله تعالى ،
لان الله عز وجل يسائل الناس عن تقصيرهم
في طلب العلم ومجالسة العلماء الصالحين .

وان خطة عملنا لا بد ان تستهدف الوصول
الى تكنولوجيا عربية عصرية ، وان نلتزم
بشعار (العلم للمجتمع) مع الحرس الشديد
على توفير كل اسباب الدعم والنجاح للبحث
العلمي . فمن جانب يرى أيضا ان يتركز عمل
الطما في المجال الطبي على تحسين الاداء من
خلال علاج المرضى والوقاية منه بمتابعة
واستخدام احدث الاساليب التي تكتشف في
الدول المتقدمة . كما يرى ان يخصص البحث
العلمي والتكنولوجي جهدا خاصا موجها
لمساندة صناعة الدواء المحلية الوطنية ، بحيث
يكون ذلك من خلال :

- نقل التكنولوجيا الخاصة بانتاج
الكيمويات الدوائية التي تصنع منها
المستحضرات والعقاقير الطبية اقتباسا وتقليدا .

- استكشاف مصادر جديدة للدواء في
النباتات الاقليمية .

- التركيز على الرعاية الطبية وابحات
القضاء على الامراض الوبائية والمستوطنة
واعتماد مشروع القضاء على اليلهارسيامشروعا
قوميا عربيا يشترك فيه علماء الداخل والخارج

- استخدام الاجهزة الحديثة والمقول
الالكترونية في المجالات الطبية بشتى فروعها .

وبالتالى سوف اتمرض هنا في هذا المقال
لبعض انطبيقات الهامة والابتكارات
والخدمات الفعلية التي تقوم بها تكنولوجيا

❖ الأوتوماتون

جهاز يمثل نظام آلات وتكريرات (الالكترونية كهربائية ، ضغط الهواء ، هيدروليكية) تجرى عمليات استقبال وتحويل ونقل واستخدام الطاقة والمادة بطريقة ميكانيكية اوتوماتيكية أى بدون مشاركة الانسان .

❖ المنطق الرياضي

تأسس هذا العلم بفضل الفكر الاغريقى ارسطو ، الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ويرجع الفضل ايضا الى فلاسفة العصور الوسطى مثل عالم اللاهوت والكيميائى رابوندى لوليا ، والعالم الرياضى والفيلسوف الالماني فريد ولهم لينتس وهو مؤسس ايضا المنطق الرياضى . وهو الذى حاول فى القرن السابع عشر ان يؤسس اول حسابات منطقية حسابية وجبرية حربية ، والعالم الرياضى جورج بول وابو الكتابة المعروف فوينتش صاحب رواية « الذبابة » . وقد قام ارسطو بتحليل التفكير الانسانى واشكاله مثل المفاهيم والحكم والاستنتاج العقلى ، وبالتالي علم المنطق هو علم الاستنتاجات السليمة الذى يتناول اشكال وقوانين التفكير . وبدأ هذا العلم يتوغل بسرعة الى عصرنا هذا فى شتى المجالات ويعمل فى كل مكان وكل شيء تعمل فيه الحاسبات الالكترونية . فكل مسألة تحلها الآلات انما تحلها على اساس قوانين المنطق الرياضى الصارمة .

وينبغى هنا ان نوضح كيفية تحويل الاحكام المنطقية الى صيغ رياضية . فنجد فى العبارات البسيطة التى يستخدمها الانسان انها ترتبط ببعضها بواسطة احرف مثل : لا - أو - و . وهذه الاحرف الثلاثة تستطيع ان تفعل فى المنطق كل شيء ، ولقد اتفق العلماء (علماء المنطق) على علامات معينة للدلالة على هذه الاحرف - مثلما تفعل فى علم الرياضيات فنستخدم الاشارات الرياضية الآتية (ـ) ،

يستخدم كثيرا ، من وجود نظام للمعلومات - نظام يمكن ان يجمع المعلومات ، ويحلل المواد رياضيا ، ويوجد بسرعة الحالات المرضية المحتملة وستكون هذه بمثابة « ذاكرة » طبية ضخمة . من هذه الحالة يكون بإمكان أى طبيب من أى مكان ومن أى دولة من بلدان العالم ان يتلقى الاستشارة من هذه « الذاكرة » الطبية الموجودة .

وبذلك دخلت السيبرنتيكا الآن غرفة العمليات الجراحية وهى تشارك بشكل مباشر فى العمليات وتتحكم فى الوظائف الحيوية للجسام ، فتتابع عمل القلب ، وتضبط ضغط الدم فى الشرايين وتراقب عمق التخدير .

من هنا يأتى تعريف علم السيبرنتيكا : هو علم يدرس طرق ادارة المجتمع البشرى ، وهى كلمة افريقية قديمة « سيبرنتيس » وتعنى « ماسك الدفة » أو « الریان » بمعنى القائد . حيث كان علم قيادة السفن فى اليونان القديمة يسمى « سيبرنتيكا » أى علم التحكم والاتصال فى الأجسام الحية والآلات . وبالتالي نرى ان العناصر الهامة فى علم السيبرنتيكا تتناول العناصر الآتية :

❖ نظرية المعلومات :

حيث ان كلمة معلومات Information لاتينية الأصل وكان معناها فى البداية تصور ثم تطورت الى اخبار أى نقل الاخبار أو نقل معلومة ما . وقد وجد العلماء فى السنوات الاخيرة ان المفهوم العام لكلمة « معلومات » مطاط للغاية فحددوا معناها على ان يصبح « معيار التحدد فى الخبر أو المعلومة . وبذلك تعتبر مفهوما علميا جديدا يعطى للباحثين منهجا جديدا ، نظريا - اعلاميا ، يمكن بواسطته التأقلم فى كثير من العلوم التى تدرس الطبيعة الحية وغير الحية ، والمجتمع والادراك .

من الدراسة العميقة والشاملة لجماليات التحكم والتوصل الى القوانين التي تخضع لها عمليات التحكم . وفي كل مكان نجد أن تنفيذ عملية التحكم مرتبطة بنقل وتجميع وحفظ معالجة المعلومات التي تحدد الشيء المتحكم فيه ومسار العملية والظروف الخارجية وبرنامج العمل . وبالتبع فمن الممكن أن تكون ناقلات المعلومات في النظم المختلفة ، مختلفة ايضا من حيث طبيعتها : فقد تكون اشارات صوتية او ضوئية او ميكانيكية او كهربائية او كيميائية او وثائق او افلاما تلفزيونية ، ولذلك ، ومن المهم في المجال الطبي الحديث انشاء اجهزة الكترونية لجمع المعلومات عن العمليات الجارية في الجسم . لهذا الغرض اخترعت وابتكرت اجهزة مدهشة ، حساسة للغاية ودقيقة جدا ويكفي ان نذكر منها راسمات القلب الكهربائية التي تدرس نشاط القلب ، وراسمات الدماغ الكهربائية ، والتي تفحص في أسرار نشاط الدماغ ، ورسمات العضلات الكهربائية والتي تسجل عمل العضلات ، والإقراص الدقيقة التي هي عبارة عن مجسات لاسلكية لدراسة المعدة والأمعاء ، والمجهر الالكتروني بانواعه والمجهر التلفزيوني والتلفزيون الملون في الطب وما الى ذلك من انواع مختلفة متطورة للغاية . لذلك يعتبر علم الالكترونيات والانفورماتيك من الفروع الهامة والاساسية من فروع العلم والتكنولوجيا . وبين هذه الفروع مدى أهمية علم الكهرباء وتطبيقاتها في المجال الطبي . - ابتداء من السمكة التي ترسل تيارا كهربائيا حتى آلة تقوية القلب . يشمل علم الالكترونيات أسس وتصميم وتركيب الاجهزة الكهربائية المغرفة ، والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات مثل الجرمانيوم والسيليكون .

فالاجهزة الكهربائية المغرفة من الهواء واشياء الموصلات تستخدم بنجاح في الاجهزة الاوتوماتيكية واللاسلكية والتلفزيونية والتي تشترك في رحلات الفضاء ولخدمة الطب الفضائي ، واجهزة الراديو الالكترونية الحديثة

(-) ، (x) ، (+) وذلك على أن تحل محل الكلمات المستخدمة مثل « زائد » ، « ناقص » ، « في » ، « على » على الترتيب . فقد اتفق بالفعل على استخدام الرموز الآتية ولاستخدامها في علم المنطق الرياضي فمثلا الرمز « الاشارة » الموجبة (+) للدلالة على كلمة او الرمز اى علامة الضرب في (x) للدلالة على كلمة (و) ومع استخدام بعض الاسس البسيطة في علم الجبر نستطيع أن نصل الى حل بعض المسائل المنطقية المعقدة . وتستطيع الآلة الاوتوماتيكية ان تقوم بالشيء نفسه .

※ الانفوريثمات

علم حيوى ضرورى لحل مختلف انواع المسائل ويتضح لنا ان الرياضة في الطب ، وخص علم الوراثة ، لا نستطيع الاستغناء عن تكنولوجيتها . ان العملية التكنولوجية لحل اعقد المسائل تتكون من عدد كبير من العمليات البسيطة ، من الخطوات البسيطة الأولية . ولقد اكتسبت كلمة الفورثم اى القاعدة معنى واسعا للغاية في الوقت الحالى . فهو دليل لحل المسائل . ومن الممكن ان تصوغه في شكل اوامر قصيرة ينبغي تنفيذها بدقة ودون اى امتراض ، وعندئذ يكون الانفوريثم مرشدا لنا لجمع حل المسائل المعقدة .

ويقول الاخصائيون انه في الوقت الحالى الذى تتطور فيه الرياضة الآلية بسرعة وتصبح الحاسبات الالكترونية واقعا ملموسا . فنان الحاجة تصبح أكثر الحاجة لاجاد الانفوريثم الذى يساعد على حل المسائل المعقدة .

الهدف الاساسى من علم السيبرنييتيكا والذي يسمى علماء الرياضة والفيزياء والهندسة والطب من مختلف بلدان العالم اليه هو الوصول الى اقصى قدر من اتمته عمليات التحكم في مختلف مجالات النشاط الانسانى وزيادة انتاجية العمل . ومن اجل ذلك لا بد

اجهزة القياس ، الدوائر النضية - الآلات الالكترونية الحاسبة كما توضح ايضا في اجهزة خاصة داخل كبسولة يتناولها المريض فترسل اشارات عن حالة المعدة والأمعاء . كما تفضل اجهزة اشباه الموصلات عن الصمامات الالكترونية بالمميزات العامة التالية:

- الوزن الخفيف والمقايس الصغيرة .

- انعدام استهلاك الطاقة على تسخين الفيلة المستخدمة في الصمام .

- طول مدة الخدمة (يبلغ عشرة آلاف ساعة)

- لاجهزة اشباه الموصلات المختلفة في المضخات ، اجهزة الاستقبال ، اجهزة كفاءة عالية . اذ ان فقد الطاقة في نفس الاجهزة قليل .

- متانة ميكانيكية عالية (تتحمل الاهتزاز والصدمات والمؤثرات الميكانيكية الاخرى)

- تحويل الصورة الضوئية الى تيار كهربائي ذي شكل خاص .

- توجد دائما تنفيذ مرتدة داخلية . والسبب هو وجود اتصال كهربائي مباشر بين الدائري الخروج والدخول .

- تعمل بجهد تنفيذ منخفض .

✽ مصنع لادوات تقوية القلب

توجد أدوات تقوية القلب منذ خمسة عشر عاما ، وقد عرفت تحسينات متوالية مع تطور فنون تكنولوجيا صنع أدوات تقوية القلب . حيث ان هذه الادوات تعمل بشكل نبضات كهربائية فوق عضلة القلب مما يجبرها على متابعة عملها بانتظام .

- وفي الآلات الالكترونية الحاسبة واجهزة الطب بفرعها والبيولوجيا والفيزياء وفي فروع هندسة القياس المختلفة وغيرها . فالمضخات والمولدات والقسمات ومرسعات التذبذبات واجهزة القياس وغيرها من الاجهزة الالكترونية أصبحت سلاحا فعالا للبحوث الطبية وتنظيم العمليات الجراحية واجهزتها . وهكذا فان علم الالكترونيات زودنا بإمكانات غير محدودة مثل الترانزيستورات بثنى أنواعها . حيث أن الترانزيستورات تشغل مكانا هاما بين اجهزة اشباه الموصلات الالكترونية التي تستخدم لتقويم وتضخيم وتوليد وتغيير تردد التيارات الكهربائية المختلفة ، وكذلك لرسم تذبذبات الظواهر الكهربائية وغير الكهربائية . وتكون دوائر الترانزيستورات مادة الدائريان : دائرة الدخول او التحكم ودائرة الخروج او الدائرة التحكم فيها . وفي دائرة الخروج يوجد الحمل . وتصنف الترانزيستورات حسب طريقة التصنيع والمواد المستعملة وخصائصها للعمل ، ولها ثلاثة مضارج أو أكثر ، وتبا لعدد المخارج تسمى بصمامات اشباه الموصلات الثلاثية أو الرباعية وهكذا .

وفي اجهزة اشباه الموصلات الحديثة تستخدم بكثرة اشباه الموصلات الثمينة : جرمانيوم ، سيليكون ، سيلينيوم وجاليوم زرنيخي وغيرها من مواد اشباه الموصلات . واشباه الموصلات هي المواد التي تحتل موصلتها الكهربائية النوعية أي « المقدار الذي يميز التوصيلة الكهربائية للمادة » مكانا متوسطا بين الموصلات والموال . ويجب هنا ان نميز بين التعبيرين « التوصيلة الكهربائية » و « الموصلية الكهربائية النوعية » فالتوصيلة الكهربائية تعرف بخاصية تعبر المادة للتيار ، فنجد الفرق واضحا بين التعبيرين .

وتستخدم الترانزيستورات الآن بنجاح في المضخات ، اجهزة الاستقبال ، اجهزة الارسل ، المولدات ، المستقبيلات التلفزيونية،

يجرى التحقق من موقع الشريط كي لا يحدث انقباضات في حاجز القلب ، وهو يعتبر جيدا عندما يكون مستوى التقوية منخفضا. عندئذ يجرى ربط السابر بالوريد ، كما توضع العلية داخل تجويف يجرى اعداده لهذه الغاية فوق الجرح . اما العملية الجراحية التي تجرى بواسطة التخدير الموضعي فتتابع بالاشعة وتعتبر عملية بسيطة .

تمثل الادوات القوية والحارسة للقلب حوالي ٨٠ الى ٩٠ في المائة من الادوات التي جرى تركيبها خلال السنوات الاخيرة ، وهي مزودة بمجري أضاق بحيث يراقب السابر حركة القلب ويسير عمل الالة فور ظهور الحاجة. في بعض الاحيان يجرى صنع العلية من مادة التيتانيوم النقي ، وهو معدن قوى وذو جودة خصائصه عالية . وبشان البطاريات ، يبدو أن الليثيوم سيحل محل بطاريات الزئبق مع زيادة العائدات وفترة العمل .

في الوقت الحاضر يقدر أن هذه الآلات تمتلك استقلالا في العمل خلال فترة تمتد من ٥ الى ٨ سنوات ، ومع ذلك ، فإن مقويات القلب بنسق محدد ، أو المحركات الكهربائية لا تزال تحافظ على مقدرتها . كما أن هناك مؤرّج يرسل نبضات بمعدل سرعة محددة سابقا ، وهي توازي ٧٠ نبضة في الدقيقة مع عدم مراعاة البطئن (القلب) حامل هذه المحركات . وأخيرا فهناك آلات تقوية القلب النظرائية مع اشراطها الكهربائية أي البطاريات العاملة بالبلوتونيوم . تدوم هذه الآلات أكثر من الماضي ، ولكن ذلك لا يقضى على الرقابة الفعلية للعريض .

تجرى أبحاث عديدة لتحسين أدوات تقوية القلب ، وللحصول على مواد جديدة لتصنع منها هذه الأدوات . وبالرغم من ذلك فإن هناك عيوباً بسيطة في أجهزة أدوات تقوية القلب الموجودة في وقتنا الحاضر . حيث نخشى دائماً من عطل يصيب المعدات ، وهو

في القرن التاسع عشر ، درس إيرلنديان وهما روبرت أدامس (١٧٩١ - ١٨٧٥) ووليام ستوكس (١٨٠٤ - ١٨٧٨) المرض الذي حمل بعد ذلك اسم ستوك - أدامس ، وهو مرض يجمع بين بطء النبض والأغماء . وفي عام ١٩٥٢ ، خطرت للعالم الدكتور بول زول فكرة إعادة تحريك قلب متوقف بواسطة شريطين كهربائيين فوق صدر المرض .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، تخيل العالم فورمان تدريب القلب بواسطة سابر . وأبتداء من هذه الأبحاث التجريبية السابقة واعتمادا على نتائجها ، تناولت أدوات تقوية القلب إنتاج تيار كهربائي بواسطة البطاريات . ولقد ساعد تطور الإلكترونيك وتطور علم السبيريونيك في ظهور هذه الآلات الالكترونية والترانزيستورات في صنع أدوات تقوية القلب وسهولة انتشارها .

من المعروف أن كل عضلة لها القدرة على أن تنقبض ، بالتالي تنقبض عضلة القلب ، كما تسمى الانقباضات مظاهر كهربائية تولد وتنشئ تغييرا في القوة . أما الرسومات والتدليلات الذي يحصل عليها عند التسجيل فيمثل التسجيل رسم انقباض عضلة القلب وذلك نتيجة مرور التيار الكهربائي . وفي افضل الحالات يقدم موجات متتابة ومتشابهة تظهر باستمرار . وفي كل من الأجزاء ، تجيب موجة موازية لانقباض اذين القلب وموجة أخرى صادرة من بطين القلب تصادف عودة الاستقطاب قمة أخرى وبعد ذلك تبدأ الدورة من جديد .

تتألف أدوات تقوية القلب خاصة من علية دائرية ذات سمك ضئيل للغاية ، كما يكفى حجمها لاحتواء البطاريات ، كما تحتوى على سابر بشكل شريط . أصبح السابر الآن وحيدا ، وهو يمثل الشريط الكهربائي الذي يجرى ادخاله في الوريد الأيمن أو الأيسر للرأس ، ويصل بدقة حتى البطين الأيمن .

رأى الحاسبة الإلكترونية «أورال» مع رأى الأطباء . وعند إجراء العمليات ثبتت صحة تشخيص الآلة . كما وضعت نظريات ونظم التشخيص الطبي التى يستطيع الأطباء بواسطتها فى العيادات أن يحددوا لا تشخيص عيوب القلب فحسب ، وإنما كذلك أمراض الكبد والمعدة وبعض الأمراض المعوية والأمور المختلفة ، بما فيها أورام الدماغ .

✽ اذن الكترونية للصم والبكم

خلال المؤتمر العادى مشير للحديث من أمراض الأذن والالتهاب والحلق ، وقد قدّم في بونس ايرس «الارجنطين» ذكر الدكتور كلود شوارد أنه حقق مع مساعدة ومساعدة علم الالكترونيات «أذنا الكترونية» يمكن أن تقدم مساعدة هامة للصم والبكم . أوضح كيفية وصوله لدمج عقل الكترونى (أوردنباير) صغير فى الأذن الداخلية ، ومع تحقيق الاتصال مع أطراف عصب السمع ، وضعت هذه الآلة اللاقطة نهائيا تحت الجلد ، وبلغ قطرها الفعلى سنتيمترين مع سمك يبلغ سنتيمتر واحد ، كما تتلقى النبضات الكهربائية المعنطة للدياع منتقل ، بحجم آلة تسجيل صغيرة . يعتبر الدكتور شوارد اختصاصيا فى أمراض الأذن والالتهاب والحلق ، وقد سبق له أن وضع بنجاح خلال عام ١٩٧٢ اشربة كهربائية فى الأذان الداخلية للثلاثين شخصا من المصابين بالصم . تتصل هذه الاشربة الكهربائية بألة غير منتقلة ، وقد

سمحت للمرضى بالاتصال مع العالم الخارجى . تمثل هذه الطريقة صعوبات سائدة ، إذ تفرض على المرضى الخضوع كل أسبوع لمعالجة لتجنب إخطار التهابات . أما الآلة التى أعدت اليوم فقد تحققت فى أقل من عامين بين سبتمبر ١٩٧٤ ونهاية عام ١٩٧٦ وحتى الآن ، وأقيمت «الأذن الالكترونية» لدى ثلاثة أشخاص أو أكثر من الصم والبكم ، وقد سمحت لهم بالاستماع والحديث بعد عدة أشهر من التدريب .

يقع فى مختلف الطبقات سواء كانت الآلة ضعيفة أو البطاريات فارغة والإشربة مقطوعة أو السابىر منتقلا من مكانة . وبالتالي ومن المستحسن أن يساهم المريض فى مراقبة ساعة الاسعاف المرافقة . ومن ناحية أخرى ، لا يعمل الطبيب المعالج مريضة ، وهو يراه فى مواعيد محددة ، كما أنشئت مراكز لمراقبة هذه الآلات . كما أن دراسات تردد النبضات يعتبر حاسما ، ويحصل على ذلك بوسائل عديدة : فحص النبض كل أسبوع - الفحص الهائفى وإشارات «بيب بيب» التى تكشف وتحول الى إشارات صوتية ، وكل ذلك لا يبعد عن مصلحة المريض بشكل مناسب ، كما لا تثير هذه التدابير خوف المرضى ، بل على العكس ، تثير فى نفوسهم الاطمئنان ، كما تسمح لهم بالحياة فى ظروف معقولة . وبشكل خاص يتعلق الامر بالذين يشكون من عدم انتظام عمل الأذن والبلع ، ومهما كان اصل هذه الشكوى . بإمكان أمراض أخرى أن تستفاد وتعالج بواسطة هذه الآلات . وطالما لا يوجد حل كامل لتقضايا الانسجة والمناعة التى تحد من عمليات تطعيم القلب . فان هذه الآلات تبقى وسيلة الاسعاف الحقيقية لمرضى القلب . ومن هذا المنطلق أقيمت فى الدول المتقدمة مصانع لإدوات تقوية القلب لدى حاجة المرضى لمثل هذه الادوات لتساعد القلوب المريضة .

✽ الحاسبة الإلكترونية «أورال»

هى حاسبة الكترونية ذات تشغيل برنامجى . وتعتبر الأجهزة الالكترونية هى العناصر الاساسية فيها ، وهى قادرة على إجراء ملايين العمليات وأكثر من ذلك فى الثانية الواحدة . وهذه الحاسبة الالكترونية «أورال» تستعمل لتشخيص الأمراض . فهى تضع فى السنة حوالى ٢٠٠٠ تشخيص لعيوب القلب الوراثية ، وليس هذا فحسب بل أنها أحيانا تكون أكثر دقة فى التشخيص من الطبيب المعالج ، فقد حدث أكثر من مرة أن اختلف

تطبيق العلاج بواسطة المياه المعدنية . اذاع كل من الدكتور روبرت كوفيلير والعالم كلود لاروش والأطباء الباحثين جود لويسكي وجون دي لاور ما برهنته الاختبارات والأبحاث التجريبية التي تمت على الفئران في مختبر المياه بمستشفى فيشي بفرنسا عن فعالية العلاج بواسطة المياه المعدنية ، وقد تبينت فائدها خاصة في علاج التهاب الشرايين في الاعضاء السفلى وأمراض الاوردة وأمراض اجهزة التنفس العليا . وسجلت النتائج ان ٦٠٪ من النتائج كانت مرضية ، ٢٠٪ من النتائج غير مرضية ، ٢٠٪ من النتائج فاشلة .

وبصورة عامة ، تبين أن المرضى الذين يحصلون على افضل نتائج العلاج بواسطة المياه المعدنية هم دون الخامسة والستين .

اما لدى المرضى الذين هم دون الخامسة والاربعين ، كانت ٨٪ من النتائج المدهشة ، ٦٠٪ جيد جدا ، يعتبر النجاح سريعا وعميقا بقدر معالجة المريض منذ ظهور أعراض المرض في البدء .

❖ الاجهزة الاتوماتيكية في خدمة المعجزة :

ان عالم الاجهزة الاتوماتيكية في ايماننا هذه شديد التنوع . وهو دائم التوسع والتعقيد، وتعتمد الاجهزة الاتوماتيكية على تحديد مايسمى باستقرار النظام وبذلك يمكن مقاومة مختلف انواع الانحرافات في العمل ، وعلى حساسية الاجهزة الاتوماتيكية . فساهم هذا الفرع من التكنولوجيا بتقديم خدمات عامة للمعجزة لاعطائهم فرصة المشاركة مع الآخرين بالحياة العادية .

فكلمت لهم آلة تدعى « هانديكار » أي حرية اليد الكهربائية ، وهي تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشكل مستقل بدون مغادرة مقعدة .

❖ تكنولوجيا النفخة غير المنتظمة للتحركات الموجبة الصوتية لعلاج أمراض الأذن والأنف والحنق .

يحدث عادة ان امراض الاذن والانف والحنق تسبب انسداد قناة تسمى بقناة أوستاش وتقع بين الفم وطلبة الاذن . تعتبر هذه القناة يصعب الوصول اليها لمعالجتها حيث يتراوح قطرها بين مليمتر واحد ومليمترين . وبصورة عامة تصيب هذه الامراض غالبا الاطفال وخاصة التهاب الاذن الداخلية (حيث يصاب ٢٪ من الاطفال في سن الدراسة) بالالتهابات في قناة أوستاش وفي حالة تكرارها اى تكرار اصابة الطفل بهذه الالتهابات ، تعتبر هذه الاصابات سيئة بالنسبة لقناة أوستاش والواصلة بين الاذن المتوسطة والجزء الداخلى لطلبة الاذن .

ونتيجة الالتهابات الحادثة في الاذن المتوسطة تسبب خلل في توازن الضغط بين جانبي طلبة الاذن ، ومن المحتمل ان يحدث الصمم . عندئذ يلقى الانف والحنق افرازات تسيل من القناة المسدودة . وعند تجمع هذه الافرازات ، تحدث التهابات وتلف المخاط . كما يعود ٤ الى ٥ ٪ من هذه السدود الى الحساسية . ولذلك أعدت طريقة تكنولوجيا تعتمد على أسس علم الصوت في الفيزياء وهذا التكنيك تم انجازه بواسطة المختبرات البحرية لتحديد الضغط اللازم الذى يسمح بمساعدة « نفخة الصوت » بفتح القناة عند الابتلاع . كما استنكر أيضا اطباء امراض الاذن والانف والحنق استخدام الادوات القاضية على الجرايم مثل المضادات الحيوية وذلك بشكل دائم لأن ذلك يحدث زيادة في عدد اصابات الالتهابات الجلدية بالمقابل .

كما اشاروا الى محاسن العلاج بالمياه المعدنية لامراض الاذن والانف والحنق حيث انه نتيجة للدراسات والاحصاءات حول

والصفات التكنيكية للهندكار تتناول
الآتي : -

- دراجة كهربائية ذات أربع عجلات .
عجلتان أماميتان للحريك والتوجيه، وعجلتان
مستقلتان في الخلف .

- هيكل الدراجة من مادة البوليستر القوي
وتسح لشخصين . أما قاعدة حمل الدراجة
فهى من أنابيب الفولاذ الملتحمة .

- فرامل هيدروليكية وتوجه بواسطة
رافعة أمام القائد .

- محرك كهربائي بقوة ٩٦ فولت و ٤ كيلو
وات وهو يحرك العجلات الامامية .

- الاستهلاك ، ١٠ كيلو وات ساعة للتعبة
الكاملة مع استقلال للتنقل بين ٥٠ ، ٧٠ كيلو
مترا .

- أقصى سرعة : ٥٠ كيلو مترا في الساعة .

- مجموعة الكترونية او كهربائية ميكانيكية
توجه بواسطة مقود دائرى له تأثير على
تموين المحرك الكهربائى .

وبالتالى نجد ان هذه العربية الكهربائية
تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل
بشكل مستقل بدون مفادرة مقعدة اذ يكفى
الضغط على زر كى يهبط حتى مستوى الأرض
ويسمح ذلك للعاجز بالدخول الى المركبة من
الخلف بواسطة الدفع ، كما يفعل ذلك عادة
بواسطة عجلات عربته . يضبط مجددا
على زر يرفع مستواه كما ينفق الابواب في
نفس الوقت . وهناك نظام أوتوماتيكي لتجميد
التمدد السيار .

جهاز للمواليد قبل الوعد

حققت المؤسسة الأوروبية للأبحاث
والتطبيقات الطبية معدات بسيطة تسمح بنقل

المواليد «الخدج» الذين وضعوا قبل الموعد الى
مركز العناية اللازمة في ظروف جيدة تشمل
عدم الحركة والمزلة الحرارية أى الابتعاد
عن تغير في درجة حرارة الوسط والمراقبة
وهذا تحت عنوان ايزوكوك . درست هذه
المعدات الجديدة ونظمت بالاتصال مع قسم
المساعدة الطبية للحالات المستعجلة في باريس،
ويديره العالم الدكتور كارا . وقد استخدمت
حتى الآن للنقل ١٥٠٠ مولود جاءوا قبل
الموعد . . ويتراوح وزن المولود بين ٦٠٠ جرام
الى ٥٢٠٠ جرام، لقد اعد شكل من البوليسترين
المتمدد (مواد بلاستيكية تبدو بشكل خلى
وتدعى كذلك « رغوة » بلاستيكية) وهى
تتألف من هيكل وغطاء يسمح باطلاق حرية
رأس الطفل ، ويسمح الهيكل الفارغ بإقامة
المولود وعدم حرته بواسطة رداء وغطاء
عازل ومعقم . . . بعد وضع المولود بهذا
الشكل يؤمن الغطاء بعزلة حرارية مع السماح
باعطاء الاوكسجين للطفل لتسهيل عملية
التنفس . أما الميزات الرئيسية للايزوكوك
فتتناول الآتى :

- الوزن حوالى ٩٠٠ جرام ، أى خمسين
مرة اقل من المعدات الكلاسيكية .

- لا يحتاج الى أى مصدر خارجي للطاقة .

- حجمه ضئيل (٧١٠ × ٤١٠ × ٢٢٠
مليمتر) .

يسمح كذلك بتحقيق جميع فنون التنشيط
- اعطاء الاوكسجين ومد الانابيب - التنفس
- اعطاء الدم . . . الخ وذلك في ظروف تأمين
مطلق بسبب عدم وجود آلة كهربائية .

الاسعاف الطبى السريع

في باريس يؤمن قسم « المساعدة الطبية
والاسعاف السريع » أعمال تنسيق الاسعافات
السريعة ، وقد اقيم في مستشفى نيكر ويديره
العالم كارا . حيث يؤمن عدد من عمال المخابرات

منخفضة ، وتملك أيضا دقة في القياس الحراري (درجة الحرارة للمريض) بمعدل عشر الدرجة بين ٣٥هـ ، ٥٠هـ درجة سنتجراد . اما المجموع فيوجد داخل وعاء بلاستيكي مرقم يبلغ طوله ثلاثة سنتيمترات بعرض سنتيمتر وبالإضافة الى مقبض . ترتفع جميع مقاييس المواد بنسبة حرارة الجسم وتحول من الحالة المتبلورة الى الحالة السائلة كما يتبدل لونها بفضل اضافة مادة تلوين .

تمود فائدة هذا الترمومتر الطبي الحديث الى سهولة أكثر في قراءة درجة الحرارة بالنسبة للمريض ، كما تمود الى دقة أكثر وسرعة عطب أقل وسلامة صحية أكثر عند استخدامه (يستخدم مرة واحدة) ويبلغ لمنه حوالي فرنك فرنسي بالنسبة لوازيين الحرارة الكلاسيكية .

❖ تكنولوجيا الفيزياء النووية وأهميتها

في المجال الطبي :

سمحت تكنولوجيا الفيزياء النووية باقامة اول سيكلوترون طبي للخدمات الطبية في القارة الاوربية وذلك في مستشفى فريدريك - جوليو بأورسيه بفرنسا ، ويسمح ذلك باستخدام الاشعة النظائرية وسيخصص من ناحية لعلاج امراض السرطان بواسطة النيوترونات ، وضع السيكلترون داخل جدران مسيكة من الاسمنت وذلك بجوار معامل الكيمياء وغرف فحص المرضى . وذلك لتسهيل نقل العناصر المشعة المستخدمة ، حيث انه كفى ثوان معدودة لنقل هذه العناصر المستخدمة والتي تتجاوز فترة نصف حياتها اقل من نصف ساعة اي ان مدى الحياة لها قصير - وذلك بواسطة الضغط الهوائي داخل انابيب خاصة لل نقل . يجري انتاج العناصر داخل غرفة بتحقيق فيها العمل بشكل اوتوماتيكي الى اقصى حد وهنا نجد أهمية الأمانة حيث

سننلردستت وطبيب على الاقل سرعة الاتصال الإذاعي والهاتفي الدائم ، وقد وضع ذلك تحت تصرف القسم المتنقل مع خمس سيارات للاسعاف ، كما يمكنه الاستعانة عند الحاجة بطائرات الهليكوبتر التابعة لرجال الامن والحماية المدنية .

اما دوره الرئيسي فيتناول خاصة نقل المرضى بين مختلف المستشفيات . كما تتصل سيارة الاسعاف المجهزة بطبيب التخدير عن طريق الاذاعة بسيارات الاسعاف التابعة للشرطة ، كما تتصل بقسم المساعدة الطبية والاسعاف السريع .

يحقق المساعدة الطبية السريعة ونظام الاسعاف السريع مايلي :

- اعداد بيان يومي بشأن لائحة الاسرة الشاغرة في قاعات الاسعاف .

- تأمين النصائح الهاتفية .

- ادارة القسم المتنقل للاسعاف السريع ، حيث يهتم هذا القسم بشكل خاص باسعاف المرضى وعند الحاجة بنقلهم بواسطة سيارات الاسعاف والهليكوبتر او الطائرة .

❖ طريقة جديدة لتسجيل حرارة الرضى

قدم العالم الصيدلي مارسيل جيو طريقة جديدة لتقدير الحرارة خلال الاجتماع الذي عقد في اول يونيو سنة ١٩٧٦ امام اكاديمية الطب الوطنية الاوربية - ويعتمد الميزان الحراري (الترمومتر الطبي) الذي موعه العالم جيو على قوانين انصهار المركبات الكيميائية وهي في الحالة السائلة . كما انها مقررمة لتسجيل حرارة الفم (تحت اللسان) يتألف ميزان الحرارة الجديد أساسيا من خمسين قطعة بلاستيكية صغيرة يحتوي كل منها على كمية من المواد المتبلورة عند درجات

وإذا كان لهذا التكنيك فوائد عديدة في مجال الأبحاث التطبيقية فله أهمية أيضا في مجال الأبحاث الأساسية . وهذا التكنيك لا يرونا فقط بإمكانية الحصول على مقاطع رقيقة من العينات المطلوب فحصها ودراستها « مثل الطرق المستخدمة في فحص مقاطع رقيقة جدا من المواد الأخرى » ولكنه أيضا يرونا بمنافع أخرى وهديدة الأغراض نتناول منها الآتي :

- رؤية المظهر الخارجى للخلايا .

- رؤية الغطاء البلازى مع إمكانية رؤيته بسهولة بواسطة النزع الجوى لغطاء الخلية .

- رؤية المظهر الخارجى للنواة ، والفجوات الصغيرة ... الخ .

- دراسة الاسطح المزقة لهذه الامضاء الحية . كما لهذا التكنيك فوائد أخرى ، فانه يسمح بإزالة تكوين الشوائب غير المرغوبة والتي من الصعب مراقبتها عند التكوين . ويتم هذا التكنيك Cryodécapage تحت فراغ كامل . ويفهم بالخلاء (الفراغ) الغال ، وخاصة الهواء المخلخل بدرجة عالية . حيث يتم التبريد بطريقة قطع العينة المتجمدة تحت هذا الفراغ . كما يزود هذا التكنيك بترموتر الازدواج الحرارى وذلك لمراقبة درجة الحرارة . وبعد اتمام الحصول على السطح الممزق والمنتج اثناء قطع العينة المتجمدة والتي تم لها عملية Cryodécapage تبدأ الخطوة التالية وتسمى الطبع أى يتم تبخير جزئيات من الكربون على العينة المقطوعة ، ويتم كل هذه الخطوات تحت الفراغ . وبعد ذلك من السهولة التامة فصل الطبقة المتبخرة والتي ترسبت على العينة والمميزة لتكوين الخلية بواسطة الميكروسكوب الالكترونى . ومن المميزات والفوائد الأساسية لاستخدام الخلايا المتجمدة في الحالة الحية وذلك لغرض فحصها ودراستها ، فانها تحتفظ بحيويتها عند

انها مرحلة من مراحل الانتاج الصناعى تتميز بتحرير الانسان من الاداء المباشر لوظائف ادارة العملية الانتاجية ونقل هذه الوظائف الى الاجهزة الاوتوماتيكية . أعدت هذه الآلة النموذجية والصغيرة الحجم من قبل شركة س.ج.م.د.ف والمربطة مع شركة تومسون س.اس.اف - وذلك لحساب مفضية الطاقة للدوية . وبإمكانها العمل مع فريق من الفنيين المتخصصين في هذه المجالات . أما استغلالها بشكل واسع فيغرض وجود عمل فريق بحثى هام من علماء الكيمياء الذين يعملون على توسيع واستخدام الوسائل الجديدة والسريعة لتخليق الجزيئات المرقمة . وقد تطورت هذه الفنون بفضل برامج الأبحاث التى تتعلق بالفيزياء النووية ، وقد وجدت تطبيقات هامة على الصيغين البيولوجى والطبى وخاصة الالكترونىك والميكانيك والتحليل الكيمائى او فنون تخليق المواد الجديدة ، وأجهزة الحس الالكترونى وتطبيقات الجهر الالكترونى الماسح . فنتيجة ذلك تطور الطب النووى تطوراً سريعاً وتحقق سيكلوترون طبى لمعالجة الامراض السرطانية بواسطة النيوترونات .

❖ طريقة تكنولوجية حديثة لفحص الخلايا والأنسجة الحية بواسطة استخدام الميكروسكوب الالكترونى .

يقدم هذا التكنيك إمكانيات رائعة وحديثة لفحص المواد البيولوجية والطبية ويطلق على هذا التكنيك اسم Cryodécapage (تبريد - Cryo = إزالة - décapage) والتطبيقات الشائعة في هذا التكنيك تتناول الآتي :

- دراسة الخلايا النباتية .

- فحص الميكروبات الحية غير المرئية بالعين المجردة .

- فحص الأنسجة النباتية .

أعدت شركة فرنسية - انجليزية للأشعة آلة تستخدم أشعة اكس وقد أطلقت عليها اسم دانسيكوم . يتعلق الأمر بطريقة تحدث ثورة في ميدان استخدام تكنولوجيا الإشعاع . يمر شعاع دقيق من أشعة اكس فوق المخ وذلك بشكل طبقة بعد طبقة . تجمع المعلومات بشكل اشارات كهربائية وترسل الى العقل الالكتروني (أورد يناتير) ليعمد تركيب الصور .

وهكذا يمكن مشاهدة مالم يسبق تحقيقه بواسطة التصوير بالأشعة - الأورام الخوخة - تشويبات أومية الدم وكل أمر هام يجب اكتشافه بسرعة لاتأخذ المريض .

وتتناول هذه الطريقة كالآتي :

يمتص المخ الأشعة عند مرورها ، كما يقيس جهاز الكاشف أهمية هذا الامتصاص للأشعة . اما المحول المستخدم بالجهاز فيحول الفرق الحادث الى أرقام حتى يمكن دراستها ومعالجتها بواسطة استخدام العقل الالكتروني . تم تفرير أسطوانة الفيديو هذه الأرقام الى صور واضحة على شريط مغناطيسي لتسجيل صور التلفزيون . كما يأمل الذين يستخدمون الأشعة توسيع تطبيق هذه الآلة في أجزاء أخرى من الجسم .

❖ علاج المرضى المصابين بسرطان الرئة :

ان الجراحة في الوقت الحاضر هي العلاج الوحيد الذي يستطيع شفاء عدد من من المرضى المصابين بسرطان الرئة .

في مركز جراحة ماري - لا نيولونج في باريس، اجريت عمليات لافى مصاب بالسرطان البدائي في الرئة وقد شفى ١٣٪ من الذين اجريت لهم عملية منذ خمس سنوات على الأقل . اجريت عمليات أخرى لثمة وستة مرضى مصابين بداء السرطان الثانوي « ميتا ستاز » وقد شفى ٣١٪ من الذين

التحضير بها لهذا التكنيك - كما اثبت هذا التكنيك من الامكان ويدون أى مصاصب دراسة هذه العينة المحضرة والمنتجة بهذه الطريقة بأنها تعطي صورة Cryodécapage

حقيقية للخلايا والانسجة الحية . وبهذا ثبت بان العينات لم يحدث ولا يطرأ عليها أى تعديل اثناء التحضير بطريقة Cryodécapage وفحصها باستخدام الميكروسكوب الالكتروني . وهنا أود اوضح ان الميكروسكوب الالكتروني عند تشغيله يستخدم الشعاع الالكتروني بدلا من الشعاع الضوئي كما في الميكروسكوبات الضوئية .

❖ تكنولوجيا الإشعاع وعلم الكيمياء في معالجة الأمراض السرطانية وغير السرطانية .

تستخدم طريقة تكنولوجيا لمعالجة بعض الحالات الشاذة لأومية المخ . وهذه الطريقة التكنولوجيا الجديدة لا تحتاج الى ضرورة اجراء عملية جراحية للمريض . حيث أن هذا التكنيك العلاجي بواسطة الفحص الاشعاعي يتم من طريق اعطاء فرصة للإشعاع كي يتغلغل الى الأوعية المصابة مستخدما ساير الكترونكس مغطى بغطاء على شكل بالون . ينفخ بعد ذلك الغطاء ويكون بمستوى جرح الأومية التي تحت العلاج مما يحدث سدا للقرح مع المحافظة على امتداد الشريان ، وهذا يسمح بنشأمين وصول الاوكسجين بشكل جيد . كما أن هذا التكنيك الحديث مخصص حاليا لمعالجة الشقوق الناتجة من رضوض الوجه وعدد من اشكال القروح التي تصيب شريان القلب والتي لم تكن لوقتنا الحاضر قابلة لاجراء عملية بواسطة جراح الاعصاب ، وعمليا فير قابلة للعلاج بأي طريقة أخرى . ومع ذلك فبالامكان توسيع نطاق هذا التكنيك في حالات عديدة قبل اجراء عملية جراحية من اجل البحث عن افضل مكان لاجراء العملية بمستوى أومية المخ وذلك لعدد الاف مرور شريان القاب .

دعت هذه النتائج الإيجابية الى محاولة استخدام هذا العلاج مع المرضى الذين استؤصلت الاورام لديهم مع المحافظة والعناية على العضو المصاب والزود ببسطة عظيمة الحماية وتحل مكان قسم الورم المقطوع . كما تدل ملاحظات أخرى تتناول معالجة اورام المبيض والأمعاء الغليظة والمعدة والرئة لدى عدد محدود وخاص ، تدل على اتجاه اطباء السرطان حاليا هو اتجاه يهدف الى عدم الاقتصار على العلاج المحلى بواسطة الجراحة والأشعة ، وإنما للاستعانة ايضا بعلاج كيميائي عام لمهاجمة المرض عندما لا يمكن ادراكه وهو موجود . كما سيسمح هذا الشكل الجديد لمكافحة السرطان الثانوي بمساهمة المريض بمساهمة فعالة وحقيقية في علاجه ، كما يمكن بهذه الطريقة ان تعطى فرصة طيبة لاجراء عملية تعديل كاملة وتحسين العلاقة بين المريض واطبائه .

قدم كل من الطبيب دوبارك وديكولكس تقريرا يبين التقدم التكنولوجي الحديث في مكافحة السرطان الثانوي (ميتاستاز) للعظم . يمثل السرطان الثانوي والمعروف بالتكوين البدائي السرطاني انتقالا او مراكز ثانوية للاورام الخبيثة التي تبدو في موقع بعيد من المنظمة في البسء .

يقدر الطبيب دوبارك والطبيب ديكلوكس ان عشرين بالمائة تقريبا من الاشخاص المصابين بالسرطان قد عرفوا الإصابة بظهور السرطان الثانوي للعظم .

تؤلف الخلايا السرطانية مجموعات بمستوى العظم وتسفر عن تحطيم تدريجي للنسيج العظمي والذي يترجم بشكل كسور . بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠ ادخلت الفنون التقليدية لجراحة النسيج العظمي هذا العلاج الجراحي في حالة ظهور علامات السرطان الثانوي العظمي ولم يكن يعرف قبل ذلك غير العلاج بواسطة تنظيم التشويه عن طريق تجميد العضو

اجريت لهم عمليات تمود الى ثلاث سنوات على الاقل . اما الوفيات خلال العمليات فلا تتجاوز ٣٥ ٪ . يعود التقدم الذي تحققت في هذا الميدان خاصة الى معرفة المرض باكرا كما يعود الى مراقبة عدد من انواع السرطان المتطور والى علاج كيميائي اكثر فاعلية واخيرا الى تحسين طاقة العلاج بواسطة الكوبالت الاشعاعي .

شدد العالم بوبار (باريس) على ضرورة الجمع بين عدد من الادوية التي يعتبر تأثيرها المشترك له فاعلية اكثر من تناول كل علاج على حدة . وبهذه الوسطة يمكن للعلاج الكيميائي ان يامل القضاء على الخلايا السرطانية بشكل اهم . كما تبين ان العلاج بواسطة الاشعة يمكن ان يستخدم بين مرحلتين من العلاج بواسطة الادوية الكيميائية . . . ومع ذلك ، يجب ان يستخدم في البدء عندما تسد القرحة شعبة الرئة وتسمى الى التنفس ، من ناحية أخرى ، يعتبر العلاج بواسطة الادوية الكيميائية مفيدا بعد انتزاع القرحة السرطانية . اما النتيجة فتتحسن بمعدل خمسين في المائة وبماكانها كذلك استدراك او تخفيف الانتكاس .

❖ معالجة سرطان العظام :

يسفر هذا النوع من السرطان عن ظهور مرض الرئة . ولفتت الانظار خاصة للاعمال التي يقوم بها العالم جافيه ورفيقه في الولايات المتحدة ، وهي تناول استخدام العلاج الكيميائي بالادوية الكيميائية في البداية وذلك لوقف نشاط ظهور المرض الذي لا يزال في حالة بسيطة . وهكذا يبدو ٦٠ الى ٨٠ في المائة من المرضى الذين يعالجون بهذا الشكل في حالة مرضية (طيبة) بعد مرور اربع سنوات من اجراء العملية الجراحية ، ولا تبدو لديهم علامات ظهور المرض ، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٠ ٪ لدى المرضى الذين يعالجون بالجراحة فقط .

الموضوع بطريقة مركزية داخل قالب استوائي من الصلب اللين ومن الضروري بعد ذلك ان يجرى اجراء البلمرة تماما لمركب الاسمنت الاكريليكي وذلك لزمين يتراوح ما بين ٢٠ دقيقة او اكثر .

❖ أمراض الشدى

نجد هنا مدى اهمية تكنولوجيا العصر في التوصل السريع والكشف عن الجروح في انسجة الشدى حيث ان امراض الشدى « الطفيفة » نجد لها اهميتها وخطورتها . لان مضاعفة الاورام في السرطانية والتي تعتبر في البداية ليس لها اهمية يمكن ان تؤدي الى استئصال الشدى بشكل كامل . لذلك من المهم ان تنجى الى علماء تكنولوجيا العصر لخدمة هذا المجال . اشار اطباء امراض الشدى الى انه من المهم الكشف سريعا عن الجروح في انسجة الشدى . وهنا تتدخل تكنولوجيا العصر لتجد الطريق السليم لاتخاذ المرضى . يجرى جمع المعلومات المتعلقة باستخدام وسائل تكنولوجيا العصر للفحص وذلك للحصول على خلاصة نتائجها بغية الكشف عن اصغر ظاهرة مرضية .

اعدت طريقة للفحص ولا تزال في مرحلة الاختبار ، وهي تتناول تسجيل ومقارنة تبدلات القوى الكهربائية البيولوجية بمستوى الشدى ، ويسمح ذلك بتحديد الشدى الطبيعي والشدى المريض ، وذلك بغية لاهمية التغير الملحوظ في السعة . كما امكن تحديد اصل عدد من الاورام الصغيرة التي تبدو في الشدى على سبيل المثال ، نذكر منها ان الاكياس لا تتطور اطلاقا نحو السرطان ولكن يعود اصلها الى عوامل نفسية وجسدية . نتيجة ذلك ادت الى الاهتمام بدراسة وفحص خطوط الجلد والاصابع واليد بأكملها لدى ثلاثة آلاف امرأة فقط لوحظ ان عددا من هذه الخطوط يدل اتجاه « تجسيد » المواظف والاجهادات على الصميد الجسدى . وفي الوضع الحالي لهذه الاعمال ، قدر ان بعض الحالات الخاصة من الامكان ان يشار اليها وهي قابلة لاصابة

المصاب بالجمص . في الوقت الحاضر - تطورت فنون تكنولوجيا التحطيم التدريجي للنسيج العظمى او البدلات الخاصة بكسور العظم . وهي تحمل املا جديدا للمرضى . يكمن هذا الامسك بامكانية الانتقال بحرية وبدون خطر يهدد انكسار العظم . يحل هذا الفن فوائد جديدة كما يبين اهمية تكنولوجيا علم البوليمر في العلاج الطبى الحديث والتي ساعدت هذا الشكل الجديد للعلاج .

وهناك اولا استخدام الاسمنت الاكريليكي ، حيث يجرى حفر العظم المصاب ويملا الفراغ بالاسمنت . وبالامكان كذلك استخدام مسمار في عظم المصاب ، وتجرى تقويته كذلك بالاسمنت الاكريليكي .

وبالامكان كذلك بالاسمعة « بالتحطيم الشامل » الذى يؤمن صلابة فورية ويسمح بالحصول على تقوية العظم بحيث يستطيع المقاومة فورا وطوال فترة طويلة امام الحركات الميكانيكية التي يخضع لها . اما جراحة استبدال الاعضاء فتمثل شكلا آخر للعلاج ويوصى بها : ان تقوية البدلات بواسطة الاسمنت الاكريليكي هي عبارة عن عنصر اساسي لنجاحها . ويعتمد الاسمنت الاكريليكي الجراحي على مادة بولي ميثيل مينا اكريلات وتستخدم كمادة اساسية لمركبين ، في احدى المركبين تكون جزئيات سلفات الباريوم منتشرة داخل المادة الاساسية . وتخلط كمية مغلوقة من جزئيات سلفات الباريوم بيودرة البولى ميثيل اكريلات ويضاف بعد ذلك سائل الميثيل مينا اكريلات للخليط بالنسبة الاتية :

جزءان من بولي ميثيل مينا اكريلات وزنا .

١ - جزء من مسائل ميثيل مينا اكريلات وزنا .

وبعد ذلك يخلط خليطا جيدا وان يكون في حالة رخوة ويضغط حول قصب من الصلب

لامراض الشدى الطفيفة نتيجة للامرض السابق ذكرها .

ومع مراقبة طبية سليمة ، ليستطيع الحياة بشكل عادى على قدر الامكان .

❖ التكنولوجيا وميدان طب الاسنان :

اقيم في عام ١٩٧٤ المؤتمر الثاني الوطني لجمعية طب الاسنان الفرنسية في قصر المؤتمرات بباريس وتناولت اكثر المذكرات العلمية نزاع اللثة من الاسنان واصابتها بالقروح وبنسبة هامة . توازى اصابة الاسنان بالقروح كمية استهلاك السكر . كما لا يوجد اى لقاح ضد قرح الاسنان ، ومن اجل تجنب هذا المرض ، لا بد من المحافظة على الانظمة الصحية والاساسية لتنظيف الاسنان مرارا كل يوم وذلك لمنع ظهور طبقة تتراكم فوق الاسنان . كما يعتبر نزاع اللثة من السن مسئولا عن استئصال عدد كبير من الاسنان .

واذا عني بالاسنان باكرا بالامكان شفاؤها وذلك بفضل جراحة تسمح بالشفاء على رسوب الطرمة فوق اللثة . اما افضل رقابة لهذه الظاهرة فهي نظافة الفم . وبهذا الشأن أيضا أسفرت عدة أبحاث عن أعداد بدلة الاسنان اى جهاز صغير يقوم مقام عمل السنن وأوضحت النتائج باننا الان نشهد نهاية اسطورة الذهب . الواقع ان هذا المعلن الثمين يستبدل اكثر فاكتر بمزيج يتركب من اساس يعتمد على النيكل والكروم - تملك هذه السبيكة مميزات مماثلة ولكنها اصعب اعدادا لانها اقل ليونة . ومع ذلك يعتبر سعرها اقل ، مما يسمح بتحقيق توفير هام عند اعداد بدلة للاسنان . تمكن حوالي سبعمائة طبيب اسنان بكلية جراحة الاسنان بجامعة باريس من اجراء دراسات تكتيكية ترافقها بيانات واقعية صن تأثير الطبقة الصفيحية الشكل التي تغطي السن والتي تحدث التسوس والنخر وتجريد الاسنان . كما انه من السهولة ان يتمكن الانسان من مقاومة تسوس الاسنان والنخر وذلك بالعناية الصحية على الانسان . كما ان تنظيف الاسنان

في نظام... المحادثات التي تمت بفرنسا (باريس) بشأن مرض السرطان والمصابين بداء السكر ويناد على طلب العالم ماتييه حاول اختصاصيان وهما جاكلين فابر وهينريكا أونج تحديد نفسية المصاب بداء السرطان وقد وضحا على التوالي مختلف المراحل التي يتعرض لها المصاب بداء السرطان .

عندما يكتشف المصاب بداء السرطان حقيقة مرضه ، فانه سيواجه مرحلة انهيار عصبي قبل ان يتماثل نفسه . عندئذ من الضروري تخفيف حدة مخاوفه والحديث عن علاجه والحديث مع غيره من عائلته . لانه في حاجة للثقة بالطبيب الذى يقوم بعلاجه وان يحصل على طمأنينة فعلية من طبيبه . ونمت هذه الظروف في الامكان ان يتعاون مع الطبيب لمكافحة المرض . وبالتالي عندما يتأكد ويصرف ان جميع التدابير قد اتخذت للتخفيف من آلامه الجسدية والنفسية، عندئذ يقل قلقه وراحه . كما التح كثيرا كل من الطبيبين جاكلين فابر وهنريكا أونج بضرورة التحدث بين مرضى السرطان وعائلاتهم وكذلك الاطباء ايضا وذلك لتخفيف حدة المرض لديهم . والواقع ان المرضى بداء السرطان ينتظرون من الهيئة الطبية وكذلك من الدين يجاورونهم وعائلتهم قوة الكفاح معهم .

كما اوضح كل من السادة تشويرتسكى، لورانت ، دروين وتوتان غرورة تعليم المصابين بداء السكر منذ البداية ما هية مرضه وكيفية معالجته . كما من الضروري والواجب ان يتخذ هذا التعليم شكلا جديا وعمليا وعلميا . وهو يحتاج الى عشر ساعات تقريبا . وتكمل هذه الدراسات بتوزيع منشورات خاصة على المرضى بداء السكر . وبالتنسية للمرضى الذين يحتاجون لاستخدام الانسولين ، يجب ان يتلقى المريض الاشراف بنفسه على احواله

دوليا شهرا في ميدان امراض الفم والاسنان ، وتناول قسم هام من ابحاثه كيفية تركيب السن . وقد كرس أحدث أعماله وتجاريه العملية البحثية لحركة انتقال المواد الكلسية بمستوى مختلف اطراف السن . كما تناولت أبحاثه بعد ذلك بواسطة استخدام المجهر الالكتروني الماسح (التصوير بالأشعة) ، فحققت هذه الاعمال في اسنان القلط المولود بعد حقن شرايينه بالكلس المشع من نوع (Ca 45)، ويرهن العالم فرائك عن وجود طريقتين لمسحور الكلس (الكالسيوم) من شعب الدم الى الانسجة التي يقويها الكالسيوم المشع . يمر الطريق الاول بين خلايا النسيج والثاني عبر الخلايا المسؤولة عن تركيب العظم . اما قوة وطرافة هذا العمل فتمود لاثباته ان الطريق الثاني هو اهم من الطريق الاول . تتحقق هذه الاعمال والأبحاث بواسطة الحيوانات المولودة ، وهي تقدم معلومات ثمينة حول تركيب الاسنان .

والتطبيقات العملية لمثل هذه الاكتشافات من الامكان ان تتضافر وخاصة في ما يتعلق بالية ظهور وعلاج تركيب السن والانسجة الخاصة التي تعتمد عليها السن عند الظهور .

كما تحدث أيضا العالم بيار فوهر عضو الاكاديمية الوطنية لطب الاسنان بفرنسا عن طريقة جديدة تناول استخدام أكسيد الكالسيوم الثقيل أو الهيكسوكاليكس، اكتشفت هذه المادة الجديدة عام ١٩٧٢ من قبل العالم بيار برنار من باريس. وقد درسها فريق يتألف من ستة باحثين تمكنوا من تنظيم استخدامها بشكل علمي . وقد استخدم الهيكسوكاليكس لمعالجة ١٦٠٠ شخص تقريبا . سمح له ذلك بالقول ان هذه المادة يمكن ان تستخدم بشكل فعال في جميع حالات معالجة الاسنان .

ان امكانيات هذه المادة ليست شئيلة ، وهي تشمل القضاء على جميع الادوية وتخفيض استخدام الادوات اليدوية ، وكذلك تخفيض

بانتظام يكفي في الحقيقة لمنع ظهور هذه الطبقة الصفيحية فوق الاسنان . وهي تتألف بنسبة ٨٠٪ من جراثيم . وفي الواقع هذه الجراثيم تنتهي بمهاجمة الانسجة التي تسند السن ، وبالتالي تحمي هذه الانسجة وتصبح غالبا مقرا للمدوى قبل ان تفقد الطاقة الكلية التي تسند السن قبل الوقوع .

ومن اهم الاستنتاجات التي اسفرت بهذا الاجتماعي العلمي التكنولوجي في ميدان طب الانسان :

— مواد جديدة للاجهزة التي تقوم مقام السن وذلك للحماية وتسمى بالبذلة وملء السدود . كما هناك اصماغ جديدة لها قدرة الالتصاق بالسن بشكل افضل ومن اهم مميزاتها بأنه ليس من الضروري عمل اعداد خاص . وقد اوصى باستخدامها .

— زرع الاسنان ، ويعتبر من التجارب التكنيكية الحديثة، ويمثل ذلك جلدور صناعية حقيقية كما تستخدم كاساس للجهاز الذي يقوم مقام السن او عديد من الاسنان (البذلة) ويوضع على جانبي العظم ويثبت في مستوى سمك العظم ، ويبدو ان الاتجاه السائد نحو استخدام الفهم الزجاجي .

كما توصلوا بأنه يوجد تأثيرات جانبية اخرى وذلك لالتهاب الاسنان ، وبالإمكان ان يكون هذا التأثير على القلب وأوعية الدم والعظام والكلى والمين أو الجلد .

في الوقت الحالي — ولمثل هذه الحالات — لا بد من العمل بعذر شديد وعدم انتزاع الاسنان بدون تبصر . وبناء على ذلك يجب تحديد الموقف بدقة سواء لانتزاع الاسنان أو حفظها تبعا للخطر الذي يمكن أن يكون حيويًا .

يعتبر الأستاذ دكتور روبرت فرائك مدير كلية جراحة الاسنان في ستراسبورج ، اخصائيا

استعمال المواد الكيميائية قبل استعمال المواد المطهرة .

— وجد أن أى مادة كيميائية تستعمل يجب ألا تتعدى حدود قناة العصب حتى لا تسبب أى ألم للمريض في بادئ الأمر .

— كما نستطيع القول بأنه لم يستقر الأمر بعد على شكل وضع هذه المواد عند استعمالها الكليتيكيا . أن استعمال كمية هذه المواد في التجارب العملية كانت أكثر بكثير من كمية المادة اللازمة عند استعمالها الكليتيكيا ولكن هذه الكميات يمكنها أن تعطينا فكرة عن التغيرات التي ستحدث في عاج السن .

ومن التحليلات الاحصائية ومقارنة حامض الخليك ١٠ في المائة ، ٢٠ في المائة وثلاث مواد أخرى متداولة مثل :

EDTA - ENDOSOLVE - LARGALULTRA

وجد أنه يفضل تكرار استعمال حامض الخليك كمادة كيميائية لعملية التوسع الكيميائي الميكانيكي اللازمة في قنوات السن .

❖ الصحة العامة وطب الأطفال

عرفت أبحاث الكلية خلال السنوات العشر الأخيرة تقدماً خاصاً فيما يتعلق بأمراض الكلية والضغط . إذا كان قد تحقق في الواقع تقدم مذهل للعلاج بواسطة الكلية الصناعية وتطعيم الكلية . ولا تزال هذه الوسائل مسكنة كما تمثل حلاً مؤقتة . أن الوقاية من أمراض الكلية ترجع عامة لفصل الدراسات والأبحاث المتعلقة بالوراثة خاصة ، كما أنها ستسمح بتخفيض نقص عمل الكلية لدى الطفل وبالتالي لدى البالغين .

أوضح العالم جون هامبورج عضو أكاديمية العلوم ومدير مركز أبحاث أمراض الكلية في مستشفى نيكربايس وذلك كان خلال المؤتمر الذي عقد بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس

نسبة إجراء العمليات الجراحية ، ومن شأنها كذلك أن تضاعف نمو العظم من جديد .

أيضاً أسفرت هذه أبحاث عن التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص بأقنية جلد السن بعد تعرضه للحامض الضعيفة والمواد المطهرة بالنتائج الآتية :

— لبونة عاج جلد السن بواسطة المواد الكيميائية يقلل الوقت اللازم لعملية توسيع قناة الجذر ميكانيكياً . كما وجد أن درجة لبونة العاج تتناسب طردياً مع وقت الانغماس ولذلك يجب استعمال أى مادة من مواد البحث لمدة ١٥ دقيقة فقط .

— ليست عملية تحديد الوزن المفقود طريقة دقيقة لمعرفة تأثير المادة على علاج جلد السن ، ولكن قياس أيونات الكالسيوم الموجودة في خلايا الكالسيوم المترسبة تعطي ضوءاً أفضل لتحديد تأثير المواد المستعملة في البحث على عناصر العلاج غير العضوية . ومن الواضح من نتائج البحث أن كل المواد المستخدمة تعطي زيادة في أيونات الكالسيوم بعد مضي ٢٤ ساعة مع قشر بسيط فيها بعد مضي ٤٨ ساعة — ومن ضمن النتائج أن تحديد وضع استعمال أى مادة يعطي تفاعلاً محدوداً .

— منجنحيات ونتائج تحليل حيود الأشعة السينية (أكس) أعطت إجابة واضحة عن التفاعلات والمركبات الجديدة الناتجة بين عاج جلد السن وبين هذه المواد .

— كما وجد أن أساس كل المكونات الجديدة الناتجة هي خلايا الكالسيوم ، وأن التغيرات في فوسفات الكالسيوم القاعدية (أساس تركيب السن) تغيرات بسيطة وكل التغيرات تمت في مركبات أخرى مثل هيدروكسيد الكالسيوم .

— درجة نفاذية الصبغة تتناسب طردياً مع وقت الانغماس وهذا يعطي ضوءاً جديداً على

المرض ، وبالفعل ظهرت فعاليته بإيقاف الوباء الأخير الذى حدث في البرازيل .

ذكر العالم تريو من مؤسسة ميريو أنه اذا كانت الأوبئة الكبرى المعروفة مرتبطة بالجراثيم من نوع أ ، س ، فلا يمكن التأكيد بأن الجرثومة من نوع ب تعتبر مسؤولة لوحدها . في فرنسا جرى احصاء كل عام وذلك من الألف الى الألف وخمسمائة إصابة ، كما لا يمكن التأكيد بأنها لن تتخذ يوما هذا الشكل من الانتشار . في الوقت الحالى لم يتمكن التحقيق وتصنيع الطعم المقابل . وأما فيما يتعلق بمرض الانفلونزا وذلك خلافا لالتهابات الأغشية المحاطة بالبحر ، لا يوجد حاليا أى علاج .

يقضى داء الانفلونزا في فرنسا كل شتاء على ٨ - ١٨ الف شخص وبينهم ٩٠ ٪ من الذين تجاوزوا الستين عاما . أما التطعيم فيبدو أفضل الأعمال ، ذكر العالم هاثون من مؤسسة باستير ما يلي :

إذا كانت حماية التطعيم ضد الانفلونزا في البداية غير كاملة (جرعة التطعيم) قليلة مع عدم معرفة سلوك تطور الجرثومة التى تعتبر أصل الوباء . أما اليوم فيفضل تطور فنون تكنولوجيا التقنية سمحت لنا باستخدام جرعات منتجة وذات فعالية قصوى مع اختفاء كل الأضرار تقريبا التى كانت سابقا تنتج عنها .

مثل شهر نوفمبر ١٩٧٥ ولان يجرى يقسم الأمراض المعدية في قسم البحث الطبي الاجتماعى ، وهو تابع للمؤسسة الوطنية للبحث الطبي لأوروبا ، تحقيق يعتمد على نسبة تغيب الطلبة عن حضور الدروس وتعتبر هذه النسبة من التقييم كدليل على أهمية انتشار وباء الانفلونزا . من أجل هذا التحقيق ، جرى اختبار ثلاثية الصف الأول والثانى في المدارس الابتدائية . وتراوح أعمالهم بين السادسة والثامنة ، وهو السن الذى تصيبه عادة أمراض الأطفال المعدية (الحصبة

المؤسسة الوطنية للصحة العامة والبحث الطبي ، فان زيادة نسبة البولينا في الدم ليست ناتجة عن تجمع المادة البلورية من البولينا بل أنها تقضى على هذه المادة أيضا . وأن كثيرا من ذلك برهنت الأبحاث التجريبية خلال سنوات مديدة على أن عجز وظائف الكلية يؤدي كذلك الى سلسلة متوالية من الخلل أو عدم الاتزان في المواد الهامة التى يعتمد عليها أساسا الوسط الداخلى لجسم الإنسان مثل الماء والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم وغيرها من المواد الثابتة . وبرهنت الأبحاث التى تتعلق بأمراض الكلية والتى حققها عدد من الفرق العملية البحثية من العلماء الفرنسيين والمتخصصين في هذا الفرع على ما وراء « أزمة الكلية الحادة » من أمراض خطيرة تؤدي في النهاية لوفاة المرضى . وهذه الأمراض المختلفة تهاجم الكلية وتحدث فيها إصابات ، وأن معرفة كل من هذا الخلل وعدم الاتزان في المواد الأساسية في تركيب جسم الإنسان بشكل أوسع وكذلك البحث عن أسبابه (يتعلق الأمر غالبا بالمناعة) يعتبر لازما للعلاج وكذلك للوقاية من هذه الأمراض . وبحاول علماء الكيمياء عزل المواد السامة واحدة بعد الأخرى وهى التى تجرى مع الدورة الدموية وتعتبر مسؤولة عن الخلل القاتل . أن الكلية الصناعية وحدها هى التى تستطيع حاليا تحقيق عملية التنظيف .

أما فيما يتعلق بأمراض التهاب الأغشية المحاطة بالبحر ، نجد حاليا أن يعاد استخدام المضادات الحيوية والسولفاميد لعلاج مثل هذه الأمراض ، وبالتالي نتج عن ذلك أن نسبة الوفيات تناقصت من ٨٠ الى ٢٠ في المائة ومع ذلك لا تزال هذه النسبة مرتفعة ، ولكن ذلك يعود جزئيا الى قدرة الجرثومة المدهشة والتى تسبب هذا المرض وأصرارها على الحياة والتطور بسهولة لقساومة العلاج . فاهتم الباحثون بتصنيع طعم خاص للوقاية من هذا

الطفل . ولا يوجد مثيل لهذا المركز في فرنسا نفسها او الخارج ايضا ويديره العالم الاجيل .

اسفر وجود هذا المركز ، نتيجة تعاون بين الخدمات المتخصصة بالمستشفى ، عن دراسة التشخيص والاسباب لامراض الكبد لدى الطفل ، وبين وحدة ابحاث امراض الكبد لدى الطفل . وقد انشئت هذه الوحدة من الابحاث التي تتعلق بامراض الكبد بالمؤسسة الوطنية والبحث الطبى عام ١٩٦٩ .

عقد القسم الاول من هذا الاجتماع الدولى تحت رئاسة العالم روبر دى بروفى فى قصر لوانج شامب حيث يوجد هناك مقر المركز الدولى للطفولة . وفى هذا الاجتماع الدولى اجتمع خمسة عشر امريكيا وخمسة عشر اوروبيا . اما المرحلة الثانية فقد عقدت داخل مقر وحدة ابحاث امراض الكبد لدى الطفل . سمع مؤتمر المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى لعدد كبير من الاطباء والباحثين بالمساهمة فى اعمال القسم الاول .

ترتبط احدى الاعمال الجديدة لهذا اللقاء بتنوع الابحاث العلمية . كما ضم الاخصائيين فى الكيمياء الحيوية وفى علم المناعة وعلم الجراثيم وكذلك الاخصائيين فى علم التشريح - والامراض او الاطباء المتخصصين فى امراض الكبد لدى البالغين او الاطفال - وفى هذه المناسبة قامت فكرة السباق الاساسية للتقدم التكنولوجى ودورها الهام فى البحث الطبى .

واشار العالم جوى جود لويكى الى موضوعين حديثين يتملكان بالعلاج بواسطة المياه المعدنية : التهاب الكبد الجسرومى والاتصالات الغذائية للطفل ، وبالامكان يودى موضوع الاتصالات الغذائية لدى الطفل الى انشاء مستشفى خاص لاجل معالجة اضطراب الهضم لدى الطفل .

التقى حوالى عشرة الاف طبيب من جميع بلدان العالم لتبادل معلوماتهم وخبرتهم فى

- التهاب لوزي الاذنين . . . الخ) فى فرنسا مثلا اختيرت ١٢ مدينة . من بينها نانت ، بوردو ، مونبيليه ، ليون وغيرها من المدن . وفى هذه المدن اجرى مراقبة ستة آلاف طفل تقريبا . وفى كل صف يحدد يوميا عدد الغائبين وما سبب التغيب عن الدراسة . وعندما تتجاوز نسبة الغائبين ١٥ ٪ يتوجه شخص مكلف بالتحقيق الى المكان الذى يقع فيه الغياب من اجل تحديد ومعرفة ما اذا كان الامر يتعلق بوباء الانفلونزا . وفى حالة تحديد المرض ويشخص على انه بالفعل وباء الانفلونزا يتناول الخطوات الهامة الاتية :

يجرى التقاط بعاق الحلق لدى الاطفال المرضى وكذلك كل من يجاورهم من العائلة ، ترسل جميع هذه الالار الى مؤسسة باستير فى باريس او الى مركز مراقبة وباء الانفلونزا او الى المختبرات الوطنية للصحة العامة وهى مختبرات تضم قسم الاوبئة . وبالتالي تقوم جميع الفحوصات اللازمة لعزل عدد من انواع جراثيم الانفلونزا ودراستها دراسة بناءة . ونتيجة لهذه البحوث العميقة سمحت للنتائج بمعرفة انتماء هذه الجراثيم الى نوع ا - نيكيتوريا او نوع الثانى من ب .

وبالتالى استطاعوا ان يحددوا نوع الجرثومة التى ينتمى اليها وباء الانفلونزا ، ومن هذا المنطلق بدأت المؤسسات الصحية فى صنع الطعم الخاص لوباء الانفلونزا واستخدام العلاج الكيمايالى السليم للقضاء على هذه الانواع من وباء الانفلونزا .

امراض الكبد لدى الاطفال

عقد فى اوروبيا اجتماع دولى خصص للحديث عن امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى الطفل وكان مقره فى باريس بمستشفى الاطفال بالضاحية الجنوبية . حيث اقيم خلال السنوات العشر الاخيرة مركز ابحاث للدراسة امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى

في الحقيقة ، يعود اكثر حوادث التهابات مجرى التنفس لدى الاطفال والرضع ، كما تعود تقريبا كل اصابات الانف والطلق ورأس الحلق وشعبة الرئة الى اصل جرثومي . وبالتالي تكون المضادات الحيوية والتي تخفض الحرارة (الحمى) ليس لها تأثير على هذه الامراض بشكل عام .

بالنسبة لاصابة الاطفال بارتفاع الحرارة لمدة طويلة غير معروفة السبب . في هذه الحالة يخشى ان تعطى المضادات الحيوية للطفل لانه من الاحتمال ان تعطى نتائج خاطئة او سلبية بالنسبة للفحوص البيولوجية اللازمة للعلاج السليم . اما فيما يتعلق باجراء عملية جراحية قادمة او طفل يتناول ادوية كورتيزونية او ممانعة للالتهاب العنسي ، يعتبر تطوّر التدابير الصحية الشديدة ، وخاصة في المستشفى ، أكثر فعالية واقل خطورة من العلاج الوقائي بواسطة ادوية المضادات الحيوية .

حقق فريق مؤسسة باستير بفرنسا بادارة العالم فرانسوا جاكوب الحائز على جائزة نوبل الطبية - والعالم روبر فور اكتشافا هاما في علم الحياة . سمح هذا الاكتشاف بادراك سبب عدم تأثير مناعة الجسم على الجنين لدى المرأة الحامل وكذلك على السرطان في الجسم ، بينما تعتبر هذه المناعة سبب لفظ الطعوم لاعضاء خارجية . وبالمقابل لم يعن الوقت للقول ما اذا كان هذا الاكتشاف يمكن ان يساهم في معالجة السرطان . وقد تركزت البحوث التجريبية الاخيرة على صعيد البحث الطبى على موضوع الخلايا التي بدلت نظريات الوراثية والفسولوجيا وعلم الامراض بكامله . كما اشار البحث الى علم المناعة مع الاكتشاف الهام الى علم الاجنة مع تخمين الامراض في ذرات الخلايا قبل الولادة ، وكذلك الى علم الهرمونات مع الوسائل الحديثة لمنع الحمل .

نطاق الميدان الطبي والعلاج والجراحة والاختصاصات التكنولوجية العصرية وامراض الفم والاسنان . وتم نقاش أربعة أبحاث حول مواضيع الساعة (المسؤولية الطبية ، ومنع الحمل - حوادث منزلية لدى الطفل ، مراقبة وصف الادوية وعدم الافراط في تناولها - المصابون بداء المفاصل الروماتيزمية) . كما تناول النقاش ايضا جميع ميادين الجراحة العامة والصحة العامة والاختصاصات، وخاصة طب الاطفال، والتوليد وامراض الفم والاسنان اما في مركز المستشفى الجامعي - بينيه - ساليترير فقد جرى نقاش حول الافراط في استخدام المضادات الحيوية لدى الطفل . حيث انه بعد ثلاثين عاما من اكتشاف هذه الادوية، تلبو باستمرار ضرورة تعلم استخدام هذه الادوية بطريقة منتظمة وبدون افراط . لأن الاستخدام غير المنتظم والافراط في استعمالها لا يؤدي فقط الى الاستهلاك المادى (المالى) ، بل يؤدي ايضا الى المضاعفات الزائدة والخطرة لبدور المقاومة المختارة والبارزة من الانسان ، وهى تبعد عن كل مشروع علاجى . هذه السعة من المساومة للمضادات الحيوية تعود الى الاحماض المحتوية على « طفيليات » في النسوة للخلايا الحية او (بلاسميد) وبصورة عامة - من الضرورى ان تستخدم المضادات الحيوية بطريقة سليمة والتي تستخدم بدون تمييز على سبيل الوقاية أو قبل معرفة ما اذا كانت هذه الجرثومة هي المسؤولة عن المرض ، وكذلك نوع هذه الجرثومة . يقدر علماء الجراثيم انه لا يصح استخدام المضادات الحيوية - اى الادوية المقاومة لحرارة الجسم - « للتغطية » كما يجب عدم استخداما على سبيل الوقاية ، الا في حالات محددة بعد معرفة نوع الجرثومة المطابقة للمرض والمقصود مكافحتها . كل هذا يعنى عدم اللجوء الى المضادات الحيوية قبل معرفة الجرثومة ونوع حاسبتها التسوية للمرض نفسه .

الدهنية والسكرية بشكل مبالغ فيه يؤدي كل هذا الى الاضطرابات الخطرة بجسم الانسان . وبالتالي لابد من تنظيم تربية حقيقية للتغذية تسمح بالمحافظة على التوازن الغذائي للانسان . بمعنى انهم منذ الطفولة ، لابد من بذل تربية غذائية صحية للطفل ، مع دراسة دور الفيتامينات وتأثيراتها سواء كان الامر يتعلق بوجودها في العناصر الطبيعية او حفظها في المواد الصناعية او تأثيرها بواسطة المنتجات الصيدلانية .

عقدت اجتماعات في اوربا وكان مقر هذا الاجتماع في باريس لدراسة ابحاث القضايا المتعلقة بالصحة الغذائية . وقد نظمت اخيرا من جانب اللجنة الوطنية للطفولة والمركز الوطني لتنسيق الدراسات والابحاث المتعلقة بالتغذية خلال ثلاثة اجتماعات شدد المشاركون على ضرورة تعديل السلوك الغذائي للاطفال والبالغين ، وذلك بتحقيق تطور في تناول الغذاء الصحي وكمية السعرات اللازمة للطفل . حيث انه من الملاحظ ان الاطفال في سن الرابعة قد اعتادوا اكل الطعام المالح او الحادى على كثير من السكر مع عدم شرب الماء .

اشار العالم روسيه رئيس اطباء مستشفى سان فانسان دى بول بباريس خلال اجتماع اللجنة الوطنية للطفولة وذلك لدراسة تغذية الشباب ، ذكر ان ثلث حالات البدانة والضعف يبدأ منذ الطفولة ، وان عددا من العادات الغذائية العائلية السيئة تمهد لبداية الطفل . كما اضاف قائلا : يخشى من تضخم النحس بشكل غير قابل للنقص لدى الاطفال ويحافظ على ذلك عدم انقلاص هرموني . لذلك يجب على طبيب الاطفال ان يراقب كل زيادة في الوزن .

كما اشار العالم دويان خلال اجتماع المركز الوطني لتنسيق الدراسات وابحاث التغذية الى العادات السيئة منذ الاشهر الاولى وخلال العامين الاولين من الحياة . قال : « خلال الاشهر الاولى ينمو الطفل ويبرد وزنه جراما

ذكر العالم ميتكونسكى ان مكافحة الوضع السابق لاوانه ، وهو يمثل السبب الاول للوفيات لدى المواليد الجدد يجب ان يتخذ الافضلية في ميدان الصحة العامة . من اصل ٨٠٠ ألف ولادة في فرنسا خلال عام ١٩٧٣ ، تحققت ٨٠ ألف ولادة قبل الاوان . ومن اصل هذا العدد ، توفي خمسة عشر ألفا ، كما ان عددا شبيها يصاب بأمراض تتعلق بالدكاء والحركة ، ومن ناحية اخرى لاحظ العالم ميتكونسكى ان التقدم الهام في ميدان العلاج لا يجب ان ينسيت ان الكشف عن الحمل الذى يمثل « خطرا كبيرا » والوقاية منه لا يزالان يعتبران السلاح الاكسر فعالية ضد الولادة السابقة لاوانها . وان زيارة الحامل للطبيب أربع مرات خلال فترة الحمل تعتبر من الاصل غير كافية . تبين انه في حالة فحص الحامل مرة في الشهر من الامكان تجنب حالات الوفاة للواليد بنسبة كبيرة . كما يمكن تجنب إصابة ستين ألفا بالأمراض خلال خمسة عشر عاما . اشارت الطبيبة جنيفيف باربيه المختصة بالتخدير وإعادة تحريك المولود اشارت الى الاخطار التى تصيب الحوامل اللواتي يتنصن جميع انواع الادوية بفرض الوقاية والتقوية . فان عددا من انواع الادوية المدرة للبول يمكن ان تكون سبب عدم التوازن الايوني لدى المرأة والجنين ، كما تسبب في نقص كمية الكالسيوم لدى الام . ان الادوية المسكنة والمهدئة للاعصاب تسرب اكثر الى الجنين بالنسبة للام . لذلك يجب الامتناع المطلق عن كل علاج عند الاقتراب من مرحلة الوضع .

❖ ابحاث تتعلق بالصحة الغذائية

ان الحياة الحديثة قد عدلت بعمق كثير انفعالات الجسم البشرى ، الذى سيحتاج من جديد اشياء عديدة يجب على ادوية الغذاء ان تقدمها بمساهمة تكنولوجيا العصر .

يلاحظ في الواقع ان اكثر مساوئ التغذية بدون تغفل وحكمة والتي تسبب الزيادة الفائض السعرات والامتصاص الزائد للعوا

تنظيم الغذاء ان الاخطار الواقعية للاضطرابات والتي تسبب الحوادث انما تبدو خاصة عندما يبدأ تناول العلاج ، وذلك قبل ان يعتاد الجسم عليه . ومن هذا المنطلق عكف الاخصائيون على العلاقات التي تنشأ بين الاجهاد العصبي وظروف التغذية ، وقد اتفقوا على اهمية الغذاء المعقول والمناسب ، لابد من تجنب نقص نسبة وسرعة استجابة ، لابد من تجنب نقص نسبة السكر في الدم مما يخفف نسبة الاوكسجين وحتى البروتين في خلايا الاعصاب . وكذلك تناول وجبات الطعام الفنية وهي تحدث عادة رغبة في النعاس . فتجد من المستحسن بالفعل احترام السعة المنتظمة للانتباه المفروضة على السائق والتي عادة تنقص بعد ساعتين من قيادة السيارة وذلك نتيجة الارهاق . بالتالي يجب هنا على السائق الوقوف بانتظام لتناول وجبات صغيرة من الطعام والمواد السائلة . تسمح هذه التدابير للسائقين بالمحافظة على انتباه اقصى وتجنب جميع الحوادث التي تعود الى تعب الجسد والاعصاب .

انشىء فريق بحثي لدراسة التعب والاجهادات العصبية ، وهو يضم الاطباء والباحثين في المجالات المختلفة - الامراض والفيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب العام والطب المهني والاطباء الشرقيين على الصحة الرياضية (الطب الرياضي) والفن والتنفس . . . وكانت غاية هذا الفريق البحثي هي تناول المواضيع التالية :

- تحديد الاسباب والمظاهر والعناية بالاجهاد وضعف القوة الناتجة غالباً عن مجز عصبي او نفسي .

- جمع ودراسة نشر جميع المستندات المتعلقة بهذه المواضيع .

- اعداد وتطبيق التدابير الصحية والوقاية بالنسبة لجميع علامات الاجهاد .

في الساعة (حوالي ٢٥ جراماً يومياً) اما وزن الدماغ فيزيد جرامين يومياً ، وبعد ١٢ شهراً يزيد وزن الطفل ثلاث مرات بالنسبة لوزنه عند مولده ، كما يبلغ طوله عندما يبلغ عامين نصف الطول النهائي لبلوغه « . وهكذا برهن على اهمية قضايا التغذية لدى الرضيع، وشدد على الاخطاء التي تتردد في الغالب :

- تجاهل الام للمميزات المختلفة لانواع الحليب وزيادة الكمية .

- استخدام باكر للغذاء المالح او الكثير السكر .

- لم يعد الاطفال بين الرابعة والسادسة يعرفون شرب الماء ، كما يعطون مشروبات كثيرة السكر والالوان .

ونظمت ايضا مؤسسة تنظيم الغذاء في كلية الطب الباريسية مؤتمراً تناول دراسة الموضوعات المرتبطة بالصحة العامة والصحة الفردية لسائق السيارة . توجد في الحقيقة علاقة وثيقة بين نظام الغذاء والانتباه . حدد عدد كبير من الاخصائيين التابعين للهيئة الطبية والتنظيمات المسؤولة عن سلامة السير ، حددوا تأثير الكحول وعدد من الادوية بصورة خاصة على نوع رد الفعل العصبي . كما دلت الاحصاءات بوضوح على ان نسبة الحوادث تزداد مع زيادة نسبة الكحول في الدم . وان سلامة السير تعتبر افضل طالما نسبة الكحول لا تزداد عن ٣٠ جرام ، ويوازي ذلك كمية امتصاص فضيلة وخاصة اذا جرى ابتلاع عدد كبير من الادوية دفعة واحدة قبل تناول الطعام فهناك عدد من الادوية المسكنة واللازمة لحالات الصرع والمنشطة والفاقة للشهية « القاطمة للجوع » وهي تؤثر مثل الكحول وتحدث زيادة في الوقت اللازم لاجداث رد فعل في الاعصاب، كما تحدث نقصاً في قدرة تنسيق اعصاب البصر واضطرابات في التمييز والانتباه . كما وضحت الابحاث التجريبية التي اجريت من قبل مؤسسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَوْحِ رَبِّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَرْتَشِقُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ
الشَّجَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكِ ذَٰلَا يَخْرُجُ مِنْ
بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانًا فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ
أُنْ يُفِي ذَٰلِكَ لَأَيَّاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

صلى الله عليه وسلم

المؤلف ... ان العسل فوائد عديدة ونافعة وله آثار نافعة اذا استنشقت صباحا فهو يساعد على سهولة التنفس وقاتل للجراثيم ، بالإضافة الى انه مقو عام لجميع اعضاء الجسم ... والدليل على ان العسل له فوائد كثيرة ، خاصة للجهاز التنفسي، فقد انتجت ألمانيا الغربية دواء للسعال يدخل في تركيبه نسبة ٥٪ في المائة من العسل الأبيض .

❖ علم النفس الهندسي والسيولوجي

اثبتت الابحاث التجريبية الحديثة ان تطور تكنولوجيا الاجهزة الاوتوماتيكية والآلات والمعدات انها غيرت تفكير البشرية ، فكان الانسان في الانتاج يصنع كل شيء بنفسه ، اما الان فهو الذي يتحكم في عملية الآلة اى اخذ يتحول اكثر فاكثر الى قائد يصدر اوامره للاجهزة الاوتوماتيكية . رغبا من ذلك التقدم ، فهذه الاجهزة الاوتوماتيكية فرضت على الانسان ان يكون منتبها قوى الذاكرة ، حاضر البديهة ، سريع الاستجابة . فتتطورت الدراسات البيولوجية لخدمة الانسان فاستطاع العلماء نتيجة لدراساتهم وابحاثهم ان يحددوا الوظائف السيكلوجية العليا للانسان اى صنع معدات مهياة للاتصال والتعامل مع الانسان ومتناسقة مع قدراته وطاقاته . حيث انه

اشارت تحقيقات حديثة الى اهمية وتكرار الاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا من عجز عصبي او نفسي . وقد تبينت الاحصائيات للاطباء داخل المستشفيات ان مريضا من أصل اثنين يشكو من التعب والاجهاد العصبي . وعلى صعيد العيادة ، يشمل الضعف جميع مظاهر المرض، وان كل مرض جسمي او عقلي يسبب ضعفا . وعلى الصعيد النظري ، اقتصرت الدراسات الفسيولوجية الاساسية الكلاسيكية في الغالب على تمب العضلات ، وهى غير كافية لابراز مجموع مايتعلق بالاجهاد الناتج من ضعف القوة وتأثيره على الحياة النفسية والاجتماعية .

❖ عسل النحل شفاء للناس

بدلا من استخدام العقاقير والادوية يوجد علاج جديد وقديم عرفه الانسان منذ القدم - انه عسل النحل الذى ذكر في كتاب الله عزوجل .. الهاما من هذا قدم الطبيب الروسى الاصل «روش» في كتاب تحت عنوان « النحل صيدلية مجنحة » يقول في كتابه ان العسل افضل علاج للأمراض الناتجة من البرد ... اما ان يخلط بالطبيب الساخن او عصير الليمون او مع الشاي الساخن ... هذا العلاج عرفه العالم منذ مئات السنين . انه يقضى تماما على البرد او الزكام . ويستخدم ايضا في ايقاف النزيف الرئوى مع خليط مع عصير الجزر ، وضييف

✽ مكافحة التلوث والأضرار الصناعية :

في المجتمعات الصناعية والمجتمعات المجاورة، نجد الهواء يحتوي على ادخنة كثيرة . وكما ان مياه الانهار تحتوي على مركبات كيميائية ، حتى البحر يحتوي على البترول اى متلوث بالبترول . . . الخ ، وهذا ما يسمى بتلوث الهواء والماء والبحر والأضرار التي تعود من هذا التلوث تسمى الى الصحة العامة للإنسان. فتجرى مباحثات عديدة في نطاق مكافحة التلوث والأضرار الصناعية ومكافحة الضوضاء . في الوقت الحاضر يجري بناء شكل جديد لجدار من الاسمنت ضد الضوضاء وذلك على الطرق السريعة والمزدحمة والتي تكثر فيها الضوضاء بشكل خاص . فامكن تحقيق ستار مصنوع من الزجاج والالونيوم وهو يندمج تماما مع الموقع، كما يتشرب نسبة كبيرة من الارتجاجات التي تحدثها السيارات مما يخفف قليلا من انزعاج السكان المجاورين لهذا الطريق المزدحم. أما التصنيع والتلوث البيئي فهما عتصران متلازمان تتناسب العلاقة بينهما تناسباً طردياً فكلما ازداد التصنيع ازداد التلوث البيئي معه بما قد يؤثر على الصحة العامة وعلى نوع الحياة . في نطاق المعرض الدولي لتكنولوجيا الآلات لمكافحة التلوث والأضرار الصناعية والذي اقيم بين ٧ ، ١١ ديسمبر عام ١٩٧٦ في باريس وذلك برعاية ومساهمة وزارة نوع الحياة .

قدم هذا المعرض الدولي الاول لمقاومة التلوث والأضرار الصناعية المعدات والمنتجات والوسائل والخدمات المقدمة للهواء والماء والضجيج والتلوث الصناعي ونفايا المدن ومكافحة التلوث والأضرار . حيث ان هناك نصوما تشريعية عديدة تلزم كل من يسبب التلوث على استخدام تجهيزات لمكافحة التلوث والأضرار . تحققت أخيراً دراسات لحساب اللجنة الاقتصادية الأوروبية في بروكسل ، افادت ان أسواق صناعة مكافحة التلوث ستعرف تطوراً بمعدل ١٤ في المائة في السنة حتى عام ١٩٨٠ . سترتفع هذه النسبة الى

ثبتت عمليا باننا نرى أكثر مما نتذكر في كل خطوة نخطوها . وبذلك يدرس علم النفس الهندسي الطبي باهتمام شديد « السعة » للإنسان بوصفه قناة معلومات وقناة اتصال وايضا تحديد وتنمية المواهب المهنية لدى الانسان ورفع مستواها الى مستوى متطلبات التكنولوجيا المصرية المتزايدة .

وفي الابحاث التجريبية وعلى مدى واسع يجري في هذا المجال وتقديم للإنسان عدة مسائل متزايدة الصعوبة . ويقوم العلماء بعد ذلك ، وبواسطة اجهزة خاصة ، بتحديد ما يسمونه « معامل التقدم » اى القدرة على تنمية المواهب ، وتساعد هذه الطريقة على معرفة ما اذا كان الانسان يستطيع ان يعمل في اية مهنة من المهن التي تتطلب رد فعل دقيق وسرعة بديهية . وضبط اعصاب واسترشاد في المواقف غير المتوقعة ، وفحص العاملين قبل توظيفهم على الورش والتخصصات المناصب . ويحدد العلماء الخصائص الفطرية لكل شخص وقدرته على تنميتها . وهذا يساعد على معرفة العمل الذي يناسب كل انسان ، وعلى عدم تضيق الوقت والمجهود في تعليمه عملا يناسبه او حرفة لا تتفق مع استعداداته . ويفضل تطور علم البيونيكا يقوم العلماء بوضع علاقات جديدة أكثر ارتباطا بين الانسان والآلة .

وعلم البيونيكا هو علم يدرس استخدام العمليات والمناهج البيولوجية لحل المسائل الهندسية الحيوية . ويمكن تعريف علم البيونيكا ايضا بأنه نظرية مناهج اقامة النظم التكنيكية التي تقترب مواصفاتها من مواصفات الاجسام الحية . وبأخذ هذا العلم تسمية من الكلمة الاغريقية « بيون » اى « خلية حية » . وكس من ابحاث تجري في ميدان علم البيونيكا ان العلماء يبحثون بجهد من وسائل بيولوجية للوقاية من الاشعة الخطرة وبأماون ان يتمكنوا من بناء مرشحات حية لتنقية الماء والتربة من النشاط الإشعاعي .

وبفضل ما أصبح يملك من مقومات وقدرات على التطور وبفضل ما حققه وسيحققه من تقدم تكنولوجى .. وبفضل الاكتشافات ذات المستقبل الكبير فى البيولوجيا الجزيئية وفى الكيمياء الحيوية والعضوية والفيزياء الحيوية والفيزياء النووية والاشعاعية وعلم الخلايا وعلم الوراثة، وبفضل ظهور اتجاهات جديدة فيها وغير متوقفة مثل الإحصاء البيولوجى والرياضيات البيولوجية ونظرية النظم . فوجدنا وتحققنا ان التكنولوجيا المعاصرة الآن قد دخلت بالفعل فى المجال الطبى بشتى فروسه ، والاستخدامات الطبية للأجهزة الصوتية وغيرها فالعقل هو الطريق للإيمان ... ونحن نقبل على الإيمان بمقولنا .. وان التقدم امر لا يمكن الرجوع عنه ، ولا يمكن إيقافه لان العقل دائم البحث والاكتشاف والابتكار . وبجانب هذا العرض أود ان أكرر اهتمامى والتركيز بالنهوض بالارتقاء الفكرى والثقافى (السمو الفكرى - الآثار الثقافية) فى العالم العربى وترتفع به الى أسمى مكانة والاعتناء أيضا بانماء ملكاتنا العقلية وعميق ثقافتنا حيث انها تقدم لنا قوة فكرية تقدمية فى جو مكيف المناخ . كما يسمح الارتقاء الفكرى والثقافى للطفل بتعليم ما لا يستطيع ان يتعلمه فى الكتب، وبالتالي فان مهمتنا هى دراسة ما يمكن ان تقدمه الآثار الثقافية للعلم والتكنولوجيا ومع دولة العلم والإيمان ومزودا بطاقة الاصاله الحضارية التى تملكها الأمة العربية .

١٥ ٪ فى السنة فيما يتعلق بمعالجة المياه الصناعية ، كما سبلغ ٥٥ ٪ بالنسبة لتنقية الهواء . اما ميدان أدوات القياس ومراقبة التلوث الجوى فسيزيد بشكل اكيد حوالى ٢٥ ٪ فى السنة وذلك حتى عام ١٩٨٠ . اما فيما يتعلق بأجهزة العزل الحرارى ، أجهزة الحماية ضد أى تغير فى درجات الحرارة ستقارب الزيادة السنوية حتى عام ١٩٨٠ ، ١٥ ٪ ، بينما سيزيد بيع آلات القياس بمعدل ٢٥ ٪ . بإمكان قطاع جميع النفايا والقضاء عليها ، سواء كانت تتعلق بالنفايا المنزلية او الصناعية ، بإمكانه ان يعرف زيادة بيع الأدوات والمعدات بمعدل ٢٠ فى المائة فى السنة ، وذلك بسبب بدء تطبيق قانون النفايا الصادر فى يوليو عام ١٩٧٥ .

اليوم بوسعنا ان نقول اننا نشهد اليوم ميلاد مجال طبى جديد حيث تقف معه كلمات التكنولوجيا بديلها العلمى جنباً الى جنب مع هذا المجال وتسلك هذا المجال الطبى الذى يعد من أقدم العلوم ، والتى ولدت كعلم وصفى وتجريبى ، بأحدث الوسائل فى رسالة العلوم ، الا وهى طرق التحليل السليمة ، والتفكير الدهنى والحساب الدقيق . ولقد حطمت التكنولوجيا الحديثة الخرافات القديمة والشعوذة والقيم البالية فى المجال الطبى . واصبح تقدم العلماء المؤشر الذى يوضح اتجاه الانسان الحديث ... وبفضل قدرة العقل الانسانى المعاصر الخارقة والمجددة

المراجع العلمية

- ١ - الموسوعة الصغيرة في علم السيبرنتيكس - فيكتور بيكيليس
- ٢ - أسس الإلكترونيات - أ. ج. بيتسوف
- ٣ - L'ASSOCIATION POUR LA DIFFUSION DE LA PENSEE FRANCAISE
- ٤ - مؤلف امراض الأذن والحنك والحنك - لوشون - مدينة المياه المعدنية بفرنسا سنة ١٩٧٦ .
- ٥ - المؤتمر الثالث والسبعون الفرنسي لأمراض الأذن والحنك والحنك - باريس كلية السنان بير - سبتمبر سنة ١٩٧٦ .
- ٦ - فوائد العلاج بالمياه المعدنية - الاستاذ شارل دوبريه - غيشي فرنسا - مختبر المياه التابع لمستشفى بيشا .
- ٧ - A New Freezing - Ultramicrotome
- H. Moor' Ph.D, K. Muühlethaler, Ph.D., H. Waldner,
- A. Frey, - Wyssling, Ph.D
- The Journal of Biophysical and Biochemical
- Cytology, 1961, Vol. 10, No. 1
- ٨ - Dijon - France 6^e Congrès de la Société européenne de neuroradiologie
- „Etude radiologique des Vaisseaux anormaux dans les tumeurs cerebrales" Sept. 1976.
- ٩ - L' exposition „Biocapt 75" (l'electronique au service du malade) BNF n. 1327
- du B-12 75
- ١٠ - الأيام الوطنية لعلم الأشعة - باريس - ١٦ - ١٨ فبراير/ ١٩٧٦ بمستشفى امراض الاطفال .
- ١١ - الإنسان والآلة - فرنسا - تولوز - ٢٥ - ٢٦ نوفمبر/ ١٩٧٦ .
- ١٢ - المؤتمر الدولي لجمعية امراض القلب الفرنسية - ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٧٦ باريس ٧٥.١٩ .
- ١٣ - المؤتمر الفرنسي للجراحة - معالجة سرطان العظام - باريس ١٩٧٦ .
- ١٤ - Le Professeur Charles Gros, MM. Quennville et Gautherie, Chercheurs a l'Institut
- National de la Sante et de la Recherche Medicale de Strasbourg France 1976.
- ١٥ - Charles Gros: Fondateur de l'ecole de "Sénologie" strasbourg - France.
- ١٦ - Professeur Debrun. l'Hospital Henri - Mondor de Creteil - Paris - France.
- ١٧ - P.W.R. BEAUMONT, JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER
- 1977 p. 1485 part I
- ١٨ - P.W.R. BEAUMONT AND B. L. PLUMPTON
- JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1853 part 2.
- ١٩ - ROBERT FRANK, DIRECTEUR DE l'ECOLE DE
- CHIRURGIE DENTAIRE a STRASBOURG. FRANCE.

٢٠ - التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية الحاجز الخاص بالفتية الجدر بعد تعرضه للعوامل الضعيفة والمواد الطهارة - رسالة دكتوراه ١٩٧٧ جامعة القاهرة - كلية طب الأسنان .
 اشرف على الرسالة الدكتور سلسيل محمد محمود ابراهيم الاستاذ المساعد بكلية طب الانسان - جامعة القاهرة
 - والدكتور مصطفى كمال محمد المدرس بكلية العلوم جامعة المنصورة . , وصاحبة الرسالة السيدة الطيبة سلمى حسن العشري .

٢١ - Le Professeur Hannoun l'institut Pasteur - 25^e Journees Pharmaceutiques internationales - Paris 1975.

٢٢ - الذكرى العاشرة لتأسيس المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى - ١٩٧٥ - فرنسا .

٢٣ - مؤتمر امراض الكبد لدى الاطفال - باريس ١٩٧٥ .

٢٤ - اجتماع المركز الوطنى لتنسيق الدراسات وابحاث التغذية باريس - ١٩٧٥ .

٢٥ - مؤسسة تنظيم الغذاء - مؤتمر لدراسة موفسوع اللصاينا الرتبطه بالصحة الغذائيه لسائق السياره - كلية الطب - باريس ١٩٧٤ .

٢٦ - ايام الجمعية الفرنسية الوطنية للطب ما قبل الوضع وما بعده - مدينة تور - ١٩٧٤ .

٢٧ - Tables rondes - les Entretien de Bichati :
 CHU Pitié - Salpêtrière, 105, Boulevard de l'Hôpital, 75013 Paris 0 Septembre et Octobre 1976.

٢٨ - مؤتمر علماء الانفالات الكيميائية للمواد الحية في باريس يوليو - ١٩٧٥ .

٢٩ - Groupe d'etudes de la fatigue - Docteur Pierre Burgard, 2, Square du Croisice - 75015 Paris.

٣٠ - La 2^e Semaine internationale de l'Environnement du 7 au 11 decembre - Paris - 1976.

٣١ - التكنولوجيا الحديثة في المجال الطبى للتنمية وبناء المجتمع لعام ١٩٧٧/٢٠٠٠ لسنة ١٧ العدد ٥٥٦ - جريدة الشباب العربى - مصر . للدكتور مصطفى كمال محمد .

٣٢ - Journees Pharmaceutiques internationales de Paris (26^e Journee Pharmaceutiques, Francaises)
 "Le Pharmacien et le 3^e âge" Paris Sep. 1976.

٣٣ - 73^e Congres Francais d'oto - rhino laryngologie et de pathologie cervicofaciale. Paris Sept. 1976.

٣٤ - 22^e Réunion européenne d'information en Epileptologie et en Electroencéphalographie Marseille France Sept. 1976.

٣٥ - 5^e Congres international de médecine Psychosomatique - société française de psychosomatique "La place du corps dans la relation PSYCHOSOMATIQUE et Médicale. Paris - sept - 1976

٣٦ - Colloque "Biomedica" 11th - TRIA "Homme/machine" Toulouse - France Novembre 1976.

٣٧ - Congres international de l'Association dentaire Francaise - Decembre - 1976.

٣٨ - Journées nationales de radiologie novembre - Paris - 1976.

٣٩ - Dr. Coucazou Jacques Spécialisé en Urologie, Academie de Moutpéllier, France.

الدافعية بين النظرية والنمذجة

دراسة تحليلية مقارنة

طلعت منصّور *

ارتباطا بمتطلبات العصر الخاصة بتحقيق الاداء
الافضل والتوظيف الأمثل لامكانيات الفرد
وطاقاته النفسية . ومن هنا ، كان الاهتمام
المتزايد بعلم النفس الدافعي (Motivational
(Psychology) او بعلم الدافعية (Motivology) (١)

وتصور الدافعية — كما يقرر «**بول توماس
يونيغ**» (١٩٦١) — على أنها مصطلح عام لكل

لمبت الدافعية دورا متصاعدا الهامية في
نظريات علم نفس القرن العشرين ، فمفاهيم
وفروض الدافعية تؤلف اجزاء متكاملة مع
الكثير من نظريات علم النفس بعامة ، والتعلم
والشخصية بخاصة . كذلك شهدت العقود
الثلاثة الاخيرة من هذا القرن بناء نظريات
للدافعية أكثر تخصصا . وترتبط هذه الحركة
بطبيعة الحال ، بتزايد مقدار النشاط التجريبي

(*) دكتور طلعت منصور مدرس الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس . أسهم ببحوث منشورة في بعض
المؤتمرات الدولية . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والجمع المصري للثقافة العلمية ، والجمعية
الأمريكية لتقدم العلوم .

(١) مصطلح اقترحه «**د. سي. وودووث**» (١٩١٨) .

مادسن (١٩٥٩) ، هول (١٩٦١) ، براون (١٩٦١) ، يونج (١٩٦١) ، رولينجسافر (١٩٦٣) ، انكنسون (١٩٦٤) ، كوفروايل (١٩٦٤) ، توماس (١٩٦٥) ، بولز (١٩٦٧) وغيرهم . وقد ظهر أول مسح الميدان في الكتاب السنوي لعلم النفس المعروف بـ Annual Review of Psychology في عام ١٩٥٢ ، وكتبه « ماور » .

كان ميلاد علم النفس كعلم مستقل نشاج « التهجين » بين الفلسفة والفسيولوجيا التجريبية . وفي علم النفس التجريبي « الكلاسيكي » هذا ، الذي نشأ على أيدي فخر وثوت وابتجهاوس وغيرهم من السيكلوجيين الألمان ، لم يكن ثمة مجال أو استخدام للمفاهيم أو الفروض الدافعية . ويمكن ان نعزى اسباب هذه الحقيقة التاريخية الى ان السيكلوجيين التجريبيين الكلاسيكيين قد استأثرتهم دراسة العمليات العرفية - خاصة الاحساس والادراك ، كما تملكتهم الطريقة الاستبطانية في هذا الصدد ، وفي نفس الوقت كان هناك اتجاه صاعد آخر في البلاد الانجلو - سكونية .

سيكلوجيا وايثولوجيا الغرائز ، في الوقت الذي كان فيه علم النفس التجريبي اخذا في النمو في ألمانيا ، كانت هناك ثورة علمية ذات دلالة بالغة تتقدم في انجلترا بنشر « دارون » كتابه « اصل الأنواع » (١٨٥٩) ، وهو الكتاب الذي اثر في علم النفس تأثيرا بالغ العمق . لقد جعلت نظرية دارون عن التطور البيولوجي في الامكان تفسير السلوك الانساني بتطبيق المبادئ ذاتها التي طالما استخدمت في تفسير سلوك الحيوان . ومنذ فجر التاريخ

محددات السلوك » ، يتطلب منا في هذه الدراسة ان نضع في الاعتبار تلك النظريات التي تتضمن مصطلحات اساسية مثل الدافعية الدافع ، الحافز ، الحاجة ، الغريزة ، القوة ، الباعث ، القيمة الذاتية ، وغير ذلك . ونرجو ان نكون قد وفقنا في انتقاء تلك النظريات التي اثرت في البحث السيكلوجي وفي تطور التصورات النظرية ابان العقود الثلاثة أو الاربعة الاخيرة (٢) .

وهدفنا الا نقدم اهم نظريات الدافعية واحدة تلو الاخرى ، ولكن ان نعرض لنتائج الدراسة المقارنة لنظريات الدافعية وفقا للموضوعات التالية :

- ١ - تطور التنظير في الدافعية .
- ٢ - مفاهيم الدافعية
- ٣ - نمذجة الدافعية .

(١) تطور التنظير في الدافعية

لقد قيل عن علم النفس ، كما يقرر « ابنجهاوس » ، ان « له ماضيا طويلا ولكن تاريخا قصيرا » . ولعل هذا يصدق بصفة خاصة على سيكلوجية الدافعية . فقد شكلت فروض ومفاهيم الدافعية جزءا هاما من التصورات الفلسفية والسيكلوجية خلال تاريخها الطويل اعتبارا من فلاسفة الاغريق . لكن الكتاب الاول الذي تركز تماما للدافعية قد ظهر في عام ١٩٣٦ (يونج : ١٩٣٦) ، ولم تظهر المراجع الاولى التي تغطي ميدان علم النفس الدافعي الا في العقد الاخير . كتب المرجع الاول عالم قد آخر هو (وودورت ، ١٩٥٨) ، ثم تبعه آخرون ، بنرا (١٩٥٩) ،

(٢) يمكن الرجوع ، لن يريد معلومات اعقب ووسع من نظريات الدافعية ، الى الدراسات المسحية لمجموعة من العلماء البرزين في هذا الميدان ، مثل : انكنسون (١٩٦٣) ، بولز (١٩٦٧) ، توماس (١٩٦٥) ، هيلجارد (١٩٦٤) ، كوفروايل (١٩٦٤) ، كيش (١٩٥٩) ، مادسن (١٩٥٩) ، يونج (١٩٦١) ، بالإضافة الى المصدر البالغ القيمة

Jones, M.R. (ed.) Nebraska symposium on motivation. Lincoln : Nebraska Univ. Press, 1953-1963.

انفعال التعجب ، غريزة الهرب - انفعال الخوف ، الغريزة الاجتماعية - انفعال الميل للتجمع ، غريزة السيطرة - انفعال ازهو ، الغريزة الوالدية - انفعال العطف والحنان ، وغير ذلك من الفرائز .

ويتضح من التعريف السابق أن «الغريزة» في نظرية ماك دوجل مصطلح تفسيري حصرى يتضمن :

(١) المكونات المعرفية التوجيهية (« أن يدرك » ، « أن ينتبه الى ») .

(ب) وكذلك المكونات التنشيطية الدينية (« الاستشارة الانفعالية » ، « أن يخبر اندفاعا » ، « أن يسلك ») . وصور مكدوجل للفرائز على هذا النحو ، يعنى في نفس الوقت أنها مصدر لنظام الدوافع . واذ تتحدد هذه الوظائف التوجيهية والدينامية باستعدادات راي يصر مفهوم الغريزة عند ماك دوجل مفهوما تفسيرا كاذبا Pseudoexplanatory concept تماما ، خاصة وأنه لم يقاوم غواية ابتداعه لفرائز كثيرة للغاية . لقد قدم في كتابه (١٩٠٨) فقط اثنتى عشرة غريزة ، ثم اوصل هذا العدد فيما بعد الى اربع عشرة غريزة لنتهى بما يعرف بالثمانية عشر ميلا فطريا Propensities ، وهذا التحول في المصطلح كان نتيجة للجدل النقدي الطويل الذى شغل علماء النفس في العشرينات من هذا القرن . ويتركز ما يعرف بالجدل حول الغريزة في عالم النفس « جون والسون » : الذى ادرك - وغيره من السلوكيين - الخاصية التفسيرية الكاذبة لمفهوم الغريزة بعد ما صار من الواضح ان الكثير من علماء النفس والاثروبولوجيا كان يلجأ الى ابتداء فرائز جديدة في كل مرة يحتاجون فيها الى مفهوم تفسيري للظواهرات التى يدرسونها ، وقد استبقى ماك دوجل في مفهومه عن الميل الفطرى Propensity concept فقط تلك المكونات الاكثر دينامية

كان المفهوم الاساسى المستخدم في تفسير سلوك الحيوان هو « الغريزة » للإشارة الى « القوى الدافعة » وكذلك « الميكانزمات الحركة » في سلوك الحيوان . وقد صار ايضا مفهوم الغريزة بعد نشر نظرية دارون ، شائعا بين علماء النفس ، خاصة في الدول الانجلو سكسونية . لذا قدم وليم جيمس ، وهو اول عالم نفس امريكى ذي شأن كبير ، فرائز متعددة لتفسير السلوك الانسانى ، لكن موازية لمفاهيم تفسيرية اخرى مثل « الماديات » و « الانفعالات » و « الإرادة » .

كان وليم ما كدوجل (١٩٠٨) ، عالم النفس الانجليزى - الامريكى ، هو الذى اعتبر « الغريزة » على أنها مفهوم اساسى في تفسير السلوك الانسانى . وجوهر نظريته محاولة لاقامة علم النفس استنادا الى مبادئ التطور . وفي كتابه « مقدمة في علم النفس الاجتماعى » ، الذى كان له تأثير بالغ على الفكر السيكلوجى بحيث صدرت منه اكثر من ثلاثين طبعة منذ نشره في عام ١٩٠٨ ، يعرف « الغريزة » على النحو التالى :

« يمكن ان نعرف الغريزة ، اذن ، على انها استعداد نفسي - جسمى موروث او فطرى ، تهى صاحبها لى ان يدرك وينتبه لى موضوعات من فئة معينة ، وان يخبر استشارة انفعالية من نوع معين عندما يدرك ذلك الشيء ، وان يسلك وفقا لها بطريقة معينة : او ، على الأقل ، ان يخبر اندفاعا نحو ذلك السلوك » (ص ٢٥)

وفي نظريته عن الفرائز ، يقابل ماك دوجل الغريزة بانفعال معين ، مؤكدا بذلك تأثره بالتوازية Parallelism كاتجاه مسيطر على علماء النفس في هذه المرحلة المبكرة من تاريخه ، ومن ثم فهو يربط بين قائمة الفرائز وما يوازيها من انفعالات معينة . مثل غريزة القتالة - انفعال الغضب : غريزة حب الاستطلاع -

للاستشارة (Priming) يطلق ويوجه بالاندفاعات (impulses) ذات الاصل الداخلى وكذلك الخارجى، ويستجيب لهذه الاندفاعات بواسطة حركات متسقة تسهم في بقاء الفرد والنوع (١٩٥١ ، ص ١١٢) .

يعرف « تنبرجن » الفريزة « كما يوضح هذا الاشتقاق على انها ميكانيزم ينشط بالاندفاعات التي تعرف في موضع آخر كما يلي :

« يحدد تأثير هذه العوامل الخارجية الدافعية لدى الحيوان ، التنشيط والاستشارة لفرائزه » (ص ٥٧) .

هذا الفارق بين الميكانيزم والدافعية يوجد ايضا في النظريات الاخرى التي نمت في هذا القرن موازية للنظريات « الايثولوجية » .

ورغم ما لتنظريات الفرائث من آثار عميقة على علم النفس ، الا ان مصطلح « فريزة » قد استخدم بمعاني مختلفة . فاذا كان التعريف التقليدي للفريزة كنموذج منظم ومركب للسلوك يميز النوع الواحد في موقف معين ، كنموذج غير متعلم ، وغير مرن بدرجة أو بأخرى ، فان الفرائث المحددة على هذا النحو غير موجودة بين الكائنات الانسانية ، ولم تفسح اى فريزة علميا . ففي الكائنات الانسانية تتأثر كل النماذج المركبة للسلوك بالتعلم ، بل حتى لدى الحيوانات الدنيا ، بتأثر النشاط الفريزي بالبيئة .

لمفهومه السابق عن الفريزة ، كما يتضح من التعريف التالي :

« الميل الفطرى استعداد ، وحدة وظيفية للتنظيم الكلى للعقل . وهو استعداد ، حينما يستثار ، يخلق ميلا نشطا ، سعيا ، اندفاعا ، أو حافزا نحو هدف معين » (١٩٣٢ ، ص ١١٨) .

ويحدد مصطلح الفريزة فيما بعد على النحو التالي :

« الفريزة هي ذلك الجانب الخاص من تنظيم الكائن الحي (وحدة وظيفية) يعبر عن نفسه في تنابع للاداء الفريزي » (ص ٤٩) .

بهذا التعريف الاخير للفريزة يكون ماكدوجل اكثر اتفاقا مع استخدام المصطلح لدى علماء الايثولوجيا الحديثين الذين حللوا المفهوم القديم للفريزة ، وهو مفهوم حصري غامض ، الى عناصر متعددة تحمل معانيا محددة أكثر .

يعتبر « ل . لورنز » مؤسس علم « الايثولوجيا » (Ethology) ، (٣) بينما يعتبر « ن . تنبرجن » منظره المنهجي . ويلخص « تنبرجن » نظريته عن الفريزة في هذا التعريف :

« سوف اعرف الفريزة بطريقة اختبارية على انها ميكانيزم عصبى منظم بطريقة متدرجة هرميا ، مستهدف لجوانب معينة مهيأة

(٣) يشجع تعديد « الايثولوجية » على اساس وصف « فريلايك »

Verplank, W.S. (1957) Aglossary of some terms used in the objective science of behavior. Psychol. Rev. 64, No. 6, Part 2, pp. 1-42.

لعلوم السلوكية الموضوعية ، التي يحدد فيها العالم الايثولوجي على انه « . . عالم سلوكي يلقى تدريبه في علم الحيوانات ، ويدرس عادة سلوك الحشرات والاسماك والطيور اكثر غالبا مما يدرس الثدييات والمجموعات الاخرى . . . انه دارس للسلوك القلبي . . عالم سلوكي يحب حيواناته » (ص ١٤) . اما السلوكي فهو : « ذلك العالم الذي يبحث في سلوك الحيوانات بطريقة موضوعية والذي يحاول دبط ملاحظاته مما في نظام نظري لا يتضمن مفاهيم مستعارة من الاستبطان والفلسفة العقلية » (ص ٦) .

١٩٤٠) الذين وجدوا ، بعد قطع الاعصاب من المعدة إلى الخ ، ان مفحوسيم كانوا يستجيبون كما لو كانوا في حالة من الجوع . اى ان الانقباضات المعدية ليست حدثا داخليا ضروريا لدافع الجوع ، لكنها احد المتغيرات العديدة التي عادة ما تتضارر لاحداث الجوع .

وتوضح البيئة التجريبية ان تأثيرات الجوع على السلوك تتغير مع الخبرة بدرجة كبيرة . ولذا ، حينما اخضعت الفيران لجندول منظم من الحرمان مع اعطامها في نهاية كل فترة من الحرمان ، وجد انها - بعد عدة مرات قليلة - اخلت تتناول كمية ثابتة من الطعام في كل مرة ، بدلا من التهام اكبر قدر ممكن من الطعام وتبين احد هذه البحوث (لاورنس ، ماسون ، ١٩٥٥) انه اذا ارتبطت فترة الاعطام التجريبية مع الفترة المعتادة لتناول الطعام ، فان الحيوانات سوف تاكل اكثر مما لو كان الاعطام غير مرتبطا بالفترات المنتظمة لتناول الطعام .

وهكذا ، توضح حقائق علم النفس الفسيولوجي Psychophysiology والمقارن Comparative Psychology ، ابتداء من دراسات بافلوف الشهيرة ودراسات التعلم الحيواني ، ان الكثير من جوانب السلوك التي تبدو انها تعتمد على الجوع البيولوجي يمكن ان تستلشى بالثيرات الخارجية المرتبطة بالهدف . فبعض هذه الجوانب فطري ، وراثي ، بيولوجي والاخر متعلم ، وكثيرا ما تتداخل في علاقات متشابكة مع نظام الدوافع .

وبالنسبة للانسان ، فمة فارق كبير بين وجهة النظر التي تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية لدى الانسان ، وكذلك حاجاته الجسمية : جزء من الطبيعة الوراثية للنوع الانساني : وجهة النظر التي تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية متعلمة من الثقافة التي نشأ فيها وانه حتى اشباع حاجاته الجسمية

وتوازي نظام الفرائز عند ماكدوجل مع نظام للمواقف ينطوى على اثر الخبرة والتعلم على السلوك الغريزي ، وان كان ماكدوجل لم يشبه الى ذلك . يطلق « ج ، ميرى » (١٩٤٧) على ذلك عملية الجدولة canalization

فالدوافع الاساسية لا تتبدى بنمط غريزي محض ، ولكن مختلطة ومتداخلة مع التجربة والتعلم . واذا اغفل ما كدوجل ما تتصف به الدوافع وما يعثرها من تبدل وتحول ، عنى فرويد بهذا الجانب المميز للدافعية لينتهى الى ان علم النفس مطالب ، ليس برد الافعال الى مصادرها الغريزية ، وانما بالكشف عن هذه التأثيرية في الحالات الدافعية .

فما جرى من اعتباره سلوكا قائما على الغريزة والظفرة والتكوين البيولوجي للنوع ، لم يكن منعزلا عن آثار الخبرة والتعلم . وتلك حقيقة ايدها دراسات متعددة .

مثال ذلك ، في حالة حرمان الكائن الحي من الطعام لفترة طويلة ، تحدث عدة تغيرات جسمية :

(١) انقباضات معدية .

(٢) تناقص معدل السكر في الدم .

(٣) تزايد نشاط الجهاز العصبي المركزي ويشجع الاعتقاد خطأ بان الجوع يتسبب عن الانقباضات المعدية . لكن يصف بعض الباحثين مريضا خضع لعملية استئصال للمعدة gastrectomy ، الا انه كان يقرر بعدها انه يشعر كاعادة باحاساسات الجوع (وانجنستين) كارسون ، ١٩٣١) . واستجابات الفيران التي تعرضت لاستئصال المعدة ، للحرمان من الطعام بنفس « سلوك الجوع » مثل فيران المجموعة الضابطة التي لم تخضع لاستئصال (تساتج ، ١٩٣٨) . هذه النتائج قد ايدها بحوث (باش ، ١٩٣٩ ، مورجان ومورجان ،

والمعاني ، ومن أن تخطط للمستقبل . لكنها لا تستطيع أن تنمو طولا الى خمسين قدما ، أو أن تعيش على الحشائش ، أو أن تحل المشكلات التي تتعدى حدودها .

فسلوك الكائنات الحية يتحدد بطبيعة التركيب الوراثي والبيئة التي تعيش فيها . ومن ثم ، فإن وصف ذلك السلوك على أنه سلوك غريزي أو متفرد يمتدح تبسيطا زائدا .



في الوقت الذي خرج فيه ماكجوجل بنظرية الفرائز ، ظهر اتجاهان آخران في علم النفس ، تأثرا بدارون أكثر من تأثرهما بفونت . ويمثل هذان الاتجاهان النموذجيين لنظامين جديدين في علم النفس :

(١) سيكولوجية التصالم أو ال (Manthanology : (٤) ، وهو المنحى البيولوجي (Biotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل علم النفس الفسيولوجي وسيكولوجية التعلم .

(٢) سيكولوجية الشخصية أو « علم الشخصية » (Personology) (٥) . وهو المنحى الاجتماعي (Sociotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل سيكولوجية الشخصية . وما حدث بين هذين المنحيين من تفاعل يتضح من شكل (١) .

ولا يزال علم النفس الدافعي يرتبط بقوة بهذين الميدانين . كما أن الكثير من التصورات والفروض المعاصرة عن الدافعية يمكن فهمها

بتأثر بثقافته بدرجة واضحة . ولعل الدراسات الانثروبولوجية قد أوضحت أن ما يقرره بعض العلماء من وجود غرائز معينة لا توجد في بيئات أخرى كالثقافات البدائية مثلا ، ومن ثم لا يوجد اتفاق على نوع الفرائز وعددها ، وبالتالي يبدي بعض الباحثين ميلا الى رفض نظرية الفرائز .

ويفضل بعض العلماء المحدثين عدم نبذ مفهوم الغريزة ، بل أن يعدلوا من التعريف . فعلى سبيل المثال ، يذهب « إرنك » الى ما يسميه بـ « الحاجات المتفرزة »

Instinctoid needs ، وهي حاجات ذات أساس غريزي ، ولكن الطريقة التي تشبع بها تعتمد على التعلم بدرجة كبيرة .

في الحقيقة ، بدلا من تغيير تعريف الغريزة وإضافة مزيد من الالتباس الى هذا المفهوم النظري ، من الأفضل نبذ هذا المصطلح كما يتعلق بالسلوك الانساني . فالتفكير في ضوء هذه « الثنائية » بين الغريزة والتعلم يؤدي بنا الى نفس المنعطف الخلق الذي أعاق التقدم لفترة طويلة في قضية الوراثة - البيئة بالنسبة للدماغ .

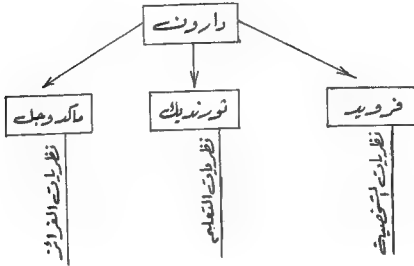
ولعل من الاجدى ان يكون تفكيرنا في ضوء التركيب الوراثي للكائن الحي في تفاعله مع بيئته وثقافته . وهنا تؤكد الاهمية البالغة لطبيعة التركيب الوراثي . فالقطعة ، مثلا ، ترث نوع التركيب الذي يهيئها لتناشط معينة وفي نفس الوقت يحدد ما تستطيع ان تفعله (ان تمسك الغار ، وتسلق الشجرة ، لكنها لا تستطيع ان تتكلم أو تقرأ كتابا) . والكائنات الانسانية ترث نوع التركيب الذي يمكنها من ان تعيش ، ومن ان تسوق السيارة ، ومن ان تتصل بالآخرين عن طريق الرموز والكلمات

(٢) هذا المصطلح مأخوذ عن الاقتراح قدمه « كلايد نوبل »

(Clyde E. Noble), Contemporary Psychology, 1968, 13, p. 10.

(٥) مصطلح اقترحه « هـ . موراي » (١٩٢٨) .

شكل (١)



سوف ترتبط بدرجة اوثق بالوقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اكثر احتمالا للوقوع ، اما تلك التي تصاحب او تتبع بعدم ارتياح الحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ، تضعف روابطها بالوقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اقل احتمالا للوقوع . فيقدر ما يكون الارضاء او عدم الارتياح ، تكون قوة او ضعف الرابطة » (١٨٩٨ ، ١٩١١) .

وقد جعل « قانون الأثر » هذا من التعميم الموضوع الرئيسي في سيكولوجية التعلم لثلاثي قرن . بتقديم مفاهيم « الارضاء » او « الاشباع » Satisfaction « وعدم الارتياح » discomfort كمدعمات ايجابية وسلبية ، جعل ثورنديك من المتغيرات الدافعية العوامل الأكثر اهمية في سيكولوجية التعلم . مثلما صار خفض الدافعية (الارضاء) وعدم الخفض للدافعية (عدم الارتياح) الشروط الأكثر اهمية للتعلم (خاصة في أعمال ثورنديك بعد عام ١٩٢٩) .

فحسب ارتباطا بهذه الحلفية التاريخية ، كما يتضح من شكل (١) :

النحى البيولوجي لعلوم النفس الدافعي : سيكولوجية التعلم وعلم النفس الفسيولوجي :

بتأثير الدارونية نمالاهتمام بالتعلم الحيواني في اواخر القرن التاسع عشر . ومن بين من استلهم بنظرية التطور عالم النفس الأمريكي « ادوارد لي ثورنديك » ، الذي كان الرائد العظيم في خلق علم نفس تجريبي للتعلم . في عام ١٨٩٨ نشر تجاربه المشهورة على القطة في صندوق متاهة ، ووصف التعلم « كمحاولة وخطأ » او « تعلم انتقائي » (Selective Learning) ولكي يفسر التعلم اقترح عدة قوانين ، من بينها القانون المشهور المعروف بـ « قانون الأثر » :

« من بين الاستجابات العديدة لنفس الموقف فان تلك التي تصاحب او تتبع تماما بارضاء الحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ،

الى نظرية للتدعيم ، منظمة ومحمكة . وقد استبدل في هذه النظرية ، « الارضاء » عند ثورنديك ب « اختزال الحاجة » وفيما بعد ب « اختزال الحافز » وحدد المصطلحين الدافعين الهامين ، « الحاجة » و « الحافز » ، على النحو التالي :

« حينما ينشأ موقف يكون فيه الاداء من جانب الكائن الحي لازما للاحتمالية الامثل للبقاء سواء بالنسبة للفرد او النوع ، يقال انه توجد حالة حاجة . ولما كانت الحاجة ، سواء فعلية ام كامنة ، مادة ما تسبق وتصحاح اداء الكائن الحي ، غالبا ما يقال ان الحاجة تدفع او تحفز النشاط المرتبط . وبسبب هذه الخاصية الدافعية للحاجات ، فانها تعتبر كمنتجة لحوافز حيوانية اولية . »

« ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ في هذا الصدد ان المفهوم العام للحافز يميل بقوة الى ان يكون له الوضع المنظم لتفكير وسيطاد (١) ، لا يمكن ملاحظته ابدا بطريقة مباشرة » (هل ١٩٤٣ ، ص ٥٧) .

« الحاجة » ، إذن ، متغير مستقل يحدد المتغير الوسيط « الحافز » « ف » ، الذي بدوره يتحد مع متغيرات وسيطة أخرى في تحديد السلوك .

ومن بين المتغيرات الوسيطة الأكثر أهمية ، بالإضافة الى الحافز (D) متغير دافعية - الباعث incentive - motivation variable (K) الذي يتحدد بمقدار ونوعية الإجابة وقوة العادة M س . وهذه المتغيرات الوسيطة تتحد بطريقة تضعيفية في جهد استدعاء رد الفعل reaction evocation-potential (sEr) السلوك = دالة (sEr) = دالة (Dx K x sEr)

وقد استخدم ثورنديك المصطلح الشائع « الفريزة » كدلالة على المتغير الدافعي الاساسي لكن حينما احتدم « الجدل حول الفريزة » استبدل مصطلح « فريزة » في نظريات التعلم بمصطلحات أخرى للمتغيرات الدافعية الاولى مثل « الحوافز » ، « الحاجات » ، « المطالب » وغير ذلك .

وقد كان « وودورث » (١٩١٨) هو الذي قدم مصطلح « حافز » (drive) لتمييز المتغير الدينامي الذي يحرك او ينشط ميكانزمات السلوك لكن اعظم ادخال للمتغيرات الدافعية في سيكولوجية التعلم كان على يد « ادوارد تولمان » . لقد قدم كتابه الدائع الصيت « السلوك الغرضي لدى الحيوانات والانسان » (١٩٣٢) المتغيرات الدافعية كالحوافز والمطالب على انها اكثر المحددات السلوكية او المتغيرات الوسيطة أهمية جنبا الى جنب مع المتغيرات المعرفية : « استعداد الفأية - الوسيلة » (means and-readiness) و « التوقعات » (expectations) لم يكن

تولمان صاحب نظرية في التدعيم ، لكن الدافعية بالنسبة له ، لعبت دورا هاما كمحدد للاداء ، الذي يرشد او يوجه ايجابيا بالمحددات المعرفية .

لم يهتم تولمان ابدا بالنمو الشكلي لنظريته ، وعهد الى تغيير مصطلحاته خلال سنوات بحثه فاذا بدا ب « المطالب » و « الحوافز » ، تحول الى « الحاجة » ليمسود في النهاية الى « الحافز » (١)

الان تولمان قد اترف بالمنظر الفلد لسيكولوجية التعلم : « كلارك هل » ، الذي تمثل اعماله الرئيسية (١٩٤٢ ، ١٩٥٢) اعظم نظرية متطورة في السلوك ، في هذين الكتابين (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) طور هل قانون الاثر عند ثورنديك

للتعلم (يمكن تطبيقه على الحافز ، ثانياً ، « ان الميكانيزم الاساسي للدافعية (الاستشارة : القوة) واحد بالنسبة للحوافز الاولى والمتعلجة ، وان الميكانيزم الاساسي للتدعيم (خفض في الاستشارة القوة) واحد بالنسبة للاناثبات الاولى والمتعلجة » (ميلر ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠) . وقد قام « ميلر » بتجارب هامة كثيرة عن الدافعية والتعلم .

وقدم « ماور » ، بالتعاون مع ميلر ، مفهوم « الخوف » كحافز مكتسب ، الذي قد يعتبر الاساس لكثير من الحوافز المكتسبة الاخرى (ماور ، ١٩٥٠) . ويمثل هذا المفهوم الاساس لما اضطلعنا به من تجارب ، وقد غير « ماور » في سياق تطور تجاربه نظريته من « نظرية التدعيم ذات العامل الواحد » One-factor reinforcement theory

الى ما يعرف « بنظرية العاملين » two-factor-theory التي عدلها مرة اخرى فيما بعد ، بحيث اصبحت في الواقع هي نظرية العامل الواحد ، تقوم على « التجاور » (contiguity) على انه العامل الاساسي في التعلم - وهي بالتالي لا تختلف كثيراً عن نظرية سبنس ، وربما يمكن الاختلاف في ان المتغير الدافعي الاساسي هو دافعية « الباحث » في نظرية سبنس ، و « الخوف » في نظرية ماور .

اما « براون » (١٩٦١) فقد بلور نظرية الدافعية الراسخة في النظرية السلوكية العامة عند هل - وجعل من الواضح ان المتغير البالغ الاهمية (« الحافز ») هو متغير وسيط ، تنشيطي (activating) هام ، لا توجيهي (non-directing) ، ويميز هذا بوضوح مفهوم الحافز عند هل وبراون عن مفاهيم الحافز الاخرى (مثل مفاهيم تولمان وفرويد) ، وبالإضافة الى ذلك ، اتى براون بنظرية اكثر وضوحاً واتساقاً وقابلية للتحقيق

لقد اثرت نظرية هل بعمق في تطور نظرية التعلم . « فبين نظريات التعلم المعاصرة يشجع بناء هل مهيباً بروعة بنائه ، جعلاً يتناسب اجزائه ، فريداً في تناسق تفاصيله (سيد عثمان ١٩٧٤) . فمن بين زملائه وتلاميذه النجباء كان : « ك . سبنس » ، « ن . ميلر » « ماور » ، « ج . براون » .

يمثل اسهام « سبنس » في نمو مفهوم « الباحث » (incentive) بين المتغيرات الدافعية . لقد غير مفهومه من نظرية تدعيم خض الحافز drive - reduction - reinforcement theory الى ما يعرف بقانون ال اثر التجريبي Empirical Law of Effect ، الذي فيه تلعب الدافعية وخفض الدافعية فحسب دوراً في الأداء ، بينما يفهم التعلم على انه تشریط كلاسيكي يتبع « مبدأ التجاور » Contiguity principle (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) .

اما « ميلر » ، بالتعاون مع « دولا رد » ، فقد طبق شكلاً مبسطاً لنظرية هل على التعلم الاجتماعي (ميلر ، دولا رد ، ١٩٤١) وعلى نظرية الشخصية والعلاج النفسي (دولا رد ، ميلر ، ١٩٥٠) وبجانب ذلك ، طور نظرية شكلية عن السلوك الصراعى (ميلر ، ١٩٥٩) ، واكثر المفاهيم اهمية في نظرية ميلر : « الحافز » ، « الامارة » cue ، « الاثابة » ، « الاستجابة » . يتحدد الحافز على انه « مثير قوى » : ولكل مثير قوى « وظيفة الحافز » drive - function تستثير الاستجابات وتنشطها . وبالإضافة الى ذلك ، يمكن ان يكون للمثيرات « وظيفة الامارة » cue-function

التي توجه السلوك . اما « الاثابة » فهي ذلك الشيء الذي ينتج « خفض الحافز » ، الذي بدوره يدمم الاستجابات للمثير . وتعريف الحافز كنوع من المثير ينطوي على مزايا كثيرة : اولاً ، ان قانون التعميم (والقوانين الاخرى

وغالبا ما يرتبط المثير غير الشرطي بشيء ما ،
هو ، وفقا لنظام هل ، أما خفض الحافز
drive-reducing (مثل الطعام)
او استدعاء الحافز drive-inducing
(مثل الصدمة الكهربائية) . وفوق ذلك ، يشير
بافلوف الى ما يعرف بـ « الفعل المنعكس
الانظامي » Orienting Reflex (OR)
كعامل حاسم في تكوين اي رد فعل شرطي
Conditioned Reaction (CR)
وقد خضعت مشكلات « الفعل المنعكس
الانظامي » (ع ز) والنشاط الانظامي «نظ»
Orienting activity (OA) لنيض من
الدراسات المتعمقة ، الفسيولوجية والنفسية
وفي الحالات السوية والمرضية في الانحداد
السوفييتي في الثلاثين سنة الاخيرة (ب .
انوخين ، ١٩٥٨ ، ش . سوكونوف ، ١٩٥٨ ،
١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٠ ، فينوجرادوفسكا ،
١٩٦١ ، الخ) .

والفعل المنعكس الانظامي (ع ز) ، وفقا
لهذه الدراسات ، هو استجابة الكائن الحي الى
ظهور مثيرات جديدة او الى اي تغيير في الوسط
المحيط (اطلق عليه بافلوف كذلك الفعل
المنعكس الاستقصائي exploratory reflex
، ويمثل الفعل المنعكس الانظامي
استجابة مركبة تسهم فيها تقريبا
كل منظومات الاورجائزم: يدخل فيها استجابات
حركية (مثلا ، حركة الجسم والراس والعين
في اتجاه المثير) ، حشوية (تغير دفع الدم في
اجزاء الجسم ، تغير النبض والتنفس) ،
بيوكهرية (تغير تيارات الاداء ، الفعل المنعكس
الجلفاني - الجلدي Skin - Galvanic Reflex
وكذلك التغيرات في بنية المحلات
Analyzers وفي استشارية اعضاء الاستقبال الحسي
receptors ويتموضع التركيب الفسيولوجي - العصبي
للفعل المنعكس الانظامي في المنظومات الحائية
وتحت الحائية cortical, subcortical systems

التجريبي (الامبريقي) عن «الدافعية الثانية»
Secondary motivation
فليس لمة « حوافز » مكتسبة او متعلمة
ولكن هناك « مصادر متعلمة »
learned sources للحافز ، التي كلها -
بنفس الطريقة مثل المصادر الاولى
Primary sources (الحاجات) - تحدد الحافز
العام ذاته او تؤثر فيه . ويشير براون ، مثل
ماوردميل ، الى الخوف على انه الاساس
لكل « الانساني الدافعية الثانوية »
secondary motivational systems (١٩٦٨) .
علاوة على ذلك ، بتقبل براون امكانية توحيد
« الحافز » مع « الاستشارة » في المنظومة
الاستشارية الشبكية
reticular arousal system (RAS)

بهذا التفسير الفسيولوجي للحافز نتلمس
خطا آخر للنمو في سيكولوجية التعلم . فاذا
تبيننا الخط الاساسي اعتبارا من لورنديك ،
هناك اتجاه مواز هام آخر يبدأ مع بافلوف .

ولعل من المعروف ان نظام بافلوف لا يتضمن
اية مفاهيم دافعية في نظريته الاصلية كما
قدمها في عام ١٩٢٧ . وربما يعزى ذلك الى
انه قد أجرى تجاربه على الحيوانات في ظل
شروط أكثر سلبية وتقييدا . فبدون قيام
الحيوانات بافعال حرة ، ليس لمة حاجة
لتفسير تشبيطي في النظرية . لكن هذا يمثل
بالطبع تفسيراً سطحياً لأعمال بافلوف . فاذا
فحصنا نظريته بدقة نجد ان عملية التشرط
وسلوك الحيوان في الموقف التجريبي يحددهما
تفاعل دينامي معقد بين عمليتين اساسيتين :
« الاستشارة » و « الكف » . وبين هاتين
العمليتين ، تعتبر « الاستشارة » على الاقل عملية
تنشيطية ، تحريكية ، وبالتالي مثيرا دافعا
بالمعنى التقليدي للدافعية . وبالإضافة الى
ذلك تدخل الدافعية في المثير غير الشرطي الذي
يدعم الاقتران الشرطي اذا تبع المثير الشرطي .

خاص للدافعية ، حيث سلم بأن الدماغ يكون دائما نشطا . وليس ثمة حاجة الى مفاهيم خاصة لتفسير تنشيط السلوك وإثارته . بل تكون الحاجة فقط الى مفاهيم عن توجيهية وتنظيمية السلوك ، الذي يتحدد بما يعرف بتجمعات الخلايا cell-assemblies

وتتابعات الأطوار Phases - sequences

وقد غير « هب » فيما بعد من نظريته عن الدافعية وأكد على دور « المنظمة الاستثنائية الشبكية » في الدافعية . وقد أحكم « هب » نظريته بتأقن أكثر في مقال (١٩٥٩) وفي مرجع (١٩٦٦) . وعلاوة على برلاين ، أثر هب كذلك في « جيمس أولنز » (١٩٥٦) الذي برز في تجارب الإثارة داخل الجمجمة

(intracranial stimulation) (أ) ، التي

اكتشف فيها الوظيفة التدميرية للحاجز septum

وأهمية دور « المنظمة الاستثنائية الشبكية » بالنسبة للسلوك عامة والدافعية خاصة قد أقرها العلماء منذ أن اكتشف الفسيولوجيان « موروزي » و « ماجون » وظيفة هذه المنظمة . كما قدمها لأول مرة في عام (١٩٤٩) - وأبرزها « ماجون » على نحو

(وخاصة التكوين الشبكي reticular formation) الذي يباشر تأثيرا تنشيطيا على لحاء المخ) . ولتغل المنعكس الانظمائي أهمية بالغة الحيوية فهو يضمن الشروط الأمثل للأدراك والتحليل الأولى للمثيرات الجديدة ، وكذلك استعداد الأورجانزم للاستجابة لها (٧)

وقد أدى منطق نمو البحث الرصين في هذا الصدد الى علماء النفس في الشرق والغرب الى نتائج متقاربة . فهناك تشابه كبير بين نظريتي العالم السوفيتي « ي . سوكولوف » والعالم الكندي « د . برلاين » (١٩٦٠ ، ١٩٦٧) ، حيث يؤكد كلاهما على دور « المنظمة الاستثنائية الشبكية » (RAS) في السلوك الاستقصائي .

تأثر « برلاين » بالعلماء السوفييت وبجان بياجيه الذي عمل معه ، وخاصة بدونالد هب . يمزى الى « هب » بصفة خاصة ، في عمله الرئيسي (١٩٤٩) ، وصل علم النفس الغربي بالتقليد البافلوفى الاصيل ، كما ينسب اليه الفضل في بث نهضة في النظر الفسيولوجي في ميدان علم النفس . لقد كشف « هب » ، في الطبعة الأولى لنظريته (١٩٤٩) ، عن تصور

(٧) تمثل الدراسات السوفيتية في الفعل المنعكس الانظمائي « ع د » والنشاط الانظمائي « ن د » مساهمات مهمة في الفكر السيكولوجي العالمي المعاصر . وهي تحتل مكانا بارزا كاتجاه مسيطر على كثير من البحوث النفسية السوفيتية ، وبخاصة في كلية علم النفس بجامعة موسكو ، ورأيتها « يوجين سوكولوف » ، « ألكسندر لوردا » ، « أولجا فينوجرادوفا » وغيرهم . نظمت « جامعة موسكو كلية علم النفس » بالاشتراك مع « أكاديمية العلوم السوفيتية » سلسلة من البحوث ظهرت في مجلد بعنوان (L. Voronin) ، ويتضمن (٨) دراسة في هذا عام ١٩٥٨ ، وترجم الى الإنجليزية في عام ١٩٦٥ تحت إشراف (E. Sokolov, O. Vinogradova (pds.) ÷ Neuronal mechanics of orienting reflex, Moscow Univ. 1970; العدد . كما أجرى العديد من البحوث (٢٨ بحثا) تحت إشراف « سوكولوف » و « فينوجرادوفا » ظهرت في مجلد ١٩٧٠ (بالروسية) تحت عنوان

(E. Sokolov, O. Vinogradova (pds.) ÷ Neuronal mechanics of orienting reflex, Moscow Univ. 1970;

وبحوث غيرها (٢٤ بحثا) تحت إشراف « سوكولوف » قدمت أمام مؤتمر (١٩٦٩) عن « اليكازمات التبرولية لتعلم » ، نظفة قسم علم النفس المعصبي والفسيولوجي بكلية علم النفس - جامعة موسكو وقسم فسيولوجيا النشاط المعصبي

الرائي باكاديمية العلوم الطبية بموسكو ، ونشرت في كتاب (بالروسية) تحت عنوان (E. Sokolov (pd.) : Neuronal mechanisms of learning, Moscow Univ., 1970).

(أ) craniology : علم الجمجم

التعلم الحديثة ، ولاقى نظامه القائم على التجريب تطبيقاً على مشكلات عامة (١٩٥٣) . فقد طبقت نتائج بحوثه على العلاج السلوكي وخاصة على التدريس (١٩٦٨) . وممن الانتقادات الممنعة لاتجاه سكتير المعادي للنظرية antitheoretical orientation

تلك التي قدمها « ن. ميلر » (١٩٥٩) ، الذي أشار الى الفائدة « الاقتصادية » لادخال متغيرات وسيطة في تلك الحالات التي يكون فيها أكثر من متغيرين مستقلين وتابعين خاضعين للملاحظة في تجربة .

ومما يجدر الإشارة اليه هنا ، أحد الرواد المبرزين في علم النفس الدافعي ، « يول توماس يونج » ، الذي يعتبر اتجاهه اقرب الى سيكولوجية التعلم والاتجاه السيكونسولوجي في الدافعية منه الى سيكولوجية الشخصية . اضطلع يونج بتجارب كثيرة على الحيوانات من مشكلات تفضيل الطعام . وقد بنى ، استناداً الى هذه التجارب ، نظرية وجدانية (hedonistic) (٩) موضوعية للدافعية ، تمثل مسلماتها الاساسية في أن البواعث (مثل الطعام) تحدد الاستثارة الوجدانية affective arousal وهذه العملية تحدد السلوك وتؤثر في التعلم . ولا يغفل يونج المصادر الأخرى للدافعية (مثل الحاجات ومثيرات النفور) ، لكنه يؤكد ان الانفعالات الوجدانية الإيجابية positive - hedonic affects

قد اغفلها علم نفس الدافعية التجريبي الحديث وقد نظم يونج (١٩٦١) كل نتائج البحوث في علم النفس الدافعي الحديث في نظامه الوصفي أو اطواره المرجعي ، الذي يعرف بالاتجاه «متعدد المنظور» multi-perspective «الانتهاجي» attitudinal «النسبي» relativistic ، هذا النظام ، الذي يبعث

محكم في عام (١٩٥٤) ، وقد يسر هذا الاكتشاف عمل علماء النفس في هذا الصدد ، خاصة في أعمال «دونالد لندزي» (١٩٥٧) . وتكامل دور « المنظومة الاستثنائية الشبكية » في نظرية الدافعية عند « اليزابيث دوفي » (١٩٦٢) التي أكدت ، كما شاع في الثلاثينات ، دور مفهومين اساسيين في وصف السلوك وتفسيره : « التنشيط » (Activation) و « التوجيه » (direction) . وغني عن القول ، انه قبل اخضاع هذه الوظيفة الدافعية للمنظومة الاستثنائية الشبكية للبحث ، ساد الافتراض بانها نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي alitonic nervous system ، الذي يعتبر الآن نظاماً جانبياً وثانوي الأهمية مقارنة بالمنظومة الاستثنائية الشبكية .

وأهمية دور المنظومة الاستثنائية الشبكية قد تأكدت ، بالإضافة الى ذلك ، في نظرية « دالبيير بندرا » (١٩٥٩) الذي يقر انه قام بالجمع بين اتجاهي « هب » و « سكتير » .

لعل ارجاء الإشارة الى « ب . سكتير » من قبل يعزى الى ان نظريته - او بعبارة أدق ، نظامه الوصفي - لا يتضمن أية مصطلحات تفسيرية تشير الى متغيرات وسيطة او تكوينات فرضية . ومن ثم ، لا يتضمن نظام سكتير أية متغيرات دافعية بالمعنى التقليدي - حتى اقل من بافلوف ، لكن سكتير يستخدم مصطلحات لتفسيرات مستقلة امبيريقية ، ترتبط بالمتغيرات الدافعية . وأكثر هذه التغيرات المرتبطة بالدافعية أهمية في نظام سكتير : « الحرمان » و « التلذذ » . يحدد الحرمان الدرجة العامة للتنشيط ، بينما يحدد التلذذ « قوة الاستجابة » أو احتمالية حدوث الاستجابة . و يترفع سكتير في الوقت الحاضر على موقع من أكثر المواقع تأثيراً في سيكولوجية

مثل جهده *impetus* ، هدفه ، موضوعه ، مصدره .

« معنى بجهد الفريزة عنصرها الحركي ، مقدار القوة أو الطلب على الطاقة التي تمثلها . وهدف الفريزة هو في كل حالة الاشباع ، الذي يمكن الحصول عليه بابطال حالة الاستثارة في مصدر الفريزة . أما موضوع الفريزة فهو ما يمكن ان يتحقق فيه او من خلاله هدفها . انه ألتى الأكثر تفرها بالنسبة للفريزة ولا يرتبط بها في الأصل ، ولكنه يصير متعلقا بها فحسب بسبب ملائمتها خاصة لتوفير الاشباع ويعنى مصدر الفريزة تلك العملية الجسمية في عضو او جزء من الجسم ينشأ منه مشير يتمثل في الحياة العقلية بفريزة من الفرائز (فرويد ، ١٩١٥) .

بعد ان قدم فرويد هذه المسلمات والتعريفات الاساسية ، مضى الى مناقشة المشكلات الهامة المتعلقة بمدد وأنواع الحوافز الفريزية :

« اقترح انه يمكن تمييز مجموعتين من هذه الفرائز الاولى ، فرائز حفظ الذات او فرائز الأنا ، والفرائز الجنسية . لكن ليس لهذا الاقتراح ثقل المسلمة الضرورية ، مثل افتراضنا للفرض « البيولوجي في الجهاز العقلي » انه مجرد تكوين مساعد نعتد عليه فقط طالما يثبت فائدة ، ولن يكون هناك الا فارق ضئيل في نتائج عملنا للوصف والتصنيفا لو استبدلناه بتكوين آخر » (فرويد ، ١٩١٥) .

لقد غير فرويد تصنيفه للحوافز الفريزية مرتين : من الحافزين الفريزين المذكورين الى حافز غريزي واحد (الطاقة الجنسية « الليبيدو ») ، ثم مرة أخرى الى اثنين : غريز الحياة (الأيروس Bros) وغريزة الموت

على الأتارة والالهام في هذا الميدان ، هو صيغة حديثة لأعماله القدة المبكرة (١٩٣٦ ، ١٩٤٣)

النحي الاجتماعي لعلم النفس الدافعي ، ديناميات الشخصية :

في نفس الوقت الذي ابتدع فيه بافلوف ولورنديك وماكدوجل نظرياتهم ، كان « سيجموند فرويد » يرسى أساس التحليل النفسي . لقد كتب ، بعد ان حاول بناء نظرية فيسيولوجية (١٨٩٦) ، عمله الرئيسي الأول عن الأحلام (١٩٠٠) . وقد كانت نظرياته ، منذ البداية ، دينامية من حيث انها قد ركزت على « الطاقات » و « القوى » النفسية ، و « الصراعات النفسية الداخلية » كمحددات للسلوك السوي والمرضى . الا ان فرويد قدم أول صياغة منظمة لنظرية الدافعية في عام ١٩١٥ ، حيث حدد متغيره الدافعي الاساسي الفريزة ، أو بالاحرى الحافز (١٠) :

« يمكن ان نخلص الى نتيجة بأن الفرائز وليست المثيرات الخارجية هي القوى الدافعية الحقيقية في التقدم الذي رفع الجهاز العصبي بكل كفايته الهائلة الى مستواه الراقى الحالي من النمو . .

« واذا شئنا الان اعتبار الحياة العقلية من وجهة نظر بيولوجية ، تبدو « الفريزة » لسا كمفهوم محاذ بين ما هو عقلي وما هو جسمي ليكون كلاهما الممثل العقلي للمثيرات المتولدة من داخل الاورجانزمز والمنسابة الى العقل ، وفي نفس الوقت المقياس للطلب على طاقة العقل بسبب اتصاله بالجسم .

« والآن نحن في موقع لمناقشة مصطلحات معينة تستخدم للاشارة الى مفهوم الفريزة ،

(١٠) اشار علماء عديون الى ان الترجمة الصحيحة للمصطلح الالمانى Trieb يعني ان تكون « الحافز » وليس « الفريزة » كما شاع ترجمتها ويقترح « دهايبورت » (١٩٦٠) تسمية المصطلح الدافعي الفرويدي ب « الحافز الغريزي » Instinctive drive .

العوامل المسيطرة هي القوى الدافعية الأولية بجانب « الميكانزمات الارتباطية ». وقد واصل ليفين مع زملائه تجاربه وتحليله التصوري للميول المسيطرة ، أو « الحاجات » (Bedürfnis) كما سماها فيما بعد (١٩٢٨) لم يكن ليفين هكذا مهتما بالحاجات البيولوجية بقدر ما كان مهتما بأشباه الحاجات - quasi needs ، التي هي ميول محتومة بالقرارات (Vorsatz) والحالات الأخرى (Einstellungen) لقد أحكم ليفين وزملاؤه باتقان نظرية من الدافعية الإنسانية (كما تتمايز عن نظرية الدافعية الحيوانية التي أحكمتها نظريات التعلم) . وقد طوقت أعماله تلك المشكلات الكلاسيكية مثل « مستوى الطموح » ، « النشاط البدلي » ، « استدعاء الادعاءات المثبتة » (ظاهرة زيجارنك) ، وغيرها . وقد ظهرت نتائج هذه الأعمال في فترة إقامة ليفين بألمانيا ، وقد جمعت وترجمت إلى الإنجليزية في عام ١٩٣٥ .

أما في فترة إقامته بأمریکا ، فقد أحكم ليفين نظاما كاملا ، معروفا بالنظام الطوبولوجي لوصف تركيب الشخص « ش » والبيئة (الحركة) « ب » . وقد ألحق بهذا النظام الوصفي (١٩٣٦) فيما بعد نظاما تفسيريا (١٩٣٨) ، حيث فسر السلوك « س » كدالة للشخص والبيئة : س = دالة (ش ، ب) . ويمثل مفهوم القوى النفسية أكثر التفسيرات الدافعية أهمية . ويتعدد هذا التكوين التفسيري بحالة التوتر في الشخص (المرتبطة بحالة الحاجة في الأوجانزم) وبالقيمة الذاتية Valence لموضوع أو نشاط معين في البيئة (المدركة) . واذ تعتبر « نظرية المجال » عند ليفين متقنة ومتسقة للغاية ، إلا أنها قد خضعت للنقد الشديد من حيث ارتباطها تماما بالإحداثيات الملاحظة (أى ، تعريفات إجرائية قليلة للغاية) ، واهتمامها - وفقا لمبدأ المعاصرة contemporaricity أساسا بالقوى العاملة في اللحظة الراهنة ، وإغفالها للسياق التاريخي

(ثاناتوس Thanatos) . ولترك تفاصيل نظرية فرويد في الدافعية ، حيث يمكن للقارئ الرجوع إليها في مصادر عربية عديدة .

لعبت نظرية التحليل النفسي في الدافعية تغيرا ونموا بعد فرويد ، وقد قدم « كينيث كولبي » (١٩٥٥) تحليلا عميقا لنظرية التحليل النفسي في الدافعية وأبرز أن « الطاقة » energy و « البنية » structure هما المفهومان الأساسيان والمتماثلان في نظرية التحليل النفسي في الدافعية (وربما في أى نظرية) . واقترح « نموذجاً بنويبا دوريا - دائريا cyclic - circular structural model

ليحل محل النموذج الثلاثي القديم الذي قدمه فرويد : « الهوى ، الأنا ، الأنا الأعلى . أما « دافيد رابابورت » (١٩٦٠) فقد قدم تحليلا متعمقا شاملا لنظرية التحليل النفسي في الدافعية ، وفيه أشار إلى الفارق بين الأسباب والدافعية ، حيث يعتبر الدافعية نوعا خاصا من الأسباب . ويميز بين « الحوافز الفريزية » والاندماط الأخرى للذوافع . وأكد ، مثل كولبي ، التفاعل الهام بين الحوافز والتركيبات (ميكانزمات الدفاع ، وغيرها) . وبالإضافة إلى ذلك ، قدم مقارنات باللغة القيمة بين نظرية التحليل النفسي عامة والنظرية التوضيحية عند بياجيه ونظرية التعلم .

ومن النظريات الغلة نظرية « كورت ليفين » في الدافعية ، وهي النظرية الوحيدة في الدافعية التي تربط بعلم النفس التجريبي الكلاسيكي بينما كان يدرس ليفين مع « فريدمر » مؤسس مدرسة الجشطلت ، ويرافقه كيولوكوفكا ، استلهم ليفين الشاب للقيام بأولى أعماله التجريبية عن « الميول المسيطرة » determining tendencies التي اعتبرت بمثابة تقسّد لأعمال « آخ » (١٩٠٥) التي تتناول مشكلة الإزادة داخل إطار مرجعي ارتباطي كلاسيكي أوضح « ليفين » (١٩٢٢) أنه توجد ميول مسيطرة أخرى بجانب الارتباطات ، وأن هذه

أو - حينما يدخل في مواجهة - إلى الانتباه والاستجابة لأنواع معينة من الضغط . وحتى قد تولد الحاجة ادراكات وهمية وتعقيلات هذائية (إسقاطات لضغطها التصور *imagined press* على موضوعات غير ملائمة . وتصحب كل حاجة على نحو مميز بشعور أو انفعال خاص وتميل إلى استخدام أساليب معينة (الحاجات الفرعية *sub-needs* ووسائل الاداء *actones* لمحاذاة اتجاهها . وقد تكون الحاجة ضعيفة أو قوية ، وقتية أو دائمة . لكنها عادة ما توجد وتؤدي إلى نشأة سياق معين للسلوك الظاهري (أو الخيال) الذي (إذا كان الأورجانيزم متقدرا والقاسومة الخارجية ليست مما لا يمكن التغلب عليها) يغير الظروف الحافزة بطريقة تصل بالوقف إلى الغاية بما يؤدي إلى تهدئة (سلامة أو ارضاء) الأورجانيزم » (موراي ، ١٩٣٨ ، ص ١٢٣ - ١٢٤) .

يتضح من هذا الاشتقاق أن « الحاجة » عند موراي تختلف عن الحاجة عند هل وأصحاب نظريات التعلم ، حيث تقتصر عندهم على حالة الحرمان في بعض الأعضاء الطرفية *peripheral organs* أو في الأعضاء الحشوية *viscera* الحاجة عند موراي ، من ناحية أخرى ، حالة رئيسية (فرضية) ، أكثر شمولاً وأحاطة من « الحافز » عند هل (أقرب إلى الواقع إلى جهد استدعاء رد الفعل *Efr* عند هل) ، ومن « الحافز الفريزي » عند فرويد . تتضمن نظرية موراي تقريباً أربعين حاجة ، مقسمة إلى « الحاجات » حشوية الأصل *viscerogenic needs* (وعددها ثلاث عشرة) و « الحاجات نفسية الاصل » *Psychogenic needs* (وعددها مشروى على الأقل) . وتمثل هذه الثروة من المتغيرات الدافعية وكذلك المتغيرات التفسيرية الأخرى جوانب القوة والضعف في نظرية موراي على السواء . تكمن القوة في امكانية عمل واصاف متميزة لشخصيات

للظاهرة النفسية ، فنظرية ليفين « لاثاربيعية » وفي ذلك تكمن نقطة الضعف الكبيرة في نظامه الشاهقي الذي اقامه . ورغم ذلك ، فقد ألهمت نظرية ليفين أعمالاً تجريبية عديدة ، سواء في علم نفس الطفل أو (بخاصة) في علم النفس الاجتماعي . كما أثر في نظرية التعلم من خلال « تولمان » وفي نظرية الشخصية من خلال « هنري موراي » .

يرى « موراي » نظريته كشكل حديث لنظرية التحليل النفسي في الدافعية ويقرر بدينه لكل من مكدوجل وليفين . ويبرز في كتابه « استكشافات في الشخصية » (١٩٣٨) تكامل الطرق التجريبية والاكلينيكية ، بما يكشف عن أول امثلة حقيقية للعمل بروح الفريق في علم النفس . ومن أبرز معالم نظرية موراي محاولة اقامة تكامل للجوانب القيمة من نظرية التعلم مع أساسيات نظرية التحليل النفسي . لذا ، يتدور موراي تصنيفاً محكماً على الأصول التطورية *genesis* للشخصية لوصف السلوك ، لكنه في تفسيره للسلوك يؤكد - خاصة أهمية احداث الطفولة المبكرة و « ديناميات الشخصية » . وفي إطار ذلك ، يقدم موراي المتغير الدافعي « الحاجة » :

« الحاجة تكوين (وهم مقنع أو مفهوم فرضي) » يكمن وراء القوة (الطبيعة الجسمية - الكيميائية) في منطقة المخ ، قوة تنظم الادراك والفهم والتعقل والنزوع والاداء بطريقة يتم بها تحويل موقف قائم غير سار إلى وجهة معينة . وفي بعض الاحيان تستثار الحاجة مباشرة بعمليات داخلية من نوع معين (حشوية *viscerogenic* ، غددية *endocrinogenic* أو تتعلق بسرير المخ *thalamogenic* تنشأ في سياق التناوبات الحيوية ، لكنها تستثار أكثر (في حالة الاستعداد) بحدوث أحد الضغوط الفعالة (أو بصور توقعية لذلك الضغط) . لذا ، تتبدى الحاجة عندما تؤثر بالأورجانيزم إلى السعي أو إلى تجنب المواجهة

الأفراد ، والضعف في المخاطرة بتفسيرات كاذبة قد يقع فيها بعض السيكولوجيين . ومما يجدر ذكره ، أن موراى قد عدل نظريته عدة مرات (١٩٥١ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٩) ليستقر به الأمر أخيراً إلى استبدال مفهوم « الحاجة » بمفهوم أكثر دقة وتضييقاً يعرف بـ « الاستعدادات الموضوعية » thematic dispositions

« لقد أصبح من الواضح لنا أكثر وأكثر أنه يمكن تجديد مكونات الطاقة في الشخصية كاستعدادات للموضوع أفضل من تحديدها كاستعدادات عامة للإداء general actional dispositions (١٩٥٩ ، ص ٣٤) .

ولقد استمر موراى في ابتداع مفاهيم وصفية وتفسيرية جديدة ، وكان له فضل بالغ الأثر على سيكولوجية الشخصية لما قدمه من تصورات نظرية وابتكارات منهجية (من بينها اختبار تفهم الموضوع « التات ») ولما توصل إليه من تجاربه إلى نتائج قيمة . ولعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا موراى القوة الدافعة في نظرية الشخصية ، حيث يمكن أن نعدده الرجل الثاني فقط بعد فرويد .

ولا غرو ، فقد افتنى ماكلياند خطى موراى وأخذ يسعى إلى استكمال الشوط إلى أقصى مداه ، حيث وأصل البحوث الإمبيريقية مستعينا باختبار تفهم الموضوع « التات » وأنماذ نظرية في الدافعية . لذا قد أعد صورة جماعية لاختبار التات ، وحاول هو وزملاؤه قياس مضمون الخيالات في قصص التات التي يرويها المفحوصون في مواقف مختلفة عديدة ، حيث يمكن خلق دافعيات مختلفة (دافعيات مثل الجوع ، الجنس ، العدوان ، الخوف ، التواد القوة ، والإنجاز) . وعن طريق الجمع بين الطرق التجريبية وطرق الملاحظة الميدانية توصل ماكلياند وزملاؤه إلى تصورات خلاقة للدافعية . كما حققوا كذلك نوعاً من التقنين لمنهج تحليل المضمون لقصص التات ، الذي

طور إلى الحد الذى يمكن معالجته بالحاسبات الآلية . ومن المعالم المميزة أيضاً لعلم النفس الحديث أن زمرة ماكلياند قد ركزت بحولها وتطورها النظرى أساساً على متغير دافعى واحد ، المعروف بدافع الإنجاز (ماكلياند وآخرون ، ١٩٥٣) وقد أوشحوا ببصونهم أن الفروق الفردية في قوة دافع الإنجاز كما يقاس بالتات تتوقف على البيئة - خاصة حينما تدعم أساليب تربية الطفل الاستقلال والاعتماد على الذات لديه . وقد أوضحت زمرته في أعمالها اللاحقة أيضاً قيمة التات في قياس الدوافع الأخرى (ماكلياند ، ١٩٥٥ ، أكنسون ، ١٩٥٨) . وقام ماكلياند نفسه بدراسة تأثير دافع الإنجاز على النمو الاقتصادى في المجتمعات المعاصرة والقديمة (١٩٦١) .

ومن ناحية التصور النظرى ، قدم ماكلياند اسهامة بالغة القيمة بالانتقال من تصور محتوم بالحاجة need-determined conception للدافعية إلى تصور وجدانى محتوم بالتوقع hedonistic, expectation determined للدافعية (متأثر بنظريات يونج وتولمان ، أو على الأقل مواز لها) . ويتضح هذا من الصياغة الأولى لنظريته :

« يصير الدافع ارتباطاً وجدانياً قوياً ، يتميز برد فعل تومئى للهدف ويقوم على الارتباط السابق لعلامات معينة مع اللذة والألم » (١٩٥١ ص ٤٤) .

ويحدد ويخلص المسلمات الأساسية لنظريته إلى النحو التالى :

« تعريفنا للدافع كما يلي : الدافع هو تمييز redintegration بواسطة علامة أو أمانة cue لتغير في موقف وجدانى . ويقصد بكلمة تمييز في هذا التعريف أن تتضمن التعلم السابق وكل الدوافع ، في نظامنا ، متمثلة . والفكرة الأساسية هي ببساطة كما يلي : تكون مشيرات أو مواقف معينة متضمنة بإشارات بين التوقعات

ويدخل التوقع - أو الاحتمالية الذاتية «لح»
(P_h) - في علاقات متبادلة مع الحافز في
مواقف الانجاز بهذه الطريقة :

شح = أ ÷ لح

وتوازي مع هذا الدافع الإيجابي لاحتراز
النجاح ، يسلم أكتنسون أيضا بـ « الخوف
من الفشل » أو « الدافع إلى تجنب الفشل » :

شح = أ ÷ شح × شح × شح × شح

وواحد من المسلمات الأساسية لنظرية
أكتنسون أن السلوك نتيجة التفاعل بين دافعين
على الأقل ، ففي مواقف الاستثارة بالانجاز
يكون السلوك (س) نتاج دافعين متضارعين :

شح = أ ÷ شح × شح

لذا يضمن أكتنسون نظريته أيضا بمش
الفروض المستعارة من نظرية ميلر في السلوك
العصامي .

وفي الفترة الأخيرة عمل أكتنسون مع « نورمان
فيزر » ، وجعما أعمالهما وما قام به زملاؤهم
في مجلد جديد (أكتنسون ، فيزر ١٩٦٦) .
في هذا الكتاب يوضحون قيمة نظريتهما
المعروفة بـ « النظرية المصغرة » (miniature -
theory) لدافعية الانجاز ويتمسسون
السييل إلى إمكانية توسيع النظرية إلى نظرية
عامة في الدافعية الإنسانية تجمع بين نظامين
في علم النفس العلمي : علم النفس الفارقي
(الاختبارات) للشخصية وعلم النفس العام
(التجريبي)

يصف « فيزر » (١٩٦٧) تطبيق نموذج
« التوقع × القيمة » على سلوك البحث عن
المعلومات information-seeking behavior

(المستوى التكميلي) ولادرا لمصادر الوجدان
الأولى غير المتعلم ، سواء الإيجابي أو السلبي
بطبيعته . ومن شأن العلامات أو الإشارات التي
تكون متزاوجة مع هذه الحالات الوجدانية أن
تفرض في هذه الحالات الوجدانية ، وتصبح
الشروط التي تنتجها قادرة على تمييز حالة
مشتقة من الموقف الوجداني الأصلي ، لكنها
ليست متحدة معها « (ماكلياند وآخرون ،
١٩٥٣ ، ص ٢٨) .

ومن الواضح أن تصور ماكلياند للدافعية
ينحرف إلى حد ما عن تصور أسلافه .

وقد لقي هذا المنحى في اتجاه نظرية «التوقع
× القيمة » ("expectation x value" theory)
مزيدا من التطور على يد « جون أكتنسون » ،
أحد رفاق ماكلياند الأقربين ، أهتم «أكتنسون»
خاصة بسلوك المخاطرة risk-taking behavior
واعتاد على دافعية لانجازه ، وقد
وقد طور من نظرية دافعية الانجاز إلى طراز
مثمر للغاية كنظرية للدافعية الإنسانية (١٩٦٤)
تأثر أكتنسون بقوة بليغين وتولمان ، كما أفاد
إلى حد ما من نظرية القرار الحديثة .

تبدو المنغمرات الدافعية الأكثر أهمية وما
يبنها من تفاعلات في معادلة أكتنسون :

شح = أ ÷ شح × شح (شح = شح × شح × شح × شح)

حيث م شح (شح) تعني الميل إلى احتراز
النجاح الذي هو وظيفة لاستعداد ثابت نظري
أو مكتسب ، يعرف بـ « الدافع » إلى انجاز
النجاح « شح » (شح) ، ويتحد مع «توقع»
النجاح شح (شح) و « قيمة الباعث »
incentive - value لاداء شح (شح)

يمكن أن تنبئ في السلوك حينما تشبع الحاجات الأخرى المحتومة أكثر بالانفاص . ويقترح نظاما هرميا للحاجات وفقا للقوة الغالبة prepotency (١٩٥٤) ، يمتد من أكثر الحاجات فسيولوجية الى أعظمها نضجا وتمدينا من الناحية النفسية . ويحدد ماسلو نظام الحاجات الأساسية على النحو التالي :

المستوى الاول : الحاجات الجنسية الأكثر أساسية (كالسعي الى الطعام والماء والهواء والذئذ والجنس ، وهكذا) . المستوى الثاني : حاجات الامن (وتمثل في تجنب الاخطار الخارجية او ما يؤذى الفرد) . المستوى الثالث : حاجات الحب والاستحسان . المستوى الرابع : الحاجات التي تربط باقامة علاقات مشبعة مع ذات الفرد ومع الآخرين (وتمثل في أن يكون متمتعا بالتقبل والتقدير ، وأن يحظى باحترام الذات ، وأن يكون محترما ، وأن تكون له مكانة ، وأن يتجنب الرفض او النبذ او عدم الاستحسان) . المستوى الخامس : الحاجات التي تربط بالتحصيل والانجاز والمعرفة والتعبير عن الذات (أن يكون الفرد مبدعا ومنتجا ، أن يقوم بأفعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة للآخرين ، أن يحقق إمكاناته ويرجمها الى حقيقة واقعة) .

وهنا يختلف ماسلو بنموذجه الهرمي للحاجات وما بينها من علاقات وظيفية متبادلة عن صناع القوائم ، منذ ماك دوجل ، الذين كانوا يكادسون قوائمهم دون محاولة جديدة لبيان الصلة فيما بينها . فقد أوضح ماسلو أنه لا يمكن وصف حاجة في عزلة عن الحاجات الأخرى : فالحاجات تنتظم وفقا لأهميتها بالنسبة للفرد ، وتتوقف مقدرة الفرد على اشباع الحاجات « العليا » upper needs (او أن شئنا حاجات النمو ، الحاجة الى المعرفة والخبرة الجمالية وتحقيق الذات) على مستوى اشباعه للحاجات الأساسية (مثال ذلك ، من الصعب على الفرد العمل بكفاءة اذا شعر بعدم تقدير الجماعة أو بأنه غير

ويالتالي طرق ذلك الميدان من البحث الذي كان يحتله من قبل العلماء من اصحاب الاتجاه البيولوجي وسيكولوجية التعلم (مثل ، برلاين)

وينتقد اكنسون كذلك « قانون الاثر » لعدم امكانية تطبيقه على السلوك الانجازي (اكنسون ، فيزر ١٩٦٦) ، ويشير الى الحقيقة بأن « أوليورت » قد أثار هذا النقد ذاته من حوالي ثلاثين سنة .

وهنا يبرز اتجاه آخر في سيكولوجية الشخصية ، صاحبه « جوردون أوليورت » . في كتابه الدافع الصيت عن الشخصية (١٩٣٧) يقترح نظرية - او ان شئنا ، نظاما وصفيا - للشخصية ، تتناقض الى حد ما مع الخط الاساسي الدينامي لنظرية الشخصية كما قدمه فرويد وويلين وموراي ، وغيرهم ، ينكر أوليورت أهمية الحاجات او الحوافز البيولوجية وكذلك أهمية النمو في الطفولة بالنسبة للشخصية الراشد . وكبدل لذلك ، طور فرضا عن الاستقلال الوظيفي functional autonomy لدافعية الكبار (فرض قدمه اصلا « وودورث » ١٩١٨) . وفي تعديل لنظريته يقرر :

« من وجهة النظر هذه يعتبر الاستقلال الوظيفي مجرد سبيل لاقتران ادوافع الناس تتغير وتنمو في سياق الحياة ، لأن من طبيعة الناس انهم ينبغي أن يفعلوا هكذا » (أوليورت ١٩٦٨ ، ٢٥٢٨) .

يتفق أوليورت في هذه النظرة الفلسفية الوجودية للانسان مع عالم فلد آخر هو « ابراهام ماسلو » الذي يعتبر من أبرز قادة الاتجاه الانساني في نظرية الشخصية . ينتقد « ماسلو » نظرية التحليل النفسي من حيث أنها « من جانب واحد » ، تعمل على دافعية deficiency - motivation وتفشل تماما دافعية النمو growth - motivation ويسلم ماسلو ان دافعية النمو هذه التي تتضح كحاجة الى تحقيق الذات

الدينامي dynamic calculus لتكوين
لا يزال يعرف حتى الآن ، بطريقة غامضة
ومتقنة للغاية ، بالفريزة أو الحافز ، الذي
هو مصدر الطاقة الكامنة وراء السلوك . وكما
سنرى يمكن أن يتعين وتحديد الأرج بدقة
بطريقة التحليل العاملي ، بينما غدت الفريزة
والحاجة والحافز وقر ذلك على أنها كل شيء
لكل الناس ولا يمكن أن تعد تستخدم بدقة
علمية » (كاتل ١٩٦٥ ، ص ١٨٥ - ١٨٦) .

ومن هنا نرى أهمية مصطلحاجديدا للمتغيرات
الدافعية الأساسية التي حدد منها كاتل على
الأقل أحد عشر متغيراً ، هذه المصادر التكوينية
للطاقة تناسب خلال تركيبات متعلمة تصرف
بـ « الاتجاهات » و « العواطف » - وهي
مفاهيم معروفة أيضاً من نظريات الشخصية
الأخرى . وأنها تكون رحلة طويلة إذا أردنا
تتبع كل أعمال كاتل أو بعمق بسبب حجم
ما أنتجه . فبالإضافة إلى مقالاته العديدة ،
ألف مدة كتب (١٩٤٦ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٧ ،
١٩٦٥) ، كما اشترك وحرر عدداً من الأعمال .
ولذا ، فقد عالج كاتل في قسم خاص في الفصل
المسحي من «بنية الشخصية» (Personality
Structure) الذي كتبه « ويجينز »
(J. S. Wiggins) في الكتاب السنوي لمعلم
النفس المعروف بـ «Annual Review of
Psychology» في عام (١٩٥٨) .

ويمكن أن نشر إلى عالم مبرز آخر في ميدان
نظرية التحليل العاملي للشخصية ، هو « هانز
إيريك » الذي اهتم خاصة بتطبيق نظرية
وطرق التحليل العاملي فيعلم النفس الاكلينيكي
أو « العلاج السلوكي » (انظر إيريك ١٩٦٤) .

(٢) مفاهيم الدافعية

ليس من السهل تصنيف مفاهيم الدافعية
وفرز التشابهات والاختلافات بينها لأنها قد
استخدمت بطرق مختلفة بواسطة سيكولوجيين
مختلفين ، وأن المتغيرات المتشابهة قد تعينت

محبوب) . وقد لاقى هذا النموذج الهرمي
لنظام الحاجات تطبيقات ذات بال في علم النفس
التطبيقي (مثل ، علم النفس التربوي
والصناعي) .

ولقد تكرر ماسلو في السنوات الأخيرة
على بناء نظريته إلى العلاقة بين سيكولوجية
الشخصية وفلسفة الإنسان (ماسلو ،
١٩٥٩ خاصة ، انظر أيضاً ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ ،
١٩٦٧ ، ١٩٦٨) .

ولاستكمال صورة نظرية الشخصية اليوم،
ينبغي الإشارة إلى « رايموند كاتل » ، العالم
النفسى الأنجلو - أمريكي . ليس من السهل
تصنيف كاتل على أنه ينتمي إلى مدرسة معينة
أو تقليد معين في علم نفس الشخصية ، وإنما
هو بالأحرى مؤسس وقائد لمدرسة جديدة
تتميز باستخدام التحليل العاملي والطرق
الرياضية لبناء نظرية نمت داخل سيكولوجية
الدكاء . ولقد ابتدع كاتل اختبارات عديدة
للشخصية ، استطاع بها هو وزملاؤه جمع
بيانات وفيرة عن الشخصية . واسكن هذه
البيانات في نظريته للشخصية ، التي تلعب
فيها « السمات الدينامية » أو المتغيرات
الدافعية دوراً هاماً . ولقد استعار كاتل
بعضاً من هذه المفاهيم عن ماكديوجل وفرويد،
لكنه أعاد بناءها في نظرية أكثر إحكاماً واتساقاً
والمتغيرات الدافعية الأساسية في هذه « الشبكة

الدينامية » dynamic lattice
التي تعتبر نموذجاً للبنية الدينامية للشخصية
هي : « الأرج » erg (وحدة عمل الطاقة) ،
الماعظة sentiment ، و « الاتجاه » attitude
ويحدد « الأرج » على النحو التالي :

« يبدو أننا هكذا قد بنينا بحثنا
اشباعاً النهائية هي اشباعاً فريزية ، أو
طافية ergic . يستخدم مصطلح « أرج » ،
وهو مأخوذ من الكلمة اليونانية ergon بمعنى
العمل أو الطاقة ، في التكاملي والتفاضل

فيما بعد (١٩٦٢) . فكل السلوك يمكن وصفه ، وفقا لدوق ، بالجمع بين مصطلحين وصفيين: « الشدة » Intensity و « الاتجاه » direction ، وهما الجانبان من السلوك اللذان يفترض تكشفهما بالنظريات الدافعية .

وغالبا ما نستخدم في التفسير السيكولوجي فئتين من المصطلحات : المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والمصطلحات الفرضية .

تشر المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) الى « المتغيرات المستقلة » التي يفترض انها الاسباب النهائية للسلوك (الذي هو متغير تابع) . وقد تتضمن هذه المتغيرات المستقلة المثيرات الخارجية من البيئة وكذلك المثيرات الداخلية من الاعضاء والانسجة المختلفة للأورجانزم . هذه المثيرات الداخلية ينبغي ان تكون قابلة للملاحظة اذا وُلجت كمتغيرات مستقلة يمكن وصفها بمصطلحات تجريبية (امبيريقية) . واذا كانت المتغيرات المستقلة يمكن وصفها كمثيرات (داخلية وخارجية) ، فانه يمكن تسميتها بـ « المتغيرات - م » (S-variables)

وقد يفضل بعض علماء النفس ، مثل سكرن الاهتمام اساسا بوصف العلاقات للملاحظة بين « المتغيرات - م » والسلوك . وتصاغ هذه الاوصاف في بعض الاحيان في قضايا عامة من العلاقات المتكررة والملاحظة بانتظام بين أنماط « المتغيرات - م » وأنماط السلوك أو « المتغيرات - س » . وغالبا ما تعرف هذه القضايا العامة بـ « القوانين » (أو علاقات م - س) . ويعتبر سكرن تكوين وتطبيق تلك « القوانين » على انه التفسير العلمي الوحيد . لكن معظم علماء النفس يفضل افتراض وجود متغيرات « وسيطة » mediating او « وسيطة » intervening بين « المتغيرات - م » ، « المتغيرات - س » . وهذه المتغيرات الوسيطة لا يمكن ملاحظتها .

بمصطلحات مختلفة في النظريات المختلفة . لذا كان من الضروري محاولة استخلاص مفاهيم الدافعية من خلال الدراسة المقارنة للنظريات المختلفة .

المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والفرضية:

تقد نشأت نظريات الدافعية وبنيت فروضها لتفسير السلوك . لكن ليست هناك حاجة الى المفاهيم الدافعية لكل أنماط او جوانب السلوك فردود الافعال الانعكاسية البسيطة (الانعكاسات الولادية) يمكن تفسيرها على اساس وجود مثير مباشر تأثيره على البنية الولادية « القوس الانعكاسي » . اما السلوك المركب (الاداءات او الافعال السلوكية) فغالبا ما يوصف على انه سلوك فرضي او موجه نحو هدف ، وهذا السلوك يمكن تفسيره بنظريات الدافعية . ومصطلحات السلوك « الفرضي » Purposive و « الوجه نحو الهدف » goal-directed مصطلحات وصفية ذات طبيعة مركبة وتجريدية وقد تستخدم هذه المصطلحات لوصف او تعيين السلوك الذي يكشف عن مركب لسمات عديدة يمكن ملاحظتها .

وقد كان ماك دوجل (١٩٠٨) أول من قام بتحليل ووصف محركات السلوك الفرضي ، هي كما عددها سبعة محركات . وقد اشار تولمان الى هذه المحركات حينما حدد ، في كتابه المشهور ، السلوك الفرضي (١٩٣٢) . وقد اختزل بندرا (١٩٥٩) ، في تحليله العميق ، هذه المحركات الى ثلاثة : الملاءمة appropriateness ، المثابرة persistence ، الاقتراح searching . واقتراح ايضا مصطلح « الوجه نحو الهدف » بدلا من الفرضي ، حيث يستخدمه كمرادف للسلوك المدفوع .

وربما تعتبر اكثر المصطلحات الوصفية بساطة ودقة تلك التي قمتها « اليزابيث دوق » في اعمالها المبكرة في الثلاثينات وأحكمتها

جدول (١) : المتغيرات « م ، ف ، س »

في بعض نظريات الدافعية

المتغيرات - م	المتغيرات - ف	المتغيرات - س
المتغيرات المستقلة	المتغيرات الوسيطة	المتغيرات التابعة
ماكدوجل	الفرقة (١٩٠٨) الميل الطبيعي الميل (١٩٣٢)	سلوك غرضي
فرويد	الحوافز الفريزية ، الشحنة الانفعالية ، الهي ، الانا ، الانا الأعلى	تداعيات حرة تقريرات الاحلام اعراض عصائية وغير ذلك من السلوك
تولمان	الطلب (١٩٣٢) نظام الحاجة (١٩٥١) مصفوفة الاعتقاد - القيمة (١٩٥١)	سلوك غرضي
يونج	الحافز ، الحالة ، الاتجاه الرغبة .	سلوك
أولبورت	السمات الدافعية والوسيلة	سلوك وسيلي وتمعيري
ليثين	الحاجات	
موراى	المثريات (خاصة موضوعات الهدف) ضبط الفا (١٩٣٨) ، والمثريات الاخرى الصادر الداخلية للحاجات	سلوك
هل	الحاجة المثريات الخارجية الحافز دافعية الباعث جهد الاستجابة قوة العادة	الاستجابة

تابع جدول (١)

المتغيرات - س	المتغيرات - ف	المتغيرات - م	
المتغيرات التابعة	المتغيرات الوسيطة	المتغيرات المستقلة	
سلوك منظم	قوة المادة تجميعات الخلايا تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة والاستشارة (١٩٥٥)	المثيرات الخارجية والداخلية	هب
السلوك الشهوى الافعال الاستهلاكية	ميكانزمات الافراح الفطري ميكانزمات الغريزة الدافعية	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية	تسبرجن
استجابات « التات » وغيرها من السلوك	الدافع الاستشارة الوجدانية	الامارات الحرمان من مستوى المواظمة	ماكلياند
الاستجابات للاختبار وغيرها من السلوك	الارح الاتجاه العاطفة	المثيرات الحالة الفسيولوجية	كانل
السلوك الاستجابي وسلوك العملية	قوة الاستجابة او - الاحتمال ؟	الحرمان الدعمات المثيرات النفورية	سكنر
استجابات التات وغيرها من السلوك	الميل ، الدافع ، التوقع الباث - القيمة	المثيرات	اكنسون
السلوك الاستقصائي والمعرفي	الاستشارة (المنظومة الاستشارية الشبكية) التطلع	المتغيرات الموازية جهد الاستشارة	برلاين

«متغيرات الاستعداد» *disposition variable* للمتغيرات الموروثة وكذلك المكتسبة . وبدلاً من «الاستعداد» قد يفضل البعض مصطلحات «العامل» أو ربما «التركيب» .

وخلافاً لهذه المتغيرات توجد فئة أخرى من المتغيرات النفسية ذات فترة أقصر الوجود، وتتضمن هذه الفئة فئتين فرعيتين : العمليات، التي ربما توجد فقط لشوان أو دقائق ؛ والحالات ، التي ربما توجد فقط لساعات أو حتى لأيام . ولما كان من الصعب التمييز بين العمليات الانقراض والحالات الأطول ، يمكن أن نستخدم المصطلح العام «وظائف» (أو «متغيرات الوظيفة» *function variable*)

ويولي علماء النفس المختلفون اهتماماً ب فئة من هذه المتغيرات أكثر من الأخرى .

فمتغيرات الاستعداد قد درست أساساً باستخدام طرق الاختبارات في علم النفس الفرائي ، متضمنة سيكولوجية الشخصية والذكاء . (يوضح مصطلح «التحليل العاملي» الاهتمام «بالعوامل» أو «الاستعدادات») . ومن ناحية أخرى ، درست متغيرات الوظيفة أساساً باستخدام الطرق التجريبية في علم النفس العام ، متضمنة التعلم والعرفنة والدافعية .

ومع ذلك ، توجد علاقة وثيقة بين الاستعدادات والوظائف ، حيث أن الاستعدادات تؤثر في مسار الوظائف وتخلق الفروق الفردية في السلوك الذي يتحدد مباشرة بالوظائف . ومن ثم ، غالباً ما استخدم المصطلح الواحد للإشارة إلى الاستعداد والوظيفة المتعلقة به . وقد يخلق هذا في بعض الأحيان فوضى وسوء فهم بين علماء النفس . لذا غالباً ما يشير مصطلح « الحاجة » في سيكولوجية التعلم إلى الوظيفة (على نحو أكثر دقة ، إلى الحالة) . ومن ناحية أخرى ، غالباً ما تستخدم «الحالة» في نظرية الشخصية

بطريقة مباشرة ، ولكن تستنح أو تفترض ، ولذا يمكن تسميتها بـ « المتغيرات » الفرضية *Hypothetical variables* أو « المتغيرات - ف » .

وقد قدم «تولمان» ، بهدف تفسير السلوك الفرضي خاصة ، تلك المتغيرات الوسيطة «مثل» «الحافز» و «المعرفة» *cognition* وعلى أساس طراز تولمان «م - ف - م» يمكن تقديم تصنيف أساسي للمتغيرات النفسية وتطبيقها على المتغيرات الدافعية في أهم النظريات التي عرضنا لها ، كما يتضح ذلك من الجدول (١) ، (الجداول الواردة في هذه الدراسة مأخوذة من أعمال «مادسن» ١٩٥٩ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٣) .

ويتضح من هذا الجدول أن لمة استخدمنا للمصطلحات يشيع في علم النفس يتم عن عدم اساق وفوضى بالفتين . ويتضح ذلك خاصة في التفسيرات المختلفة المتعلقة بالمصطلحين الهامين : « حاجة » و « حافز » . لذلك يستخدم هـل وتولمان (١٩٥١) المصطلحين بطرق متناقضة ، واستخدم موراى « الحاجة بطريقة مختلفة تماماً . وهذه الفوضى هي في الواقع اعظم مما يبينه هذا الجدول ، والتي سوف تصبح واضحة من الجداول الأخرى .

الاستعدادات والوظائف :

أعد تولمان أيضاً تصنيفاً للمتغيرات وفقاً لطول مدة وجود المتغيرات : فبعض المتغيرات النفسية توجد لفترة طويلة ، قد تستغرق كل حياة الفرد من الميلاء حتى الموت ، وهي الاستعدادات الموروثة . والبعض الآخر يكون مكتسباً بعملية التعلم في فترة أو أخرى من حياة الفرد ، وتوجد لفترة أقصر أو أطول ، ولكنها بعد أن تكتسب تلعب نفس الدور الذي تلعبه الاستعدادات الموروثة . لذا يمكن أن نستخدم مصطلح « الاستعدادات » أو

ويذهب « فارير » فيما بعد الى التمييز بين الجوانب « دينامية الاصل » والجوانب « التوجيهية » للمفاهيم السيكلوجية (١٩٥٥) .

وعلى اساس كل هذه التحديدات ، قدم « مادسن » (١٩٥٩) تصنيفا للمفاهيم السيكلوجية يستند الى التمييز بين التأثيرات المختلفة على السلوك (جدول ٣)

١ - المتغيرات دينامية الاصل
Dynamogenic variables ، وهي تقوم
بالتحرك او الاستثارة والتنشيط ، ولذا يكون
لها تأثير الشدة intensity effect
على السلوك .

٢ - المتغيرات التوجيهية
directive variables ، وهي تقوم
بالتوجيه والتنظيم ، ولذا يكون لها تأثير
توجيهي على السلوك .

٣ - المتغيرات المتجهة
Vector variables ، وهي متغيرات محددة لكل من الشدة والاتجاه .

ويتضح من التصنيف (جدول ٣) مرة
اخرى مصدر الارتباك بين النظريات النفسية
فمصطلح « حافز » يستخدم في نظام هـل
كمتغير دينامي الاصل ، بينما في نظام فرويد
كمتغير متجه . ويستخدم مصطلح « حاجة »
كمتغير دينامي الاصل عند هـل ، ولكن كمعبر
متجه في نظرية موراي (١٩٣٨) وفي نظريات
اخرى كثيرة للشخصية .

وبالاضافة الى ذلك ، توجد فروق بين
المتغيرات المتجهة ، مثل « الغريزة » عند
ماكوجل و « الحافز » عند فرويد ، من
ناحية ، و « جهد الاستجابة » عند هـل
و « الميل » عند آكنسون من ناحية اخرى .
لذا يعتبر مصطلح « غريزة » عند ماكوجل
غامضا شموليا (ومن ثم ينبغي تصنيفه كمعبر
متجه) ، بينما يتحدد بوضوح مفهوم « جهد

لتغطية كل من الوظيفة الدافعة للسلوك
والاستعداد الذي يحدد الفروق الفردية في
القوة والفترة وغير ذلك من هذه الوظائف .
وقد تنبه موراي لذلك وغير مفهومه الاساسي
باستبدال مصطلح « حاجة » الى المصطلح
الجديد « الاستعدادات للموضوع »
thematic dispositions وهذا
الاستخدام ، الذي يبعث على الارتباك والحيرة
لمصطلحات الاستعدادات والوظائف يمكن ان
يتضح من الجدول (٢) .

المتغيرات الدينامية والتوجيهية :

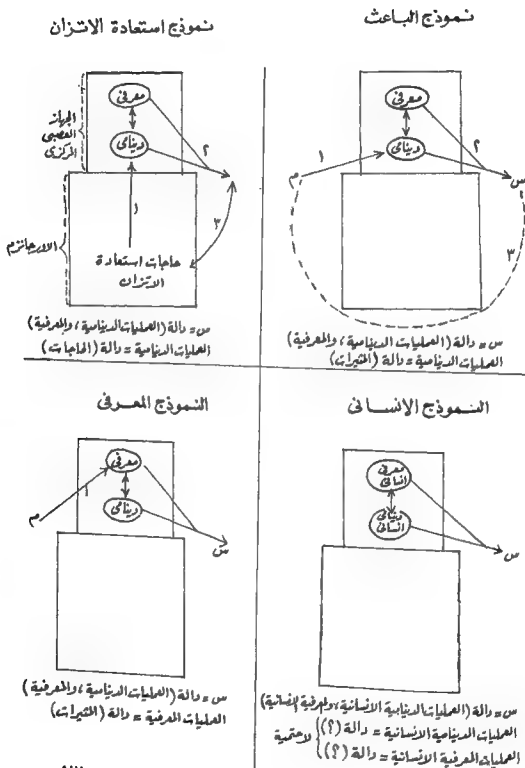
ربما تعتبر هذه الفئة من تصنيف المفاهيم
اكثر اهمية لنظرية الدافعية ، بقدر ارتباطها
الوثيق بالتغير - س : « السلوك الوجه نحو
الهدف » .

يمكن ان تعتبر « ليفين » اول من قدم
تحليلا متممًا للمفاهيم الدافعية (١٩٣٨) ،
حيث ميز بين القوى والقيمة الذاتية . فالقوى
forces تتميز بكل من القوة والاتجاه ،
ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المتجهات
vectors ، أما القيمة الذاتية فهي ،
على العكس من ذلك ، يمكن تحديدها فقط
قياسا الى قوتها ، ولذا يمكن ان تمثل رياضيا
بواسطة المعاريات Scalars .

ولم يكن ليفين هو الوحيد الذي ادرك ذلك
التحديد للمفاهيم . فقد ميز « وودورت »
(١٩١٨) بين الحافز والميكازم . ويذهب
العالم المبرز « پول توماس يونج » الى تحديد
مشابه في تقريره ان : « علم النفس الدافعي
يمكن تعريفه على انه دراسة لكل الشروط
التي تستثير وتنظم سلوك الكائن الحي »
(يونج ، ١٩٣٦ ، ص ٤٥) .

وفي نفس الوقت ، سعت « دوفي » (١٩٣٦)
الى الفصل بين « الشدة » و « الاتجاه »
كمفاهيم وصفية اساسية في علم النفس .

شكل (٢)
نماذج الدافعية



جدول (٢) : تصنيف للاستعدادات والوظائف
وفقاً لمدة وجود التغيرات النفسية

متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات	متغيرات الاستعداد « العوامل » أو « التركيبات »	ماكدوجل
الميل	الفريزة الميل الطبيعي الم عاطفة	
العمليات الادوية والثانوية الحوافز والطاقة	الهي ، الانا ، الانا الاملى ميكانيزمات الدفاع	فرويد
التوقعات الطالب (١٩٣٢) الحاجات (١٩٥١) الحوافز (١٩٥٩)	القدرات والسمات المراجية (١٩٣٢) استعداد الفاية - الوسيلة (١٩٣٢) مصقوفة الامتقاد - القيمة (١٩٥١)	تولمان
الحافز ، الحاجة ، الحالة ، الرغبة ،	الاتجاه	يونج
السمات الدافعية والوسيلية	السمات الدافعية والوسيلية	أولبورت
التوتر ، القيمة الذاتية ، القوة	تركيبات الشخصية والبيئة	ليفين
الحاجة (١٩٣٨) الضغط والشحنة الانفعالية (١٩٣٨)	الحاجات (١٩٣٨) الاستعدادات للموضوع (١٩٥٩) الشحنة الانفعالات (١٩٥٩)	موراي
الحافز جهد الاستجابة دافعية الباعث	قوة العادة	هل
تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة الاستشارة (١٩٥٥)	تجميعات الخلايا	هيب
الدافعية العوامل الدافعية	ميكانيزمات الفريزة ميكانيزمات الافراج القطري	تنبرجن
الدافع الاستشارة الوجدانية	مستوى الموامة	ماكليتلاند

تابع جدول ٢

متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات	متغيرات الاستعداد العوامل أو التركيبات	
تنشيط الإرجات ، المواقف والانجاء	الأرج الماطفة الانجاء	كانل
الحرمان التدعيمية الاستشارة التفورية	احتمال رد الفعل أو قوة الاستجابة	مكتنر
قيمة الباعث التوقع الميل	الدافع	الكتسون
المتغيرات الوازية الاستشارة ، التطلع	المنظومة الاستشارية الشبكية والتركيبات العصبية الأخرى	برلاين

جدول (٢) : تصنيف المتغيرات : الدينامية ،
والتوجيهية والتجهتوفقا لتأثيراتها على السلوك

المتغيرات المتجهة	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات دينامية الاصل	
الفريرة العاطفة		الميل الطبيعي الميل	ماكندوجل
الحوافز الهي	الآنا ، الآنا الأعلى العمليات الاولى والثانية	الشحنة الانفعالية	فرويد
الحافز (١٩٣٢) حيل السلوك المباشر (١٩٥١)	استعداد الفأية الوسيلة والتوقعات (١٩٣) مصفوفة القيمة الاعتقاد (١٩٥١) المعتقدات (١٩٥٩)	الطلب (١٩٣٢) الحافز (١٩٥١) الحاجة (١٩٥١) الحافز (١٩٥٩)	تولمان
الرفبة (١٩٣٦) الدافع (١٩٦١)	الحالة الاتجاه	الحاجة الحافز	يونج
	السمات الوصيلية	الحافز السمات الدافعية	اولبورت
القوة		الحاجة التوتر القيمة الذاتية	ليفين
الحاجة (١٩٣٨) الاستعدادات للموضوع (١٩٥٩)		الضغط الشحنة الاشعالية	موراي
جهد الاستجابة	الاستجابة الموقوتة للهدف الحافز - المثير قوة المادة	الحاجة الحافز دافعية الباحث	هل
	التتابع الطوري (١٩٤٩) تجميعات الخلايا (١٩٤٩) وظيفة الامارة (١٩٥٥)	الاستشارة (١٩٥٥)	هب

تابع جدول ٢

المتغيرات المتجهة	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات دينامية الاصل	
	ميكانزمات الافراج الفطري ميكانزمات الفريزة	المثيرات المفرجة الموامل الدافعية الدافعية	تنبرجن
الدافع	الامارات	الاستشارة الوجدانية	ماكيلاند
الاتجاه		الارج	كائل
الماطفة		الحرمان	سكنر
المثيرات النفورية المدمعات قوة الاستجابة			
الميل	التوقع	قيمة الباحث	اكتنسون
المتغيرات الموازية	التفكير	الدافع	
التطلع	المصرفية والعمليات الاخرى	الاستشارة	برلاين

ويُصنّف مسار النمو في نظريات الدافعية بتزايد التمايز في المفاهيم بين الأبعاد المختلفة للمفاهيم . ويرتبط هذا النمو ، بطبيعة الحال ، ارتباطاً وثيقاً بالنمو التجريبي .

ربما يمكن أن نستخدم تصنيف « دينامي في مقابل توجيهي » على أنه يعطي وصفاً تقريباً لنظريات الدافعية : كانت النظريات الأقدم (ماكندوجل ، فرويد ، والي حد ما الأشكال الأولى من نظريات موراى وتولمان) نظريات تستخدم مفاهيم التجهيزات . أما النظريات الأحدث فتتقسم إلى مجموعتين : تلك التى تؤكد على المتغيرات دينامية الأصل (خاصة هل وحواريه) ، وتلك التى تؤكد على المتغيرات التوجيهية (خاصة نظريات ماكلياند والكنسون) .

والنتيجة الهامة لهذه الدراسة التحليلية الغائرة تكشف عن الجبل المتزايد بين علماء النفس إلى استخدام المصطلحات المختلفة للإشارة إلى مختلف جوانب المفاهيم من المتغيرات النفسية التى يعالجونها في نظرياتهم .

واحراز خطوة أكبر في نمو النظر السيكولوجى يتم بتقبل نظام عام من المصطلحات طالما أنها مفاهيم عامة مشتركة بين علماء النفس يصرون عنها بمصطلحاتهم . وبطبيعة الحال ينبغى أن يكون هناك مجال لاستخدام مصطلحات جديدة ومختلفة حينما يبتدع المنظر مفهوماً جديداً أو يكتشف متغيراً .



من هذا التحليل المقارن لنظريات الدافعية وتناولها للمتغيرات الدافعية بمفاهيم مختلفة، يمكن أن ننطلق إلى تصنيف لنظريات الدافعية خاصة وعلم النفس عامة إلى الأنماط التالية (جدول رقم ٥ ، ٦) :

١ - نظريات « م - س » (S-R) ، وهى تتضمن كل النظريات الوصفية ذات لغة البيانات السلوكية . وهذه النظريات قد تتضمن أو صافاً

الاستجابة « عند حل كمرج للمثير دينامى الأصل («الحافز») والمثير التوجيهي («قوة العادة») على النحو التالى : جهد الاستجابة = دالة (الحافز × قوة المادة) .

لكن هل وحواريه قد خطوا لسوء الحظ - أو على الأقل لم يميزوا بوضوح - بين البعدين المفهومين : « الاستعداد في مقابل الوظيفة » و « الدينامى الأصل في مقابل التوجيهي » . لذا يكون جهد الاستجابة والحافز وظائف ، بينما قوة العادة في الواقع استعداد (تنشيط بالحافز ومن ثم فهى أيضا وظيفة ، ولكن لا يملك هل وحواريه مصطلحا لقوة العادة كوظيفة) . وربما يعزى سبب هذا الاختلال إلى أن الاستعدادات غالباً ما تكون توجيهية (مثلما تكون قوة العادة) ، وأن الوظائف غالباً ما تكون دينامية الأصل (مثلما يكون الحافز) . لكن هناك استعدادات تكون دينامية الأصل (مثل الصوامل المراجعة) ووظائف تكون توجيهية (مثل الإدراك وغيره من العمليات المعرفية) . ولذا تتضمن معادلة كنسون : $m = d(x \times y \times z)$ (التوقع بين البعدين م . (الجبل) ، « و » (التوقع) وكذلك « ث » (قيمة الباعث incentive-value تكون كلها وظائف ، فيها « م » كوظيفة متجهة « و » كوظيفة توجيهية ، « ث » كوظيفة دينامية الأصل . « ع » (الدافع) يتحدد في نظرية كنسون (١٩٦٤) بوضوح كاستعداد - ولكن ليس بوضوح وفقاً لتأثيراته على السلوك - ومن ثم ربما يمكن تصنيفه كاستعداد متجه وكذلك كاستعداد دينامى .

وأهمية التمييز بين هذين البعدين ربما تنضح أكثر إذا وجدناهما في تصنيف واحد ، يتبين منه لماذا كان المفهوم القديم للفرية (مثل مفهوم الفرية عند ماكندوجل) مقيماً علمياً ، حيث لم يتم إطلاقاً بالتمييز والتحديد بين أبعاد المفاهيم ، فالفرية كانت مصطلحاً يشير إلى كل من الاستعداد والوظيفة ، وكانت الوظائف تعتبر وظائف متجهة غير محددة .

جدول (٤) تصنيف جامع للمتغيرات الفرضية

المتغيرات التوجيهية	المتغيرات الدينامية	المتغيرات النتيجة
الاستعدادات : « الأنا » و « الأنا الأعلى » عند فرويد قوة المادة عندهل	« الدافع » عند اكنسون	« الهى » عند فرويد
الوظائف : « التوقع » عند اكنسون	« القيمة » عند اكنسون	« الحاجة » عند موراي (= عوامل الشخصية)
« الحالة » عند يونج	« الطاقة » عند فرويد	« الميل » عند اكنسون
	« التوتر » عند ليفين	« الحافز » عند فرويد
	« الحافز » عند هل	« القوة » عند ليفين
		« جهد الاستجابة » عند هل
		« الحاجة » عند موراي (= الحافز)

جدول (٥) أنماط نظريات الدافعية (مادسن

(١٩٧٣)

نظريات « م - س »	نظريات « م - ر - س »	نظريات م - س - غي - س	نظريات « م - ق - س »
سكندر يولز	إيفلوف يونج هـب تنبيرجن دوفي فريمان برلاين بندرا مورجان ستيلاز كونورسكى	فرويد وودورت ليفين تولمان هل ميلر سبنس براون موراي كاثل ماكلياند اكنسون مالك ف هنت كوش فستنجر بريرام	اوليورت ماسلو

جدول (٦) : تصنيف موحد لنظريات الدافعية (مادسن ، ١٩٧٣)

أنماط النظريات

الفروض الأساسية	نظريات « م » - س «	نظريات « م - و » - س «	نظريات « م - ض » - س «	نظريات « م - ق » - س «
فروض استعادة الاتزان		بافلوف ؟ دوق فريمان	فرويد هل موراي (١٩٣٨)	
فروض الباعث	سكنر بولز	يونج تشرچن هـب برلاين بندرا	موراي (١٩٥٩) ليفين ماكلياند اتكنسون كافل ميسلر سبنس	
الفروض المعرفية			براون تولمان وودورث مالك لف هنت كوش فستنجر	
الفروض الانسانية				اولبورت ماسلو

تمخضت عن بيانات ومفاهيم وفروض ومتغيرات عديدة .

ومن طبيعة الظواهر المعقدة ان تخضع لزيد من التحليل وتبين العلاقات ، وبالتالي تعدد النظريات والتصورات . وهنا يتوغل « بالتحليل » بيئة متعددة ، قد تكون حتى متناقضة .

ويفرض منطق التناول العلمى لمثل هذه البيئة العامة محاولة تبينها وتبصرها في إطار تصورات جديدة تكشف عن العلاقات بين النظريات وما بينها من تناقضات . ويقول آخر ، عندما تصل الدراسات والبحوث لظاهرة ما الى حد الشيع الزائد بالبيانات والنتائج ، يستلزم النمو في دراسة هذه الظاهرة « تركيب » Synthesis هذه البيئة الوفيرة في تصورات ونماذج اخرى تعتمد الى جمع اشياء وازداد النظريات المختلفة ، وتسمى الى كشف ما يجري بينها من علاقات وتناقضات ، وما تتصف به من الهام أو إهمام ، وما يشيع فيها من وصل وفصل .

يتمثل ذلك في بعض اتجاهات الفكر السيكولوجى المعاصر التي تعرف بـ « **نمذجة النشاط النفسى** » (Psychic Modelling) « **تحدد أهمية النماذج** » (Models)

في انها تسمح بان تخضع للاختبار والمراجعة تلك الأسس التي تقوم عليها مفاهيمنا وفروضنا من الظاهرة النفسية ، وبان تبيين امكانات التطبيق العملى لهذه المفاهيم والفروض . ويكشف التطبيق انه لكي ندرس قوانين النشاط النفسى بنجاح يمكن ان نستخدم ليس فحسب المنظومات البيولوجية biological systems ولكن أيضا منظومات مبتدعة اصطناعا لمعالجة المعلومات information processing

وهذا الاتجاه الرامى الى مزيد من التقدم في بناء النظريات النفسية آخذ في التو بتعميق

لعلاقات أشبه بالقوانين Law-like relationships بين المتغيرات « م » والمتغيرات « س » ، لكن لا يقوم أى تفسير لهذه القوانين على فروض أساسية .

٢ - **نظريات « م - د - س » (S-O-R)** ، وهي تتضمن كل النظريات التي تفسر علاقات « م - س » باستخدام متغيرات فرضية «ض» ذات معنى فيولوجى . « د » (O) وتعنى الاورجنازم) .

٣ - **نظريات « م - ض - س » (S-H-R)** وتتضمن كل النظريات التي تفسر العلاقة « م - س » باستخدام متغيرات فرضية لها معنى « محايد » لا يشير الى أى شكل من واقع أو مادة (يقول آخر ، التكوينات genuine constructs) وتتضمن هذا النمط أيضا كل النظريات التي تفسر باستخدام النمط الشكلى « للمتغيرات الوسيطة » (مثل ، النماذج الرياضية) .

٤ - **نظريات « م - ق - س » (S-M-R)** وتتضمن كل النظريات التي تفسر العلاقات « م - س » باستخدام متغيرات فرضية ذات معنى عقلى (M) تعنى « عقلى » أو « العقل ») .

٥ - **نظريات « ق - م » (M)** ، وتتضمن النظريات التي تمر من فهم لا يقوم على وصف موضوعى ودقيق بلغة البيانات السلوكية ، وانما قد تقوم على لغة البيانات الظاهرية (الفينومينولوجية) . لكن اصحاب هذه النظريات لا يتفحصون بجلاء في هذا بقدر ما يظهرون في فلسفتهم من الانسان .

(٣) **نمذجة الدافعية**

الدافعية ، اذن ، كانت ولا تزال موضوعها لفيض هائل من الدراسات النظرية والتجريبية

نموذج استعادة الاتزان : وهو أقدم النماذج في تاريخ علم النفس الدافعي . وقد ادخل مفهوم « الاتزان العضوي » Homeostasis في علم النفس ، السيكلولوجي الأمريكي « والتركانون » (١٩١٥) عن الفسيولوجي الفرنسي « كلود برنار » في تصويره « للوسط الداخلي » internal milieu وقد قدم فرويد كذلك (١٩١٥) تصورا مشابها في نفس الوقت .

يتصور هذا النموذج أن كل العمليات البيولوجية - بما فيها السلوك - محتومة باختلال « الاتزان العضوي » - أي الشروط القصوى للاتزان في الأورجانيزم . وتستمر هذه العمليات حتى يعود « الاتزان » إلى حالته الأصلية . ويؤلف اختلال الاتزان حاجة تحدث بدورها **حافزا** رئيسيا . وهذا الحافز ، بالاشتراك مع عمليات معرفية ، يحدد **السلوك** الذي يختزل - أو « يشبع » - الحاجة ، ومن ثم يعيد إقرار الاتزان العضوي .

ويوجد هذا النموذج في تلك النظريات المؤثرة مثل نظريات فرويد وهل . وقد تبني كثير من علماء النفس هذا النموذج لأنه يتصف بعدة مزايا ، من أهمها :

(١) أنه نموذج بسيط .

و (٢) أنه نموذج بيولوجي ، وهو ما يعتبر هاما بالنسبة لعلماء النفس في فترة ما بعد الدارونية .

وقد أدت شهرة هذا النموذج بعلماء النفس إلى سوء استخدامه وإلى تجاهل الحقائق لفترة

الشبه بين « النموذج » و « الطراز الأصلي » (prototype) ويعتبر استخدام طريقة النمذجة في بحث النشاط النفسي ليس « مودة » ولكن حتمية تفرضها طبيعة المشكلات المعاصرة لعلم النفس . ومن ثم تمثل النمذجة في جوهرها حلقة بالغة القيمة ، ناقصة في نطاق الطرق المستخدمة في علم النفس والطب النفسي يمكننا من التحقق والمراجعة من البيئة التي تتمخض عنها البحوث ، ومن بناء نظرية علمية وعملية متقنة ونافعة . . » (١١)

ولعل هذا الاتجاه يتبدى خاصة في علم النفس الدافعي ، وأبرز رواده « ك . مادن » العالم الدنمركي .

يقدم « مادن » لعلم النفس العلمي عدة نماذج للدافعية ، ويقرر : « لقد وجدنا أنه من المفتح تصنيف الفروض الأساسية - البديهيات والمسلطات - للدافعية إلى أربع فئات نطلق عليها « نماذج الدافعية » Models of motivation

لأنها غالبا ما تكون **نظما من التنبؤات الفرضية ذات العلاقات التبادلية** ، **يمكن تمثيلها ب « نموذج »** ووفقا للمضمون الأساسي للفروض الأساسية في النماذج ، يصنفها مادن على النحو التالي (شكل ٢) (١٢) :

- (١) نموذج « استعادة الاتزان »
"Homeostatic" model
- (٢) نموذج « الباعث »
"Incentive" model
- (٣) النموذج « المعرفي »
"Cognitive" model
- (٤) النموذج « الإنساني »
"Humanistic" model

(١١) أ . إ . براون وأخرون : **باللغة الروسية** : **لعجلة النشاط النفسي** ، موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(١٢) K.B. Madsen. Patterns of preferences and models of motivation. Paper presented at the Symposium on Pleasure, Reward and Preference. June 5. - 9., 1972, Korsdr, - Denmark.

المثيرات المعروفة بـ « البواصت » أى موضوعات المثيرات الدافعة motivating stimulus objects (الدينامية ، التنشيطية ، الهبئية للطاقة) . وتتضمن البواصت في بعض النظريات « المدعمات » (reinforcers) و « موضوعات الهدف » goal objects

ويوجد نوعان من البواصت : الأولية والثانوية

البواصت الأولية ، وهى المثيرات « م » (S) التى لها تأثير دينامى فطرى . وهذه البواصت الأولية تلعب دورا هاما فيما يعرف بالنظريات « الوجدانية » أو نظريات « اللذة » (hedonistic theories) التى تتشامخ بينها نظرية « بول توماس يونج » حيث يوضح أن للاستشارة الخارجية نتائج وجدانية ، وكذلك حسية ، وإن « الاستشارة » الوجدانية (affective arousal)

توجه الأورجانيزم نحو أو ضد موضوع المثير ولذا تؤثر في الاختيار والتفضيل . ومن النظريات الدافعة الصيت في هذا الصدد ، نظريات : هب (١٩٤٩) ، ماكلياند ، وتبرنجن .

ومما تجدر اثارته ان النظرية الوجدانية قديمة للغاية - حتى أقدم من نظرية الاتزان . فهى تعود الى فلاسفة الإغريق القدامى مثل إبقراط ، و « أصحاب المذهب النفى » (مثل بننام) في القرن الثامن عشر . ويكن التصور الوجدانى أيضا في « قانون الأثر » عند ثورنديك وفى « مبدأ اللذة » عند فرويد .

أما البواصت الثانوية ، فهى المثيرات « م » التى لها تأثير دينامى مكتسب . ولذا تلعب تلك البواصت دورا هاما في نظرية التلم الحديثة . وكان بفضل دافعية الباصت عند « سبنس » أن تضمنتها نظرية هل (يشار إليها بالرمز « ك » (K) تكريما لـ (K. W. Spence)

وتحدد « دافعية الباصت » ك (incentive motivation, K)

طويلة لم تتلامد في النموذج . ولذا تعرض هذا النموذج لنقد شديد الوطأة بحيث انه لم يعد قادرا على استبقاء مكانته على أنه النموذج الدافعى الثابت الوحيد ، الأمر الذى أدى الى ابتداء نماذج أخرى كبدائل له .

نموذج الباصت : استمرت « فترة نموذج استعادة الاتزان » من عام ١٩١٥ (وهو العام الذى خرج فيه كانون بنظريته) حتى عام ١٩٥٣ (وهو العام الذى عقدت فيه « ندوة نبراسكا Symposium on Motivation لوقد انتقد « هارلو (H.F. Harlow) في هذه الندوة نموذج الاتزان على أنه ضيق للغاية ، وأنه توجد دافعيات أولية بيولوجية أخرى بجانب حافظ الاتزان . ولقد اهتم خاصة بوجود « حافظ استقصائى بصري » visual exploratory drive

ولقد انضخ من التجارب الكثيرة فيما بعد ان حتى ما يعرف بحواجز الاتزان homeostatic drives (بصفة خاصة : الجوع ، العطش الجنس) لا يمكن تفسيرها كلية بواسطة استخدام نموذج الاتزان . ومن أقوى الانتقادات الموجهة ضد النموذج الضيق للاتزان تلك التى قدمها « بول توماس يونج » (١٩٤١ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٨) ، وهى تقوم على بيئة تجريبية تتعلق بتفضيلات الطعام لدى الحيوانات ، وهذه التفضيلات لم تلم على الاتزان المصوى .

ويمكن تلخيص القضايا الرئيسية المتضمنة في « نموذج الباصت » كما يلى : يكون لمثيرات خارجية معينة تأثيرا ديناميا ، أى تحدد حالة التنشيط state of activation أو تعبئة الطاقة energy mobilization في الأورجانيزم . وهذه الحالة الدينامية ، بالاشتراك مع العمليات المعرفية ، تحدد سلوك الأورجانيزم . وغالبا ما يتمخض عن هذا السلوك اختزال المثيرات الدينامية الخارجية (انظر الشكل) وهذه المثيرات أصلها في موضوعات

تأثير تنشيطي مشابه للحافز . هذا التأثير
التنشيطي أو الدينامي ميكانزم

هـ - هـ

فصل عن التأثير التوجيهي بالرمز « ك » .

وقد صار « ك » ، في تعديلات سبنس
(١٩٦٠) الأخيرة لنظريته ، أكثر أهمية من
« ف » (الحافز) كمحدد للسلوك ، حيث
افترض هنا انهما يتفاعلان بطريقة الاضافة ،
ومن ثم كان تعديل سبنس لمعادلة هل المشهورة
على النحو التالي :

$$R_x = D_x + C_x \times F_x$$

أو جهد الاستجابة = دالة قوة العادة \times
(الحافز \times دافعية الباعث)

وقد افترض ان « ك » تكتسب بالتدعيم ،
وتحدد كاختزال للحافز ، بينما تكون « م
ع س » (قوة العادة) مكتسبة بالتجاور
contiguity وفقا لما يذهب اليه سبنس .

ومن بين النظريات الحديثة في الدافعية التي
تنتمي الى « نموذج الباعث » : نظرية أكتنسون
ومن بين النظريات المبكرة : نظرية ليفين ،
لانها تتضمن مفهوم « القيمة الدائية » valence
الذي تأثر به أكتنسون بمفهوم « ك » كذلك يشه
مفهوم « الشحنة الانفعالية » cathexis
عند فرويد المفهوم الحديث للباعث .

النموذج المعرفي : يدخل هذا النموذج تماما
في كثير من النظريات المبكرة من الادراك
والعمليات المعرفية ، لكن بدون احكامها
كنظريات للدافعية .

هذه ، بالاشتراك مع « الحافز » (ف) و « قوة
العادة » (م ع س) ، « جهد الاستجابة »
(م ج س) والسلوك المتتابع . اذن « ك »
منغير فرضي يتحدد بالتغير « م » : حجم
ونوع الالابة (مثل ، الطعام) المستخدمة في
تجارب التعلم التي تشير النظرية اليها .

طور سبنس تصور دافعية الباعث على
اساس مفهوم هل من « استجابة الهدف
السابقة الجزئية » (fractional antecedating
goal response) او المعروفة ب « ميكانزم

$$R_x = D_x + C_x \times F_x$$

« والخاصية المميزة ، بل الوظيفة الوحيدة
لهذه الاستجابة السابقة الجزئية ، هي انها
تنتج مشرات مميزة للحصول على الهدف ،
ويسمى هل هذا المشر ، مشر الهدف الجزئي
fractional goal stimulus (مشر)

ونلاحظ ان حرف مـ صغير دليل على انه
مشر جزئي ، وان هل يربط بين مـ و مـ

بخط متقطع اشارة منه الى ان الرابطة بينهما
داخلية . وتتطلب نشأة استجابة الهدف
السابقة الجزئية ان ترتبط هذه الاستجابة

(مـ) ارتباطا وثيقا بالحصول على الاهداف
اي بالتعزيز « (١٣)

ولميكانزم استجابة الهدف السابقة الجزئية
في نظام هل تأثير توجيهي فحسب ، لكن يشير
سبنس الى احتمالية ان يكون لاجباط استجابة
الهدف الكاملة (RG) complete goal response
(مـ)

أما الشكل الآخر للنموذج المعرفي في الدافعية
يفترض أن **العمليات المعرفية** « **دافيتها**
الذاتية أو الداخلية» (intrinsic motivation)

وأفضل إيفاح لهذا نظرية « **ودورث** » ،
التي تتضمن **تعميماً لفكرة** « **الدافعية الذاتية**
أو الداخلية» في « **نظرية أولية السلوك** »
(Behavior Primary theory)

تقرر هذه النظرية أن أكثر أنواع الدافعية
أساسية يقوم على تناول البيئة بقوة . وهذه
النظرية لا تستبعد الحقيقة بأن الدافعية
« **الخارجية** » extrinsic - الحاجات
والبواعث - قد تحدد أيضاً السلوك في بعض
الحالات . لكن الفكرة الأساسية أنه حتى بدون
هذه المصادر « **الخارجية** » للدافعية يكون
الادرجاتزم نشطاً .

قدم « **ماك . في . هنت** » (١٩٦٥)
« **صيغة جديدة لنظرية المعلومات** »
(information theory version)

للتنظريات المعرفية المبكرة من الدافعية ، وبين
أن نظرية « **جان بياجيه** » تتضمن فرضاً
كاملاً من الدافعية المعرفية « **الذاتية** أو
الداخلية » ، وأن نظرية « **كارل بربرام** » -
العالم الأمريكي السيكونورولوجي - تنتمي
إلى نفس الفئة .

ولما كانت العمليات المعرفية المركبة تتعلق
استثنائاً بالإنسان ، فإن النموذج المعرفي
يقترّب من النموذج الإنساني .

النموذج الإنساني : لم يتحدد هذا النموذج
بوضوح مقارنة بالنماذج الثلاثة الأخرى . لكن
هناك مجموعة من نظريات الدافعية تطوى على
خصائص مشتركة بحيث يمكن تمييزها عن
النظريات الأخرى وتصنيفها في فئة واحدة .
ومن المعالم الهامة المشتركة بينها :

(١) التصور الإنساني لعلم النفس .

ومن هنا ، تضمنت نظرية الجشطالت
الكلاسيكية فروضاً دافعية (ف . هيبندر ،
١٩٦٠) . فقد عالج علماء نفس الجشطالت
« **الميل إلى الإغلاق** » أو « **إلى خلق شكل**
جيد » على أنه متغير دينامي ، « **قوة** » .
وهذا التصور لم يحكم أبداً في فروض دافعية
صريحة ، وربما قصد فهم حسب الميل إلى
الإغلاق تفسر دافعية العمليات المعرفية .
لكن استطاع ليفين حيك نظرية عامة في الدافعية
والشخصية ، تعتبر نظرية باعثة
incentive theory أكثر منها نظرية معرفية .

وقد ألهمت أعمال السيكونولوجيين الجشطالت
كذلك ، من خلال ليفين ، العالم « **تولمان** » .
تضمنت نظرية تولمان (١٩٣٢) كلا المتغيرات
المعرفية والدافعية لكي يفسر السلوك الفرضي
لدى الحيوانات والإنسان . وكانت بعض
المتغيرات - خاصة « **التهيؤ للدلائل الجشطالت**
(sign - gestalt - readiness)

عند تولمان - متغيرات دافعية معرفية مختلطة
وقد أحكم تولمان بعد ذلك (١٩٥١) هذه
المتغيرات المختلطة في « **مصنوفة الاعتقاد** -
القيمة» (Belief - Value Matrix)
التي تحدد السلوك ، بالاشتراك مع « **نظام**
الحاجة» (Need System) و « **حيز**
السلوك» (Behavior Space) . وقداطلق
تولمان نفسه على نظريته (١٩٥٢) « **النموذج**
المعرفي للدافعية »

(A Cognition Motivation Model)

وتتضمن النظريات الحديثة للدافعية شكلين
مختلفين بدرجة بسيطة للنموذج المعرفي :

يذهب الشكل الأول إلى أن **العمليات**
المعرفية **تحدد العمليات الديناميكية** ، وأن
العمليات المعرفية إذن **تؤثر توجيهي** وكذلك
دينامي (بطريقة غير مباشرة) . وغير مثال
لهذا النمط نظرية « **ليسون فستنجر** » عن
« **التنافر المعرفي** » .

الطبيعي الذي سيطر حديثاً على الفكر السيكولوجي الأمريكي ، وارتباطاً بذلك أيضاً تبني تصوراً إنسانياً خاصاً للإنسان خلافاً للتصور البيولوجي السائد ، ويتضمن تصور ماسلو للإنسان فرضه المتعلق بنوع راسم الإنسان خاص للدافعية يعرف بـ « الحاجة إلى النمو » (growth need) أو « دافعية التثوير » (metamotivation)

ويمكن الإشارة إلى نظرية « توماس مور » (١٩٤٨) كمثال آخر ، وإن كان أقل ذبوعاً . تفترض هذه النظرية تصوراً إنسانياً للعلم ونظرية في « حرية الإرادة » اللائحة للدافعية الإنسانية .



من هذا العرض لنمذجة النشاط الدافعي يتضح إلى أي حد تختزل النمذجة الكثير من نظريات الدافعية إلى نماذج محددة تسكن فيها مفاهيمها ومفترقاتها . لكن يسمى بعض العلماء إلى مزيد من الربط والوصل بين هذه النماذج المختلفة في تصورات تركيبية synthesis أكثر عمومية ووظيفية . من هذه التصورات ما قدمه « مادسن » (١٩٧٢) من « نموذج متكامل » ، يحاول فيه إقرار التكامل بين هذه النماذج ، وإن كان يقرر أنه لم ينجح في تضمين النموذج الإنساني داخل « النموذج المتكامل » ، وبالتالي يسمى هذا النموذج الآخر إلى التكامل بين النماذج الثلاث الأولى : « نموذج الإيزان » ، « نموذج الباعث » « النموذج المعرفي » .

يقوم التصور التركيبي لهذا النموذج الموحد كما يقرر مادسن ، على فرضين : الأول يقرر أن كل النماذج الثلاث « صادقة جزئياً » بقدر ما تتناول فئات مختلفة من الدافعية . ويقول آخر ، نماذج الدافعية صادقة كلها ، لكنها قد حدثت من أماكن تطبيقها . لذا يفترض أن كل نموذج صادق لفئة خاصة من الدافعية .

(٢) افتراض وجود فئة خاصة للدافعية الإنسانية . وتعتبر فئة الدافعية هذه - أو السلوك الإنساني ككل - « غير » محددة .

ومن أصدق النظريات تعبيراً عن هذا النموذج : نظرية « أولبورت » و « ماسلو » :

عرض « جوردون أولبورت » نظريته في كتابه « الشخصية » (١٩٣٧) طبعاً معدلة (١٩٦١) . في هذا الكتاب الدال على الصحة ، قدم تحديداً وتمييزاً بين العلوم ذات النسخ الفردية (Idiographic) والعلوم ذات النسخ الناموسية (nomothetic) ، يقترب من التصويرين الخاصين بـ « العلوم الطبيعية » (natural) و « العلوم الشرحية » (hermeneutic) ، وقدم فيه أيضاً تصوره عن « الاستقلال الوظيفي » للدافعية (functional autonomy) الذي تأثر فيه بالفكرة التي عرض لها وودورت في كتابه الأول (١٩١٨) . ووفقاً لهذا التصور توجد بيئة تؤيد وجود فئة من الدافعية لدى الراشدين ، الناضجين والمتحمين بالصحة النفسية ، تكون مستقلة وظيفياً عن الدافعية الأولية الأساسية التي توجد لدى الحيوانات والأطفال .

ويوضح أولبورت أن نظريات الدافعية المتضمنة في نظريات التعلم تستند بطريقة ضيقة للغاية على التجريب على الحيوانات ، وأن نظرية الدافعية المتضمنة في نظرية التحليل النفسي تستند أيضاً بطريقة ضيقة للغاية على دراسة العصبيين ، وهم أكثر طفلية في دافعيتهم من الراشدين الناضجين الأصحاء (مادسن ، ١٩٥٩) .

وقد تأثر « إبراهيم ماسلو » في نظريته بأولبورت وغيره . ويعتبر ماسلو أمام علماء النفس الإنسانيين (humanistic psychologists) حيث نادى بالحاجة إلى تصور إنساني آخر للعلم خلافاً للتصور

(الفصوص الحرفية ، وهى المحيطة بالجسم الجاسي في الدماغ) أو « الباعث » .

٣ - الدوافع اللحائية Cortical motives :

وتتضمن اللحاء المخى cerebral cortex وكذلك منظومة الاستشارة الشبكية . وهى تلك الفئة من الدوافع التى تقوم بوظيفتها ونفسا للنموذج المعرفى : فالمعطيات المعرفية تحدد دافعيها . ومن ثم يمكن ان تسمى هذه الفئة بالدوافع « المعرفية » أو « اللحائية » .

٤ - دوافع منظومة الاستشارة الشبكية

Reticular Arousal System

وهى الدوافع التى يفترض ان تتضمن فقط منظومة الاستشارة الشبكية (RAS) وهى الدوافع التى يصدق عليها النموذج « الدائى او الداخلى » Intrinsic - مثل نظرية اولية السلوك عند وودورت . ومن ثم ، يمكن ان تعرف بالدوافع « الدائية او الداخلية » او « دوافع الاستشارة او التنشيط » (activation motives) .



والخلاصة : لقد عرف علم النفس لسنوات عديدة بحقيقة تقرر بأنه ذلك العلم الذى ينتج نظريات متعارضة كثيرة . وربما يستمر هذا الاتجاه فى المستقبل . لذا ، من الأهمية بمكان بالنسبة لعلماء النفس ان يكونوا قادرين على ان ينموا فى انفسهم القدرة على ترشيدتناولهم لهذه النظريات المختلفة ، وعلى استخدامها بوجه يفتح على علم النفس كعلم ، لا على نظرية بعينها ، وان يكونوا على بصيرة من انفسهم فيخفصوا من دفاعاتهم الرامية الى فرض محرمات نظرية theoretical taboo على الظاهرة النفسية الحية التسامية . .

وحسبنا بصر « علم النفس العلمى » !

اما الفرض الثانى ، فمؤداه ان كل فئة للدافعية تتضمن بنية معينة فى الدماغ (بالاضافة الى « منظومة الاستشارة الشبكية » التى تتضمن كل انواع الدافعية) . وفى ضوء ذلك ، يقترح مادسن (١٩٧٢) الفئات التالية للدافعية :

١ الدوافع دون سريرية المخ

hypothalamic motives

وهى الفئة من الدافعية التى يفترض وجودها فى مراكز دون سريرية المخ hypothalamic centres

وكذلك فى منظومة الاستشارة الشبكية (RAS) . وهذه الفئة تكون أكثر صدنا بالنسبة لنموذج استعادة الاتزان . ولكن حتى فى هذه الحالة لا نستطيع اعتبار نموذج الاتزان على أنه صادق تماما ، حيث ان دوافع الاتزان تتضمن ، مثلا ، الدافع الجنسي الذى لا يعتبر كلية دافعا للاتزان العضوى . وربما تحدد البواعث ايضا هذا النوع من الدوافع وكذلك الدوافع العضوية الاخرى : الجوع ، العطش ، تجنب الألم ، تجنب البرد ، الخ . لذا يمكن ان يطلق على هذه الفئة من الدافعية « الدوافع العضوية » او « دوافع استعادة الاتزان » او « الدوافع دون سريرية المخ » .

٢ - الدوافع الحرفية limbic motives

وهى تلك الفئة من الدافعية التى يفترض ان تتضمن « المنظومة الحرفية » limbic system فى المخ ، وكذلك منظومة الاستشارة الشبكية . وهنا يتبين مادسن فروض « كورنورسكى » بأن « الدوافع الانفعالية » تتضمن « مراكز الحوافز الحرفية » limbic drive centers وان « الدوافع الاجتماعية » مشروطة بالدوافع الانفعالية . وهنا ينطبق خاصة « نموذج الباعث » على هذه الدوافع . لذا يمكن ان تسمى ايضا الدوافع « الانفعالية » و « الاجتماعية » بالدوافع « الحرفية »

المراجع

- ALLPORT, G. W. *Personality : a psychological interpretation*. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1937.
Pattern and growth in personality. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.
- ATKINSON, J.W. *An introduction to motivation*. Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1964.
 (ed.) *Motives in fantasy, and society*. Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1958.
 and Feather, N. T. (eds.) *A theory of achievement motivation*. New York : John Wiley, 1966.
- Bash, K.W. An investigation into a possible organic basis for the hunger drive. *J. Comp. Physiol. Psychol.*, 1939, 28, 109 - 135.
- BERLYNE, D. E. *Conflict, arousal, and curiosity*. New York : McGraw Hill, 1960.
 Motivation problems raised by exploratory and epistemic behaviour. In S. Koch (ed.), *Psychology - a study of a science*, Vol. 5. New York : McGraw-Hill, 1963.
 Reinforcement and arousal. In David Levine (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1967.
- BINDRA, D. *Motivation : a systematic reinterpretation*. New York : Ronald Press, 1959.
- BOLLES, R. C. *Theory of motivation*. New York and London : Harper & Row, 1967.
- BROWN, J. S. *The motivation of behavior*. New York : McGraw-Hill, 1961.
- CATTELL, R.B. *Description and measurement of personality*. New York : Harcourt, 1946.
Personality ; a systematic theoretical and factual study. New York : McGraw-Hill, 1950.
Personality and Motivation structure and measurement. New York : World Book World Book Co., 1957.
The scientific analysis of personality. Baltimore : Penguin, 1965.
 (ed.) *Handbook of modern personality theory*. Chicago : Aldine, forthcoming.
- COLEY, K.M. *Energy and structure in psychoanalysis*. New York : Ronald Press, 1955.
- DOLLARD, J., and MILLER, N.E. *Personality and psychotherapy*. New York : McGraw-Hill, 1950.
- DUFFY, ELISABETHI, *Activation and behaviour*. New York : John Wiley, 1962.
- EYSENCH, H. J. *The biological basis of personality*. Springfield, Ill. : Charles C Thomas, 1967.
- EYSENCK, H. J., (ed.) *Experiments in motivation*. Oxford : Pergamon Press, 1964.

- FARBER, I. E. Anxiety as a drive state. In M. R. Jones (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1954.
- FEATHER, N. T. An expectancy-value model of information-seeking behaviour. *Psychological Review*, 1967, 5 (74), 342-60.
- FRANKEL, Y. E. *Man's search for meaning : an introduction to logotherapy*. New York : Washington Square Press, 1963.
- HEBB, D. O. *Organisation of behaviour*. New York : John Wiley, 1949.
- Drive and the CNS (conceptual nervous system). *Psychological Review*, 1955, 62, 243-54.
- A Neurophysiological theory. In S. Koch, *Psychology-a study of science*, vol. I. New York : McGraw-Hill, 1959.
- A textbook of psychology. Philadelphia : Saunders, 1966.
- HULL, C. L. *Principles of behavior*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1943.
- A behaviour system. New Haven : Yale University Press, 1952.
- JONES, M. R. (ed.) *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1953-1963.
- LAWRENCE, D. H. & W. A. MASON. Food intake in the rat as a function of deprivation intervals and feeding rhythms. *J. Comp. Physiol. Psychol.* 1955, 48, 267-271.
- A dynamic theory of personality. New York : McGraw-Hill, 1935.
- Principles of psychological psychology*. New York : McGraw-Hill, 1936.
- A conceptual representation and the measurement of psychological forces. Durham N.C. : Duke University Press, 1938.
- Field theory in social science*. D. Cartwright (ed.) New York : Harper & Row, 1952.
- LINDSLEY, D. B. Psychophysiology motivation. In M. R. Jones (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1957.
- LURIA, A. R. *Human brain and psychological processes*. New York : Harper, 1966.
- MC CLELLAND, DAVID C. *Personality*. New York : Dryden Press, 1951.
- The achieving society. Princeton, N. J. : Van Nostrand Reinhold, 1961.
- (ed.) *Studies in motivation* : New York : Appleton-Century-Crofts, 1955.

- ATKINSON, JOHN W., CLARK, RUSSELL A., and LOWELL, L. *The achievement motive*, New York : Appleton-Century-Grofts, 1953.
- MC CLELLAND, D. and WINTER, D. *Motivating economic achievement*. New York : Free Press, 1969.
- MC DOUGALL, W. *An introduction to social psychology*. London : Methuen, 1908. 1908. The 1960 edition is used here. *The energies of men*, London : Ethuen, 1932.
- MADSEN, K.B. *Theories of motivation*, 4th ed. Copenhagen : Munksgaard, 1959. 4th ed., 1968.
- Integration through meta-science*. Exemplified by a comparative study of psychological theories. *Proceedings of the XIV International Congress of Philosophy*, Vienna & 1968 b.
- Modern theories of motivation*. Copenhagen : Munksgaard, 1973.
- MASLOW, A. H. *Motivation and personality*. New York : Harper and Row, 1954.
- New knowledge in human values*. New York : Harper and Row 1959.
- Toward a psychology of being*. Princeton, N.J., : Van Nostrand Reinhold, 1962.
- The psychology of science*. New York : Harper & Row, 1966.
- A theory of meta-motivation ; The biological rooting of the value-life*. *Journal of Humanistic Psychology*, 6967, 93-127.
- MILLER, N.E. An experimental investigation of acquired drives. *Psychological Bulletin*, 1941, 38, 534-35.
- Studies of fear as an acquirable drive*. *Journal of Experimental Psychology*, 1948, 38, 89-101.
- Learnable drives and rewards*. In S. S. Stevens (ed.), *Handbook of experimental psychology*. New York : John Wiley, 1951.
- Liberalization of basic S-R-concepts : extension to conflict behaviour, motivation, and social learning*. in S. Koch (ed.), *Psychology - A study of a science* vol. 2. New York : McGraw-Hill, 191959.
- And DOLLARD, J. *Social learning and imitation*. New Haven, Conn : Yale University Press, 1941.
- MORGAN, C. & J. T. MORGAN, *Studies in hunger : II the relation of gastric denervation and dietary sugar to the effect of insulin upon food intake in the rat*. *J. Genet. Psychol.*, 1940, 57, 153-163.
- MORUZZI, G., and MAGOUN, H.W. Brain stem reticular formation and activation of EEG. *EEG Clinical Neurophysiology*, 1949, 1, 455-73.

MOWRER, O. H. A stimulus-response analysis of anxiety and its role as a reinforcing agent. *Psychological Review*, 1939, 46, 553-65.

Learning theory and personality dynamics. New York : Ronald Press, 1950.

Motivation. *Annual Review of Psychology*, 1952, 3, 419-32.

Learning theory and behaviour. New York and London : John Wiley, 1960a.

Learning theory and the symbolic processes. New York and London; John Wiley, 1960b.

MURPHY, G. *Personality : A biological approach to origins and structure*. New York : Harper, 1947.

MURRAY, H. A. *Explorations in personality*. New York : Oxford University Press, 1938.

Toward a classification of interaction. In T. Parson and E. A. Shill (eds.),

Towards a general theory of action. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

PETERS, R.S. *The concept of motivation*, London : Routledge & Kegan Paul, 1958.

AIRPORT, D. The structure of psychoanalytic theory : a systematic attempt. In S. Koch (ed.), *Psychology a study of a science*, vol. 3. New York : McGraw-Hill 1959.

On the psychoanalytic theory of motivation. In M.R. Jones (ed.) *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1960.

SKINNER, B.F. *Science and human behavior*. New York : Macmillan, 1953.

Technology of teaching, New York : Appleton-Century-Crofts, 1968.

SOKOLOV, E.N. *Perception and the conditioned reflex*. Oxford : Pergamon Press, 1963.

SPENCE, K. W. *Behaviour theory and conditioning*. New York, Conn. : Yale University Press, 1956.

Behaviour theory and learning. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1960.

and JANET TAYLOR SPENCE (eds.) *The Psychology of learning and motivation*. New York and London : Academic Press.

THOMAE, H. (ed.) *Allgemeine Psychologie II : Motivation*. Göttingen : Hogrefe's Verlag für Psychologie, 1965.

THORNDIKE, E. L. *Animal intelligence*. *Psychological Review*, 1898, Monograph Supplement 2, 8.

Animal intelligence, New York : Macmillan, 1911.

- TINBERGEN, N. *The study of instinct*. Oxford ; Oxford University Press, 1951.
- TOLMAN, E. C. *Purposive behaviour in animal and men*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1932.
- Drives towards war. New York : Appleton-Century-Crofts, 1942.
- A Psychological model. In T. Parson and E.A. Shill (eds.), *Toward a general theory of action*. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.
- Principles of purposive behaviour. In S. Koch (ed), *Psychology, A study of a science*, vol. 2, New York : McGraw-Hill, 1959.
- TSANG, Y. C. Hunger Motivation in gastrectomized rats. *J. Abnorm. Physiol. Psychol.*, 1938, 26, 1-17.
- WANGENSTEEN, O.H. & A.J. CARISON., Hunger sensations in a patient after total gastrectomy. *Proceedings of the Society of Experimental Biology*, 1931, 28, 545 - 547.



ابن شرف القيرواني

وآراءه النقدية في رسالته « اعلام الكلام »

محمد سلامة يوسف

زيري واشهر ملوكهم وريب المالكية ورفيع
لباتها - بدأ له أن يقطع الصلة الواحية التي
تربطه بالعبيدين الشيعة النحلة ، فأعلن
انفصاله عنهم ، وخلع طاعتهم ، ولمنهم على
اعواد المنابر ، وحمل المناوبة على اعتناق مذهب
مالك والاستمسك به دون سواء متأسيا في ذلك
بملوك بني أمية بالاندلس ، يقول ابن الأثير :
« وهذا المعز أول من حمل الناس بإفريقية على
مذهب مالك ، وكان الاغلب عليهم مذهب أبي
حنيفة » (١) ويقول ابن خلدون : « وكان المعز
منحرفا عن مذاهب الرافضة ، ومتحلا للسنن ،
فأعلن بمذهبه لأول ولابته ، ولمن الرافضة ،
ثم صار إلى قتل من وجد منهم » (٢) .

ابن شرف افريقى أو بالاحرى مغربى المولد
والنشأ والرعى ، وقد كان معاصرا لدولة بني
زيري خلفاء العبيدين على المغرب وعمالهم
عليه ، بعد أن فتحوا مصر واتخذوا من القاهرة
قاعدة لكلهم ، وما أن جلا العبيدون عن المغرب
حتى تنفس أهل السنة الصعداء بعد أن لقوا
على أيدي العبيدين غروبا من الاذى وصنوبا
من العسف والوانا من الاضطهاد زهاء ستين
عاما أو أكثر ، حاولوا فيها بشتى الوسائل
ومختلف الأساليب فرض المذهب الشيعة
وقمع المذهب السنن والقضاء على أهله ،
ولاسيما المالكية منهم .

ولما ولي المعز بن باديس - واسطة عقد بني

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦ : ١٥٩ .

(١) الكلام ٩ : ٩٥ .

حياته :

هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد أحمد بن شرف الجذامي القيرواني ، هذا ماورد فيما اثر لنا من كتب التراجم والطبقات التي ترجمت له ، وهرفت به قديما وحديثا ، **فياقوت** يقول في ترجمته له : (محمد بن أبي سعيد محمد المعروف بابن شرف الجذامي القيرواني) (٣) **ويقول الصفي** : « محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني أبو عبد الله الجذامي (٤) **ويقول ابن شاكر الكتبي** في قوائمه : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجذامي » (٥) **ويقول ابن بشكوال** : « محمد ابن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني يكنى أبا عبد الله » (٦) **ويقول السيوطي** : « محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي » (٧) **ويكتفى ابن بسام** في ترجمته بقوله : « وكان أبو عبد الله بن شرف بالقيرواني من فرسان هذا الشأن » (٨) **ويفعل الدبائغ** في معالم الايمان (٩) ذكر نسبه وبهمله ، ولا يشير اليه ، أما **ابن دحية** في كتابه المطرب فقد أورد سلسلة نسبه ، وانتهى به الى قحطان نقلا عن **ابن الكلبي** أول من راد علم الأنساب ، وألف فيها حيث يقول في بداية ترجمته له : (من ولد جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عويص بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كذا نسبه أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي (١٠) أما المحدثون فقد

يبد أن المزم لم ينعم طويلا بالاستقلال ، فقد اغضب العبيدين ، واحتفظهم وأثار موجدهم عليه ، فأخذ الخليفة المستنصر المونور يفكر كيف يثأر لنفسه من المزم الذي انشق عليه ، وخلع طاعته ، فأشار عليه وزيره اليانوري أن يشرعوا في إرسال العرب الى المغرب ، فاصلحوا بين زغبة ورياح وكانت بينهما حروب وحقوق وامطوهم مالا ، وامروهم بقصد القيروان ، وملكوهم كل مايفتحونه ، وعدوهم بالمد والعدد فدخلت العرب أفريقية ودارت رحى الحرب على أرض المغرب حتى عجز المزم عن رد عادية الأمراب المغيرين ، وسقط في يده ، واضطر الى أن يشير على رعيته بالارتحال من القيروان الى المهدي سنة ٩٠٠ هـ وهكذا نجحت الكيدة التي يبتت بليل ، وخربت القيروان دار العلم بالمغرب ، وانحسرت موجة العلم والأدب من القيروان الى المهديّة العاصمة الثانية لأمرام بني زيسري ، وارز اليها العلماء والأدباء والشعراء .

وقد عاش ابن شرف في ظلال المزم بن بارس ، وانصلت أسبابه بأسبابه ، وانخرط في سلك خدمته ، ولقى حظوة كبيرة في بلاطه ، حتى أصبح شاعر المزم المقدم عنده الأثير لديه على سائر من في بلاطه من الأدباء والشعراء باستثناء ابن رشيق .

(٣) معجم الأدباء : ١٩ : ٣٧ .

(٤) التوالم بالوفيات : ٣ : ٩٧ .

(٥) فوات الوفيات : ٢ : ٤١٠ .

(٦) الصلاة : ٢ : ٥٧١ .

(٧) بغية الوعاة : ٤٦ .

(٨) الذخيرة القسم الرابع للمجلد الأول : ١٣٣ .

(٩) معالم الايمان : ٣ : ٣٣٩ .

(١٠) المطرب : ٦٦ .

في الرد عليه عدة تصانيف ، كان أبوه رشيق روميا ذكر ذلك هو في الرد على ابن شرف بعد ذكره نسب ابن شرف : هو اسم امرأة نالحة ، ثم قال : وأما أنا فنضر الله وجه هذا الشيخ في ، وأتم به النعمة على ، فما أبى به أباً ، ولا أرضى بملهه ملهها ، ورشيت به روميا لأدميا ولا بدميا » (١٤) فيبدو لنا من هذا النص أن ابن شرف ربما كان بنز ابن رشيق بأرومته الرومية ، ويفضره في نسبه في الأعاجم ، ويطعن عليه ، وينتقص منه بذلك ، وينال منه في زمن كان العربي يعتز فيه بعروته ، ويستشعر فيها العزة والشمم، وكان الموالى المنتهون الى اصول غير عربية لا يألون جهدا في الانتفاء من الولاء الذي وسهمهم بميسم الذلة والصغار ، ومن ثم أخذوا يصطنعون الانساب العربية ، وينتفون جدهم من اصولهم غير العربية التي نمئهم ، حتى أننا نجد إبا مسلم الخراساني وهو من هو يصطنع لنفسه نسبا عربيا يزعم فيه أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ، وقد قرعه بذلك أبو جعفر المنصور ، وأكتر عليه هذا النسب المزعوم عندما هم بالإيقاع به وقتله على مايروى لنا الطبري في تاريخه : (١٥) ونرى ياقوت في ترجمته للجاحظ يورد لنا قصة تدل على مسخرية الجاحظ (١٦) بهذه الصناعة التي راجت في عصره ، إلا أننا نرى ابن رشيق في رده على ابن شرف يصرح برفاه عن نسبه في الأعاجم ، ويفضر بأرومته الرومية ، ويعرض

تبعوا التداي عند ترجمتهم لابن شرف . **فالبغدادى** في هدية العارفين يعرف به وينسبه بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجدامي القيرواني » (١١) ويقول **محمد كرد علي** : « أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجدامي القيرواني » (١٢) ويقول **صاحب معجم المطبوعات** : « أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجدامي » (١٣) .

ومن عرضنا لما ورد من اصحاب التراجم والطبقات قديما وحديثا في نسبه عند ترجمته له ، وتعرفهم به نجدهم قاطبة يجمعون على انه عربي صليبة وليس ولاء ، وأنه سليل قبيلة جلداع تلك القبيلة العربية القحطانية التي نزلت الى افريقية فيمن نزل اليها من القبائل العربية ابان الفتوح الاسلامية لهذا الصقع ، وألقت به عصا التسيار ، وطاب لها المقام بمدينة القيروان ، فهو اذن عربي صريح ينتمى الى ارومة عربية قحطانية ، وقد كان نسبة العربي أمرا متعلما مشهورا ، حتى ان ابن رشيق ، قريعه ومتافسه في بلاط المعز بن باديس ، لم يستطع ان يفخره في نسبه أو يطن في هويته ، وينال منها عندما استحكم العداء بينهما ، فعندما نقرأ في ترجمة ياقوت لابن رشيق : « وكان بينه وبين ابن شرف الإديب مناقضات ومحادثات ، وصنف

(١١) هدية العارفين ٢ : ٧٢ .

(١٢) رسائل الخلفاء : ٣٠٢ وانظر ترجمة حسن حسني لابن شرف في مجلة الملتبس المجلد السادس : ٢٥١ .

(١٣) معجم المطبوعات ١ : ١٣٩ .

(١٤) معجم الأدباء ٨ : ١١١ .

(١٥) تاريخ الطبري ٩ : ١٦٦ - ١٦٧ .

(١٦) معجم الأدباء ١٦ : ٩٤ .

التاريخ حيث يقول : « وتوفى سنة ستين وأربعمائة ، أو فيما قبلها » (٢١) ، أما ابن بسام فقد أورد في أخبار ابن شرف أنه توفى سنة ٣٦٢ هـ نقلاً عن ابن رشيق حيث يقول : « حكى أبو علي في رسالة قراضة الذهب أنه مات سنة الثنتين وستين وثلاثمائة (٢٢) وهو خير غريب ووهم واضح ، إذا أنه لم يكن ولد ، وخرج إلى الوجود في هذا التاريخ ، وقراضة الذهب التي بين أيدينا الآن لا نجد فيها إشارة إلى هذا الخبر الغريب ، ولعل ابن بسام كان يعني سنة اثنتين وستين وأربعمائة لا اثنتين وستين وثلاثمائة ، أما السيوطي فقد ذهب إلى أنه توفي سنة ٥١٨ هـ وهو خير غريب ووهم واضح ، ولا ندرى من أين أتى بهذا التاريخ مع أن ترجمته له لا تعدو سطرين استقاهما ونقلهما من الصلة لابن بشكوال ، وبالرجوع إلى المصدر الذي استقى منه ، ونقل عنه ، لا نجد ابن بشكوال يذكر تاريخ وفاة ابن شرف بل أغفله تماماً وأهمله ولم يشر إليه ، على هذا فتحديد تاريخ وفاة ابن شرف بسنة ٥١٨ هـ من اختراع السيوطي ، وليس كما زعم من أنه نقله عن ابن بشكوال حيث يقول : « مات سنة ثمان عشرة وخمسمائة ذكره ابن بشكوال في زوائده على الصلة (٢٣) أما مكان وفاته فنحن

باين شرف الذي قالوا عنه : أن شرفاً اسم أمه (١٧) ، وأنه ليس له أب معروف ، كما غمز به ذلك مرة أخرى حيث يقول :

أما أبى فرشيق لست أنكسر*

قل لي أبوك وصوره من الخشب وهكذا نرى أن أصحاب التراجم والطبقات يجمعون على أن ابن شرف عربي صريح ، وأنه سليل قبيلة جذاذ تلك القبيلة العربية اليمنية (١٨) التي ينتهي نسبها إلى قحطان .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له ، وعرفوا به إلى مكان ولادته ومسقط رأسه ، ويقبض على أغل ابنه ولد بالقيروان ، أما سنة مولده فاننا لا نكاد نجد أحداً أشار إليها ممن ترجموا له من أصحاب التراجم القدامى ، أما المحدثون فقد حددوها بالاستناد معهود كرد على وحسن حسنى بنحو سنة ٣٩٠ هـ (١٩) ، أما سنة وفاته فانهم يكادون يتفقون على أنه توفي سنة ٤٦٠ هـ (٢٠) ولم يشذ عن هذا الاتفاق سوى الصفدي وابن بسام والسيوطي أما الصفدي فأنه أورد تاريخ وفاته بأسلوب الشك والاحتمال ، ولم يقطع بأن وفاته كانت في هذا

(١٧) يقول الصفدي : « قيل أن شرف اسم أم أحمد فعلى هذا لا ينصرف ، واسم أبيه فينصرف » الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وبعد أن يمدد رسائل ابن رشيق في هجاء ابن شرف وذكر إطلاقه يقول : « والشئني في بعضها :

وليسيت إياكم هملاً تكذب

فأبسميت في ذلبيك المنصعب

ولنحسب نسامحكسب بالآب

بنو شرف شرف أمكسب

ولكنهم التفتت شيغكسب

أبينوا لنا أمكسب أولا

انظر الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(١٨) في كشف الظنون : ١ : ٤٦ « جذاذ بضم الجيم والذال قبيلة من اليمن » .

(١٩) رسائل البلاء ٢ : ٢٠٢ وانظر مجلة المقتبس ٦ : ٢٥١ .

(٢٠) انظر معجم الأدباء ١٩ : ٢٨ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ وكشف الظنون ١ : ٤٦ وهدية التارفين ٢ : ٧٢ وظهر الاسلام ٣ : ٢٠٨ والأعلام للزركلي ٣ : ٩٠٠ .

(٢١) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٢٢) اللخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٨٠ .

(٢٣) بغية الوعاة : ٤٦ .

ابن شرف هذا ممن فهم منحا ، وصم عن رقا ، فلم يجتمع مع عباد في صعيد ، ولا أهدى له السلام الا من بعيد » (٢٨) ثم يذكر بعد ذلك ان اول ما بعث به ابن شرف الى المعتضد باشبيلية خمس قصائد من شعره مع رفعة خاطب بها وزيره ابن زيدون ، وأنه اجيب على ذلك برسالة من انشاء ابن عبد البر يستحنه على القدوم على حضرة المعتضد الذي وجه اليه بما يعينه على رحلته اليه (٢٩) فامتنع ابن شرف من القدوم على حضرته واكتفى بان اهدى اليه كتابه « ابيكار الافكار » يقول ابن بسام : « فتوقف ابن شرف عن القدوم بقدومه ، وكلف ذلك سن قلعه ، وطرد تاليه » ابيكار الافكار « باسم عباد ، وبعث به اليه على البعاد » (٣٠) فلما وصل الكتاب والخطاب الى المعتضد لم يجد بدا من انفاذ صلته اليه « (٣١) ورد على ابن شرف برسالة من انشاء عبد البر ايضا ، ثم يقول ابن بسام بعد ذلك : « ومع وصول هذه الصلة الى ابن شرف لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوف ويتنقل في الدول من منزل الى منزل ، ومن بلد الى بلد الا حضرة المعتضد فاته كان يخاطبه ، ويشده :

أحبك في البشول وفي ابهـا

ولكنى أحبك من يعيسد (٣٢)

نعلم انه توفي في دار غربته بالاندلس متنقلا بين ملوك الطوائف . الا أننا لا نكاد نجد احدا من اصحاب التراجم القدامى حدد لنا مكان وفاته اللهم الا ياقوت الذي يكاد ينفرد بين القدامى بتقرير أن وفاة ابن شرف كانت باشبيلية (٢٤) ، كما ذهب الى ذلك من المحدثين حسن حسني عبد الوهاب حيث يقول : « واجتاز ابن شرف وحده الاندلس ، وسكن المربة وغيرها ، وتردد على ملوك الطوائف كال عباد باشبيلية وغيرهم وبهذه المدينة الاخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ » (٢٥) وتبعه في ذلك طائفة من المحدثين . (٢٦) ونحن نشك في هذا الخبر ولا نكاد نطمئن الى انه توفي باشبيلية ، وأنه اتصلت اسبابه باسباب المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية وعاش في كتفه الى ان أدركته منيته ، لاننا نجد ابن بسام في ذخيرته يقول عن ابن شرف : « واستقر أخيرا عند المأمون بن ذي النون فعليه خلع آخر لبوسه ، ونثر بقية كيسه ، وكانت لمعاد همة في اصطحاب الاحرار واستجلاب ذوي الاخطار ينصب لذلك الحبال ويعمل فيه الحق والباطل ، حتى اذا غشوا الى سرجه ، واغثروا بزرجه سامهم رد قببس على ابيه ، واخذهم بالسعاية بين الفرقد وأخيه » (٢٧) ثم يذكر بعد ذلك أن ابن شرف كان يتجنب عبادا ، ويتحاماها فيقول : « وكان

(٢٤) معجم الأدباء ١٩ : ٢٨ .

(٢٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ .

(٢٦) انظر النولة الصنهاجية لاحمد بن عمر : ٨٤ ومصر القروان : ١٠٨ والاعلام ٣ : ٩٠٠ .

(٢٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٢ .

(٢٨) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢٩) المصدر السابق : ١٢٥ .

(٣٠) المصدر السابق : ١٢٨ .

(٣١) المصدر السابق : ١٤١ .

(٣٢) المصدر السابق : ١٤٢ .

أما أسرته فقد سكنت منها المترجمون ، وأغفلوها ولم يشيروا إليها أدنى إشارة ، ولم يحفلوا بها شأنه شأن غيره من العلماء والأدباء ، فلا تكاد نعرف من أسرته إلا ولده جعفرا ، وكان كأيبه أدبيا شاعرا ، وقد ترجم له ابن بشكوال في صلتة ترجمة موجزة ذكر فيها أن له رواية عن أبيه ، وأنه أخذ عنه ديوانه حيث يقول :

« جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني ، وأصله منها ، وبها ولد سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وخرج عنها عند اشتداد الفتنة عليها سنة ٤٧٠هـ إلى الإندلس ، واستوطن برجة من ناحية المرية ، يكنى أبا الفضل له رواية عن أبيه ، وأخذ ديوان شعره ، وعن القاضي أبي عبد الله بن المرباط وأبي الوليد الوقيشي وأبى سعيد الوراق وغيرهم » (٢٥) ويقول **محمد كرد علي** :

« وخلف ابننا يمدى أبا الفضل جعفرا كان أدبيا ومجيدا أيضا ، أورد له العماد في خريدته والفتح في قصائد ونصوصا تشهد له بطول الألباع » (٣٦) وفي الفصل الذي عقده ابن بسام بعنوان « ما أخرجه من شعر ابن شرف في أوصاف شتى » نجد ابن شرف قد فصل القول وأجاد في تصوير تكة القيروان حاضرة إفريقية ، وما أصابها على أيدي أعراب الصعيد من صنوف التخريب والتدمير ، وما لحق بأهلها من ألوان العسف والاضطهاد ، وما حل بهم من قنوت الأذى وضروب التعذيب ولا غرابة في هذا فقد هزه مأساة القيروان ، وأفرغته الكارثة ، وأزعجته عن حرمة الأمن ، فلا عجب أن أنطقته بعدة قصائد تعمد من عيون الشعر العربي في رثاء المدن والأمصار ، وبغينا هنا أنه يصف في إحدى مرائيه للقيروان حال أفراخها الصغار ،

ثم يورد له ستة أبيات طريفة خاطب بها المعتضد ، وأياسه من لقائه والوقوع في حباله ، ولا بأس من أن نورد لها طرافة معانيها وهي :

إن تصيدت غري صيد طائفة
أوسعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبتي فرصة أخرى ظفرت بها
هيئات ما كل حين تمكن الفرص
وظاهر حسن أيضا لقصتها
لكن لها باطن في طيها قصص
لك الموائد للقصائد مترعة
تروي وتشمع لكن بعدها فصوص
ولست أعجب من قوم إذا انتشبا
لكنما عجبني من معشر خلصوا
ولم يطب قط لى من يلد ولا
سلى إذا كان في عقبهما مفص (٣٧)

ثم يعلق ابن بسام على هذه الأبيات بقوله : « قال هذا لتواتر الخبر من المعتضد بازوروار ركنه ، وخشونة حزنه فاضرب من ضربه ، ولم يتعرض للشبهة في حبال تشبه ، خوفا أن يورطه في الهوان ، ويسقط العشاء به على سرحان ، ويطيع في جملة ما طاح على يديه من الخلفاء والندماء » (٣٨) وهكذا يخالفنا الشك ولا يمكننا أن نطمئن إلى أن ابن شرف انتهى به المطاف إلى اشبيلية ، وأنه توفي بها كما يقول ياقوت من القدامى ، ومن ذهب إلى ذلك من المحدثين ، ونرجح أنه أدركته منيته ببليطة في كنف ابن ذى النون .

(٢٢) نفس المصدر السابق والملاحظة .

(٢٤) المصدر السابق : ١٤٢ .

(٢٥) المصلة ١ : ١٢٩ كما ترجم له الفتح بن خالان في القلعة : ٢٥١ - ٢٥٨ وأفاض في الثناء عليه ونقل شعره الرقي والطرب .

(٢٦) رسائل البلاء والنثر مجلة للكتب المجلد السادس : ٢٥٤ .

ولى منهما سهمان هذا ابن أربع
وهذا ابن ست كلما كان اغفاء
اضمهما والليل داج كأنما
هما نقطتا ياء وجسمى هو الياء
فطورا يفشيهم على ذكرك الكرى
فتصبح أضواء عليهم ولاء
وطورا يمجون الدجى ومطالها
وما كان الغايات مطل وأرجاء
فتضجر منهم أنفوس ربما بكت
بكى هو للصمم الجلايد إيكاء (٣٨)
ويكاد هذا هو كل ما نعرفه من أسرة ابن
شرف ، وما أتر لنا من إشارات اليها ، في
آثاره الشعرية التي وصلت إلينا .



كان ابن شرف شخصية خصبية متعددة
الواهب ، فهو أديب ناقد كاتب شاعر صاحب
منظوم ومنثور ، فياقوت يبدأ ترجمته له
بقوله : « الأديب الكاتب الشاعر » (٣٩) ويعدّه
الصفدي أحد فحول شعراء المغرب (٤٠) ،
ويقول عنه ابن شاكر الكتبي : « أحد فحول
شعراء الأندلس والمغرب » (٤١) . ويقول فيه
ابن بشكوال : « وكان من جلة الأدياء وفحول
الشعراء » وله كتب مصنفة في معنى ذلك كله
ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى علو مرتبته في
الشعر هو وقرينه ابن رشيق فيقول : « ما كان
بافريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق

وما تجشموه من صعاب وأحوال في الصحارى
والقفار وعلى متون البحار فرارا بأنفسهم من
سفن الأعراب وأذانهم فيقول :

كانى وأفراخسى إذا الليلى جننا
وبانة الكرى يجفو جفونا ويطرق
حمائم أضاليل الكور فضمها
تجانسها حتى تراءى المفرق
إذا أفرعتهم نبوة زاحموا لها
شلومى حتى ودهم لو تفتق
ويصفر جسمى عن جميع احتضائهم
فيثبت ذا فيه وذا عنه يزهرق
كانهم لم يسكنوا ظلل نعمة
لها بهجة ملء العيون ورونق

الى ان غدوا قن الفياض فتارة
تباع وفي بعض الاحايين تمتق

وطورا على موج البحار كأنما
قدى قد وثقنا إننا ليس نفرق
ونحن نفوس تسعة ليس بيننا
وبين الردى الا عويد معلق (٣٧)

كما نجدّه في مدحة أخرى يمث بها إلى
المعتضد يشير إلى طفلين له : أحدهما ابن أربع
سنوات والآخر ابن ست سنوات ، وما تجشماه
في هذه السن الفضة من صعاب فيقول :

اجثمهم ليل القفار وظلمة ال
بحار وكم ريموا وللمستر أرخاء

(٣٧) الأخيرة القسم الرابع الجند الأول : ١٨١ .

(٣٨) المصدر السابق : ١٧٩ .

(٣٩) معجم الأدياء : ١٩ : ٣٧ .

(٤٠) الوال بالوفيات ٢ : ٩٧ .

(٤١) فوات الوفيات ٢ : ٢٥٥ .

وإبن شرف ، وأكثر ما يكون فيها من الشعراء طارئین عليها » (٤٢) وحين عرض له ابن رشيق فيمن عرض لهم من شعراء عصره قال فيه كما نقل لنا ابن فضل الله العمري : « شاعر حاذق متصرف كثير المعاني والتوليد ، جيد المقطعات والتقصيد ، أشعر أهل زمانه من شق غباره ، وأحذقهم من اقتفى آثاره ، وما منهم إلا أغر نجيب » (٤٣) فإن رشيق في موقفه من ابن شرف هو موقف الرجل النصف الذي يعرف له قدره ، ويصفه ولا يطمئه حقه ، ولا يبخسه فيما يعلم ، ولا ينتقص من قدره الذي يعرفه له ، وهو موقف يحمده لابن رشيق إذا عرفنا ما كان بينهما من منافسة ، والواقع أن ابن شرف كان من الشعراء المجيدين ، وقد اُسم شعره بقوة التركيب وسلاسة المعاني ، ودقة الموصف ، ووضوح الأفكار ، كما هو واضح من أشعاره التي أوردنا طرفاً منها ، ويقول فيه ابن بسام : « من فرسان هذا الشأن ، واحد من نظم قلائد الآداب ، وجمع أشمات الصواب بالأصابع بالمنظوم والموزون للأصابع الرواح بأطراف الفصوص » (٤٤) وقد أورد ابن بسام طائفة كبيرة من شعره ونثره ، وبسط القول في أخباره الأدبية وأفاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد من خمسين صفحة ، بل أن لابن شرف رواية عن أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي الفتيهين يقول ياقوت : « روى أبي

الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي » (٤٥) ونسول الصفي : « روى ابن شرف عن أبي الحسن القابسي » (٤٦) ويذكر ابن بشكوال أن لابن شرف رواية عن أبي الحسن القابسي وأبي الحسن الفاسي وصحبة لهما ، وأن أبا الوليد يعرف ابن شرف ، ووصفه بالعلم والدكاء ، ثم جعفر بن محمد بجميع مجموعات أدبه ، وكتب بذلك إلى أخيه رحمه الله « ٧٠ » ، ونحو ذلك الدباغ : « ولابن عبد الله محمد بن رشيق رواية عن الشيخ أبي الحسن له يقول : « عمران الفاسي ، وذكره الشيخ أبو النجاشي ، والنجاشي ، وأثنى عليه ، ووصفه بالعلم والدكاء ، وأن عالم الأدب من بعض علومه » (٤٨) ويبدو أن صلة ابن شرف بالفقهاء والفقه كانت قوية متينة ، وأن روايته عن الفقهاء كانت معروفة مشهورة ، حتى رأينا الدباغ يسلكه في جملة الفقهاء ، ويعدده منهم ، فيترجم له ، ويعرف به في كتابه « معالم الإيمان » وكأنه كان مشهوراً بالعلم والفقه في عصره ، معدوداً من جملة الفقهاء والعلماء ، بل أنه يبدو أن شخصيته الفقهية العلمية كانت أغلب عليه من شخصيته الأدبية ، وأن شهرته بالفقه والعلم طفت على جانب شهرته بالأدب وفاقته ، حتى أننا نجد الدباغ في نهاية ترجمته له ينقل لنا ثناء أبي الوليد النجاشي عليه ، ووصفه بالعلم والدكاء ، وأن

(٤٢) القلمة : ٥٦٥ ولا توافق ابن خلدون على ما ذهب إليه من أنه لم يكن بالبرقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف ، وأن أكثر من فيها من الشعراء طارئون عليها ، إذ أنه وجد بالبرقية من الشعراء من هم في مرتبة ابن رشيق وابن شرف ، بل ربما وجئنا من الشعراء المعاصرين لهما من هو أشعر منهما مثل عبد الكريم التهنيسي والرفيقي التبرقاني وعلي بن عبد الفتى الحضري وغيرهم .

(٤٣) مسالك الأبصار ج ١١ قسم ٢ : ٢٢٨ .

(٤٤) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٣٢ وقد نقل الدباغ في ترجمته لابن شرف عن ابن بسام نظر معالم الإيمان ٢ : ٢٢٩ .

(٤٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٤٦) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٤٧) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٤٨) معالم الإيمان ٢ : ٢٢٩ .

كيف كان يشهد مراراً لثله ومعاصره ابن شرف وهو يكتب القصيدة في غير مسودة كأنه يحفظها ثم يقوم فينشدُها ، ويذكر أنه لا يستطيع أن يحصى ما كان بينهما والروابط المتينة التي تجمع بينهما تدفع بابن شرف إلى أن يحضر كل يوم صاحباً حينا ، وفي سكر حينا آخر على ما يروى الصفيدي حيث يقول : « وقال ابن رشيق في حقه في النموذج : لقد شهدته مسرات يكتب القصيدة في غير مسودة كأنه يحفظها ، ثم يقوم فينشدُها ، وأما القطعات فما أحصى ما كان يصنع منها كل يوم يحضر صاحباً كان أو سكراناً ، ثم يأتي بعد ذلك أكثرها مخترعاً بديها » (٥٤) .

وبعد أن اتصلت أسبابها بأسباب المعز بن باديس ، وجمعها بلاطه ، وتعبها لهما أن يكونا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، حتى أصبحا متقدمين عنده الكثيرين لديه على سائر من في البلاط من الأدباء ، يقول ياقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الأفاضل والأدباء » (٥٥) .

ويقول حسن حسني : « وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق فكان يلتفت بكثرة إلى الأول ، وأخرى إلى الثاني ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الأدبيين مناقشات ومهاجاة رسمها كل منهما في رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل اليها منها شيء فيما نعلم (٥٦) .

علم الأدب من بعض علومه (٤٩) ويقول الدكتور ياقبي : « وكان ابن شرف قد كان مشهوراً بالعلم والفقه في زمنه ، ولهذا فلسنا نجد له ترجمة لدى ابن خلكان أو ياقوت بخلاف ابن رشيق فله ترجمة لديهما » (٥٠) ونرى أن الدكتور ياقبي قد جانب الصواب فيما ذهب إليه من أنه لم يجد ترجمة لابن شرف لدى ابن خلكان ، أو ياقوت بخلاف ابن رشيق ، وردده ذلك إلى أن شهرة ابن شرف في زمنه بالفقه قد غلبت على جانب الأدب بخلاف ابن رشيق ، فالواقع أننا نجد ترجمة لابن شرف عند ياقوت في معجمه ، وإذا كانت ترجمته قد سقطت من ابن خلكان فليس ذلك بسبب شهرته بالفقه ، لأن ابن خلكان لم يقصر وفياته على الترجمة للأدباء وحدهم دون غيرهم ، بل ترجم لشتى الطبقات ومختلف الطوائف والفئات من خلفاء ووزراء وقضاة وفقهاء ومحدثين وقراء ومفسرين ونحاة ولغويين وأدباء وشعراء وكتاب ومؤرخين ورواة ووعاظ وصوفية ومتكلمين .

وقد توالت العلاقات بينه وبين معاصره ابن رشيق ، وتوثقت الصلات بينهما قبل أن يجمعهما بلاط المعز بن باديس واسطة عقد بيته كما يقول ابن خلكان (٥١) والذي كانت القرواني في عهده كما يقول ياقوت ، « وجهه العلماء والأدباء ، تشد إليها الرجال من كل فج ، لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب ، وعنايته بهم » (٥٢) كما كانت حضرته محط بنى الآمال ومنتجع الأدباء كما يقول ابن خلكان (٥٣) ، وقد حدثنا ابن رشيق

(٤٩) معالم الإيمان ٣ : ٢٤١ .

(٥٠) حياة القرواني وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٢ .

(٥١) وفيات الأعيان ٤ : ٣٢١ .

(٥٢) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٣) وفيات الأعيان ٤ : ٣٢١ .

(٥٤) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٨ .

(٥٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٦) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٢ .

والذي صنعه ابن رشيق :

موز سريع اكليه
من قبل مضغ الماضغ
ماكليه لأكسل
ومشربة لسمائغ
يخال وهو بالغ
للحق غير بالغ

فأمرنا للوقت ان نصنع فيه على حرف
الدال ، فعملنا ، ولم ير أحدنا صاحبه
ما عمل ، فكان ماعملته :

هل لك في موز اذا
ذقته قلت جيدا

فيه شراب وغذاء
يريك كالماء القلدي

لو مائة من تلدا
به لقييل : ذا بدا

وما عمله ابن رشيق :

لله موز لذيذ
يعيله المستعبد

فواكسه وشراب
بسه يدأوى الوقيمد

تري القلدي العين فيه
كما يريها النبيد

قال ابن شرف : فانت ترى هذا الاتفاق
لما كانت القافية واحدة والقصة واحدة

ويدور انهما كانا اقرب الى نفس المعز من
سائر الشعراء ، واكثر استجابة لما يطليه
عليهما ولهذا رأيناه كثيرا ما كان يستدعيهما ،
ويخلو بهما حين يطيب له ان يلهو ، وكان
على ما يظهر لنا يرغب في اثارة اسباب المنافسة
بينهما في مجالسه الادبية ، ويقوم هو بدور
الحكم أحيانا في المفاضلة بينهما ، يقول ابن
ظافر : « ان الاتفاق والتوارد بين الشاعرين
يقع أكثر ما يقع عندما يضيق المقترح عليهما
بان يعين لهما الوزن والقافية » (٥٧) ثم ينقل
عن « إيكار الأفكار » لابن شرف ما يؤيد
ماذهب اليه فيقول : « أكثر ما يقع هذا الاتفاق
الغريب والتوارد العجيب اذا ضيق المقترح
على الشاعرين بان يعين الوزن والقافية .

ذكر أبو عبد الله بن شرف القيرواني في كتاب
(إيكار الأفكار) قال : استدعاني المعز بن باديس
يوما ، واستدعى أبا علي الحسن بن رشيق ،
وكنا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، فقال :
أحب ان تصنعا بين يدي قطعتين في صفة
الوز على قافية الضين ، فصنعا حالا من
غير ان يقف أحدهما على ما صنه الآخر ، فكان
الذي صنعته :

باحبلا الموز واسماده

من قبل مضغ الماضغ

لان الى أن لا مجس له

فالقم ملان به فارغ

سيان قلنا ماكسل طيب

فيه والا مشرب سائغ

(٥٧) يدائع البداة : ١٢٧ ، ويقول ابن دحية : « وبسنننا الى أبي عبد الله محمد بن شرف قال : أكثر ما يكون توارد
الخواطر ودفع الاتفاق وما يتاربه اذا طلب الشاعران أو الناشران معنى واحدا في قافية واحدة » المطب : ٦٧ ثم
يورد بعد ذلك شعري ابن رشيق وابن شرف في وصف اللوز، وفي مدح الزبيب على سوق يعلى خلابة المعز .

وكان الذي قال ابن رشيق :

يمعبون بلقيسية أن راوا بها

كما قد راى من تلك من نصب الصرحا

وقد زادها الترغيب لمحاكم لما

يزيد خدود الفيد ترغيبا لمحا

فانتقد المعز على ابن رشيق قوله « يعبون » وقال : قد أوجدت لخصها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقدا مانطنت له (٥٩) . وهكذا رأينا المعز بن باديس الذي كان حريصا على أن يقرب الكتب والشعر وأن يلصقهم بخاصته ، ويجمعهم في ديوانه ، حتى اجتمع في بلاطه مائة شاعر بليغ كما يقول حسن حسنى (٦٠) . يطيب له أن يبعث في الشعراء روح التنافس ، وأن يدفعهم إلى التسابق في الإجابة ، والمباراة في الإحسان فيما يقترحه عليهم من أغراض ، وأن يساجل بعضهم بعضا ، وينظره فيما يفرض عليهم ، ويطلب اليهم القول فيه ، وأن يفري بعضهم بعضا شجلا لقرايحهم ، واستخراجا لأجود ما عندهم ، حتى عادت تلك المساجلات والمناظرات على الأدب بأطيب الآثار وأحسن النتائج يقول حسن حسنى « وكثيرا ما كان المعز يظهر الميل إلى أدبيهم آخر ، أو ينسب بين شاعرين فيوقع بينهما تنافسا أدبيا يشأ

والنقد واحدا ، ولقد قال من حضر ذلك اليوم : ما ندري مم تتعجب من سرعة البديهة ، أم من غرابة القافية ، أم من حسن الاتفاق » (٥٨) ثم ينقل ابن ظافر بعد ذلك عن ابن حزم قوله : « استخلنا المعز يوما ، وقال : أريد أن تصنعوا شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء ، فاني استحسنه . وقد صاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلين قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا ، وأدعى أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأسر به من عيب عليه ، فاتفرد كل منا ، وصنع في الوقت ، فكان الذي قلت :

وبلقيسية زينت بشعر

يسر مثل ما يهب الشحج

رقيق في خد لجة رداح

خفيف مثل جسم فيه روح

حكى زغب الخدود وكل خد

به زغب لمعشوق مليح

فان بك صرح بلقيس زجاجا

فمن حدق الميئون لها صروح

(٥٨) بدائع اليدالة : ١٢٧ - ١٢٨ والطرب : ٦٧ - ٦٨ وأليس في اتفاقهما هذا ما يدعو إلى التعجب ، أو يشير الاستغراب لأن اختلافات الوليقة والروابط المثينة التي جمعت بينهما واتصالهما الدائم الطويل ليل أن يجمعهما بلاط العزيز باديس . واتفاقهما في الأخذ من مشاهير علماء عصرهما وأدبائه أمثال التراز وأبى إسحق الصيرى وغيرهما . بالإضافة إلى الفرض الواحد الذي فرض عليهما ، وطالب إليهما أن ينقلا فيه على قافية واحدة ، فضلا عن اتفهما لم يكونا يصدران في ذلك عما يدور بغواطرها ولم يكونا يتناولان هذه الموضوعات التي فرست عليهما كما يصحان بها في داخل نفوسهما ، وكما تلعب في وجدانيهما . وقد نتج عن كل ذلك أن جاء شعروهما في الموضوعات المروسة عليهما متقاربا متشابهة كما رأينا ، وهكذا سخر المعز الشعراء لأجود أوقات فرائه الإلهي المأثبات ، وللهو حين يطيب له أن يلهو ، ولقائه حين يحلو له أن ينشد اللذة ويطلبها فيتقدم اليهم أن يصنعوا شعرا في مدح ولب نيت على سوق من حيث به من حظائده ، أو يلغوا في وصف فاهتهم الفلوك حتى كان الشعراء في بلاطه لا يتكادون يصدرن إلا عما يدور بكلامه ، ويجيبون في خاطره ، وتحدثه به نفسهم ولقائهم كانوا يصدرن من داخل نفوسهم أوجهائهم .

(٥٩) بدائع اليدالة : ١٢٧ - ١٢٨ والطرب : ٦٨ - ٦٩

(٦٠) بساط العليق : ٥١

عنه مسابق في اختراع المعاني وتوليد البكرات، وحصل بسبب هاته المناقشات، بعض في سوق الأدب، وظهرت حركة عامية وفكرية اجتذبت أفريقية من ثمراتها الياقة ما يحق لها الاندراج به « (٦١) » .

ويقلب على الظن أن ما اثر لنا من ابن رشيق وابن شرف من مساجلات ومناظرات وما قام بينهما من مناقشات صارتها وسجلتها كتب الأدب، كان لا يعدو إلى كون لونا من ألوان المباحثات، وضربا من ضرب المناقشات لا يصدران فيها من داخل ما بينهما، وكان الناس من حولهما يتلفظون بها بعينهم، ويفرون أحدهما بصاحبه، ويأثرون عليه، ويبجونه به، ويحذرونه، ويأخذونهم لها عنددها، والذين هم بها يصدر عنهم، ثم يحذرون هؤلاء، ولم يكن كل ذلك ليصل بهما إلى حد الرضا أو العداء أو القطع وانقسام عن المودة وتقطع أسباب الصداقة بينهما، وقد تحفظ هذه المناقشات أحيانا أحدهما على صاحبه وتهيجه وتثير حميته عليه، فينصرف ماضيا، ولكنه سرعان ما يعود إليه، وتتصل أسباب الصداقة والمودة بينهما، ولا يبقى للحفيظة والغضب مكان في نفسه، وقد فطن لذلك ياقوت، ونبه إليه حيث يقول: « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب الصداقة متقدمين عنده على

سائر من في حضرته من الأفاضل والأدباء فكان يقرب هذا تارة، ويذني ذلك تارة أخرى فتناقسا وتناظرا ثم تهاجيا، ولكن لم يتغير أحدهما على الآخر بما جرى بينهما في المناقشات (٦٢) نعم لم يتغير أحدهما على الآخر بسبب هذه المساجلات والمناقشات، وليس أدل على ذلك من أن المكاببات والمخاطبات ظلت متصلة بينهما، يكتب كل منهما لصاحبه ويحييه حتى بعد أن انخرط في سلك خدمة المعز، واشتد التنافس بينهما، فها هو ذا ابن شرف يسبق ابن رشيق إلى صقاية، وحين يصل إليها يتذكر أيامه مع ابن رشيق، فيكتب إليه - وهو بالمهدية - قصيدة يشوقه فيها، ويحييه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروى لنا القفطي حيث يقول: « وكان بين ابن رشيق وبين محمد بن شرف الشاعر مباحث بعد مواصل ذلك أنهما كانا شاعري ابن باديس، ودخلا إليه، واتصلا بخدمة في وقت واحد، وكان ابن شرف ممن لا ينكر حذقه، ولا يدفع في هذا النوع صدقه، ولم يزل بينهما مكاببات ومخاطبات، فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها إلى ابن رشيق وهو بالمهدية يشوقه أولها:

علمناك من بعد وأن زدنا قربا
على أن فيما بيننا سببا

(٦١) بساط المعيق: ٥٥ كما يقول في موضع آخر عن تنافس ابن رشيق وابن شرف، وحرص الكل على الذكاء جذوة التنافس بينهما: « فانه (أي ابن شرف) كان يترصد أقل التلذذات للوقوف على صاحبه، وجرى بسبب ذلك تنافس أدبي ومكاشفة أقلام، ومسابق إلى الاختراع والابتداع، اجتنب منها سوق الأدب فواكه فكرية رسمها كل واحد منهما في تأليف كانت أحسن أثر لتنتائج قرائع شاعرنا، وربما كان الأثر المعز يعرض على هذا التنافس بين ابن رشيق وابن شرف بالتناكح تارة إلى الأول. وأخرى إلى رفيقه سيما مشوراء تشييف الأدب وترويج موادها... » بساط المعيق: ٥٩ ويقول أحمد أمين: « وقد كانا صديقين، ثم دبت بينهما الخصومة فتساجلا في الأدب تلك المساجلة التي كانت بين الغوارزمي وبينه الزمان الهذلي » ظهر الإسلام: ١: ٣٠٨ .

(٦٢) معجم الأدباء: ١٩: ٢٧ كما أشار ياقوت إلى ما كان بينهما عند ترجمته لابن رشيق حيث يقول: « وكان بينه وبين ابن شرف الأدب مناقشات ومعاقدات، وصنف في الرديعية عدة تصنيفات: » معجم الأدباء: ١١٠ ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق في الرد على ابن شرف من أنه منسوب إلى إسرائيل الخزاز .

المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجبة ، وصنف عدة رسائل في الرد عليه منها رسالة سماها « ساجور الكلب » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة قطع الإنفاس » و « رسالة تقض الرسائل المشوذية » و « القصيدة الدعية » و « الرسالة المنقوضة » و « رسالة رفع الاشكال ودفع الحال » (٦٦) ، أما العمري في مسالك الإبصار فقد ذهب إلى أن ما وقع بينهما إنما هو من قبيل ما وقع بين الخوارزمي وديع الزمان (٦٧) ، ويؤكد مذهبنا إليه أنهم كانوا في هذا العصر كثيراً ما يلجأون إلى الهجاء لا لشيء إلا للتندر والتسلية وأجزاء أوقات الفراغ ، ومن ذلك ما يرويه الصفدي وابن شاعر الكتب (٦٨) من أن ابن شرف قال بيتين على قافية القاف في ذم حمام ، فبلغ ذلك ابن رشيق ، فقال مجيزاً لهذين البيتين بيت هجا فيه ابن شرف ونبره بالعور والصاع وهو :

وأنت أيضاً عور أصلع

فصادف التشبيه تحقيقاً

وكتب إليه ابن رشيق قصيدته التي أولها :
عتاباً عسى أن الزمان له عتبى
وشكوى فكم شكوى الانتله قلباً (٦٩)

ولعل هذا هو مدافع الصفدي في ترجمته لابن شرف إلى أن يشير إلى أن ما جرى بينه وبين ابن رشيق من مهاجبة ومعاداة إنما هو أمر يحدث عادة بين المتعاصرين (٦٤) حيث يقول : « وكانت بينه وبين ابن رشيق مهاجبة ومعاداة جرى الزمان عاداتها بين المتعاصرين » ثم يتبع ذلك بسرد أسماء عدة رسائل لابن رشيق يهجو فيها ابن شرف ، ويعدد أغلاله ومسائله ، فيقول : « ولابن رشيق فيه عدة رسائل يهجو فيها ، وذكر أغلاله وقبائله منها » رسالة ساجور الكلب « و « رسالة قطع الإنفاس » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة رفع الاشكال ودفع الحال » و « ... » و « ... » الملح ونسخ الملح » (٦٥) ويقول الوزير السراج في تاريخه : « لابن رشيق : « وكان بينه وبين عبدالله بن أبي سعيد بن أحمد

(٦٢) الباء الرواة : ١ : ٣٠١ والقلبي وإن كان لم يعد المكان الذي بعث منه ابن شرف قصيدته إلى صاحبه بتشوفه فيها إلا أنه يغلب على الظن أنه بعث بها من صقلية ، لأنه من المعروف أن ابن شرف سبق صاحبه إليها ، لم يقول القلبي بعد ذلك ثم إن المنافسة أولمت بينهما ، وتخرجنا في الهجاء ، وعمل ابن رشيق هذه تصانيف في الرد عليه وأخراج معاني أقواله ساستوى معها وملحها في كتابي الذي أسميته « الاتيق في أخبار ابن رشيق » بشيئة الله وعونه البهاء الرواة : ١ : ٣٠٣ فالقلبي هنا بعد بأخراج كتاب يشتمل على رسائل ابن رشيق ومعنفاته في الرد على ابن شرف وأبرال أغلاله ومعاني أقواله ، ولا ندرى أن كان القلبي قد وثق بوجهه فأخرج هذا الكتاب أم لا .

(٦٤) الوالي بالوفيات ٣ : ٩٧ ونظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٦٥) الوالي بالوفيات ٣ : ٩٧ وفوات الوفيات ٢ : ٤١ ويقول ابن يسلم : « وبينه وبين أبي علي بن رشيق ماج بحر البرامة ودام ، ورجع نجم هذه الصنعة فاستقام ولعب من المنافسة مذبحاً تنازعاه شراً طويلاً ، وقلناه ذكرنا محمولاً ، واحتشاه أن لم يسمح الله ولذا قليلاً . وكان أبو علي وأسمعهما نفساً والفرهما ملتصقاً ، ولابن شرف أصالة منزعه وجلالة مقفمه ومثانة لفظه وسعة حلقه ، فتسمع بشعره مقلن وموعمة وجصجة ، ولكن ما أبعد ما يرويه وأبده » الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٣٣ .

(٦٦) المحلل السندسية في الأخبار التونسية الجزء الأول القسم الأول : ٢٧٩ ويقول ابن خلكان : « وكانت بينه وبين أبي عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيرواني وفاتوا جميعاً جرياً يقول شرحباً « وفات الأيمان ٣٧٨ : ١ .

(٦٧) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقل من مسالك الإبصار ج ١٧ ويقول حسن حسني « وقع بينهما بالقرون مألوف بين جبر والخرزدج أو بين الخوارزمي وديع الزمان » مجلة القتب المجلد السادس : ٢٥٤ ونظر رسائل البطله ٢٠٥ .

(٦٨) الوالي بالوفيات ٣ : ٩٨ والقليح المسج ٢ : ٢٥٥ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

منقبض النفس ، فقد سقطت القيروان حاضرة ملكة وقصة أفريقية في ابدى الاعراب الذين عاثوا في الأرض فسادا ، وانتقصوا مملكته من أطرافها ، وأشاعوا في جنباتها الخراب والدمار ، فلم يمد يعقد المجالس الأدبية ، ويدعو اليها الشعراء ، ويقترح عليهم الأغراض التي تخطر بباليه ، وإنما هو منقبض النفس ، ضيق الصدر ، متبرم بكل شيء ، فإذا حدث وعقد مجلسا من تلك المجالس التي كان كثيرا ما يعقدها بالقيروان ، ودعا اليه الشعراء لا يلبث أن يضيق ذرعا به ويمن فيه من الشعراء ، كما فعل حين مزق الرقعة التي فيها قصيدة ابن رشيق ، ولم يكتف بتمزيقها ، حتى قدمها طعمة للثريان . يقول العمري في مسالك الأبرار نقلا عن ابن بسام : « لما طلع نجوم النحوس بسماء المعز بن باديس خرج إلى المهديّة بسماء كاسفة الاقمار ، وذمّاه انصر من طي الضمار ، وكان أبو علي ممن انحصر في زمرة الحروب ، ونحيز إلى فئته المكتوبة اقام معه ، وفشى المهديّة فما بعد اسطول الروم ، فأصبح البحر ثنايا تطلع الثنايا ، وأكاما تحمل موتا نؤاما ، فدخل على المعز حين وضع الفجر ، فوجده في مصلاه ، والرقاع عليه فرد ، والشموع بين يديه تنقد فقام ينشده قصيدته التي أولها :

تثبت لا يخامرك اضطراب

فقد خضعت لمرتك الرقاب

فقال له : مه ، متى عهدني لا اثبت ، إذا لم تجئنا إلا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا ؟ ثم أمر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فمزقت ، ولم يقنعه حتى أداها إلى الشمع فأحرقته » (٧١) .

بل أنهم كثيرا ما كانوا يهجون أنفسهم ، ويتندرون عليها حين لا يجدون من يهجونهم ويتندرون عليه ، فقد اجتمع ابن رشيق يوما مع بعض أصحابه وكان فيهم ابن شرف وكان أعورا ، والطوسي وكان أعمى وكان ابن رشيق أحولا ، فقال في صاحبيه وفي نفسه :

لا بد في العور من تيه ومن صلف

لأنهم يبصرون الناس أنصافا

وكل أحوال يلقى ذا مكرمة

لأنهم ينظرون الناس أضعافا

والعمى أولى بحال العور لو عرفوا

على القياس ولكن حافس حافا (٦٩)

ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز بن باديس مقبدا عنده أثيرا لديه ، ولم تقل المناقصات والمساجلات والمنافرات متصلة بينه وبين ابن رشيق ، ولم يزل الهجاء والتنسر قائما بينهما ، وهكذا مضت الحياة بهما وبغيرهما من الشعراء الذين ضمهم بلاط المعز بن باديس إلى أن هاجم أعراب الصعيد القيروان ، فاضطر المعز إلى الخروج منها ومغادرتها إلى المهديّة سنة ٤٤٩ هـ ولحق به من شعراء بلاطه وكتاب ديوانه ، ومن بين من لحق به ، واتصل بخدمته بالمهديّة ابن شرف وابن رشيق يقول ياقوت : « ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز إلى أن هاجم عرب الصعيد القيروان ، واضطر المعز إلى الخروج منها إلى المهديّة سنة سبع وربعمين وأربعمائة ، فخرج ابن شرف وسائر الشعراء معه إليها ، واستقروا بها » (٧٠) ولكن المعز في المهديّة كان مهموما محزونا ضيق الصدر

(٦٩) القيث السجيم ٢ : ٢٥٥ وديوان ابن رشيق : ١١٦ - ١١٧ .

(٧٠) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٧١) المكتبة الصليبية : ٦٥٠ نقلا من مسالك الأبرار المجلد السابع عشر .

وأطمأن مقامه بها بذكر عهدا سلف ، وأياما مضت مع ابن رشيق في ربوع القيروان والمهدية ، وفي بلاط المعز بن باديس ، فبيعت إليه وهو بالمهدية بقصيدة يتشوقه فيها ويحبه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروي لنا القفطي حيث يقول : « فن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها إلى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه ، أولها :

عذمتك من بعد وان زدتنا قربا

على أن فيما بيننا سببا سهبا

وكتب إليه ابن رشيق جوابا عنها قصيدته التي أولها :

عتابا عسى أن الزمان له متى

وشكوى فكم شكوى الآن له قلبا (٧٥)

ويركب ابن رشيق ثبح البحر إلى صقلية في أثر صاحبه ابن شرف ، وينزل بمغاز إحدى مدنها على أميرها ابن مطكود ، فيؤثره ، ويقره ، ويسلكه في عداد خاصته ، ويصحب عنده حظوة كبيرة ، حتى أنه قرأ عليه كتبه ، ومن بين ما قرأه عليه من كتبه العمدة ، وصاش في كتفه ، ولم يزل عنده حتى أدرسته الوفاة يقول القفطي « ونزل مازر إحدى مدنها على أميرها ومتوليا ابن مطكود ، فأكرمه وأخصه ، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رايته من قراءته عليه كتاب العمدة في صنم الشعر ، وهو أجل كتبه وأكبرها ، ورايت خط ابن رشيق على نسخة منها ، ولم يزل عنده إلى أن مات بمغاز (٧٦) بيد أن الاستاذ أحمد أمين ذهب إلى أنها قرأ عند غزو الهلاليين

ويضيق ابن شرف بالمقام في المهديّة ، وينبو بها منزله ، ولا يطيب له العيش بها بعد أن لقي من المعز انقباضا من كل شيء ، وضيقا بالشعر ، وانصرافا عنه ، وعزوفًا عن الأدب ، وأزوارًا عن الشعراء ، ونفورا منهم ، وعزوفًا عنهم ، وعدم ارتياح لهم ، وانحرافًا عمن لحق به من الأدباء ، وجفاء لهم ، فلم يلبث بالمهدية إلا قليلا حتى ركب ثبح البحر ، وولى وجهه شطر صقلية وأفدا على أميرها القائد أبي محمد الحسن بن عمر بن مطكود ، وكانا تراسى إلى سمعه ، ونمى إلى علمه ابن الشعراء يصيرون حظوة كبيرة في بلاط هذا الأمير ، وأنه يقدمهم ويؤثرهم ، ويحبهم ، ويجزل لهم العطاء ، ويقول ياقوت : (فقام ابن شرف مدة بالمهدية ملازما خدمة المعز بن باديس وابنه تميم ، ثم خرج منها قاصدا صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق فاجتمعا بها ، ومكثا بها مدة (٧٧) وقد أشار العمري إلى أن ابن شرف سبق ابن رشيق إلى صقلية حيث يقول بعد أن أورد خبر ابن رشيق مع المعز ، وتمزيق المعز للرقعة التي كانت بها قصيدته التي لم يرفه مطلعها ، ولم يمجبه ابتذالها واستهلالها وإحراقها ، والجفوة التي وقعت بينهما نتيجة لذلك : « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق ، وكانت وجهته إلى صقلية ، وكان ابن شرف قد سبقه إليها وقد قتله عليها (٧٨) ويقول حسن حسني : « وأقام ابن شرف مدة بالمهدية مع زمرة شعراء الملك يخدم الأمير المعز وابنه تميم إلى أن رحل منها قاصدا جزيرة صقلية لما سمع من كرم أميرها (٧٩) » .

وكان ابن شرف وقد وصل إلى صقلية ،

(٧٢) معجم الأدباء ١٩ : ٢٨ .

(٧٣) المكتبة الصقلية : ٦٥ - ٦٥١ نقلًا من مسالك الإبرار المجلد السابع عشر .

(٧٤) مجلة المتنبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البلقاء : ٣٠٥ .

(٧٥) التباه الرواة ٣ : ٣٠١ .

(٧٦) التباه الرواة ١ : ٢٠٢ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نراه :
 اثر في النهضة الادبية بجزيرة صقلية ، فبعد
 ان رحل اليها ، وألقى بها عصا التسيار ،
 واطمان مقامه بها أخذ يدرس كتابه العمدة ،
 والتفت حوله طائفة من اهل الادب ، وأقبلوا
 عليه يأخذون عنه ويتلقون عليه ، وغير بعيد
 ماسبق ان ذكرناه من ان ابن مفلوك امير مازر
 نفسه قرا على ابن رشيق كتابه العمدة ، وقد
 كلف اهل صقلية بكتاب العمدة ، وشغفوا به ،
 وأقبلوا عليه يتدارسونه ، وممن كلف كلف به
 من اهل صقلية بيو عمر عثمان بن علي بن عمر
 الصقلي ، فقد قراه ، وأعجب به ، واختصره ،
 يقول حاجي خليفة : « واختصره الصقلي
 وسماه العمدة » (٧٩) .

وهكذا يتبين لنا من خبر أبي عبدالله الصغار
 مع ابن رشيق ان اشعار ابن رشيق قد سبقت
 الى صقلية ، وذاعت بها ، وأنه كان باتجاهه
 الادبي والنقدي موضع الإعجاب والتقدير من
 ادبائها ، بالغ التأثير فيهم ، حتى اننا نرى ابن
 حمديس الصقلي مع انه أبعد حظا منه في
 الشاعرية يتناول شعره بالمعارضة .

ويبدو ان خاصة ابن مفلوك وجلساءه كان
 يحلو لهم ان تقوم المناظرات بين ابن رشيق
 وابن شرف ، وأن تتصل المساجلات والمناقضات
 بينهما ، كما كانت في القروان ، فقد ترامت
 اليهم اخبارهما الادبية ، وسمعا بها كان
 بينهما من مناقضات ومساجلات ، ووصلت
 اليهم اخبار ابن رشيق وأشعار وعبرت البحر

مدينة القروان ، وان ابن رشيق قصد الى
 صقلية ، بينما ولي ابن شرف وجهه شطر
 الاندلس ، (٧٧) ولم يشر الى انهما خرجا مع
 المعز بن باديس بعد خراب القروان الى
 المهدي ، واقاما بها معه مدة ، ثم ذهب
 ابن شرف الى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن
 رشيق ، ثم شخص ابن شرف وحده الى
 الاندلس تاركا صاحبه بصقلية ، وان ابن
 رشيق قد رام بعد ذلك الشخص الى الاندلس
 فلم تطاوع نفسه على ركوب البحر ، فاقام
 بمازر حتى ادرسته منيته بها .

ويبدو ان ابن رشيق اصاب حظوة كبيرة
 عند ابن مفلوك امير مازر ، وكان اقرب اليه
 نفسه وآثر عنده من ابن شرف ، وليس في
 هذا غرابة ، فقد كان لابن رشيق اثر بعيد
 في النهضة الادبية بصقلية فقد ذاعت شهرته
 بها ، وترامت اليها اخباره الادبية ، وطنت
 اشعاره في جنبائها ، وتداول اهل صقلية
 اخباره ، وتلقفوا اشعاره ورواها وتدارسوها ،
 حتى غدا مطمح انظار بعض الصقليين ، وامامهم
 الذي يتأسون به في اتجاههم الادبي ، كما كان
 له اصدقاء كثيرون معجبون به بهذه الجزيرة ،
 وقد اتصلت اسباب الصداقة بينه وبينهم ،
 وكانوا على اتصال دائم به ، ويدل على ذلك
 اننا نجد واحدا منهم وهو أبو عبدالله الصغار
 يصرح بذلك حيث يقول : « كنت ساكنا
 صقلية ، واشعار ابن رشيق ترد علي ، فكنت
 اتمنى لقاءه ، حتى قدم الروم علينا ، فخرجت
 فاراً بمهجتي ، تاركا لكل ماملك يدي (٧٨)

(٧٧) ظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ .

(٧٨) يدافع البهال على هاشم معاهد التخصيص ٢ : ٣٦ وورد الخبر مع بعض تصرف في مسالك الابصار المجلد السابع
 عشر والثر المكتبة الصقلية : ١٥١ وما بعدها وفي الفريدة قسم شعراء المغرب : ٨٣ - ٨٤ في فصل بعنوان (جماعة من
 شعراء جزيرة صقلية عند الحديث من ابي عبد الله محمد بن علي الصباغ الكاتب : (وكان في عهد ابن رشيق ، وبينهما
 مراسلات وكتب اليه ابو علي بن رشيق عند وصوله من القروان الى مازر في أول رسالة ..) لم يورد ثلاثة أبيات
 من الشعر اجابه عليها ابن الصباغ بثلاثة أبيات أخرى .

(٧٩) كشف الظنون ٢ : ١٩٦ وانظر المكتبة الصقلية : ٧٠٤ ويقول القفلي في ترجمته لعثمان بن علي : « ومن مصنفاته
 مختصر عمدة ابن رشيق وشاهدت هذا المختصر يحطب بخطه عند ابن القيسراني ، وقد زاد فيه ابوابا اخل بها ابن رشيق
 وهي واقعة مؤلفها من التصنيف » ، انباء الرواة ٢ : ٢٢٢ .

ذلك مدد. رعا بمكانته من ابن مذكود أمير مازو ، وبمزيته الرفيعة التي أحلتها من بغوس أهل جزيرة صقلية ، ودالته عليهم ، فكان كما يقول انصري : « ربما اعترض وتعرض ، وتحلب وتلمظ ، وأما ابن شرف فلم يحل مانع ، ولا حال مانع » (٨٢) .

ويطيب لابن شرف المقام بجزيرة صقلية . فقد هادته ابن رشيق ، وامتدت الهدنة فيما بينهما واتصلت ، وأصلح من بالجزيرة من أهل القيروان ذات بينهما ، واستقامت الأمور بينهما . حتى عادا إلى الصفاء والأخاء والسماح . يقول حسن حسني : « فلما اجتمعا بصقلية تسامحا » (٨٣) لم تهيات الظروف لابن شرف ، واتيحت له الفرصة ، فركب لبحر البحر ، وهبر إلى عدوة الأندلس وولى وجهه نظر ملوك الطوائف ، وتردد عليهم ، وانتهى به الطواف عند المأمون بن ذي النون صاحب طليطة يقول ابن بسام : « فتردد على ملوك الطوائف بالأندلس بعد مقارعة أهوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر أخيرا عند المأمون بن ذي النون ، فعليه خلع آخر ليوسه ، ونثر بقية كبه » (٨٤) ويقول الدباغ : « وقدم الأندلس ، وسكن الحربة وغيرها وتردد على ملوك الطوائف » (٨٥) حتى سلكه ابن شافر في عداد فحول شعراء الأندلس والقرب ، فقد استهل ترجمته بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجلاني أحد فحول شعراء الأندلس والغرب » (٨٦) ويمده الصفدي أحد شعراء القرب (٨٧) .

إلى صقلية قبل أن يعبرها هو إليها ، وكانما طلب لهم أن تقوم تلك المناقضات والمساجلات والمناظرات بينهما في ربوع صقلية ، كما قامت بينهما من قبل في ربوع القيروان ، وإن يعيداعا سيرتها الأولى حتى ينشط الشعراء ، وتروج سوق الأدب ، ويلهو الناس ، ويسعدون بما يصدر عنهما . يقول العمري : « وقد وقع بينهما بالقيرون ما وقع بيننا بآرزمي وبلد الزمان ، فلما اجتمعا يومئذ بصقلية تنمر بعضهما لبعض ، وتشتوق اعلام ، يزيد لما كان بينهما من أبرام وتقصر ، (٨٨) وكان أهل صقلية سعوا بين الشارين وحرشوا بينهما ، وأغروا أحدهما بالآخر ، إلا أنه يبدو أنه كان بصقلية من أهل القيروان من يخشى مغبة الخصومة بين الشارين ، ويدرك سوء عاقبتها ، لو دبت عقارب السماية بين الشعراء ، والذكي القوم نار المداء ، بينهما ، فاخذ نفسه باصلاح ذات بينهما ، حتى لا يصحبا في دار غربتها موضعا لتندثر أهل صقلية وسخرتهم يقول العمري : « فقصده ابن رشيق ببعض أخوانه ، وقال له : أنتما على الإحسان وشيخا أهل القيروان ، وقد أصبحتما بحال جلاء وبين الأعداء ، والأشبه بكما إلا تغربا أدبيكما ، ولا تعلمنا الأعداء لحومكما ، فقال له : أيت ابن شرف ، فوحده أجنب للسلم ، وأدنى إلى الحلم ، برىء إليه من صبيه وصعده ، وأعطاه بذلك صفقتي لسانه ويده » (٨٩) بيد أن ابن رشيق كان يتحرش أحيانا بابن شرف ، ويئال منه ، ويتمرض له ، ويسعى به ، ولعله كان يفعل

(٨٥) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا من مسالك الأيضار الجيد السامع شر .

(٨٦) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٧) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٨) مجلة المنتبش المجلد السادس : ٣٥٤ ويسأل البلقه : ٢٠٥ .

(٨٩) البخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٣٣ .

(٩٠) معالم الإيمان ٣ : ٢٣٩ .

(٩١) فوات الوفيات ٢ : ٤١٥ .

(٩٢) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

ان نطمئن الى انه توفي باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه بأسباب المعتضد ، وعاش في كنفه الى ان ادركته مئيته . وقد سبق أن بسطنا القول في هذه المسألة ، وانتبهنا الى ترجيح انه توفي بطليطلة في كنف ابن ذي النون لاننا نجد ابن بسام يقول : « فتردد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة احوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر اخيرا عند الامون بن ذي النون فعليه خلع آخر لبوسه ونثر بقية كيسه » (٨٩) .

آثاره ومصنفاته :

خلف لنا ابن شرف مؤلفات كثيرة ستطقت من يد الزمن ، ولم يصل اليها منها الا القليل ويشيد ابن بسام بمؤلفاته وينوه بها حيث يقول : « ولأبي عبد الله عدة تواليف افاضها بحارا واطلمها شموسا واقمارا » ويقول حسن حسني : « أما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله الينا المؤرخون » ومن هذه المؤلفات .

ابكار الأفكار :

ويشتمل هذا الكتاب على مختارات مما انتجه ابن شرف من شعر ونثر يقول فيه ياقوت « أبكار الأفكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره » (٩٠) ويقول الصنفدي : « وهو كتاب حسن في الادب يشتمل على نظم ونثر من كلامه » (٩١) ويقول ابن دحية : « ولابن شرف مصنفات عديدة ووضاع مفيدة منها » أبكار الأفكار « في سفرين ، وهو اختراع كله في الحكم والأمثال والنظم والنثر » (٩٢) ويقول حاجي خليفة : « أبكار الأفكار لمحمد بن سعيد الجذامي

ويؤكد ماذهنا اليه - من ان المهادنة التي تمت في جزيرة صقلية بين ابن رشيق وابن شرف قد امتدت واتصلت ، وان الأمور بينهما قد استقامت ووصلت - مانقرا في كتب التراجم من ان ابن شرف حين عقد النية على مفادرة صقلية ، وازمع الرحلة الى الاندلس استنهض صاحبه ابن رشيق في ان يجتمعا بالطريق ، وان يجوزوا مما الى الاندلس ، ويبدو ان ابن رشيق تباطأ عنه ، ولم ينهض معه ، بل تردد واعتذر من عدم النهوض ، فمضى ابن شرف وحده ، يقول ياقوت : « ثم استنهضه ابن شرف على دخول الاندلس ، فتردد ابن رشيق ، وانشد » :

مما يرهنني في ارض اندلس
اساء مقتدر فيها ومعتضد

القباب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكى انتفاضا صولة الاسد

فاجابه ابن شرف على الفور :

ان ترمك الغربية في معشر
قد جبل الطبع على بعضهم

فدارهم مادمت في دراهم
وارضهم مادمت في ارضهم (٨٨)

ثم شخص ابن شرف منفردا الى الاندلس ، وتنقل في بلادها ، وسكن الرية بعد مقارعة احوال ومقاومة خطوب ، وتردد على ملوك الطوائف كال عباد وغيرهم ، وتوفي باشبيلية سنة ستين واربعمائة كما يقول ياقوت ، وقد سبق ان ذكرنا انه يخالفنا الشك ، ولا يمكننا

(٨٨) معجم الادباء : ١٩ : ٣٨ .

(٨٩) الاخرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣

(٩٠) معجم الادباء : ١٩ : ٤٣

(٩١) الواهي بالوفيات ٣ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٩٢) المطرب : ٦٦

باسم ياديس بن حبوس « وهذا الكتاب مفقود يكون كل ما وصل إلينا منه هو ما نقله ابن طافر في كتابه « بدائع البديان » (٩٨) .

أعلام الكلام :

وقد حدثنا ياقوت عن هذا الكتاب وموضوعه ، حيث يقول وهو بسبيل تعداد مؤلفات ابن شرف : « وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة » (٩٦) ثم يشير عقب ذلك مباشرة إلى أن لابن شرف كتابا آخر بعنوان « رسالة الانتقاد » ويحدثنا عنه بقوله : « ورسالة الانتقاد وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهليين والإسلام » (١٠٠) فهل هما كتابان مختلفان أو اتفهما اسمان لكتاب واحد ، ونحن نرجح أن رسالة أعلام الكلام هي رسالة الانتقاد ، وأنهما اسمان لكتاب واحد .

وقد نشر هذا الكتاب حسن حسني في مجلة المقتبس تحت عنوان « رسائل الانتقاد » على نسخة في خزائنه وأخرى في خزانة الاسكوريال برقم ٥٣٦ (١٠١) من القسم العربي ، كما نشر ضمن « رسائل البلقاء » كما نشره الخاتمي مستقلا سنة ١٩٢٦ م وصدره بمقدمة جاء فيها : « كتاب أعلام الكلام الذي ننشره اليوم بين يدي القاري الكريم وقد سبق لأحد الأفاضل التونسيين ، وهو حسن أفندي عبد الوهاب

القيرواني .. جمع فيه من نظمه ونثره » (٩٣) ويقول البغدادي : « له إبداء الأفكار نظما ونثرا » (٩٤) ويقول حسن حسني : « أما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون فمنها كتاب « إبداء الأفكار » جمع فيه ما اختاره من نظمة ونثره ، وهو أنفس مصنفاته ، مفقود وقد يوجد شيء منه في كتب الأدب » (٩٥) ويحدثنا ابن شرف نفسه عن كتابه هذا ، فيذكر أنه اشتمل على مائة نوع من مواظ وأمثال وحكايات قصار وطوال حيث يقول : « وقد كنت حاولت منه ما لم أسبق إليه ، ولم أجعل سوى نظري معني عليه ، فصنعت الكتاب الملقب « إبداء الأفكار » يشتمل على مائة نوع من مواظ وأمثال وحكايات قصار وطوال » (٩٦) ثم يشير إلى أنه من اختراعه ، ومما أنتجته قريحته ، وأنه اشتمل على الجيد والهزل فيمقب ذلك بقوله : « مما عروها إلى من لم يحكما ، واضفت نسجها إلى من لم يحكما ، قد طررت بلمع الجيد والهزل ، وحسنت بمقابلة الضد للمثل ، وليس في ذلك كله رواية رويتها من قديم ولا جديد ، ولا حديث بها عن قريب ولا بعيد ... » (٩٧) .

وقد أهدى ابن شرف هذا الكتاب إلى المعتضد ، وبعث به إليه . يقول ابن بسام : « وطرر تأليفه (إبداء الأفكار) باسم عباد ، وبعث به إليه على العبادة ، وقد كان رسمه قبل

(٩٣) كشف اللثون ١ : ٢٦١

(٩٤) هدية المعارف ٢ : ٧٢

(٩٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ ونظر رسائل البلقاء : ٢٠٥

(٩٦) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٤٠

(٩٧) المصدر السابق : ١٤٠ - ١٤١

(٩٨) بدائع البديان : ١٣٦ - ١٢٨

(٩٩) معجم الأدباء ١٩ : ٤٣

(١٠٠) نفس المصدر السابق والصفحة

(١٠١) أنظر حديثه عن النسخ التي اهتم بها في « رسائل الانتقاد » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٠

والإسلام» (١٠٤) ويحدثنا عنها ابن بسام بقوله: «ولابن شرف مقامات عارض بها البدیع فی بابہ وصب فیہا علی قلبہ، منها مقامة فیہا بعض طول لکنہ غیر مملول، آخذة بطرف مستطرف من أخبار الأدباء وذكر الشعر والشعراء» (١٠٥) ويقول أحمد أمين: «كما وضع ابن شرف كتابه (أعلام الكلام) وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريري، تعرض بطلها لمشهوري الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه في قول قصير، ويبين مزاياه وعيوبه في إيجاز» (١٠٦) ويقول حسن حسني: «وهي من أجمل ما وضع الواضعون في هذا الفن الجليل الذي كان أن يكون مفقودا في التصنيف العربية» (١٠٧) كما ذهب في مقدمته لها إلى أنه يبدو أن ابن شرف كان يهدف من رآئها إلى معارضة كتاب «العمدة» لابن رشيق وأنها ربما كانت أطول مما وجده وحققه ونشره، وقد استند في رأيه هذا إلى ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الأول يقول حسن حسني: «ويلوح لي أن مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة كتاب «العمدة»... إلا أن الرسائل المعارض بها كانت أطول وأكثر مما وجدناه وأوردناه هنا يؤيد ذلك ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الأول حيث يقول: «فاقمت من هذا النحو مشرين حديثا» فالظنون أنه يقصد بالحديث مجالسه مع الأستاذ الموهوم الذي سماه «أبا الريان» كما اختلق الحريري في مقاماته شخص

أن نشره في مجلة المقتبس تحت اسم «رسائل الانتقاد» وقد خيل لحضرته أن رسائل الانتقاد هذه غير أعلام الكلام، كما أشار بذلك في مقدمته» (١٠٨) ويحدثنا الدكتور يافى عن رسالة أعلام الكلام وأنها هي بعينها «رسائل الانتقاد» كما أنها تسمى أيضا «مقامة عن الشعراء» فيقول: «أعلام الكلام نشرها الخانجي وهي هي رسائل الانتقاد»، كما هي في الاستكوريال برقم ٣٦٥ وعليها اسم «مقامة عن الشعراء» وقد صورته إلى الجامعة العربية، وبينها وبين نسخة الخانجي بعض الاختلافات القليلة» (١٠٩) وهكذا نرى أن «أعلام الكلام» و «رسالة الانتقاد» و «مقامة عن الشعراء» كلها أسماء أطلقت على كتاب واحد ومسمى واحد.

وتكاد هذه الرسالة تكون هي الأثر الوحيد الذي وصل إلينا من مصنفات ابن شرف وآثاره التي امتدت إليها يد الضياع، وقد كتبها بأسلوب السجع المعروف في المقامات، وألقها بالمحسنات البديعية، واتخذ لها شخصا خاليا دعاه «أبا الريان الصلت بن السكن» وتحدث على لسان هذا الشخص الخيالي أو البطل عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين فوصف كل واحد باختصار، وعرض لآرائه وعيوبه في إيجاز، وأغفل المصورين منهم والجاهيل ولم يشر إليهم، ويقول ياقوت: «وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية

(١٠٢) انظر مقدمة رسالة أعلام الكلام، ومن لعب من المحدثين إلى أن رسالة «أعلام الكلام» كتاب آخر غير «رسائل الانتقاد» حسن حسني حيث يقول وهو يصدد مرض مؤلفات ابن شرف: «لومنّا كتاب «أعلام الكلام» به لقب وملح مفقود أيضا، ثم رسائل الانتقاد، والظنون أنه ألفها بمدحجته القطر التونسي كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها» مجلة المقتبس المجلد السادس: ٢٥٤ - ٢٥٥ وانظر رسائل اليافى: ٣٠٦

(١٠٣) حياة الثوريان وموقف ابن رشيق منها: ٢٠٥

(١٠٤) معجم الأدباء ١٩: ٤٣

(١٠٥) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول: ١٥٤

(١٠٦) ظهير الإسلام ١: ٨: ٣٠٨

(١٠٧) بساط العليق: ٥١

على التهاون بما انشأته له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليها» (١١١) ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تثبيت القلوب بسيرة القديم ، ونفارها

عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى « لن نعبد إلا ما وجدنا عليه آباءنا ... » فلا يترك أن تجرى الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السماوات والأرض ، ربه أحكم الأبرام والنقض ، ومما مثل لك في هذا أمثالا ، وأما اسماءك مقالا ، وفهمك دلا واعتدالا ، هذا امرؤ القيس أقدم الشعراء عصرًا ، ومقدمهم شعرا وذكرًا ، وقبو السميت الاقوال في فضله اسماعا لم يفر غير بمثله، حتى ان العامة تظن بل توقع أن جواد شعره لا يكبو ، وأن حسام نظمه لا ينو وهيبات من البشر الكمال، ومن الأدبيين الاستواء والاعتدال» (١١٢) ثم يمضي يعدد على بعض الشعراء القدامى كثيرا من السقطات والهنات ، ويثنى عليهم ما وقعوا فيه من أخطاء وميوب ويجرحهم : ويشهر بهم بادئا بامرئ القيس أقدم الشعراء عصرًا ، ومقدمهم ذكرا وشعرا ويرى أنه كسائر الشعراء لا يخلو من الميوب ولأبسط من الهنات والمآخذ ، ثم يعرض لطائفة من ميوبه وسفاسف شعره وساقطه .

وإذا كان ابن شرف يحدثنا عن القدامى والمحدثين كما رأينا في النص السابق إيرادا من هذه الرسالة الذي حمل فيه على مقاييس الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لجرد قلمه وسبق الزمن بصاحبه ، فإتينا نجد ابن

الحارث بن همام واخترع الهمداني عيسى بن هشام ، فمسي أن يسامدني الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس ان كان في عالم الموجودات » (١٠٨) .

هذه هي رسالة اعلام الكلام وأقوال العلماء القدامى والمحدثين فيها وفي موضوعها ويجدر بنا قبل أن نتحدث عنها أن نقارن بينها وبين « كتاب العمدة » ورسالة قراضة الذهب » لابن رشيقي .

وإذا قارنا بين رسالة « اعلام الكلام » لابن شرف ، والعمدة ورسالة قراضة الذهب لابن رشيقي وجدنا تشابها بينهما في كثير من الموضوعات ، فإين شرف مثلا يقول عن ابن الرومي : « وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمره الابتداء ، وله في الهجاء ما ليس له في الاطراء فتح فيه أبوإيا ، ووصل منه أسبايا ، وخلق منه ألوابا وطوق به رقابا» (١٠٩) ويقول ابن رشيقي « وكان ابن الرومي ضئلا بالمعاني ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه الى كل ناحية ، حتى يمينه ، ويعلم أنه لا مطمع فيه لاحد» (١١٠) ونسرى ابن شرف في الرسالة يحدثنا عن الشعراء القدامى والمحدثين ويحمل على اتجاه الرواة وعلماء اللغة ومقاييسهم في تقسيمهم للشعراء الى طبقات ، وتفضيلهم القديم لمجد قلمه وسبق الزمن بصاحبه حيث يقول : « وتحفظ من شيتين : أحدهما أن يحملك أجلالك القديم المذكور على المحطة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : أن يحملك أصغارك الحاضر المشهور

رشيقي يعقد لهم بابا مستقلا وقائما بلدانه في كتابه العمدة بعنوان « القدام والمحدثين » .

وإذا كان ابن شرف يحدثنا في رسالته عن امرئ القيس، ويذكر أنه « مؤسس الأساس، وبنائه عليه الناس، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا وجيداء ، وتامة المعنى ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق العزال ، ويسبق الظلام ، أو العظيم ، وأمثال هذا ، حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد هيكل » ومنل هذا له كثير (١١٣) فإننا نرى ابن رشيقي يحدثنا في رسالته « قراصة الذهب » عن امرئ القيس بقوله : « وأنا انتصر من جميع الشعرا في أكثر ما أورده على امرئ القيس ، لانه المقدم لا محالة ، وأن وقع في ذلك بعض الخلاف فالميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة في نفسه ما لا يجده لغيره من كلام الشعراء ، والبحث والتفتيش يريدهانه جلاله ، ويوجبان له على ما سواه مزية ، ويشهد الطبع وذوق الفطرة شهادة بيّنة واضحة لا تتركها شبهة إذا قصد الإنسان العدل ، وترك التمصص وأول ما أبدا من ذلك ما كان من جهة الاستعارة كقوله : « بمنجرد قيد الأوابد هيكل » فانه أول من قيدها ، وسبق إلى الاستعارة البديعة فاتبه الناس (١١٤) فهل لنا بعد هذه المقارنة بين أعلام الكلام لابن شرف ، وقراصة الذهب والعمدة لابن رشيقي التي أوردنا أطرافا منها أن نقول : أن أحدهما

تأثر بصاحبه ، وتأسى به ، أو نقول : أن اتفاقهما وتشابههما هو مجرد توارد خواطر كالذي رأينا في الأسماء التي حملها عليهما المصنفين باديي ، ودفعهما إليها دفعا مثل أشعارهما في صفة الموز أو في وصف شعر السوق .

وقد بدأ لي بعد كل هذا أن استنتج أن ابن رشيقي أخذ من ابن شرف ، وأميل إلى أنه تأسى به ، وأرجح أنه تأثر به خاصة أننا نجد ابن شرف يستعمل رسالته، ويفتحها بقوله : « هذه أحاديث صفتها مختلفة الأنواع، مؤلفة في الاسماع ، عربيات الواشم غريبات التراجم ، وعزوتها إلى أبي الريان الصلت بن السكن من سلامان ، وكان شيخا هما في اللسان ، وبدرا تما في البيان ، قد بقي احقبا ، ولقي احقبا ، ثم ألقته اليها من باديته الأزمات وأوردته علينا العزمات فامتحننا من علمه بحرا جاريا ، من فهمه زنبدا وأريا ، وأدرا من بره طرفا ، واجتنبنا من ثمره طرفا ، ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل ، وفظة الزمان تهتبل (١١٥) . . . » فابن شرف يصرح في هذا النص أنه كتب هذه الرسالة في مقتبل الشباب وصدره ، وإذا عرفنا أن ابن شرف ولد في سنة ٣٩٠ هـ كان لنا أن نزم أنه ألفها بين سنتي ٤١٠ هـ و ٤٢٠ هـ أي في العقد الثالث من عمره في مقتبل الشباب وشروحه وصدره ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه يمكننا أن نقول : أن ابن رشيقي ألف كتابه « العمدة » في الفترة ما بين سنتي ٤١٢ هـ و ٤٢٥ هـ هلاننا نجد يورد خبر هجاء دجيل بن علي الخزاعي للمعتصم وهروبه من وجهه ، فأرا بهجتة

(١١٣) اعلام الكلام : ١١٦

(١١٤) قراصة الذهب بتحقيق الشاذلي بو يحيى ط تونس سنة ١٩٧٢ م ص ٢٠ - ٢١ .

(١١٥) اعلام الكلام : ١٣

(١١٦) السمة ١ : ٥٧

عصره ، فيهدى كتابه الى ابن ابي الرجال ، وأن يسرف في مدحه ، ويقال في أطرائه شأنه شأن غيره ممن هم على شاكلته من الأدباء والكتاب حتى يقول : « ولم أرسم كتابي هذا باسم السيد زاده الله تعالى سما لاكون كجالب التمر الى هجر ، ومهدى الوشى الى عدن ، ولكن تزينا باسمه الشريف وذكره الطيب ، واستسلما بين علمه الطائل وأدبه الكامل ... (١١٨) فلذا عرفنا ان ابن ابي الرجال هلا الذي أهده ابن رشيق كتابه « العمدة » توفي سنة ٤٢٥ هـ فان من المقطوع به ان يكون هذا الكتاب قد تم تأليفه قبل هذا التاريخ ، وعلى هذا يكون ما ذهبنا اليه ، وأفترضناه من ان ابن رشيق أخذ من رسالة اعلام الكلام لابن شرف ، وأفاد منها ، وثأمر بها أمر جائر يقبله العقل ، ولا يحله ولا يمنع من ذلك ان ينفي ابن رشيق من نفسه في كتابه العمدة تهمة الأخذ من بعض معاصره ، وذلك انه حين ألف كتابه العمدة ، وأخرجه للناس يبدو أنه ظفر بأعجاب الجمهور ، وأصاب الحظوة عندهم الامر الذي أفر صدور خصومه فنالوا من الكتاب ، وانتقصوا من قدره ، وبخسوه حقه ، وتقموا على صاحبه ، وغطوه حقه ، وادعوا عليه الأخذ والاتحال والسرقة ، فقال معرضا بهم في بداية باب التضمين والاجازة : « وهذا باب يخطط على كثير من الشعراء ممن ليس له نقوب في العلم ولا حلق بالصناعة كجماعة ممن رسم في بلدنا بالمعرفة ، وينسب اليها مكلوبا عليه فيها ، كاذبا فيما ادعاه منها ، ولتعرفهم في لحن القول » (١١٩) كما يعرض بهم في موضع آخر حيث يقول : « وكم في بلدنا هلا من الحفلات

منه ، بعد ان طلبه المعتصم ونسب دمه ، وإبعاده في الهرب حتى أدرسته منيهة ، وحمل قضاؤه بالمغرب بزويلة بنى الخطاطب حيث دفن الى جوار قبر عبدالله ابن شيخه القراز حيث يقول : « والى جانيه قبر عبد الله بن شيخنا أبي عبد الله محمد بن جعفر النحوي رحمه الله » (١٢٠) فهو يذكر قبر ابن شيخه القراز ، ويقرن اسم شيخه بقوله : « رحمه الله » فلذا ذهبنا الى ان الدعاء بالرحمة انما هو لشيخه القراز وانه كان قد تولى الناء كتابة تلمذة ابن رشيق قصة دمبل وخبره مع المعتصم امكننا ان نقول : ان ابن رشيق ابتداء تأليف كتابه هذا في سنة ٤١٢ هـ وهناك قرينة ثانية تدل على ان هذا الكتاب ألف في الفترة آتفة الذكر ، وهي ان أول ما يطالعنا من هذا الكتاب ان ابن رشيق يرفعه الى أبي الحسن علي بن أبي الرجال رئيس ديوان انشاء المعز بن باديس ، ويهديه اياه ، فيقول : « السيد الامجد والفد الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا وباني المكارم وأبي المظالم رجل الخطب وفارس الكتب أبي الحسن علي ابن أبي الرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم ، الذي نال الرئاسة وحاز السياسة » (١٢١) ولم يكن ابن رشيق في صنيعة هذا ، وأهدائه كتابه الى ابن أبي الرجال بدعا من المؤلفين والمصنفين وانما كان يجري على سنة المصير الذي عاش فيه ، فقد جرت عادة العلماء والأدباء حينئذ ان يرفعوا كتبهم ومصنفاتهم الى الامراء والوزراء وكبار رجالات الدولة ، ويهدونها اليهم ابتغاء للمثوبة والمنفعة ، والتماسا لجزل عطايتهم ونوالهم وصلاتهم وطلبا للشهرة وذبوع الصيت فلا على ان ابن رشيق ان يجري على سنة

(١١٧) العمدة : ١

(١١٨) العمدة : ١

(١١٩) العمدة : ٢ . ٨٠

خرجت به الى الاوهام سبقا
وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز ابي تميم
امر بمن سواه فلا اميج

فابن رشيقي يحدثنا عن هذه الالبيات بقوله : « ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية سامة وصولي اليه - ادام الله عزه - عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا » (١٢٢) فاليمين يرى أن ابن رشيقي انما ذهب الى المهدية ، ولحق بالمعز بن باديس بها بعد خراب القيروان على ايدي الاعراب سنة ٤٤٩ هـ . وهي سنة جلاء المعز عن القيروان الى المهدية ، ولنا أن نساأل الميمنى وأن نناقشه فيما ذهب اليه ، فمن ذا الذى زعم او قال : ان المعز بن باديس لم يذهب قط الى المهدية الا فى سنة ٤٤٩ هـ بعد خراب القيروان ؟ ومن يستطيع أن ينكر أن المعز قد ذهب اليها ، وزارها قبل هذا التاريخ اثناء ازدهار ملكه لتفقد احوال رعيته فيها ، اليست احدى المسكن الكبان الواقعة فى نطاق دولته ؟ اليس المعز قد ولى عليها ابنه تميم ، وعهد اليه بامرها ؟ ثم ألم يحدثنا المؤرخون القدامى والمحدثون أن المعز كان بالمهدية فى صحبة جده يوم مات ابوہ باديس ، وأنه ولى الملك ، وآلت اليه الامارة وهو بها سنة ٤٠٦ هـ ؟ على ما يحدثنا ابن ابي دينار حيث يقول من وفاة باديس : « فادركه اجله على مدينة المحمدية آخر ليلة من ذى القعدة سنة ست وأربعمائة ، فكنم اكابر دولته موته ، وتشاوروا فيما بينهم ، فاتفق رأيهم على تولية ولده المعز وكان صغيرا اذ ذاك لم يبلغ عشر سنين ، فجهلوا باديس فى تابوت وأوصلوه الى المهدية

قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين » ان البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا ان يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يمدخله ، ويحصى زلله للذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيحه وفساد معانيه وركاكه لفظه مايدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادموها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا ، وقد بلغنى ان بعض من لا يتورع من كذب ، ولا يستحي من فضيحة زعم انى اخذت مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الآن ما علمها » (١٢٠) وربما كان يقصد بمن لا يتورع من الكذب ، ولا يستحي من الفضيحة ابن شرف القيروانى قريبه وغريمه ومنافسه فى بلاط المعز بن باديس .

وقد ذهب حسن حسننى الى قريب مما ذهبنا اليه ، فقد ذكر أن ابن رشيقي الف كتابه « العمدة » فى حدود سنة ٤٣٠ هـ أو قبلها بقليل حيث يقول : « وأشهر تاليف لابن رشيقي فى الادب هى كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده الفها فى حدود سنة ٤٣٠ هـ أو قبلها ببسر » (١٢١) وأنه لسن الغريب حقا أن يذهب اليمى الى أن ابن رشيقي ألف هذا الكتاب بعد سنة ٤٤٩ هـ معتمدا فى ذلك على خبر أبيات لابن رشيقي وردت فى هذا الكتاب وهي :

وذاك له وجبل طحون
لما نزلت به ويد زوج
يطير باربع لا عيب فيها
لظهران الصفا منها عيج

(١٢٠) العمدة ٢ : ٢٢٨

(١٢١) مساف المتيق : ٨٧

(١٢٢) العمدة ١ : ٢٠٣

على أرجح الروايات ، فكيف نستسيغ أو نتقبل أن يسلم ابن رشيق من عمره ستين عاما ، وأن يقضى حياته الاقلها لا يؤلف شيئا ، حتى اذا ما أصبح في خريف العمر ، وغدا شيخا هزما ، واضطربت امور الدولة ، والتأثت احوال الرعية ، وحدثت مأساة سقوط القيروان في ايدى الاعراب ، وازعج عن حرمة الامن ، واجلى عنه مرغما ، ونزع الى المهدي على كره منه ، راح يكتب وأخذ يؤلف مثل هذا الكتاب ، والميمنى نفسه يقول عنه « ولكن لما انتقل المزمع من سبيل اعراب مصر الى المهدي ، وبعه صاحبنا ، طاس فكره ونال رايه ، فكان يمتعض من ادنى فلتة ، ويجه على احقر بادرة ، ويسرى الظن بصديقه الوثى وصاحبه الحفي ، فارتحل الى صقلية وهو كاره .. مع انها لم تكن احسن حالا من افرقية » (١٢٤) فشيخ هرم مثل ابن رشيق هذه حاله ونفسه وتلك ظروفه يزج من حرمة الامن ، ويجلو من موطنه القيروان مرغما ، ويلدف على ضياعه نموها صادقة ، ويصور لنا مأساته أروع تصوير واصدقه في مربية من اصدق شعر ابن رشيق عاطفة واعمقه اثرا في النفس ، لم يعاني في هذه السن الام الحوشة والاغتراب ويتجرع مرارة نوب المزمع عنه ، وجفونه له ، لا يمكنه بحال من الاحوال ان يؤلف مثل هذا الكتاب في ذلك الحين ، وانما المستساغ والمقبول والاغرب الى الصواب ان يكون قد ألفه قبل ذلك في

وكان ولده المزمع بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حزنا لاموالها ، لما كانت ترى من الفتنة في دولة ولدها باديس (١٢٣) .

على ان قصة هذه الابيات التي اعتمد عليها الميمنى في تحديد زمن تأليف كتاب «العمدة» وردت برواية أخرى في النسخة الخطية اقدم نسخ الكتاب تقول هذه الرواية : « قبل وصولي اليها » فهو يصرح فيها أنه قال هذا الشعر قبل ان تتصل اسبابه باسباب المزمع بن باديس ، وينخرط في سلك خدمته ، ويصطنعه المزمع ، ويصطفيه لنفسه ، ويصبح شاعر بلاطه المقدم عنده الاثير لديه ، وليس ادل على ذلك من أنه قال هذا الشعر عن اقتراح أحد شعراء الوقت ، ولو كان قد قاله بعد سنة ٤٢٩ هـ - كما ذهب الميمنى - ما كان بحاجة الى اقتراح غيره عليه ان يقول شعرا وانما يكون الاقتراح قبل ان يصل حبله بحبل المزمع ، فيدفعه القترح الى ان يقول شعرا في هذا الغرض او ذلك ، وهذا يكون الزمن الذي حددناه لتأليف الكتاب اقرب الى الصحة والصواب ، ولا يكون ابن رشيق الفقه بعد سنة ٤٢٩ هـ بحال من الاحوال كما ذهب الميمنى .

على اننا لو تركنا هذا الموضوع جانبا ، ونظرنا الى من ابن رشيق حين رحل الى المهدي ولحق بالمزمع بن باديس بها سنة ٤٢٩ هـ لرأيناه قد ناهز الستين اذ اتولد سنة ٣٩٠ هـ

(١٢٣) المؤنس : ٧٩ - ٨٠ و بساط العقيق : ٢٢ : « ولا أدركت للثية والده باديس آخر ليلة من لى القعدة سنة ٤٠٦ هـ بعدئذ العمدة » ، تناقض مدبر الدولة بينهم ، فاتفقوا بهم على تولية المزمع ، وكان وقتئذ في انتزاع صعبة جدته بالمهية « ولهم من كلام ابن طباري ان المزمع كان في صحبة عمته ام ملال منه تولية الامارة بالمهية ، وليس لي صعبة جدته انظر البيان الغرب ١ : ٢٨٦ وقد ذهب الى ذلك احمد بن عمار في كتابه « الدولة الصنهاجية » حيث يقول من ام ملال : « وهي سيدة بنت الامير المنصور وشقيقة الامير باديس نشأت ودرجت في كنف والدها وأخوها ، واشتهرت برجاعة العقل وسمة التذكير ولقب الراي وطو التثافة ... وبذلك تأملت ان تنتخب وصية على ابنه الامير المزمع الذي لا يتركه من نمانية اعوام ... » الدولة الصنهاجية : ٦٢ - ٦٣ وذكر ابن الاثير ان ولاية المزمع كانت بالمهية ، ولم يشأ الى وصاية عمته عليه حيث يقول : « ووصلوا الى المهية ، والمزمع بها لامن الحرم ، فركب المزمع ووقف حبيب يطمع بهم ، وبذكر له اسماءهم ، وعرفه بلوادهم واكثرهم ، فرحل المزمع من المهية ، فوصل الى المنصورية منتصفا الحرم » الكامل ٩ : ٩٥

في الإندلس والمغرب العربي قبل أن يعرفه المشاركة ولا تكاد نعرف إلا غربته في صقلية ، لم القرية والوحدة في الإندلس كما سبق أن بينا ، وإذا كان الأمر كذلك وكانت كتابة الرسالة بعد هذا كله فلا يمكننا أن نزعج أن ابن رشيق تأثر بابن شرف أو أخذ عنه لا في (العمدة) ولا في (قراضة الذهب) ، ولعل هذا النص هو الذي دفع حسن حسني إلى أن يرجع أن ابن شرف ألف هذه الرسالة بعد هجرته من القطر التونسي حيث يقول وهو بصدد تعداد مصنفات ابن شرف : « ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون أنه ألفها بعده هجرة القطر التونسي كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها » (١٢٧) .

ومن هنا نرى أنه لم يكذب يصل إلينا من مؤلفات ابن شرف الكثيرة التي يقول فيها ابن بسلام : « ولأبي عبد الله عدة تواليف أغاضها بحارا ، وأطلمها شحوسا وأقمرا » (١٢٨) والتي يحدثننا منها حسن حسني بقوله : « أما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون سوى رسائله أعلام الكلام » (١٢٩) أما باقي مؤلفاته فقد فقدت ، وامتدت إليها يد الضياع ، إلا أنه ينبغي أن نشير هنا إلى أنه توجد إثارات من نثره وشعره مبدوءة في ثنابا كتب الأدب ، ولا سيما (الذخيرة) لابن بسلام ، فقد احتفظ لنا فيها بجملة صالحة من آثاره ككفي لإبراز قيمتها ، وأورد لنا طائفة كبيرة من نثره وشعره ، وبسط القول في أخباره الأدبية وأغاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، فمن نثره الذي

شرح شبابه ومقتبل عمره ، والدنيا عليه مقبلة والسلطان عنه راضى ، والظروف مهية له ومتاحة ، والزمان موات له ومساعد ، ومن العجيب أن اليميني يقرر بعد ذلك أن ابن رشيق سنة ٤٤٩ هـ كان في عهد هرمه وشيوخه ، وأنه لم يصنف فيه شيئا جديرا بالذكر حيث يقول : « أن هذا العهد كان عهد هرمه وهومره ، وأنه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر أصلا » أو على ما بلغنا (١٣٥)

فهل لنا بعد كل هذا أن نركن إلى ما ذهبنا إليه ، واقتصرناه ، واستنتجناه من أن ابن رشيق أخذ من ابن شرف ، وتأثر به ، وكان من الممكن أن نطعن إلى ما انتهينا إليه لولا أننا رأينا ابن شرف يورد في مقدمة رسالته ما ينقض كل ما اقتصرناه واستنتجناه وذهبنا إليه ، ويأتي عليه من القواعد ، ويجعلنا لانظمين إلى ما انتهينا إليه حيث يقول « ولعمري ما أشكر من نفسي ، ولا أني على شيء من حسي الا ظفري بالآل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الغربة من قولي ، وثلمته صعقات الفتنة من لبى ، وقطعت أهوال البر والبحر من خواطري ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزي وبصائري » (١٣٦) فهذا النص يدل على أن الرسالة كتبت بعد معاناة أهوال في البر والبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وليست هناك إلا فتنة سقوط القردان التي هزته ، فخلد مأساتها في عدة قصائد تعد من ميون شمر رلام المدن ، هذا اللون الذي شاع

(١٣٥) ابن رشيق : ٦٧

(١٣٦) رسالة اعلام الكلام : ١٤

(١٣٧) مجلة القتيبيس المجلد السادس : ٢٥٤ - ٢٥٥ وانظر رسائل اليلفاه : ٢٠٦

(١٣٨) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٢٤ .

(١٣٩) مجلة القتيبيس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل اليلفاه : ٢٠٦ وقد عد البغدادي ضمن مؤلفات ابن شرف حجج النصح وسر البر ، ولا ندري شيئا عن موضوع هذين الكتابين ولا المصادر التي استقرئها إذا اكتفى بذكرهما دون أن يشير إلى موضوعهما ولا إلى المصادر التي اعتمدها في هذين الكتابين .

يؤثـه من لقائه ، والوقوف في حياته ، وهي تصور خوقه من المعتضد واشغافه من القـدم عليه أدق تصوير وأروعه، ومنها عدة مقطوعات في التسيب وقصائد في مدح المنصور حفيد ابن أبي عامر وابن طاهر أمير مرسية وابن أبي الرجال رئيس ديوان الإنشاء في بلاط المعز بن باديس ، وعدة قصائد في رثاء القـيروان ووصف تكبتها وتصوير مأساتها تصمد من عيون الشعر العربي في رثاء المدن والامصار، ومنها مقطوعة تعد من رائع الشعر وجيده يصف فيها ما كان من صيانة الحرمين وامتناعهن وتصونهن قبل حدوث مأساة القـيروان وما حـرن اليه بعدها من الاكتشاف والتبذل في الحل والترحال ، وما عانينه من خطوب وأهـوال يقول في هذه المقطوعة :

بعد خطوب خطبت مهجتي
وكان وشك البين أمهلها
ذا كبد أفلاذها حولها
قسمت الفرية أشرارها
اطفال ما سمعت بالفسا
قط فعانيت الفسلا دارها
ولا رات أبصارها شاطئا
ثم جلت بالبحج أبصارها
وكانت الاسنار آفاقها
فعاادت الاناق استلها
ولم تكن تملو سريرا خلا
الا اذا وانق مقسداها
ثم علت كل مشور الخطا
ترسى بها الارض واجارها
ولم تكن تلحظا مثلة
لو كطت بالشمس أشفلها
فأصبحت لا تنقي لبطلة
الا بأن تجمع أطملها

أورده ابن بسام رسائله الى المعتضد التي خاطب في احداها وزيره ابن زيدون ، وفصل من رسالة بعث بها الى المظفر بن الانطس ، وفصول من النثر في مختلف المعاني وشتى الموضوعات ، ثم ختمها بقصة قصيرة سماها مقامة ، وقد التزم السجع ، وكلف بالمحسنات بالبديعية في كل كتاباته ، فانقل نثره بالمحسنات البديعية ، وأسرف في استعمالها ، وغالى في تزوين الالفاظ وتزييق العبارات ، وحشد فيها كل ما يستطيع أن يأتى به من تلك المحسنات حتى اننا لانكاد نجد عبارة واحدة لا ثقلها المحسنات ، وقد كان هذا شأنه في كل ما اثر لنا منه من نشر سواء أكان نشرنا انشائيا صرفا كالرسائل والفصول التي أوردها ابن بسام ، ومحدثنا عنها أنفا ، أم كان نثرا تناول فيه الأبحاث الأدبية مثل رسائله «أعلام الكلام» تلك الرسالة الوحيدة التي وصلت إلينا من بين مؤلفاته ، والتي تناول فيها الشعراء بالنقد ، فقد حشد فيها كل المحسنات البديعية ، وكلف بالسجع الركيك ، واحتفل به ، والتزمه من أول الرسالة الى آخرها كما أولع بالالفاظ الغريبة ، حتى كادت الأفكار والاحكام العامة الخالية من الضبط ، والتحليل المشتملة عليها هذه الرسالة تضيق في أمواج السجع والالفاظ الغريبة ، وتغيب في خضم الصنعة المفرطة المغالى فيها ، فهو يعرض فيها للشعر والشعراء ومنازلهم في الجاهلية والإستسلام ، ويبين زأبه فيهم وموقفه منهم سالكا في ذلك سبيل المقامات .

ومستخدما أسلوبها ، فعنى بتزيين الالفاظ وأهتم بتزييق العبارات ، وكلف بالسجع ، واحتفل بالمحسنات والصنعة ، حتى أنك لانكاد تجد عبارة واحدة في هذه الرسالة لا تنوء بأقال المحسنات البديعية والصنعة المفرطة المغالى فيها .

أما الأشعار التي أوردها ابن بسام فهي في موضوعات شتى منها المقطوعة الطريفة التي خاطب فيها المعتضد ، وبعث بها اليه

الفضة من صعاب في الصحارى والتغار وعلى
متون البحار فرارا بأنفسهم من عسف الأعراب
وعنتهم وأذاتهم .

يقول ابن شرف :

كانى وأفراخي إذا الليل جننا
وباتن الكرى يصفو جفونا ويشرق
حمام أضلن الوكور فضمها
تجانسها حتى تراهى المفرق (١٣١)

الى آخر هذه المقطوعة التى سبق أن
لوردناها عند حديثنا عن أسرته . ومن أشعاره
قصيدة يندب فيها القيروان ، ويبكى فيها
وطنه الضائع ، ويلدغ على ضياعه دموها
صادقة ويسترجع ذكرياته بالقيروان فى مرارة
واسى وحسرة ولوعة ، ويشوق حياته الماضية
بها، ومعهودة الساقطة فى ربوعها ومفانيها فيقول:

ياقيروان وددت انسى طائس
فأراك رؤية طائس متأمل
أها واية آهة تشفى جوى
قلب بنيران الصابئة مصطلى
أبدت مفاتيح الغيوب عجائبها
كانت كوامن تحت غيب مقفل
زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى
بلراك بصرخ كالحريرين المتكسر
يا بيد روعة والشوارع حولها
مغمورة أبدا تنفس وتمتلى
يا أربى في القطب منها كيف لى
بعباد يوم فيك لى ومن ابن لى

وفى البيت الخامس من هذه المقطوعة قلب
مليح يقول ابن بسام معلقا على هذه المقطوعة
« قوله » وكانت الاستار آفاقها « من الكلام
الفصيح والقلب المليح ، ويشبه منجاة وان لم
يكن في معناه قول الأول :

نرد شعورهمى السود بيضا
ورد وجوههم البيض سودا

وكقول الآخر :

ندبى جارية ساقية

ونزهت ساقية جارية (١٣٠)

وقد بسط ابن شرف القول ، وأجاد كل
الإجادة في تصوير نكبة القيروان حاضرة
أفريقية ، وما أصابها على أيدي الأعراب من
صنوف التخريب والتدمير ومالحق بأهلها
من الوان الصنف والإضطهاد ، وما حاق بهم
من فنون الأذى وضروب التعذيب ، ومالحق
بهم من الدلة والهوان ، وكان ابن شرف قد
أحسن لدغ المصيبة وحرها ، وذاق مرارة
النكبة ، ولجرجع فصص الكارثة فى نفسه وأهله
ولده ، وهزته المأساة وأزعجته من حرمه
الامن ، وعانى من وبلائها ما عانى فانطقته بشعر
صورها فيه تصورا دقيقا ، حتى إنه قلما
نجد عند غيره من الشعراء من صور مأساة
القيروان مثل هذا التصوير الدقيق المتمثل،
ونحس مثل هذه اللغات الحزينة التى تشيع
في كل مراتب للقيروان ووصف مأساتها وماحل
بأهلها ، ومن ثم كانت مرأى ابن شرف
للقيروان ، وتصويره لمأساة سقوطها ، وماحل
بأهلها من أصدق الشعر عاطفة ، وأصمقه أثرا
فى النفوس وخاصة حين يصور حال أسرته
وأطفاله الصغار ، وما تجشموه في هذه المن

وسغورهم من هول الكارثة وتبذلهم وامتنانهم ،
وما لقينهم من أهوال وأخطار ، وما تجشمتهم من
صعاب بعد رغد عيشهم ، وتقلبهم في أعطاف
التعيم مصونات محتعات .

وتود أن نشير هنا إلى أن المفارقة قد كلفوا !
بتقليد المشاركة ، وإن ابن بسام قد أدرك ذلك ،
وأحس تعلق بني وطنه بالمشاركة ، ولووعهم
بتقليدهم ، والتأسي بهم ، فأحفظه ذلك ،
وأغضبه وأثار حميته ، فراح ينسج على قومه
تطعيمهم إلى المشرق وعلمائه وأدبائه ، وافتتاحهم
بهم ، واحتفالهم بأكارهم ، وكلفهم بتقليدهم
والتأسي بهم حيث يقول : « ان أهل هذا
الافق أبو الا متابمة أهل المشرق يرجعون إلى
أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى فتادة ،
حتى لو نطق بتلك الأفاق غراب ، أوطن بأقصى
الشام والعراق ذباب لجئوا على هذا صنعا ،
وتلوا ذلك كتابا محكما ، ففاضني منهم ذلك ،
وانفت مما هنالك غيرة لهذا الافق القريب أن
تعود بدوره أهلة وتصبح بحارته ثمادا مضمحلة ،
وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان
واختص أهل المشرق بالأحسان » (١٢٣) .

أما في مجال الشعر فقد كان غاية ما يطمح
إليه أحد الشعراء المغاربة والأندلسيين وتصبوا
إليه نفسه أن يشبه بأحد شعراء المشرق ويلحق
به ، ويقرن اسمه باسمه ، فالتماهي يعجب
بأبن دراج القسطلي ، ولا يتجاوز في تعبيره من
أعجابه به أن يشبهه بالمتنبي في المشرق ، ولا

بالو شهدت إذا رأيتك في الكرى
كيف أرتجاع صباى بعد تكمل
لاشرة الأحسان تنسى حيرة
هيهات تذهب علة بتعلل
وإذا تجدد لى أخ ومنادم
جددت ذكر أخاء خل أول
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت مالم أفعل (١٢٤)

كما توجد مقطوعات من شعره في كل الكتب
التي ترجعت له مثل (معجم الأدباء) (والوفاي
بالوفيات) و (المطرب) (معالم الإيمان) ،
كما توجد آثار من شعره ونثره في ثنانيا الكتب
الأدبية الأخرى مثل (الفيت المسجم) فقيه
عدة مقطوعات من شعره ، كما توجد قطعة من
نثره في مدح الشطرنج وهذه القطعة موجودة
أيضا في (زهرة الجليس ومنية الأدب الانيس) .

ولستطيع أن نقول ان أجود أشعار ابن حرق
هي قصائده التي رثي فيها القرواني . وطنه الضائع
وبكاها فيها ، ولدب أيامه بها ، واسترجع
ذكرياته فيها ، وصور حال أسرته وأطفاله
الصفار ، وما تجشموه من صعاب بعد أن
هزمهم المأساة وأزعجتهم الفتنة من حرمهم
الامن ، وتلك التي صور فيها أجلاء العرب
لأهلها بعد أن روعوهم في حرمهم الامس ،
وأوقموها بهم ، ووصف خروج نساء القرواني

(١٢٢) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٨١ - ١٨٢ وأنظر معالم الإيمان ١ : ١٥ مما أورد له الدباغ قصيدة يصف
فيها خلاه القرواني ، وبلاد أهلها عنها : منها :

الا متسؤل فيسه أتيس مجساور
هبطت عن الفلجان وألله فالسر
اليم تك لنما في الجبالد الكالسر
سوى سالك أو لافن وهو سالك
أقيمت ستعود منهمم وستالسر

الا متسؤل فيسه أتيس مغالسط
تسرى سيستات القسروان تعالست
تراها أمييتت بالكالسر وجنعا
ترحل منها فافتروها فلا تسرى
لكشفت الاستبار منهمم وربما

وأنظر الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٨٢ - ١٨٤

(١٢٤) الأخيرة القسم الأول المجلد الأول : ٢

« قوله (أى ابن دراج) :

فمن حرة حليت بالجسلا
وعلراء نصت بنص الزميل

ثم يتبع ذلك بقوله : « انتحى ابن شرف فيما وصف فتنه قيروانه منحى القسطل في شكوى زمانه ، والحديث من الفتن ، فكأثر البحر يوشل مشفوه ، وجارى الريح بكودن لأفضل فيه » (١٣٦) إلا أنه ينبغي ألا نغفل ابن شرف حقه في الشعر ، فهو يعد من الشعراء المقاربة الجيدين ، وشعره يمتاز بوضوح المعاني والأفكار والدقة في الوصف وجزالة الالفاظ والتراكيب كما رأينا من أشعاره التى تناولناها وعرضنا لها .

هذه هى آثار ابن شرف التى فقدت وامتدت إليها يد الضياع ، والتى لم يبق لنا منها إلا آثار منثورة في ثنايا الكتب ، وقد مرصنا لنشره وشعره حسبما أسعفتنا النصوص ، ولنعرض لأرائه النقدية المتمثلة في رسالته « اعلام الكلام » .

آرائه النقدية :

تتمثل آراء ابن شرف في النقد الأدبي في رسالته « اعلام الكلام » تلك الرسالة التى ضمنها آرائه النقدية ، وبين فيها موقفه من كثير من القضايا الأدبية التى كانت تشغل بال معاصريه ، وهى باهتمامها على عديد من القضايا النقدية ، وأحاطتها بكثير من المسائل الأدبية ربما تعد متنا في النقد الأدبي .

يبدو أن يلحقه به فيقول : « وكان بصقع الاندلس كالمتنبى يصنع الشام » (١٣٤) ولم يكن ابن شرف بلدا من شعراء عصره من المقاربة في التعلق بالمشارقة والافتتان بهم ، فنراه ونحن نطالع الذخيرة لابن بسام مفتونا بالتنبى ، كلغا بمجاراته ومعارضته ، وكأنى به وقد زهى بشاعريته ، وأحس أنه نظير للمتنبى ، وقرين له حتى حدته نفسه أن يجاريه ويعارضه ، وسولت له أن يطاوله ويساميه ، يقول ابن بسام ان ابن شرف « قال يوما للمأمون بن ذى النون أيام خدمته إياه ، واستشفافه صباية عمره في ذراه ، وقد أجروا ذكر أبى الطيب ، فذهبوا في تأنيبه كل مذهب : ان رأى المأمون - لافارق العزة والغلا - ان يشير الى اى قصيدة شاء من شعر أبى الطيب حتى أمارضه بقصيدة تنسى اسمه ، ولمضى رسمه فتناقل ابن ذى النون عن جوابه ملما بضيق جنباه ، وأشفاقا من فضيحته وانتشابهه والى أبو عبد الله حتى أخرج ابن ذى النون وأغراه ، فقال له : دونك قوله « لمينيك مايلقى اللؤاد وما لتى » فخلا بها ابن شرف إياما ، فوجد مركبها وعرا ، ومريرتها شذرا ، ولكنه أبلى علرا ، وأرهق نفسه من أمرها صرا فما قام ولا قعد ، ولا حل ولا عقد » (١٣٥) .

كما يذكر ابن بسام في موضع آخر أن ابن الأشرف كان في وصفه تكة القيروان وماساتها متأسيا بابن دراج ، ومقلدا له ، لم ينال منه ، ويفطله حقه ، ويصفه بالقصور من شأو ابن دراج كدأبه دائما فى التعصب لبنى وطنه وانتقاص من عداهم وغمل حقوقهم ، والنض من شأنهم ، حيث يقول مقارنا بين بيتين لابن شرف وابن دراج :

(١٣٤) البيت ٢ : ٢٠

(١٣٥) اللخية القسم الرابع المجلد الاول : ١٤

(١٣٦) اللخية القسم الاول المجلد الاول : ٧٤ على أن ابن شرف كان معجبا بشعر ابن دراج وخاصة أشعاره التى قالها في محنته انظر اعلام الكلام : ٢٦

ودمنة (فأضافوا حكمه الى الطير الحوائث ، ونطقوا به على السنة الوحوش والبهائم، لتعلق به شهوات الأحداث ، وتستعذب بشرة الفاظ الحداث وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون الكاتب في تأليفه كتاب « النمر والثعلب » وهو مشهور الحكايات بديع المراسلات ، مليح الكتابات ، وزور ايضا بديع الزمان الحافظ الهمداني وهو الاستاذ أبو الفضل أحمد بن الحسين مقامات كان ينشئها بديها في أواخر مجالسه وينسبها الى راوية رواها له يسميه عيسى بن هشام ، وزعم أنه حدثه بها عن بليغ يسميه أبا الفتح الاسكندري ، وعددها فيما يزعم رواها عشرون مقامة ، إلا أنها لم تصل هذه العدة اليها ، وهي متضمنة معاني مختلفة ، ومبينة على معان شتى غير مؤلفة ، لينتفع بها من الكتاب والمحاضرين من صرفها من هزل الى جد ومن شد الى شد ، فاقمت من هذا النحو عشرين حديثا ، أرجو أن يتبين نضجها ، ولا تقتصر عما قبلها » (١٣٨) .

ويحدثنا ابن خلكان عن بديع الزمان ومقاماته بقوله : « صاحب الرسائل الرائعة والمقامات الفاتكة على مثوله نسج الحريري مقاماته ، واحتذى حذوه ، واقتفى أثره ، واعترف في خطبته بفعله ، وأنه الذي أرشده الى سلوك ذلك المنهج » (١٣٩) .

وقد أقر الحريري لبديع الزمان بالفضل حيث يقول في خطبة المقامات : « فأشار من اشارته ، وطاعته غنم الى أن انشئ مقامات اتلو فيها لؤلؤ البديع ، وأن لم يدرك الظالع شأو الضليع » (١٤٠) .

وقد سبق أن عرضنا لها ، وبيننا آراء العلماء فيها ، ومواقفهم منها ، وقارنا بينها وبين قراصة الذهب والعمدة لابن رشيق ، وذكرنا أنه كتبها بأسلوب المقامات ، ذلك الأسلوب المتلزم للسجع ، والمنقل بالمحسنات البديعية ، والمتسم بتزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، والحافل بحوشى الالفاظ وغريها ، وأنه اتخذ لها شخصا خاليا أو بطلا دعاه أبا الريان الصلت بن السكن ، وتحدث على لسان بطله عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين وأفضل المقومرين منهم وأهمهم ولم يشر اليهم .

وقد ابتدأ هذه الرسالة واستهلها بقوله : « هذه احاديث صفتها مختلفة الأيوان مؤلفة في الاسماع ، عربيات الراسم ، غريبات التراجم ، واختلقت فيها أخبارا فصيحيات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف ، واسانيد ظراف ، يروق الصنير معناها ، والكبير مفزاهها ، وعزوتها الى أبي الريان الصلت بن السكن من سلامان » (١٣٧) .

لم يذكر أنه لم يكن مبتدعا لهذه لاحاديث على غير مثال سابق ، ولم يكن سابقا الى اختراعها وإبتكارها ، وإنما هو متبع لمن سبقه في أمثالها ، وحاذ حلوهم وناسج على متوالهم ، ولا سيما بديع الزمان الهمداني في مقاماته التي بلغ عددها على ما يرويه الرواة في ذلك الحين عشرين مقامة ، وإن كان هذا العدد لم يكده يصل اليه فيقول : « واحتديت فيما ذهبت اليه ، ووقع تعريضي عليه من بث هذه الاحاديث مارأيت الاوائل قد ضمنت في كتاب » (كلية

(١٣٧) رسالة اعلام الكلام : ١٤ وسلامان بلخج اوله مائه ليشي شيبان على طريق مكة الى العراق ، وبه مات نولل بن عبد مناف . معجم ما استمعتم : ٣ : ٧٤٥ ويبدو ان ابن شرف اختار سلامان الذي هو منزل القبيلة شيبان اشادة بهذه القبيلة وتوحيها بشانها ، إذ ينسب اليها ولي نعمته ابو الحسن علي بن ابي الرجال الشيباني رئيس ديوان الانشاء في بلاط الخلف بن باديس .

(١٣٨) رسالة اعلام الكلام : ١٢ - ١٤

(١٣٩) وفيات : ١ : ١٠٩

(١٤٠) وفيات الايمان : ٣ : ٢٢٨ والنثر مقدمة مقامات الحريري : ٤ ط الطبعة .

وخمسون مقالة قد ثبت منذ زمن طويل ، لأن
الحريرى عارض هذا العدد بمثله » . (١٤٢)

وابو الريان الصلت بن السكن الذى أجرى
ابن شرف على لسانه هذه الأحاديث إنما هو
رجل استعلمه ، أو شخص جرده من نفسه ،
وأنزعه منها ، فكان ابن شرف يخاطب أبا الريان
هذا البطل المزموم ويسأله ، وأبو الريان
يجيبه بما يعرفه عن كل شاعر إلا أنه قصر
حديثه على الشعراء المشهورين في العصور
الجاهلية والإسلامية ، وأغفل المجهل
والمغمورين منهم ، وأهمهم ولم يشر إليهم وعمل
ذلك بعدم قدرته على استقصائهم ، والإحاطة
بهم ، ومن ثم اجتزأ بالمشهورين وقصر حديثه
عليهم ، يقول ابن شرف : « وجاريت أبا الريان
في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم
وإسلامهم ، واستكشفتهم عن مذهبه فيهم
ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم فقال :
الشعراء أكثر من الإحصاء ، وأشعارهم أبعد
من شقة الاستقصاء فقلت : لا أنتكز بأكثر
من المشهورين ، ولا أذكر رأيك إلا في المذكورين
مثل الضليل والقتيل ... » (١٤٣) « ومضى
يسرد أسماء المشهورين من الجاهليين
والمخضرمين والإسلاميين والمولدين ، كما سرد
أسماء طائفة من مشاهير شعراء الاندلس
والغرب مثل : أحمد بن عبد ربه ، وابن هانيء
وابن دراج القسطللى وعلى بن العباس الأبادى
التونسى ، حتى انتهى من سرد أسماء
المشهورين وتسميتهم طالبا من أبي الريان أن
يبين رأيه فيهم واحدا واحدا ، فجابه أبو الريان
بقوله : « لقد سميت مشاهير وأبقيت الكثير .
قلت : بلى ولكن ما عندك فيمن سميت لك قال :

ومقامات بديع الزمان تبلغ أربعائة مقامة
عارض بها أحاديث ابن دريد على ما ذكره
الحصرى في زهر الآداب حيث يقول : « ولما
رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى
أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنطها من
ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره
وأبداها للإبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار
والضمائر في معارض أعجمية والألفاظ حوشية
فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ من قبوله الطباع ، ولا
ترفع له حجبها الأسماع ، وتوسع فيها إذ
صرف الألفاظ ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب
متصرفة فعارضها بأربعائة مقامة في الكدرة
تلوب ظرفا ، وقطر حسنا ، لا مناسبة بين
القائمتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها
ووقف مناقلتها بين رجلين سعى أحدهما ميسرى
بن هشام ، والآخر أبا الفتح الإسكندرى
وجعلهما يتهاديان الدرد ، ويتنافسان السحر في
معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ،
يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل
لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحنكاية ، وخص
أحدهما بالرواية » (١٤١)

بيد أن التداول منها الآن بين أيدينا إحدى
وخمسون مقامة فقط ، ويفتب على الظن
أنه لم يصل إلى أفريقية في عصر ابن شرف
سوى عشرين منها ، ويقول برو كلان : « بديع
الزمان يتفخر في إحدى رسائله بأنه صنف
أربعائة مقامة ، وطبعي أنه لا ينبغي فهم
العدد هنا على معناه الحرفى ، فهذا محمد
بن شرف القيروانى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ لم
يكد يعرف في كتابه « أعلام الكلام » سوى
عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغي أن يكون
عدد المقامات التي ألّفت وبقيت لنا وهو إحدى

(١٤١) زهر الآداب : ١ : ٣٦١

(١٤٢) تاريخ الأدب العربى : ٢ : ١١٣ - ١١٤ وهو يقصد المأثلة التكريرية فلان عدد مقامات الحريرى خمسون مقامة ،
ولقد أشار الحريرى لنفسه في مقدمته إلى ذلك حيث يقول : « وأنشأت على ما أتانيه من الربيعة جامعة ولطنة خادمة ...
خمسین مقامة » مقدمة المقامات ص ٥

(١٤٣) رسالة أعلام الكلام : ١٤

شعراء بنى أمية ، لم ذكر جملة من الشعراء الولدين ، ومضى يحدثنا عن تلامه ، وأتى بعدهم ، ثم ختم حديثه بالعرض لطائفة من شعراء المغرب والاندلس مثل : ابن عبد ربه وابن هانيء وابن دراج وأبى على الأبادى حيث يقول : « هذا ما عندى في شعراء المشرق ، وقد سميت لى من متأخري شعراء المغرب من لمصرى لا يبعد عن معاصره ، ولا يقصر عن سابقة وأما ابن عبد ربه الأندلسي وإن بعثت عنا ديواره فقد صاحبنا أشعاره .. (١٤٦) .

ومن الأمثلة التي أوردناها نجد أن أبا الريان كان يقف عند كل شاعر ليقتد ما عنده ، وما يعرفه ، ويقرر وضعه وما عرف به ولعين به ، ويبرز صفاته وخصائصه ومميزاته ، وما تفرده به عما عداه .

وبعد أن أعجب بإحاديثه عن الشعراء المشهورين من الجاهليين إلى الولدين ، ومن المشاركة إلى المغاربة والتي أوردنا أطرافاً منها ، أخذ يسأله عن النقد ، ويبدى رغبته الشديدة في أن يقف على رأيه فيه ، وأن يقتبس من عمله الصائب ، وأن ينال نصيباً منه ، فيجيبه بأن النقد موهبة تولد مع الإنسان فمن وهبه ومنحه وحظي بنصيب منه كان قادراً على البز بين جيد الشعر وردئته واستحسان الحسن منه ، واستقياح القبيح منه ، أما من لم يرزق هذه الموهبة ولم يحظ بها فهو غير قادر على التمييز بين جيد الشعر وردئته والفرقة بينهما ، ويؤيد رأيه وماذهب إليه من أن النقد موهبة ومنحة يحظى بها أناس دون آخرين أنه رأى كثيراً من علماء الشعر ورواته ممن له يؤتوا هذه الموهبة لانفاذ لهم في نقد الشعر ، ولا فطنة عندهم ولا بصيرة في التمييز بين جيد وردئته ، بينما رأى كثيراً ممن لا علم لهم بالشعر ممن منحوا هذه الموهبة لهم نفاذ وبصرة وإدراك

أما الضليل مؤسس الأساس ، وبنياته عليه الناس ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس « أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة ، وأشباه هذا ، وجياد وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بميدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق الفزال ، يسبق الظليم أو الظلام وأمثال هذا حتى قال : بمنجود قيد الأوابد هيكل « ومثل هذا له كثير (١٤٤) »

ويحدثنا عن الحارث بن حنبله الشكري بقوله : « وأما ابن حنبله الشكري فسهل الحزون ، قام خطيباً بالوزون ، والعادة أن يسهل شرح الشعر بالنثر ، وهذا أسهل السهل بالوعر ، وذلك مثل قوله :

أبرموا أمرهم بليل فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوواء

من منقاد ومن مجيب ومن
تصهل خيل خلال ذلك رغاء

فلو اجتمع كل خطيب سائر من أول وآخر يصفون سفرنا نهضوا بالاسحار ، وهسكرا تنادى بالنهوض إلى طلب الثار لما زادوا على هذا أن لم ينقصوا منه ، ويقصروا عنه ، وسائر قصيدته على هذا المسلك شكابة وطلاب نصفه وعتاب في عزة وثافة ، وهو من شعراء وأئبل واحد السنة هاتيك القبائل ... (١٤٥) » وهكذا مضى أبو الريان على هذا الأسلوب ، وأخذ يصف طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم عرض للمخضمين ممن أدرکوا الجاهلية والإسلام كالنابغة الجعدي ، ثم مضى إلى الشعراء الإسلاميين وأتبعهم بالحديث عن

شرف : « قلت : أنا شديد الرغبة أن أفضلك في أن تسهمني من ميزك وعقلك ما استهدي بسراره على مستقيم منهاجه ، فاقف من سرائره على بعض ما وقفت ، وأعرف من مفاهيمه ومعانيه جزءا مما عرفت ، قال : نعم أول ما عليه تعتمد ، وإياه تعتقد ألا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستيراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، وأعلم أن المجلة في كل شيء مركب لائق وموطيء زهوق ، وأن من الشعر ما يملأ لفظه السامع ، ويرد على السامع قماقع ، فلا تترك شماغه مينا ، وانظر إلى ما في سكنائه من معناه ، فإن كان في البيت ساكن تلك المحاسن ، وإن كان خاليا فاعدهد جسميا باليا ، وكذلك إذا سمعت اللفاظ مستعملة وكلمات مبتدلة ، فلا تمجّل باستضعافها حتى ترى ما في أضعافها ، فكم من معنى عجيب في لفظ غير غريب » . (١٤٨)

ثم يعرض ابن شرف لقضية اللفظ والمعنى ، ويبدو أنه كان يقف من هذه القضية موقفا وسطا ، فهو يرى أن اللفاظ قوالب وأجسام للمعاني هي الأرواح فهو إذن لا يفضل اللفظ على المعنى ولا المعنى على اللفظ بل يجمع هذين الركنين في وحدة كاملة لا تتجزأ ولا تنقسم ، ومن ثم فهو ينادي بضرورة الموازنة بين اللفظ والمعنى والعناية بكل منهما ، فإن حسنا بلغ الشعر الغاية المنشودة ، وإن قبح أحدهما انحط الشعر عن مكانته المرجوة ، ونزل عن مستواه المطلوب ، إلا أنه كان يفضل المعنى على اللفظ ، ولعل ذلك راجع إلى شيوع هذا المذهب وسيادته في المغرب وميل الغاربة إلى اعتناقه والاختلاف به ، يقول ابن شرف : « والمعاني هي الأرواح ، والالفاظ هي الاشباح ، فإن حسنا فذلك الحظ المدحود ، وإن قبح أحدهما فلا يكن الروح » (١٤٩) ويؤكد ابن

لغماض الشعر ، وقدرة فائقة على الجز بين جيده وردئه يقول ابن شرف : « قلت لأبي الريان في مجلس عقب هذا المجلس : يا أبا الريان لقد رأيت لك نقدا مصيبا ومرمى عجيبا ، ولقد أربغ في أن أنال منه نصيبا ، فقال : أنتقد هبة في المولد ، وفيه زيادة طارف إلى تاله ولقد رأيت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده ، ولا جودة فهم في رديه وجيده وكثير ممن لا علم له يظن إلى غوامضه وإلى مستقيمه ومتناقضة » . (١٤٧) باستحسان ولا استقباح ، ولا نبادر إلى استملاح ولا استيراد إلا بعد انعام نظر وطول روية وأناة ، فالاستحسان والاستهجان تابعان للرؤية وطول النظر وحسن المران والدربة ، فيجب أن نتم النظر ونستخدم الفكر في نقد الشعر ، والا ما كنا قادرين على النفاذ إلى كنهه وحقيقته وجوهره لمعرفة محاسنه ومساوئه وإدراك غوامضه ومتناقضه ، والوقوف على مستقيمه وأعوجه من جميع الوجوه ، فالخطأ موكل بالعبلة ، ومع المستعجل الزلل ، ثم يعمل ما ذهب إليه من ضرورة التزام الأناة والرؤية وحسن المران والدربة في الشعر ، وإن الاستحسان والاستهجان تابعان للرؤية وطول النظر وحسن المران والدربة وإن الشعر منه ما يملأ لفظه السامع فتخطئ فيه ، ونتوهم في معناه ، ونلظ في حقيقته ، ولا نلتفت إلى كنهه ومفهومه ، فنحكم باستحسانه لما فيه من فحمة وجلبة والفاظ تملأ السامع دون نظر إلى معناه ، وهو غير جدير بالاستحسان ، كما أنه لا ينبغي أن نتمجّل باستهجان الشعر واستقباحه إذا اشتمل على اللفاظ مألوفة معتادة وكلمات مبتدلة مطروقة كثر استعمالها ودورانها على الألسنة ، حتى نتم النظر في معناه ، فكم من معنى طريف غريب في لفظ مبتذل مألوف ، فالمعنى إذن هو الغاية المنشودة ، يقول ابن

٢٧ (١٤٧) رسالة اعلام الكلام :

٢٧ (١٤٨) رسالة اعلام الكلام :

٢٨ (١٤٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٧ - ٢٨

لمجرد قدمه ، وسبق الزمن يصاحبه ، ولعلمهم كانوا مدفوعين فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم الشعر القديم وإثارة واستحسانه الى انه كان موضع الاستشاد والاحتجاج به للغة ، فالشعر القديم حتى الرديء منه صالح الاحتجاج والاستشهاد به في اثبات اللغة وقواعدها وضوابطها وتفسير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، اما الشعر المحدث فغير صالح لشيء من ذلك ، فالاحتجاج به ساقط ولا يجوز الاستشهاد به ، وانما يؤتى به على سبيل التمثيل والاستئناس ، يقول ابن شرف منها الى خطأ هذه القضية ، وحاملا على اتجاه الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه ، ومغندا مقاييسهم ، ومحلرا من الرقوع فيها : « وتحفظ من شيئين : أحدهما : ان يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : ان يحملك اصفارك المعاصر المشهور على التهاون بما اتشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما او عليهما ، فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العلامة وبعض الخاصة عنه اتعاب » (١٥١)

فهو يبين في هذا النص الى خطأ هذه القضية قضية تفضيل القديم لمجرد قدمه وينظر الى الشعر بعين النصفة ، ويدعو الى التزام الحيطة في الحكم عليه ، وتقويمه من حيث هو اثر فني دون نظر الى قالة وزمنه ، ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تثبيت القلوب بسيرة القديم ، ونفاره عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى : « لن نمبد الا ما وجدنا عليه آباءنا » . . . فلا يرك ان تجري على منهاج الحق في جميع الخلق ، به قامت

شرف في هذه القضية قضية اللفظ والمعنى يتفق مع ابن رشيق الذي يتفق منها ايضا موقفا وسطا لا يفضل احدهما على الآخر ، ولا يفصل بينهما ، بل يشبههما أيضا بالروح والجسد الا ان ابن رشيق بسط القول في هذه القضية ، وفصله في كتابه العمدة : « اللفظ جسم ، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يصفى بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يمرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما اشبه ذلك من غير ان تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك اوفر خطا كالذي يمرض للاجسام من المرض بمرض بعض الارواح ، ولا نجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من الزان ادواء الجيوم والارواح ، فان اختل المعنى كله ولقد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاقة في السمع كما ان الميت لم ينقص من شخصه في رأي العين الا انه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصبح له معنى لانا لا نجد روحا في غير الجسم البتة » (١٥٠) فابن رشيق في هذا النص يشير الى الارتباط الوثيق والتلاحم التام بين اللفظ والمعنى ، وتلازمهما وتلاحمهما ، فاللفظ جسم روحه المعنى ، ومن هنا كان ما يوصف به أحدهما بمد وصفا للآخر ، وما يمتري أحدهما من ضعف او يطرأ عليه من اختلال ينعكس على الآخر .

ثم يتحدث ابن شرف عن طبقات الشعراء القدامى والحديثين ، ويحمل حملة عنيفة على مقاييس علماء اللغة والرواة فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم القديم واستحسانه لا لشيء الا

السموات والأرض ، وبه أحكم الإبرام
والنقض . (١٥٢)

ثم طفق ينعى على بعض الشعراء القدامى
كثيراً من الهنات ، وأخذ يعدد عليهم طائفة من
السقطات ، وما وقعوا فيه من أخطاء وأغلاط
وتعقيب مشهرا بهم ، ومجرحا إياهم بادئا
بنقد امرئ القيس أقدم الشعراء عصرًا ،
ومقدمهم شعرا وذكرًا وتعداد سقطاته وأخطائه
وسرد عيوبه وهناته ، وما أخذ عليه مع اتساع
الاقوال في فضله اتساعا لم يحظ به غيره ،
حتى ان عامة الأدباء والنقاد يظنون بل يوقنون
ان جواد شعره لا يكيو ، وان حسام نظمته
لا ينبو ، وهيهات من البشر الكمال ، ومن
الآدميين الاستواء والامتنال ، ثم أخذ ينقده
ويعدد عليه سقطاته وأخطائه في مملته أعظم
ما اثر لنا منه من شعر حيث يحدثنا عن هذه
العيوب وتلك الهنات في هذه المعلقة بقوله :
« يقول في قصيدته المقدمة ومعلته المخمسة :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

فقال لك الويلات انك مرجلي

كما كان اغناه من الاقرار بهذا ، وما
اشد فغلتهما ادركه من الوصمة به (١٥٣)
وعدد ما ترتب على فعلته هذه من العيوب
والهنات والسقطات والمآخذ ، فيقول : « وذلك
ان فيه اعدادا كثيرة من النقص والبخس منها :
دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها
قول عنيزة له : « لك الويلات » ومن قوله
لا تقال الا للخييس ، ولا يقابل بها رئيس . »
وهكذا يضي يسرد عيوبه وسقطاته وهناته
الى قوله :

فمثلك جبلي قد طرقت ومرضع

فالهيتهما من ذي ثمام محمول

فينقده بقوله : « وانما المعروف للعاشق
الانفراد بمشوقه ، واطراح سواه كالقيسين
في ليلى وليلى ، وغيلان بمية وجميل وبثينة
وسواهم كثير ، فلم يكن لها عاشقا بل
فاسقا » (١٥٤)

وبعضي في نقده على هذا النحو ، ثم يجره
ذلك او يسوقه الى ذكر أبيات ثلاثة من قصيدة
له اخرى غير المعلقة وهي :

سموت اليها بعد ما نام اهلهما

سمو حباب الماء حالا على حال

فقال : لحاك الله انك فاضحي

الست ترى السمار والناس احوالى

حلفت لها بالله حلفة فاجر

لناموا فما ان من حديث ولا مال

ونقد هذه الأبيات ، وعدد ما فيها من عيوب
وهنات وسقطات بقوله : « فأخبرها هنا
انه حين القدر عند النساء وعند نفسه وبرضاه
قولها : « لحاك الله » فحصل على « لك الويلات
من تلك ، وهلي « لحاك الله » من هذه ، فتشهد
على نفسه انه مكروه مطرود غير مرغوب في
مواصلته ، ولا محروص على مماشرتة ، ولا
مرضى بمشاكلته ، ثم اخبر عن نفسه انه يرضى
بالحنث والفجور ، وهذه اخلاق لا خلاف
لها » (١٥٥)

ثم يأخذ على امرئ القيس انه اقر واعترف
بما يكتمه الاحرار حيث يقول : (ثم اقر في
مكان آخر من شعره بما يكتمه الاحرار ، ولا
ينم بقبحه الا الاوضاع الاشرار ، فقال :

ولسا دنوت تسدبتها

فثوب نسيت وثوب اجر

(١٥٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

(١٥٣) رسالة اعلام الكلام : ٢٨ - ٢٩

(١٥٤) رسالة اعلام الكلام : ٢٩

(١٥٥) رسالة اعلام الكلام : ٣٠

مؤسس الأساس ، وبنائه عليه الناس ، فإذا كان قد سما أسلوبه ، وعلا في أمور عديدة ومواضع كثيرة فقد انحط وتسفل في سلوكه ونهجه في أخرى ، فيقول : « ولستأ نذكر هذه العيوب ونوارتها وما أقرنا له به من الفضائل وندارتها » (١٥٨)

ثم يعرض لحال المتمصين للقديم الجسرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ويرى أنهم غفل سذج ، وأنه من الأولى بهم ألا يتعرض لهم ، وأن يتركهم وشأنهم يتخططون في عمايتهم وضلاتهم وجهلهم فيقول : « وستجد ناصرا لا يصدق معاصرا ولا يفضل على متقدم عصر متأخرا يبنى على ضعفه اسمه ، ويفديه من الجهل والعيوب بنفسه فإذا اهتمرك من هذا النمط ممترض فاعرض عنه ، ودمه على أخلاقه » وإبع المنهج الذي أوضحته لك (١٥٩) ثم يذكر أن فضلاء الشعراء كثيرون جدا إلا أنه قلما يسلم واحد منهم من هنات وعيوب وسقطات وأخطاء ، فلكل منهم سقطاته وعيوبه ، ثم يرى أن يجتزئ بالعرض لبعض هذه العيوب ، إذ ليس في وسعه أن يحيط بها وأن يأتي عليها مستهدفا من وراء ذلك إيضاح منهج من مناهج النقد ، والتدريب عليه لا حرصا على انتقاص الفصحاء ، ولا رغبة في ضيق حقوقهم والتيل منهم ، وليس الغرض التنديد بالأبداء دون عرض المحاسن والفضائل وبيان نواحي النقص فينهجه مبنى على القصد والاعتدال يقول : « وفضلاء الشعراء كثير جدا ، ولكل سقطات ، وسافقك على بعضها لعظيم المؤونة في الإحاطة بها ليس إلا لأوضح لك بذكرها منهجا من مناهج النقد ، لا حرصا على نقص الفصحاء ، ولا قصدا إلى تهجين الصرخاء ، وأية رغبة لنا في ذلك وهم جرئومة

وأي فجر في الاقتراف بالفضيحة على نفسه وعلى حبه ، وأين هذا من قول يعقوب الخريمي :

ولا اسأل الولدان عن وجه جارتي

بعيدا ولا أرماء وهو قريب (١٥٦)

ثم يعلل ابن شرف اعتراف امرئ القيس بهذه المندبات واقترافه بما كان يأنه من فحش وفجور بأنه كان مبغضا للنساء مفروكا من حلاله وأزواجه لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فحرمه ، ومنع منه فعلا ادعاه كدبا وزورا . شأنه شأن غيره من الشعراء ممن كانوا مبغضين للنساء كالفرزدق مثلا فيقول : « وإنما سهل عليه كل هذا حرصه على ما كان ممنوعا منه ، وذلك أنه كان مبغضا للنساء جدا ، ومفروكا ممن ملك عصمتها لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا ، وله أشباه فيما آتاه يدعون ما ادعاه افكا وزورا وكذبا وفجورا ، ومنهم الفرزدق » (١٥٧)

وهكذا يعنى ابن شرف في نقده لامرئ القيس ذلك الشاعر الذي ساد الاعتقاد فيه عند العامة وبعض الخاصة أنه لا ينتقد ، وكان نقده في موضعه فنحن عليه عيوبه ، وما آتاه من فحش وفجور وتهجير ، وعدد عليه هناته وسقطاته .

ثم ختم حديثه عن امرئ القيس بأن قرر أن هذه العيوب والمآخذ وتلك السقطات والهينات والاستدراكات نزرة قليلة بالنظر لما أقر له به من الفضائل الأدبية التي تفرد بها ، وسبق إليها ، وبالقياص إلى محاسن ومزاياه التي خصها بحديث سابق ، ونوه بها ، وأنه

٢٠ رسالة اعلام الكلام : ٢٠

٢١ رسالة اعلام الكلام : ٢١

٢٢ رسالة اعلام الكلام : ٢٢

٢٣ رسالة اعلام الكلام : ٢٣

فروعنا ، وبهم افتخارنا جميعنا» (١٦٠) ومثل ذلك زهير بن أبي سلمى ، وحمل عليه ، وأورد جملة من سقطاته وطائفة من هفواته وعيوبه في معلقته مع اهترافه برفعة مكانته في الشعر وسمو منزلته فيه ، فيقول : « قال زهير على ما وصفناه به ، ووصفه غيرنا من الملو والرفة في هذه الصنعة من مذهبته الحكيمة ومعلقته العلمية :

رايت المنايا خبط عشواء من تصب
تعبه ومن تخطى يعمر فيهرم

وقد غلط في وصفها بخبط العشواء على أننا لا نطالبه بحكم ديننا ، لأنه لم يكن على شعرنا ، بل نطلبه بحكم العقل فنقول : « إنما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو ، وقد علم هو ، وعلم العالم حتى البهائم أن سهام المنايا لا تخطى شيئا من الحيوان حتى يعمها رشقا ، فكيف يوصف يخبط العشواء ... (١٦١) فهو لا يعيب على زهير هذا البيت ، ولا يأخذ عليه ما فيه من مخالفة لعقيدتنا وخروج على ديانتنا ، لما كان عليه من جاهلية ، فهو غير مطالب بحكم ديننا وشريعتنا ، لأنه لم يكن على شريعتنا ولم يكن يدين بديننا فلا تثريب عليه من هذه الناحية ، وإنما عاب عليه أنه عارض العقل وخالف المنطق فيما رآه ، وذهب إليه من أن المنايا خبط عشواء ، فراه في هذه القضية فآل ومذهبه باطل ، ثم عاب عليه بيتا آخر ورد في معلقته هو :

ومن لم يلد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم لناس يظلم

بأنه أسرف وتجاوز حدود الحق والعدل ، وقد كانت له مندوحة عن ذلك فيقول في تعليقه على هذا البيت : « وقد تجاوز في هذا الحق الباطل وبني قولا ينقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم وعرة مراكبه ، مذمومة عواقبه في جاهليته وإسلامنا ، فعرض في شعره عليه » (١٦٢)

وهكذا مضى ابن شرف في نقد زهير ، وعاب عليه أباينا أخرى في قصائد أخرى له غير المعلقة ، وبعد أن عرض لطائفة من هفواته ، وعيوبه ختم حديثه عنه بأن له سقطات وهنات أخرى غير ما سردها وعددها ، وأنه لولا المشقة والكلفة لآتى عليها وعرض لها مع ما عرف عنه واشتهر به من أنه أمدح الشعراء وأجزلهم ، ثم ذكر أن التعصب له من الأمور المستقبة التي لا تحسن بالنقاد النصف ، إذ أن النقد الموجه له لا يمحط حقه ، ولا ينال منه ، ثم ذكر أن ماجا في شعره من هنات وسقطات لا يخل بما عرف عنه من حكمه الأخرى الرائعة وحسن أسلوبه ورقته وما أثر لنا عنه من أقوال مستحسنة وهبائات مليحة وإن المستحسن لا ينكر ، والقبيح لا يهمل فيقول : « ولزهير غير هذا من السقطات لولا كلفة الاستقصاء هذا على اشتهاه بأنه أمدح الشعراء ، وأجل الوافدين على الإشراف والأمراء ، ويتمنى التعصب له من وضوح هذا البيان ، وسينكر جميع هذا البرهان ، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاء وظلما ومطالبة وهضا ، ويزعم أن جميع الشعر لو طلب هذه المطالبة لبطل صحيحه ، وانعمج فصيحه ، والباطل الذي زعم ، والمحال الذي به تكلم ، فالسليم سليم والكليم كليم ، وإنما سمع المسكين أن أمدح الشعر ما قلت عبارته ، وفهنت أثارته

(١٦٠) رسالة اعلام الکلام : ٣٣

(١٦١) رسالة اعلام الکلام : ٣٣ - ٣٤

(١٦٢) رسالة اعلام الکلام : ٣٤

ويظهر من حديثه عن قدامى الشعراء وأشعارهم ، وعن الشعراء المحدثين ونتاجهم ، وما جادت به قرائحهم ، وموازناته بين الفريقين القدامى والمحدثين أن ضلعه كان مع المحدثين وميله إليهم وهواه معهم وتمصبه لهم ، كما يبدو لنا ذلك في ثنايا الرسالة .

ثم أخذ في سرد عيوب الشعر وتعدادها مبتدئاً باللحن أظهر عيوب الشعر ، إذ تضيق عنه اللغة العربية ولا تتسع له ، وحذر من ارتكابه والوقوع فيه ، وأن تحيل له بعض التحويين بشتى العيول ، واعتلر له بمختلف الأعداد فيقول : « ومن عيوب الشعر اللحن الذي لا تسمه نسخة العربية كقول جرير : »

ولو ولدت لعنزة جرو كلب

لسب بذلك الجبرو الكلابا

فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض التحويين بكلام كالضريح لا يسمن ولا ينفى من جوع ، وكقول الفرزدق :

ومض زمان يا ابن مروان لم يدع

من المال إلا مسحاً أو مجلف

فرقع مجلفاً وحقه النصب - وقد تحيل بعض التحويين أيضاً للفرزدق على وجه الإقواء أحسن منه ، فأحذر مثله ، وإياك وما يعتلر منه بفسيح من العذر فكيف يضيق « ١٦٦١ »

ثم عد من عيوب الشعر أيضاً خشونة حروف الكلمة كلفظة « بوزع » التي وردت في بيت من قصيدة لجرير كعد من عيون شعره وأحسن قصائده وأجزأها وأفصحها فنقلت

ولحت لحيه ، وملحت ملح ، وورقت حقائقه ، وحقت رقائقه ، واستغنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وأمثال هذا الكلام في استعمال لطائف النظام ، فتوهم أن خلل الشعر زلله وضعف أركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لقوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما قدمنا من الأوصاف المستحسنة ومن لمح أشاراته وملح عباراته « (١٦٣) »

ثم يقرر بعد ذلك أن فيما ذكره وأورده من شعر هذين الشاعرين الفحطين المتقدمين القديمين ما ينفى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، ويجزيء عن تسقط عثرات فقرهما ومن عداهما والبحث عنها فليقتس عليها ما لم يقله ، فقد أوضح أسراراً عظيماً يتصل بسلوك الشاعر ومنهجه ونفسه وأنه تناول شعره ونقده من ناحية اتصاله بالجمهور وتعلقه به ، فيقول : « وفيما أطلعك عليه من شعري هذين الفحطين والتقدمين القديمين ما ينفى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، فقس على ما لم تره بما جرى ، وأعلم أن كل الصيد في جوف الغراء ... » « (١٦٤) »

ونراه يتمصص للمتنبي ، وينتصر له ، فيقول : « وأما أبو الطيب المتنبي فقد شغلت به الألسن وسهرت في أشعاره الأمين ، وكثر الناسخ لشعره والأخذ للذكره ، والغائص في بحرهِ ، والغفئ من جماله ودره ، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف ، وله شيمة تغلو في مدحه ، وعليه خوارج تتفايا في جرحه ، والذي أقول : أن له حسنات وسبيات ، وحسناته أكثر مدداً ، وأقوى مدداً ، وفروا إليه طائراً وأمثاله سائراً ، وعمله نسيح ، وميزه صحيح ، فيقدر ويدير ما يورد ويصدر (١٦٥) »

(١٦٣) رسالة أعلام الكلام : ٣٦ - ٣٧

(١٦٤) رسالة أعلام الكلام : ٣٧

(١٦٥) رسالة أعلام الكلام : ٢٥

(١٦٦) رسالة أعلام الكلام : ٣٧ - ٣٨

هذا العيب حينئذ شعرا ، وليس هذا العيب مما يقع أن وصف بالشعر وعد شاعرا من الشعراء وسلك في عدادهم ، أما سائر عيوب الشعر المتصلة بالوزن أو القافية أو الضرورات الشعرية كالاقواء والإبطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف ، فكل هذه العيوب محتملة ويمكن للشاعر ارتكابها ، والوقوع فيها واستعمالها ولا يخرج الشعر معها عن كونه شعرا إلا أن السلامة من هذه العيوب وتجنبها وعدم الوقوع فيها وارتكابها أفضل وأجمل ، فيقول : «ومن عيوب الشعر كلها الكسر ، لأنه يخرج من نعت شعرا ، وليس مما يقع أن نعت شاعرا ، فاما الاقواء والإبطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف فكل ذلك يستعمل إلا أن السالم من جميع ذلك أفضل وأجمل » (١٦٩) ثم عد من عيوب الشعر اللدومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها مثل مجاورة كلمة «الذل» لكلمة «الشنب» واقترباها بها في قول الكميت:

حور تكامل فيها الدل والشنب

وكقول بعض المتأخرين في مرثية له :

فإنك غيب في حفرة

تراكم فيها نعيم وحور

وإن كان النعيم والحور من مواهب أهل الجنة فليس بينهما في النفوس تقارب ولا لفظا تراكم مما تجمع بين الحور والنعيم ، وكقول بعض المتأخرين :

والله أولا أن يقال تفسيراً

وصبا وإن كان التصابي أجدرأ

لأعاد تفاح الخدود بنفسجا

لثما وكافور الترائب عنبرا

القصيدة ، واستبدت بهذه اللفظة التي لا تكاد تجد لها نظيراً في شعر جرير كله وذكر أن الفرزدق قد كثرت في شعره الفاظ كثيرة خشنة يقول ابن شرف : « وما يعاب به الشعر ، ويستعجنه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا
ههلا هزات بفسرنا يا بوزع

وهذا البيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير وأملحها وأجزلها وأفسحها ، فتمثلت القصيدة كلها بهذه اللفظة ، وللفرزدق لفظات كثيرة خشنة الحروف تجدها أن استقصيتها ونشتتها على لفظ جرير هذه ، ولا تكاد ترى اختارها في شعره » (١٦٧)

ثم عد من عيوب الشعر أيضا التعقيد اللفظي وتقدير آخر الكلام وتأخير أوله ، وذكر أنه مما يكرهه النقاد ، ولا يستسيغونه ، وإننا لا تكاد نرى هذا العيب في شعر جرير ويمثل له بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا

إبو أمه حي أبوه يقاربه

ويعلق عليه بقوله : « وهذا غاية التعقيد والتعقيد ، وليس تحته سوى أنه شريف كابن أخته ، ولا تكاد ترى في شعر جرير شيئا من هذا » (١٦٨)

ثم ذكر أن من عيوب الشعر أيضا الكسر وهو وصف شامل لكل عيوب الشعر ، وعده من أشد عيوب الشعر ، وأنه لا يمكن ارتكابه والوقوع فيه ، إذ أنه إذا وقع في الشعر أخرجه عن اسمه فلا يسمى الشعر الذي وقع فيه

ومثل قول ديك الجن :

كانه وكأنها حلال الخلة

وقف الحلول اذ بفمنا

وجه العيب في افتتاحي ابي تمام وديك الجن
انهما ابتدآ قصيدتهما بضمائر لم يسبقها اسم
ظاهر تمود عليه .

كما هاب أيضا الافتتاحات التي يتطير بها :
ويتشامم منها ، والكلام المضاد للفرض المطلوب
ويضرب مثلا لذلك بابتداء قصيدة ابي نواس
التي انشدها جعفر بن يحيى البرمكي بهنسه
بينائه دارا جديدة ، فدخل عليه عند كمالها
وقد جلس للهناء والدعاء ، وعنده وجه الناس
فابتداء فانشد قصيدة مطلعها :

اربع البلى ان الخشوع لبادي

هلك واني لم اخشك ودادي

فتكسر جعفر راسه ، وتناظر الناس بعضهم
الى بعض ثم تلمدأ ، فختم الشعر بقوله :

سلام على الدنيا اذا ما قدمت

بني برمك من راحلين وغادي

تكمل جهله ، وتم خطاه ، وزاد القلوب المتوقعة
للخطوب سرعة توقع ، وأصاف للنفس
المتوجمة بذكر الموت شدة توجع ، وأراد أن
يمدح نهجا ، ودخل أن يسر فشجى « (١٧٢)

ثم يضرب مثلا آخر لهذا العيب بما وقع
للمتنبى في أول شعر انشده كافورا الأخشيدي
وهو :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيها

فاجاد الوصف واحسن الرصف لكون الورد
من قبيل البنفسج ، وهكذا نجد ابن شرف
قد بسط القول ، وأفاض في الحديث عن
العيب الذي سماه « مجاورة الكلمة ما لا
يناسبها » (١٧٠) وعد هذا العيب من عيوب
الشعر المدحومة .

ثم ذكر أن لفضلاء الشعراء المولدين سقطات

وهنات مختلفات في اشعارهم ، وومد بأنه

سيدكر اطرافا منها لا رغبة في طلب الزلات
ولمسها ولا شهوة في اقتفاء العثرات
واستقصائها وتتبعها ، وانما نستدل بها على
اغراضنا ونقف منها على منهجنا ، ويضرب
مثلا لذلك بشار فقد كانت طبقات شعره
تفاوت وتباين ، فيسمو ويرتفع كثيرا ،
وينحط ويسفل قليلا ، وكذلك شعر ابي
تمام حتى بلغ من تفاوت طبقات شعر هذين
الشاعرين وتباينهما الى هذا الحد أنك لو
سمعت جيدها لانكرت أن رديئها لهما ،
ولو صغ عندك وثبت أن هذا الرديء لهما
لانكرت جيدهما ، ونفيته عنهما ، واقسمت
أنه ليس لهما ، وانما هو لغيرهما فيقول :
« ولفضلاء المولدين سقطات مختلفات في
اشعارهم ، اذا ذكرك منها في اشياء لتستدل بها
على اغراضك ، ولا لطلب الزلات ولا اقتفاء
العثرات ، كان بشار تباين طبقات شعره
فيصعد كثيرا ، ويهبط قليلا كثيرا ، وكذلك
كان جيب الطائي فاذا سمعت جيدها كلبت
أن رديئها لهما ، واذا صغ عندك أن ذلك الرديء
لهما اقسمت أن جيدها لغيرهما » (١٧١)

ثم عد من عيوب الشعر الافتتاحات الثقيلة
والابتداءات المستبعدة الموحجة وضرب لهذا
العيب امثلة كثيرة مثل قول ابي تمام :

هن عوادي يوسف وصواحيه

(١٧٠) تحدث ابن شرف عن هذا العيب في ص ٢٨ ، ص ٢٩ من رسالة اعلام الكلام .

(١٧١) رسالة اعلام الكلام : ٢٩

(١٧٢) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

ثم يذكر أن مما يقبح في النسب الجفاء على الحبيب والقسوة عليه والتضجر بعده ، وإفلاظ العقاب على هجره وصدوده ، ويضرب مثلاً لذلك بقول أبي نواس في أول قصيدته المشهورة التي مدح بها الخصيب بن عبد الحميد عامل مصر :

أجارة بيتينا أبوك فيور

وميسور مايرجى لديك هسيم

فان كنت لا خلا ولا أنت زوجة

فلا برحت منا عليك سستور

وجاورت قوما لا تزاور بينهم

ولا قرب الا ان يكون نشور

يقول ابن شرف : « فلم اسمع بأوحش من هذا النسب ، ولا بأخشن من هذا التشبيب وذلك قوله ان لم تكوني لى زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور التراب عليك ، ولا كان جاركما عشنا نحن الا الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون الى يوم النشور مع ان كلامه يشهد عليه بأنه شاك ، وانما المعروف في أهل الرقة والظرف ، والمهود من أهل الوفاء والعطف ان يفدوا احبابهم بالنفوس من كل مكروه ويوس ، فاین ذهبت ولادته البصرية وآدابه البغدادية حتى اختار القدر على الوفاء وبلغت به طباعه الى اجفى الجفاء » (١٧٦)

ثم عرض للسرقات الشعرية ، وعدها من عيوب الشعراء ، وذكر أن أنواعها كثيرة وأقسامها متعددة ، فمنها سرقة الألفاظ ، ومنها سرقة معان ، وبين أن سرقة المعاني أكثر من سرقة الألفاظ لأنها أخفى ، وسرقة المعاني متعددة : فمنها سرقة المعنى كله ، ومنها سرقة

ووجه العيب في هذا المطلع أنه خاطب كانوا بالكاف ، وهذا أمر مستهجن ، وخاصة في أول اقراء له معه وفي ابتداء استجداء واستعطاف ... » (١٧٣)

ثم يضرب مثلاً آخر لقبح مطلع القصيدة واستفاحتها وقع لأحد الشعراء المعاصرين له ، فيذكر أن بعض الشعراء أنشد بعض الأمراء في يوم المهرجان :

لا تقل بشرى ولكن بشران

غرة الداعي ووجه المهرجان

فامر الأمير باخراج الشاعر ، واستطاريافتتاحه وحرمة احسانه ، ثم طلق على هذا المطلع المستقبح بأنه لو كان هذا الشاعر حاذقاً لكان اصلاح هذا الفساد ابسر الاشياء عليه ، وذلك بأن يعكس البيت فيقول :

وجه من أهوى ووجه المهرجان

اي بشرى هي لا بل بشران (١٧٤)

ثم يذكر ان من عيوب القافية البالغة الغاية في الاستهجان والاستقبح ان تأتي بكلمة القافية مجعمة لا تربط بما قبلها من الكلام ، وانما هي مفردة يحشو القافية كقول بعض الشعراء :

فبلغت المنى برغم أعاصيدك

وأبقاك سالماً رب هود

يقول ابن شرف : « فانت ترى غثاثة هذه القافية ، والله تعالى رب جميع الخلق وكل شيء فخص هوداً عليه السلام وحده لضعف نفسه ، وعجز عن الاتيان بقافية تليق وتحسن » (١٧٥)

(١٧٣) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

(١٧٤) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٥) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٦) رسالة اعلام الكلام : ٤١ - ٤٢

ثم ختم الرسالة بالحديث عن أحسن الشعر وأجوده ، فقال : « فامتنع المستحسن فتمثله لك يعظم ويشعر لكثرة فلا يسعنا إيرادها ، وكفى ما سلم في جميع ما أوردناه فهو في حيز السالم ، ثم تتسع طبقات الجودة فيه ، وأحسن الحسن منه ما اعتدل منبأه ، وأغرب معناه ، وزاد من محمودات الشعر على سواه ثم يمدح الأدون فالأدون بمقدار انحطاطه إلى حيز السلامة ، ثم لا مدح ولا كرامة » (١٧٨)

ثم بدأ لابن شرف أن يسأل أبا الريان السؤال الأخير بعد أن طوف معه كل هذا التطواف ، فسأله عن ملهيه في انتقاء الأشعار واستفهم من منهجه وطريقته في اختيارها ، وعزم عليه أن يخبره عما سأله عنه ، واقترح عليه أن ينشده ولا يمل من مستحسن الأشعار وأجودها ، وأن يمل عليه ولا يمل من متناقصها ومتخبرها ، ومنتخبها ، فأجاب أبو الريان إلى طلبه ، وحقق رجاءه ومبتغاه ، وهكذا نجد ابن شرف يختم رسالته بإيراد عدة أمثلة من أجود الأشعار ومنتخبها ومتخبرها في فشتي الموضوعات وفي مختلف الأفراس ، فابتدا بإيراد طائفة منها في الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى من منتخب شعر الغزل ، ثم اتبع ذلك بإيراد مختارات من المراثي مبتدئا بمرثية قتيلة بنت النضر بن الحارث في أخيها النضر بن الحارث وقد قتله الرسول صلى الله عليه وسلم صبوا ، وتعد هذه المراثية من أحسن المراثي وأفصحها وأجمعها وأقربها ، ثم عرض لمنتخبات من أشهر المراثي وبذلك تنتهي هذه الرسالة .

هذه هي رسالة أعلام الكلام لابن شرف التي تمثل آراءه النقدية ، ومن حديثنا عنها ، وهرضنا لأرائه فيها يتبين لنا أن آراءه النقدية قد عرض لها كثير من النقاد السابقين عليه والمعاصرين له كالجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق

البعض ، ثم ذكر أن أحسن السرقات السرقة باختصار في اللفظ وزيادة في المعنى ، وإن أقيع السرقات هي السرقة بزيادة الفاظ مع قصور عن المعنى ، وهناك سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص ، والفضل في مثل هذه السرقة راجع للمسروق منه ، ولا شيء للسارق ، ومثل لها بسرقة ابن نواس معنى بيت أبي الشيص بتمامه وهو :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم

فسرق أبو نواس معنى هذا البيت بكمانه فقال :

فما حازه جود ولا حل دونه

ولكن يسير الجود حيث يسير

يقول ابن شرف : « فهذا على أن بيت أبي الشيص أحلى وأطبع ، ومع حلاوته جزالة وقد ذكر من الحسن أنه قال : ما زلت أحمده أبا الشيص على هذا البيت حتى أخذه منه ، وسرقة المصاحف قصور همة » (١٧٧)

ثم ختم حديثه عن ميوب الشعر بالحديث عن الاخلال بالتناسب في المعنى والأبيات ، أو تعقيد الكلام ومثل له بقول المتنبي :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافيا »

وهذه الميوب التي عرض لها ابن شرف وأسعها علماء البلاغة والبيان بحثا ودراسة ، وأفادوا في الحديث عنها ، فالأخطاء اللغوية معيبة يؤاخذ عليها الشاعر واللحن ينتقص من قدرة الشاعر ، ويفض من شأنه ، والأخلال اللفظي في المفردات وفي التراكيب معيب على الشاعر ، ويستوجب توجيه النقد إليه .

كتابه تشبث القلوب بسيرة القديم ونفاهاها من المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « أنا وجدنا آباءنا على أمة » فلا يترك أن تجرى على منهاج الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السموات والأرض ، وبه أحكم الأبرام والنقض (١٧٩) وابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضية ، ولم يعد أن يكون مرددا لكلهم . فمعاصره ابن رشيق أدلى بدلوه في هذه القضية وتكلم فيها بأسلوب أوضح من أسلوب ابن شرف ، وعالجها على نحو أكمل وأوفى مما عالجها به صاحبنا ، فهو مثلا يستهل الباب الذي عقده في العمدة بعنوان « باب في القدماء والمحدثين بالحملة على القياس البالية التي أصطنعها الرواة والفنويون في تفصيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، ويبين أن القدم والحدالة امران نسبيان ، فيقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله (١٨٠) . . . » كما يقول في موضع آخر : « وأنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدا هذا ببناء فحكمه واتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن » (١٨١) كما نجد لابن قتيبة السابق عليهما في هذه القضية رأيا أكثر دقة ووجاهة وصوابا من رأييهما ، فقد بسط القول في هذه القضية وفصله ، وأغاض فيه حيث يقول : « ولا نظرت إلى التقدّم منهم بعين الجلالة لقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل للفرقتين ، وأعطيت كلا حظّه ، ووفرت عليه حقّه ، وأنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه ،

وإن ابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضايا النقدية التي عرض لها كما يتبين لنا من آرائه النقدية في هذه الرسالة أنه بالرغم من الجهد الذي بذله في إصدار أحكام صحيحة على الشعراء وبيان منازلهم وتقويم أدبيهم ، فإن هذا الجهد قد ضاع في خضم التصاير اللغوية المتخثرة ، وغاب في أمواج الانفاظ المتتقا ، كما نلاحظ أنه يهمل التدقيق في الإنكار التي يبني عليها أحكامه كما فعل قريهه ومنافسه ابن رشيق في كتابه « العمدة » ومن ثم جاءت أحكامه عامة خالية من التحليل والتدقيق ضائعا ما فيها من صواب محدود في خضم السجع الركيك وحواشي الانفاظ وغربها ، وغابا ما اشتملت عليه من أفكار في أسلوب القمامات التي التزمت في هذه الرسالة ذلك الأسلوب المعنى بتزيين الانفاظ ، وترويق العبارات والحاصل بالمحسنات البنيوية والصنع اللغوية ، حتى أنه لا وجه للمقارنة والموازنة بين أحكام ابن شرف وآراء ابن رشيق التي بلغت درجة الكمال إذ يوجد بون شاسع بينهما ، فابن شرف ، فضلا عن أسلوبه الذي هو دون أسلوب ابن رشيق في كتابه « العمدة » ، لم يبلغ منزلة ابن رشيق في النقد الأدبي ، ولنجتزئ بعرض آرائهما في قضية القديم والمحدث ، فابن شرف يقول : (وتحفظ من شئيين : أحدهما أن يحكمك أجلالك القديم المذكور على العجالة باستحصان ما تستمع له ، والثاني : أن يحكمك أصفارك المعاصر المشهور على التهاون بما أشدّت له ، فإن ذلك جور في الأحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما أو عليهما ، فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه اعتاب ، وقد وصف تعالى في

كما يتضح لنا كيف تناول ابن شرف في رسالته « أعلام الكلام » الشعر والشعراء ومنازله في جاهليتهم وإسلامهم ومذاهبهم قديمهم وحديثهم ، وكيف كانت الأشعار قبل امرئ القيس سواذج حتى جدد فيها ، ووضع الأساس الذي بنى عليه الناس ، وكيف أقام الصوى والأعلام التي اهتمت بها كل من جاء بعده ، فقد كانوا يقولون : « أسيلة الخد » حتى قال امرؤ القيس : « أسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون : « تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القربط » وأشباه هذا من الاستعارات والإشارات التي لم يظن لها من قبله ، وتأسى بها وبني عليها من أتى بعده ، فحسنت بها أشعارهم ، وكيف أخذ يتناول كل شاعر على حدة ، ويعرض لأخباره المشهورة وسماته ومميزاته الخاصة به ، وكيف مضى في إبداء رأيه على هذا النحو في مشاهير شعراء الشرق ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مشاهير الشعراء المغاربة والإنديسيين يعرض لهم ، ويبدى رأيه فيهم دون التقيد بمنهج نقدي شامل ودون تحليل أو تحليل ، وكيف عرض بعد ذلك لطائفة من عيوب الشعر ، وكيف اختتم رسالته بإيراد نماذج ومرص أمثلة من أجود الأشعار ومتخيرها في شتى الموضوعات ومختلف الأغراض مبتدئا بعرض أبيات من شعر الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى متخيرة من شعر الفحول ، ثم أورد منتخبات من الرائي مبتدئا بحرئية قتيلة بنت العارث في أخوها النضر بن العارث أحسن الرائي وإفصحها وأوجعها ثم عرض ذلك لمنتخبات تعجبه من أشهر الدلائل .

هذه هي طريقة ابن شرف في النقد الأدبي ، وهي كما رأينا لا تنقيد بمنهج نقدي يقوم على الاستقصاء والاستقراء والتحليل والتعليل

أو أنه رأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبالغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم » (١٨٢) كما يقول بعد ذلك : « نكل من أبي بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (١٨٣) ويردد ابن قتيبة رأيه هذا في القديم والحديث مرة أخرى في مقدمة كتاب « ميون الأخبار » حيث يقول : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخير للفظ لطيف المعنى لم يرد به عندنا تأخر قائله ، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ، فكل قديم حديث في عصره ، وكل شرف فاعله خارجية ، ومن شأن عوام الناس رفع المعلوم ووضع المجهول ورفض المبدول وحب المنوع وتعظيم المتقدم وغبان زلته وبضخ المتأخر والتجنى عليه ، والعاقل من ينظر بعين العدل لا يعين الرضا ، ويرى الأمور بالقسطاس المستقيم » (١٨٤) ومن أقوال ابن قتيبة التي عرضنا لها في قضية القديم والحديث نجد أن رأيه في هذه القضية كان أكثر دقة وصوابا ووجاهة من رأى ابن شرف وابن رشيق .

وهكذا يتضح لنا اتجاه ابن شرف في النقد الأدبي وطريقته في تناول القديم والحديث والموازنة والمقارنة بينهم وقضية القديم والحديث حظيت باهتمام كبير من النقاد العرب ، وكانت الشغل الشاغل للأوساط الأدبية في المشرق والمغرب على السواء وفي جميع المصوور ومختلف البيئات ، وقد بينا موقف معاصره ابن رشيق منها ، وموقف ابن قتيبة السابق عليهما من هذه القضية أيضا ،

(١٨٢) مقدمة الشعر والشعراء : ٦ - ٧

(١٨٣) مقدمة الشعر والشعراء : ٧

(١٨٤) مقدمة ميون الأخبار : ٧

ورشيق فيتخصص في نقد الشعر عامة ، ويفرد به ، ويولي عنايته واهتمامه ويشمله برعايته ، ويأخذ لهذا الأمر أهيته ، وبعد له عدته ، فيبوب البحث وينظم منهجه ، ويفرد لذلك كتابه « العمدة » الذي توج به حركة النقد الأدبي التي ظهرت في المغرب ، فقد نقل فيه فن النقد الأدبي كما يقول الأستاذ أحمد أمين : « من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين كما فعل صاحب الموائنة والوساطة إلى نقد للشعر عامة » (١٨٦) ويقول ابن خلدون : « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » (١٨٧) ويقول فيه القفطي : « وهو أجل كتبه وأكبرها ، وأنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه تصنيف من نوعه ، وأحسن فيه غاية الاحسان » (١٨٨) .

والندقيق وإنما تتناول طائفة من الأخبار النقدية وإثارات متفرقة هنا وهناك ، وتبدى آراء جزئية في هذا الشاعر أو ذاك ، وتصدر أحكاما عامة متناثرة في الأدب . يقول أحمد أمين : « وظهرت في المغرب حركة جيدة في النقد الأدبي وردت أول الأمر نتفا في كتب الأدب كقول عبد الكريم النهشلي : قد تختلف المقامات والأمانة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ومثل قول إبراهيم الحصري : الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع قريب المثال بعيد المثال أبقى الديباجة رقيق الزجاجة ثم ارتقى هذا النقد حتى صار موضوعا قائما بنفسه » (١٨٥) وتظل هذه الطريقة في النقد الأدبي سائدة في المغرب إلى أن يجيء ابن



١٨٥ (ظهر الإسلام : ٢٠٦ : ٢٠٧ -

١٨٦ (ظهر الإسلام : ٢٠٧ -

١٨٧ (ملقمة ابن خلدون : ٥٧٤

١٨٨ (آباء الرواة : ١ : ٢٠٢ -

مراجع البحث

- ١ - الأعلام للزركلي ط ثانية سنة ١٩٥٥ م .
- ٢ - أعلام الكلام لابن شرف القيرواني ط مكتبة الطنجي سنة ١٣٤٤ هـ .
- ٣ - أنباء الرواة على أنباء النخلة للقطبي تحقيق أبي الفضل ط دار الكتب ج ١ سنة ١٩٥٥ م . وج ٢ سنة ١٩٥٢ م .
- ٤ - بدائع البديهة لملي بن طاهر ط بولاق سنة ١٢٧٨ هـ .
- ٥ - بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ط الطبعة التونسية سنة ١٣٣٢ هـ .
- ٦ - بنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ط السعادة سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٧ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى ط بيروت بدون تاريخ .
- ٨ - تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة عبد العظيم النجار ط دار المعارف سنة ١٩٥٩ م .
- ٩ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ط الحسينية المصرية سنة ١٣٢٦ هـ .
- ١٠ - حياة القيروان وموقف ابن رشيقي منها لعبد الرحمن باغي ط بيروت سنة ١٩٦٦ م .
- ١١ - المفردة ، قسم شعراء المغرب للعماد الاصفهاني ط تونس سنة ١٩٦٦ م .
- ١٢ - ديوان ابن رشيقي جمع وتحقيق الدكتور عبد الرحمن باغي ط بيروت .
- ١٣ - اللخيرة لابن بسام ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ م .
- ١٤ - رسائل البلغاء المختار وتصنيف محمد كرد على ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ م .
- ١٥ - ابن رشيقي القيرواني للدكتور/عبد الرؤوف مخلوف سلسلة أعلام العرب ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ١٦ - زهر الآداب للحمري تحقيق علي محمد الجاوي ط الحلبي سنة ١٩٥٢ م .
- ١٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط الحلبي سنة ١٣٦٦ هـ .
- ١٨ - الصلة لابن بشكوال ط مكتب نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٩٥٥ م .
- ١٩ - ظي الإسلام لأحمد أمين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٢٠ - المعتمد لابن رشيقي القيرواني تحقيق محيي الدين ط مصر سنة ١٩٢٤ م .
- ٢١ - عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب سنة ١٩٢٥ م .
- ٢٢ - الفيتح المسج في شرح لأمية المعجم للمصنف ط الوطنية بالاسكتندرية سنة ١٢٢٩ هـ .
- ٢٣ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتب تحقيق محيي الدين ط النهضة سنة ١٩٥١ م .
- ٢٤ - قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيقي تحقيق الشاذلي بو يعي ط الطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٥ - الكامل لابن الأثير ط مصر سنة ١٢٩٠ هـ .

- ٢٦ - كشف القنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ط استامبول سنة ١٢٣١ هـ .
- ٢٧ - مجلة المكتبس المجلد السادس .
- ٢٨ - مسالك الأبحار ج ١١ قسم ٢ مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .
- ٢٩ - الطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية تحقيق الأبياري وزميله ط الطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م .
- ٣٠ - معالم الإيمان في معرفة أهل القرون للدباغ ط تونس سنة ١٢٢٢ هـ .
- ٣١ - معجم الأدباء لياقوت الحموي ط دار المأمون .
- ٣٢ - معجم ما استمع من أسماء البلاد والمواضع للبكري تحقيق السقا ط لجنة التأليف سنة ١٩٤٥ م .
- ٣٣ - ملزمة ابن خلدون ط المكتبة التجارية بدون تاريخ .
- ٣٤ - المكتبة الصلالية لأماري ط ليبسك سنة ١٨٥٧ م .
- ٣٥ - المونس في أخبار القرية وتونس لابن أبي دينار ط تونس سنة ١٢٨٦ هـ .
- ٣٦ - النفا من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف للدميني ط السلفية سنة ١٢٤٢ هـ .
- ٣٧ - هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار الصنّاعين لأسماعيل البغدادي ط استامبول سنة ١٩٥٥ م .
- ٣٨ - الوافي بالوفيات للصلدي ج ٢ ط الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٢ م .
- ٣٩ - وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق محيي الدين ط السعادة سنة ١٩٤٨ م .



مقدمة السكان

تحليل سوسولوجي

عرض وتعليق الدكتور مصطفى شاذي

الجزء الثاني من الكتاب (الفصل السادس - العاشر) يتضمن مناقشة عوامل التركيب السكاني ومتغيراتها - الوفيات (Mortality) - الولادات (Fertility) والهجرة (Migration) .

الجزء الثالث والاخير يشتمل على ستة فصول تتعلق بالنتائج التي ترتب على التغيرات السكانية وانماطها الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كذلك السياسات السكانية .

يتكون الكتاب من ثلاثة اجزاء رئيسية مقسمة الى سبعة عشر فصلا بالإضافة الى اربعة ملاحق وثماني صفحات من الجغرافيا ونهرس . وتبلغ مجمل صفحاته ٥٢٢ صفحة . يضم الجزء الاول خمسة فصول وبالعالم بصفة اجمالية التصورات المختلفة عن الناس والسكان والمجتمعات

(Perspectives on People, and Societies)

وفيه استعرض المؤلف تأثير التغيرات السكانية على التنظيم الاجتماعي والاقتصادى والسياسي بصفة اجمالية وفي المجتمع الامريكى بصفة خاصة .

من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية سيكون متيسرا أو تناقصت معدلات نمو السكان المرتفعة في كثير دول العالم النامي .

تطرق المؤلف في الفصل الثاني الى منشأ وتطور الحركة النادية بتوقف النمو السكاني، كما استعرض نشاطات المنظمات القائمة بالدعوة لهذه الفكرة ، وناقش الوسائل التي اتبعتها لتحقيق اهدافها . لقد ظهرت هذه الحركة في اوائل الستينات من خلال أنشطة بعض منظمات القطاعين العام والخاص في الولايات المتحدة بهدف التأثير على برامج تنظيم الأسرة وتشجيع تحديد النسل . وما لبثت أن تطورت أهداف الحركة من اهتمام أولي بسعادة الافراد كمبرر لتحديد النسل الى إبراز خطورة النمو السكاني على النواحي الاجتماعية والديموقراطية والاقتصادية والسياسية كمبرر أساسي يستوجب إيقاف النسل . وأشار المؤلف الى عدم وضوح كيفية التوصل الى الاهداف النادية بها ، خاصة وأنه من المسلم به أن تنظيم الأسرة الاختياري لن ينتج عنه توقف او توماتيكي في الزيادة السكانية . وأن تحقيق معدل نمو سكاني معادل للصفر يستوجب اعتبار برامج أخرى اجبارية .

رغم استمرار الجدل العلمي حول خطورة النمو السكاني وأفضل الوسائل المتبعة « لتحديد » أو « إيقاف » النسل (اختيارية أو اجبارية) ودور الزوجين أو الافراد في مقابل مسؤولية الدولة ، نبه المؤلف الى حقيقتين :

(١) معدل الولادات في الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة قد أخذت بالانخفاض الواضح حتى وصلت في السبعينات الى مستوى منخفض يضمن بالكاد الاستبدال (Replacement)

بدأ الفصل الاول بإحصائيات توضح مدى الانفجار السكاني الذي حدث في العالم خلال القرن العشرين ، حيث ازداد عدد السكان من بليون ونصف في بداية القرن الى ما يقارب أربعة بلايين في عام ١٩٧٥ ، مع احتمالية وصول هذا العدد الى ستة بلايين في نهاية القرن المذكور أي بمعدل نمو يوازي أربعة اضعاف .

رغم الحديث الكثير عن الانفجار السكاني* والوعي الذي بدأ يتزايد من ابعاد المشكلة يعتقد المؤلف أن ذلك لا يعني بالضرورة وجود تفهم علمي للمشكلة أو اتفاق على النتائج التي تترتب على الزيادة السريعة في السكان ، وقد لخص الأداء المتداولة الى : -

١ - ظاهرة الانفجار السكاني تمثل كارثة على الجنس البشري حيث أن النقص في الغذاء والموارد الأولية والتلوث والتلف الذي يحدث في البيئة كلها يشكل ظواهر تنبيه وقوع كارثة ، وأن مجرد تخفيض معدل نمو الزيادة السكانية لن يؤخر وقوع مثل هذه الكارثة ، ولذا فهناك ضرورة حتمية وملحة لتوقف النمو السكاني تماما ، أي الوصول الى معدل للسكان معادل للصفر (Zero Population Growth)

ب - التزايد السكاني يوفر فرصة ذهبية للنمو والتوسع الاقتصادي والاجتماعي وذلك بتطويره فرص العمل ، ومساعدته في اكتشاف واستغلال المواد الأولية عن طريق استعمال الابتكارات التكنولوجية والتنظيمية .

ج - الانفجار السكاني يعتبر عاملا مضافا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويؤدي الى قصور الخدمات الاجتماعية بصورة عامة . ومن مسلمة هذا الرأي أن حل كثير

* خصصت مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد ١ الخامس (يناير - مارس ١٩٧٥) لمناقشة المشكلة السكانية .

الغزو) ولو أن احتمالاتها أصبحت ضعيفة في الوقت الحاضر .

النمط الثاني : اقتباس الابتكارات الحديثة في التكنولوجيا والنظم الاجتماعية لفرض استغلال الموارد الطبيعية استغلالاً أفضل (الحل الاقتصادي) .

النمط الثالث : ويتمثل في تحديد نمو السكان سواء عن طريق زيادة الوفيات أو تناقص الولادات (الحل الديموجرافي) . ولقد كان اللجوء الى زيادة الوفيات وسيلة منتشرة في بعض المجتمعات .

قدم المؤلف في الفصل الرابع هيكلًا عامًا (Typology) ليوضح العلاقة بين العوامل الديموجرافية والتركيب الاجتماعي، وفي شيء من الدقة وصف اجتماعات تأثر هذه العوامل على البيئة الإنسانية والنظم الاجتماعية . وقد قسم السكان حسب المتغيرات الآتية : العدد Size المساحة Area الكثافة السكانية (Population Density) ريف وحضر Rural / Urban والتركيب العمرى Age Structure وكذلك خصائص النمو . وكانت تقسيماته للمجتمع مقصورة على : بدائية - بسيطة - ومتطورة بالنسبة لقدراتها التكنولوجية .

ويعد تعريف المجتمع الإنساني على أنه مجموعة من السكان المرتبطة بأنماط من العلاقات الاجتماعية بفرض المعيشة والتأقلم للبيئة المحيطة ، تطرق المؤلف الى النظريات العلمية البارزة في حقل البيئة الانسانية Human Ecology والتي تصنف المجتمعات حسب طبيعة تكنولوجيا انتاج المواد الغذائية التي تمتلكها . وكذلك نظام تقسيم العمل في هذه المجتمعات . وذكر المؤلف أن التحول التدريجي للمجتمعات من المستوى البدائي

(٢) معدلات النمو السكاني في بعض الدول النامية وخاصة في دول شرقي آسيا كالصين وتايلند واندونيسيا وكيمبوديا والجمهورية الاسيوية في الاتحاد السوفيتي قد بدأت بالتناقص بشكل ملحوظ ، مما حدا بكثير من علماء الديموجرافية بدراسة احتمال توقف النمو السكاني عامق هذه الدول في خلال القرن العشرين وتحليل النتائج المحتمل وقوعها .

من النماذج المستخلصة في شرح النمو السكاني التي قام المؤلف بمناقشتها في الفصل الثالث نموذج التحول الديموجرافي (Demographic Transition) والتي تصف تجربة العالم الغربي والصناعي في تخفيض معدل نموه السكاني منذ بداية حركة التصنيع، ويمكن وصف مراحل هذا التحو كالاتي : -

١ - مرحلة ما قبل التصنيع وهي الفترة التي تكون فيها معدلات كل من الولادات والوفيات مرتفعة .

٢ - مرحلة بداية التصنيع وفيها تنخفض معدلات الوفيات مع بقاء معدلات الولادات ثابتة ومرتفعة ، وهذه المرحلة هي التي ينتج منها ما يسمى بالانفجار السكاني .

٣ - مرحلة التصنيع وفيها تبدأ معدلات الولادات بالانخفاض .

٤ - مرحلة ما بعد التصنيع وفيها تصل معدلات الولادات الى مستوى منخفض يتناسب مع المعدلات المنخفضة للوفيات وبتمامها تتم مرحلة التحول الديموجرافي .

وفي نهاية الفصل حدد المؤلف ثلاثة أنماط من استراتيجيات الاستجابة لنمو السكان .

النمط الأول : ويشمل التوسع في الحدود وقسم اراض جديدة ، وهي استراتيجية اتبعت في كل العصور (الحل السياسي أو

اجتماعية متصفة بالحضارية محل الروابط التقليدية مثل رابطة الدين ، الجنسية ، المنشأ ، كذلك الروابط العائلية .

بدأ المؤلف الجزء الثاني من الكتاب بتعريف للتحليل الديموجرافي على انه وصف كمي للطاقة البشرية ولكونها بالمجتمع . تلا ذلك استعراض اولي (الفصل السادس) لطرق دراسة النمو السكاني وكيفية حساب مؤشرات النمو ، وبين كذلك استعمالات أبرز هذه المؤشرات وهي معادلة الموازنة السكانية $(P_2 = P_1 + B - D + M)$ حيث (P_2) حجم السكان في وقت (2) يساوي حجم السكان / P_1 في وقت سالف زالدا حجم الولادة (B) ناقصا حجم الوفيات (D) زالدا او ناقصا حجم الهجرة (M) . كذلك اشار الى بعض مصادر البيانات من السكان مثل التعدادات والمسوحات وسجلات الظواهر الحياتية .

ومن الواضح أن الهدف من هذا الفصل هو تزويد القارئ المبتدئ بقليل من الخلفية العلمية من مفاهيم ومصطلحات ومؤشرات .

في الفصول الاربعة التي تلت قيام المؤلف بمناقشة علاقة التركيب الاجتماعي وكلا من الوفاة والبقاء (الفصل السابع) والزواج وصنع الزواج Match Making (الفصل الثامن) والولادات (الفصل التاسع) والهجرة (الفصل العاشر) .

تتبع المؤلف في الفصل السابع التطورات التي حدثت في معدلات الوفيات في أوروبا وغيرها من القارات المسكونة بالعصر الاوروبي حيث شهدت تناقصا تدريجيا ومستمرًا منذ القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الثانية . وكان ذلك التناقص نتيجة لتحسن الاحوال الاجتماعية والتعليمية والاستجابة للتطور الاقتصادي والاستقرار السياسي الذي

البسيط الى التنظيم المتطور المقدر يعزى الى التوسع الايكولوجي الناتج بالزيادة السكانية وما ينتج عنها من تكيف اقتصادي واجتماعي وتنظيمي لفرض تحمل المضاعفات التي قد تنشأ في مرحلة النمو والتطور .

وبتطبيق مفاهيم الهيكل العام الذي حدده المؤلف على المجتمع الأمريكي (الفصل الخامس) حاول أن يربط بين العوامل الديموجرافية ، وخاصة عامل الهجرة ، وبين التغيرات التي حدثت في التكنولوجيا وأنماط الاستيطان والتكيف الايكولوجي المتميز بالاتجاه الظاهر نحو العمران وخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية .

وبمقارنة امريكا ذات الطابع الريفي في القرن التاسع عشر بامريكا الحضرية في القرن العشرين ، اصبحت الاولى بانتشار المجتمعات الصغيرة Communities المنزلة نوعا ما والمأهولة بالامر ذات التركيب المتد والوظائف المتعددة ومنها : الدينية والترفيهية وتربية النشء ، هذا بالإضافة الى كونها وحدات انتاجية واقتصادية كانت تمثل حلقة الوصل الرئيسية ما بين الفرد ونشاطاته واتصالاته في المجتمع .

يتصف المجتمع الأمريكي حاليا بالتركيز الشديد في الكثافة السكانية في جزء بسيط من مساحته الشاسعة وفي التزايد الحضري والعمراني الهائل المتميز بالمجتمعات اللامتجانسة التي يغلب عليها نمط الاسر الصغيرة التي تغير كثيرا من وظيفتها التربوية والاقتصادية والترفيهية وفقدانها لمعظم هذه النشاطات .

وابرز المؤلف أهمية عامل الهجرة (الخارجية منها او الداخلية) في : ١) تشكيل أنماط توزيع السكان وتطورها في المجتمع الأمريكي والتي أدت في النهاية الى ظهور المدن الضخمة Megapolis ٢) احلال روابط

كنظام اجتماعي وركز بشكل محدد على اختلاف طبيعة الزواج في المجتمعات الأوروبية أو التي من أصل أوروبي عنها في المجتمعات الأخرى ، ومن خصائص المجتمعات الأوروبية :

١ - وجود فائض من النساء في سن الزواج بالمقارنة بالمجتمعات الأخرى .

٢ - انتشار الفكرة القائلة بأن الزواج يجب أن تسبقه فترة طويلة من التعارف بين الطرفين .

٣ - اللجوء إلى تأجيل الزواج نتيجة لشعور الفرد بأهمية الضمانات المالية وتطلعه إلى مستوى معيشة أفضل .

٤ - عملية اختيار الزوج أو الزوجة تتصف بأنها أقل تأثراً بعوامل السن أو العنصر أو الدين أو مستوى التعليم والقرابة واللغة عنها في المجتمعات الأخرى .

هذا بالإضافة إلى أن عوامل أخرى ذات طابع ديموجرافي يمكن أن تسبب حالات من الضغوط على الزواج Marriage Squeeze وذلك يجعلها العرض والطلب يفقدان التناسق فيما بينهما ، ومن أمثال هذه العوامل الهجرة المتزايدة لأحد الجنسين وكذلك اختلاف سن الزواج ما بين الزوج والزوجة المنتشر من الدول النامية . هذا بالإضافة إلى بعض التقاليد التي تهتم الزواج من نفس الطبقة الاجتماعية .

إن مسؤولية اختيار أو تحديد ظروف الخطبة وكذلك مكان الإقامة وطبيعة الأحوال المعيشية للمتزوجين الجدد ما زالت في يد الآباء أو الأقارب ، ولم تترك كاملاً للأشخاص أنفسهم حتى في الزواج المصري ما زال الآباء قدرة التحكم في مكان وكيفية تقابل الطرفين .

أدى إلى إصلاحات اجتماعية وارتفاعات في مستوى المعيشة وكذلك في تحسين طرق الوقاية العامة ، أما في الدول النامية فإن الانخفاض السريع في معدلات الوفيات الذي حدث عقب الحرب العالمية الثانية فرجع إلى إدخال وسائل الصحة العامة والصحة الوقائية والطب الحديث أكثر مما هو ناتج عن أي تفسير اجتماعي أو اقتصادي .

بالرغم من أن علماء الديموجرافية قد أبدوا اهتمامهم بدراسة الحالة الزوجية للسكان وتأثيرها على معدلات الولادات ، إلا أنهم ، وفي رأي المؤلف ، أقل رغبة في دراسة العلاقة ما بين الزواج من ناحية وتركيب الأسرة وتكوين القرايات والطبقات الاجتماعية من ناحية ثانية حيث ظلت هذه المواضيع موضوع اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجي . وعند مقارنة الدول الأوروبية والغير أوروبية نجد أن ظاهرة الزواج المتأخر أو الامتناع الكلي عنه منتشرة في معظم الدول الأوروبية عنها في الدول الأخرى ، وتفسر هذه الظواهر أنها ناتجة من الشعور المتاصل بالفردية Individualism وبأهمية احساس الفرد بالاستقرار الشخصي والسالي كخلفية لازمة للزواج والانجاب .

إن ظاهرة وواج الزواج Marriage Boom التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة وأوروبا حدثت بين مجموعات من السكان كانت تتحاشى الزواج كلياً أو تختار الزواج المتأخر ولذا أدت حركة وواج الزواج هذه إلى تخفيض سن الزواج وكذلك إلى تخفيض نسبة غير المتزوجين في المجتمع مما نتج عنه تقارب معدلات الزواج في المجتمعات الأوروبية وبين الريف والحضر وكذلك بين الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وفي تحليل وصفي انثروبولوجي لظاهرة الزواج ، اختيار الزوج ، والزواج المبكر أشار المؤلف إلى التغيرات التي حدثت في الزواج

النسل في أغلبها بالتشجيع المباشر . ولذا استخلص المؤلف بأن منشأ الأسرة الصغيرة والعودة الى معدلات الولادة المنخفضة في الدول الغربية ليس له علاقة وطيدة بأى سياسة سكانية حكومية بوجه عام .

لقد اتجه علماء الديموجرافية حديثا الى التحليل الدقيق Micro لموضوع الخصوبة والولادات والاختلافات في كل منها كالتباين في عدد الولادات وفي توقيت المواليد . . وهذا وبالإضافة الى ذلك يرجع الباحثون الى الكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية لتفسير حجم الولادات واختلافاتها ومن أمثلة ذلك نظرية العلاقة ما بين المنزلة الاجتماعية والحراك الاجتماعي

Social Status and Social Mobility

ومستوى الخصوبة وكذلك نظرية الكلفة - المنفعة - Cost-Benefit القائلة بأن العامل الاقتصادي يتحكم في تديرات الزوجين وبالتالي في لجوءهما الى استعمال اساليب منع الحمل أو عدم استعمالها .

ذكر المؤلف ان دراسة الهجرة تتطلب وجهة نظر أكثر من خلفية علمية واحدة ثم تطرق الى شرح تاريخي للهجرة العالمية وخاصة الهجرة من أوروبا والتي اتجه معظمها الى الولايات المتحدة ، ورغم ذلك فإن نسبة المهاجرين الى الولودين في الشعب الأمريكي لم تزد في دورتها من ١٣٪ . وقليل جدا من دول العالم التي يبلغ فيها المهاجرون نسبة عالية من السكان تصل في بعض الحالات الى النصف مثل الكويت وهونغ كونغ واسرائيل .

كان للهجرة الداخلية تأثير كبير على توزيع السكان في الولايات المتحدة وعلى حركتهم الى الغرب التي صاحبت الاسكان بالولايات الغربية وخاصة ولاية كاليفورنيا . كما أدت الى التزايد السريع في درجة العمران بالولايات المتحدة في فترة زمنية قصيرة . وتظهر آثار التحسرك

من المتفق عليه بين علماء الديموجرافيا أن عامل الولادات هو العامل الرئيسي المؤثر في النمو السكاني . ولدراسة هذا التأثير يتبع الباحث عادة في تحليله أحد المستويين التاليين أو كليهما : - الأول Macro وهو عبارة عن تحليل العوامل الهيكلية الرئيسية المؤثرة على الخصوبة والولادات . الثاني Micro أو التحليل الدقيق المتعلق بدراسة العوامل السلوكية والفردية المؤثرة على الظاهرة .

ورغم وصول معدلات الولادة في أوروبا والدول الغربية عمومًا الى مستوى منخفض نسبيًا في بداية الحرب العالمية الثانية ، عادت للزيادة في الفترة التي تلت الحرب مباشرة Baby Boom ، وكان هناك نمطان لهذه الظاهرة (الأولى) استمر لفترة زمنية قصيرة لتعويض حالات الولادات المؤجلة خلال فترة الحرب . (الثانية) امتد لفترة أطول خاصة في الولايات المتحدة وأستراليا ونيوزلندا وكان محصلة تعويض الولادات المؤجلة في فترة الحرب بالإضافة الى زيادة حقيقية في معدلات الولادة والاتجاه نحو الولادات على فترات زمنية متقاربة . بدأت الولادات في دول أوروبا الشرقية وجنوب أوروبا ودول أمريكا اللاتينية مثل الأرجنتين بالتساقط تدريجيًا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ولكنها أخذت بالانخفاض السريع حتى الحرب العالمية الثانية .

عند بداية الحرب العالمية الأولى كان معدل الولادات في الدول الأقل تطورًا (النامية) عاليًا نسبيًا (أعلى من ٣٥ بالآلاف) ، وتتنصف معدلات الولادة بالانخفاض الملحوظ في مجموعة منها بعد الحرب العالمية الثانية بينما استمرت معدلات الولادة العالية في البعض الآخر .

كما أبرز حقيقة ظاهرة وهي أن الدول التي اتجهت فيها معدلات الولادة بالانخفاض السريع لم تتبع إلا القليل مما يوصف بسياسة سكانية محدودة ، وفي الواقع لم تحظ بمرامج تحديد

بمناقشة تأثير التغير السكاني على النظم الاجتماعية مثل تقسيم الـ Division of Labor وتوسيع المحيط الاجتماعي وكذلك تبني الابتكارات والاستفادة منها مستعينا في شرحه بالنظريات العلمية المرسدة لهذه الظواهر ومشيرا الى ان النمو السكاني على نطاق واسع يجعل مستجيلا على التركيب الاجتماعي ان يستمر بصورته الاولى . هذا بالإضافة الى ان التزايد في الكثافة السكانية يؤدي بدوره الى تكثيف النشاطات المتعلقة بإنتاج المواد الأساسية كما حدث في ظاهرة الانقلاب الزراعي Agriculture Revolution

لقد حدد المؤلف نمطين من استجابية الاستجابة الديموجرافية للنمو السكاني ويتلخص في : (١) زيادة الاتجاه العمراني بما فيه زيادة وتعدد المناطق المتصفة بالحضر والعمران وانتشار المدن الكبيرة Megalopolis ب (اتجاه بعض المجتمعات الى تشجيع الهجرة الخارجية . ونظرا لان احتمالات الهجرة الخارجية أصبحت في عالمنا الحاضر محدودة ، فان النمط الرئيسى للتجارب ينحصر في الاتجاه نحو العمران وفي استكمال الزراعة المكثفة . ولظاهرة العمران صفات اجتماعية مميزة منها تباين صفات السكان Heterogeneous وتنوع وتعدد الاتحادات والنظم الاجتماعية . هذا بالإضافة الى الميل للتخصص Specialization الوظيفي والبنائي .

ونظرا لعدم وجود سياسة تحكم الهجرة الداخلية في معظم الدول باختلاف بعض الدول الاشتراكية ، فان المؤلف يتساءل عما اذا كان من المستطاع التأثير في الحراك السكاني من طريق سياسة سكانية محددة . ويستخلص بان الموضوع ما زال يحتاج الى بحث أكثر لتحديد إبعاده .

السكاني أيضا في ظاهرة نمو الضاحية Suburbanization التي تزايدت بشكل ملحوظ من بعد الحرب العالمية الثانية .

رغم ان معظم العوامل الخلفية التي ينبغي دراستها بالنسبة لظاهرة الهجرة ما زالت غير واضحة ومتغيرة التأثير فان معظم النظريات التي توضح اسباب الهجرة تركز حول ضرورة فهم تأثير العوامل الاقتصادية على الميل للهجرة وكذلك علاقة الصفات الاجتماعية والديموجرافية كالعمر والحالة الزوجية والجنس وخلافه على الاستعداد للهجرة .

هذا ورغم الإقرار بوجود عدة عوامل غير اقتصادية مؤثرة على ظاهرة الهجرة الا انه ما زال ينظر الى تحركات القوى البشرية على انها متعلقة بصورة رئيسة بالعوامل الاقتصادية خاصة فرص التوظيف ، اختلاف الأجور ، وهيكल سوق العمالة والبطالة بأنواعها .

ان للهجرة تأثيرا واضحا ليس فقط على المجتمع بل أيضا على الفرد وهناك علاقة ما بين هجرة الافراد وصفاتهم الديموجرافية وغير الديموجرافية كالخصوصية والانحرافات والمرضى العقلي وخلافه . بالإضافة لذلك فان الهجرة تأثيرا آخرًا مباشرًا على العلاقات والنظم الاجتماعية وكذلك على الميول السياسية والانفصال العنصرى أو التفرق ونظم التعليم وخلافه .

وباختصار ان معظم المجتمعات التي تشتد بها حركة الهجرة يجب ان تطور منظماتها ومؤسستها لكي تضمن الاستقرار والاستمرارية في الصلات والتفاعلات الاجتماعية على جميع المستويات .

في الجزء الثالث من الكتاب يناقش المؤلف انماطًا مختلفة من الاستجابات الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية للتغير السكاني . ويتبدى الفصل الحادى عشر

منها هو الاصلاح الاجتماعي لمكانة المرأة وليس التحكم في السكان وتحديد النسل . ان مجهودات مسر (Singer) منذ عام ١٩١٣ في الولايات المتحدة وفي مدينة نيويورك بالذات تشكل بداية الحركة النادية باستعمال وسائل منع الحمل وتحديد النسل . لقد تطورت الحركة بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية على يد مسر John D. Rockefeller III وانبثق عنها مجهودات هيئة الامم المتحدة ومنظماتها وبرامجها في العالم النامي . كما تكونت في الدول الاوروبية ولا سيما الولايات المتحدة بعض المنظمات حديثا التي تطالب بوقف نمو السكان وتؤكد بضرورة استخدام الجراحية Sterilization وذلك للاعتقاد بعدم كفاية وسائل منع الحمل التقليدية مثل استعمال حبوب منع الحمل .

ان العلاقة التي تربط العوامل الاقتصادية والعوامل الديموجرافية علاقة متشعبة ودقيقة . ومن ابسط مظاهرها احداث التغير السكاني ردود فعل في كل من حجم ومعدل نمو كل من القوى العاملة والعمالة وسوق العمل ، وكذلك في حجم كل من الادخار والاستثمار ومستوى الانتاجية . وعند مناقشة هذه الموضوعات (الفصل الرابع عشر) فرق الكاتب ما بين انماط الاستجابات الاقتصادية للزيادة السكانية في كل من الدول النامية وفي الدول الاقل نموا .

ونستعرض فيما يلي آراء المؤلف حول نوعية الارتباط بين النمو السكاني والعوامل السالفة ذكرها .

النمو في القوى العاملة : تعتبر كل من معدلات النمو السكاني وهيكل التركيب العمري للسكان ومعدلات الهجرة بأنواعها من المتحكمات الاساسية في نمو القوى العاملة وفي تحديد نسبتها في السكان . من المعروف ان حجم

في الفصل الثالث عشر انتقل المؤلف الى مناقشة اشكال الاستجابة الديموجرافية وابندا بذكر مبدأ قديم عن الضوابط الايجابية Positive Check للتوس والقاللة

بحتمية ارتفاع الوفيات في حالة زيادة السكان عن الموارد الغذائية . وسال المؤلف عما اذا كان من الممكن ان تسمح اخلاقيات المجتمعات الحديثة بمعدلات اعلى للوفيات كوسيلة لمعالجة اية زيادة في السكان غير متوازنة مع الزيادة في الموارد الغذائية وبالتالي هل تلجأ الى تخفيض معدلات الوفيات في حالة نقص السكان ، استخلص من الدراسات التي قام بها كل من Clark و Kreziok من اتجاهات معدلات الوفيات بين الاطفال في المجتمعات الريفية والضر صناعية الى انه من الجائز ان تكون التغيرات التي تحدث في مستوى الوفيات وفي معدلاتها حسب العمر استجابات من المجتمع لظاهرة نمو السكان بفرض التكيف والبقاء .

كما نهبنا المؤلف الى فكر اخر من افكار مالتوس عن اهمية التحكم في سن الزواج كوسيلة من وسائل الحد من النمو السكاني والذي لا شك فيه ان انماط الزواج والطلاق واعادة الزواج والقيم المتحركة في هذه الظواهر لها ارتباط بمحاولات المجتمع التحكم في معدلات نمو سكانه ، ولو ان نوعية هذه الارتباطات غير مدروسة . وقد اشار المؤلف على سبيل المثال الى الاتجاه الحديث نحو انخفاض سن الزواج وزيادة نسبة السكان المتزوجين وارتباط كل منها مع التوسع في استعمالات وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاض وخاصة في الدول القربية لا سيما في الولايات المتحدة .

وفي نبذة تاريخية عن تطور وسائل منع الحمل اشار المؤلف الى تواجد العديد من وسائل منع الحمل في مختلف العصور وانه رغم ما نشر من الموضوع في القرن التاسع عشر تطورت الى حركة نسائية كان الفرض

أشار المؤلف إلى أهمية دراسة تأثير التركيب العمري للسكان والتغيرات التي تحدث فيه على معدلات الإدخار ، ورغم أنه فيما يبدو ينتمي إلى المدرسة القائلة بأن الزيادة في عدد الأطفال في حد ذاتها ليس لها تأثير كبير على القدرة على التوفير حيث أن :

١ - معظم الإدخارات تتوقف على حجم الضرائب في القطاع العام أكثر من توقفها على الإدخارات النوعية في الأسرة .

٢ - عدم وجود الأدلة الكافية على أن ادخارات الأسرة تشكل المصدر الرئيسي للاستثمارات .

أورد المؤلف عدة نماذج توضح اختلاف الآراء حول تأثير النمو في السكان على مستوى الإنتاجية Productivity منها : أولاً) قوانين مانتوس عن تناقص الموائد في قطاع الزراعة Laws of Diminishing Returns التي ينتج عن ازدياد كثافة العمل وحدود الرقعة الزراعية . ثانياً) أفكار آدم سميث عن الاقتصاد على نطاق واسع Economics of scale والتي تمكس نوعية العلاقة بين الحجم والإنتاجية ، ومن مضمونها أنه كلما زاد حجم الوحدة زادت كفاءتها الإنتاجية . كذلك قام المؤلف بشرح آراء كينز المشهورة عن الركود الاقتصادي Staguation وينتج من نقص في النمو السكاني وللأسباب الآتية : -

١ - في المجتمعات الفنية يرأس المال التي تتصف بمستوى دخل مرتفع ونمو بطيء في السكان عادة ما يكون صعباً فيها زيادة فرص الاستثمارات .

٢ - في المجتمعات الفنية يرأس المال ، نسبة صغيرة من الدخل المرتفع يستهلك فقط تاركاً نسبة أكبر للاستثمارات .

القوى العاملة يتأثر بمعدلات الاشتراك في سوق العمل لكل من المجموعات العمرية والبيئية المختلفة ، وذلك تتأثر بدورها بموآمل ذات طبيعة ديموجرافية كحجم الأسرة والهجرة من الريف إلى الحضر وزيادة حجم السكان الذين يبلغون سن التقاعد وخلافه .

من الظواهر التي تتضارب حولها الآراء هي العلاقة المحتملة وجودها بين النمو السكاني من جهة وبين مستوى البطالة من جهة أخرى وارتكز المؤلف في شرح هذه العلاقة على آراء كل من Spengler و Keynes فمن رأى الأول مثلاً أن النمو السكاني ولو بمعدل قليل يعتبر أمراً ضرورياً لتلافى البطالة الشديدة .

وفي حالة تغيب معدل نمو سكاني مناسب فإن على الحكومة أن تزيد من نفقاتها لتمويض النقص في الاستهلاك المحتمل نشوءه . هذا طبعاً يناقض كثيراً من آراء Spengler التي ترى في تناقص معدل نمو السكان خلفية مشجعة لمستويات أعلى للعمالة .

ورغم أن المؤلف لم يلتزم برأي معين في هذه المسألة إلا أنه أوضح أن العلاقة ما بين النمو السكاني وكل من البطالة والعمالة تختلف بالدول النامية منها في الدول الصناعية . فمعظم الدول النامية تتصف بارتفاع معدلات النمو السكاني وبالتالي ترتفع فيها معدلات الزيادة السنوية في القوى العاملة ، وبالتالي معدلات كل من البطالة والبطالة المقنعة بالذات .

هذا بالإضافة إلى أن الهجرة السكانية في الدول الصناعية عادة ما تحدث تكاملاً بين الموارد البشرية والموارد الاقتصادية في حين أنها في الدول الأقل نمواً تعبر عن نقص دائم في الطلب على العمل الناتج من انخفاض الأجور في الزراعة كذلك ارتفاع الزيادة السكانية في المناطق الزراعية .

٣ - في حالة نبات أو نقص معدل النمو السكاني تزداد معدلات البطالة لعدم كفاية الطاب على الخدمات والبضائع .

٤ - تغيب التأثير الإيجابي الذي يحدثه النمو السكاني في تشجيع ارتباطات التعاقد وتشكيلها لنمو كل من الإنتاج وانتاجية الفرد.

وقد أشار المؤلف الى انه لا يوجد نتائج علمية ثابتة تحدد العلاقات الرئيسية ما بين كمية العمل والقدرة الانتاجية ، وكيف تتأثر كل منها بازدياد السكان وأن عدم نجاح الاقتصاديين أو بالأحرى تجاهلهم لمعالجة هذه العلاقة يرجع عادة الى أنها تحدث في اطار اجتماعي وسياسي وعليه فان نوع الاستجابة تختلف باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية وان هذه الظروف تتوقف على ثلاثة متحركات:

١ - قرارات الجهة المنظمة للاقتصاد.

٢ - الضوابط والمتغيرات التي يمكن تطبيقها على الوحدات الاقتصادية .

٣ - تركيب هيكل الجراءات والتقديرات وكذلك العقوبات المنظمة للنشاطات الاقتصادية.

من المسلم به ان أي تضرر ملحوظ في السكان غالباً ما ينتج عنه امادة ترتيب كثير من المؤسسات والمنظمات والعلاقات الاجتماعية.

من أمثال الظواهر الاجتماعية التي تنتج عن التضرر السكاني وخاصة من الهجرة التغيرات التي تطرأ على التركيب الوظيفي والبيئي والعنصري في بعض الحالات مما حدا ببعض علماء الاجتماع القول بأن مقداراً من الصراع يصاحب دائماً التغير في العلاقة بين المجموعات السكانية وبين مؤسساتها الاجتماعية وان الاستجابة الاجتماعية لنمو السكان تأخذ عادة عدة أشكال منها :

١ - خلق انماط من السلوك الذاتي والفردى ومن التطلعات الشخصية ذاتالفائدة المحدودة في فهم أو تكييف التطلعات الجماعية.

٢ - زيادة الاختلافات الموجودة في المهارات وفي احتياجات الافراد .

٣ - امكانية التفاضل عن أو السماح لبعض السلوك المتحرر من التقاليد بالتواجد مع السلوك العرفي .

٤ - تشكيل قوى اجتماعية بهدف تنظيم أو استغلال أو تجنب الخلافات الفردية وخاصة الناشئة عن قصور في بعض الامكانيات والمجهودات مما يضاعف امكانية المجتمع نحو الإنتاج والاستهلاك بل والبقاء ، وفي مقدمتها قدرته على التكيف .

ومن رأى المؤلف انه اذا كان للنمو السكاني القدرة على توافر احتمالات الاختلافات والتنازع الاجتماعي فانه من الواضح أن ازدياد الكثافة السكانية تخلق حاجة التميز الطبقي وكذلك التباين في النظم الاجتماعية وذلك يرجع لان ارتفاع الكثافة السكانية يصاحبه عادة :

١ - ارتفاع معدلات الاتصالات الانسانية الناتجة من القرابة الجسمية .

ب - التنافس نحو الاولوية في جلب الاهتمام وفي المشاركة .

ج - التنافس لهوية الوصول الى المؤسسات والاماكن وفي المجهودات الاجتماعية.

وباختصار فمن الجائز ان يقلل النمو السكاني من قيمة بعض الارتباطات الاجتماعية ويجعلها قليلة الفائدة في نفس الوقت يمكن ان ينمى مزايا ارتباطات أخرى . ولذا فانه من الطبيعي أن تثنى الاستجابة الاجتماعية لمثل هذه التغيرات السكانية في صورة ابتكارات اجتماعية بما فيها من تفر في القيم وقوانين

التشريعية الى تنظيم شبه بيروقراطي نظرا لازدياد ظاهرة تعدد الخواص التي تصاحب الزيادة السكانية . واخيرا يتأثر التوازن السياسي بين المجموعات المهنية والدينية والثقافية والعنصرية ليس فقط بالزيادة السكانية ولكن بحركة وهجرة السكان الداخلية وقدرة الاحزاب والمنظمات السياسية على توضيح مواقف معينة وقيم ايديولوجية محددة لكل الجماعات والمجموعات المختلفة من السكان.

واخيرا يتساءل الكاتب في الفصل الاخير عن امكانية تواجد مدينة الاحلام Utopia ذات الصفات الاجتماعية والديموقراطية التامة وكذلك تسأل عن دور السياسة السكانية في تحقيق ذلك الحلم . فصل بين مفهوم كل من السياسة السكانية والنظرية السكانية حيث عرف الاولى على انها تتكون من تبن واضح لحاكم او جهة ذات سلطة لبعض الاهداف السكانية التي تخدم المنفعة العامة ، وكذلك التحكم في الموارد المتاحة بشأن تحقيق هذه الاهداف اما بواسطة تدخل مباشر او غير مباشر في عوامل الوفيات والولادات والهجرة .

وقد رأى المؤلف ان السياسة السكانية يجب فصلها عن السياسات الاخرى المحتملة التأثير على حجم ونمو وانتشار السكان ولكن من خلال تشكيلها لعوامل اخرى غير العوامل الديموقرافية . هذا بالإضافة الى انه يمكن بصفة عامة تحديد تركيب محدد للسياسة السكانية يكون له صفة الدوام وانما هي عادة اقل تحديدا وغالبا ما تشمل فترة زمنية معينة .

قام المؤلف باستعراض التجربة الامريكية واستنباط الخلفيات التي صاحبها وخاصة ظاهرة الهجرة من أوروبا والعوامل التي أدت الى اقبال سياسة الباب المفتوح وظهور نظام الحصص Quota System المنظمة للهجرة في اوائل العشرينات والتي استبدلت

التبادل وكذلك في تعريف الموارد بل والحوافز الاجتماعية .

اختتم المؤلف هذا الفصل (الخامس عشر) بمناقشة سطحية لتأثير الهجرة على الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستعمل التفسيرات الاتية للمقاومة المهاجر باستمرار ، المهاجر أحيانا ، الغير مهاجر أو الثابت ، وبين كيف أن عملية الهجرة ينتج عنها إعادة صياغة الصفات الاجتماعية للمنظمات والمؤسسات وحتى للمجتمعات الصغيرة نتيجة للحركة السكانية .

ابتدأ المؤلف (الفصل السادس عشر) بقوله ان موضوع الاستجابة السياسية للزيادة السكانية ما زال حديثا ولم يحظ بالدراسة المناسبة الا مؤخرا . ثم وجه اهتمامه الى ثلاثة موضوعات ذات علاقة : أولا - الضغوط السياسية والإدارية التي يتعرض لها المجتمع نتيجة للزيادة السكانية. وثانيا - التكامل السياسي المرتبط بظاهرة تغير الخواص Variation الصفة التي تلازم عادة التغيرات السكانية . وثالثا الحراك السكاني على الانضمام والاشتراك في الاحزاب والمنظمات السياسية والنخبة القيادية .

استخلص المؤلف : أولا - ان المجتمعات ذات الكثافة السكانية العالية والنمو السكاني المتزايد تتطلب نسبة مرتفعة من الخدمات الحكومية بشئ انواعها مثل الخدمات الصحية والترفيهية والتعليمية وخلافه . وثانيا - التركيبات العمرية في حد ذاتها تؤثر في نوعية وتخصص الخدمات الحكومية اللازمة ، فمثلا ازدياد الاعمار في سن الشباب يتطلب التوسع في بناء المدارس وفي فرص العمل في حين ان زيادة نسبة كبار السن في السكان تتطلب التوسع في برامج العلاج الطبي والضمان الاجتماعي وخلافه . ثالثا - يصاحب الزيادة السكانية عادة ازدياد حجم الهيئات التشريعية في المجتمع وازدياد تعقيداتها وتحول العملية

ورغم وجود هذه الخلفية التاريخية للمسألة السكانية في أوروبا فإن الخطوات التي أدت إلى انخفاض الولادات في تلك القارة لم تكن في الواقع ضمن سياسة سكانية وإنما تطورت تماما دون تدخل حكومات الدول المعنية وجاءت استجابة لاصلاحات اجتماعية. وحتى القوانين التي لها تأثير مباشر على الولادات كالإسماح بالإجهاض في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية التي أعقبت الحركة الاشتراكية نشأت من مفهوم القوانين المتعلقة بحماية حقوق المرأة وبرامج العدل الاجتماعي.

تبنت كثير من الدول النامية حديثا مبادئ عامة يمكن وصفها بأنها تشكل سياسة سكانية والفرض الواضح في خطط معظم هذه البلدان هو تخفيض معدلات النمو السكاني . في عام ١٩٧٤ - تبنت ٣٣ من الدول النامية سياسة سكانية الفرض منها تخفيض معدلات النمو في حين تبنت ٣٠ دولة أخرى برامج تنظيم الأسرة لفرض تحسين المستوى الصحي والاجتماعي وخلافه .

وفي هذا المضمار (برامج تنظيم الأسرة) كان لكثير من المنظمات العالمية والمؤسسات الخاصة وبعض الحكومات الغربية كالولايات المتحدة والسويد نشاط ملحوظ مما كان له اثر واضح في انخفاض معدلات الولادة وخاصة في بعض دول الشرق الاقصى كنيابند وقابون وكوريا والفلبين .

ومع ذلك فان بعض الانتقادات قد وجهت لهذه البرامج على أنها تحاول ان تحل محل برامج الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والتي هي في نظر الناقدين اهم بكثير في المدى البعيد لسكان هذه الاقطار .

وفي اعتقاد المؤلفانه كلما ازدادت معرفتنا من الخصوبة والولادة وعلاقتها بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فان درجة كبيرة من الاستقرار في معدلات النمو السكاني ستحدث تدريجيا عن طريق التحكم في الولادات

بقانون الهجرة الصادر في ١٩٦٥ والساري المفعول حتى الآن .

وتطرق الى شرح برنامج المساعدة الامريكية للدول النامية في تنظيم الأسرة وكيف انه بعد تردد طويل توسعت الحكومة الامريكية في هذا المضمون عن طريق برامج المساعدات - الخارجية و برامج المساعدة لفرض التنمية منذ منتصف الستينات . أشار أيضا الى نتائج الدراسة التي قامت بها الهيئة المشكلة بأمر من الرئيس السابق نيكسون في عام ١٩٧٥ لدراسة النمو السكاني ومستقبل أمريكا واستعرض باختصار أهم النتائج التي توصلت اليها اللجنة بعد دراسات مستفيضة لاكثر من عامين والتي أثرت في المفهوم العام للمشاكل السكانية .

وبمقارنة الولايات المتحدة والدول الأوروبية وجد أن اهتمام الدول الأوروبية يختلف من دولة الى أخرى حسب طبيعة المشكلة السكانية في كل منها ومع ذلك فان الخلاف الرئيسي بين التجربة الامريكية والتجربة الأوروبية هو حداثة فكرة السياسة السكانية في الولايات المتحدة وتواجدها تاريخيا في كثير من الدول الأوروبية التي توصف بالمقارنة بأنها :

١ - تقبل مبدا مسؤولية الدولة في جميع البيانات وتنظيمها بل وفي التدخل لحل كثير من المشكلات الاجتماعية بما فيها مشاكل الهجرة وتوزيع السكان .

٢ - شهدت ظواهر سياسية كثيرة مترتبة على تغيرات ديموجرافية مثل الحروب، تصارع القيمات الأوروبية ، انهيار النظام الاقطاعي وخلافه .

٣ - تبنت حكوماتها في بعض الاوقات مبادئ اقتصادية وفلسفية ذات محتوى ضمني يفضل الزيادة في حجم السكان . Mercantilism .

ولذا فإن الكتاب لم يأت بجديد من ناحية التحليل الديموجرافي البحث
Formal
Demography

أما من جهة ربط العوامل الديموجرافية بالتركيب الاجتماعي وانعاطه فلا شك أن المؤلف قد قدم محاولة لا بأس بها في إبراز تشعب ودقة هذه العلاقة . لذا فإن معالجته للموضوع من وجهة نظر سوسيولوجية بحثية ولو أنها لم تفسح له المجال للاهتمام بوجهة نظر الفروع العلمية الأخرى من طبيعة السكان ، إلا أنها أتاحت له التركيز على التركيب الاجتماعي بمضمونه الأوسع وبصورة منظمة ، وكذلك الرجوع الى كثير من النظريات والنماذج العلمية من كل من فروع الاجتماع والبيئة الانسانية ، مما يجعل الكتاب أكثر تشويقاً لتخصصي فروع الاجتماع والانثروبولوجي عنها لتخصصي علم الديموجرافيا البحثية .

قدم المؤلف كتابه على أنه كتاب مدرسي النرض منه أمطاء تحليل دقيق لنقط الالتقاء والتداخل ما بين العوامل السكانية والتركيب الاجتماعي . واتبع في تحليله ما أسماه بالنتهج الاستكشافي وليس المنهج الجامع ، أراد من طريقه أن يثير كثيراً من الجدل بطرح الجديد من الأسئلة أكثر من محاولته حسم الأسئلة المطروحة والوصول الى نتائج علمية ثابتة .

وفي هذا المضمون يمكن تحديد مجموعة من المشاكل والأسئلة العامة الرئيسية والتي يحس القارئ حتى بعد قراءة الكتاب بأنها ما زالت بحاجة الى توضيح . وفي اعتقادي ، وذلك هو الرأي السائد بين معظم دارسي علم السكان ، أن الإجابة عليها ستأتي فقط عن طريق الدراسات العلمية المستفيضة والبحث الدقيقة ومنها الآتي : -

١ - مشكلة تحديد الارتباطات المشبهة بين عوامل النظام الإيكولوجي وهي السكان ، البيئة ، التنظيم الاجتماعي والتكنولوجيا . رغم أن المؤلف أهتم أساساً بعامل السكان

سواء تم ذلك عن طريق سياسة سكانية محدودة أم لا .

ويختم الموضوع بقوله ان اتباع سياسة سكانية واضحة من شأنه أن يساعد المجتمعات على سرعة وسهولة وصولها الى مرحلة الاستقرار السكاني .

قبل توجيه اهتمامنا لمناقشة بعض آراء المؤلف أود أن أورد قليلاً من السلبيات وأغلبها يقع في نطاق التنظيم والعرض أكثر منها في مجال المعلومات .

من الواضح ان الكتاب غني بالفكر والنظريات العلمية المتعلقة بموضوع السكان . غير ان المؤلف قدم الكثير منها بطريقة الحشر ولم يعطها حقها من التفصيل . هذا بالإضافة الى احساس القارئ بأن المناقشة لم تتبع مستوى واحداً في كل الفصول ، فمثلاً يظهر المؤلف كثيراً من العمق ودقة التحليل في الجزء الثالث من الكتاب ، والذي في اعتقادي هو أقوى جزء فيه في حين تتصف بعض فصول الجزء الثاني بكثير من الملاحظات السطحية وبدائية التحليل .

ان اهتمام الكاتب موجه بصورة خاصة للسوق الأكاديمية الأمريكية لتوزيع الكتاب . لذا فإن كثيراً من تحليلاته انصبت على الولايات المتحدة بالذات رغم أنه حاول بين الحين والآخر مقارنة الولايات المتحدة الأمريكية بالدول النامية .

كالمادة في كل الكتب المدرسية ، معظم المعلومات الإحصائية الواردة في الكتاب تتوقف عند فترة زمنية معينة ، حتى عام ١٩٧٥ . معظمها أيضاً متداول في كتب أخرى عن علم السكان أكثر استعمالاً وانتشاراً في جامعات الولايات المتحدة وأخص بالذكر كتاب William Peterson بعنوان السكان Population Dynamics و Ralph Thomlinson عن ديناميكية السكان

والوصول الى حالة الثبات السكاني
Stationary Population في بعض
الدول توقع الآثار المترتبة على تضخم قيمة
الهرم السكاني وتحوله باتجاه كبار السن
والشيخوخة من جمود للتنظيم والعلاقات
الاجتماعية واحتمالات انطباعها بالتحفظ ، كذا
تقلص الحراك السكاني والوظيفي بل وبعض
انشطة النظام الاقتصادي نفسه وبصفة خاصة
الانشطة الموجهة لجلبه نمو السكان والاستجابة
لاحتياجاته ذوي الاعمار الصغيرة .

باختصار قدم الكتاب كثيرا من الوصف
والتحليل لتأثير زيادة السكان على العلاقات
الاجتماعية والسياسية والبيئية وخلافه ،
ولكنه لم يتعرض لمناقشة تأثير الوصول الى
معدلات نمو معادلة للصفر على طبيعة
وتركيبة مجتمع المستقبل ، هذا بالرغم من
وجود كثير من الاهتمام العلمي بالوضع .
وليس من الواضح ان كان هذا الإغفال هو
نوعا من التحفظ العلمي أم أنه اختصار لما هو
ممكن ادماجه عمليا في كتاب واحد اغلب الظن
انه الآخر . ومع ذلك كان يجدر بالمؤلف الإشارة
البسيطة الى الاهتمامات الحالية خاصة في نطاق
مناقشة تجربة الولايات المتحدة والدول الغربية
الآخرى .

رغم الانتقادات التي اشرنا اليها فانه مما
لاشك فيه ان كتاب البروفيسور مارتس يعتبر
خطوة هامة في طريق توسيع نطاق الدراسات
السكانية من مضمونها التقليدي المهم بالنواحي
الكمية والاحصائية فقط ، الى مضمون تحليلي
اشمل وخاصة في هذا التخصص الأكاديمي
الذي يزداد فيه التراث العلمي بسرعة ملحوظة .
رغم تحفظه الواضح في جامعاتنا العربية ليس
فقط من الناحية الأكاديمية ولكن ايضا في
البحث والتطبيق في منطقة من العالم يتوجب
ان تجرى بها دراسات ديموجرافية مفصلة .
واخيرا ما احوج المكتبة العربية الى الراء
لحجوتاتها القليلة في هذا التخصص العلمي عن
طريق البحث والنشر والترجمة .

والتنظيم الاجتماعي الا أنه من المعروف ان
لكل من عامل البيئة والتكنولوجيا ضغوطها
على طبيعة العلاقات المذكورة ، وفي الواقع
مازال هناك كثير من الاختلاف بين مدارس علمي
الاجتماع والبيئة حول أولوية أى من العوامل
الداخلية في هذا النظام حيث يتجه كثير من
التحليل الحديث الى ابراز أهمية عامل
التكنولوجيا كعامل مؤثر .

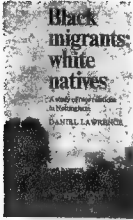
٢ - رغم ان المؤلف ناقش الاستجابة
الاقتصادية لنمو السكان في فصل منفرد فان
تحديد طبيعة العلاقة بين النمو السكاني
والتقدم الاقتصادي لم تتوفر . ومازال هناك
اختلاف بين مؤيدي الحل الديموجرافي لمسألة
التخلف ومجذبي طريقة التنمية الاجتماعية
والاقتصادية مع ظهور رأي ثالث منادر
باعتبارهما سياستين متكاملتين في مرحلة
النمو .

٣ - جدوى استعمال النماذج العلمية
المبنية على تجارب الغرب والدول الصناعية
في تفسير ظاهرة التحول الديموجرافي في الدول
النامية حيث تمر هذه الدول بظروف تاريخية
مختلفة وحيث التركيب الاجتماعي والاقتصادي
والسياسي والديموجرافي في هذه الدول اى
الدول النامية يعطى لها أنماطا معينة .

٤ - الجدل القائم حاليا بين مؤيدي
تحديد النسل والزائعين في إيقاف النسل
تماما وامكانية اتباع كل منهما بل وشرعية
كل منهما وخاصة على ضوء ومحاولة استعمال
الطرق الاجبارية كما حدث في الهند أخيرا .

يتبع المؤلف الرأى القائل بان المعدلات
العالية للزيادة السكانية ، وخاصة اذا اقترنت
بظاهرة الهجرة الداخلية او الخارجية تولد
جوا من التنافس والصراع الداخلى في النظم
الاجتماعية والسياسية ، وان الحركة السكانية
المرتفعة تؤثر في قيم المجتمع .

بالمقارنة نجد أن اهتمام الباحثين حاليا
هو دراسة احتمالات توقف النمو السكاني



مهاجرون سود ومواطنون بيض

عرض وتحليل الأستاذ عبد الله عبد الغنى غانم

بموضوع آخر هو العلاقات بين السلالات . ووجهت أبحاث عديدة نحو دراسة علاقة هؤلاء المهاجرين بالمواطنين البيض وذلك في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وكتاب اليوم هو أحد هذه الكتب التي تعالج العلاقات السلالية في مدينة نوتنجهام إحدى المدن البريطانية . ومن الجدير بالذكر أن الموضوع سبق أن تناوله وفي نفس المدينة باحثون آخرون ومنهم اليزابيث بيرلى ، وايراكينز تلسن وغيرهم .

يغطي موضوع الهجرة في الوقت الحاضر ، وفي ظل مشكلات الانفجار السكاني ، باهتمام متزايد من كثير من علماء الجغرافيا والسكان والاجتماع والاثنروبولوجيا والاقتصاد وغيرهم .

وقد حظى موضوع الهجرة في بريطانيا بقدر أكبر من الاهتمام خاصة مع وجود مشكلة الملونين من مهاجري دول الكومنولث الذين يعيشون كأقليات وسط الاغلبية البيضاء من المواطنين الاصليين باعتبارهم ينتمون الى سلالات مختلفة عن ابناء البلاد . ومن ثم ارتبطت دراسة موضوع الهجرة في بريطانيا

* Daniel Lawrence: Black Migrants : White Nations, Cambridge University Press, 1974,

السياسية اليوم وكيف تؤثر أو تصطدم بالعلاقات السلالية، فإذا اجبنا على هذه الأسئلة يمكن أن نجيب على التساؤل إذا ما كانت مدينة نوتنجهام تحظى بعلاقات سلالية متوافقة أم لا .

ويذكر المؤلف ان فصول الكتاب توضح ان غياب الصراع الظاهر لا يجب أن يختلط بحالة التوافق السلالي المزعومة. وان هذا هو مانجده في نوتنجهام حاليا، حيث أن عدم غياب الصراع الظاهر والتوافق السلالي هو الذي أوجد حالة من التغاؤل في غير موضعه .

ويضيف المؤلف : أن غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلالية لا يرجع الى سيادة التسامح في هذه العلاقات بل انه يرجع الى الطريقة التي يحدد على اساسها المهاجرون وضعهم في البلاد كما ان عدم ظهور الصراع يرجع أيضا الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية (في مجالات الاستخدام أو العمل والاسكان) ، أدت الى تقليل التنافس المباشر بين الأهالي والمهاجرين ومن ثم قللت من فرص الصراع المكشوف ومع ذلك فان هذه الظروف في سبيلها للتفكير وذلك يزيد من احتمالات المنافسة والصراع، ويقول انه بعد دراسة ذلك كله يمكن الحكم على العلاقات السلالية بالمدينة. ثم ينهي الفصل باستعراض تيار الهجرة نفسه الى المدينة مؤكدا انه قد بدأ في الخمسينيات بالنسبة لجزر الهند الغربية وأن الهنود والباكستانيين قد بدأوا الهجرة إليها في الستينات ويوضح تعداد ١٩٦٦ (بالعينه) انه حوالي ٨٥٠٠ نسمة ممن يعيشون بالمدينة هاجروا اليها من دول الكومنولث ، وذلك بين سكانها البالغ عددهم ٣٠٥ آلاف نسمة اقلهم من الجمائيكين ثم الهنود ثم الباكستانيين .

وبالعالم المؤلف في الفصل الثاني بعض الظروف التي انزت في الطريقة التي ينظر بها المهاجر الى وضعه بالمدينة. فبمعالج أسباب قيام المهاجر بالهجرة الى بريطانيا . ثم يعالج نقطة لها تأثيرها في دراسة سلوك المهاجر بالمدينة

ومؤلف كتاب اليوم هو دانييل لورانس محاضر علم الاجتماع بجامعة نوتنجهام . ويتألف الكتاب من ثمانية فصول بما فيها المقدمة والخاتمة .

وفي المقدمة التي اعتبرها المؤلف فصلا مستقلا نجده يذكر ان الباحثين الذين درسوا العلاقات بين السلالات في نوتنجهام قد اختلفوا بما بينهم ، فقد قال البعض بأن مدينة نوتنجهام لا تعكس اى صراع سلالى ، وان العلاقات بين السلالات في هذه المدينة تتسم بالوافق والتسامح . بينما قال البعض الآخر بوجود أزمة في العلاقات السلالية بين اللونين من ناحية والمواطنين البيض من ناحية أخرى ، ومؤلف كتاب اليوم يوافق الرأي الثاني، ويرى أن شهرة مدينة نوتنجهام بالوافق والتجانس بين السلالات قول لا يصمد كثيرا للنقد وان القائلين به أساءوا فهم العلاقات بين السلالات في هذه المدينة، واتهم اعتمدوا في قولهم بالوافق في العلاقات على عدم وجود معارضة منظمة ضد اللونين في المدينة . ويعلق على هذا بان فهم العلاقات السلالية يقتضى أن نتمعق بعيدا عن المظهر الخارجي . وان ما نعتقده وما كنا نامله من الابحاث التي تناولت هذا الموضوع في مدينة نوتنجهام هو أن تقوم هذه الدراسات بأعطاء تقييم للدور الذي تلعبه العوامل الثقافية والبنائية في علاقات السلالات وفي رؤية كل من المواطنين البيض للمهاجرين والعكس .

كذلك هناك حاجة لربط هذه الرؤية بالظروف التي اتت بالمهاجرين الى بريطانيا . لماذا تركوا بلادهم ؟ لماذا اتوا الى بريطانيا ؟ هل في نيتهم العودة الى مواطنهم الاصلية ؟ ولا بد من معرفة الكاتبة التي يحتلها المهاجرون في كل من مجال السكن والتوظيف ، وان تقرر ما هي الاسواق الممكن لهم ان يناقشوا فيها في هذين المجالين سواء حاليا او مستقبلا . هذه النقاط لابد ان تربط بسياسة التطور العام في بريطانيا والسؤال الان هو : ماهي المشكلات

على السلوك الحالي لانه حتى لو لم يكن المهاجر يقوم بالادخار فعلا من أجل العودة فإن هذا لا يعنى أن سلوكه واتجاهاته في مجالات أخرى غير متألزة بمعنى بقصده في العودة . وهنا يوضح أن كلام من الهنود والباكستانيين يرون أن بريطانيا مجتمع غريب عنهم وأنهم ليسوا راغبين في التمثل له . بعكس الجامايكيين . وليس معنى هذا أن الجامايكيين يشعرون بأنهم بريطانيون بل أن ٩٠ ٪ منهم انادوا بأنهم يشعرون بعكس ذلك رغم تمثيلهم للمجتمع الانجليزى . وقد ثبت أن النسبة الغالبة من المهاجرين يرسلون معونات اقتصادية لذريتهم بمواطنهم الأصلية . كما ثبت أن اصطفاب الزوجة الى منطقة المهجر أو الجلب ليس دليلا على نية الاستقرار الدائم بها إذ ثبت أن ٩٣ ٪ من مصطحبي زوجاتهم في بريطانيا من المهاجرين من الباكستانيين و ٨٩ ٪ من الهنود ينوون العودة لبلادهم . وعموما فإن اعلان الرغبة في العودة كان أكثر وضوحا بين غير مصطحبي زوجاتهم وبجانب ذلك فإن نية العودة لدى المهاجرين لمبت دورا هاما في مقابلة المهاجرين للظروف غير المرضية بنوع من التسامح . فحيث أنهم ينظرون للهجرة كشيء مؤقت فإنهم يدخلون هذا في الاعتبار في الحكم على ما يواجهون من معاملة غير مرضية . أما عن النقطة الثالثة أى التوقعات والواقع فقد أجاب ٨٦ ٪ من المبحوثين أنهم لم يجدوا بريطانيا كما كانوا يتوقعون ، فقد أوضحوا صعوبة حصولهم على العمل وكسب المال . والتفرقة العنصرية والاستقبال السيء للعلوتين والمستوى المنخفض معيشيا ، والأسكان الرديء وغيره .

وتناول المؤلف في الفصل الثالث مشكلة التعصب بين المواطنين الأصليين في نوتنجهام تجاه اللوئين . فيتناول أهالى نوتنجهام انفسهم بالدراسة وبخاصة أولئك الذين يعيشون بالقرب من اللوئين في المناطق الداخلية من المدينة ويوضح في الجزء الأول من هذا الفصل عدم القبول العام لدى الأهالى بالنسبة

وهي نظرة المهاجر الى هجرته وهل هلى هجرة دائمة ام مؤقتة وقد ثبت أن معظم من تناولهم البحث لا ينوون الاستقرار الدائم في بريطانيا . والنقطة الثالثة التى يمالجها في هذا الفصل هي مدى اتفاق ما وجدوه في بريطانيا بالمقارنة مع ماتوقعوه قبل هجرتهم اليها .

وباستعراض اسباب الهجرة التى ساقها المؤلف بالنسبة للجماعات الثلاث (جمايكيون ، هنود ، وباكستانيون) نجد أن اجراء عملية حسابية بسيطة على الجداول الموضحة لهذه النقطة توضح أن اسباب الهجرة تأخذ نفس الترتيب للجماعات الثلاثة . وهذه الاسباب هي : السبب الاقتصادى يليه الرغبة فى السفر واكتساب الخبرة ثم الرغبة فى التعلم أو مواصلة التعليم . ثم مجموعة رابعة وضما المؤلف تحت عنوان (اسباب أخرى) .

ونجد أن اسباب اختيار بريطانيا كمقنطة مهجر هي الاسباب التالية (لأنها المكان الوحيد المتاح - مجرد الرغبة فى البقاء الى بريطانيا - وجود الأهل والأصدقاء بها . - أخرى) . واخيرا يوضح الباحث أن الهجرة عموما الى نوتنجهام هي هجرة اختيارية .

كما اوضحت المناقشة التفصيلية حول النظرة للهجرة وهل هي دائمة ام مؤقتة .

قال المؤلف ان هناك عددا كبيرا من الدراسات كلها توضح أن عددا كبيرا من المهاجرين اللوئين الى بريطانيا لا ينوون الاستقرار في بريطانيا وهذه الحقيقة اوضحها كل من فيليبوت ، وشيلاباترسون وديفيدسون . وغيرهم . وأن هذه الحقيقة قد اوضح بروكس بشأنها أمرا هاما عندما قال : أن كثيرا من الذين يوضحون أنهم سيعودون لمواطنهم الأصلية لا يفعلون ذلك بالفعل ، ويعلق المؤلف بأنه من الأفضل ألا نركز على هذه النقطة أى قصد الاستقرار أو العودة بالفعل وإنما يجب أن نركز على اثر هذا القرار

وهو في هذا الفصل يحاول توضيح العلاقة بين الاسكان والعلاقات السلالية في نوتنجهام .
فبالرغم من المشكلة السكانية الواضحة التي تعاني منها نوتنجهام ، فإنه لم يظهر صراع واضح في مجال الاسكان . ولكن هذا مرجعه الى الظروف غير المتعمدة والاتجاهات العفوية ، وليس مرجعه وجود التسامح لدى السكان الاصليين في نوتنجهام في مجال الاسكان .

ويوضح المؤلف ان قيام أزمة الاسكان وتقص المسكن يخلق خصومة وعداء بين السود والبيض ، وهو امر يعتمد على عدة عوامل من أهمها مدى التبرم الذي يشعر به أولئك الذين يعيشون في ظروف اسكانية سيئة وهم الآن كما يبدو غير متبرمين بهذه الظروف وان كانوا ليسوا جميعا بالطبع مشتركين في عدم التبرم بها .

وفي هذا الفصل يقوم الباحث بوصف المساكن الخاصة بالمولدين موضحا اختلافها عن مساكن أبناء نوتنجهام من حيث ما تتمتع به من تجهيزات كالماء الساخن وغيرها . ويعلق بأنه حتى الآن فإن الملايين من البريطانيين عموما يعانون من أزمة اسكان حادة اذ لا زال حوالي ٢ مليون يعيشون بمساكن تنقصها الضرورات مثل ، الحمامات ، كما لا زال البعض يعيش بدون مساكن بالرة - كما لا زال مليوناً نسمة يعيشون في مناطق متخلفة .
وجوهر مشكلة الاسكان في نوتنجهام ليس انعدام المساكن ، بل هو نوع هذه المساكن . فالأف الاسر لا زالت تعيش دون المستوى اللائق . ولكن حيث لا يوجد تعريف متفق عليه للاسكان غير اللائق فإن المرء لا يستطيع تحديد من يعانون منه . ولكن ، على العموم ، فإن نوتنجهام تعاني فعلاً من أزمة أسكان بالمعنى النوعي ، وأغلب المهاجرين المولدين بها يعيشون في هذه الأزمة .

للمولدين . ويتعرض للدراسة التي قام بها ابراهام على مينة من ٢٥٠٠ حالة في خمس مدن من بينها مدينة نوتنجهام نفسها والتي تناول فيها ابراهام موضوع التعصب . وينتقد المؤلف الاساس الذي وضعه ابراهام في دراسته هذا لتعريف التعصب حيث قال ابراهام ان التعصب كلمة تستخدم فقط لتدل على الاتجاهات العدوانية التي ترجع الى عمليات تقع داخل حامل الاتجاهات العدوانية نفسه .
ويلحق المؤلف بأن هذا التعريف لا يميز بين الاتجاهات الناجمة عن مصادر واسباب مختلفة وهنا يرى المؤلف ان القياس الذي وضعه نيكولاس ديكنز وصنف على اساسه موقف البحوثيين (مندا درس التعصب للجنس) الى أربعة اقسام - شديدو التعصب - متعصبون - متوسطو التعصب - غير متعصبين يرى ان هذا القياس افضل من تصنيف ابراهام الذي كان تصنيفه للأفراد هو (متعصبون - ميالون للتعصب - متسامحون - واخيراً ميالون للتسامح) حيث يرى المؤلف ان عدم وجود العداء لا يعني بالضرورة وجود التسامح مثلاً . ويضيف المؤلف انه ليس هناك داع للقول بأن مقولة التعصب هي المحدد الرئيسي أو الوحيد للعلاقات السلالية ، فهناك القوانين التي تنظم الهجرة والتي تحرم التفرقة العنصرية وغيرها . ويقرر المؤلف هنا أن أغلب الاهالي في نوتنجهام من البيض يعتبرون المولدين قوماً مختلفين عنهم وأنهم أقل منهم ، ولا يجب ان يتساووا معهم .

وبعالم **الفصل الرابع** الاسكان والعلاقات السلالية ، فيشير الى ان أزمة الاسكان في نوتنجهام ترجع الى القرن الثامن عشر ، قد بدأ الانفجار السكاني منذ ذلك التاريخ مع التطور الصناعي السريع ويتابع المؤلف التطور في تعداد السكان بالمدينة منذ ذلك التاريخ حتى الآن .

ويوضح المؤلف أن علاقات السلالات تتأثر بوضع الإسكان وأن تحليله لهذه النقطة قد يناه على التحليل الذي قدمه rex & moor للذان أوضحا أن العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الصناعية تتحدد بنمط الصراع في المصالح رغم عدم اعتبارهما أن الصراع على الإسكان هو انعكاس لصراع الطبقات في الصناعة. فقد لاحظا وجود اختلاف كبير في تسهيلات الدخول في مجالات الإسكان بالنسبة للمشتريين في نفس العلاقة في مجال ملكية أدوات الإنتاج (الطبقة) وهما هنا يتابعان ماكس فيبر عندما يقول (أن الصراع الطبقي يعمل للظهور عندما تسمح حالة السوق السائدة بمدخل مختلفة للملك وهنا يظهر الصراع الطبقي ليس فقط بالنسبة لوسائل الإنتاج الصناعي ولكن بالنسبة للملكية الماثلية أيضا) ، والقول بأن أكثر من ميدان من مبادئ السوق يعمل في عملية توزيع الإسكان في بريطانيا لا يقتضي أكثر من تغير طفيف في نظرية فيبر بالنسبة للنظام البيروقراطي لتوزيع المساكن لكي نصل إلى فكرة الإسكان الطبقي ، وهي فكرة هامة جدا في تحليل البناء والعملية الحضرية ، وأن العملية الأساسية التي تدمم التفاضل الاجتماعي الحضري - كما يقول ركنس ومور هي التنافس من أجل البيوت النادرة في الضواحي وعلى أساس من مومية هذه الرغبة في الحصول على هذه البيوت وعلى أساس من ندرتها والاستقلال النسبي للصراع الطبقي من أجل المسكن من الصراع الطبقي الصناعي فإن ركنس ومور قالا أنه من المفيد أن تميز الطبقات السكنية التالية وقدمنا سبع طبقات من السكان طبقا لنوع المسكن ونوع علاقتهم به مثلا (ملاك في مناطق مرغوبة ملاك ملكية جزئية بمناطق مرغوبة - مستأجرون لمساكن المجالس المحلية - ... الخ) . وكل مجموعة من هذه المجموعات السبع تمثل طبقة مختلفة عن غيرها . وتختلف حالة السكان المهاجرين عن السكان الأصليين في مجال الإسكان فهو

يواجه التفرقة العنصرية عند محاولته السكنى أو الحصول على مسكن في الضواحي. كما أن المناطق الداخلية قد شغلت شوارعها بسكان من مناطق البيض ثابتين نسبيا وهنا فإن المهاجرين لديهم خيار ضئيل في أن يصبحوا أما مؤجرين من ملاك أفراد أو من مؤجرين آخرين . ومركز المهاجرين السيء في سوق الإسكان لا يجلب عليه عطف السكان الأصليين من البيض بل أنه بالإضافة إلى العداء الناجم عن العنصرية الثقافية والشخصية فإنه ينظر إلى المهاجرين باعتباره شخصا يعمل على اكتظاظ السكن ، ويقوم بتخريب البيوت التي يسكنها ، ومركزه هذا في سوق الإسكان يحدد مركزه في نظر الأهالي البيض. ويوضح المؤلف رفضه للقول بأن سكان إنجلترا يتنافسون من أجل السكنى في الضواحي . كما يوضح أن البحث الميداني قد أوضح أنه لا يوجد تنافس بين المهاجرين والأهالي على الإسكان إلا أنه أوضح قوله لتصنيف الطبقي في مجال الإسكان الذي ساقه كل من ركنس ومور ولكنه أضاف إليه طبقتين أخريين لتصبح الطبقات السكنية عنده سبع طبقات وقد تابع المؤلف هذه الطبقات وتوزيعها مقارنة موضحا فيها بين المهاجرين والسكان الأصليين في نوتنجهام . كما استعرض الصعوبات التي يواجهها المهاجرون في مجالات الإسكان ، موضحا أنهم يواجهون صعوبة إمكانية الحصول على مسكن في المناطق الراقية ، ولا يمكنهم الشراء فيها . وأنهم يدفعون سعر فائدة عالية - أو أن الثمن الذي يطلب منهم يبلغ فيه عادة بسبب اللون وضيق السوق أمامهم . أو يطلب منهم تأمين عال جدا . . الخ . كما أنهم لا يحصلون على أية مساكن من المساكن المملوكة للدولة . وقد أوضح أن ٤١٪ من العائلات المهاجرة التي تركت مسكنها في مناطق مختلفة قد تحركوا إلى مناطق مختلفة أيضا . ويقول أن سبب ذلك هو مواطنهم الأصلية ، ومن ثم فإن التكلفة

ويقرر المؤلف أن كثيرا من الأعمال لا زالت تميز بين الملونين وبين غيرهم من القوى العاملة وأن ٦٧٪ من المبحوثين البيض قالوا بوجود إعطاء البيض أولوية في مجال العمل . وأن أهم أسباب عدم رضى الملونين عن أعمالهم هو التفرقة التي يلاقونها فيه بل ذلك إحساسهم بإمكانية أداء أفضل مما يقومون به بينما أن المهاجرين ليس لديهم نفس الفرصة للحصول على العمل بنفس المؤهلات التي لدى الانجليزى الأبيض وذلك بسبب اللون . بينما قالت نسبة ٤٢٪ من العينة للبيض بوجود التفرقة بين السلالات في مجالات العمل والتوظيف .

ويناقش المؤلف في الفصل السادس السياسة والعلاقات العنصرية - فيناقش السلوك السياسي والبدائل السياسية المتاحة أمام الملونين ، موضحا أن كثيرا من أولئك الذين صوتوا منهم في الانتخاب العام لم يفعلوا ذلك بحساسية تذكر وإنهم انما فعلوا ذلك بسبب أنه لا يوجد أى بديل أمامهم . ذلك أن الملونين لا يعتقدون أن أى من الحزبين الرئيسيين (محافظين وعمال) مختلف عن الآخر ولا يختلف الأمر بالنسبة لهم أن يفوز أى منهما ، ذلك أنهم اذا كانوا قد صوتوا لصالح المحافظين في الانتخابات الأخيرة فقد فشل المحافظون في الحصول على تأييد كاف لدخول السوق الأوروبية والحقيقة أن الخطوات التي اتخذتها الحكومة أخيرا فى مجالات الدخول والأسعار لم ترض الناخبين عموما . كما أن القرارات التي اتخذها كلا الحزبين بصدد الهجرة والمهاجرين لم تقابل بالرضى من كل من المهاجرين أنفسهم ، وكذا من المواطنين البيض ، وهذه النظرة تنطبق على قوانين الهجرة التي صدرت في أعوام ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١ . إذ ينظر الملونون الى هذه القوانين على أنها تؤكد

الإضافية في مسكن أفضل لا تبدو استثمارا معقولا لاموالهم من وجهة نظرهم وعموما ورغم هذه الظروف كلها فإن الإسكان لا يمثل مثارا لصراع بين السلالات . أو على الأقل لم يؤد الى صراع ظاهر بينها . فالنسبة المتبرمة من ساكنيها من الملونين قليلة . ولم يثبت أن هناك تنافسا على المساكن النادرة الغالية . كما أن بعض البيض في صراع على المساكن في المناطق التي يسكنها الملونون انفسهم وفيما بينهم .

ويناقش المؤلف في الفصل الخامس العلاقات السلالية والتوظيف - فيقول أن أغلب مهاجري الكومنولث يتيمون في مناطق ذات طلب على عنصر العمل ويقل إقامة الملونين في المناطق التي يكون فيها الطلب على عنصر العمل خفيفا أو متوسطا ، وهم عموما يحلون في مجال العمل محل البيض في المناطق التي لم تنجح في جذب عدد كاف من البيض . ويستعرض المؤلف التاريخ الصناعي والخدني لمدينة نوتنجهام موضحا كيف أصبحت تشتري الآن بالصناعات الرأسمالية في مجال التصدير والمجال المحلي ، وأن النسبة الغالبة من المهاجرين قد جاءت أصلا للبحث عن عمل ، وأن البحث الميداني قد أوضح أن هناك ٣٪ فقط منهم عاطلون حاليا - ثم قام الباحث بمتابعة توزيع الجبهات السلالية على مختلف الصناعات ويوضح أن ثمة زيادة في عددالعمال غير المهرة بن المهاجرين عنها بين البيض . وأنهم ، أى المهاجرين ، يعملون بأعمال غير مرضية وغير جذابة عموما للبيض . وعموما فإن فجوة التوظيف بين الملونين وبين البيض لجوة واضحة . ولم تشكل هجرة الملونين الى المدينة أى خطر على الأهالي البيض من الناحية الاقتصادية ، فالعمل متوفر للجميع ولا يشغل الملونون من الوظائف ، أو الأعمال عموما ، الا مالا يقبله البيض . ومن ثم لم يشكل مجال العمل مثارا للنزاع السلالي .

الكثير من أجل تحسين العلاقات السلالية بالفعل . والسبب الثالث هو ما ذهب إليه كيتز نلسن من أن هذه اللجنة قد لعبت دورا دقيقا في علاقات بناء المدينة السلالية ، ويرغم المؤلف أن هؤلاء قد غالوا في أهمية هذه اللجنة ويقول أن ما قدمته لم يؤد إلا قليلا من المزج في العلاقات السلالية في هذه المدينة وإن الاهتمام الكبير الذي أحيطت به أكبر بكثير من دورها الحقيقي . وليس معنى هذا أنها لم تقم بعمل شيء مفيد ، إلا أن الغالبية الساحقة من المؤلفين ، وكذا النمط العام للعلاقات السلالية لم يتأثر بمجهودات هذه اللجنة إلا في القليل النادر . ويستعرض المؤلف في هذا الفصل دراسة كيتز نلسن لأعمال هذه اللجنة وتأريخها وتطورها . كما يستعرض موقف المهاجرين منها قائلا أنها لا تحظى بحماس الكثيرين منهم ، خاصة الباكستانيين والسود .

وأخيرا يستعرض المؤلف في الفصل الثامن وهو الخاتمة ما انتهى إليه من نتائج

ومحددا أن المهاجرين في مجموعهم يشعرون بانهم غرباء وإن أغلبهم لم يأت للاستقرار الدائم بل للعمل ثم العودة لبلده ، ومستعرضا ملخصا سريعا لنتائج الفصول السابقة ، وموقف المهاجرين في مجالات الإسكان والتوظيف وغيره مما سبق عرضه تفصيليا .

ومع أن الموضوع الذي يتناوله المؤلف هو الهجرة إلا أنه يركز على المهاجرين أنفسهم بقدر ما ركز على علاقاتهم بالمواطنين الاصليين، وقد أعطى المؤلف صورة كاملة من هذه العلاقة بالفعل إلا أن الكتاب لم يظهر العلاقات بين مجموعات المهاجرين من دول الهند وباكستان وجمايكا ، إذ لم يركز المؤلف على العلاقة بين كل جماعة من هذه الجماعات وغيرها من الجماعات ، ولا شك أن هذه نقطة كانت جديدة بالبحث خاصة أننا سبق أن

التمايز بين السلالات وذلك بالنسبة لقوانين ١٩٦٨ ، ١٩٧١ وأنها تحقر من شأنهم . بينما أدت القوانين التي قدمتها حكومة العمال في ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ إلى تهيج هذا الشعور (وقد لاحظ المؤلف أن أغلب الباحثين لا يعرفون أن قوانين وتشريعات منع التفرقة العنصرية قد ظلت باقية) وعموما فقد نظر المؤلفون إلى قوانين ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، وما بها من ضعف على أنها تعكس تذبذب حزب العمال . كما نظر إليها الكثيرون من البيض على أنها تعمل على وضع الملونين في مركز ممتاز . ويقرر المؤلف في النهاية أن مختلف المحاولات التي بذلت في سبيل تحسين العلاقات السلالية لم تنجح بسبب عدم وجود القوة التي تساند القوانين التي تصدر في هذا الشأن وإن الباحثين من الاهالي أي المواطن البيض - أو من المهاجرين الملونين لا يشعرون بأن النظام الحزبي الحالي يقدم من الوسائل والطرق وما يحقق مصالحهم . ويشير المهاجرون هنا إلى أنه لا يوجد في المجالس المحلية أي هندي أو باكستاني أو جمايكي .

وبالمج المؤلف في الفصل السابع (المنظمات وعلاقات السلالات) موضعا أنه يوجد الكثير من المنظمات المهتمة بعلاقات السلالات في مدينة نوتنجهام سواء من الأشخاص أو الهيئات الرسمية . فتمتد ١٤ منظمة رسمية تهتم بالعلاقات السلالية في نوتنجهام تشرف عليها جهات عدة مثل الصليب الأحمر البريطاني والمكتب الاسقفي للشئون الاخلاقية وغيرهما ، وقد ركز المؤلف في هذا الفصل فقط على اللجنة الوطنية الاستشارية للكمونولث وما تربط به من علاقات بغيرها من المنظمات، مبررا ذلك بأنها اللجنة الوحيدة الرسمية في نوتنجهام التي تتلقى المساعدات المالية ، وأنها المسئولة مسئولية مباشرة عن تحسين العلاقات السلالية . والسبب الثاني هو ماذهب إليه الكثيرون من أن هذه اللجنة قد قدمت

وغير مقصودة في مجالات العمل والاسكان .
ولا شك ان العلاقات الداخلية بين افراد
كل جماعة كانت ستشكل اساسا تفسيريا
هاما لهذا كله . . . او على الأقل أحد الاسس
التفسيرية له .

ولعل عدم متابعة العلاقات الداخلية
بالتحليل ترجع الى اعتماد المؤلف على المنهج
السوسيولوجي كلية ، المتمثل في الاعتماد
على الاستمارة واستخدام المقابلة على عينة
محددة (٣٠٠ حالة) من مجموع سكان المدينة
من البيض ومهاجري الكومنولث الملونين مع
استخدام الاسئلة المغلقة .

وعلى اية حاله فان الكتاب يتعرض لموضوع
امتدت اليه يد البحث مرات عديدة في المجتمع
البريطاني وهو العلاقات السلالية بين الاهالي
الملونين من المهاجرين . وقد حصر نفسه تماما
في هذه النقطة مما جعل من الكتاب صورة
واضحة عن هذه العلاقات دون أن يمس بصق
الصورة التي يعيش عليها المهاجرون انفسهم
او المواطنون البيض انفسهم .

اوضحنا ان العلاقات السلالية هي النقطة
الاساسية في هذا الكتاب . كما ان المؤلف لم
يتناول بالدراسة العلاقات الداخلية بين
افراد كل جماعة من هذه الجماعات المهاجرة
وغم انه ذكر في المقدمة ان فهم العلاقات
تلعبه العوامل الثقافية والبنائية في هذه
العلاقات في الرؤية المتبادلة بين المهاجرين
الملونين من جانب الاهالي من جانب آخر .
ولا شك ان عدم اهتمام المؤلف بالعلاقات
الداخلية بين مهاجري كل جماعة من الجماعات
المهاجرة قد عمل على غياب عنصر بالغ الاهمية
في تفسير عدد كبير من النقاط والنتائج التي
توصل اليها الباحث ، والتي لم يقدم تفسيراً
كافياً لها ، مثل قوله بان الملونين لا يتبرمون
بظروف السكن السيئة التي يعيشونها .
وقوله بان الملونين مموما غير متحمسين
لتنظيمات السياسية ولا للمنظمات الخاصة
بالعلاقات السلالية ، وقوله بان الجماعيين قد
تمثلوا نسبيا للمجتمع البريطاني بينما لم
يتمثل الباكستانيون والهنود . وقوله بان
غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلالية
يرجع الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

Abelson, Raziell, "Persons. A Study in Philosophical Psychology," The Macmillan Press Ltd., 1977.

Greeley, Andrew M., "Ecstasy. A Way of Knowing," Prentice-Hall, Inc. 1974.

Jacob, François, "The Logic of Living Systems. A History of Heredity,"
Translated by Betty E. Spillmann, Allen Lane, 1970.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Whitby, M. C., Robins, D.L.J., Tansey, A.W., and Willis, K.G., " Rural Resource Development," Methuen & Co Ltd., 1974.



العدد التالي من المجلة

العدد الثالث - المجلد التاسع

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن

العلم والتكنولوجيا

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	٣	سوريا	٣	ليرة
السعودية	٥	ريال	٢٥٠	مصر	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠	فلس	٢٥٠	السودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠	فلس	٣٥	ليبيا	٣٥	درهما
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	٤٠	مستط	٤٠	باب
العراق	٣٠	فلس	٥	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	٥٠	تونس	٥٠	دينار
الأردن	٢٥	فلس	٥	المغرب	٥	درهم

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

العدد
٢٥٠
فلساً

